أُمبرتو إيكو

اسم الوردة



نقله من الإيطالية
أحمد الصّمعي

دار أويا

أُمبرتو إيكو

اسم الوردة

نقله من الإيطالية
أحمد الصّمعي

دار أويا

العنوان الأصلي للكتاب

IL NOME DELLA ROSA

مؤلّفه

Umberto ECO

ناشـره

Gruppo Editoriale Fabbri - Bompiani
Milano 1980

ISBN : 88-452-07005-6

راجع هذا الكتاب السيد عبد الرزاق الحليوي أستاذ اللغة والآداب العربية بتونس

تشكّرات

طوال هذه الرحلة عبر متاهات إيكو وجدت عوناً وسنداً من أصدقائي وزملائي في كلية الآداب بمنوبة وأشكرهم كثيراً على ذلك.

كما أشكر الدكتور إيجيديو فورميكوني والأب جيرولامو فغاجيني اللذين عنيا بالفقرات اللاتينية ومهّدا لترجمتها.

وأرفع شكراً خاصاً إلى الصديق ورفيق الرحلة محمد بن مراد، إلى أخي رشيد الذي أسدى لي نصائح قيّمة وإلى زوجتي فرانكا فورميكوني التي ناقشت معي عدة فقرات غامضة.

أحمد الصّمعي

ـ أستاذ اللغة والأدب الإيطالي الحديث والمعاصر بكلية الآداب منوبة (جامعة تونس).

ترجم من الإيطالية إلى العربية:

* **إيطلو كالفينو: خرافات إيطالية**، منشورات فانزي، تونس 1986.
* **جوزيبي بوتافيري: خيّاط الشارع الطويل**، 1997 (يصدر قريباً).
* **أمبرتو إيكو: جزيرة اليوم المنقضي** (تصدر قريباً عن دار أويا).

ترجم من الفرنسية إلى الإيطالية:

* **هادي سليم: الجمّ أوتيسدروس القديمة**، دار أليف للنشر، تونس 1996.
* **غدامس: باب الصحراء**، 1997.

ترجم من الإيطالية إلى الفرنسيّة:

* **سلفاتوري بونو: القراصنة في البحر الأبيض المتوسط**

ـ نشر **بيبليوغرافيا إيطالية حول تونس** (بالإيطالية) منشورات فانزي 1996.

كلمة المترجم

عزيزي القارىء،

بين يديك كتاب هزّ الأوساط الأدبية، خلال الثمانينات، داخل إيطاليا وخارجها ولا يزال النقاد والدارسون يجتهدون في تأويله وفي دراسة خصوصياته الأسلوبية والمعنوية[1]. وآخرهم أمْبَرتو إيكو نفسه الذي تناول بالدرس في كتابه «حدود التأويل» (ميلانو 1990) التحاليل والتأويلات المتأتية من مختلف القراءات التي حظي بها كتابه[2].

حال ظهور رواية "إسم الوردة" سنة 1980 بميلانو، عملت الترجمة بنقله إلى جّل اللغات الأوروبية والأمريكية حيث كان إيكو معروفا كواحد من أبرز دارسي السيميولوجيا، وجعلت منه في وقت وجيز معلما أدبيا وفنيّا معروفا لدى الجميع، كما زاد في نجاح الكتاب وانتشاره ظهور الشريط السينمائي المستوحى من قصة "أدسو دا مالك"، بطل الرواية، والذي لاقى بعض النجاح وإن كان أقل بكثير من نجاح الكتاب نفسه.

وتأتي هذه الترجمة لتمّد القارىء العربي بأحد النصوص الهامة في هذا النصف الثاني من القرن، تتحتّم عليه معرفته، خاصة وأن الرواية، وإن كانت تقّص أحداثا لا تهّم في الظاهر العالم العربي الإسلامي، تعترف على لسان بطلها غوليالمو دا باسكارفيل بعلم العرب وحكمتهم وبمساهمتهم في نشر العلوم والمعارف في

---

(1) جمّعت البعض من هذه الدراسات في كتاب بعنوان "دراسات حول "إسم الوردة"
Saggi su «il nome della rosa» a cura di Renato. Giovannoli, Bompiani Ed. Milano, 1985, pp. 446.

(2) يحتوي هذا الكتاب على الدراسات التي قام بها إيكو في السنوات الخمس الأخيرة والمتعلقة أساسا بقضية التأويل والعلاقة المثلّثة : النص/ القارىء/ المؤلف
Umberto Eco, I limit dell'interpretazione, Bompiani Ed. Milano, 1990, pp. 369.

أوروبا في القرون الوسطى، تلك المعارف التي هيّأت أسس الإستفاقة الأوروبية اللاحقة.

هذا الكتاب إذن يهمّنا. يهمّنا كقراء متطلعين إلى ما يجّد على الساحة الأدبية والفنية من أعمال تستحق أن تترجم وأن يقع التعريف بها، ويهمنا كعرب ومسلمين لأنه بانتشاره عبر أنحاء الدنيا ينشر صورة للحضارة الإسلامية الماضية تتّسم بتقدّم العلوم والمعارف وبروح التسامح والتفتح.

"إسم الوردة" هو بحّق "عمل مفتوح"، وبإمكان كلّ قارىء مهما كان انتسابه أن يجد فيه صورة من نفسه وصورة من عالمه. سيحّس فعلا أثناء القراءة أنه المعني بالأمر «de te fabula narratur» كما يقول أُمْبَرتو إيكو. أي أن الحكاية (أو الرواية) لا تقّص في حقيقة الأمر إلاّ ما يجري من حولنا، بينما الوقائع التاريخية والجرائم والمتاهة المذكورة في الرواية لا تعدو أن تكون رموزا ينبغي فكّ أسرارها وفهم دلالاتها. ولعّل هذا هو أكبر سرّ في نجاح هذه الرواية أينما ترجمت ونشرت.

من المنظّر إلى الراوي

كثيرون تساءلوا عن سرّ نجاح هذه الرواية، وكثيرون عزوا هذا النجاح إلى الحملة الإشهارية على الصحف وشاشة التلفزيون التي بامكانها في وقتنا الحاضر، بما تملكه من وسائل، أن تجعل من أي إنتاج أدبي وفني إنتاجاً ناجحاً ومقبولاً لدى الجمهور. أظن أننا نغلط في حق إيكو لو أقررنا بهذا ويبدو لي أن السرّ في نجاح الكتاب آخر وتتشارك فيه حسب رأيي عناصر متعدّدة من أهمّها:

المفاجأة، القيمة الأدبية وأخيراً تعدّد الأغراض والمعاني.

كما سبق أن أشرت، أُمبرتو إيكو من أبرز المفكرين في مسائل الفن وعلاقته بالمستهلك مع اهتمام خاص بالنص وتفاعلاته مع القارىء. ومن الأعمال التي جعلته معروفاً لا في أوروبا فحسب بل وأكثر في الولايات المتّحدة الأمريكية "العمل المفتوح" (Opera aperta, 1962)، "دراسة في السميوطيقا العامة" (Trattato, di semiotica generale, 1975) و"القارىء في النص" (Lector in fabula 1979). فقد اهتّم إيكو دائماً بأعمال الآخرين وبتجاوبها مع القارىء، وككّل منظّر معتبر كان يذهب في تحاليله إلى دواخل العمل الأدبي والفني بصفة

عامة ليكشف تركيبته وتقنياته وميكانيكية حواره مع القارىء. كان دائماً قارئاً، أي كان ينظر إلى النصوص من ناحية القارىء، كان ينظر إليها من الخارج ويفهمها ويعيد بناءها في ذهنه كما فهم غوليالمو سرّ متاهة الدير من الخارج وأعاد صنعها في ذهنه معيداً ذهنياً العمليات التي قام بها مؤسسوها. لم تسبق "إسم الوردة" محاولات قصصية أو روائية فكأنها نشأت (بل وهذا مؤكد) كتواصل لحوار نظري وفلسفي كان يدور في البداية داخل قاعة أكاديمية وتواصل بنفس العمق النظري داخل دير بندكتي من القرن الرابع عشر. لذا من جملة التعريفات التي حاول النقاد بواسطتها تحديد النوع الأدبي الذي ينتمي إليه كتاب "إسم الوردة" نجد أيضاً من قال أنها "رواية فلسفية".

على كلّ فوجئت الأوساط الأدبية والفلسفية في إيطاليا وخارجها عندما ظهرت الرواية في أوائل الثمانينات وهرعت ليس فقط لترى كيف واجه إيكو صعوبات الخلق وشراك الكتابة التي كان ماهراً في تحليلها وكشف النقاب عنها بل ولتقرأ من خلال حجاب الصورة، الرسالة أو الرسائل التي يواصل بواسطتها إيكو حواره مع القارىء. ولكن فعل المفاجأة لم يقتصر على أولئك الدارسين المتضلعين الذين عرفوا إيكوا قبل "إسم الوردة" وإلاّ لكان النجاح نسبيا وذا طبيعة انتقائية، بينما النص لاقى نجاحاً وتجاوباً عاديين مع قرّاء عاديين أي مع "الجمهور الكبير".

ذلك لأن الكتاب من الناحية الفنية (و التقنية إن أمكن القول) يعتبر نموذجاً وآية في دقّة الحبك وغزارة الأفكار وتنوعها ممّا جعله يتجاوب مع قرّاء من أوساط مختلفة : من القارىء ذي المعرفة الموسوعية إلى المغرم بالرواية التاريخية أو البوليسية أو الإثنين معاً. ولا يُستغرب ان صنع إيكو إنتاجاً يأخذ فيه بعين الإعتبار مصالح مختلفة : إرضاء السوق، وقد كان الكتاب عملية تجارية ناجحة. إرضاء قرّاء كثيرين ومتنوعين وقد توصل إلى ذلك عن طريق مستويات قرائية مختلفة وأخيراً مواصلة الحوار النظري عن طريق المخبر التأويلي الذي اخترعه ليجرب على شخصه النظريات التي سبق أن ذكرها في كتاب "العمل المفتوح". لا غرابة في هذا لأن أُمبرتو إيكو إضافة إلى كونه مفكراً هو أيضاً ملاحظ دقيق وثاقب لكل مظاهر الحياة العصرية خاصة في مجال الإتصال، وبهذه الصفة نجده قريباً جداً من وسائل الإعلام المعروفة كالصحف والتلفزيون ومطلعاً إذن على ديناميكية هذا

العالم وحساسيته ورغباته فكان كتابه أيضاً مندمجاً فيه ومتماشياً معه. فكأن إيكو يعطي من خلال "إسم الوردة" وصفة أو طريقة لصنع كتاب ناجح: (best-seller).

إذن يحتوي الكتاب على أغراض مختلفة وعلى مستويات من المعاني كثيرة. ومن المؤكد أن إيكو أراده ليكون مواصلة لحوار نظري أصبح من الصعب التمادي فيه بنفس الوضوح والشفافية السابقين[3]. لذا عندما يعجز المنظّر عن مواصلة التعبير عن طريق النص النظري يمرّ إلى الرواية أي إلى الإبداع. يقول إيكو في حواره مع ماريو فوسكو "بعد أن عمّقت النظر في الكتابة الروائية بالبواعث على السرد وبالشخصيات الروائية، أصبحت أرغب في القصّ"[4]

متاهة المعاني

سئل أومبارتو إيكو كثيراً عن معنى العنوان[5] ومن جوابه اتضحت أكثر مقاصده كمؤلف يريد أن يكون عمله "مفتوحاً" لقراءات مختلفة وربما لا متناهية كما تبيّن إحجامه عن تقييد القارىء بعنوان ربما يوجه اهتمامه نحو مظهر من الرواية دون آخر. لذا عدل عن عناوين كان قد فكّر فيها مثل "دير الجرائم" أو "أدسو دا مالك" أي باسم بطل الرواية. لأن العنوان "مفتاح تأويلي"، وعنوان واضح مثل "دير الجرائم" سيوجّه دون شك القارىء نحو الناحية البوليسية بينما الرواية ليست فقط بوليسية، وإيكو لا يريد بتاتاً خداع القارىء.

لذا جاءت فكرة العنوان الحالي المقتبس ربما من البيت الذي يذكره إيكو في الختام «Stat rosa pristina nomine, nomina nuda tenemus» وهو بيت استمدّه إيكو من كتاب البندكتي برنارد دي مورلي «De contemptu mundi» (القرن الثاني عشر)[6] ويريد أن يقول أن كل الأشياء تندثر ولا تبقى منها إلاّ الأسماء.

---

(3) متاهات أومبارتو إيكو، حوار أجراه ماريو فوسكو مع إيكو، ص 80

(4) نفس المرجع، ص 81

(5) أمبرتو إيكو، ملحق ل "إسم الوردة" «Postilla al Nome della rosa, in «Alfabeta 49, juin 1983. موجود أيضا في الترجمة الفرنسية لكتاب "إسم الوردة" م ص 509 إلى 544.

(6) نفس المرجع، ص 509.

إلاّ أن قصد إيكو من العنوان شيئاً آخر. بما أن «rosa» في التقاليد اللاتينية وإذن في الإيطالية وفي الفرنسية . . . "صورة رمزية محملة بالمعاني إلى درجة أنها أصبحت لا تملك معنى محدّداً"[7] ليس هناك أفضل منها للدلالة على كتاب هو عبارة عن متاهة من المعاني.

"إسم الوردة" يشبه في تركيبته العديد من الدوائر المتراكزة: من أصغر دائرة أي الدير الذي يمثل كوناً مصغّراً إلى دوائر تتّسع شيئاً فشيئاً لتصبح لا نهائية ولا زمنية. لذا نجد أن أحداث الدير تعيد ما كان يجري في العالم المسيحي في ذلك القرن، كما تعيد تحت قناع الوقائع التاريخية ظروف هذا القرن ومآسيه. والإشارات واضحة. سيتفطّن إليها القارىء أو سيجد أوجه شبه أخرى لم يحسب لها المؤلف حساباً. وكل هذا داخل في لعبة التأويل التي هيأ إيكو لها متاهته.

وفعلاً لدينا متاهة حقيقية (مكتبة الدير) ولكن الحوار المتبادل بين الكتب التي تحويها، من ضحكة آرسطو إلى سخرية "العشاء السحري" للقديس شبريانو إلى أبواق "الرؤيا" إلى مرض الحب عند ابن حزم . . . تجعل منها متاهة كونية، تهامساً لا متناهياً بين الرقوق وصورة من لا زمنية الفكر والحقيقة والايمان والخطيئة والشك والحب والشهوة والعنف.

نصّ النصوص

نصّ ايكو يشبه مكتبة الدير، او المكتبة المصغرة التي تكوّنت لادسو بعد جمع مزق الرقوق وبقايا المجلدات التي خلفها الحريق. وقد استعملها ادسو «كوسيط وحي» او كدلالة يستمدّ منها رؤى أو إلهاماً، واستعملها إيكو لحواره مع قارئه النوذجي. هي عبارة عن مواعيد يعطيها لقارئه بواسطة شفرات غامضة أو دلالات مبهمة يتركها هنا وهناك لتقود القارىء ولتجعله يتيه أيضاً. وكم من ناقد (أي قارىء) امتثل لهذه اللعبة ومضى يبحث عن صحة الإستشهادات المذكورة وعن المصادر التي أخذ منها إيكو فقرات كاملة وعن أسماء الفلاسفة والعلماء والشخصيات التاريخية (و هي كثيرة) التي يذكرها على مدى الأيام السبعة التي يتكون منها الكتاب.

كما أن الكثيرين حاولوا ويحاولون مقارنة هذه الرواية بروايات أخرى سابقة،

---

(7) نفس المرجع، ص 511.

ربما للعثور عن المصدر الذي ألهم إيكو كتابه الرائع. وإيكو يقبل كل الإفتراضات ويؤيد عدداً من المقارنات لأنه أرادها واستغرب أخرى ولكنه لم يرفضها لأنها لا تتناقض مع النص حتى وإن لم يفكر فيها[8]. القارىء حرّ في تأويل النص، وعلى المؤلف أن يموت (أو يصمت) بعد كتابة نصّه[9]. وإذا كان لا يزال على قيد الحياة، مثل إيكو، فلا يردّ على تأويل إلاّ إذا بدا له اعتباطياً أو متناقضاً منطقياً مع النصّ.

لذا وجد الكثيرون أوجه شبه بين كتاب إيكو وأعمال أخرى سابقة ومعاصرة أو بين شخصيات الرواية وشخصيات أخرى في روايات أخرى مما جعل إيكو يتعود على أغرب المقارنات وأبعدها.

أردت أن أقول بهذا أن نصاً مصنوعاً، بمهارة نادرة من نصوص أخرى لا يمكن إلاّ أن يعرض علينا مشاهد نعرفها ويذكرنا بنصوص قرأناها ولكن ليس هذا المهم، المهم هو رؤيتها تحت ضوء جديد وقراءتها في أجواء مختلفة أحياناً بعيدة جداً عن الجو الأصلي. بحيث تكمن مهارة الراوي هنا في قدرته العجيبة على إدماج حالات بعيدة عن بعضها من ناحية المضمون ومن ناحية الزمن في عالم واحد، داخل قصة واحدة : "سفر الرؤيا" للقديس يوحنا وآرسطو، ابن سينا والقديسة الديغاردا، بازيليو وأبي بكر محمد بن زكريا الرازي . . . من هذه النصوص ومن أخرى، بدقة موسوعية تتطلب قارئاً موسوعياً، صنع إيكو رواية تعيد كتمتمة الذاكرة في الحلم، "و الكتب أحلام"، يقول إيكو، ما قرأته العين في صفحات أخرى.

الكتاب المسموم

استعمل إيكو طريقة طريفة لارتكاب الجرائم، تتماشى مع عالم رهباني يعيش مع الكتب ومن الكتب : كتاباً مسموماً. والرهبان الفضوليون أو المتعطشون لمعرفة حجبتها إرادة ظلامية ومنحرفة يتسمّمون من خلال تصفّحهم للكتاب المحجّوب وبالقدرة التي يدفعهم إليه حبّ اطلاعهم.

---

(8) أومبارتو إيكو، حدود التأويل، ص 113، 114، 115.

(9) أومبارتو إيكو، ملحق لـ "إسم الوردة" الترجمة الفرنسية ص 512 وكذلك في "حدود التأويل" ص 118.

وبدت لي هذه الحيلة حقاً طريفة وذكية لأنها تجعل من كتاب يعتبره البعض ضاراً ولا تجوز قراءته كتاباً مسموماً كما أنه يجسّم مفهوم "الهدية المسمومة"، إذ يقول يورج الشيخ لغوليالمو دا باسكارفيل عندما اكتشف سرّ الكتاب "إجلس، هي ذي مكافأتك" ثم يحرّضه على القراءة "إقرأ، إذن تصفّح يا غوليالمو، لقد انتصرت" ويزيد في تحريضه "هيّا، إقرأ، تصفّح. إنه لك، لقد استحققته" (اليوم السابع ليلاً).

أخيراً اكتشفت أن الفكرة في حد ذاتها ليست جديدة، واستعملت من قبل وإن كانت في إطار آخر ولغرض آخر.

ففي إحدى حكايات "ألف ليلة وليلة" نجد أيضاً كتاباً مسموماً : تروي الحكاية قصّة حكيم استطاع أن يشفي ملكا من داء أصاب جلده واستعصى على كل أطباء وعلماء مملكته. لم يسقه شيئاً ولم يستعمل مرهماً بل اكتفى بأن نصحه بلعب الصولجان إلى أن يعرق ثمّ يدخل حمّاماً وسيشفى. وذلك ما كان، فقربه الملك وجعله من الأعيان في مملكته إلى أن تملك الحسد وزيره فسعى لهلاكه لدى الملك موعزاً إليه أنه بإمكان الطبيب الذي شفاه بدون دواء أن يقتله أيضاً بدون مرهم أو سلاح لو أراد ذلك. وعمل بكل جهده إلى أن اقتنع الملك بذلك واستدعى الطبيب معلناً له القرار الذي اتّخذه بإعدامه للسبب الذي ذكره وزيره. ولما رأى الطبيب أن لا فائدة من اقناع الملك بالعدول عن قراره استسمحه في الذهاب إلى بيته للتصرّف في كتبه النفيسة بتوزيعها على تلاميذه وزملائه كي ينتفعوا منها، معلنا للملك أنه يريد إهداءه كتاباً عتيقاً. فسمح له الملك بذلك ولما جاءه الحكيم بالكتاب فتحه الملك "فوجده ملصوقاً فحط اصبعه في فمه وبلّه بريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق لا ينفتح إلا بجهد ففتح الملك ستّ ورقات ونظر فيها فلم يجد كتابة فقال الملك أيها الحكيم ما فيه شيء مكتوب فقال الحكيم قلّب زيادة على ذلك فقلّب فيه زيادة فلم يكن إلاّ قليلاً من الزمان حتى سرى فيه السمّ لوقته وساعته . . . " (الليلة الخامسة)[10].

هذا الكتاب الذي سممّت ورقاته كان سلاحاً ذكياً استعمله الحكيم للدفاع عن

---

(10) ألف ليلة وليلة، الجزء الأول، الليلة الخامسة، دار العودة بيروت، 1988، ص 20 ـ 23.

ولمعاقبة نفسها الملك على نكرانه للجميل، بينما في كتاب "إسم الوردة" تستعمل الحيلة نفسها لمعاقبة من يريد أن يعرف، هو سلاح بين يدي "المسيح الدجّال" الذي ليس إلاّ صورة رمزية للعقل الظلامي والمتعصّب الذي لا تنير الإبتسامة إيمانه.

لقد أعاد إيكو توظيف هذه الحيلة بذكاء كبير كما فعل بعدّة نصوص أخرى دون أن ينقص ذلك شيئاً من روعة كتابه الأسلوبية ومن قيمته الأدبية ومن غزارة معانيه الموسوعية. ذلك "لأن الكتب غالباً ما تتحدّث عن كتب أخرى" فيعود إلينا صدى من "ألف ليلة وليلة" ومن "سفر الرؤيا" ومن "طوق الحمامة" من خلال الحلم الذي عاشه أدسوا دا مالك على مدى سبعة أيام في دير لا نعرف له إسماً.

أحمد الصمعي، ديسمبر 1991

ولد أُمبرتو إيكو في الخامس من جانفي 1932 بمدينة اليسّاندريا (البيمونتي - شمال إيطاليا) وتحصّل على الإجازة في الفلسفة بجامعة تورينو بأطروحة حول الجمالية عند القديس توما الأكويني، أعادت نشرها دار بومبياني للنشر سنة 1970 بعنوان "المسألة الجمالية عند توما الأكويني" (Il problema estetico in Tommaso d'Aquino)

سنة 1955 نجده يعمل في الراديو والتلفزة الإيطالية في نطاق البرامج الثقافية وسنة 1962 يقوم بدروس حرّة في كلية الآداب والفلسفة بجامعة تورينو، وفي العام نفسه تخرج الطبعة الأولى من كتاب "العمل المفتوح" «Opera aperta».

منذ ذلك الحين لم ينقطع إيكو عن النشر "الرؤيويون والمندمجون"، 1964 (Apocalittici e integrati) "البنية الغائبة" 1968 (La struttura assente) وعن التدريس خاصة بالجامعات الأمريكية والجامعات اللاتينية.

سنة 1971 تعهد إليه جامعة بولونيا كرسيّ الأستاذية في السيميوطيقا بكلية الآداب والفلسفة ببولونيا حيث لا يزال يدرّس حتى الآن.

بين سنة 1973 و1979 كتب عدّة مؤلّفات نذكر من بينها "دراسة في السيميوطيقا العامة"، و"القارىء في النّص*" 1979.

سنة 1980 ينشر إيكو "إسم الوردة" وهو أول عمل روائي يقوم به ويحصل الكتاب على جائزة "ستريغا" لسنة 1981 وعلى جائزة "ميديسيس" سنة 1982.

بعد النجاح الباهر الذي حصل لرواية "إسم الوردة" نشر إيكو روايته الثانية

---

* ترجم إلى العربية بعنوان «القارئ في الحكاية» وصدر عن المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء وبيروت، 1996.

"بنـدول فـوكـولـت" «Il pendolo di Foucault» الـتـي نـال عـلـيـهـا جـائـزة "بانكاريلا" لسنة 1989

من آخر أعماله «حدود التأويل» (1990)، «البحث عن اللغة الكاملة» (1993)، «ست رحلات في الأدغال القصصيّة» (1994)، «جزيرة اليوم المنقضي»**

** يقوم مترجم هذه الرواية بترجمة «جزيرة اليوم المنصرم» وستصدر عن دار أويا للنشر.

تقديم للطبعة الثانية

اسم الوردة هي أولى ثلاث روايات كتبها امبرتو إيكو بين سنة 1980 وسنة 1994 : اسم الوردة 1980 بندول فوكو 1988، وجزيرة اليوم المنصرم 1994. ولم تحظ الروايتان الأخيرتان إلاّ بنجاح نسبي، مرجعه دون شك الشهرة العالمية التي حظي بها المؤلف بعد صدور اسم الوردة في أوائل الثمانينات. وهذا لا يعني أن امبرتو إيكو لم يكن معروفاً قبل ذلك ولكن صيته في الأوساط الفكرية العالمية، خاصة منها الأوروبية والأمريكية، كان ذائعاً كمفكر في علاقة الإبداع الفني بالمستهلك وبالخصوص في تفاعل القارىء مع النص الأدبي، وتجاوزت دراساته في السميولوجيا حدود إيطاليا وأوروبا إلى الولايات المتحدة الأمريكية وإلى بقية العالم إلاّ أنه لم يسبق أن كتب قبل ذلك مجموعات قصصية أو روايات، فكانت رواية اسم الوردة مفاجأة جعلت العائلة الأدبية والجمهور العريض ينكبون عليها بالقراءة والتأويل وصارت في وقت وجيز أشهر كتاب في إيطاليا فترجم إلى جلّ اللغات العالمية ونقله جاك آنو إلى السينما فزادت رغبة القُراء في الحصول عليه وفي مطالعته.

ولم تأتِ الترجمة العربية إلاّ في بداية التسعينات، أي بعد عشر سنوات على ظهور الرواية، عندما طلبت مني دار التركي للنشر، في أعقاب الثمانينات، تعريب الكتاب إنطلاقاً من النصّ الأصلي باللغة الإيطالية. وتطلبت العملية جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً، استمر زهاء السنتين، لصعوبة النصّ ولثرائه اللغوي ولاتسّاع معارفه، وجاءت الترجمة العربية في وفائها للنص الأصلي، لتسد الفراغ وتمد القارىء العربي بهذا العمل الأدبي الذي يعتبر حدثاً عالمياً لا مناص من معرفته ومن دراسته. وطبع من العمل 1500 نسخة، وكان في برنامج الدار المذكورة أن تكمل في وقت لاحق سحب العدد المنصوص عليه في العقد وهو 5 آلاف، إلاّ أن صعوبات ماليّة اضطرتها إلى غلق أبوابها، ولم يُرضِ ذلك العدد الضئيل من النسخ إلاّ عدداً قليلاً من القُراء في تونس بينما لم تصلِ من الترجمة إلى البلدان العربية الأُخرى، خاصة منها الشرقية، إلاّ نسخاً قليلة جداً.

وبقي الأمر على حاله إلى أن سعت مشكورة دار أويا للنشر، إلى سدّ هذا

الفراغ بإعادة طبع الكتاب في ثوب جديد إضافة إلى إنجاز ترجمة عربية للرواية الأخيرة «جزيرة اليوم المنصرم» (1994) إنطلاقاً من النصّ الأصلي الإيطالي، وقد قطعنا في هذا العمل الأخير شوطاً لا بأس به.

في الأثناء أصدرت دار سينا للنشر «ترجمة» ثانية لكتاب اسم الوردة، أنجزها كامل عويد العامري وظهرت سنة 1995. ووضعت العبارة بين ظفرين لأنني عندما اطلعت على نص عويد العامري فوجئت بهذه الترجمة، فهي تارة منقولة بحذافيرها وتارة محرّفة، وذلك دون أدنى إشارة من المترجم إلى استعماله الترجمة التي نشرتها دار التركي التونسية. ولا أدري أي حقوق يُدّعى حفظها بينما يتعدّى المترجم على حقوق الآخرين. ولإثبات أن فقرات كاملة سرقت من الترجمة الأُولى سأكتفي بذكر موضعين أو ثلاثة لا تختلف فيها الترجمة الثانية عن الأُولى:

1 ـ «في اليوم الأول، وعند صلاة «سادسة» يقف أدسو متأملاً في نحوت بوابة الكنيسة ويصف الحيوانات الرهيبة والغريبة التي أبدعها النحات». وبما أن أُمبرتو إيكو اختلق العديد من أسماء تلك الحيوانات الخيالية لجأنا بدورنا إلى اختلاقها، وهي إذن لا توجد في قاموس أو في مرجع ومع ذلك نجدها كاملة بحذافيرها في نصّ عويد العامري.

هي ذي الفقرة الموجودة في الترجمة الأُولى (ت 1): «وكلّ حيوانات الجحيم قد تجمّعت لتحرس وتتوّج العرش الذي يواجهها، منشدة عَظَمته من خلال هزيمتها: مخلوقات برجلي ماعز، ومخلوقات ذات جنسين ووحوش بأيد ذات ستة أصابع وجنيات البحر، وقنطورات وغرغونات، وخطافات، وحضونات وتنانين ثعبانية وسنتورات وأوشاق وفهود، وخيامر ووحوش بوجه كلب تنفث النار من مناخيرها ودانتيريونات، ومخلوقات بعدّة أذناب ومسوخ كثيفة الشعر وسمندلات وحيات قرناء وثعابين برمائية وحيات ملساء وذوات رأسين مسننة الظهر، وضباع وقنادس وأوزاغ وتماسيح وحيوانات مائية ذات قرون منشارية، وضفادع وعنقاوات وقردة وقردوحيات ومُسوخ مهق ووحوش مانتاكورة، ونسور ومخلوقات تشبه الإنسان وسراعيب وتنانين وبوم ومليكات، ومتفرّعات، ويافرات، وأشباح التين وعقارب وعظائيات وحوتيات وأشياق وعظاءات خضراء وأخطبوطات وسلاحف.

فكأنّ سكان الجحيم قد اجتمعوا ليكوّنوا رواقاً وغاباً مظلماً وغوراً قاحلاً يسكنه القنوط، أمام مشهد الجالس».

وهذا نصّ الترجمة الثانية (ت2) لعويد العامري: وكلّ حيوانات الجحيم قد تجمّعت لتحرس وتتوج العرش الذي يواجهها، منشدة عظمته من خلال هزيمتها: مخلوقات برجلي ماعز، ومخلوقات ذات جنسين ووحوش بأيد ذات ستة أصابع وجنيات البحر، وقنطورات وغرغونات، وخطافات، وحضونات... وسنتورات وأوشاق وفهوم(؟؟) وخيامر... ودانتيريونات.... ومسوخ كثيفة الشعر وسمندلات... وقنادس وأوزاغ... وقردوحيات ومسوخ مهق ووحوش مانتاكورة... وسراعيب.. ومليكات ومتفرعات، ويافرات وأشباح التين... وأشياق وعظاءات خضراء وأخطبوطات وسلاحف.

فكأن سكان الجحيم قد اجتمعوا ليكونوا رواقاً وغاباً مظلماً وغوراً قاحلاً يسكنه القنوط، أمام مشهد الجالس على لوجة الجبهة.. [ت 2، ص 69] وتعني النقاط المتتالية أن النص الثاني مطابق تماماً للنصّ الأول وأنني أكتفيت بذكر بعض العبارات المبتدعة والتي لا يمكن أن يكون عثر عليها عويد العامري في منجد أو في قاموس، وبما أنه يكاد من المستحيل أن تتطابق ترجمتان لنصّ أدبيّ مفعم بالإبداع والحلول الأُسلوبية فإنني أؤكد في هذا المضمار أن نصّ (ت1) أُخذ بحذافيره، ووضع في نصّ ت2، دون إشارة إلى المرجع وهذا لا يمكن أن يعني إلاّ سرقة حقوق الغير.

2 ـ في اليوم السادس يحضر أدسو إنشاد المزامير ويستمع إلى ترنيمة «مجلس الأُمراء» (ت1): «عند المقطع الأول» «se» «بدأ لحن جماعي بطيء ومهيب يتألف من العشرات والعشرات من الأصوات التي ملأ صوتها الخافت الأروقة ورفرف فوق رؤوسنا، ومع ذلك كان يبدو خارجاً من أعماق الأرض... كان هو يواصل ـ أرضياً ـ الهيمنة ولم ينقطع طيلة ما يكفي لصوت منغم وبطيء ليعيد اثنتي عشرة مرّة «Ave Maria»، وتعالت فوق تلك القاعدة الحجرية والصلبة أصوات أُخرى... وكأن ذلك الإطمئنان الذي كان يوحي به ذلك المقطع بالحاجه ـ كأنه صورة للديمومة السرمدية ـ قد حرّرها من كل خوف...

وفي الأثناء كانت الأصوات العميقة القرار في احتداد عنيد لا يني، كما لو أن الحضور المنذر بالخطر من الأعداء وذوي السلطان مضطهدي شعب الرب قد ظل معلقاً فوقها؛ حتى بدا ذلك الصخب النبتوني الوحيد النبرة مغلوباً على أمره، أو على الأقلّ ممتثلاً وأسيراً لنشوة الخصوم التسبيحية، ثم غاب في انسجام كلّي

مهيب وفي نغمة آفلة» (ت1، ص 433)، (طبعة دار التركي وص 445 في هذه الطبعة)

لقد تطلب مني هذا المقطع عملاً طويلاً أعدت أثناءه ترجمة النصّ مرّات عديدة وتبادلت الرأي مع آخرين قبل الوصول إلى صيغة نهائية، وإذا بي أجده كاملاً في نص العويدي. أيكون ذلك من قبيل الصدفة؟ وهل يمكن أن تتطابق ترجمتان لنصّ يمتاز بالغموض وتعدد المعاني والمستويات كما تتطابق الترجمة الثانية مع الأولى، بينما نعلم أن النص الأدبي فيه الكثير من التأويل والإبداع الشخصي ممّا يجعل القراءات مختلفة والتأويلات متغايرة؟ ومع ذلك هذا ما يبدو من خلال ت2: «عند المقطع الأول بدأ لحن جماعي بطيء ومهيب يتألف من العشرات والعشرات من الأصوات التي ملأ صوتها الخافت الأروقة ورفرف فوق رؤوسنا، ومع ذلك كان يبدو خارجاً من إعماق الأرض. . .، كان هو يواصل ـ أرضياً ـ الهيمنة ولم ينقطع طيلة ما يكفي لمنشد ذي صوت منغم وبطيء ليعيد اثنتي عشرة مرة Ave Maria، وتعالت فوق تلك القاعدة الحجرية والصلبة أصوات أُخرى. . . وكأن ذلك الإطمئنان الذي كان يوحى به ذلك المقطع بإلحاحه ـ كأنه صورة للديمومة السرمديّة ـ قد حرّرها من كل خوف. . .

وفي الأثناء كانت الأصوات عميقة القرار في احتداد عنيد لا يني، كما لو أن الحضور المنذر بالخطر من الأعداء وذوي السلطان مضطهدي شعب الرب قد ظل فوقها، حتى بدا ذلك الصخب النبتوني الوحيد النبرة مغلوباً على أمره أو على الأقل ممتثلاً وأسيراً لنشوة الخصوم التسبيحية ثم غاب في انسجام كلي مهيب وفي نغمة آفلة». (ت2، ص 628).

ويمكنني أن أتمادى في المقارنة بين النصّين وأن أنتقل من جزء إلى آخر من الكتاب فلا أجد في كثير من الفقرات اختلافاً، إلاّ عبارة بدلّت بأُخرى أو غيّر موضعها في السياق: «وكنت أتساءل وأنا مروّع ومنخطف من تكون هذه التي تقف أمامي كأنها الفجر جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، «مرهبة كجيش بألوية». (ت1، ص 264)، (ص 272 من هذه الترجمة).

[وكنت أتساءل وأنا خائف ومنخطف من تكون هذه التي تقف أمامي كأنها الفجر جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، (مرهبة كجيش بألوية)] (ت2، ص. 378). وأيضاً: «وقبّلتني هي بقبلات فمها، وكان حبّها ألذ من الخمر ورائحة عطورها شذية، وكان عنقها جميلاً وسط اللآلي وخدّاها جميلين وسط الأقراط، كم أنت

جميلة يا حبيبتي، كم أنت جميلة، عيناك حمامتان (هكذا كنت أقول). . . » (ت1، ص. 265)/ [وقبلتني هي بقبلات فمها، وكان حبّها ألذ من الخمر وراحة عطورها شذية وكان عنقها جميلاً وسط الأقراط، كم أنت جميلة يا حبيبتي، كم أنت جميلة عيناك حمامتان (هكذا كنت أقول). . .] (ت2، ص. 380)، (ص 273 في هذه الطبعة)

أظن أنني بهذه الأمثلة من النصّين أثبتت أن النصّ الثاني استمدّ ترجمته بصفة ملحوظة من الترجمة الأُولى وفي عِدّة مواضع، وليست بالقليلة، نقل النصّ الأول بحذافيره. وسواء في الحالة الأُولى أو في الحالة الثانية لم يقع قطّ أن أشار العويدي إلى ترجمة أحمد الصمعي.

ثمّ، فإن للترجمة قواعدها وشروطها وأصُولها، وهي تمرين لا يتناوله إلاّ من تضلّع في تلك اللغة الأجنبية، وفي ثقافتها وفي حضارتها التاريخية والإنسانية وفي رؤيتها الفلسفية والدينية، حتى لا تخفى عليه إشارة ولا تضيع عليه صورة. وعندما يكون النصّ نصّاً أدبياً فنيّاً ذا أسلوب رفيع فالمترجم آنذاك يكون مطالباً بالخلق وبإعادة كتابته كأنما كان صدى من مؤلفه يردّده إلى ما لا نهاية له، كلّ يوم في لغة جديدة. وهذه الشروط والقواعد عرفها الأقدمون منذ شيشرون والجاحظ ودانتي أليغييري وغيرهم ممّن نظّر في الترجمة وتحدّث عنها، ومن أسسها أن يكون المترجم عالماً بلغة الغير علمه بلغته وأن يقرأ من ثقافة غيره من الفلسفة والأدب والعلوم ما يعينه في أداء مهمّته الشاقة، وأن يكون حسّه الجمالي رهيفاً وذوقه الأُسلوبي عالياً حتى لا يترجم المعاني فقط بل يردّ أيضاً للنصّ جماله الأدبي ويجمّله بأسلوب يضمن الأمانة في المعنى والأصالة في اللغة، وكلّ هذا يحتمّ أن نترجم دائماً عن النصّ الأصلي، لا عن ترجمة ثانية يكون مترجمها قد أوّل النصّ حسب منظاره واجتهاده وهويته فإذا بها، بفعل الخيانة الموجودة أصلاً في كل ترجمة، مرآة مشوهة من النصّ الأصلي لو اعتمدناها وترجمنا عنها لعكست صورة ممسوخة وبعيدة عن الأصل.

وهذا ما حدث في ترجمة كامل عويد العامري، لأنه لا يتقن الإيطالية ولا يلمّ بثقافتها وفلسفتها وحضارتها ـ وهؤلاء في الحقيقة قليلون في العالم العربي ـ فلجأ إلى تعريب النص الإيطالي إنطلاقاً من الترجمة الفرنسية، ولا أدري مدى إتقانه للفرنسية ولا حتى مدى أمانته للنصّ الفرنسي بما أنه اعتمد كثيراً، كما أثبتنا ذلك، على ترجمتنا.

إضافة إلى كلّ هذا أخلّت الترجمة التي أصدرتها دار سينا للنشر، وهذه

مسؤولية تشترك فيها مع المترجم، بقواعد بسيطة مثل الترتيب الذي وضعه المؤلف لكتابه والتي تترجم جملة من الأهداف التي يريد الوصول إليها وهي إستراتيجية دقيقة لتوجيه قارئه وللتفاعل معه، وهذا هامّ بالنسبة إلى أيّ كاتب أدبي وأكثر أهمية بالنسبة إلى كاتب مثل إيكو يدرس نظرياً هذه العلاقة منذ الستينات، فظهرت الطبعة الإيطالية مصحوبة في أولها وفي آخرها برسم للدير يرجع إليه القارىء لتتبع تحركات شخصيات الرواية، ولكننا لا نجده في الكتاب الذي طبعته دار سينا.

كما أن إيكو قصد أن يضع في البداية قصّة عثوره المزعوم على مخطوط أدسو، ثم يشرع أدسو وهو شيخ في رواية الأحداث التي عاشها في دير «مالك» بتمهيد ديني ـ فلسفي ـ تاريخي لوضع تلك الأحداث في إطارها ثم تبدأ الرواية باليوم الأول. وهذا هو التسلسل المنطقي، إلاّ أن ترجمة العويدي تبدأ بأدسو وهو شيخ يتذكر الأشياء المريعة التي عاشها في القرن الرابع عشر ليعود بنا بعد ذلك إلى القرن العشرين، وإلى إيكو وهو يقصّ علينا كيف تمّ عثوره على المخطوط، ليعود بعد ذلك إلى الرواية في يومها الأول. وبهذا فصل المترجم، أو من صفف الأبواب، الراوي، أي أدسو الشيخ، عن ذكرياته عندما كان مبتدئاً بدير «مالك»، وحشر المؤلف، الذي هو إيكو، وسط رواية أدسو.

هناك من يظن أن الأمانة في الترجمة تقتصر على الكلمات والمعاني، ولكنها تهمّ روح الكتاب ونفسه من خلال المحافظة على جماليّته وعلى طابعه الأدبي، وتشمل أيضاً حتى المظهر الخارجي للكتاب والمعلومات الإضافية، الموجودة خارج النصّ، والتي لها علاقة مباشرة بالنصّ مثل الخرائط والرسوم والرموز وغيرها... كما أن على المترجم أن يحترم تجزئة النصّ كما أرادها مؤلفه، لا أن يعبث بالأبواب والفقرات حسب هواه. فالنصّ ليس نصّه.

ختاماً أجدّد شكري لدار أويا التي أرادت أن تضع بين يدي القارىء العربي هذا الأثر الأدبي الهام وستتبعه إن شاء الله ترجمة الرواية الأخيرة التي كتبها أ. إيكو، جزيرة اليوم المنصرم، وعسى أن يجد فيهما القارىء إثراء لمعرفته ومتعة لخاطره.

تونس 16 ديسمبر 1997

أ. الصّمعي

مخطوط، بطبيعة الحال

في السادس عشر من أوت 1968 سُلِّم إليّ كتاب من تأليف رئيس دير يدعى الأب "فالّي" يحمل عنوان "مخطوط دون أدسون دا مالك"، مترجم إلى الفرنسية) حسب طبعة ج. مابيّون (مطبعة دير "لاسورس"، باريس 1842). وكان الكتاب مرفوقاً ببيانات تاريخية هزيلة في حقيقة الأمر، ويؤكد مؤلفه بأنه نسخ بوفاء مخطوطاً يعود إلى القرن الرابع عشر، كان قد عثر عليه في دير "مالك" العلاّمة العظيم الذي عاش في القرن السابع عشر والذي يعود إليه فضل كبير في تأريخ النظام الكلوني. وابتهجت لتلك اللقية العلمية (و كانت لقيتي أنا الثالثة إذن في الزمن) بينما كنت بمدينة "براغ" في انتظار صديقة عزيزة عليّ. بعد ذلك بستّة أيام اجتاحت القوات السوفياتية تراب تلك المدينة المنكوبة. وتمكّنت من الوصول إلى الحدود النمساوية، إلى "لينتز"، بعد رحلة لم تخل من الأخطار، ومن هناك تحولت إلى "فيينّا" حيث التقيت بالصديقة المنتظرة، وصعدنا معاً في مجرى "الدانوب".

وكنت أقرأ مفتونا، وفي جوّ ذهني على غاية من التهيّج، قصّة "أدسو دا مالك" الرهيبة، وشغلتني إلى درجة أنني وضعت لها ترجمة فورية في بعض الكراسات الكبيرة التي اشتريتها من ورّاقة "جوزف جيبار"، والتي تحلو الكتابة عليها خاصّة عندما تكون ريشة القلم ليّنة. وهكذا وصلنا قريبا من "مالك"، حيث لا يزال ينتصب عند انعطافة لمجرى النهر، ذلك الدير الرائع الذي وقع ترميمه عدّة مرّات خلال القرون الماضية. وكما يمكن للقارىء أن يتصورّ، لم أعثر في مكتبة الدير على أي أثر لمخطوط "أدسو".

قبل الوصول إلى "ساليسبورغ"، أثناء ليلة مريعة في نزل صغير على ضفاف نهر "المونديسي" انقطعت علاقتي مع رفيقة السفر واختفت حاملة معها كتاب

الأب "فالّي" ولم تفعل ذلك خبثاً وإنما انتهت علاقتنا بصفة مباغتة ومشوّشة. وهكذا لم تتبقّ لي إلاّ مجموعة من الكرّاسات بخط يدي وفراغ كبير في قلبي.

قررّت بعد بضعة أشهر من ذلك وأنا في باريس، أن أصل إلى نهاية أبحاثي.

ومن الإشارات القليلة التي استخلصتها من الكتاب الفرنسي بقيت لي إحالة إلى المصدر نادرة في تفاصيلها ودقّتها.

Vetera analecta, sive collectio veterum aliquot opra & opusculorum omnis generis, carminum, epistolarum, diplomaton, epitaphiorum, &, cum itinere germanico, adaptationibus aliquot disquisitionibus R.P.D. Joannis Mabillon, Presbiteri ac Monachi Ord. Sancti Benedicti e Congregatione S Mauri. - Nova Editio cui accessere Mabilonii vita & aliquot opuscula, scilicet Dissertatio de Pane Eucharistico, Azymo et Fermentatio, ad Eminentiss. Cardinalem Bona. Subjungitur opusculum Eldefonsi Hispaniensis Episcopi de eodem argumentum Et Eusebii Romani ad Theophilum Gallum epistola, De cultu sanctorum ignotorum, Parisiis, apud Levesque, ad Pontem S. Michealis, MDCCXXI, cum privilegio Regis.

ووجدت في الحال مجموعة "نصوص قديمة" في مكتبة "سانت جينوفياف" ولكن مع اندهاشي العظيم كانت الطبعة التي عثرت عليها تختلف في جزئيتين عن المرجع المذكور : قبل كلّ شيء في اسم الناشر الذي كان :

«Montalant, ad Ripam P.P. Augustinianorum (prope S. Michaelis)»

ثم في التاريخ، فهو بعد سنتين من الأولى. ولا فائدة من القول أن تلك الـ"النصوص. . " كانت لا تحتوي على أي مخطوط لـ "أدسو" أو "أدسون دا مالك" بل بالعكس، كانت كلّها، كما يمكن لأي شخص أن يتأكد من ذلك، عبارة عن مجموعة من النصوص قصيرة أو متوسّطة الطول، بينما القصّة التي نقلها "فالّي" كانت تمتدّ على بضعة مئات من الصفحات. واستشرت آنذاك بعض المتخصّصين المعروفين في تاريخ القرون الوسطى وآدابها كالصديق الحميم الذي لن أنساه "إيتيان جيلسون"، ولكن كان من الواضح أن "النصوص القديمة" الوحيدة هي تلك التي رأيتها في "سانت جينوفياف" وأقنعتني زيارة إلى دير "لاسورس" الواقع بالقرب من "باسّي" ومحادثة مع الصديق "دون آرن لاهنستاد" أنه لم ينشر أي رئيس دير باسم "فالّي" كتابا بمطبعة الدير (التي في الواقع لم توجد قط). إن إهمال البحّاثة الفرنسيين للإدلاء بمراجع بيبليوغرافية

صحيحة شيء معروف، ولكن أمر هذا الكتاب كان يتجاوز كل تشاؤم معقول. بدأت أعتقد أن الكتاب الذي حصلت عليه كان زائفا. ولم يعد بإمكاني استرجاع كتاب "فالّي" (أو أنني لم أجرؤ على طلبه ممن أخذه مني). ولم تبق لي إلاّ مذكراتي، التي أصبحت أشك في صحّتها.

هناك لحظات سحرية، فيها إرهاق بدني كبير ونشاط حركي مكثف، تبرز أثناءها رؤى لأشخاص وقع التعرف عليهم في الماضي، "عندما أستعرض في ذهني هذه التفاصيل أتساءل إن كنت عشتها حقيقة أو تراءت لي في الحلم" وكما عرفت فيما بعد من كتيّب جميل لرئيس دير "بوكوا" يمكن أن تكون للمرء رؤى الكتب لم تكتب من قبل.

لو لم يطرأ جديد لبقيت إلى الآن أتساءل من أين أتت قصة "أدسو دا مالك"، إلاّ أنه في "بونوزار" سنة 1970 بينما كنت أتطفّل بين رفوف مكتبيّ صغير يتاجر في الكتب القديمة في "كورّيانتس"، غير بعيد عن "باتيو دل تانغو" المشهور في ذلك الشارع الكبير إذ وقعت يداي على نسخة كاستيليانية لكتيّب ألّفه "ميلو تميسفار" يحمل العنوان التالي "عن استعمال المرايا في لعبة الشطرنج" والذي أتيح لي أن أذكره (حسب اشتشهاد ثان) في دراستي "الرؤيويون والمندمجون" أثناء تحليل لأعماله "بائعو الرؤيا". كانت ترجمة للنسخة المفتقدة الأصلية باللغة الجيورجية (تيبيليسي 1934) وكم كانت دهشتي عندما عثرت فيها على استشهادات كثيرة من مخطوط "أدسو"، إلاّ أن المصدر لم يكن لا كتاب "فالّي" ولا "مابيّون"، بل كتاب الأب "أنتاسيوس كيرشار" (و لكن أيّ كتاب؟). وأكّد لي بحّاثة - لا أرى داعياً لذكر إسمه - (مستشهداً بمراجع كان يحفظها عن ظهر قلب) أن ذلك اليسوعي العظيم لم يتكلّم أبداً عن "أدسو دا مالك". ولكن صفحات "تيميسفار" كانت تحت أنظاري والفقرات التي كان يشير إليها تتطابق تماماً مع تلك الموجودة في المخطوط الذي ترجمه "فالّي" (و خاصة وصف المتاهة الذي كان لا يترك أيّ مجال للشكّ)، ورغم ما كتبه عن ذلك فيما بعد "بنيامينو بلاتشيدو"[1] فالأب "فالّي" عاش فعلاً، وكذلك بكلّ تأكيد "أدسو دا مالك".

1) صحيفة «La Repubblica»، 22 سبتمبر 1977.

واستنتجت من ذلك أن مذكرات "أدسو" كانت تبدو فعلاً في نفس طبيعة الأحداث التي ترويها : تحفّ بها أسرار كثيرة خفية وغامضة، ابتداء من مؤلفها، إلى موقع الدير الذي سكت عنه "أدسو" بتحفظ عنيد، بحيث يمكن التخمين أنها جهة غير محدّدة تقع بين "بومبوزا" و"كونك" مع افتراض معقول بأن المكان يوجد على طول خط قمم جبال "الأبينّين"، بين "البيمونتي" و"ليغوريا" وفرنسا (كمن يقول بين "ليرتشي" و"توربيا"). أما عن الفترة التي تدور فيها الأحداث فنجد أنفسنا في أواخر نوفمبر من سنة 1327 ، ولكن الفترة التي حرّر فيها المخطوط غير محدّدة. وإذا ما اعتبرنا أنه كان، حسب قوله، راهباً مبتدئاً سنة 1327 وأنه كان مشرفاً على الموت عندما كتب مذكراته، يمكننا التكهّن بأن المخطوط حرّر في السنوات العشر أو العشرين الأخيرة من القرن الرابع عشر.

كلما أطلت التفكير في ذلك كلما بدت لي واهية الأسباب التي دفعتني إلى أن أسلّم للمطبعة نسختي الإيطالية والمأخوذة عن نسخة فرنسية قوطية محدثة وغامضة لطبعة لاتينية من القرن السابع عشر تنقل عملاً لاتينياً ألّفه راهب ألماني في أواخر القرن الرلبع عشر.

قبل كل شيء، أي أسلوب ينبغي أن أعتمد؟ ربما ملت إلى اعتماد أسلوب الكتّاب الإيطاليّين في تلك الفترة، ولكنني أبعدت عني تماماً تلك الفكرة إذ ليس هناك ما يبرّرها : ليس فقط لأن "أدسو" كان يكتب باللاتينية، ولكن لأنه من الواضح أن ثقافته (أو ثقافة الدير التي كان تأثيرها واضحاً عليه) كانت مطبوعة بطابع أقدم بكثير. كانت عبارة عن جملة من المعارف مرّت عليها قرون عديدة ومن العادات الأسلوبية التي تنتمي إلى التقاليد اللاتينية في أواخر القرون الوسطى. كان "أدسو" يفكر ويكتب مثل راهب تكوّن من خلال نصوص آبائية مدرسية، لم تؤثر فيه ثورة اللغة العامية، وبقي متعلقاً بالصفحات المحفوظة في المكتبة التي يتحدّث عنها. والقصة التي يرويها (بقطع النظر عن الإشارات إلى أحداث القرن الرابع عشر، والتي يسجّلها "أدسو" أيضاً وسط ألف حيرة ودائماً حسب ما وصلت إلى سمعه) كان يمكن أن تكتب، من حيث اللغة ومن حيث الإستشهادات العلمية، في القرن الثاني عشر أو الثالث عشر.

ومن جهة أخرى، من الأكيد أن "فالّي"، عند ترجمته نصّ أدسو اللاتيني إلى لغته الفرنسية القوطية المحدثة، تصرّف في النص بطرق مختلفة لم تقتصر دائماً

على النواحي الأسلوبية. مثلاً يتكلّم الأشخاص أحياناً عن فضائل الأعشاب باستناد واضح إلى كتاب الأسرار الذي ينسب إلى "ألبارتو مانيو"، والذي كانت له تنقيحات لا يحصى عددها عبر القرون. وأكيد أن أدسو كان يعرف ذلك الكتاب، ولكن الحقيقة هو أنه يذكر منه استشهادات تذكّر حرفيا إما بوصفات "براتشالسو" أو بتحريفات واضحة لطبعة من كتاب ألبارتو تنتمي دون شك إلى عهد "تودور"[2]. ومن جهة أخرى تحققت فيما بعد من أنه في الفترة التي كان فالّي يستنسخ فيها (؟) مخطوط أدسو، كانت متداولة في باريس طبعة من القرن الثامن عشر لل"ألبار الكبير" وال"ألبار الصغير"[3] وقد حرفت تماماً.

ومع ذلك، كيف التأكد من أن النصّ الذي كان يستند إليه أدسو أو الرهبان الآخرون الذين كان يعلّق على أقوالهم لا يحتوي أيضاً في ثنايا التعاليق والحواشي والذيول المختلفة، على شروح ربما كان لها تأثير على الثقافة اللاحقة؟

وأخيراً، أما كان من الأنسب أن أحتفظ بالفقرات اللاتينية التي لم ير الأب "فالّي" نفسه داعيا لترجمتها، ربما للحفاظ على جوّ تلك الفترة؟ لم تكن هناك مبرّرات لذلك، إلاّ شعور ربما لا يمكن فهم طبيعته بالوفاء للمصدر . . . وحذفت ما كان زائدا ولكنّي تركت بعض الأشياء. وأخشى أن أكون فعلت مثل أولئك الروائيين الرديئين الذين، عندما يقحمون في مشهد ما شخصا فرنسيا يجعلونه يقول «!parbleu و La femme, ah la femme!».

وفي الختام، فإن الشكوك تملأ نفسي. لا أعرف حقيقة لماذا أقدمت فقرّرت تقديم مخطوط "أدسو دا مالك" على أنه أصلي. لنقل بأنه تصرّف انسان به عشق. أو لعلها كانت طريقة للتحرّر من أفكار كثيرة وقديمة كانت تستحوذ عليّ.

أنقل دون الإنشغال بمشاكل العصر. في السنوات التي اكتشفت فيها نصّ الأب "فالّي" كان الإعتقاد شائعاً أنه ينبغي أن تقتصر الكتابة على الإهتمام بمشاغل

(2 Liber aggregationis seu liber secretorum Alberti Magni, Londinium, juxta pontem qui vulgariter dicitur Flete brigge MccccLxxxv.

(3 Les admirables secrets d'Albert le Grand, A Lyon, chez les Héritiers Beringos, Fratres, à l'Enseigne d'Agrippa, MDCCLXXV ; secrets merveilleux de la magie Naturelle et Cabalistique du Petit Albert, Lyon, ibidera, MDCCXXIX.

الساعة وبتغيير العالم. على بعد عشر سنوات أو أكثر، قد يتعزى الأديب (بعد أن استعاد رفعته وكرامته) لأن بوسعه الآن أن يكتب حبا في الكتابة لا غير. وهكذا أشعر وأتعزّى عندما أجدها بعيدة في الزمن بعدا سحيقا (الآن وقد أبعدت يقظة الفكر كل المسوخ التي ولّدها سباته) وعندما أجدها لا ترتبط في روعتها بوقتنا الحاضر، غريبة في لازمنيتها عن آمالنا وعن ثوابتنا اليقينية.

ذلك لأنها قصة كتب، لا قصة مشاغل يومية، ويمكن أن تحثنا قراءتها على أن نتلو، مع المحاكي العظيم من "كامبيس" : "بحثت عن السّكينة في كلّ الأشياء، ولم أجدها إلاّ في ركن صحبة كتاب".

5 جانفي 1980

ملحوظة

ينقسم مخطوط أدسو إلى سبعة أيام وكل يوم إلى فترات توافق ساعات الفروض الدينية. أما العناوين الفرعية فمن المحتمل أن الأب "فالّي" هو الذي أضافها، وبما أنها مفيدة لتوجيه القارىء وبما أن هذا الإستعمال كان متداولا في الكثير من الأعمال الأدبية لتلك الفترة فإني لم أر داعيا لإلغائها.

حيرتني، شيئا ما، إشارات أدسو إلى الساعات الكنسية، ليس فقط لأنها تختلف حسب الأماكن والفصول ولكن لأنه من الأرجح أن التعليمات التي حدّدها القديس بندكت في قاعدته لم تكن في القرن الرابع عشر متّبعة بدقّة.

ومع ذلك، لتوجيه القارىء، ومستعينا من ناحية بما استنتجته من النصّ ومقارنا من ناحية أخرى، ما جاء في القاعدة الأصلية بما جاء في كتاب "إدوارد شنايدر" الذي يصف فيه الحياة الديرية "الساعات البندكتية" (باريس، غراسي، 1925)، أظن أنه بإمكاننا أن نثق بالتقديرات التالية :

أول الصبح : ويشير إليه أدسو أحيانا مستعملا الإسم القديم (Vigiliae) بين الثانية والنصف والثالثة ليلا.

صلاة الحمد : في التقاليد الأكثر قدما كانت تسمّى (Matutini) بين الخامسة والسادسة صباحا، بحيث يتم الفرض عند الفجر.

أولى : حوالي السابعة والنصف، قبل الشروق بقليل.

ثالثة : حوالي الساعة التاسعة.

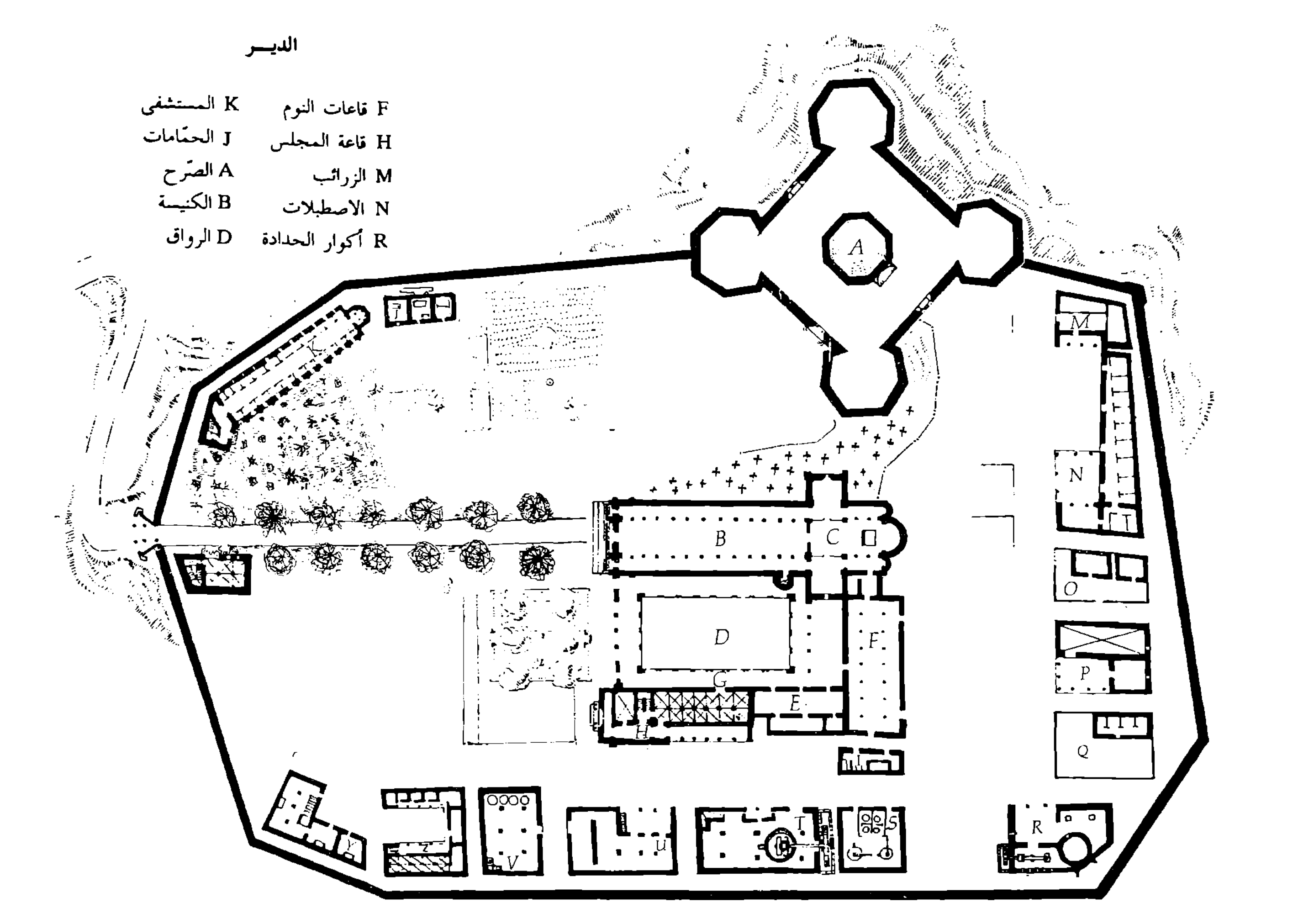
سادسة : منتصف النهار (في دير لا يعمل فيه الرهبان في الحقول، وفي الشتاء، هي أيضا ساعة الغداء)

تاسعة : بين الثانية والثالثة بعد الزوال.

صلاة الستّار : حوالي الساعة الرابعة والنصف، عند الغروب (تنص القاعدة على أن يتعشّى الرهبان قبل هبوط الليل).

صلاة النوم : حوالي الساعة السادسة (يذهب الرهبان إلى النوم في حدود الساعة السابعة).

يعتمد هذا الحساب على أنه في إيطاليا الشمالية، وفي أواخر نوفمبر، تبزغ الشمس الساعة السابعة والنصف تقريبا وتغرب حوالي الرابعة وأربعين دقيقة بعد الزوال.



الديـــر
F قاعات النوم
K المستشفى
H قاعة المجلس
J الحمّامات
M الزرائب
A الصّرح
N الاصطبلات
B الكنيسة
R أكوار الحدادة
D الرواق
A
B
C
D
E
F
G
H
J
K
M
N
O
P
Q
R
S
T
U
V
Y
Z

تمهيد

في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند اللّه وكان الكلمة اللّه. كان هذا هو البدء لدى الربّ وواجب الراهب المخلص هو أن يردّد كل يوم في ترتيل خاشع الحدث الوحيد والثابت الذي لا جدال في حقيقته الراسخة. ولكننا الآن نرى العالم من خلال صور ورموز، والحقيقة قبل أن تتجلّى لنا كاملة تنكشف من خلال لمحات (غامضة جدا للأسف) في خطايا العالم، وعلينا أن نهجّي دلالاتها الوفية، حتى عندما تبدو غامضة أو من فعل إرادة متفرّغة تماما لفعل الشرّ.

الآن وقد أشرفت حياتي الآثمة على نهايتها وصرت شيخاً هرماً مثل هذا العالم أنتظر أن أغيب في فضاء الألوهية اللامتناهي والصامت لأتحوّل إلى نور يستمدّ نوره من نور الملائكة - يشدني جسمي المثقل والمريض إلى هذه الحجرة من دير "مالك" العزيز، ها أنا أتهيّأ لأن أترك على هذا الرقّ بيّنة على الأحداث المدهشة والرهيبة التي عشتها وأنا شابّ، معيداً بالحرف والكلمة ما شاهدت وما سمعت، دون المجازفة بأيّ حكم أو استنتاج، كمن يترك للقادمين (إن لم يسبقهم المسيح الدجّال) دلالات لدلالات كي تتمرّس عليها عبادة فكّ الرموز.

ليجعلني الربّ بفضله شاهداً شفّافاً على أحداث وقعت في دير من الأفضل والأرحم أن لا أذكر حتى اسمه، في أواخر سنة 1327 للميلاد التي نزل فيها الإمبراطور لودفيك إلى إيطاليا لردّ الإعتبار للإمبراطورية الرومانية المقدّسة، حسب رسوم العلّي، ولتكذيب الغاصب والدنيء الهرطيق الذي لوّث في أفينيون بالفضيحة اسم الحواري المقدّس (أعني روح جياكومو دي كاهور الآثمة، الذي كرّمه الزنادقة تحت اسم جيوفاني الثاني والعشرين).

ولفهم الأحداث التي وجدت نفسي أشارك فيها فهماً جيّداً، قد يكون من الأفضل أن أذكّر بما كان يحدث في تلك الفترة من بداية القرن، كما فهمتها آنذاك

وأنا أعيشها، وكما أتذكّرها الآن وقد أضيفت إليها حكايات سمعتها من بعد إن استطاعت ذاكرتي أن تصل بين خيوط تلك الأحداث المتعدّدة والغامضة جدّاً.

منذ السنوات الأولى لذلك القرن حوّل البابا كليمانتي الخامس مقرّ الرسولية إلى أفنيون تاركاً روما فريسةً لأطماع الأسياد المحلّيين : وتحوّلت مدينة المسيحية المقدّسة تدريجياً إلى سيرك أو إلى ماخور، تمزّقها الصراعات بين كبار أعيانها، يسمّونها جمهورية وما كانت بجمهورية، تجوبها جماعات مسلّحة وترزح تحت وطأة العنف والنهب. وتملص الكهنة من السلطة المدنية فأصبحوا يقودون جماعات من المتمرّدين وينهبون شاهرين السيوف، بينما كان آخرون يخلون بواجباتهم الدينية ويمارسون المساومات الدنيئة.

كيف الحيلولة دون أن تصبح روما، من جديد وبحقّ، غاية من كان يريد أن يضع على رأسه تاج الإمبراطورية المقدسّة ويعيد المكانة إلى تلك السلطة الزمنيّة التي كانت سابقاً للقياصرة؟

وهكذا إذن نصّب خمسة أمراء ألمانيون سنة 1314 في فرانكفورت لودفيك البافاري على عرش الإمبراطورية. إلاّ أنه في نفس اليوم وعلى الضفة المقابلة من نهر المان، عيّن الكونت البلاطي "دي ران" ومطران كولونيا لنفس المنصب فريدريك النمساوي. قيصران إذن لكرسيّ واحد وبابا واحد لكرسيّين، وأصبحت تلك الوضعية حقيقة مصدر بلبلة عظيمة . . .

ثمّ بعد سنتين انتخب في أفنيون البابا الجديد، جياكومو دي كاهور، في الثانية والسبعين من عمره واتّخذ بالذات اسم جيوفاني الثاني والعشرين، وعسى أن تمنع الإدارة الإلهية أن يتّخذ أي حبر أبدا إسماً أصبح بغيضاً إلى تلك الدرجة لدى المسيحيين الطيبين. كان فرنسياً ومخلصاً لملك فرنسا (و أهل تلك البلاد المنحرفة يميلون دائماً إلى مراعاة مصالحهم، غير قادرين على النظر إلى العالم على أنه وطنهم الرمزي)، وساند فيليب الجميل ضدّ الهيكليين الذين اتّهمهم الملك (ظلماً على ما أظنّ)، بجرائم مخزية جدّاً قصد الإستحواذ على أملاكهم، بالتواطؤ مع ذلك الكاهن المارق. وفي الأثناء حشر روبارتو دي نابولي نفسه في تلك المؤامرة مقنعاً البابا، حتى تتسنّى له السيطرة على شبه الجزيرة، بأن لا يعترف بأيّ كان من الإمبراطورين الألمانيين، وهكذا بقي هو القائد العام للدولة الكنيسيّة.

وتغلّب لودوفيك البافاري سنة 1322 على خصمه فريدريك، وبما أن خشية جيوفاني من إمبراطور واحد كانت أكبر من خشيته عندما كانا إثنين، حرم الإمبراطور المنتصر، وهذا الأخير أدان بدوره البابا على أنه هرطيق. يجدر القول أنه في تلك السنة بالذات التأم في بيروجيا مجمع الإخوان الفرنشسكانيين وأعلن رئيسهم العام، ميكيلي دا تشيزينا أن "فقر المسيح" هو عقيدتهم وذلك بعد أن قبل لوائح "الروحانيين" - (و ستُتَاح لي فرص أخرى للتحدّث عنها)، معلناً أن المسيح إذا ما كان قد امتلك شيئاً من حواريّيه فقد امتلك فقط " للإستعمال الفعلي" . وكان قراراً فاضلاً، يهمّه الحفاظ على طهارة الرهبانية ونقاوتها، ولكنه لم يرق بالمرة للبابا، الذي ربما رأى فيه بادرة تهدّد ما كان يطمح إليه، كرئيس للكنيسة، من منازعة الإمبراطورية حقّ انتخاب الأساقفة مطالباً كمقابل للسدّة الرسولية حق تتويج الإمبراطور. ولهذه الدوافع، ولأسباب أخرى أدان جيوفاني مواقف الفرنشسكانيين سنة 1323 بإصدار الفتوى البابوية «Cum inter nonnullos».

وأتصوّر أنه عند ذلك الحدّ رأى لودوفيك في الفرنشسكانيين، الذين أصبحوا خصوم البابا، حلفاء له ذوي وزن. فهم بتأكيدهم على فقر المسيح كانوا بطريقة أخرى يعزّزون أفكار اللاهوتيين الإمبراطوريين، أي أفكار مارسيليو دا بادوفا وجيوفاني جياندونو. وأخيراً، بعد أشهر قليلة من الأحداث التي أرويها، نزل لودوفيك إلى إيطاليا بعد أن توصّل إلى إتفاق مع المهزوم فريدريك، وتوّج في ميلانو، ثم دخل في نزاع مع آل فيسكونتي، الذين كانوا قد تقبّلوه بارتياح، وحاصر مدينة بيزا وسمى كاستروتشيو، دوق لوكا وبيستويا نائباً إمبراطورياً (وأظنّ أنه أساء الفعل لأنني لم أعرف رجلاً أشدّ قسوة منه ما عدا ربما أوغوتشيوني ديلاّ فاجيولا)، وأخذ يتهيّأ للنزول إلى روما وقد دعاه إليها شيارّا كولونا سيّد ذلك المكان.

كانت هذه هي الوضعية عندما انتزعني أبي من هدوء دير "مالك" حيث كنت راهباً بندكتياً مبتدئاً، وكان هو من البارونات المقربين إلى لودوفيك ويحارب إلى جانبه، فرأى أنه من الأصواب أن يحملني معه كي أتعرّف على روائع البلاد الإيطالية وأحضر تتويج الإمبراطور في روما. ولكن حصار بيزا استحوذ على كل اهتمامه وانتهزت أنا تلك الفرصة لأتجول عبر مدن توسكانا، يدفعني إلى ذلك

الفراغ والشوق إلى المعرفة، ولكن أبويّ اعتبرا أن تلك الحياة الحرّة والخالية من القيود كانت غير لائقة بمراهق كرّس نفسه لحياة التعبد وعملا بنصيحة مارسيليو، الذي أصبح يحبّني، قرّرا أن يجعلاني برفقة عالم فرنشسكاني، الأخ غوليالمو دا باسكارفيل، الذي كان يستعد للقيام بمهمّة من المفروض أن تقوده إلى عدة مدن مشهورة وإلى اديرة عتيقة جداً. وهكذا أصبحت كاتبه وتلميذه في نفس الوقت، وما ندمت على ذلك، لأنني حضرت أحداثاً يجدر أن تبلّغ إلى ذاكرة من سيأتون بعدي، وهو ما أفعل حالياً.

لم أكن أعرف آنذاك عمّا كان يبحث غوليالمو والحقيقة أني لا أعرف ذلك حتى الآن، وأخمّن أنه كان هو الآخر لا يعرف ذلك، وإنما كانت تحرّكه فقط الرغبة في معرفة الحقيقة، والشكّ - الذي كان دائماً يبديه - بأن الحقيقة ليست تلك التي تظهر له في الآونة الحاضرة. وربما ألهته في تلك السنوات واجبات القرن المصيرية عن دراساته المحبذة. وبقيت أجهل المهمة التي عهد بها إلى غوليالمو طول السفرة أو بالأحرى لم يحدثني هو عنها. إلاّ أنه بالإستماع إلى بعض محادثاته مع رؤساء الأديرة التي توقفنا فيها خلال سفرتنا تكونت لي فكرة عن طبيعة المهمة التي كان يقوم بها. ولكنني لم أفهم ذلك تماماً إلاّ عندما وصلنا إلى نهاية مطافنا كما سيأتي ذكره. كنّا نتّجه نحو الشمال، ولكن رحلتنا لم تكن تتبع خطاً مستقيماً بل توقّفنا في عدّة أديرة. وحدث أيضاً أن حوّلنا وجهتنا نحو الغرب بينما كانت غايتنا النهائية نحو الشرق، متّبعين الخط الجبلي الذي يؤدي من "بيزا" إلى مسالك "سان جياكومو" متوقفين في مكان تردعني الأحداث الرهيبة التي وقعت فيه عن التعريف به أكثر. وكان أسياد المنطقة حلفاء الإمبراطور كما كان رؤساء أديرة نظامنا فيها متفقين معهم ضد البابا الهرطيق والضال. ودامت رحلتنا أسبوعين تخللتهما أحداث مختلفة، وأمكنني في تلك الفترة أن أتعرّف على أستاذي الجديد (معرفة غير تامة، كما أنا مقتنع دائماً بذلك).

ولن أطيل في الصفحات اللاحقة في وصف الأشخاص، إلاّ إذا بدت في ملامح وجه أو في إشارة علامات للغة صامتة ولكن بليغة - لأنه كما يقول بويتسيو، ليس هناك شيء أقرب إلى الزوال من المظهر الخارجي الذي يذبل ويتغير كأزهار الحقول عند وصول الخريف، وما معنى أن نقول اليوم أن رئيس الدير كان ذا لحظ صارم ووجنتين شاحبتين، بينما هو الآن مع من كانوا حوله

غبار، ومن الغبار اتخذت أجسادهم لون الموت الرمادي (إلا الروح، إن شاء الربّ، فهي تضيء بنور لن ينطفىء أبداً)؟ ولكني أريد أن أتحدّث عن غوليالمو، ودون العودة إلى ذلك، لأن ما راعني في شخصه هو ملامحه الغريبة، ومن طبيعة الشبّان فعلاً أن يتعلقوا بمن هم أكبر سناً وأوفى حكمة لا فقط لسحر كلامهم وفطنة فكرهم بل أيضاً لهيئة الجسم الخارجية، التي تصبح عزيزة عليهم كما يحدث بالنسبة إلى صورة الأب، الذي نترصّد حركاته وعلامات غضبه، ونراقب ابتسامته - دون أن يلوّث ظل الشبق تلك الصورة (ربما الوحيدة من حيث طهارتها) من الحب الجسدي.

كان رجال العهود الغابرة وسيمي الطلعة طويلي القامة (الآن أصبحوا أطفالاً وأقزاماً)، وليس هذا إلاّ دليلاً من جملة أدلة أخرى كثيرة، يشهد بتعاسة عالم يسير نحو الهرم. لم يعد الشباب يريد أن يتعلم شيئاً وأصبح العلم في انحطاط، والعلم بأسره يسير رأساً على عقب، عمياناً يقودون عمياناً آخرين إلى الهاوية، الطيور ترمي بنفسها قبل أن تطير، والحمير تعزف القيثارة، والثيران ترقص، و"مريم" لم تعد تحب حياة التأمل و"مارتا" لم تعد تحب الحياة النشيطة و"ليّا" عاقر و"راحيل" لها نظرة شهوانية و"كاتون" يتردد على الماخور و"لوكراس" يتحوّل إلى أنثى. كل شيء حاد عن طريقه. والحمد للّه أن تعلّمت في ذلك الوقت من أستاذي حبّ المعرفة ومفهوم الطريق القويم، الذي يبقى واضحاً حتى عندما يكون المسلك ملتوياً.

كانت إذن هيئة الأخ غوليالمو الجسدية تجلب انتباه الناظر الأكثر شروداً. كانت قامته تتجاوز قامة رجل عادي وكان من الهزال بحيث يبدو أكثر طولاً. كانت عيناه حادتين وثاقبتين، وكان أنفه المشيق والأقنى شيئاً ما يضفي على وجهه هيئة شخص متيقظ، إلا في لحظات فتور سأتحدث عنها فيما بعد. وذقنه أيضاً كانت تدلّ على إرادة قوية، حتى وإن كان ذلك الوجه المستطيل والمنمّش - كما رأيت ذلك غالباً عند من ولد بين إيبارنيا ونورثومبريا - ربما يوحي أحياناً بعدم الثقة في النفس وبالحيرة. وتفطنت بمرور الوقت إلى أن ما كان يبدو عدم الثقة كان على العكس فضولاً لا غير، ولكنني كنت أعرف القليل عن تلك الفضيلة التي كنت أظنها، على العكس، هوى النفس الشهوية، مؤمناً أن الفكر العقلاني لا ينبغي أن يتغذى منها، متشبعاً فقط بما هو حقيقي، وما هو حقيقي معروف منذ

البداية (حسب ما كنت أعتقد).

وكنت آنذاك صبيّاً، فكان أول ما أدهشني فيه خصيلات من الشعر المصفرّ تخرج من أذنيه، وحاجباه الكثيفان الأشقران. ربما كان في ربيعه الخمسين وإذن شيخاً مسنّاً، ولكنه كان يحرّك جسمه الذي كان لا يكلّ أبداً بخفّة غالباً ما كانت تعوزني. كان يبدو أن نشاطه لا ينضب عندما تأخذه حمية العمل. ولكن من حين لآخر، وكأنما لفكره الحي شيء من طبيعة السرطان، كان يسقط في فترات خمول ورأيته يبقى ساعات وساعات فوق فراشه في حجرته، متلفظاً بصعوبة بشبه كلمات، دون أن تتحرك في وجهه عضلة. في تلك اللحظات كان يبدو في عينيه تعبير فراغ وغياب، وربما ذهب بي الظن إلى أنه كان تحت تأثير بعض المواد النباتية التي بإمكانها أن تحدث رؤى، لو لم يكن يدفعني إلى رفض هذه الفكرة الإعتدال الواضح الذي كان ينظم حياته. لا أخفي مع ذلك أنه أثناء السفر توقف أحياناً على حافة مرج عند طرف غابة وقطف بعض النّباتات (و أظنها كانت دائماً نفس النبتة) : ثم أخذ في مضغها بشغف. وكان يحتفظ بشيء منها معه، ويأكلها في اللحظات الأكثر توتراً (و غالباً ما عشناها في الدير!). وعندما سألته عنها مرّةقال وهو يبتسم أن المسيحي الصالح يمكن أحياناً أن يتعلم أشياء من الكفار. وعندما طلبت منه أن يذيقني منها، أجاب أن الأعشاب هي كالكلام منه ما هو Paidikoi وما هو Ephebikoi ، وما هو Gynaikeioi ، إلى آخره والأعشاب النافعة لشيخ فرنشسكاني ليست نافعة لشاب بندكتي.

ولم يتح لنا في الفترة التي قضيناها معاً أن نعيش حياة منظمة : حتى في الدير حدث أن قضينا الليل يقظين ونمنا في النهار من شدة التعب، كما لم نشارك بصفة منتظمة في أداء الفروض المقدّسة. ومع ذلك قلّ أن رأيته أثناء السفر يسهر إلى ما بعد صلاة النوم وكان متعوّداً على الزهد والبساطة. كان يقضي أحياناً، كما حدث في الدير، كامل يومه يتجوّل في المقبلة فاحصاً النباتات كما لو كانت أحجاراً كريمة ورأيته يتجول في قبو الكنز متأملاً في علبة جواهر مرصّعة بالأحجار الكريمة والزمرّد كما لو كانت أجمة من الداتورة. ومرّات أخرى كان يقضي يوماً كاملاً في قاعة المكتبة الكبيرة يتصفّح بعض المخطوطات كما لو كان لا يبحث فيها إلاّ عن متعته الشخصية (بينما كانت تتعدّد من حولنا جثث الرهبان الذين قتلوا بصفة فضيعة) ووجدته يوماً يتجوّل في الحديقة، دون هدف واضح وكأنّه لن يسأل يوماً

أمام الرب عن أفعاله. لقد علّموني في النظام الرهباني الذي أنتمي إليه طريقة مختلفة تماماً لتوزيع وقتي، وقلت له ذلك فأجاب أن جمال الكون لا يتأتّى فقط من الوحدة في التنوّع ولكن أيضاً من التنوع في الوحدة. وبدا لي جواباً أملاه مبدأ عربي لا يستند إلى المعرفة، ولكنني عرفت فيما بعد أن أهل بلاده غالباً ما كانوا يعرفون الأشياء بطرق يبدو أن دور العقل النيّر فيها ضعيف جداً.

أثناء الفترة التي قضيناها في الدير رأيت دائماً يديه يغطيهما غبار الكتب، وذهب المنمنمات التي كانت لا تزال طرية ومواد مصفرّة كان قد لمسها في مستشفى سفرينو. كان يبدو أنه لا يقدر على التفكير إلاّ بيديه، وكان ذلك يبدو لي في الأول شيئاً جديراً أكثر بميكانيكي (و علموني أن الميكانيكي هو Moechus ، ويرتكب خيانة إزاء الحياة الفكرية التي كان ينبغي أن يجمعه بها وصال طاهر). ولكن حتى عندما يلمس أشياء رقيقة جداً، كبعض المخطوطات ذوات النمنمة الطريّة، أو صفحات أكلها الزمن وأصبحت هشّة كخبز بلا خميرة، كان يبدو أنه يمتلك رقة عجيبة، نفس الرقة التي كان يلمس بها آلاته. سأذكر فعلاً أن ذلك الرجل الغريب كان يحمل معه في جرابه آلات لم أرها قط من قبل، وكان يعرّفها على أنها آلاته العجيبة. وكان يقول لي إن الآلات من إنتاج الفنّ، والفنّ يقلّد الطبيعة كالقرد ولا تحاكي الآلات شكل الطبيعة فقط بل عملها نفسه. وشرح لي أساليب الساعة والأسطرلاب والمغناطيس. ولكنني في البداية خشيت أن تكون من أعمال السحر، وتظاهرت، في بعض الليالي الصافية بالنوم بينما أخذ هو يراقب النجوم (وقد وضع بين يديه مثلثاً غريباً). كان الفرنشسكانيون الذين عرفتهم في إيطاليا وفي بلادي بسطاء وأميين في الغالب، وعبّرت له عن دهشتي أمام اتساع معرفته، ولكنه قال لي مبتسماً أن فرنشسكانيّي جزره من طينة مختلفة : "يعلّمنا أستاذي الجليل روجي باكون أن الرسم الإلهي سيمرّ يوماً عبر علم الآلات، وهو سحر طبيعي ومقدس. وسيتمكّن الإنسان يوماً بقوة الطبيعة من صنع آلات ملاحة تجعل السفن تبحر بقيادة رجل واحد، وبسرعة تفوق بكثير قوة الأشرعة والمقاذف، وستكون هناك عربات تسير بدون أن تجرّها دوابّ من أي نوع كانت وبسرعة عظيمة كما ستصنع آلات تطير يجلس فيها الإنسان ويشغّل آلية تحرك أجنحة اصطناعية فتطير في الهواء مثل الطيور وآلات صغيرة ترفع أثقالاً لا مثال لها ومراكب تسير على قاع البحر".

وعندما سألته أين توجد تلك الآلات أجاب أنها صنعت قديماً وبعضها صنع حتى في وقتنا هذا وقال : إلاّ الآلة التي تطير لم أرها ولا عرفت من رآها، ولكنني أعرف عالماً فكّر فيها. ويمكن صنع جسور تمرّ على أنهار، دون أعمدة أو سند من أي نوع كان وآلات أخرى عجيبة. ولكن لا ينبغي أن تغتمّ إن لم تكن موجودة، لأن ذلك لا يعني أنها لن توجد يوماً. وأقول لك أن الرب يريدها أن تكون، ومن المؤكد أنها موجودة من قبل في فكره، حتى وإن نفى صديقي دي أوكّام وجود الأفكار على هذا الشكل، لا لأنه لا يمكننا الحكم على الطبيعة الإلهية، ولكن لأننا فعلاً لا نقدر أن نضع لها أيّ حدّ" . وما كانت هذه القضية الوحيدة المتناقضة التي سمعته يذكرها : ولكن إلى الآن وقد أصبحت أكبر سنّاً وأكثر حكمة لم أفهم تماماً كيف أمكنه أن يثق إلى تلك الدرجة بصديقه دي أوكّام وأن يؤمن في نفس الوقت بكل ما يقوله باكون، كما كانت عادته. صحيح أنها كانت أزمنة غامضة وكان على الرجل الحكيم أن يفكّر في أشياء متناقضة.

هو ذاك، لقد قلت عن الأخ غوليالمو ربما أشياء غريبة، كمن يجمّع منذ البداية الإنطباعات المتفكّكة التي أوحى إليّ بها آنذاك. من كان. ماذا كان يفعل، قد يمكنك يا قارئي العزيز أن تستنتج ذلك أحسن، من الأعمال التي قام بها خلال الأيام التي قضيناها في الدير. وما وعدتك أنا برسم متكامل وإنما بسلسلة من الأحداث (هذا صحيح) المدهشة والرهيبة.

وهكذا تعرّفت يوماً بعد يوم على أستاذي وتبادلت معه أثناء ساعات السفر الطويلة أحاديث مختلفة - سأذكرها عند اللزوم وأولاً بأولٍ إلى أن وصلنا إلى سفح الجبل الذي ينتصب على قمّته الدير وحان الوقت الآن، وكما فعلنا آنذاك، أن تقترب منه روايتي : وعسى أن لا ترتعش يدي وأنا أتهيأ لسرد ما حدث لنا بعد ذلك.

اليوم الأول

اليوم الأول

أولى

وفيه يصل أدسو وغوليالمو إلى أسفل الدير ويبرهن غوليالمو
على ذكاء حاد

كان ذلك صبيحة يوم جميل في أواخر نوفمبر، وقد سقط قليل من الثلج أثناء الليل، إلاّ أنه لم يكن يغشى الأرض إلاّ رداء خفيف لا يتعدى الثلاثة أصابع. وفيما كان الظلام لا يزال حالكاً استمعنا، بعيد صلاة الحمد، إلى القداس في قرية عند السفح، ثم واصلنا الرحيل نحو الجبال عند بزوغ الشمس.

وبينما كنّا نتسلّق المسلك الوعر الملتف بالجبل، إذ رأيت الدير. ولم تذهلني الأسوار المحيطة به من كل جانب، والتي كانت شبيهة بأخرى رأيتها في كل بلدان العالم المسيحي، وإنما أذهلتني ضخامة حجم ما عرفت فيما بعد أنه الصّرح. كانت بناية مثمّنة الزوايا تظهر من بعيد وكأنها رباعية الأضلاع (صورة تامة الكمال تعبر عن ثبات ومناعة مدينة اللّه) تنتصب جوانبها الجنوبية على الرحبة التي أقيم فوقها الدير، بينما كانت الشمالية منها تبدو وكأنها نشأت من الجبل نفسه وتتعرّق منه عمودياً. أعني أنه، في بعض النقاط، تظهر الصخور من الأسفل، وكأنها تتعالى نحو السماء لتصبح على ارتفاع ما برجاً وقلعةً، لا فرق بينهما في اللون وفي المادّة (من صنع عمالقة لهم ألفة كبيرة بالأرض وبالسماء). ثلاثة صفوف من النوافذ تدلّ على النسق الثلاثي الذي تمتاز به تعليته، ممّا يجعل ما هو مربّع على الأرض من الناحية المادية مثلّثاً في السماء من الناحية الروحية. وكلما ازداد الإقتراب منه تبيّن أن الشكل المربّع يولّد في كل زاوية من زواياه، برجاً مسبّع الزوايا خمس منها تمتد نحو الخارج - أربعة أضلاع إذن من المثمّن الأكبر تولّد أربعة مسبّعات أصغر، تظهر من الخارج في شكل مخمّسات. ومن لا يرى روعة انسجام كلّ هذه الأرقام المقدسة التي يكشف كل منها معنىً روحياً على غاية من

الدقّة! ثمانية هو رقم كمال كلّ مربّع، وأربعة هو عدد الأناجيل، وخمسة عدد جهات العالم وسبعة عدد هبات الروح القدس. أمّا عن الحجم والشكل فقد كان الصرح مشابهاً لما رأيت فيما بعد بجنوب شبه الجزيرة الإيطالية مثل كستال أورسيني وكستال دل مونطي، ولكن من حيث موقعه المنيع كان مهيباً أكثر منهما، وقادراً على بعث الرهبة في نفس المسافر الذي يقترب منه شيئاً فشيئاً. ومن حسن الحظ أن تلك الصبيحة الشتائية كانت على غاية من الصفاء، فلم تظهر لي البناية كما يمكن أن تبدو في الأيام العاصفة.

ولا أقول مع ذلك أنها كانت تثير مشاعر الإنبساط. فقد أفزعتني وأدخلت في نفسي رهبة غامضة. واللّه يعلم أنها لم تكن خيالات نفسي الغريرة بل كنت أفسرها بحق تفسيراً صحيحاً على أنها نذائر لا ريب فيها نقشت على الحِجارة، منذ اليوم الذي أخذت المردة في صنعها، وقبل أن تتجرّأ إرادة الرهبان المغرورة على تكريسها لحفظ الكلمة الإلهية.

وبينما كانت بغلتانا تتقدمان بصعوبة في المنعرج الأخير للجبل، حيث يتفرّع الدرب إلى ثلاثة مسالك، إثنان منها جانبيان، توقف أستاذي بعض الوقت، ينظر حواليه وإلى حافتي الطريق وعلى امتداده وفي أعلاه، حيث كانت توجد مجموعة من أشجار الصنوبر دائمة الخضرة تكوّن على طول مسافة قصيرة سقفاً طبيعياً غطّاه الثلج ببياضه وقال : دير غني يحب صاحبه أن يظهر في المناسبات العمومية بمظهر حسن.

وكنت معتاداً على أن أسمع منه أغرب الأقوال فلم أسأله، ثم بعد مسافة قصيرة، سمعنا جلبة وظهرت عند أحد المنعطفات زمرة مضطربة من الرهبان والخدم. وتقدم أحدهم نحونا عندما رآنا وقال بأدب جمّ : مرحباً يا سيدي، ولا تستغرب أن أعرف تخميناً من تكون، فقد أعلمونا بزيارتك. أنا رميجيو دا فراجيني، قيّم الدير. أنت على ما أظنّ الأخ غوليالمو دا باسكارفيل. يجب إذن إعلام رئيس الدير. والتفت إلى أحد الأتباع آمراً إياه : اصعد أنت وبلّغ أن زائرنا على وشك عبور حزام الدير!.

وأجاب أستاذي بمودّة : شكراً لك يا سيدي القيم. فقد توقفت عن الملاحقة لتحيّتي وهذا ما يجعلني أقدّر لطفك أكثر. ولكن لا تخف فقد مرّ الجواد من هنا واتّجه نحو الدرب على اليمين. لن يستطيع الذهاب بعيداً، إذ أنه سيُجبر على

التوقف عندما يصل إلى مصبّ الزبل. فهو أذكى من أن يلقي بنفسه في المنحدر . . .

فسأله القيّم : متى رأيتماه؟.

لم نره بالمرّة، أليس كذلك يا أدسو؟ - والتفت إليّ متفكّهاً - ولكن إن كنتم تبحثون عن برونيلّو فلا يمكن أن يكون إلاّ في المكان الذي أشرت إليه.

فتردّد القيّم وهو ينظر تارة إلى غوليالمو وتارة إلى الدرب، ثم سأله : برونيلّو؟ كيف عرفت ذلك؟.

فأجاب غوليالمو : يا للسؤال. من الواضح أنكم تبحثون عن برونيلّو، أفضل جواد لدى رئيس الدير وأحسن خيول اصطبلكم ركضاً. أسود الشعر، تبلغ قامته خمسة أقدام، فاخر الذيل، مستدير الحافر وصغيره انما منتظم الركض. صغير الراس، نحيف الأذنين ولكن واسع العينين. لقد قلت لكم إنه اتّجه نحو اليمين، على كل حال اسرعوا!.

لبث القيّم برهة متردداً ثم أشار إلى أتباعه ونزلوا متّبعين الدرب على اليمين، بينما تابعت بغلتان الصعود. وكنت على وشك أن أسأله، لفرط فضولي ولكنه أشار إليّ بالإنتظار : وفعلاً بعد لحظات قليلة سمعنا صيحات غبطة وعند منعطف الدرب ظهر الرهبان والخدم من جديد يقودون الجواد من لجامه ومرّوا بجانبنا وهم ينظرون إلينا ببعض الإندهاش ثم تقدّمونا إلى الدير. أظن أن غوليالمو أمهل مطيّته حتى يترك لهم الوقت لرواية ما حدث. وقد أتيح لي فعلاً أن أدرك أن أستاذي، الذي هو عموماً رجل ذو سجايا سامية، كان يترك الغرور يتملكه عندما يعطي برهاناً على حدة ذكائه. وبما أنه سبق لي أن أعجبت بتبصّره ويلباقته، فقد فهمت أنه كان يريد الوصول إلى مقصده، تسبقه شهرة متينة بأنه رجل واسع العلم.

في النهاية لم أقدر على التماسك أكثر وسألته : والآن قل لي، كيف فعلت لتعلم بذلك؟.

فقال : يا عزيزي أدسو. إنني منذ أن بدأنا الرحلة وأنا أعلّمك أن تقرأ الدلالات التي يكلّمنا بها العالم وكأنه كتاب كبير. لقد كان ألانو ديلّي إيزورلي يقول :

كل كائنات الدنيا،

هي لنا كتاب ورسم،
يتجلّى في مرآة.

وكان يعني الذخيرة التي لا تنفذ من الرموز التي يكلّمنا بها الربّ، من خلال كائناته، عن الحياة الأزلية. ولكن الكون أكثر بلاغة مما كان يظنّ ألانو فهو لا يتكلم فقط عن أمور الخاتمة (في هذه الحالة يكون دائماً غامضاً) بل حتى عمّا هو قريب، وهو عندئذ على غاية من الوضوح. أكاد أخجل من تكرار ما ينبغي أن تكون على علم به. عند مفترق الطرق، ارتسمت بكل وضوح على الثلج الذي لا يزال طريّاً آثار حوافر جواد، متّجهة نحو الدرب الذي كان على يسارنا. وكانت المسافة بين الحافر والآخر طيبة ومتساوية مما يدلّنا على أن الحافر كان صغيراً ومستديراً وأن الركض كان منتظماً جداً. واستنتجت من ذلك طبيعة الجواد وأنه لم يكن يعدو بارتباك كما تفعل الدابة المهتاجة. وحيث تكوّن أشجار الصنوبر سقفاً طبيعياً كسرت بعض الأغصان حديثاً على ارتفاع خمسة أقدام بالضبط. وفي إحدى أجمات التوت، حيث دار الحيوان ليأخذ المسلك على يمينه، وهو يحرّك ذيله الجميل باعتزاز، بقيت بين الأشواك شعرات طويلة شديدة السواد . . . وأخيراً لا تقل لي أنك لا تعرف أن ذلك المسلك يؤدي إلى مصب المزابل، لأننا عند صعودنا المنعطف السفلي رأينا سيلان الأوساخ ينزل عمودياً تحت البرج الجنوبي، ملوّثاً بياض الثلج. ونظراً لوضع مفترق الطرق فلا يمكن أن يؤدي ذلك المسلك إلا نحو ذلك الإتجاه.

فقلت : صحيح. ولكن الرأس الصغير، والأذنين النحيفتين، والعينين السوداوين . . .

– لا أعرف إن كان كما وصفته ولكنّي متأكّد من أن الرهبان يعتقدون ذلك بثبات. يقول أزيدورو دي سيفيليا أن جمال الجواد "يتطلب أن يكون له رأس صغير وعظميّ كما لو كان الجلد ملتصقاً بالعظم، وأذنان نحيفتان ومذبّبتان وعينان كبيرتان ومنخران واسعان ورقبة مستقيمة وعرف وذيل فاخران وحافر مستدير ثابت" . فلو لم يكن الجواد الذي استنتجت أنه مرّ من هنا أحسن جواد في الإصطبل فلا يمكنك أن تفسّر لماذا لم يخرج السوّاس وحدهم لملاحقته وإنما تكلّف عناء ذلك القيّم نفسه. والراهب الذي يعتبر جواداً ما ممتازاً، زيادة على شكله الطبيعي، لا يمكن أن يراه إلاّ كما وصفه له أهل المعرفة، خاصة – ونظر

إليّ بابتسامة خبيثة - خاصّة إذا كان ذلك الراهب بندكتياً علاّمة . . .

فقلت : حسناً. ولكن لماذا سميّته برونيلّو؟.

فصاح أستاذي : ليمنحك روح القدس فهماً أكثر مما يحويه دماغك يا ولدي! وكيف تريد أن تسميه إذا كان بوريدانو العظيم، الذي يوشك أن يصبح رئيس جامعة في باريس، عندما تحدث عن جواد جميل، لم يجد إسماً أرشق من برونيلّو؟

هكذا كان أستاذي. لم يكن يعرف قراءة كتاب الطبيعة الكبير فحسب بل والكيفية التي كان الرهبان يقرأون بها الكتب المقدسة ويفكرون من خلالها. وهي خصال ستعود عليه في الأيام اللاحقة، كما سنرى فيما بعد، بكثير من النفع. ومن جهة أخرى بدا لي تفسيره جليّاً إلى حدّ أن الخزي الذي أحسستُ به لعدم التوصل إليه بمفردي ترك الآن المجال للإعتزاز، لمساهمتي فيه وكدت أهنىء نفسي بذكائي. تلك قوّة الحقيقة، فهي كالخير تشيع من تلقاء نفسها. وليتمجّد اسم سيدنا المسيح المقدس لما ألهمت به.

ولكن استمرّي أيتها القصة فهذا الراهب الشيخ يطيل التوقف عند التفاصيل الهامشية، وقل بالأحرى أننا وصلنا إلى بوابة الدير الكبيرة، يقف على عتبتها رئيس الدير ومعه راهبان مبتدئان يحملان طشتاً ذهبياً صغيراً مليئاً بالماء. وعندما نزلنا عن دابتينا غسل يدي غوليالمو ثم ضمه إلى صدره وقبله على فمه مقدماً إليه تحيته المقدسة بينما كان القيّم يعتني به، وقال غوليالمو : شكراً لك يا أبّوني. إن الفرحة تغمرني وأنا أضع قدمي على أرض ديركم الجليل، الذي ذاع صيته إلى ما وراء هذه الجبال. إني أتيته زائراً باسم سيدنا المسيح وبهذه الصفة أكرمتموني. ولكنني أتيته أيضاً باسم مولانا على هذه الأرض، كما ستقول إليكم الرسالة التي أسلّمها إليكم، وباسمه أيضاً أشكركم على حسن ضيافتكم.

وتسلّم رئيس الدير الرسالة التي كانت تحمل الختم الإمبراطوري قائلاً أن مجيء غوليالمو كانت قد سبقته على كل حال رسائل من إخوانه (مما جعلني أستنتج بشيء من الزهو، أنه من الصعب مفاجأة رئيس دير بندكتي)، ثم رجا القيّم أن يقودنا إلى مسكنينا، بينما تسلّم السواس منا دابتينا. ووعد رئيس الدير أن يزورنا بعد حين عندما نكون قد أصبنا قليلاً من الطعام. ودخلنا الساحة الكبيرة التي تمتدّ فوقها بناءات الدير، على طول الرحبة التي كسرت قمة الجبل فجعلت

منها منخفضاً ليّناً أو مرعى.

ستتاح لي الفرصة أكثر من مرّة للحديث عن تنظيم الدير، و بدقة أكثر. وراء البوابة الكبيرة (و هي الفتحة الوحيدة في أسوار الحزام) ينفتح شارع متّسع تحفّ به الأشجار يقود إلى كنيسة الدير. وعلى يسار الشارع تمتدّ مساحة واسعة من المباقل، من بينها كما علمت فيما بعد الحديقة النباتية، تحيط بالحمامات وبمبنى المستشفى ومخزن الأعشاب، اللذين يحاذيان انعطافة الأسوار. في آخر الشارع، على شمال الكنيسة، يرتفع الصّرح، تفصله عن الكنيسة رحبة تغطيها القبور. وتطلّ بوابة الكنيسة الشمالية على البرج الجنوبي للصرح الذي يترك نظر الزائر يقع مباشرة على البرج الغربي، ثم يلتئم على اليسار بالأسوار ويتردّى بأبراجه في الهاوية التي يرتفع منها البرج الشمالي وقد بدا للعيان جانبياً. وعلى يمين الكنيسة تمتد بعض البناءات من خلفها وحول الرواق : هي دون شك قاعة النوم وإقامة رئيس الدير ودار الضيافة التي كنا متّجهين إليها والتي وصلناها بعد أن اجتزنا حديقة جميلة. وعلى الجانب الأيمن، وراء فسحة كبيرة، كانت توجد مجموعة من الأحياء الفلاحية تشمل الإصطبلات والمطاحن والمعاصر والمخازن والأقبية وتلك التي بدا لي أنها إقامة الرهبان المبتدئين، وكانت كل هذه البناءات تحاذي الأسوار الجنوبية إلى شرقي الكنيسة وخلفها. وقد سمحت استواءة سطح المرتفع، الذي كان قليل التموج، لمشيّدي هذا المكان المقدس الأقدمين باحترام ما تمليه قواعد التوجيه، أحسن مما يمكن أن يطمح إليه أونوريو أو غوستونينسي أو غوليالمو دوراندو. فمن موقع الشمس في تلك الساعة من النهار، لاحظت أن البوابة تُطلّ بأكملها على الغرب، بحيث يكون إتجاه الخورس والمذبح نحو الشرق، مما يجعل الشمس عند بزوغها في الصباح الباكر توقظ مباشرة الرهبان في المرقد والحيوانات في الإصطبلات. لم يسبق لي أن رأيت ديراً أجمل وأفضل توجهاً، حتى بعد أن عرفت سان غالّو، وكولوني وفونطيني وأخرى غيرها، ربما كانت أكبر من هذا الدير ولكنها أقلّ تناسباً. ويختلف هذا الدير عن غيره بضخامة حجم الصّرح. ومع أني لا أملك خبرة الباني المحنّك، فسرعان ما لاحظت أنه أقدم من البناءات الأخرى المحيطة به، ربما كان قد شُيّد لأغراض أخرى، ثم تكونت حوله في عقود لاحقة المجموعة الديرية، ولكن بصفة تجعل اتجاه المبنى الكبير يتلاءم مع اتجاه الكنيسة، والعكس. لأن الهندسة المعمارية، من بين كل

الفنون، هي تلك التي تحاول بكل جرأة أن تنقل في نسقها نسق الكون والتي كان الأقدمون يسمّونها «كوسموس» أي مزخرف، لأنها بمثابة حيوانٍ عظيم يتجلّى فيه تكامل وتناسب كل أعضائه، وليُحمد الخالق الذي، كما يقول أغوسطينو، حدّد كل شيء عدداً ووزناً وقياساً.

ثالثة

وفيه يجري غوليالمو محادثة مفيدة مع رئيس الدير

كان القيّم بديناً، مبتذل المظهر وإن كان بشوشاً، أشيب الشعر وإن كان لا يزال قوياً، قصير القامة وإن كان سريع الخطى. وقادنا إلى حجرتنا في دار الضيافة. أو بالأحرى اصطحبنا إلى الحجرة المعدّة لأستاذي، ووعدني بحجرة ثانية في اليوم التالي، إذ أنني ضيفهم، ولو كنت مبتدئاً، ولذا ينبغي معاملتي بكل تبجيل. وكان عليّ أن أنام تلك الليلة في تجويف واسع وطويل جعل في جدار الحجرة، فرشت أرضه بالتبن الطريّ، وأضاف القيّم أنه يستعمل أحياناً لنوم خدم بعض الأسياد الذين يرغبون في وجود من يحرسهم أثناء النوم.

ثم حمل إلينا الرهبان خمراً وجبناً وزيتوناً وزبيباً لذيذاً، وتركونا لنقتات، فأكلنا وشربنا بكثير من المتعة. ولم يكن أستاذي يتبع عادات البندكتيين الصارمة ولا يحب أن يأكل في صمت. فكان يتحدث دائماً عن أشياء طيبة وصائبة جداً كما لو كان هناك راهب يقرأ علينا حياة القدّيسين.

لم أقدر، ذلك اليوم، على التماسك عن سؤاله ثانية بخصوص قصة الجواد، فقلت : ولكنك، عندما قرأت العلامات على الثلج وعلى الأغصان، لم تكن تعرف برونيلّو. تلك العلامات كانت تحدثنا، بطريقة من الطرق، عن كل الخيول، أو على الأقلّ عن الخيول المنتمية لذلك الجنس. ألا ينبغي أن نقول إذن أن كتاب الطبيعة يحدثنا فقط عن جوهر الأشياء، كما يعلّمنا الكثير من كبار علماء اللاهوت.

فأجاب أستاذي : ليس الأمر كذلك تماماً، يا عزيزي أدسو. أكيد أن مثل تلك الآثار تقدّم لي، إن أردت، "صورة ذهنية" عن الجواد، وسيعبّر لي عن ذلك أينما عثرت عليها. ولكن الأثر في ذلك المكان وفي تلك الساعة من النهار كان يقول

لي أن واحداً على الأقل من مجموع الخيول المفترضة قد مرّ من هناك بحيث وجدت نفسي في منتصف الطريق، بين استيعاب مفهوم الجواد والتعرّف على جواد معيّن. وعلى كل حال، فإن ما أعرفه عن الجواد في العموم قد دلّني عليه الأثر، الذي كان دقيقاًو يمكنني أن أقول أنني كنت في تلك الآونة حبيساً بين دقة الأثر وجهلي، الذي كان يتّخذ شكل فكرة مطلقة على غاية من الضبابية. فإن أنت رأيت شيئاً من بعيد، دون أن تعرف ما هو، فستكتفي بتعريفه كجرم ممتدّ. وعندما يقترب منك ستعرف آنذاك أنه حيوان، حتى وإن كنت تجهل إن كان جواداً أو حماراً. وعندما يقترب أكثر سيمكنك القول أنه جواد وإن كنت لا تعرف بعد إن كان برونيلّو (أي ذلك الجواد لا غيره، كيفما أردت تسميته). وستكون تلك هي المعرفة الكاملة، أو إدراك خصوصيّة الشيء عن طريق الحدس. وهكذا كنت أنا منذ ساعة. كنت مستعدّاً لتقبل كل أجناس الخيول، لا لاتساع إدراكي ولكن لضعف حدسي. ولم أشف غليلي من المعرفة إلاّ عندما رأيت ذلك الجواد بالذات يقوده الرهبان من لجامه. عندها فقط تحقّقت من أن تخميني الأول قادني قريباً من الحقيقة. وهكذا كانت الأفكار التي خطرت لي في البداية لتصور جواد لم أره من قبل، كانت دلالات بحتة، كما كانت الآثار فوق الثلج دلالات لمفهوم جواد : فنحن نستعمل الدلالات، ودلالات الدلالات فقط عندما تنقصنا الأشياء.

لقد سبق لي أن سمعته يتحدّث بكثير من التحفظ عن الأفكار المطلقة وباحترام كبير عن الأشياء الخصوصية : وبدَا لي، حتى فيما بعد، أن هذا الميل كان يأتيه من كونه بريطانياً ومن كونه فرنشسكانياً. ولكن لم تكن لديّ ذلك اليوم القوة الكافية لمجابهة نقاش لاهوتي : فانكمشت على نفسي في الفضاء المخصّص لي، والتففت في غطاء ثم غرقت في نوم عميق.

كان يمكن لمن يدخل أن يظنني صرّة. وذلك ما حدث بالتأكيد لرئيس الدير عندما جاء حوالي "ثالثة" لزيارة غوليالمو. وتمكنت إذن من سماع محادثتهما الأولى، دون أن ينتبها إليّ، ودون خبث لأن ظهوري فجأة للزائر سيكون فيه من قلّة الأدب أكثر مما سيكون في اختفائي، كما فعلت بكل تواضع.

دخل إذن أبّوني واعتذر للإزعاج، مجدداً ترحابه. ثم قال أنه يودّ التحدث إلى غوليالمو، على انفراد، وفي شيء على غاية من الأهمية.

واستهلّ حديثه بتهنئته على المهارة التي أبداها بخصوص الجواد وسأله كيف

أمكنه أن يعطي أخباراً دقيقة جداً حول دابّة لم يرها من قبل. فشرح له غوليالمو بإيجاز وتجرّد، السبيل الذي سلكه وسُرّ رئيس الدير بفطنته وقال أنه لم يكن ينتظر أقل من ذلك من رجل سبقته الشهرة بأنه ثاقب الفكر. وأضاف قائلاً أنه تلّقى رسالة من رئيس دير فارنا يحدّثه فيها عن المهمّة التي عهد بها الإمبراطور إلى غوليالمو (و التي ستناقش في الأيام المقبلة) ولكن يقول فيها أيضاً أن أستاذي كان فيما مضى محقّقاً في إنجلترا وفي إيطاليا في بعض القضايا، التي تميّز فيها بفطنة فائقة اقترنت بمشاعر إنسانية كبيرة.

وأضاف رئيس الدير قائلاً : لقد سررت عندما بلغني أنك حكمت في عدّة قضايا ببراءة المتّهم. إني أؤمن، خاصة في هذه الأيام المحزنة بتدخّل الشيطان المستمرّ في شؤون الإنسان - ثم نظر حواليه بحذر كما لو كان العدوّ يطوف بين تلك الجدران - ولكنني أعتقد أيضاً أن الشيطان يعمل في كثير من الأحيان لأغراض ثانية. وأعرف أنه بوسعه أن يدفع ضحاياه لفعل الشرّ بطريقة تجعل الذنب يقع على بريء، ملتذاً برؤيته يحترق بدلاً من الجاني. وغالباً ما ينتزع المحققون الإعتراف من المتّهم بكل الوسائل، حتى يبرهنوا على مهارتهم، لاعتقادهم أن المحقّق المقتدر هو الذي يتحصّل في نهاية التحقيق على كبش الفداء . . .

فقال غوليالمو : يحدث أيضاً أن يكون المحقّق محرّكاً من طرف الشيطان. فأيده رئيس الدير بكثير من الحذر : هذا ممكن، لأن تدابير العليّ خفية علينا، ولكنّي لن أرتاب في رجال لهم مثل تلك الكفاءة والفضل، بل بالعكس، أنا اليوم بحاجة إليك، بصفتك واحداً منهم. لقد حدث في هذا الدير شيء يستوجب تيقظ ونصيحة رجل ثاقب الفكر حصيف. ثاقب الفكر ليكشف وحصيف كي يغطّي (إذا اقتضى الأمر). فغالباً ما يقتضي الأمر أن يُثبت جرائم رجال كان ينبغي أن يمتازوا بطهارتهم، ولكن يجب أن يقع ذلك بطريقة يُنتزع بها أصل الشرّ دون تعريض المذنب لازدراء العامّة. عندما يخطىء الراعي ينبغي إبعاده عن بقية الرعاة، ولكن الويل إذا ما أخذت النعاج ترتاب في الرعاة.

فقال غوليالمو : فهمت، - وقد أمكن لي أن ألاحظ أنه عندما يجيب بتلك الطريقة السريعة والمؤدّبة، فهو يخفي عادة، بكل صدق، اختلاف رأيه أو حيرته.

فتابع رئيس الدير قائلاً : لذا أرى أنه عندما يحدث أمر يتعلّق بزلّة أحد الرعاة

فلا يمكن أن يعهد به إلاّ لرجال مثلك، لا يفرقون بين الخير والشرّ فحسب، بل وأيضاً بين ما هو ملائم وما هو غير ملائم. وما يسرّني أنني أعتقد أنّك لم تصرّح بالإدانة إلاّ عندما . . .

– . . . إلاّ عندما اقترف المتّهمون أعمالاً إجرامية، من تسميم، وإفساد لأطفال أبرياء وأعمال شنيعة أخرى لا يجرؤ لساني على التلفظ بها . . .

فواصل رئيس الدير دون مبالاة بمقاطعة كلامه : . . . إنك لم تصرّح بالإدانة إلاّ عندما بدا حضور الشيطان واضحاً للجميع بحيث لا يمكن التصرّف بطريقة مختلفة وإلاّ أصبح الصفح أشنع من الجريمة نفسها.

فأوضح غوليالمو قائلاً : عندما يتأكّد لي جرم متّهم فذلك يعني أنه اقترف الجرم حقّاً بحيث يمكنني أن أسلّمه إلى السلطة المدنيّة وأنا مرتاح الضمير.

فتردّد رئيس الدير لحظة ثم سأله : لماذا تلّح على الأعمال الإجرامية دون التعرّض لأسبابها الشيطانية؟

– لأن الكلام عن العلّة والمعلول صعب، ولا يقدر على الفصل فيه إلاّ اللّه. وإذ يصعب علينا كثيراً ربط علاقة بين معلول واضح كشجرة محترقة والصاعقة التي أحرقتها، فما بالك لو راجعنا سلاسل أحياناً طويلة جداً من العلل والمعلولات، فهذا يبدو لي من الجنون بقدر محاولة بناء برج يصل إلى السماء.

فأوعز رئيس الدير : إن العلاّمة الأكويني لم يخش أن يثبت وجود اللّه بقوة الفكر وحدها، راجعاً من علّة إلى علّة حتى العلّة الأولى التي لا علّة لها.

فقال غوليالمو بتواضع : من أنا حتى أعارض العالم الأكويني؟ خاصة وأن بيّنات عديدة أخرى تدعّم إثباته لوجود اللّه، مما يزيد منهجه قوّة. إن الإله يحدّثنا من أعماق نفوسنا، كما أدرك ذلك أغوسطينو، وأنت يا أبّوني ستسبّح بحمد الإله وبجلاء وجوده حتى ولو أن تُومَا لم . . . وتوقف، ثم أضاف : يبدو لي . . .

فسارع رئيس الدير بطمأنته : آه، بدون شكّ. وهكذا وضع أستاذي حداً بطريقة رائعة، لمناقشة مدرسية كان من الواضح أنها لم تكن تروقه كثيراً. وبعد ذلك عاد ليقول :

لنعد إلى المحاكمات. لنفترض أن شخصاً قُتل مسموماً. يمكنني من خلال التجربة أن أتصوّر، أمام بعض العلامات غير القابلة للجدال، أن شخصاً آخر قام بعملية التسميم. يمكن لفكري، في نطاق هذا التسلسل البسيط من العلل، أن

يعمل وهو واثق شيئاً ما من قدراته. ولكن كيف يمكنني أن أعقّد السلسلة متصوّراً، أن من سبّب الفعلة الشريرة هو تدخّل آخر، غير إنساني هذه المرّة بل شيطاني؟ لا أقول أن ذلك مستحيل، فالشيطان أيضاً يكشف مروره بدلالات واضحة، كجوادك برونيلّو. ولكن لماذا البحث عن تلك البراهين؟ ألا يكفيني أن أعرف أن المذنب هو ذلك الرجل وأن أسلّمه إلى السلطة المدنية؟ على كلّ حال سيكون عقابه الموت، وليغفر اللّه له.

- ولكن تبيّن لي أنه في محاكمة جرت في كلكيني منذ ثلاث سنوات، اتُّهِم فيها ثلاثة أشخاص بجرائم فظيعة، لم تنف تدخّل الشيطان، وذلك بعد أن اتّضح من هم الجناة.

- ولكني لم أُؤَكد ذلك أبداً بكلمات صريحة. لم أنفه أيضاً، هذا صحيح. من أنا حتى أحكم على دسائس الشيطان، خاصة، - وأضاف كمن يريد أن يؤكد على هذا السبب - خاصة في حالات كان يرغب كلّ من أُمروا بالتحقيق - الأسقف، والقضاة المدنيون والشعب كلّه، وربما المتّهمون أنفسهم - في أن يحسّوا حقيقة بوجود الشيطان؟ هو ذاك، لعلّ البرهان الحقيقي الوحيد على وجود الشيطان هو القوة التي يتوق بها الجميع في تلك الآونة إلى معرفة أنه بصدد العمل . . .

فقال رئيس الدير بنبرة تنّم عن القلق : أنت تقول أيضاً أنه في كثير من المحاكمات لا يؤثر الشيطان فقط في المذنب بل ربما وخاصة في القضاة؟ .

فسأله غوليالمو : أيمكنني أن أجزم بمثل هذا؟ .

وشعرت بأن السؤال طرح بحيث لا يستطيع رئيس الدير الجزم بأنه يمكنه ذلك، وهكذا اغتنم غوليالمو صمته ليغيّر مجرى الحديث وتابع كلامه قائلاً : في الحقيقة هذه الأشياء مضى عليها وقت طويل. لقد تخلّيت عن تلك المهنة النبيلة، ولئن امتهنتها فلأن تلك كانت إرادة الإله . . .

فأقرّ رئيس الدير قائلاً : دون شكّ.

ثم تابع غوليالمو : والآن أهتم بمسائل أخرى دقيقة. وأودّ أن أهتمّ بتلك التي تشغل بالك لو حدّثتني عنها.

بدا لي أن رئيس الدير ارتاح لإنهاء تلك المناقشة وللعودة إلى مشكلته.

وأخذ إذن، بكثير من الحذر في اختيار الكلمات ويلفّ طويل في الكلام، في رواية حدث غريب وقع منذ بضعة أيام وخلّف اضطراباً كبيراً بين الرهبان. وقال إنه

يحدّث غوليالمو في ذلك لأنه يعرفه خبيراً بالنفس الإنسانية وبدسائس الشيطان وأنه يأمل أن يخصّص البعض من وقته الثمين لإزالة القناع عن لغز غامض ومؤلم جدّاً. حدث إذن أن أحد المعّازين عثر في قاع المنحدر الذي يعلوه البرج الشرقي للصّرح على جثّة أَدَالمو دا أوترانتو، وهو راهب لا يزال في مقتبل العمر مع أن صيته ذاع في فنّ النمنمة وكان بصدد زخرفة مخطوطات المكتبة بصور رائعة. وبما أن الرهبان الآخرون رأوه في الخورس عند صلاة النوم ولكنه لم يظهر عند صلاة أوّل الصبح فمن الظّن أن يكون قد سقط في المنحدر عند أحلك ساعات الليل ظلاماً.

وكانت قد هبّت في تلك الليلة عاصفة ثلجية قويّة، سقطت أثناءها ندفات من الثلج قاطع كالشفرات، حتى أنها كانت تبدو برداً، تدفعها دبور عنيفة. وعُثر على جثته في أسفل الهوّة وقد مزّقتها الصُخور التي اصطدمت بها وبلّلها الثلج الذي ذاب في البداية ثم يبس فأصبح صفائح من الجليد، جسد فان مسكين وضعيف، ليغفر له الربّ. ومن جرّاء الإصطدامات التي تعرّض لها الجسم أثناء سقوطه، لم يكن من السهل تحديد النقطة التي سقط منها بالضبط : لا شكّ من إحدى النوافذ التي تفتح على ثلاثة صفوف من الطوابق في جوانب البرج الأربعة المطلّة على الهاوية.

فسأل غوليالمو : وأين دفنتم الجثة المسكينة؟

وأجاب رئيس الدير : في المقبرة، بطبيعة الحال. ربما لاحظت موقعها بين جانب الكنيسة الشمالي والصرح والمبقلة.

فقال غوليالمو : فهمت . . فهمت أن مشكلتك هي الآتية. لو كان ذلك المسكين، لا سمح اللّه، قد انتحر (إذ لا يمكن أن نتصور أنه سقط صدفة) لوجدت في اليوم الموالي إحدى تلك النوافذ مفتوحة، إلاّ أنك وجدتها كلّها مغلقة، ولا أثر للماء في أسفل أية نافذة منها.

كان رئيس الدير كما ذكرت، رجلاً ذا تحكّم كبير في نفسه، ولكن بدت عنه هذه المرّة حركة دلّت على فرط المفاجأة، ونزعت عنه المظهر الذي يليق بالشخص الوقور والشهم، كما يريده آرسطو وسأل : من قال لك ذلك؟ فأجاب غوليالمو : أنت الذي قلت لي. لو أنك وجدت النافذة مفتوحة لذهب فكرك في الحال إلى كونه رمى نفسه منها. وهي، كما أمكنني أن أتصوّرها من الخارج، نوافذ كبيرة ذات زجاج سميك، من تلك التي لا تفتح في العادة، وفي مبان من هذا الحجم لا تكون على ارتفاع قامة رجل. ولو فرضنا إذن أن نافذة قد فتحت،

وبما أنه لا يمكن أن يكون ذلك الشقي قد أطلّ منها ففقد توازنه، لم يبق إلاّ أن نتصور أنه انتحر. وفي هذه الحال ما كنت سمحت بدفنه في المقبرة المقدّسة، ولكنك دفنته حسب الطقوس المسيحية، فالنوافذ كانت إذن مغلقة. لأنه إذا كانت مغلقة، وبما أنه لم تعترضني حتى في قضايا السّحر حالة ميّت سادر في غيّه مكّنته القدرة الإلهية أو الشيطانية من الصعود ثانية من المنحدر لفسخ آثار جرمه، يصبح جلياً أن المنتحر قد دفعته بالأحرى يد، إنسانية كانت أو شيطانية. وأنت تتساءل من يكون، لا أقول من دفعه في الهاوية، بل من رفعه بالرّغم منه حتى حافة النافذة، وتحسّ بالإنزعاج لأن قوّة شريرة، طبيعية كانت أو فوق طبيعية، تطوف الآن عبر أرجاء الدير.

فقال رئيس الدير : الأمر كما تقول . . . - ولم يكن واضحاً إن كان يؤيد أقوال غوليالمو أو كان يقنع نفسه بالحجج التي أثبتها أستاذي ببراعة كبيرة - "ولكن كيف عرفت أنه لم يكن هناك ماء في أسفل أية نافذة؟»

- لقد قلت لي أن دبوراً كانت تهبّ بعنف ولا يمكنها إذن أن تدفع الماء نحو نوافذ تفتح على الشرق.

فقال رئيس الدير : إن مناقبك تفوق ما قيل لي. صحيح لم يكن هناك ماء، والآن أعرف لماذا. لأن الأمر وقع كما ذكرت. أنت تفهم إذن سرّ قلقي. إنها لكارثة لو تشوّه أحد رهباني بخطيئة الإنتحار المنكرة، ولكن الآن لدي ما يوجب الظن أن أحد الرهبان ارتكب إثماً لا يقلّ فضاعة عن الأوّل . . . ويا ليته كان الإثم الوحيد . . .

- قبل كلّ شيء، لماذا قلت أحد الرهبان؟ يعيش في الدير أشخاص آخرون كثيرون من سوّاس ومعّازين وخدم . . .

فأقرّ رئيس الدير متباهياً : أكيد، هذا الدير صغير ولكنه ثري. مائة وخمسون خادماً مقابل ستين راهباً. ولكن حدث كلّ شيء في الصّرح. وهناك، ربما أنت تعرف ذلك : يوجد المطبخ وقاعة الأكل في الطابق الأول، وتوجد في الطابقين العلويين قاعة الكتابة والمكتبة. بعد وجبة العشاء يغلق الصرح مع أمر صارم بمنع الدخول على أيّ كان، - ثم تكهّن بسؤال غوليالمو وأضاف فوراً ولكن على مضض - بما في ذلك الرهبان بطبيعة الحال، ولكن . . .

- ولكن؟

- ولكنني أنفي قطعاً، أفهمت؟ قطعاً، أن يكون قد تجرّأ خادم ودخل الصرح أثناء الليل. - وومض في عينيه بريق تحدّ، ولكنه كان خاطفاً كومضة برق أو شهب سيّار - قل إنهم يخافون، فهمت . . . في بعض الأحيان ينبغي دعم الأوامر التي تعطى للخدم ببعض التهديدات، كإنذار من يعصي الأوامر بوقوع شيء رهيب، مأتاه قوة فوق طبيعية، أما الراهب . . .

- فهمت.

- هناك شيء آخر. يمكن أن يجد راهب أسباباً أخرى تجعله يخاطر بالدخول إلى مكان ممنوع، أعني أسباباً . . . كيف يمكن أن أقول! معقولة ولو أنها تخالف النظام . . . .

وفطن غوليالمو إلى حرج رئيس الدير فألقى سؤالاً ربما أراد به تغيير مجرى الحديث، ولكنه ولّد مثل الأوّل حرجاً كبيراً : عندما تحدّثت عن إمكانية القتل قلت : يا ليته كان الإثم الوحيد. ماذا كنت تريد أن تقول؟

- أنا قلت ذلك؟ إذن، لا يقتل الإنسان دون سبب، وإن كان ضالاً. وإني أرتعد عند التفكير في ضلال الأسباب التي يمكن أن تكون أدّت براهب إلى قتل أخيه. هو ذا.

- لا غير؟

- لا يمكنني أن أقول لك غير هذا.

- تريد أن تقول أنك لا تقدر أن تقول شيء آخر؟.

- أرجوك أيها الأخ غوليالمو يا أخي غوليالمو -، وأكّد رئيس الدير على كلّ من لفظتي "أخ" و"أخي" - فاحمرّ وجه غوليالمو بشدّة وعلّق قائلاً : ليجعلك الربّ دائماً من كهنته - وردّ رئيس الدير : شكراً.

آه، يا إلٰهي، ما السرّ الرهيب الذي مرّ في تلك اللحظة بخاطر رئيسيَّ القليلَيْ الحذر، يدفع أحدهما القلق والآخر الفضول. لأنني أنا الراهب المبتدىء الذي يسير على درب الكهنوت المقدس، حتى أنا الصبي الحقير فهمت أن رئيس الدير كان على علم بشيء ما ولكنه علمه في كنف سريّة الإعتراف. قد يكون علم من فم أحدهم بعض التفاصيل الآثمة التي رُبّما كانت لها علاقة بنهاية أدالمو المأساوية. ولعلّه لهذا السبب كان يرجو الأخ غوليالمو اكتشاف سرّ ارتاب به ولا يمكنه إفشاؤه لأحد، آملاً أن يسلّط أستاذي الضوء بقوّة العقل على ما ينبغي عليه

هو أن يطويه في الظلام بحكم الطاعة لقوة الرحمة العليا.

فقال غوليالمو عندئذ : حسن، أيمكنني إلقاء أسئلة على الرهبان؟

- بإمكانك ذلك.

- وأن أتجوّل بحرية في الدير؟

- أسمح لك بذلك.

- أتعهد إليّ بهذه المهمة أمام جميع الرهبان؟

- هذه الليلة بالذات.

- ولكنني سأبدأ اليوم، قبل أن يعلم الرهبان بما كلّفتني به. ومن ناحية أخرى، (و ليس هذا هو السبب الأخير لمروري من هنا) بودّي أن أزور مكتبتكم التي ذاع صيتها في كلّ أديرة العالم المسيحي.

فنهض رئيس الدير دفعة واحدة ووجهه في غاية التوتّر : قلت أنه يمكنك أن تتجول في جميع أرجاء الدير إلاّ في الطابق الأخير من الصّرح، في المكتبة.

- لماذا؟

- كان ينبغي أن أشرح لك هذا من قبل، وكنت أظن أنك على علم به. أنت تعرف أن مكتبتنا ليست كالمكتبات الأخرى . . .

- أعرف أنها تملك من الكتب أكثر من أية مكتبة مسيحية أخرى. أعرف أن خزانات بوبيو أو بومبوزا، كلوني أو فلوري تبدو بالمقارنة مع خزاناتكم حجرة طفل صغير يتعلّم مبادىء الحساب. أعرف أن الستة آلاف مخطوط التي كان يتباهى بها نوفاليزا منذ مائة سنة أو أكثر هي شيء قليل بالمقارنة مع ما يوجد لديكم، وربّما يكون الكثير منها الآن هنا. أعلم أن ديركم هو النور الوحيد التي تقدر المسيحية أن تضاهي به مكتبات بغداد الستّ وثلاثين، والعشرة آلاف مخطوط التي يمتلكها الوزير ابن العلقمي، وأن كتبكم المقدّسة تعادل الألفين وأربعمائة مصحف قرآني التي تتباهى بها القاهرة، وأن حقيقة خزاناتكم هي البيّنة الساطعة ضد أسطورة الكافرين الصلفة الذين يقولون (و هم المتعوّدون على البهتان) أن مكتبة طرابلس تعدّ ستّة ملايين من الكتب ويسكنها ثمانون ألف شارح ومائتا ناسخ.

- هذا صحيح، ونحن نحمد السّماء على ذلك.

- أعرف أن رهباناً كثيرين من بين الذين يعيشون بينكم، يأتون من أديرة أخرى

منتشرة في كلّ أرجاء الدنيا : منهم من يأتي لوقت قصير، ما يكفي لنسخ مخطوطات غير موجودة في أماكن أخرى ليحملها بعد ذلك إلى مركزه، ويحمل إليكم على سبيل التبادل بعض المخطوطات النادرة تنسخوها وتضيفوها إلى كنوزكم. ومنهم من يقضي وقتاً طويلاً جدّاً، أحياناً حتى الموت، لأنه لا يجد الكتب التي تثري أبحاثه إلاّ في هذا المكان. لذا يوجد بينكم ألمان، وداسيون، وإسبان وفرنسيون ويونان. أعرف أن الإمبراطور فردريك طلب منكم منذ عدّة سنوات أن تؤلفوا له كتاباً حول تنبؤات مارلينو وأن تترجموه بعد ذلك إلى العربية، لإرساله هدية إلى سلطان مصر. وأعرف أخيراً أن ديراً مجيداً كدير مورباخ، لا يملك في هذه الأيام التعيسة كتاباً واحداً، وأن في سان غالّو بقي القليل من الرهبان ممّن يعرفون الكتابة، وأنه الآن تظهر في المدن الجمعيات والفئات المهنية من المدنيين التي تعمل لفائدة الجامعات ولم يبق إلاّ ديركم يجدّد يوماً بعد يوم، ماذا أقول؟ يحمل دائماً إلى أعلى قمّة أمجاد نظامكم . . .

فتلا رئيس الدير وهو مستغرق في أفكاره :

"إن ديراً بدون كتب هو كمدينة بدون صناعة أو قلعة بدون جند أو مطبخ بدون أوان أو مائدة بدون طعام أو حديقة بدون نبات أو مرج بدون زهور أو شجرة بدون ورق" . ونظامنا الذي نما مستجيباً لوصيتَي العمل والصلاة، كان نوراً لكل العلم المعروف، وذخيرة للمعرفة، وإنقاذاً لعقيدة قديمة كانت مهدّدة بالزوال في حرائق وحروب وزلازل، ومصهراً لكتابة جديدة وتنمية للقديمة . . . إيه، أنت تعلم جيدّاً أننا نعيش اليوم أزمة حالكة، وأنه ليحمرّ وجهي وأنا أقول لك إنه منذ سنوات غير بعيدة اضطر مجمع فيينّا أن يؤكد أنه ينبغي على كل راهب أن يدخل في نظام . . . كم من بين أديرتنا، من التي كانت منذ مائتي سنة مركزاً مشعّاً بالعظمة والقداسة، وأصبحت الآن ملاذاً للخاملين. إن نظامنا لا يزال قويّاو ولكن عفن المدينة يطوّق عن قرب أسوارنا المقدّسة. إن شعب الربّ يميل الآن إلى التجارة وحروب الطوائف، هناك، في المراكز السكانية الكبرى، حيث لا تجد روح القداسة مثوى، وتستعمل العاميّة الآن لا للكلام فقط (و يكون ذلك طبيعياً لغير الكنيسيّين) بل وأيضاً للكتابة. ولن يدخلنّ أبداً كتاباً من تلك الكتب أسوارنا - وإلاّ ستصبح حتماً منبع هرطقة! أصبح العالم يشرف على الهلاك من جرّاء خطايا الإنسان، فقد تغلغل فيه الهلاك نفسه الذي ينادي إلى الهلاك. وغداً، كما

كان يقول أونوريو، ستصبح أجسام العباد أصغر من أجسامنا، كما أن أجسامنا كانت أصغر من أجسام الأوائل، العالم يهرم، وإن كانت هناك مهمّة قد عهد بها الربّ إلى نظامنا فهي التصدّي لهذا السقوط في الهاوية، والإحتفاظ بالحكمة التي عهد بها إلينا آباؤنا، وترديدها والدفاع عنها. إن الحكمة الإلهية جعلت السلطة الكونية، التي كانت في بداية الدنيا في المشرق، تنتقل شيئاً فشيئاً نحو الغرب لتنذرنا باقتراب أجل العالم، لأن مجرى الأحداث قد وصل إلى حدود الكون. ولكن ما لم يسقط نهائياً أجل الألف عام، ما لم ينتصر، ولو لوقت وجيز، الوحش الدنس الذي هو المسيح الدجّال، يتحتّم علينا نحن الدفاع عن كنوز العالم المسيحي، وعن كلمة اللّه نفسها، كما أملاها على الأنبياء والرسل، وكما ردّدها علينا الآباء دون تغيير أيّة كلمة، وكما حاولت المدارس أن تفسّرها ولو أن في هذه المدارس نفسها يختبىء ثعبان الغرور، والحسد والجنون. في هذا الأفول بقينا نحن مشعلاً ونوراً في الأفق. وما دامت هذه الأسوار صامدة، سنكون نحن حرّاس الكلمة الإلهية.

فقال غوليالمو بنبرة خشوع : وليكن كذلك، ولكن ما دخل هذا وتحجير الدخول إلى المكتبة؟.

فأجاب رئيس الدير : أنظر يا أخ غوليالمو، لكي يتحقق ذلك العمل العظيم والمقدّس الذي يثري تلك الأسوار - وأشار إلى الصّرح الذي كان يتراءى من خلال نوافذ القاعة، متعالياً، يفوق الكنيسة نفسها ارتفاعاً - عمل رجال أتقياء لمدّة قرون، متّبعين قواعد صارمة جدّاً. لقد أنشئت المكتبة حسب رسم بقي غامضاً للجميع عبر القرون ولا ينبغي لأيّ راهب أن يعرفه. حافظ المكتبة وحده تلقّى السرّ من الحافظ الذي سبقه، وينقله بدوره إلى مساعده وهو على قيد الحياة، حتى لا يُباغته الموت فتُحرم المجموعة من تلك المعرفة. وشفتا كليهما مختومة بذلك السرّ. وحافظ المكتبة وحده يمكنه بالإضافة إلى معرفة السرّ، أن يتجوّل في متاهة الكتب، هو وحده يعلم أين يجد الكتب وأين يعيدها، هو وحده المسؤول عن صيانتها. الرهبان الآخرون يعملون بقاعة الكتابة ويمكنهم الإطلاع على قائمة الكتب الموجودة في المكتبة. ولكن قائمة عناوين لا تفيد في الغالب إلاّ قليلاً وحافظ المكتبة وحده يعرف، من موضع الكتاب ومن صعوبة الوصول إليه، نوعية الأسرار، والحقائق، أو الأكاذيب، التي يحويها. وهو وحده يقرّر كيف ومتى،

وهل يسلّمه إلى الراهب الذي طلبه. وفي بعض الأحيان يفعل ذلك بعد استشارتي. لأنّ كل الحقائق ليست لكلّ الآذان، ولا يمكن لنفس ورعة أن تدركَ كل الأكاذيب على حقيقتها، والرهبان أخيراً، يجدون أنفسهم في قاعة الكتابة ليفرغوا همّتهم في عمل معيّن، لأجله ينبغي عليهم قراءة تلك الكتب لا غيرها، لا لاتّباع كل فضول جنوني يستحوذ عليهم، سواء لقصر إدراكهم، أو لغرورهم، أو تلبية لإغواء شيطاني.

- إذن، توجد أيضاً في المكتبة كتب تحتوي على أكاذيب . . .

- المسوخ موجودة لأنها جزء من الرسم الإلهي وفي ملامح الوحوش القبيحة تتجلّى عظمة الخالق. كذلك توجد أيضاً بإرادة إلهية كتب السحرة، وقبلانية اليهود، وأساطير الشعراء الوثنيين، وأكاذيب الكفّار. وكان يقين أولائك الذين أسّسوا وساندوا هذا الدير راسخاً ومقدّساً. إن في كتب الأكاذيب أيضاً يمكن أن يتراءى لعيني القارىء الفطن نور ضئيل من الحكمة الإلهية. ولذا تحفظها المكتبة في خزانتها. ولكن للسبب نفسه، هل فهمت، لا ينبغي أن يدخلها أيّ كان - وأضاف رئيس الدير كمن يعتذر لضعف الحجة الأخيرة - وعلاوة على ذلك فالكتاب أداة هشّة، تعاني من بلاء الدهر، وتخاف القواضم، وتقلّبات الجوّ، وأيدي عديمي الخبرة بها. لو أمكن للمرء طيلة مئات السنين، أن يتلمّس بحرية مخطوطاتنا لاندثرت أكثرها. فحافظ المكتبة لا يحفظها فقط من الإنسان ولكن من الطبيعة أيضاً، ويكرّس حياته لهذه الحرب ضدّ قوى النسيان، والنسيان عدو الحقيقة.

- هكذا إذن، لا يمكن لأحد، عدا شخصين، أن يدخل إلى الطابق الأخير من الصرح . . .

فابتسم رئيس الدير قائلاً : لا يمكن لأحد، ولا يستطيع أحد أن يفعل ذلك، وحتى إن أراد أحدهم ذلك فلن يقدر عليه. فالمكتبة تدافع عن نفسها بنفسها، لا يُسبر غورها كالحقيقة الكامنة في أعماقها، وهي خادعة كالأكاذيب التي تحويها. هي متاهة روحية ولكنها متاهة أرضية أيضاً. قد تقدر على الدخول إليها وقد لا تقدر على الخروج منها. ومع كلّ هذا، أودّ أن تمتثل أنت أيضاً لقواعد الدير.

- ولكنك لم تستبعد أن يكون أدالمو قد سقط من إحدى نوافذ المكتبة.

وكيف يمكنني أن أحقق في مصرعه دون أن أرى المكان الذي ربّما تكون بدأت فيه قصّة موته؟

فأجاب رئيس الدير بنبرة استرضاء : أخي غوليالمو، إن رجلاً وصف جوادي برونيلّو دون أن يراه، وموت أدالمو دون أن يعرف عنه شيئاً تقريباً، لن يصعب عليه التفكير في أماكن لا يمكنه الدخول إليها.

فانحنى غوليالمو قائلاً : إنك حكيم بقدر ما أنت صارم. كما تريد.

فأجاب رئيس الدير : إن كنت حقيقة حكيماً فلأنني أعرف كيف أكون صارماً.

ثم سأله غوليالمو : شيء أخير. أوبارتينو؟.

- إنه هنا، في انتظارك، ستجده في الكنيسة.

- متى؟

فابتسم رئيس الدير : دائماً. تعرف أنه، رغم سعة علمه، ليس ممّن يولون اعتباراً للمكتبة. فهو يرى فيها إغراء القرن . . . إنه يقضي جلّ وقته في الكنيسة يتأمّل ويصلّي . . .

فسأله غوليالمو بتردّد : هل هرم؟

- منذ متى لم تره؟

- منذ سنوات طويلة.

- إنه متعب، كثير التجرّد عن مآرب هذه الدنيا. له من العمر ستّ وثمانون سنة. ولكني أظنّه لا يزال يملك روح الشباب.

- سأذهب إليه فوراً، أشكرك.

ثم سأله رئيس الدير إن كان يريد أن ينضمّ إلى المجموعة لتناول العشاء، بعد "سادسة". فقال غوليالمو إنه أكل منذ قليل، وبوفرة، وأنه يفضل أن يرى أوبارتينو في الحال. فودّعه رئيس الدير.

وعند خروجه من الحجرة ارتفع من الساحة صراخ ممزّق، كصراخ شخص أصيب بجرح قاتل، تبعته صيحات أخرى فظيعة كالأولى. فسأل غوليالمو بحيرة : "ما هذا؟" فأجاب رئيس الدير مبتسماً : "لا شيء. في هذا الفصل تذبح الخنازير.

وليس هذا النوع من الدم هو الذي يجب عليك أن تهتمّ به".

ثمّ خرج، وقد خيّب الظن فيما عُرف به من أنه رجل فطن، لأنه في الصباح الموالي . . . ولكن إكبح لجام تلهّفك، أيها اللسان الثرثار. إذ في اليوم الذي يعنينا وقبل الليل، حدثت أشياء أخرى كثيرة يجدر بي أن أقصّها.

سادسة

وفيه يقف أدسو معجباً أمام بوّابة الكنيسة ويلتقي غوليالمو باوبارتينو دا كزالي

لم تكن الكنيسة عظيمة مثل كنائس أخرى رأيتها من بعد في سترازبورغ وشارتر وبامبارغ وباريس. كانت أشبه بتلك التي شاهدتها في إيطاليا، لا ترتفع شاهقة نحو السّماء بل تنتصب ثابتة على الأرض، وغالباً ما يفوق عرضها ارتفاعها. غير أن المستوى الأول كان ينتهي، شبيهاً في ذلك بقلعة، بصف من الشرفات المربّعة، وفوق ذلك المستوى ترتفع بناية ثانية تبدو برجاً أكثر من كونها كنيسة ثانية متينة، ويعلوها سقف مدبب قد ثقبته نوافذ خالية من الزخارف. كانت كنيسة ديرية وطيدة كما كان أسلافنا يبنون في بروفانسا ولونغدرق، وبعيداً عن الجسارة والمبالغة في الزركشة اللتين يتميّز بهما الأسلوب الحديث، ولم تتزيّن إلاّ منذ زمن قريب على ما أظنّ، فوق الخورس بمسلة مصوبة بجسارة نحو قبة السماء.

وكان عمودان مستقيمان وعاريان يحيطان بالمدخل الذي يبدو لأول وهلة وكأنه عقد واحد كبير: ولكن من العمودين كانت تنطلق فتحتان تعلوهما أقواس أخرى متعدّدة وتقودان النظر، فكأنه يغرق في لجة، إلى البوابة الحقيقية، التي كانت تتراءى في العتمة، تعلوها لوحة جبهة كبيرة، وتسندها من كل ناحية عضادتان وفي الوسط ركيزة منحوتة تفصل المدخل إلى فتحتين، يسدّهما بابان من السّنديان مقويّان بالحديد. في تلك الساعة من النهار كانت أشعة الشمس الشاحبة تسقط شبه عمودية على السقف ويصل النور جانبياً إلى الواجهة دون أن ينير لوحة الجبهة: وهكذا، ما أن تجاوزنا العمودين، حتى وجدنا نفسينا فجأة تحت قبّة الأقواس شبه الغابية المتفرعة من صف الأعمدة الصغرى التي يعزّزها تعادل العضادتين. وأخيراً، وعندما تعوّدت الأعين على الظلمة بهر نظري فجأة حديث

صامت للحجارة المنحوتة، مفتوحاً مباشرة لنظر ولخيال أيّ كان (لأن الرسم هو أدب العامّة) وأغرقني في رؤيا لا يزال يصعب على لساني وصفها.

رأيت عرشاً وضع في السماء عليه جالس. وكان وجه الجالس صارماً وبارداً وعيناه المحدقتان ترميان بلحظهما بشرية دنيوية وصلت إلى نهاية مطافها، وكان شعره ولحيته المهيبة يسقطان على وجهه وعلى صدره كأنهما مياه نهر، تتفرع جوانبها متساوية ومتوازنة على الجانبين. وكان التاج الذي يحمله على رأسه مرصعاً بالمينا والأحجار الكريمة، والقميص الإمبراطوري الأرجواني يسقط من حوله في دورات رحيبة على ركبتيه، موشحاً بالتطريز والتخاريم بخيوط من الذهب والفضّة. وكانت اليد اليسرى، ثابتة على الركبتين، تمسك كتاباً مختوماً، بينما كانت اليمنى مرتفعة في إشارة لا أدري إن كانت مباركة أو متوعدة. وكانت تضيء الوجه هالة صليبية مزهرة ذات جمال مريع، ورأيت حول العرش وفوق رأس الجالس قوس قزح من الزمرد يتألق. وأمام العرش، تحت ساقي الجالس، يسيل بحر من الزجاج، وحول الجالس، وحول العرش وفوق العرش رأيت أربعة حيوانات مريعة بالنسبة إليّ أنا الذي كنت أنظر إليها ذاهلاً ولكنها كانت وديعة ومسالمة جداً بالنسبة إلى الجالس وكانت تسبح بحمده دون انقطاع.

ينبغي أن أقول أنها في الحقيقة لم تكن كلّها مفزعة، لأن الرجل الذي كان على شمالي (و على يمين الجالس) بدا لي وسيماً ولطيفاً وكان يمد كتاباً. ولكن في الجانب المقابل بدا لي نسر رهيب فاغراً منقاره، وكان ريشه المزئبر في شكل درع، وكانت برائنه قوية وجناحاه العظيمان مفتوحين. وعند قدمي الجالس، تحت الصورتين الأوليين، صورتان أخريان لثور وأسد، وكل من الوحشين يشدّ بين مخالبه وحوافره كتاباً، وكان الجسم موجّهاً نحو خارج العرش بينما الرأس موجهاً نحو العرش، كأنما الكتفان والرقبة ملتوية في اندفاع شرس، والجوانب خافقة، وكأن أعضائهما أعضاء حيوان يحتضر، فاغر الشدقين وينتهي ذيلاهما الملتفان والمعقوفان كالحية بألسنة من لهب. وكان الوحشان مجنّحين ومتوّجين كلاهما بهالة، ورغم مظهرهما الرهيب لم يكونا من مخلوقات الجحيم بل من مخلوقات السماء، وإن ظهرا مروّعين فلأنهما يزأران خشوعاً للقادم الذي سيحاسب الأحياء والأموات.

وحول العرش، بجانب الحيوانات الأربعة وتحت قدمي الجالس، كان يتربّع

أربعة وعشرون شيخاً على أربعة وعشرين كرسياً، كأنما يظهرون من خلال شفافية مياه بحر البلّور، وكانوا يملؤون تقريباً مجال الرؤية كلّه، تتبع تركيبتهم هيكل لوحة الجبهة المثلث، مرتفعين من قاعدة تتكون من سبعة وسبعة، ثم ثلاثة وثلاثة، فاثنين واثنين، مرتدين أقمصة بيضاء وحاملين تيجاناً من الذهب منهم من كان يمسك بزهرة بنفسج ومنهم من كان يحمل كأس عطر، وكان واحد منهم فقط يعزف، بينما كان الآخرون منخطفين في وجد، ملتفتين إلى الجالس يمجّدون خصاله، وأعضاؤهم هي الأخرى ملتوية كأعضاء الحيوانات حتى يتسنى للجميع مشاهدة الجالس ولكن ليس بصفة حيوانية بل بحركات رقصة وجدية - كما يمكن أن نتصوّر رقصة داود حول السفينة - بحيث أينما وجدوا تذهب مقلة أعينهم، ضد القانون الذي يحكم قامة الأجسام، نحو نفس النقطة الساطعة. آه يا لتناسق ذلك الإستسلام وذلك الإندفاع، يا لتلك الأوضاع المصطنعة والرشيقة مع ذلك، في تلك اللغة الروحية التي تنطق بها أعضاء تحررت بأعجوبة من ثقل المادة الجسدية، يا لهذه المجموعة الموسومة بالقداسة في صورة كنهية جديدة، كأن ريحاً عاتية عصفت على تلك المجموعة المقدّسة، فهي نفث حياة وحرارة انشراح وتهليل مسبّح تحوّل بأعجوبة من صوة إلى صورة.

أجساد وأعضاء سكنتها الروح وأنارها الوحي فوجوهها مضطربة من الإندهاش ونظراتها ثملة من الحماس ووجناتها ملتهبة من الهيام وحدقاتها متّسعة من الطوبى، وقد صعق أحدهم ارتياع لذيذ، وخرقت الآخر لذّة مريعة، منهم من تبدّل مظهره من الإعجاب ومنهم من تجدّد شبابه من الغبطة، وإذا بهم ينشدون بسيماء وجوههم وبرفارف أرديتهم وبتعبير أعضائهم وتوتّرها، أنشودة جديدة تفتّحت لها شفاههم بابتسامة حمد أزلية. وعند أقدام الشيوخ، وفي كل قوس فوقهم، وفوق العرش وفوق مجموعة الأربعة، طرائد متطابقة مرتبة بشكل يصعب على العين التفرقة بين الواحدة والأخرى لحكمة الفنّ الذي جعلها كلّها متناسبة بعضها لبعض، متساوية في اختلافها ومختلفة في وحدتها، فريدة في تنوّعها ومتنوّعة في تطابق مجموعتها، في انسجام رائع لأجزائها مع عذوبة أخّاذة في الألوان، آية في توافق أصوات مختلفة وتناغمها، مجموعة رتبت حسب أوتار قيثارة، قربى في اتفاق وتآمر مستمرّين لقوة عميقة وداخلية قادرة على تحقيق المعنى الموحّد في نفس تعاقب المعاني الملتبسة، زخرفة ومواجهة لكائنات طورا

منقوصة وطورا غير منقوصة، من عمل متيّم تحكمه قاعدة سماويةَ ودنيوية في نفس الوقت (وثاق وصلة ثابتة للسلم، والحبّ، والفضيلة، والقانون، والسلطة، والنظام، والمصدر، والحياة، والنور، والإشعاع، والجنس والصورة)، اعتدال متعدّد ومشعّ لإشعاع الصورة فوق الأجزاء المتناسبة للمادة، هي ذي كل الأزهار تتشابك والأوراق والدوالي، والعوسج وأعذاق كل النباتات التي تتزين بها حدائق الأرض والسماء، من بنفسج وقصاص وسعتر وزنبق وحنّاء ونرجس وقلقاس وقنتوس وغار ومرّ ونباتات فوّاحة.

وبينما كادت تنفجر روحي في ترتيل جذل، وقد سحرها ذلك الإئتلاف بين محاسن دنيوية وعلامات سماوية عظيمة، إذ وقعت عيني، وهي تتتبّع نسق الشموس المزهرة المتناسبة الموجودة عند أقدام الشيوخ، على أشكال تكوّن في التفافها شيئاً واحداً مع الركيزة الأساسية التي تسند لوحة الجبهة. ماذا كانت وما هي الرسالة الرمزية التي تبلغها تلك الأزواج الثلاثة من الليوث المتشابكة في شكل صليب موضوع بالعرض، حابية كالأقواس، مركزة قوائمها الخلفية على الأرض ومستندة بالأمامية على ظهر الرفيق، ولبدتها منفوشة بدوائر ثعبانية الشكل، وأشداقها مفتوحة في زمجرة متوعدة، تشدها إلى جسم الدعامة نفسه طينة، أو عش، من العطفات؟ وهدأت خاطري، بوجودهما هناك إلى جانبي الدعامة وكأنهما تريدان كبح طبيعة الليوث الشيطانية وجعلها إشارة رمزية إلى الأشياء العليا، صورتان بشريتان، طويلتان بشكل غير طبيعي، بقدر طول العمود نفسه، وتواجههما بتوازن صورتان أخريان على العضادتين المزخرفتين بتشخيص على جانبيهما الخارجيين حيث كانت لكل من البابين من السنديان قوائمه : كانت إذن أربع صور لشيوخ، تعرفت من خلال توابعهم على أنهم بطرس وبولس وإرميا وأشعيا، أجسامهم ملتوية وكأنهم في حركة رقص، وأيديهم الطويلة النحيفة مرفرعة وأصابعهم ممتدّة كالأجنحة، وكالأجنحة كانت اللّحى والشعر تحرّكها ريح نبويّة، وكانت طيّات الثياب طويلة جداً وتحركها سيقان طويلة جداً هي الأخرى فكانت تخلق أمواجاً ودورات، مواجهة للّيوث ولكن في نفس مادة اللّيوث. وبينما كان نظري المفتون ينصرف عن تلك المجموعة الغامضة من أعضاء مقدّسة وعضلات جهنّمية، إذ رأيت حذو البوّابة، وتحت الأقواس العميقة مشاهد أخرى مفزعة لا مبرّر لوجودها في ذلك المكان المقدّس إلاّ لقوّتها الرمزية والمجازية أو

للدرس المعنوي الذي تلقنه، وكانت منحوتة أحياناً على أكتاف الأعمدة في الفرجة الموجودة بين الأعمدة النحيفة التي تسندها وتزخرفها وأحياناً فوق النباتات الكثيفة التي تزخرف تيجان الأعمدة ثم تتفرّغ من هناك نحو القبّة الغابية ذات الأقواس المتعدّدة.

رأيت أنثى فاجرة عارية ومجرّدة من اللحم تنخرها ضفادع دنسة، وتمتصّها ثعابين، وهي تجامع وحشاً منتفخ البطن له قوائم عنقاء يغطّيها شعر أشعث وكان شدقه الفاحش يعلن هلاكه. ورأيت بخيلاً، جامداً جمود الموت على فراشه المزخرف بأعمدة فاخرة، وقد بات فريسة، لا حول، لها، لجمع من الأبالسة، كان أحدها يقتلع منه فمه، مع حشرجة الموت، روحه في شكل رضيع (لن يحيا، واحسرتاه، أبداً للحياة الأزلية)، ورأيت متكبّراً قد استقرّ فوق كتفيه شيطان غرس مخالبه في عينيه، بينما كان أكولان يمزّق أحدهما الآخر وقد التصق جسداهما التصاقاً كريهاً، ومخلوقات أخرى، برأس تيس وشعر أسد وفم فهد، كانت حبيسة في غابة من اللّهب تكاد أنفاسها اللافحة تصل إليّ، وحولهم، مختلطة بهم، وفوقهم وعند أقدامهم، وجوه أخرى وأعضاء أخرى، هنا رجل وامرأة قد أمسك أحدهما بشعر الآخر، وهناك أفعاوان تمتصّان عينا أحد الهالكين، ورجل، بضحكة هازئة، يفتح بيديه المعقوفتين فم هدرة، وكل حيوانات الجحيم قد تجمّعت لتحرس وتتوّج العرش الذي يواجهها، منشدة عظمته من خلال هزيمتها: مخلوقات برجلي ماعز، ومخلوقات ذات جنسين ووحوش بأيد ذات ستّة أصابع وجنيات بحر، وقنطورات وغرغونات، وخطّافات وحضونات وتنانين ثعبانية وسنتورات وأوشاق وفهود، وخيامر ووحوش بوجه كلب تنفث النار من مناخيرها ودانتيريونات، ومخلوقات بعدة أذناب ومسوخ كثيفة الشعر وسمندلات وحيّات قرناء وثعابين برمائية وحيّات ملساء وذوات رأسين مسنّنة الظهر، وضباع وقنادس وأوزاغ وتماسيح وحيوانات مائية ذات قرون منشارية، وضفادع وعنقاوات وقردة وقردوحيات ومسوخ مهق ووحوش مانتاكورة، ونسور ومخلوقات تشبه الإنسان وسراعيب وتنانين وبوم ومليكات، ومتفرّعات، ويافرات وأشباح التين وعقارب وعظائيات وحوتيات وأشياق وعظاءات خضراء وأخطبوطات وسلاحف.

فكأنّ سكان الجحيم قد اجتمعوا ليُكوّنوا رواقاً وغاباً مظلماً وغوراً قاحلاً يسكنه القنوط، أمام مشهد الجالس على لوحة الجبهة، أمام وجهه المليء بالأمل

والوعيد، أولئك هم مهزومو الأرماجدّون أمام الذي سيأتي ليفرّق نهائياً بين الأحياء والأموات. وكاد أن يغمى عليّ من تلك الرؤيا، وقد داخلني الشكّ إن كنت أجد نفسي في مكان أليف أم في وادي الدينونة الأخيرة، ذهلت، وبكثير من العناء تمالكت نفسي عن البكاء، وبدا لي أنّني سمعت (أم سمعت حقاً؟) ذلك الصوت وشاهدت تلك الرؤى التي صاحبت طفولتي وأنا مبتدىء، وقراءاتي الأولى للكتب المقدّسة وليالي التأمل في دير "مالك" وإذ خارت قواي الضعيفة جداً والمنهكة سمعت صوتاً قوياً وكأنه صوت نفير يقول "أكتب ما ترى في كتاب" (و هذا ما أفعله الآن)، ورأيت سبعة قناديل من الذهب وبين القناديل واحد يشبه ابن الإنسان، تطوّق صدره عصابة من الذهب، وكان رأسه وشعره ناصعين كالصوف الأبيض، وعيناه كأنهما شعلتان من نار، وقدماه كأنهما نحاس حام في أتون، وصوته كهدير مياه وفيرة، وكان يمسك في يمينه سبع نجوم ومن فمه كان يخرج سيف ذو حدّين. ورأيت باباً فتح في السماء وذلك الذي كان جالساً بدا لي يَشْباً ويَصْباً وقوس قزح كان يحفّ بالعرش ومن العرش كانت تخرج بروق ورعود. وأخذ الجالس في يده منجلاً مشحوذاً وصاح "اضرب بمنجلك واحصد فقد حانت ساعة الحصاد وأينع زرع الأرض"، وضرب ذلك الجالس بمنجله وحصد الأرض.

فهمت عندئذ أن الرؤيا لم تكن تتكلّم عن شيء إلاّ عمّا كان يقع في الدير، والذي عرفناه من شفتي رئيس الدير المتحفظتين - وكم من مرّة عدت في الأيام الموالية لأقف متأمّلاً أمام البوّابة، واثقاً من أنّني سأعيش نفس الحادثة التي تقصّها. وفهمت أنّنا صعدنا إلى ذلك المكان لنشهد مذبحة إلٰهية عظيمةِ.

ارتجفت وكأن مطر الشتاء قد بلّلني. وسمعت صوتاً آخر ولكنه هذه المرّة كان يأتي من خلفي وكان صوتاً مختلفاً، لأنه صدر من الأرض وليس من وسط رؤياي المشعّة، بل بالعكس، قد حطّم الرؤيا لأن غوليالمو (عند ذلك فقط تفطنت إلى وجوده)، الذي كان هو أيضاً إلى ذلك الحين غارقاً في التأمل، استدار كما استدرت أنا.

كان المخلوق الذي يقف وراءنا يبدو راهباً، ولو أن عباءته الوسخة والممزّقة جعلته يشبه المتشرّد، ولم تكن خلقته مختلفة عن خلائق تلك الوحوش التي شاهدتها لتوّي في اتّجاه الأعمدة. ولم يقع لي أبداً في حياتي، كما وقع للكثير

من زملائي، أن يزورني الشيطان، ولكنني أظنّ أنه لو حدث ذلك وظهر لي يوماً، وبما أن الحكمة الإلهية جعلته غير قادر على إخفاء طبيعته تماماً حتى عندما يحاول التشبّه بالإنسان، فلن يظهر بخلقة مغايرة لتلك التي بدا لنا بها في تلك اللحظة محدّثنا. كان رأسه محلوقاً، ولكن لا لِكفارة بل تحت تأثير قديم لبعض الأكزيمات القائحة، وكان جبينه واطئاً. فلو كان هناك شعر فوق رأسه لاختلط بالحاجبين (اللذين كانا كثيفين ومهملين)، وكانت عيناه مستديرتين، وحدقتاهما صغيرتين شديدتي الحركة، ولست أدري إن كانت النظرة بريئة أم خبيثة، وقد تكون هذا وذاك، على التوالي وفي لحظات مختلفة. ولا يمكن أن نتحدّث عن أنفه إلاّ بسبب عظم متجذّر من وسط عينيه ولكنه ما أن يخرج قليلاً عن وجهه حتى يعود حالاً فيغوص فيه، متحوّلاً لا لشيء إلاّ لمغارتين مظلمتين هما منخراه الواسعان المليئان بشعر كثيف. أمّا فمه الذي كان يجمعه بالمنخرين أثر جرح، فكان واسعاً وقبيحاً، يمتدّ أكثر إلى اليمين منه إلى اليسار، وبين شفته العليا، التي لا وجود لها، والسفلى التي كانت بارزة وغليظة، تظهر بنسق غير منتظم أسنان سوداء ومدبّبة كأنها أسنان كلب.

تبسّم الرجل (أو هكذا خيل لي) ورفع أصبعه كمن ينذر قائلاً: «Penitenziagite! أنظر عندما يأتي التنين ليأخذ روحك La mortez est super nos! أدع أن يأتي البابا القديس ليخلّصنا من إثم كل الخطايا! ها، ها، هل أعجبتك هذه النبوءة de Domini Nostri Iesv christi! حتى الفرح ألم والإنشراح ألم .. Cave el diablo! فهو دائماً يترصّدني في مكانٍ ما ليعضّ قدمي. ولكن سلفاتوري ليس غبياً! Bonum monasterium ، هنا نشبع بالأكل ونعبد dominum nostrum والباقي لا يساوي فلساً. Et amen. أليس كذلك؟

ينبغي عليّ أثناء سرد هذه القصة أن أعود للحديث وبكثرة عن هذا المخلوق وأنقل أحاديثه. أعترف أن ذلك يصعب عليّ لأنّني لا أستطيع القول الآن كما لم أفهم وقتئذ أبداً، أيّة لغة كان يتكلّم. لم تكن اللاتينية، التي يتكلّم بها رجال العلم في الدير، ولا لهجة تلك البقاع، ولا أيّة لغة أخرى كنت قد سمعتها من قبل. أظنّ أنّني أعطيت فكرة شاحبة عن طريقته في الكلام ناقلاً أعلاه (حسبما أتذكّر) الكلمات الأولى التي سمعتها منه. عندما اطّلعت فيما بعد على حياته المغامرة والأماكن المختلفة التي عاش فيها دون أن يجد جذوراً في أيّ منها، فهمت أن

سلفاتوري يتكلّم كلّ اللغات، ولا يعرف واحدة منها. أو بالأحرى اخترع لنفسه لغة تستعمل أجزاء من اللغات التي احتكَّ بها - وفكرت مرة أن لغته ليست لغة بني آدم التي تكلمتها البشرية عندما كانت سعيدة، تجمعها لغة واحدة منذ أوّل الدنيا إلى قلعة بابل، ولا حتى لغة من تلك التي ظهرت بعد حادثة إنشقاقها المشؤوم: كانت بحق لغة بابل في اليوم الأوّل بعد العقاب الإلهي، لغة بلبلة العهود الأولى. بل لا يمكنني حتى أن أسمّيها لغةً، تلك التي كان يتكلّمها سالفاتوري، لأنّ في كلّ اللغات البشرية قواعد وكل مفردة تعني "حسب هوانا" شيئاً، تبعاً لقانون لا يتغيّر، لأن الإنسان لا يمكنه أن يسمّي الكلب أحياناً كلباً وأحياناً قطاً، كما لا يمكنه أن ينطق بأصوات لم تعطها المجموعة معناً محدّداً، كما يمكن أن يحصل لمن ينطق بكلمة "بلتيري".

ومع ذلك، كنت أفهم، قليلاً أو كثيراً، ما كان يعنيه سالفاتوري، مثلما ما كان يفهمه الآخرون. وفي ذلك دليل على أنه لا يتكلّم لغة بعينها بل كل اللغات، ولا يستعمل واحدة منها بطريقة صحيحة، مستمدّاً كلماته تارة من هذه وأخرى من تلك.

وتفطّنت أيضاً فيما بعد إلى أنه كان يقدر أن يسمي شيئاً تارة باللاتينية وأخرى بالبروفانسية، كما فهمت أنه في الحقيقة كان لا يكوّن جملاً، بل كان يستعمل قطعاً من جمل أخرى، سمعها يوماً حسب الظروف والأشياء التي يودّ التعبير عنها، أعني أنه لا يستطيع أن يتكلّم عن طعام إلاّ مستعملاً كلمات الأشخاص الذين تناول عندهم ذلك الطعام، أو أن يعبّر عن فرحته إلاّ بالتعابير التي سمعها عند أناس مغتبطين، يوم أن شعر هو بنفس الغبطة. كأنّ كلامه مثل وجهه، يتألّف من قطع وجوه أخرى، أو كما رأيت أحياناً مذاخر رُفَات نفيسة (إن كان بالإمكان مقارنة الهامّ بالتافه، أو الإلهي بالشيطاني) تنشأ من بقايا مقدّسة. في تلك اللحظة التي التقيت به فيها لأوّل مرّة، بدا لي سالفاتوري، من ناحية الوجه، ومن ناحية طريقته في الكلام، مخلوقاً شبيهاً بتلك المخلوقات المهجنة الكثيفة الشعر ذات الحوافر التي رأيتها منذ حين تحت البوابة. فيما بعد تفطّنت إلى أن الرجل ربما كان طيّب القلب وذا مزاج مرح. وبعد ذلك أيضاً . . . ولكن لنتقدّم بنظام. ذلك لأنه ما أن أتمّ كلامه حتى سأله أستاذي بكثير من الفضول.

- لماذا قلت «Penitenziagite»؟.

فأجاب سلفاتوري وهو ينحني شيئاً ما : سيّدي وأخي الكريم، Jesus venturus est ويجب على الناس أن يتوبوا. أليس كذلك؟ - فحدق فيه غوليالمو ثم سأله : هل أتيت من دير رهبانية فرنشسكانية؟

- لا أفهم.

- أسألك، هل عشت بين إخوان القديس فرانشسكو، وهل عرفت أولئك الذين يدّعون أنهم الرسل . . .

فشحب وجه سالفاتوري، أو بالأحرى أصبح وجهه الأسمر والحيواني رمادياً، وانحنى هامساً من بين شفتيه «Vade retro» ورسم بخشوع علامة الصليب ثم هرب ملتفتاً من حين لآخر إلى الوراء.

فسألت غوليالمو : ماذا طلبت منه؟.

فبقي قليلاً مشغول البال ثم قال : لا يهمّ، سأقول لك ذلك فيما بعد. لندخل الآن. أريد أن أرى أوبارتينو.

كانت قد مضت منذ قليل الساعة السادسة. وكانت الشمس الشاحبة تصل من الغرب وتنفذ أشعتها من النوافذ القليلة والنحيفة إلى داخل الكنيسة. وكان خط قليل من النور لا يزال يصل إلى المذبح الأكبر، وبدا لي ستاره يسطع بنور ذهبي بينما كان الجناحان الجانبيان غارقين في العتمة. يسوع يعدو قرب المصلّى الأخير قبل المذبح، في الجناح الشمالي، كان يرتفع عمود نحيف ينتصب فوقه صنم عذراء من الحجارة، نقش بأسلوب حديث. كانت ابتسامتها تفوق الوصف، وبطنها بارزاً، وكان الطفل بين أحضانها يرتدي لباساً لطيفاً مع صدرية رهيفة. وعند قدمي العذراء كان رجل يصلّي، يكاد يكون راكعاً يرتدي لباس الإخوانية الكلونية.

اقتربنا. وعندما سمع الرجل وقع خطانا رفع رأسه. كان شيخاً، أملط الوجه، رأسه خال من الشعر، وعيناه الكبيرتان زرقاوان، وفمه دقيق أحمر وقشرته بيضاء وكانت الجلدة ملتصقة بجمجمته العظمية كما لو كانت مومياء احتفظ بها في الحليب. وكانت يداه بيضاوين وأصابعهما طويلة ونحيفة. كان يبدو طفلة أذبلها موت مبكّر. وألقى علينا في بادىء الأمر نظرة تائهة، كأننا أزعجناه في رؤيته اللّدنية ثم أشرق وجهه فرحاً وصاح : "غوليالمو! أخي العزيز!" ثم نهض بصعوبة واتّجه نحو أستاذي فضمّه إليه وقبّله على فمه معيداً "غوليالمو"! واغرورقت عيناه

بالدموع "كم مضى من الزمن! ولكنني لا زلت أتذكّرك! كم مضى من الزمن، وكم من الأحداث مضت، وكم من امتحان فرض علينا الإله!" وبكى وبادله غوليالمو التحيّة وقد بدا عليه التأثر. كنّا نقف أمام أوبارتينو دا كزالي.

وكنت قد سمعت عنه الكثير، حتى قبل مجيئي إلى إيطاليا، وسمعت عنه أكثر عند مخالطتي للفرانشسكانيين الموجودين في البلاط الإمبراطوري. بل ذكر لي أحد الأشخاص أن أعظم شاعر في ذلك الوقت، دانتي أليغييري دافيرانسي، الذي كان قد مات منذ سنوات قليلة، ألّف قصيداً (و لم أتمكّن من قراءته لأنه كان مكتوباً باللهجة الفلورانسية) تداخلت فيه الأرض والسماء، والكثير من أبياته ليس إلاّ تأويلاً لفقرات كتبها أوبارتينو في كتابه: "شجرة الحياة المقدّسة" وليس هذا هو الفضل الوحيد الذي يمكن أن يتباهى به ذلك الرجل الشهير. ولكن حتى أمكّن قارئي من أن يدرك أهميّة هذا اللقاء، ينبغي أن أحاول قص أحداث تلك السنوات، كما فهمتها سواء من خلال كلمات أستاذي المتفرقة، أثناء إقامتي بإيطاليا الوسطى، أو من خلال استماعي إلى المحادثات المتعدّدة التي أجراها غوليالمو مع رؤساء الأديرة والرهبان طيلة سفرتنا.

سأحاول أن أتحدّث عنها كما فهمتها ولو أنني لست واثقاً من أنني سأحسن الكلام في هذا الشأن. غالباً ما قال لي أستاذي في "مالك" أنه يصعب كثيراً على أصيلي الشمال أن يكوّنوا فكرة واضحة عن الأحداث الدينية والسياسية في إيطاليا.

إن شبه الجزيرة التي كانت فيها قوة الإكليروس واضحة أكثر من أي بلد آخر، وأكثر من أيّ بلد آخر تبدو فيها قوة الإكليروس وثراؤه، ظهرت فيها منذ ما لا يقلّ عن قرنين حركات يقودها رجال اختاروا حياة الفقر، يحاجّون الكهنة المنحرفين، رافضين منهم حتى تقبّل أسرار القربان المقدّس، ومتجمّعين في طوائف مستقلّة مبغضة في الآن نفسه من قبل الأسياد والإمبراطورية والحكّام المدنيّين.

أخيراً جاء القديس فرانشسكو، ونشر الدعوة لحب الفقر. وكانت لا تتنافى مع تعاليم الكنيسة، ويعود الفضل إليه إن استجابت الكنيسة إلى نداء الصرامة في السلوك التي تميّزت بها الحركات القديمة مطهّرة إياها من عناصر الفوضى التي عشّشت فيها. كان ينبغي أن تتبع ذلك فترة هدوء وقداسة، ولكن لمّا نمت الطائفة الفرانشسكانية وجلبت إليها أفضل الرجال عظم شأنها وتعلّقت بأمور الدنيا، فأراد

العديد من الفرانشسكانيين إرجاعها إلى نقاوتها الأولى. وهذا الأمر صعب بالنسبة إلى طائفة كانت تعدّ، في ذلك الزمان، أيام وجودي بالدير، ما يزيد عن ثلاثين ألف عضو منتشرين في كل أرجاء العالم. ولكن هذا ما وقع، والكثير من هؤلاء الفرانشسكانيين عارضوا القاعدة التي اتّخذتها الجمعية، قائلين أنها أصبحت على منوال تلك الأنظمة الكنائسية التي كانت تريد إصلاحها. وأن ذلك حصل من قبل في حياة فرانشسكو، وهي خيانة لأقواله ولمقاصده. واكتشف الكثير منهم عندئذ كتاب راهب شيستار شانسي، كتبه في أوائل القرن الثاني عشر من تاريخنا، اسمه جواكينّو نسبت إليه قدرة التنبؤ. وفعلاً تنبّأ ببروز عهد جديد يمكن فيه لروح المسيح، التي أفسدتها منذ زمن أعمال رسله الزائفين، أن تعود لتتحقّق على الأرض. وقد حدّد الآجال لذلك بحيث كان واضحاً للجميع أنه كان يقصد دون أن يدري رهبانية الفرانشسكانيين. وهذا شيء سُرّ له العديد من الفرانشسكانيين ويظهر أنهم بالغوا في ذلك، إلى درجة أن أساتذة السوربون في باريس في منتصف القرن أدانوا أفكار ذلك الراهب جواكينو، ولكن يظهر أنهم فعلوا ذلك لازدياد نفوذ الفرانشسكانيين (و الدومينيكيينّ)، وانتشار معرفتهم في جامعة فرنسا، وكان يراد القضاء عليهم على أنهم ملحدون. ولكن ذلك لم يقع لحسن حظّ الكنيسة، إذ مكّن من نشر أعمال توما الأكويني وبونفانتورا دا بانيو ريجيو، اللذان لا يمكن أبداً اعتبارهما ملحدين. وهذا يعني أن الأفكار كانت مشوّشة حتى في باريس، أو أن أحدهم كان يريد تشويشها لأغراض شخصية.

وما رأيته فيما بعد في الدير (كما سيأتي ذكره) جعلني أظن أنه غالباً ما يخلق المحقّقون الهراطقة. وليس فقط عندما يتخيّلونهم حيث لا يوجدون، ولكن لأنّ شدة قمعهم لجذري الهرطقة تجعل الكثيرين يصبحون هراطقة كرهاً لهم. إنها حقيقة حلقة من صنع الشيطان، عافانا اللّه.

ولكني كنت أتكلم عن الهرطقة الجواكينيّة (إن صحّ حقيقة أن نسمّيها كذلك) وشوهد في توسكانا فرانشيسكانيّ يدعى جيراردو دا بورغو سان دونّينو، كان ينادي بتنبؤات جواكينّو، محدثاً أثراً بالغاً في نفوس الفرانشسكانيين. وهكذا ظهرت من بينهم جماعة من مؤيدي القاعدة القديمة، ضدّ محاولة إعادة تنظيم الرهبانية من طرف بونفانتورا العظيم، الذي أصبح من بعد رئيساً لها.

في الثلاثين سنة الأخير من القرن الماضي، عندما أنقذ مجمع ليون الرهبانية

الفرانشسكانية ممن كان يريد إزالتها، مانحاً إياها ملكية العقارات التي تستعملها، كما هو القانون بالنسبة إلى الأنظمة الرهبانية الأكثر قدماً، ثار بعض الرهبان في جهة ماركي، لأنهم يعتبرون ذلك خيانة لروح القاعدة، إذ لا يمكن لراهب فرانشسكاني أن يملك شيئاً سواءً كان شخصاً، أو ديراً أو رهبانيةً. فوقع الزجّ بهم في السجن مدى الحياة. لا يبدو لي أنهم كانوا ينادون بأشياء منافية للإنجيل، ولكن عندما يقع التعرّض لملكية الأشياء الدنيوية يصبح من الصعب أن يفكر الإنسان طبقاً للعدل. وقد قيل لي أنه بعد سنوات وجد رئيس الرهبانية الجديد، رايموندو غاوفريدي، أولئك المساجين في أنكونا، فأطلق سراحهم قائلاً : "كم أكون سعيداً لو أرادني الله أن أتشوّه وأن تتشوّه كلّ الرهبانية بتهمة مثل تهمتكم" وهذا ما يكذّب أقوال الهراطقة، إذ ما زال في الكنيسة رجال ذوو فضائل عظيمة.

من بين أولئك المساجين الذين أطلق سراحهم أنجيلو كلارينو، الذي التقى من بعد براهب من بروفانسا، بييترو دي جيوفانّي أوليفي، الذي كان يشيع تنبؤات جواكينو ثم بأوبارتينو دا كزالي، ومن هناك نشأت حركة الروحانيين. في تلك السنوات تبوأ العرش البابوي ناسك الطهور، بييترو دا مورّوني، الذي اتّخذ اسم سيلاستين الخامس، وقوبل بارتياح من طرف الروحانيين. فقد تنبأ أحدهم قائلاً : "سيظهر قدّيس وسيعمل بما جاء به المسيح من تعاليم، وسيكون ملائكي السيرة، ارتعدوا أيها الأحبار المفسدون". ربّما كان سيلاستين على غاية من الملائكية، أو أن الأحبار من حوله كانوا على غاية من الفساد، أو أنه لم يستطع أن يتحمّل توتّر حرب طالت كثيراً ضد الإمبراطور وملوك أوربا الآخرين، فكانت النتيجة أن تخلّى سيلاستين عن منصبه وانزوى في صومعته. ولكن في الفترة القصيرة التي حكم فيها، أي أقلّ من سنة تحقّقت كل مطامح الروحانيين : فقد ذهبوا إلى سيلاستين الذي أسس معهم الجمعية المسمّاة Fratres et pauperes hermitae domini celestini. ومن ناحية أخرى، بينما كان على البابا أن يلعب دور الوسيط بين كبار الكرادلة في رومة، كان البعض منهم مثل كولوّنا وأورسيني يؤيدون سراً إتجاهات الفقر الجديدة : وهذا الإختيار هو حقيقة غريب بالنسبة إلى رجال ذوي حول عظيم يعيشون في الترف والثراء المغدق، ولم أفهم قط إن كانوا يستعملون الروحانيين لأهدافهم السياسية أو أنهم بحال من الأحوال يبرّرون حياتهم الشهوانية بمساندتهم للإتجاهات الروحانية، أو الشيئان معاً نظراً لقلّة فهمي لشؤون البلاد

الإيطالية. ولكني لكي أعطي مثالاً، أقول إن أوبارتينو قُبل مرشداً عند الكاردينال أورسيني وذلك عندما أصبحت كلمته مسموعة لدى الروحانيين وأصبح معرّضاً للتهمة بالإلحاد، فكان الكاردينال نفسه درعاً واقياً له في أفينيون.

غير أنه كما يقع في مثل هذه الحالات، بينما كان أنجيلو وأوبارتينو يبشران حسب المذهب، كانت مجموعات كبيرة من البسطاء تتقبّل ذلك التبشير وتنشره عبر البلاد، دون أدنى مراقبة. وهكذا امتلأت إيطاليا بهؤلاء البسطاء أو الإخوان المتمسّكين بحياة الفقر والذين بدوا للكثير خطرين، وأصبح من الصعب التفرقة بين الايمّة الروحانيين، الذين بقوا على اتصال بالسلطات الكنيسية، وأتباعهم الأكثر جهلاً، والذين كانوا يعيشون ببساطة خارج النظام الرهباني، يتسوّلون ويعيشون يوماً بيوم من عمل أيديهم، دون الإحتفاظ بأية ملكية. وهؤلاء هم الذين يُطلق عليهم الآنَ عامة الناس لقب الإخوان البسطاء، وهم لا يختلفون عن الإخوان المتسوّلين في فرنسا، المنتمين إلى بيترو دي جيوفاني أوليفي.

وبعد سيلاستين تبوّأ بونيفاسيوس الثامن العرش البابوي وسرعان ما أظهر قلّة تسامحه مع الروحانيين والإخوان البسطاء بصفة عامة: وفعلاً في السنوات الأخيرة للقرن الذي أوشك على الإنتهاء أصدر براءة «Firma cautela» يدين بها في الآن نفسه المتسكّعين، والمتسوّلين والمتجوّلين والمتطرّفين في الرهبانية الفرانشسكانية والروحانيين أنفسهم أي أولئك الذين تركوا النظام الرهباني للتنسّك.

وقد حاول الروحانيون الحصول على موافقة بابوات آخرين، مثل كليمانتي الخامس، حتى يمكّنهم من الخروج عن الرهبانية بطريقة غير عنيفة. وأظنّ أنّهم توصّلوا إلى ذلك، ولكن مجيء جيوفاني الثاني والعشرين نزع منهم كل أمل. ما أن انتخب سنة 1316 حتى أرسل إلى ملك صقلية يطلب منه أن يطرد من أراضيه أولئك الإخوان، إذ التجأ الكثير منهم إلى الجنوب وكبّل أنجلو كلارينو بالأغلال، هو وروحانيّو بروفانسا.

لا أظن أنها كانت مهمّة يسيرة إذ لاقت مقاومة الكثيرين في هيئة الكنيسة. الخلاصة هو أن أوبارتينو وكلارينو تمكّنا من الحصول على إذن بترك الرهبانية وقُبِل أحدهما عند البندكتيين والآخر عند السيلستانيين. أما بالنسبة إلى الذين تمادوا في عيشتهم الحرّة فقد كان جيوفاني قاسياً عليهم وأرسل وراءهم المحققين

وأحرق الكثير منهم.

ولكن فهم أنه لن يقدر على اقتلاع نبتة البسطاء التي كانت تنخر أسس السلطة الكنيسيّة إلاّ بإدانة الأفكار التي كانت ترتكز عليها عقيدتهم. وبما أنهم كانوا يؤكدون أن المسيح وحواريّيه لم يملكوا شيئاً لا كأفراد ولا كمجموعة، أدان البابا هذه الفكرة على أنها هرطقية. وهذا غريب جداً، إذ لا يفهم المرء ماهي الدواعي التي جعلت البابا يرى في فقر المسيح فكرة منحرفة: ولكن، ها قد انعقد في السنة السابقة، في مدينة بيروجيا المجمع العام للفرانشسكانيين الذي أكّد هذه النظرية، وبإدانته لهم يكون البابا قد أدانها هي الأخرى. وكما سبق أن قلت كان يحمل المجمع في طياته أذى كبيراً للبابا إذ لا يخدم مصالحه في نزاعه ضدّ الإمبراطور، هذا هو الواقع. وهكذا، منذ ذلك الحين يموت حرقاً العديد من الإخوان البسطاء، الذين كانوا لا يعرفون شيئاً لا عن الإمبراطور ولا عن بيروجيا.

كنت أفكر في كل هذا وأنا أنظر إلى شخصية أسطورية مثل أوبارتينو. وقدّمني أستاذي إليه فمسح الشيخ على خدي بيد ساخنة، تكاد تشتعل. وعند لمسة تلك اليد فهمت الكثير من الأشياء التي كنت قد سمعتها عن هذا الرجل الطاهر وأخرى قرأتها في صفحات "شجرة الحياة" وتبينت لي النار الروحية التي كانت تلتهمه منذ الشباب عندما تخلّى عن النظريات اللاهوتية وهو يزاول الدراسة في باريس وتخيّل أنه أصبح المجدليّة التائبة، كما فهمت طبيعة علاقاته المكثّفة مع القديسة أنجيلا دا فولينيو التي أطلعته على كنوز الحياة الروحية وعلّمته تقديس الصليب، وفهمت أخيراً لماذا أرسله رؤساؤه إلى "فارنا" وقضوا عليه بالعزلة فيها، لانشغالهم بحماسه المفرط في الوعظ والتبشير.

بقيت أتفحص في ذلك الوجه ذي الملامح اللطيفة، الشبيهة بملامح القديسة التي كان له معها تبادل أخوي لأحاسيس روحانية. وأدركت بالحدس أن ملامحه كانت في وقت من الأوقات أكثر صرامة. فعندما ألغى مجمع فيينا سنة 1311 بمقتضى البراءة البابوية «Exivi de paradiso» الرؤساء الفرانشسكانيين المناهضين الروحانيين، مع إجبارهم على العيش في سِلم داخل الرهبانية، رفض هذا البطل المناضل تلك التسوية الرشيدة وكافح من أجل تكوين رهبانية مستقلّة تستوحي تعاليمها من قاعدة على غاية من الصرامة. وقد خسر هذا المناضل الكبير معركته لأنه في تلك السنوات كان جيوفاني الثاني والعشرين ينادي بحرب صليبية ضد

أتباع بييترو دي جيوفاني أوليفي (و كان هو من بينهم) ويحاكم إخوان ناربونا وبيزيي. ولكن أوبارتينو لم يتردّد عن الدفاع أمام البابا عن ذكرى صديقه، والبابا، الذي غلبته قداسته، لم يجرؤ على إدانته هو أيضاً (و لو أنّه أدان بعد ذلك الآخرين). بل بالعكس، في تلك المناسبة عرض عليه وسيلة للنجاة، ونصحه في البداية، ثم أمره أن ينضمّ إلى الرهبانية الكلونية. وقد قبل أوبارتينو، الذي يبدو أنه كان ماهراً (بينما في الظاهر كان يبدو أعزلاً وضعيفاً) في كسب الحماة والحلفاء في البلاط البابوي، قَبِل بحق أن يدخل في دير جمبلاخ ولكنّني أظنّ أنه لم يذهب إلى هناك أبداً، بل بقي في أفينيون، تحت راية الكاردينال أورسيني، للدفاع عن قضية الفرانشسكانيين.

في المدة الأخيرة فقط (و الأخبار التي سمعتها كانت غير مضبوطة) أفل نجمه في البلاط، مما أجبره على الإبتعاد عن أفينيون بينما كان البابا يطارد هذا الرجل الجموح بتهمة الهرطقة ولأنه يجوب الدنيا يعظ ويجادل. وقيل أنه لم يُعثر له بعد ذلك على أثر. في العشية عرفت، من المحادثة التي دارت بين غوليالمو ورئيس الدير، أنه كان يختبىء في هذا الدير. والآن، ها أنا أراه أمامي، وكان يقول لغوليالمو :

- غوليالمو، لقد أوشكوا أن يمسكوا بي ليقتلوني، أتعرف ذلك، لقد أجبرت على الفرار ليلاً.

- من كان يريد قتلك؟ هل جيوفاني؟

- كلاّ. جيوفاني لم يكن يحبّني قط، ولكنه احترمني دائماً. في الحقيقة هو الذي عرض عليّ طريقة كي أنجو من المحاكمة، منذ عشر سنوات، وأجبرني على الإنتماء إلى البندكتيين، وبهذا أسكت أعدائي. لقد تهامسوا طويلاً وسخروا لأن بطل الفقر دخل في رهبانية على درجة من الثراء، ويعيش في بلاط الكاردينال أورسيني . . . غوليالمو، أنت تعرف مدى تعلّقي بمآرب هذه الدنيا! ولكنها كانت الطريقة الوحيدة لكي أبقى في أفينيون وأدافع عن إخواني. إن البابا يخاف أورسيني، ولن يمسّ شعرة منّي، لقد بعثني منذ ما لا يزيد عن ثلاث سنوات رسولاً له إلى ملك أراغونا.

- إذن من كان يريد بك شراً؟

- الجميع. الهيئة الاكلريكية. لقد حاولوا قتلي مرتين. أرادوا إسكاتي. أنت

تعلم ماذا حدث منذ خمسة سنوات. كانت قد وقعت منذ سنتين محاكمة متسوّلي ناربونا، وتوجّه بيرنغاريو طالّوني، الذي كان هو نفسه أحد القضاة، بنداء إلى البابا. لقد كانت فترة صعبة، فقد أصدر جيوفاني فتويين ضدّ الروحانيين، وميكيلي دا تشيزينا نفسه رضخ - وبالمناسبة، متى سيصل إلى هنا -؟

- سيكون هنا في ظرف ثلاثة أيام.

- ميكيلي . . . منذ مدّة لم أره. الآن تدارك الأمر، وفهم ماذا كنّا نريد، لقد أعلن مجمع بيروجيا أنّنا على صواب. ولكن في ذلك الوقت في سنة 1318 رضخ للبابا وسلمه خمسة روحانيين من بروفانسا رفضوا الاستسلام. أحرقهم يا غوليالمو . . . أوه، «لقد كان شيئاً فظيعاً!» ثم أخفى رأسه بين يديه.

فسأله غوليالمو : ولكن ماذا حدث بالضبط بعد نداء طالّوني؟

- لقد أراد جيوفاني فتح النقاش من جديد، أفهمت؟ كان عليه أن يفعل ذلك، لأن الشكّ بدأ يساور البعض ممّن هم في الإدارة البابوية، حتى الفرانشسكانيين منهم، فريسيّون، مراؤون، رجال مستعدّون لبيع ذمّتهم مقابل راتب، ولكن الشكّ ساورهم. وفي ذلك الحين بالذات طلب مني جيوفاني أن أحرّر له مذكّرة حول الفقر. لقد كانت رائعة يا غوليالمو، ليغفر لي الربّ غروري هذا . . .

- لقد قرأتها، أراني إيّاها ميكيلي.

- كان هناك المتردّدون، حتى من بين إخواننا، مندوب أكيتانيا، كاردينال سان فيتالي، أسقف قيافا . . .

- إنه غبي.

- لم يكن الله رحيماً بما فيه الكفاية. كان ذلك نبأ باطلاً وصلنا من القسطنطينية. إنه لا يزال بيننا، وقد قيل لي إنه عضو في القصادة البابوية. ليكن الله معنا!.

فقال أوبارتينو : ولكنه موافق على ما جاء في مجمع بيروجيا.

- فعلاً. إنه ينتمي إلى ذلك النوع من الأشخاص الذين هم دائماً من أكبر أنصار خصومهم.

فقال أوبارتينو : في الحقيقة، حتى في ذلك الوقت لم يكن ذا نفع كبير لقضيتنا، وانتهى كل شيء دون نتيجة، ولكن على الأقل لم تعتبر الفكرة هرطيقية، وكان ذلك شيئاً هاماً. لذا لم يغفر لي ذلك الآخرون أبداً، وحاولوا

إلحاق الضرر بي بكل الوسائل، وقالوا أنني كنت في ساشنهاوسن منذ ثلاث سنوات، عندما أعلن لودوفيكو أن جيوفاني هرطيق. ومع ذلك كان الكل يعلم أنني في شهر جويلية كنت في أفينيون عند أورسيني . . . بدا لهم أن البعض ممّا قاله الإمبراطور كان يعكس أفكاري، يا للجنون.

فقال غوليالمو : كلاّ، لا جنون في هذا. لقد أعطيته أنا تلك الأفكار، مستمدّاً إياها من بيانك الذي حرّرته في أفينيون، ومن بعض صفحات أوليفي.

فهتف أوبارتينو، بين مندهش ومغتبط : أنت؟ إذن أنت تؤيدني - فبدأ غوليالمو مرتبكاً وأجاب بتملّص : كانت أفكاراً طيّبة بالنسبة إلى الإمبراطور في تلك الفترة.

فنظر إليه أوبارتينو بريبة : آه، ولكنك لا تؤمن بها فعلاً، أليس كذلك؟.

فقال غوليالمو : ولكن قصّ، قصّ عليّ ثانية كيف نجوت من أولئك الكلاب.

- آه صحيح، إنهم كلاب يا غوليالمو، كلاب مسعورة. لقد وجدت نفسي أقاوم ضد بوناغراسيا نفسه، أتعرف ذلك؟.

- ولكن بوناغراسيا دا بيرغامو حليفنا!.

- الآن، بعد أن تحادثت معه طويلاً. عند ذلك فقط اقتنع واحتجّ على براءة «Ad conditorem canonum». وسجنه البابا لمدة سنة.

- لقد سمعت أنه يوجد الآن قرب صديق لي في الإدارة البابوية، غوليالمو دا أوكّام.

- لا أعرفه كثيراً، إنه لا يعجبني، فهو رجل دون حماس، كلّه عقل، دون قلب.

- ولكنه عقل رائع.

- قد يكون، وسوف يقوده إلى الجحيم.

- إذن سوف ألاقيه هناك، وسوف نتجادل في المنطق.

فقال أوبارتينو متبسماً بمحبة غامرة : اسكت يا غوليالمو، أنت أفضل من فلاسفتك. لو أردت فقط . . .

- ماذا؟

- متى تقابلنا آخر مرّة يا أومبريا؟ أتتذكر؟ كنت قد برئت منذ قليل من آلامي

بفضل شفاعة تلك المرأة الرائعة . . كيارا دا مونتيفالكو . . " همس بذلك وقد تهلّل وجهه. "كيارا . . . عندما تتسامى الطبيعة الأنثوية، التي هي بطبيعتها ضالّة، نحو القداسة، عندئذ تجعل من نفسها أسمى معنى للّطافة. أنت تعرف كيف كانت حياتي مستوحاة من العفّة الطاهرة يا غوليالمو "(و أمسكه من ذراعه بتشنّج) أنت تعلم كم كان . . قاسياً - نعم إنها العبارة الصحيحة - كم كان تعطّشي للتوبة قاسياً، تلك التوبة التي حاولت أن أقتل بها ما يختلج في داخلي من شهوة جنسية، كي أصبح حبّاً شفّافاً للمسيح . . . ومع ذلك فإن ثلاث نساء في حياتي كانت بالنسبة إليّ ثلاثة رسل إلاهية، أنجيلا دا فولينيو، مارغاريتا داتشيتّا دي كاستيلّو (التي تنبّأت بخاتمة كتابي بينما لم أكتب منه إلاّ الثلث) وأخيراً كيارادا مونتيفالكو. لقد كافأتني السماء، لأنّني كنت أنا، أنا لا غيري، الذي حقّق في معجزاتها ونادى بقداستها لدى الناس، قبل أن تتحرّك أمنا الكنيسة المقدّسة. وكنت أنا هناك يا غوليالمو، وكان بإمكانك أن تُعينني في تلك المهمّة المقدّسة إلاّ أنك أبيت . . .

فقال غوليالمو ببطء : ولكن المهمّة المقدّسة التي كنت تدعوني إليها كانت أن أسلم إلى المحرقة بانتيفانغا، ياكومو وجيو فانوتشيو.

- كانوا يهينون ذكراها بانحرافهم. وكنت أنت محقّقاً!.

- وفي تلك الفترة بالذات طلبت أن أعفى من مهامي. لم ترق لي تلك القصّة. ولا أعجبتني أيضاً، وأقولها بصراحة، الكيفية التي حملت بها بانتيفانغا على أن يعترف بخطاياه، فقد تظاهرت بالرغبة في الإنتماء إلى طائفته، إن كان يمكن تسميتها هكذا، واختلست منه أسراره ثم عملت على إيقافه.

- ولكن هكذا تكون معاملة أعداء المسيح! كانوا هراطقة، كانوا الرسل الزائفين، تنبعث منهم رائحة كبريت الأخ دولتشينو!

- كانوا أصدقاء كيارا.

- لا يا غوليالمو، لا تخدش ولو بكلمة ارتياب ذكرى كيارا!.

- ولكنهم كانوا ضمن جماعتها . . .

- كانوا فرانشسكانيين، وكانوا يسمّون أنفسهم روحانيين، ولكنهم كانوا من إخوان المجموعة! ألا تعرف أنه اتّضح من خلال التحقيق أنّ بانتيفانغا دا غوبيو كان يعلن نفسه رسولاً، وبعد ذلك صحبة جيوفانوتشيو دا بيفانا كانا يغريان

الراهبات ويقولان لهن أن الجحيم غير موجود، وأنه يمكن إرضاء الشهوات الجنسية دون إغضاب الربّ، وأنه يمكن تقبّل جسد المسيح (اغفر لي يا رب!) بعد مضاجعة راهبة، وإن سيّدنا كان يفضّل المجدلية على العذراء أنييزي، وأن ما تسمّيه العامة شيطاناً هو الربّ نفسه، لأن الشيطان هو المعرفة والرب هو فعلاً المعرفة، وكان عندما سمعت الطوباوية كيارا تلك الأحاديث تَمَثَّلَ لها الرب في الرؤيا وقال لها أن هؤلاء هم الأشرار الذين تبعوا روح الفسق!.

فقال غوليالمو : كانوا فرانشسكانيين التهب فكرهم بنفس الرؤى التي عاشتها كيارا، وغالباً ما تكون الخطوة قصيرة جدّاً بين الرؤيا الوجدية والجنون المؤدي إلى الخطيئة.

فشدّه أوبارتينو من يده واغرورقت عيناه من جديد بالدموع : لا تقل هذا يا غوليالمو، كيف يمكنك أن تخلط بين لحظة الحب الوجدي الذي يفوح بعطر البخور واختلال الأحاسيس التي لها رائحة الكبريت؟ بانتيفانغا يحرص على لمس أعضاء الجسد العارية، مؤكداً أنها الطريقة الوحيدة للتحرّر من سلطان الحواس: "رجل عار مضطجع مع عارية".

فأضاف غوليالمو : "دون جماع يصل بين الإثنين . . ."

– أكاذيب! يبحثون عن اللذّة، وعندما يحسّون بالشهوة الجسدية، لا يعتبرون خطيئة أن يضاجع رجل امرأة لإرضاء تلك الشهوة، وأن يلمس ويقبّل أحدهما الآخر في كل مكان من جسده، وأن يلصق بطنه العاري ببطنها العاري!

أعترف بأن الكيفية التي كان أوبارتينو ينقد بها رذائل الآخرين لم تكن تحظّني على التفكير في العفّة والفضيلة، ولعلّ أستاذي لاحظ ارتباكي، لأنه قاطع ذلك الرجل الفاضل قائلاً :

"إنك فكر ملتهب، يا أوبارتينو، سواء في حبّك للإله أو في بغضك للمنكر. ما كنت أريد أن أقوله هو أن الفارق ضئيل بين الساروفيين وصبوة إبليس، لأنها تنشأ دائماً من قوة مفرطة للإرادة".

فأجاب أوبارتينو ملهماً : "آه كلاّ، الفارق موجود، وأنا أعرفه. أنت تريد أن تقول إن بين إرادة الخير وإرادة الشرّ خطوة صغيرة، لأننا في كلتا الحالتين بصدد توجيه الإرادة نفسها، هذا صحيح. ولكن الفارق في الموضوع، والموضوع واضح وضوح الشمس، من هنا الإله ومن هناك الشيطان.

– ما يخيفني هو أنني لم أعد أعْرف كيف أميّز يا أوبارتينو. ألم تكن صديقتك أنجيلا دافولينيو هي التي حكت عن ذلك اليوم الذي، بينما كانت فيه منخطفة الروح، قضت بعض الوقت في ضريح المسيح؟ ألم تقل أنها قبّلت في الأول صدره ورأته يضطجع مغلق العينين، ثم قبّلت فمه وأحسّت عذوبة فائقة الوصف تخرج من تينك الشفتين، وبعد مهلة قصيرة وضعت خدّها فوق خدّ المسيح وقرّب المسيح يده إلى وجنتها ثم ضمّها إليه فبلغت، على حدّ تعبيرها، أوج السعادة . . . "

فسأله غوليالمو : الظاهر أنني تعودت على أكسفورد، حيث تكتسي التجربة الروحانية طابعاً آخر . . .

فقال أوبارتينو مبتسماً : كلّها في الرأس.

– أو في العينين : أن نحسّ بالإله نوراً، في أشعة الشمس، في الصور التي تعكسها المرايا، في انتشار الألوان فوق أجزاء المادة المنتظمة، في انتشار نور النهار على الأوراق المبلّلة . . . أليس هذا الحب أقرب إلى حب فرانشسكو عندما كان يشدو بجمال الله في كائناته، في الزهور، والأعشاب في الماء والهواء؟ لا أظن أن من هذا النوع من الحب يمكن أن يأتي أيّ إغراء. بينما لا يروقني الحب الذي ينقل في حواره مع المتعالي تلك الرعشة التي يُحِسُّ بها المرء في الوصال الجسدي . . .

– إنك تجدف يا غوليالمو! ليس نفس الشيء. هناك وثبة عظيمة، نحو الأسفل، بين وجد القلب المتيّم بحب يسوع المصلوب والحب المنحرف الذي كان يتعاطاه رسل مونتيفالكو الكذابون . . .

– لم يكونوا رسلاً كذابين، بل إخوان روح الفسق، لقد قلته أنت بنفسك.

– وما الفارق؟ أنت لم تعرف كل شيء عن تلك المحاكمة، أنا نفسي لم أجرؤ على الإضافة إلى البينات بعض الإعترافات، حتى لا أعكّر بشوائب الشيطان، ولو لحظة واحدة ذلك الجو المملوء قداسة الذي خلقته كيارا في ذلك المكان. ولكنني علمت أشياء، يا غوليالمو، ويا لها من أشياء! كانوا يجتمعون ليلاً في قبو، ويأخذون رضيعاً ثم يترامونه إلى أن يموت من الضربات . . . أو من شيء آخر . . .

ومن يتقبله حيّاً لآخر مرة ويموت بين يديه، يصبح زعيم الطائفة . . . ثم

يقطعون جسد الرضيع ويخلطونه بالدقيق ليصنعوا منه قرباناً ملعوناً!.

فقال غوليالمو بثبات: أوبارتينو، لقد قيلت هذه الأشياء منذ قرون، وقد قالها الأساقفة الأرمينيون بخصوص طائفة الباوليتشاني، وبخصوص البوغوميليين.

- لا يهم، الشيطان بليد الذهن، يتبع نسقاً في مكائده واغوائه، ويعيد نفس الطقوس بعد آلاف السنين، وهو لا يتغيّر أبداً، وفعلاً لذلك يمكن التعرّف عليه كعدّو! أؤكد لك، كانوا يشعلون الشموع في القبور ويحملون هناك الصبايا، ثم يطفئون الشموع ويرتمون عليهن، حتى ولو كانت تصلهم بهن قرابة الدم... وإذا ما ولد من ذلك الجماع طفل، يعيدون تلك الشعائر الجهنمية، جالسين كلّهم حول وعاء مليىء بالخمر، يسمّونه البرميل الصغير، ثم يسكرون ويقطعون الطفل إرباً ويصبون دمه في كأس، ويلقون في النار أطفالاً أحياء، ثم يخلطون رماد الطفل ودمه ويشربونه!.

- ولكن هذا كتبه ميكيلي بسيلّيو في كتابه حول أعمال الشياطين منذ ثلاثمائة سنة! من قصّ عليك هذه الأشياء؟

- هم، بينتفانغا والآخرون، وتحت وطأة التعذيب!.

- هناك شيء واحد يهيج الحيوان أكثر من اللّذة وهو الألم. تحت وطأة التعذيب يعيش المرء وكأنه تحت تأثير حشائش تثير الرؤى. كل ما قصّه عليك الآخرون، وكل ما قرأته، يعود إلى ذهنك، وكأنك منخطف، لا نحو السماء، بل نحو الجحيم. تحت وطأة التعذيب لا تقول فقط ما يريد المحقق، ولكن ما تتصوّر أنه من الممكن أن يُرضيه، لأن هناك ارتباطا، فعلاً شيطانياً، بينك وبينه... هذه أشياء أعرفها، يا أوبارتينو، فقد كنت أنا أيضاً من بين أولئك الرجال الذين كانوا يظنون أنهم قادرون على خلق الحقيقة باستعمال الحديد الحامي. إذن، اعلم أن حرارة الحقيقة متأتية من جذوة أخرى. تحت وطأة التعذيب يمكن أن يكون بنتيفانغا قال أكاذيب منافية للعقل، لأنه لم يعد هو الذي يتكلّم، بل صبوته، والشياطين التي تسكن روحه.

- صبوته؟

- نعم، توجدُ صبوة للألم، كما توجد صبوة للعبادة، وحتى صبوة للخشوع. إذ يكفي القليل للملائكة المتمردة حتى تتحول صبوة العبادة فيها والخشوع إلى صبوة كبرياء وثورة، فما قولك بمخلوق إنساني؟ هو ذا، الآن عرفت ذلك، كانت

تلك هي الأفكار التي باغتتني أثناء تحقيقاتي. ولهذا السبب تخلّيت عن ذلك النشاط، لم تكفني الشجاعة لأحقق في ضعف إرادة أولئك الأشقياء، لأنني اكتشفت أنه نفس ضعف القديسين.

استمع أوبارتينو إلى كلمات غوليالمو الأخيرة وكأنه لا يفهم ما كان يقول. من سحنته، التي كانت تنم دائماً عن رأفة ودية، فهمت أنه يعتبر غوليالمو فريسة لشعور كبير بالذنب ويغفر له ذلك لأنه يحبه كثيراً، فقاطعه وقال له بنبرة شديدة المرارة "لا يهم، إن أحسست بذلك، فقد فعلت حسناً عندما توقفت. ينبغي مقاومة الرّغبات ولكن نقصتني مع ذلك مساندتك وإلاّ لاستطعنا كسر زمرة السوء تلك.

ولكن العكس هو ما وقع، لقد اتهمت أنا بأنني كنت متسامحاً كثيراً معهم، وظنّوا بي الهرطقة. أنت أيضاً كنت كثير اللّين في مقاومتك للشرّ. الشرّ يا غوليالمو: لن ينتهي أبداً هذا القصاص، هذه العتمة، هذا الوحل الذي يمنعنا من إدراك المنبع؟" ثم اقترب أكثر من غوليالمو، كما لو كان يخشى أن يسمعه أحد "حتى هنا، حتى بين هذه الجدران التي كرّست للصلاة، أتعرف ذلك؟".

- أعرف ذلك، لقد حدّثني رئيس الدير، بل ترجّاني أن أعينه على إزاحة الستار عن هذه الواقعة.

- إذن تجسّس، نقّب، أنظر بعين الفهد نحو ناحيتين، الفسق والغرور.

- الفسق؟.

- نعم، الفسق، كان هناك شيء ما . . . أنثوي، وبالتالي شيطاني، في ذلك الشاب الذي مات. كانت له عينا صبية تبحث عن علاقة مع الشيطان. ولكنّني كلمتك أيضاً عن الغرور، غرور العقل، في هذا الدير المعدّ لغرور الكلمة، لوهم العلم . . .

- إن كنت تعرف شيئاً فساعدني

- لا أعرف شيئاً. ليس هناك شيء أعمله. وإنما الأشياء يحسّها المرء بقلبه. اترك قلبك يتكلّم، اسأل الوجوه، ولا تستمع إلى الألسنة . . . ولكن ما علينا، لماذا نتكلّم عن هذه الأمور المؤسفة فنبعث الخوف في نفس صديقنا الشاب؟ ونظر إليّ بعينين في زرقة السماء، لامساً خدي بأطراف أصابعه الطويلة البيضاء، وكدت أتراجع تلقائياً، ولكنني تمالكت نفسي وحسناً فعلت، وإلاّ لجرحت

شعورهُ، إذ كانت نيّته صافية. ثم التفت من جديد نحو غوليالمو قائلاً : بل حدّثني عن نفسك، ماذا فعلت بعد ذلك؟ لقد مضت . . .

– ثماني عشر سنة. لقد رجعت إلى بلدي، ودرست في أوكسفورد. درست الطبيعة.

– الطبيعة طيّبة لأنها ابنة الربّ.

فقال غوليالمو مبتسماً : ولا يمكن أن يكون الربّ إلاّ طيّباً، إذ خلق الطبيعة. لقد درست، والتقيت بأصدقاء جدّ حكماء. ثم تعرّفت على مارسيليو، وجذبتني أفكاره حول الإمبراطورية وحول الشعب، وحول قانون جديد للحكم فوق الأرض، وهكذا انتهى بي الأمر أن أصبحت من بين إخواننا الذين يقومون بنصح الإمبراطور. ولكنك تعرف هذه الأشياء، فقد كاتبتك. إنّني سُررت كثيراً عندما قيل لي في بوبيو أنّك هنا. لقد ظننا أنك هلكت. أما الآن بما أنك معنا فسيكون عونك لنا كبيراً بعد بضعة أيام، عندما يصل أيضاً ميكيلي. سيكون الجدال عنيفاً.

– لن أقول أكثر مما قلته منذ خمس سنوات في أفينيون. من سيكون مع ميكيلي؟

– البعض ممن كانوا في مجمع بيروجيا، أرنالدو داكيتانيا، أوغو دا نوكاستل . . .

فسأل أوبارتينو : من؟

– أوغودا نوفو كاسترو، لا تؤاخذني، فإنني أستعمل لغتي حتى عندما أتكلّم لاتينية جيّدة. ثم غوليالمو آلنفيك. . ومن جهة الفرانشسكانيين الأفينيونيين نستطيع أن نتّكل على جيرولامو، وغبيّ قيافا، ويمكن أن يأتي ببرينغاريو طالّوني وبوناغراسيا دا بيرغامو.

فقال أوبارتينو : أملنا هو اللّه، لن يريد هذان الأخيران إغضاب البابا كثيراً. ومن سيكون لمساندة موقف الإدارة البابوية، أعني أصعبهم مراسا؟

– حسب الرسائل التي وصلتني أتصوّر أنه سيكون من بينهم لورانسو دي كوالكوني . . .

– رجل ماكر.

– وجون دانّو . . .

– إنه لبق في علم اللاّهوت، خذوا حذركم منه.

- سنحذر منه. وأخيراً جون دوبون.

- سيكون له شأن مع بيرينغاريو طالوني.

فقال أستاذي وهو على غاية من الجذل :

- «نعم، أظن أننا سنضحك حقاً» فنظر إليه أوبارتينو بابتسامة تدلّ على الحيرة. "إني لا أفهم أبداً متى تتكلّمون، أنتم الإنجليز بجدّ، إني لا أرى ما يضحك في قضية بهذه الخطورة. إن بقاء الرهبانية في خطر، هذه الرهبانية التي تنتمي أنت إليها، والتي لا تزال في صميم فؤادي، رهبانيتي أنا أيضاً. ولكني سأستحلف ميكيلي أن لا يذهب إلى أفينيون. جيوفاني يريده، ويبحث عنه ويدعوه بكثير من الإلحاح. احترزوا من ذلك الشيخ الفرنسي. آه يا إلٰهي، بين يدي من سقطت كنيستك" ثم أدار وجهه نحو المذبح "لقد تحوّلت إليّ بغيّ، متراخية في الترف، تتمرغ في الفجوركالحية الحائل! من طهارة اصطبل بيت لحم النقية، الذي كان من خشبٍ كما كان من خشبِ صليب الحياة، إلى فجور الذهب والحجارة، أنظر، حتى هنا، لقد رأيت البوّابة، ليس بمقدورنا الهروب من غرور الصور! إن أيام المسيح الدجّال أصبحت أخيراً قريبة وأنا خائف يا غوليالمو!». ثم نظر حواليه، وحدق بعينيه الجاحظتين في أروقة الكنيسة المعتمة، وكأن الدجّال سيظهر من لحظة إلى أخرى، وكنت في الحقيقة أتوقّع رؤيته "رسله هم الآن هنا، قد بعثهم كما بعث المسيح حوارّييه عبر الدنيا! وها هم يدوسون مدينة اللّه، ويغوون بالخديعة، وبالمداهنة وبالعنف. عندئذ سيرسل اللّه عبديه، إيليّا وأخنوخ، الذين احتفظ بهما على قيد الحياة في الفردوس الأرضي ليخزي يوماً المسيح الدجّال وسينشران الدعوة مرتدين أثواباً من خيش، ويدعوان إلى التوبة بالفعل وبالقول . . . ".

فقال غوليالمو، مشيراً إلى إسكيم الفرانشسكانيين الذي كان يرتديه "لقد جاءا يا أوبارتينو".

- ولكنهما لم ينتصرا بعد، إنها الفترة التي سيأمر فيها المسيح الدجّال، وهو يقدح غيضاً، بقتل أخنوخ وإيليّا والتمثيل بجسديهما كي يراهما الجميع فيخافوا مغبة اتباع مثلِهما ، كما كانوا يريدون قتلي . . .

في تلك اللحظة وقد انتابني الرعب، ظننت أن أوبارتينو كان فريسةٍ لنوع من الهوس القدسي، وخشيت على سلامة إدراكه. الآن وبعد مضي فترة من الزمن،

ومع ما علمت فيما بعد، أي أنه بعد سنوات قليلة من ذلك اغتيل بطريقة غامضة، في مدينة ألمانية، ولم يعرف أبداً قاتله، أصبحت أشدّ ذعراً، إذ من الواضح أن أوبارتينو كان في ذلك المساء يتنبأ.

- أتعرف أن الشدياق جيواكينو قد قال الحقيقة. لقد وصلنا إلى العهد السادس من تاريخ البشرية، الذي سيظهر فيه دجّالان، الدجّال الرمزي والدجّال الحقيقي، هذا ما يقع الآن في العهد السادس، بعد أن يظهر فرانشسكو ليشخّص في بدنه جروح يسوع المصلوب الخمسة. كان بونيفاسيوس هو الدجّال الرمزي، وتخلّي سيلاستين عن العرش البابوي لم يكن شرعياً، كان بونيفاسيوس هو الوحش الذي يخرج من البحر، تمثّل رؤوسه السبعة الطعن في الخطايا المميتة وقرونه العشرة الطعن في الوصايا، والكرادلة الذين كانوا يحيطون به هم الجراد وجسمه هو أبّوليون! ولكن الرقم الذي يمثّل الوحش يمكن قراءة إسمه بالأحرف اليونانية هو إسم بينيدكتي!" ثم حدق فيّ ليعرف إن كنت فهمت ورفع اصبعه لينذرني "كان بيندكت الحادي عشر هو الدجّال الحقيقي، الوحش الذي يَصعدُ من غور الأرض! وقد رضي الرب أن يحكم مثل ذلك الوحش الفاجر والجائر كنيسته كي تسطع فضائل خليفته مجداً!".

فعارضته بصوت يكاد لا يسمع وأنا أشجع نفسي "و لكن يا أبتي القدّيس، جيوفاني هو خليفته!".

فوضع أوبارتينو يده على جبينه كمن يريد أن يمحو حلماً مزعجاً. كان يتنفّس بصعوبة وقد تعب - "صحيح. إن الحسابات كانت مغلوطة ولا زلنا ننتظر البابا الملائكي . . . وفي الإنتظار ها قد ظهر فرانشسكو ودومينيكو" -. ثم رفع عينيه إلى السماء وقال كمن يتلو صلاة (و لكنني كنت واثقاً أنه كان يذكر صفحة من كتابه العظيم حول شجرة الحياة) "الأوّل طهّره حجر ملائكي وسكنته نار سماريّة حتى أنه تحوّل إلى نار، والثاني مبشّر فصيح أضاء بكلماته ظلمات الخطر المسيطرة على العالم" . . . نعم، إن كانت هذه هي البشارة فإن البابا الملائكي آت".

فقال غوليالمو : "ليكن كذلك، يا أوبارتينو، في الأثناء أنا هنا لأحول دون طرد الإمبراطور البشري. حتى الأخ دولتشينو كان يتحدّث عن البابا الملائكي الذي تتحدّث عنه . . .".

فصاح أوبارتينو "لا تنطق أبداً باسم ذلك الثعبان!" ولأوّل مرّة رأيته يتحوّل من متألم إلى ثائر "إنه لوّث كلمة جيواكينو دي كلابريا وجعل منها وازع موت وقذارة، رسول الدجّال إن كانت للدجّال رسل. ولكنك أنت يا غوليالمو تتكلّم هكذا لأنك في الحقيقة لا تعتقد في مجيىء المسيح الدجّال وأساتذتك في أوكسفورد قد علّموك عبادة العقل، وأخمدوا ما في قلبك من قدرة على التنبؤ!".

فأجاب غوليالمو بكثير من الجدّية: "إنّك على خطأ يا أوبارتينو، أنت تعلم أنني، من بين كلّ أساتذتي أجلّ روجي باكون..."

فقال أوبارتينو مازحاً بمرارة "الذي كان يهذي بآلات تطير"،

- والذي تحدّث بوضوح وشفافية عن المسيح الدجّال وتفطّن إلى دلالاته من خلال الفساد الذي يسود العالم ومن ضعف المعرفة. ولكنه علّمنا أن الطريقة الوحيدة للتأهب إلى مجيئه هي دراسة أسرار الطبيعة، واستعمال العلم لتحسين الجنس البشري. يمكن التأهب لمقاومة الدجّال بدراسة مزايا الأعشاب الطبيّة، وطبيعة الأحجار وحتى بتصميم الآلات الطائرة التي تسخر منها.

- إن دجّال صاحبك باكون ما هو إلاّ تعلّة لممارسة غرور العقل.

- وإنها لتعلّة مقدّسة.

- لا شيء مما هو نابع عن الغرور مقدّس. غوليالمو، أنت تعلم أنني أحبك، وأثق بك كثيراً. عاقب عقلك، تعلّم أن تبكي على جروح الإله، اقذف بكتبك بعيداً.

فقال غوليالمو: سأحتفظ فقط بكتابك، وابتسم، فابتسم أيضاً أوبارتينو وهو يتوعده بأصبعه "يا لك من إنجليزي عبيط، كفاك ضحكاً من إخوانك، بل أنصحك، اخش من لا تستطيع أن تحبّهم. وحاذر على نفسك من الدير. هذا المكان لا يعجبني".

فقال غوليالمو وهو يستأذن للإنصراف: "و فعلاً أريد معرفته أكثر، هيا بنا يا أدسو".

فقال أوبارتينو وهو يهزّ رأسه "أنا أقول لك أن هذا المكان غير صالح، وأنت تقول أنك تريد معرفته أكثر، آه!".

فأضاف غوليالمو وقد وصل إلى منتصف الجناح "بالمناسبة، من يكون ذلك الراهب الذي يشبه الحيوان ويتكلّم لغة بابل؟".

فأدار أوبارتينو وجهه وكان قد ركع "سالفاتوري؟ أظن أنها كانت هديتي إلى هذا الدير . . . هو والقيّم. عندما تخليت عن الزي الفرانشسكاني عدت بعض الوقت إلى ديري القديم في كازالي، وهناك وجدت إخواناً آخرين في ضيق، لأن الرهبانية كانت تتّهمهم بأنهم روحانيون من طائفتي . . . على حدّ تعبيرهم. ففعلت ما في وسعي لمساعدتهم وسُمِح لهم بأن يتّبعوا مثالي. وسالفاتوري وريميجيو وجدتهما هنا عندما وصلت إلى هذا المكان في السنة الفارطة. سالفاتوري . . . صحيح، يبدو حيواناً، ولكنه خدوم".

فتردد غوليالمو لحظة ثم قال : "لقد سمعته يقول «Penitenziagite». فصمت أوبارتينو، ثم حرّك يده كمن يبعد خاطراً مزعجاً "لا، لا أظنّ، أنت تعرف كيف هم إخواننا غير المنتمين للكنيسة، أهل ريف، يمكن أن يكونوا سمعوا مرّة بعض الواعظين المتجوّلين، دون أن يفهموا أقوالهم. هناك شيء آخر يمكنني أن أؤاخذ عليه سلفاتوري، إنه حيوان نهم وفاجر، ولكن لا شيء، لا شيء ضدّ العقيدة القويمة، كلاّ، إن بلاء الدير في غيره، ابحث عنه لدى من يعرف كثيراً، لا عند من لا يعرف شيئاً. لا تبنِ قصراً من الظنون على كلمة".

فأجاب غوليالمو : "لن أفعل ذلك أبداً، لقد تركت التحقيق لهذا السبب بالذات، ولكنني أحب الإصغاء إلى الكلمات، ثم التفكير فيها".

- أنت تفكر كثيراً - ثم قال متوجّهاً إليّ : "أيها الصبيّ، لا تتّبع كثيراً أفعال أستاذك المضرّة. الشيء الوحيد الذي يجب علينا التفكير فيه، وفهمت ذلك في آخر حياتي، هو الموت : "الموت هو راحة المسافر ونهاية كلّ تعب". دعاني أصليّ".

حوالي تاسعة

وفيه يجري غوليالمو حواراً علمياً مع "سيفيرنو" العشّاب.

اجتزنا من جديد الجناح الأوسط وخرجنا من الباب الكبير الذي دخلنا منه، وكانت كلمات أوبارتينو لا تزال كلّها ترنّ في أذنيّ.

ثم تجرأت وقلت لغوليالمو "إنه رجل . . . غريب"،

- ثم كان، أو لا يزال، لعدة اعتبارات، رجلاً عظيماً، وفعلاً لذلك هو غريب. الرجال التافهون فقط يبدون عاديين. كان يمكن لأوبارتينو أن يصبح واحداً من أولئك الهراطقة الذين ساهم في إحراقهم، أو كاردينالا في كنيسة رومة المقدسّة. لقد وصل قريباً جداً من كلا الضلالين. عندما أتحدّث مع أوبارتينو يبدو لي أن الجحيم هو الفردوس منظوراً إليه من الناحية الأخرى.

لم أفهم ماذا كان يريد أن يقول، فسألته: "من أيّ ناحية؟" فقال غوليالمو معترفاً "صحيح، يتعيّن أن نعرف هل توجد أجزاء أم يوجد كلّ. ولكن لا تصغ إليّ، وكفاك تحديقاً في تلك البوّابة" وضربني ضربة خفيفة على رقبتي بينما كنت ألتفت إلى الوراء وقد جذبتني النقوش التي رأيتها في المدخل "لقد أفزعتك اليوم بما فيه الكفاية. هي وغيرها."

عندما أدرت وجهي نحو الخارج، رأيت أمامي راهباً آخر، قد يكون له نفس سنّ غوليالمو. وابتسم لنا وحيّانا بأدب قائلاً أن اسمه سيفيرينو دا سانتيميرّانو، وهو الأب العشّاب المكلّف بقاعات الإستحمام، والمستشفى، والمباقل، وأنه يضع نفسه تحت تصرّفنا إذا ما أردنا التعرّف أكثر على ما يوجد بداخل الدير.

فشكره غوليالمو قائلاً أنه قد لاحظ، أثناء دخوله، المبقلة الخلاّبة التي بدت له محتوية لا على أعشاب صالحة للأكل فقط بل وكذلك على أعشاب طيّبة، كما يبدو ذلك من خلال الثلوج.

- "أثناء الصيف أو الربيع، ومع تنوّع نباتاتها، كلّ منها مزدانة بأزهارها تسبّح هذه المبقلة بحمد الخالق كأحسن ما يكون الحمد". قال سيفيرينو ذلك على وجه الإعتذار ثم أضاف: "و لكن حتى في هذا الفصل ترى عين العشّاب من خلال الأغصان اليابسة النباتات التي ستنشأ ويمكنه أن يؤكد لك أن هذه المبقلة أثرى من أيّ كتاب أعشاب، وبتنوّع أكثر في الألوان، مهما كان جمال منمنماته. ثم انه حتى في الشتاء تنبت الأعشاب النافعة، وأخرى أحتفظ بها مجموعة ومهيأة في الأوعية التي عندي في المخبر. فجذور الحمّيضة مثلاً تداوي الزكام، وبمغليّ جذور الخطمي الهندي تُهيأ لفائف لعلاج أمراض الجلد، والقرطب يدمل الأكزيمة، وإذا ما سحقنا وطحنا الجذمور فإننا نتحصّل على دواء يشفي من الإسهال ومن بعض أمراض النساء، والبهار مهضم ناجع وحشيشة السعال نافعة ضد السعال، ولدينا جنطيانا جيدة للهضم، وعرق السوس، وعرعر يصلح نقيعاً نافعاً، وقشرة البلسان مغلاة لمداواة الكبد، ونقيع جذور الصابونية في الماء البارد يصلح لعلاج النزلة، والناردين التي تعرف دون شك فضائلها".

- لديكم أعشاب مختلفة وتنتمي إلى مناخات مختلفة فما هو السرّ؟

- يعود الفضل في ذلك إلى رحمة الإله، من جهة، الذي جعل موقعنا مرتفعاً بين سلسلة جبال تطل من جنوبها على البحر وتتقبل منه رياحه الحارّة، ومن شمالها على أعلى جبل فيصلها منه عبيره الغابي، كما يعود الفضل من جهة أخرى، إلى ممارسة هذا الفن، الذي تلقنته دون أن أكون جديراً بذلك، بفضل عزم أساتذتي. وهناك نباتات تعيش في مناخ مناوىء إذا اعتنيت بالتربة المحيطة بها، بتغذيّتها وبنموّها.

فسألته "و لكن هل لديكم نباتات صالحة فقط للأكل؟"

- أيها المهر الجائع، لا توجد نباتات صالحة للأكل دون أن تكون صالحة للعلاج، يكفي أن تكون الكمية معقولة، والإفراط وحده يجعلها سبباً في الأمراض. خذ القرع، فهو ذو طبيعة باردة ورطبة تريحك من العطش، ولكن إذا ما أكلته متهرئاً فهو يثير الإسهال وعليك إذن أن تقبض أحشاءك بخليط من الربّ والخردل. والبصل؟ ساخناً ونديّاً، بكمية قليلة يزيد من قوة المرء عند الجماع - بطبيعة الحال لمن ليس ملزماً بالنذر الذي التزمنا به نحن - وإن أخذ بكميات كبيرة يحدث ثقلاً في الرأس وينبغي مجابهته بالحليب والخلّ. - ثم أضاف بشيء من

الخبث - وهذا سببٌ كافٍ كي يأكل منه الراهب الشاب دائماً بتقتير. ولكن عليك بالثوم. عندما يكون ساخناً وجافاً فهو ترياق للسموم. ولكن دون إفراط، فهو يخرج سوائل كثيرة من المخ. أمّا اللوبياء فهي تكثر البول وتسمّن وهما أمران طيّبان، ولكنها تتسبّب في أحلام مزعجة وإن كانت أقل إزعاجاً بكثير من تلك التي تحدثها بعض الحشائش، لأن من بينها ما يحدث أيضاً رؤى غير جميلة.

فسألته : "و ما هي؟"

- آه، آه، إن مبتدئنا يريد أن يعرف أكثر مما يلزم. هذه أشياء لا ينبغي أن يعرفها إلاّ العشاب وإلاّ لاستطاع أيّ طائش أن يتجوّل موزعاً الرؤى، بعبارة أخرى أن يكذب بواسطة الحشائش." فقال عندئذ غوليالمو : "و لكن يكفي قليل من الأنجرة أو الرويبرا أو الأوليريبوس للوقاية من الرؤى. أرجو أن تكون لديكم هذه الحشائش الطيّبة".

فنظر سفيرينو إلى أستاذي نظرة مختلسة وقال : "هل أنت تهتم بالأعشاب؟"

فقال غوليالمو بتواضع : "قليلاً جداً، لقد حصل مرة بين يدي كتاب أبي القاسم البلداشي . . . "تقويم الصحّة"

- أبو الحسن المختار بن بطلان.

- أو القاسم المختار كما تريد. أتساءل إن كانت توجد منه نسخة هنا.

- ومن أجملها، مع رسوم كثيرة ممتازة.

- الحمد للّه، وكتاب بلاتياريوس "في فضل الأعشاب".

- هو أيضاً موجود، وكذلك كتاب "النباتات" و"في التنبّت" لأرسطو ترجمة ألفريد دي ساريشال.

فلاحظ غوليالمو - يقال أنه لم يؤلفه في الحقيقة آرسطو، كما اكتشف أيضاً أن كتاب "العلل" ليس لآرسطو.

فقال سفيرينو "هو على كل حال كتاب عظيم". ووافقه أستاذي على ذلك بحماس كبير دون أن يسأل إن كان العشّاب يعني "التنبّت" أم كتاب "العلل" وهما كتابان لا أعرفهما ولكنني استنتجت من ذلك الحوار أنهما هامّان جداً.

وختم سيفيرينو قائلاً "سأكون سعيدا لو أمكنني أن أجري معك حواراً صريحاً حول الأعشاب".

فقال غوليالمو "إنني أشدّ شوقاً منك إلى ذلك ولكن ألسنا نخالف قاعدة

الصمت المعمول بها على ما يبدو في رهبانيتكم". فقال سيفيرينو : "القاعدة؟ لقد تكيفت عبر القرون مع مختلف المجموعات. كانت القاعدة تسمح بقراءة الكتابات المقدّسة لا بالدرس : ومع ذلك أنت تعلم كم طوّرت رهبانيتنا البحث في الأمور الإلهية وفي الأمور البشرية. ثم، القاعدة تقول باستعمال قاعة نوم جماعية، ومع ذلك فمن الصالح كما هو الشأن عندنا، أن يتمكن الرهبان حتى أثناء الليل من التأمل، ولذا كل منهم له حجرته. والقاعدة صارمة جداً فيما يخص الصمت ولا يجب، حتى عندنا، أن يتحادث الرهبان فيما بينهم، سواء كانوا ممّن يعملون بأيديهم أو ممّن يقرأون ويكتبون. ولكن الدير هو قبل كلّ شيء مجموعة من الدارسين وغالباً ما يكون نافعاً أن يتبادل الرهبان كنوز المعرفة التي تتجمع لديهم. إن كل مناقشة تخصّ دراستنا تعتبر شرعية ومجدية. على شرط أن لا تقع في قاعة الأكل أو أثناء ساعات الفروض المقدّسة."

فسأله غوليالمو فجأة "هل أتيح لك أن تتحادث كثيراً مع أدالمو دا أوترانتو؟"

ولم يبد على سيفيرينو أنه فوجىء وقال : "أرى أن رئيس الدير قد أخبرك. كلاّ، لم أكن أتحادث معه كثيراً. كان يمضي وقته في النمنمة، لقد سمعته أحياناً يتناقش مع رهباناً آخرين، فيناسيو دا سالفيماك، أو يورج دا بورغوس حول طبيعة العمل الذي كان يقوم به. ثم إني لا أمضي نهاري في قاعة الكتابة بل في مخبري"، وأشار إلى مبنى المستشفى.

فقال غوليالمو : "فهمت، أنت إذن لا تعلم إذا حدثت لأدالمو بعض الرؤى"

– رؤى؟

– كالتي تحدثها أعشابك مثلاً،

فتصلّب وجه سيفيرينو وقال : "لقد قلت لك أنني أصون بكثير من الحذر الأعشاب الخطرة."

فسارع غوليالمو مدقّقاً "لا أقول ذلك، كنت أعني الرؤى بصفة عامة".

فألّح سيفيرينو قائلاً "لا أفهم".

– خطر ببالي أن راهباً يتجول في الليل داخل الصّرح، حيث يمكن أن تقع، كما أكّد لي رئيس الدير، أشياء . . . مريعة لمن يدخل في الساعات المحجرة، حسن، كنت أقول أن فكرة خطرت ببالي وهي أنه يمكن أن تكون قد حدثت له رؤى شيطانية أودت به في الهاوية.

- لقد قلت لك، إنني لا أتردّد على قاعة الكتابة، إلاّ عندما أحتاج إلى كتاب ولكنني في العادة أحتفظ بكتبي الأعشابية في المستشفى. لقد قلت لك أن أدالمو كان مؤالفاً كثيراً ليورج، ولفينانسيو و. . . طبعاً، لبيرينغاريو. "

شعرت أنا أيضاً بتردّد خفيف في صوت سيفيرينو، ولم يخف ذلك على أستاذي : "بيرينغاريو؟ ولماذا طبعاً؟"

- بيرينغاريو دا أوروندال، مساعد حافظ المكتبة. كان لهما نفس السن، كانا مبتدئين معاً، من الطبيعي أن يتحادثا في نفس المواضيع. هذا ما كنت أريد أن أقول" . فعلّق غوليالمو قائلاً هذا إذن ما كنت تريد أن تقوله" ، وأدهشني أنه لم يرد أن يلحّ على تلك النقطة، وفعلاً غيّر في الحال مجرى الحديث : "و لكن لعلّ الوقت قد حان لكي نزور الصّرح، هل تريد أن تكون مرشدنا؟" فقال سيفيرينو بارتياح واضح "بكلّ سرور" ثم حاذى بنا المبقلة ومررنا أمام واجهة الصّرح الغربية فقال : "من ناحية المبقلة يوجد باب كبير يؤدي إلى المطبخ الذي لا يحتلّ إلاّ النصف الغربي من الطابق الأوّل، وفي النصف الثاني توجد قاعة الأكل. ومن الباب الجنوبي ، الذي يوصل إليه مروراً وراء خورس الكنيسة، يوجد مدخلان آخران يؤديان إلى المطبخ وإلى قاعة الأكل. ولكن لندخل أيضاً من هنا لأنه يمكننا عبر المطبخ أن نصل إلى قاعة الأكل. "

عندما دخلت إلى المطبخ الفسيح لاحظت أن الصّرح يشتمل في داخله وعلى كامل ارتفاعه على ساحة مثمنة الزوايا، وكما فهمت بعد ذلك، هي عبارة عن بئر كبيرة، دون منافذ حيث تفتح على مستوى كل طابق نوافذ عريضة، كتلك التي تفتح على الخارج. وكان المطبخ سقيفة ضخمة مليئة بالدخان وقد أخذ بعض الخدم يسارعون بتهيئة الطعام للعشاء. إثنان منهم كانا يعدّان عجينة من الخضر، والشعير، والشوفان والجاودار، مقطعين قطعاً صغيرة لفتا وجرجيرا وفجلاً وجزراً، حذوهما كان أحد الطبّاخين يدهن بعض الأسماك التي كان قد أتمّ طبخها في خليط من الماء والخمر، بمرق مكوّن من قويصة وبقدنوس وسعتر وثوم وفلفل وملح.

في القسم المطابق للبرج الغربي ينفتح فرن ضخم للخبز، يشعّ بلهيب مشرب الحمرة. وفي البرج الجنوبي، مدفأة عظيمة تغلي فوقها قدور عملاقة وتدور فيها السّفافيد. من الباب الذي يفتح على البيدر خلف الكنيسة دخل في تلك الآونة

رعاة الخنازير يحملون لحوم الخنازير التي ذبحت وخرجنا من ذلك الباب فوجدنا أنفسنا على البيدر في طرف المرتفع الشرقي تحت الأسوار، حيث كانت بناءات أخرى. وفسّر لي سيفيرينو أن الأولى تكون مجموعة الزرائب، ثم تأتي اصطبلات الخيول، تليها مرابط الثيران، ثم قنان الدجاج والحظيرة المغطاة للنعاج. أمام الزرائب كان رعاة الخنازير يحركون في جرة كبيرة دم الخنازير التي ذبحت منذ قليل حتى لا تجمد، لأنه إذا ما حرك جيّداً وفي الحال فلا يفسد في الأيام الموالية نظرة لقساوة الطقس، ويصنعون منه بعد ذلك الفصيد.

دخلنا إلى الصرح وألقينا نظرة خاطفة على قاعة الأكل، التي اجتزناها لنتحوّل نحو البرج الشرقي. وبين البرجين تمتدّ قاعة الأكل وتوجد في الشمالي منهما مدفأة وفي الآخر سلّم حلزوني الشكل يؤدي إلى قاعة الكتابة، أي إلى الطابق الثاني. ومن هنالك يصعد الرهبان كل يوم إلى العمل، أو يستعملون سلّمين آخرين أقلّ يسراً من الأوّل ولكنهما دافئان إذ يصعدان في شكل دوّامة خلف المدفأة وفرن المطبخ.

سأل غوليالمو إن كنا سنجد أحداً في قاعة الكتابة حتى وإن كان ذلك اليوم يوم أحد، فابتسم سيفيرينو وقال أن العمل بالنسبة إلى الراهب البنيديكتي، هو صلاة. في يوم الأحد تدوم الفروض الدينية أكثر ولكن الرهبان الذين يعملون بالكتب، يقضون مع ذلك بعض الساعات هناك، ويمضونها عادة في تبادل ملاحظات علمية مثمرة، ونصائح، وفي التأملات حول الكتب المقدسة.

بعد تاسعة

وفيه يزور أدسو وغوليالمو قاعة الكتابة ويتعرفان على عدة دارسين، وناسخين ومفهرسين وكذلك على شيخ ضرير ينتظر قدوم المسيح الدجّال.

بينما كنا صاعدين رأيت أستاذي يتأمل في النوافذ التي تُضيء المدرج، ومن المرجح أنني بدأت أكتسب شيئاً من خبرته لأنني لاحظت على الفور أن موضعها لا يسمح لأحد أن يصلها بسهولة، كما أن النوافذ التي تفتح على قاعة الأكل (الوحيدة في الطابق الأول التي تطلّ على المنحدر) كانت لا تبدو سهلة المنال إذ لم يكنِ تحتها أي نوع من الأثاث.

بعد أن وصلنا إلى أعلى المدرج دخلنا، عبر البرج الشمالي، إلى قاعة الكتابة وهناك لم أتمالك نفسي من إطلاق صيحة إعجاب. لم يكن الطابق الثاني مقسّماً إلى نصفين مثل السفلي وكان يتجلّى إذن إلى نظري بكل عظمته الفسيحة وكانت العقود منحنية وغير عالية كثيراً (أقل مما يكون في أية كنيسة ولكن مع ذلك أكثر من أية قاعة كنائسية أخرى رأيتها في حياتي)، تسندها أعمدة قوية، وكان يغمر فضاء القاعة نور رائع إذ تنفتح ثلاث نوافذ عظيمة على كلّ الجوانب الكبيرة بينما تنقب خمس نوافذ أصغر منها كلّ جانب من الجوانب الخمسة لكلّ برج ، وأخيراً ثماني نوافذ تسمح للنور بالتدفق من البئر المثمنة الداخلية.

وكانت وفرة النوافذ تجعل القاعة الكبرى بهيجة بالنور الذي كان يغمرها دون انقطاع، حتى وإن كنّا في عشية شتائية. ولم يكن الزجاج ملوّناً كما في سائر الكنائس إذ كانت شبكة الرصاص تشدّ أطراً مربّعة عديمة اللون، كي ينفذ النور إلى الداخل صافياً إلى أقصى حدّ ممكن، دون أن يكيّفه الفن البشري، لينفع للغرض المقصود، ألا وهو إضاءة عمل القراءة والكتابة. رأيت مرّات أخرى وفي

أماكن أخرى الكثير من قاعات الكتابة، ولكن ما لم يسطع في إحداها بذلك الإشعاع، في انسكاب النور المادي الذي يملأ الفضاء، ذلك الأساس الروحي نفسه الذي يتجسّد فيه النور : "الضياء" منبع كل جمال وكل علم، صفة غير منفصلة للتناسب الذي تتجلى فيه القاعدة إذ تتشارك ثلاثة أشياء في خلق الجمال : أولاهما التمام والكمال. ولذا نعتبر الأشياء التي بها نقص سمجة. ثم التناسب اللازم أو بكلمة أخرى الإنسجام، وأخيراً الجلاء والنور، وفعلاً نقول عن أشياء ذات ألوان صافية أنها جميلة. وبما أن مرأى الجمال يحمل في طياته السلم، ورغبتنا تجد الهدوء في الشعور بالسلم، وفي الخير أو في الجمال، فقد أحسست بانفراج كبير يغمرني وقلت في نفسي كم يروق العمل في هذا المكان.

وبدت لي قاعة الكتابة، في تلك الساعة من العشية، كأنها مصنع للمعرفة تعمّه البهجة. ورأيت فيما بعد بسان غالّو قاعة كتابة أخرى لها نفس الحجم، منفصلة عن المكتبة (في أماكن أخرى يعمل الرهبان في نفس الموضع الذي تحفظ فيه الكتب)، ولكنها لا تعادلها من حيث حسن الترتيب. كان العلماء الأثريّون والكتبيون، والمفهرسون والدارسون جالسين كل إلى طاولته. وكانت كل طاولة تحت نافذة. وبما أن عدد النوافذ كان أربعين (و هو رقم كامل حقّاً، ناتج عن ضرب المربع في عشرة، كما لو عظمت الوصايا العشر في الفضائل الأساسية الأربع) كان يمكن إذن لأربعين راهباً أن يعملوا بنَفَس واحد، حتى ولو كانوا في تلك الآونة قرابة الثلاثين، وشرح لنا سيفيرينو أن الرهبان الذين يعملون في قاعة الكتابة كانوا معفيّين من فروض "ثالثة" و "سادسة" و"تاسعة" حتى لا يتوقفوا عن عملهم في ساعات النهار، ولا ينهوا نشاطهم إلاّ وقت الغروب، عند صلاة الستّار.

وكانت الأماكن الأكثر نوراً مخصّصة للعلماء الأثريّين، وللمزخرفين الأكثر خبرة، وللمفهرسين وللناسخين. وكانت كل طاولة تحتوي على جميع ما يلزم للنمنمة والنسخ : محابر، وريشات نحيفة كان الرهبان بصدد سنّها بموسى نحيفة وحجر إسفنجي لجعل الرق أملس ومساطر لرسم السطور التي ستمتدّ فوقها الكتابة. وحذو كل كاتب، أو في أعلى السطح المنحدر لكل طاولة، يوجد مقرأ، يوضع عليه المخطوط المعدّ للنسخ، تغطي صفحته أقنعة تحيط بالسطر الذي هو بصدد النقل في تلك الآونة. وكان لدى البعض حبر من الذهب ومن الألوان الأخرى. بينما كان الآخرون يقرأون الكتب فقط، وينقلون الملاحظات على

كرّاساتهم أو ألواحهم.

ولكن لم يتسنّ لي أن أطّلع على أعمالهم، إذ تقدم نحونا حافظ المكتبة وكنّا على علم بأنه يدعى "ملاخي دا هيلد يشايم". وكان وجهه يريد أن يعبّر عن الترحاب، ولكنني لم أستطع أن أتمالك من الإرتعاد أمام مثل تلك القسمات الغريبة. كان طويل القامة ولو أنها كانت على غاية من الهزال، فقد كانت أعضائه غليضة وقبيحة وكان ينتقل بخطى واسعة، ملتفاً في قباء الرهبانية الأسود. كان هناك شيء مفزع في هيئته. وكان الأسكيم المسدل على وجهه، إبّان دخوله من الخارج، يلقي ظلاً على شحوب ذلك الوجه ويضفي نوعاً من الألم، لا أدري كنهه، على تينك العينين الواسعتين الحزينتين. كانت سيماؤه تحمل آثار عواطف كثيرة أخضعتها الإرادة ولكن يبدو أنها حدّدت تلك الملامح التي لم تعد الآن تنشطها. كان الحزن والصرامة يسيطران على تقاسيم وجهه وكانت عيناه نافذتين إلى حدّ أن نظرة واحدة منهما كانت تقدر على النفاذ إلى قلب المتحدث إليه، وقراءة أفكاره الخفية، حتى أنه من الصعب على المرء أن يتحمّل تفرّسها ويودّ لو يتفادى ملاقاتها ثانية.

وقدّمنا حافظ المكتبة إلى عدّة رهبان كانوا يعملون في تلك الآونة، وبخصوص كل واحد منهم حدثنا مَلاَخي أيضاً عن العمل الذي هو بصدد القيام به، وأعجبني من جميعهم التعلق الشديد بالمعرفة وبدراسة الكلمة الإلهية. وهكذا تعرّفت على فينانسيو دا سالفيماك، المترجم من الإغريقية ومن العربية، ونصير آرسطو المخلص الذي هو دون ريب أكثر الناس حكمة. وبانشيو دا أوبسالا، وهو راهب شاب سكانديناڤي يهتم بعلم البيان، وبيرينغاريو دا أروندال، مساعد حافظ المكتبة، وأيمارو دا أليسّاندريا، الذي كان ينسخ بعض الأعمال التي استعارتها المكتبة لبضعة أشهر فقط، ثم مجموعة من المنمنمين من مختلف البلدان، باتريتسيو دا كلونمانكوا، رابانو دا طوليدو، مانيوس دا ايونا، وألدو دا هيريفورد.

ويمكنني أن أتمادى في العدّ ولا شيء أروع من التعداد، فهو أداة وصف حية وخلاّبة. ولكن ينبغي أن أصل إلى موضوع نقاشاتنا، التي برزت من خلالها دلالات مفيدة لفهم ذلك القلق الذي كان يسري بين الرهبان، وذلك الشيء الذي كنت لا أدري كنهه والذي بقي ضمنياً في أحاديثهم ومخيّماً عليها.

بدأ أستاذي حديثه مع مَلاَخي مثنياً على جمال قاعة الكتابة وما يدور فيها من

نشاط ومستفسراً عن تقدّم الأعمال التي كانت تنجز بداخلها قائلاً، بكثير من الفطنة، أنه في كلّ الأماكن التي عرفها سمع الكثير عن تلك المكتبة ويرغب في الإطلاع على الكثير من كتبها. وشرح له مَلاَخي ما كان قد قاله من قبل رئيس الدير، من أن الراهب يطلب من حافظ المكتبة الكتاب الذي يريد فحصه فيذهب هذا الأخير لأخذه، من المكتبة العليا، إذا كان الطلب صائباً وتقيّاً. فسأله غوليالمو كيف يمكنه أن يطّلع على عناوين الكتب المحفوظة في الخزانات العليا فأراه مَلاَخي مخطوطاً ضخماً، تشدّه إلى الطاولة سلسلة صغيرة من الذهب. مليئاً بالفهارس الكثيفة.

فأدخل غوليالمو يده في ثوبه الذي كانت فيه فتحة على مستوى الصدر تكوّن جيباً، وأخرج شيئاً كنت قد رأيته من قبل بين يديه، وفوق وجهه أثناء السفر. كانت شدادة صنعت بحيث يمكن أن تستقرّ فوق أنف الإنسان (و أحسن من ذلك فوق أنفه هو، البارز والأقنى) كالفارس على صهوة جواده أو كطير فوق عود، وعند جانبي الشدادة بحيث تقابل العينين تمتدّ دائرتان من المعدن في شكل بيضة تكبسان على لوزتين من الزجاج، غليظتين كأنهما قاع كأس. كان غوليالمو يفضّل أن يقرأ بتلك الأداة فوق عينيه، ويقول أنه يرى أحسن مما سمحت له به الطبيعة، أو مما يسمح له به سنّه المتقدّم، خاصة عندما ينقص ضوء النهار. ولا تصلح له كي يرى من بعيد، إذ كان على عكس ذلك حاد النظر، ولكن ليرى من قريب. بذلك كان يمكن أن يقرأ مخطوطات مكتوبة بحروف دقيقة جداً، يصعب حتى عليّ في بعض الأحيان أن أقرأها. وشرح لي أن الإنسان عندما يتجاوز نصف العمر، حتى ولو كان نظره جيّداً قبل ذلك، فإن العين تتصلّب ويعسر عليها تكييف الحدقة، بحيث يصبح الكثير من العلماء عاجزين عن القراءة والكتابة بعد ربيعهم الخمسين وهي مصيبة عظمى بالنسبة إلى رجال كان بمقدورهم أن يعطو أفضل ما يخلقه ذكاؤهم لعدة أعوام أخرى. ولذا ينبغي أن نحمد الإله أن اكتشف أحد هذه الأداة وصنعها. وكان يقول أن هدف العلم هو أيضاً العمل من أجل تمديد عمر الإنسان.

ونظر الرهبان الآخرون إلى غوليالمو بكثير من الفضول دون التجرؤ على سؤاله، وتفطنت أنا إلى أنّ ذلك المكان، المكرّس بغيرة واعتزاز للقراءة والكتابة، لم تدخله إلى ذلك الحين تلك الأداة الرائعة وشعرت بالفخر لمرافقتي رجلاً لديه

ما يبهر رجالاً آخرين ذاع صيت حكمتهم في كلّ أرجاء الدنيا.

وبتلك الأداة فوق عينيه، انحنى غوليالمو على القوائم المكتوبة في المخطوط، ونظرت أنا أيضاً فاكتشفنا عناوين لكتب لم نسمع بها قط، وأخرى مشهورة جداً، على ملك المكتبة. وقرأ أُستاذي: "حول مخمّس سليمان، أدب الكلام والفهم في اللغة العبرية، في الأدوات المعدنية لروجيرو داهيرفورد، كتاب «الجبر» للخوارزمي، نقله الي اللاتينية روبارتو أنغيلكو، الحروب البونيقية لسيليو ايتاليكو، مآثر الفرنجيين، في تمجيد الصليب المقدس لرابانو ماورو وفلافيو كلاوديو جيوردانو وحول تاريخ العالم والانسان مدونا حسب الرسائل والكتب من ألفها الى يائها))

- إنها كتب رائعة. ولكن حسب اي ترتيب سجلتموها- وذكر نصا لا أعرفه ولكنه دون شك مألوف بالنسبة الى ملاخي ۞ «يملك الكتبي سجلا رتبت فيه جميع الكتب حسب المادة وحسب أسماء مؤلفيها ويحتفظ بها منظمة كل كتاب على حدة بواسطة علامات مكتوبة» كيف تفعل للتعرف على مكان كل كتاب؟ فأراه ملاخي الحواشي التي تحاذي كل عنوان، فقرأت «iii, IV gradus, V ... in prima graecorum, ii, V gradus, VII in tertia anglorum» إلى آخره .. وفهمت ان الرقم الاول يشير الى موضع الكتاب في الرف او الدرج، الذي يحمل الرقم الثاني، بينما الرقم الثالث يشير الى الخزانة، وفهمت ايضا ان العبارات الاخرى تعني قاعة أو رواقا في المكتبة، وتجرأت على طلب معلومات أكثر حول التمييزات الاخيرة. فنظر الّي مَلاخي بصرامة قائلا: «قد لا تعلم أو أنك نسيت ان دخول المكتبة مسموح لحافظ المكتبة فقط. ولذا من الصائب والكافي ان يعرف الحافظ وحده فكّ لغز تلك العبارات».

فسأل غوليالمو: «ولكن ماهو الترتيب الذي اعتُمد في وضع هذه القائمة من الكتب. ليس ذلك حسب المادة، علي مايبدو.» ولم يشر الى التصنيف حسب أسماء المؤلفين الذي يتبع نفس تداول الاحرف الأبجدية، اذ كانت طريقة لم أرها مستعملة الا في السنوات الاخيرة، وفي ذلك الوقت لم تكن مستعملة الا نادراً.

فقال مَلاَخي: «ان المكتبة تغرق جذورها في أعماق الزمن، والكتب مدونة حسب تاريخ الاقتناء، والهبات، وحسب دخولها هذه الجدران.»

- «يكفي أن يعرفها الحافظ عن ظهر قلب ويعلم عن كل كتاب التاريخ الذي

وصل فيه. أما بالنسبة الى الرهبان الآخرين فعليهم ان يثقوا بذاكرته»، وكان يبدو انه يتكلم عن شخص آخر غير شخصه هو، وفهمت انه يتحدث عن الوظيفة التي يقوم بها هو الآن بكلّ تواضع، ولكن قام بها من قبله مئة آخرون، اندثروا بعد أن تناقلوا المعرفة أحدهم عن الآخر.

فقال غوليامو : «فهمت. اذن لو أردت أنا البحث عن شيىء، دون معرفة ماهو، حول مخمّس سليمان، يمكنك إن تعرف إن كان الكتاب - الذي قرأت عنوانه منذ لحظة - موجودا وان تتعرف على موضعه في الطابق الاعلى».

فقال ملاخي : «ان كنت حقيقة تريد ان تعرف شيئا حول مخمس سليمان. فإن كتاباً مثل هذا، لو كان لي ان أسلمه إليك أفضل ان أستشير في شأنه رئيس الدير.»

فقال عند ذلك غوليالمو : «لقد علمت انكم فقدتم منذ قريب واحدا من أفضل منمنميكم وقد حدثني رئيس الدير كثيرا عن براعته الفنية، هل يمكنني ان أرى المخطوطات التي كان ينمنمها؟».

فقال ملاخي وهو ينظر الى غوليالمو بارتياب : «أدالمو دا أوترانتو. لقد كان يعمل، نظرا لصغر سنه، على الحواشي. لقد كانت له مخيلة متوقدة جدا ومن اشياء مألوفة كان بمقدوره ان يكوّن أشياء مجهولة ومدهشة، كأن يجمع جسم انسان بعنق حصان. ولكن هي ذي كتبه هناك، لم يلمس أحد بعد طاولته.»

فاقتربنا من المكان الذي كان يعمل فيه أدالمو، حيث كانت لا تزال موجودة بعض صفحات من كتاب تراتيل ثرية بالمنمنمات. كانت صفحات من ورق القضيم - وهو ملك الرقوق - وكانت الورقة الاخيرة مشدودة الى الطاولة، وقد تمَّ حكّها قليلا بالكدان وتليينها بالجبس ثم جعلها ملساء بواسطة المصقل ومن الثقوب الصغيرة جدا التي نقشت على جوانبها سُطِّرت كل الخطوط التي ستقود يد الفنان. وقد امتلأ نصفها الأول بالكتابة وأخذ الراهب في رسم الصور على الحواشي. أما الورقات الاخرى فكان قد فرغ منها، وعندما نظرنا اليها، لم نقدر لا أنا ولا غوليالمو على التمالك من اطلاق صيحة اعجاب. كان كتاب تراتيل رسم على حاشيته عالم مقلوب بالمقارنة مع العالم الذي عودنا عليه حسّنا. فكأنما يدور، في بداية حديث هو مبدئيا حديث الحقيقة وفي اتصال عميق به من خلال تلميحات رائعة وعامضة، حديث كاذب حول عالم قلب رأسه الى أسفل، حيث تفر الكلاب

امام الارانب وتصيدالايائل السباع: رؤوس صغيرة لها شكل قائمة طير وحيوانات لها أيادي انسان على مؤخرتها ورؤوس كثيفة الشعر تخرج منها أرجل وتنانين جلدها مخطط كحمار الوحش، وحيوانات بأربع قوائم لها عنق ثعباني يلتف بألف عقدة مستحيلة الفك، وقردة ذات قرون وعول وعرائس بحر لها شكل طيور وفوق ظهرها اجنحة جلدية ورجال دون ايد تخرج من ظهورهم اجساد انسانية في شكل حدبة، ثم مخلوقات بفم مسنن على البطن وبشر برأس خيل وخيول بسيقان بشرية وحيتان بأجنحة طيور وطيور بذنب حيتان ووحوش بجسم واحد ورأسين او برأس واحد وجسمين وأبقار لها ذيل ديك وأجنحة فراشة ونساء برأس محرشف كظهر السمك وكمائر ذات رأسين تتقاطع مع يعسوبيات لها خيشوم وزغة وسناتير، وتنانين وفيلة ووحوش لها ثلاث صفوف من الاسنان ووجه بشري، وبشر ذوو أرجل عظيمة قد تمدّدوا فوق أغصان الشجر، ووحوش نصفها الامامي في شكل عقاب والخلفي في شكل أسد يتولد من ذيلها نبّال على أهبة القتال، ومخلوقات شيطانية ذات عنق لا نهاية له، ومشاهد من حيوانات لها هيئة بشرية وأقزام لها هيئة حيوانية تتابع أحيانا فى نفس الصفحة، مع مناظر من الحياة الريفية مرسومة بحيوية مذهلة، حتى أن الصور كانت تبدو لك حية : كانت تمثل حياة الحقول تمثيلا كاملا : من حرّاث، وجامعي غلال، وحصادين، وناسجات وزراعين بجانب ثعالب ونموس مسلحة بأقواس تتسلق أبراج مدينة تدافع عنها قردة. هنا حرف أولي مقوّس في شكل L وفي الناحية السفلى يولّد تنينا، وهناك حرف V كبير تبدأ به كلمة «Verba» تنبت في أصله، كأنها عطفة كروم طبيعية، حيّة ملتفة ألف لفّة، تولّد بدورها حيات أخرى كما لو كانت أغصان كروم وعناقيد.

والى جانب كتاب التراتيل كان هناك كتاب فروض قد تمّت زخرفته منذ وقت قريب. كان على غاية من الروعة، صغير الحجم للغاية حتى انه يمكن تناوله في راحة اليد. وكانت الكتابة صغيرة جدا، والنمنمات على الحاشية تكاد لا تبين للعين لأول وهلة وتتطلب ان تحدق فيها العين عن قرب لتتجلّى في كامل رونقها (وتتساءل بأية أداة عجيبة رسمها المنمنم للحصول على أشكال بتلك الحيوية في فضاء بذلك الضيق). فقد كانت كامل حواشي الكتاب ممتلئة بصور صغيرة جدا تنشأ من دورات الحروف التى رسمت بروعة، وكأنها امتداد طبيعي لها : عرائس بحر ووعول هاربة، وخيامر وأنصاف بشرية دون أذرع تخرج كأنها دود من جسد

الفقرات نفسها. وفي كل مكان آخر كانت هناك ثلاث صور جميلة تبدو وكأنها تواصل للكلمات الثلاث «Sanctus, Sanctus, Sanctus» المكرّرة على ثلاثة سطور مختلفة، تمثل كائنات تحمل ثلاث رؤوس بشرية وقد التوت احداها نحو الأسفل والأخرى نحو الأعلى لتلتقيا في قبلة قد تبدو لك غير لائقة لولا اقتناعك بأن هناك معنى روحياً عميقاً، ولو أنه غير بيّن، يبرّر دون شك تلك الصورة في ذلك الموضع.

وكنت أتتبع تلك الصفحات يتنازعني الاعجاب الصامت والضحك لان الصور تحمل بالضرورة على المرح، حتى لو كانت تشرح صفحات مقدسة، وكان الأخ غوليالمو يفحصها مبتسما ثم علّق عليها قائلا : «Babewyn هكذا تسمّى في جزرنا.»

فقال ملاخي :«Babouins (قُردُوح) كما يسمونها في بلاد الغال. وفعلا تعّلم أدالمو فنّه في بلادكم، ولو أنه درس بعد ذلك في فرنسا. قرادح، أو قرود افريقيا. صور عالم معكوس، حيث تقف الديار فوق شوكة ابرة وتقوم الأرض فوق السماء».

فتذكرت بعض الأبيات التي سمعتها في لهجة البلد الذي ترعرعت فيه ولم أتمالك عن ذكرها :

Aller Wunder si geswigen,
das herde himel hât berstigen,
daz sult is vür ein Wunder wigen

فتابع مَلاخي، من نفس النص :

Erd ob un himel unter
das sult ir hân besunder
Vür aller Wunder ein Wunder*.

(*) صمتت المعجزات وكفّت عن الظهور،
وفاقت الأرض السّماء،
الآن أخذت الأرض مكان السّماء.
الأرض فوق السّماء
هذا ما يمكن اعتباره فعلاً
معجزة المعجزات.

ثم قال : «أحسنت يا أدسو. فعلا، تحدثنا هذه الصور عن تلك الجهات التي يوصل إليها فوق صهوة إوزة زرقاء، حيث توجد صقور صيد السمك في الاودية وحيث الدببة تطارد البزاة في السماء، والقمبري يطير مع الحمام وثلاثة عمالقة وقعوا في فخ ونقرهم ديك.»

وأشرق وجهه بابتسامة شاحبة، وعندئذ انفجر الرهبان الآخرون في ضحك تلقائي، وكانوا قد تابعوا الى ذلك الحين حوارنا مع ملاخي بشئ من التهيب، وكأنما كانوا ينتظرون موافقة حافظ المكتبة الذي سرعان ما استعاد صرامته بينما تمادى الآخرون في الضحك، وهم يثنون على براعة أدالمو المسكين ويطلع بعضهم البعض على الصور الأكثر غرابة. وبينما كانوا غارقين فى الضحك اذ دوّى من ورائنا صوت مهيب وصارم يقول «لم أتفوه قطّ بكلمة تافهة او بقول يبعث على الضحك».

فالتفتنا. كان المتكلم راهبا قد تقوّس ظهره تحت وطأة السنين، ابيض كالثلج، ولا أعني شعره فحسب، بل وجهه أيضا وكذلك حدقتا العينين ولاحظت انه كان أعمى. كان صوته لايزال جهوريا وأعضاؤه قوية حتى ولو انكمش الجسد تحت ثقل السنين، وكان يحدق فينا وكأنه يبصرنا ورأيته دائما، بعد ذلك، يتحرك ويتكلم كمن لا يزال ينعم بالبصر، أما نبرة الصوت فقد كانت لمن يملك فقط موهبة التنبؤ.

وقال ملاخي لغوليالمو مشيرا الى القادم الجديد : «ان الرجل المبجل سنّا ومعرفة، الذي تراه، هو يورج دا بورجوس، أكبر المقيمين في الدير سنّا، اذا ما استثنينا أليناردو دا غرو طفيرّاتا، والذي يودعه الكثير من الرهبان ثقل خطاياهم في سرية الاعتراف.» ثم قال ملتفتا الى الشيخ «هذا الذي يقف امامك هو الأخ غوليالمو دا باسكارفيل، ضيفنا».

فقال الشيخ بنبرة حادّة : «أرجو أن لا تكون أغضبتك كلماتي.» ثم تابع «لقد سمعت من يضحك. من أشياء تبعث على الضحك وأردت تذكرهم بإحدى قواعد رهبانيتنا. وكما يقول داود المرتّل، اذا ما وجب على الراهب ان يمسك عن الأحاديث الطيبة لانه نذر الصمت، فيجب عليه اكثر من ذلك ان يعرض عن الأحاديث السيئة. وكما توجد احاديث سيئة، توجد ايضا صور سيئة. وهي تلك التي تكذب حول شكل الخلق وتظهر العالم على عكس ما ينبغى ان يكون عليه،

وعلى عكس ما كان في القرون السحيقة وما سيكون دائما حتى انتهاء الزمن. ولكنك تأتي من رهبانية أخرى، قيل لي ان فيها تسامحاً حتى بخصوص المرح الذي هو في غير محله». وكان يلمح الى ما كان يقال بين البنيدكتيين عن غرابة القديس فرانشسكو الأسّيزي في سلوكه وربّما ايضا عن الشذوذ الذي رمي به الاخوان البسطاءوالروحانيون من كل صنف، والذين يمثلون في النظام الفرانشسكاني البراعم الأكثر حداثة والاكثر اثارة للحيرة. ولكن الاخ غوليالمو تظاهر بعدم فهم التلميح وأجاب «ان الصور على الحواشي توحي غالبا بالابتسام، ولكن الغرض منها هو التهذيب، كالخطب الوعظية، كما تلمس مخيلة الاتقياء من العامة تستعمل الامثلة، وليس نادرا ان تكون مازحة، كذلك حديث الصور يقرّ بهذه السخافات. لكل فضيلة ولكل خطيئة نجد مثالا من كتب الحيوانات والحيوانات تصبح صورة لعالم الانسان.»

فقال الشيخ متهكما، ولكن دون ان يبتسم «آه، صحيح. كل صورة تصلح للإقتناع بالفضيلة، ولكي تصبح روعة الخلق الالهي، مقلوبة رأسا على عقب، ومادّة تبعث على الضحك. وهكذا تتجلى الكلمة الالهية من خلال الحمار الذي يعزف على المزهر، والغبي الذي يحرث بقطعة نقد، والثيران التي تشد نفسها وحدها الى المحراث، والاودية التي تسير عكس تيارها، والبحر الذي يحترق، والذئب الذي يصبح ناسكا! صيدوا الارنب بالثور، وتعلموا النحو عن البوم، فلتعضّ الكلاب البراغيث، ولينظر العميان الى البكم وليستَجْدِ البكم قطعة خبز، ولتلد النملة عجلا، ولتطر الفراخ المشوية، ولتنبت الفطائر فوق السطوح، ولتعط البغاوات دروسا في الخطابة ولتلقح الدجاجات الديكة، وليُوضع المحراث امام الثيران، ولينم الكلب في الفراش وليمش الجميع منقلبين رأسهم الى اسفل! ماذا تعني كل هذه السخافات؟ عالما معكوسا ومعاكسا للعالم الذي وضعه الاله بتعلّة انها تريد تلقين التعاليم الالهية!».

فقال غوليالمو بتواضع: «ولكن القديس بولس يعلّمنا ان اسم الاله لا يمكن ذكره الا من خلال الاشياء الاكثر تشويها. ويذكرنا أوغو دي سان فيتوري انه كلما كان التشابه مختلفا عن الاصل، كلما بانت لنا الحقيقة من تحت غشاء الصور القبيحة وغير اللائقة، كلما ابتعدت المخيلة عن الشهوة الجسدية واضطّرت الى كشف الاسرار التي تختفي وراء فظاعة الصور...»

ـ أعرف الموضوع ! وأعترف بخجل أنها كانت الحجة الرئيسية إلتي اعتمدها نظامنا، أثناء نزاع رؤساء الاديرة الكلونيين ضد السيستارسين ولكن القديس بيرناردو كان على حق : ان الانسان الذي يمثل وحوشَ وغرائب الطبيعةليبين من خلالها خلق الاله «بالصّورة وبالرمز» يستطيب شيئا فشيئا تلك الطبيعة نفسها التي تنتمي اليها الوحوش التي يخلقها ويتلذذ بها، وفيها، ولا يرى من بعد الا من خلالها. يكفي ان تنظروا، أنتم الذين لازلتم تبصرون، الى تيجان أعمدة رواقكم»، وأشار بيده الى خارج النوافذ، نحو الكنيسة، «ماذا تعني، تحت أنظار الرهبان المستغرقين في تأملاتهم، تلك الوحوش السخيفة، وتلك الأشكال الجميلة التي قبّحت، وتلك القباحات التي جمّلت ؟ وتلك القردة القذرة ؟ وتلك الاسود، وتلك السنتورات وتلك المخلوقات النصف بشرية، ذات الفم فوق البطن، او ذات الرِّجل الواحدة، أو الآذان على شكل أشرعة ؟ وتلك النمور الرقطاء وأولئك المحاربون في نزال ، وأولائك الصيادون الذين ينفخون في الابواق، وتلك الاجسام المتعددة برأس واحد والرؤوس المتعددة في جسم واحد ؟ وذوات الاربع بذيل ثعبان والأسماك برأس ذوات الأربع، هنا حيوان يبدو حصانا من الامام ومن الخلف تيسا، وهناك حصان له قرنان. . . إلى آخره. لقد صار امتع للراهب ان يقرأ ما نقش على الرخام من أن يقرأ ما كتب في المخطوطات، وان يكبر ما يصنع الانسان عوضا عن التأمل في احكام الاله. خزيا لمتعة أنظاركم ولابتساماتكم!

وتوقف الشيخ الكبير وهو يلهث، وتعجب لذاكرته الحية التي احتفظت بالرغم من السنين الطويلة التي ربما عاشها ضريرا، بالصور التي ذكر لنا فظاعتها، حتى ذهب بي الظن الى انها قد فتنته كثيرا عندما رآها، بما انه قادر الى الآن على وصفها بذلك الحماس. ولكن غالبا ما حدث أن وجدت التمثيل للخطايا الاكثر اغراء في صفحات اولئك الرجال الأفاضل المتنزهين عن الفساد والذين يدينون لفتنته وتأثيراته، وهذا دليل على ان أولئك الرجال يحدوهم حماس قوي لجلاء الحقيقة الى حد انهم لا يترددون، حبّاً في الإله، عن تقليد الشرّ بكل المغريات التي يتحلى بها، حتى يلقنوا إخوانهم كل الطرق التي يستعملها الشيطان لفتنتهم وفعلا قد أثارت فيّ كلمات يورج رغبة قوية في رؤية نمور وقردة الرواق التي لم أرها بعد. ولكن يورج قطع مجرى أفكاري لانه واصل كلامه بنبرة أقل انفعالا،

قائلا :

«لم يحتج سّيدنا الى كل تلك السخافات كي يدلّنا على الطريق القويم. لا شيئ في تشابيهه يدعو الى الضحك او الى الخوف، أما أدالمو الذي تبكونه الآن ميتا، فقد كان يستمتع بالوحوش التي كان ينمنمها الى حد أنه نسي المغازي النهائية التي كانت تمثلها ماديا. وقد سار في جميع، أقول جميع» - وهنا بدا صوته مهيبا ومتوعدا - «دروب الشناعة. وقد عرف الله كيف يعاقبه.»

وخيم صمت عميق على الحاضرين فتجرّأ فينانسيو دا سالفيماك على قطعه وقال :

«يورج الجليل، ان طهارتك تَجعلك غير منصف. قبل موت أدالمو بيومين كنت انت حاضرا في مناقشة علمية في هذا المكان بالذات، وكان أدالمو حريصا أن يكون فنه، وإن أوقفه على تمثيل أشياء غريبة وخيالية، هادفا الى تمجيد الله، وأداة لمعرفة الامور الالهية، وقد ذكر منذ حين الاخ غوليالمو القديس بولس بخصوص المعرفة من خلال التشويه، وقد ذكر أدالمو في ذلك اليوم منارة علمية أخرى هي العلامة الاكويني، عندما قال انه ينبغي ان تمثّل الامور الالهية في اشكال الاجسام الحقيرة اكثر منها في اشكال الاجسام النبيلة. اولا لانه من السهل اكثر ان يتحرر فكر الانسان من الخطأ، وفعلا فمن الواضح ان بعض الخاصيات لا يمكن نسبتها الى الأشياء الالهية، وهذا يمكن ان يحمل الى الشك لو أشير اليها من خلال أشكال أشياء جسمية نبيلة. ثانيا لأن هذه الطريقة في التمثيل تتلاءم أكثر مع معرفتنا للاله فوق هذه الأرض: فهو يتجلّى لنا فعلاً في ما هو مغيّب أكثر مما يتجلى في ما هو موجود، ولذا فان تشابه تلك الاشياء التي تبعدنا أكثر نفكر فيه. ثالثا لان ما يتعلق بالاله يكون هكذا محجوبا بصورة احسن عمن لا يكون به جديرا. باختصار، كنا نحاول ذلك اليوم ان نفهم كيف يمكن، اكتشاف الحقيقة من خلال العبارات الغريبة، والنّافذة والغامضة، وكنت قد ذكّرته أنا انني وجدت في كتاب أرسطو العظيم كلمات واضحة في ذلك الشأن...».

فقاطعه يورج بجفاء «لا أذكر، انني مسنّ جدا. لا أذكر. قد أكون أفرطت في الصرامة. ان الوقت الآن متأخر، يجب ان أذهب».

فألح فينانسيو «من الغريب انك لاتذكر ذلك، فقد كانت مناقشة قيّمة ورائعة، تدخّل فيها ايضا بانشيو وبيرينغاريو. كنا نريد ان نعرف ان كانت الاستعارات،

والجناس، والالغاز، التي يظهر ان الشعراء خلقوها للتسلية، لا تحملنا على التفكير في الاشياء بطريقة جديدة ومدهشة، وكنت اقول ان هذه ايضا خصلة ينبغي ان يتحلى بها الحكيم... وكان ملاخي هو الآخر حاضرا...»

فقاطعه أحد الرهبان ممن كانوا يتابعون النقاش «ان كان الجليل يورج لا يتذكر فاحترم سّنه واعياء فكره... الذي لا يزال مع ذلك متوقدا».. وكانت الجملة قد نطقت بانفعال، على الاقل في اولها، لأن من تكلّم، عندما تفطن الى ان دعوته لاحترام الشيخ هي في الواقع ابراز لضعفه، خفّف من حدّة مداخلته متمّماً اياها في شبه همسة اعتذار. كان المتكلّم بيرينغاريو دا اروندال مساعد حافظ المكتبة، وكان شابا شاحب الوجه. وعندما تمعّنت فيه تذكرت ما قاله اوبارتينو عن أدالمو: كانت عيناه تشبه عيني امرأة فاسقة. ومن الخجل الذي أحدثته أنظار الجميع المحدقة فيه كانت اصابع يديه متشابكة كمن يريد أن يحبس توتّرا داخليا.

وكان رد فعل فينانسيو غريبا، فقد نظر الى بيرينغاريو نظرة جعلته يخفض عينيه، ثم قال: «حسناً ايها الاخ، ان كانت الذاكرة هبة من الله فان القدرة على النسيان يمكن ان تكون صالحة وينبغي احترامها. ولكنني احترمها من طرف الاخ الشيخ الذي كنت اخاطبه، أما من طرفك انت فكنت أنتظر ذكرى اكثر حيوية بخصوص الاشياء التي حدثت هنا، عندما كان معنا صديق عزيز عليك جداً...»

لا يمكنني ان أجزم بان فينانسيو أكد على كلمة «عزيز جداً» ولكن من الثابت انني أحسست باضطراب سرى بين الحاضرين، ونظر كل منهم الى ناحية مختلفة دون ان يوجّه أحد نظرة نحو بيرينغاريو، الذي احمرّ وجهه بشدّة. وتدخل في الحال ملاخي، بحزم قائلا: «هيّا معي يا أخ غوليالمو، سأريك كتبا أخرى هامة».

انفض الجمع. ولحظت بيرينغاريو وهو يلقي الى فينانسيو نظرة ملؤها الحقد، وأجابه فينانسيو بمثلها، في تحدّ صامت. أما أنا، فعند رؤية الشيخ يورج يهمّ بالانصراف، دفعتني عاطفة إجلال واحترام فانحنيت لتقبيل يده، ولم يرفض الشيخ ذلك، ثم وضع يده فوق رأسي وسألني من أكون، وعندما ذكرت له اسمي تهلّل وجهه وقال:

«انك تحمل اسما عظيماً وجميلا جدا. أتعرف من كان أدسو دا مونطيي - أون - دار؟» - وأعترف أنا بأنني كنت أجهله - وأضاف يورج «لقد كان مؤلف

كتاب عظيم ومريع، «كتاب المسيح الدجّال»، رأى فيه أحداثاً ستقع ولكن لم يصغ اليه أحد بما فيه الكفاية».

فقال غوليالمو : «لقد ألف الكتاب قبل ألف عام، وتلك الاحداث لم تقع».

فقال الاعمى : «لمن ليست له عينان يرى بهما. ان مسالك المسيح الدجّال طويلة وملتوية. انه يصل عندما لا نتوقعه، وليس لان حسابات الحواري مغلوطة، بل لاننا لم نتعرف على فنّه» ثم صاح بصوت مرتفع جدا، ملتفتا نحو القاعة، فدوت قباب قاعة الكتابة : «انه آت لا تضيعوا الايام الاخيرة في الضحك على الوحوش المفهّدة والاذناب الملتوية ! لا تهدروا الايام السبعة الاخيرة !».

صلاة الستار

وفيه يزور أدسو وغوليالمو باقي الدير، ويتوصل الى بعض الاستنتاجات حول موت أدالمو ثم يدور حديث مع راهب يصنع الزجاج الصالح للقراءة وحول الاشباح التي تظهر لمن يريد ان يفرط في القراءة

في ذلك الحين دقت الأجراس لصلاة السّتار وتأهب الرهبان لترك طاولاتهم، وأفهمنا ملاخي انه علينا نحن ايضا أن نذهب أما هو فسيبقى هو ومساعده بيرينغاريو، لاعادة ترتيب القاعة ولتهيئة المكتبة للّيل (هكذا قال) فسأله غوليالمو ان كان سيغلق بعد ذلك جميع الأبواب.

- ليست هناك أبواب تمنع الدخول الى قاعة الكتابة من المطبخ ومن قاعة الاكل، ولا من قاعة الكتابة الى المكتبة. تحجير رئيس الدير أقوى ويستعمل الرهبان المطبخ وقاعة الأكل الى حدود صلاة النوم. عند ذلك وحتى لا يدخل الى الصّرح حيوان أو غريب من الذين لا يخصهم التحجير، أغلق بنفسي الأبواب السفلى الكبرى التي تؤدي الى المطابخ والى قاعة الأكل ومنذ ذلك الحين يصبح المبنى معزولا.

نزلنا وبينما كان الرهبان يتّجهون نحو الخورس قرّر استاذي عدم حضور الفرض الديني قائلا إن الله سيغفر لَنا دون شك ذلك (وكان على الله ان يغفر لنا خطايا كثيرة في الأيام اللاحقة) وعرض علّي ان نتمشى قليلا عبر السهل، حتى نتعود على المكان.

خرجنا من المطابخ واجتزنا المقبرة : كانت هناك شواهد قبرية أكثر حداثة، وأخرى تحمل آثار الزمن، تقصّ حياة رهبان عاشوا في القرون الغابرة. وكانت القبور لا تحمل أسماء ويرتفع فوقها صليب من الحجر.

وكان الطقس قد بدأ يتعكّر إذ قامت ريح باردة وأخذت السماء في التجهّم، وكان غروب الشمس يتراءى من وراء البساتين وقد بدأت العتمة تخيّم على المشرق حيث اتّجهنا، محاذين خورس الكنيسة وملتحقين بالناحية الخلفية للمرتفع. هناك كانت توجد الزرائب، تكاد تستند الى الأسوار المحيطة بالدير حيث تلتئم ببرج الصّرح الشرقي، وكان رعاة الخنازير يغطّون الجرة التي ملئت بدم الخنازير. ولاحظنا ان السور الحزامي الموجود خلف الزرائب كان أقصر من باقي الاسوار حتى انه يمكن للمرء ان يشرف منه على المنحدر. وراء هوّة الاسوار، كانت الارض تنحدر بصفة تحدث الدّوار وكانت مغطاة بأوساخ لم يقدر الثلج على مواراتها تماما. وتفطنت الى اننا كنّا أمام موضع صبّ التبن، الذي استعمل كمفارش للدواب، ثم ألقي به من هناك حتى وصل الى المنعطف ومنه يتفرع الدرب الذي أخذه الجواد الهارب برونيلّو. قلت مفارش، اذ كانت عبارة عن تساقط مادّة نتنة، تتصاعد رائحتها الى الحاجز الذي كنت أشرف منه، ومن الواضح أن الفلاحين كانوا يستمدّون من الاسفل تلك المادّة لاستعمالها في الحقول. ولكن الى جانب براز الدواب والبشر تختلط نفايات أخرى صلبة هي مجموع المواد الميتة التي يخرجها الدير من جسمه، ليبقى صافيا ونقيا في علاقته مع قمّة الجبل ومع السماء.

في الاصطبلات المجاورة كان الحوذية يقودون الدواب الى المعلف، وقطعنا المسلك الذي تمتد على جانبيه من ناحية السّور، الاصطبلات المختلفة، وعلى اليسار، مستندة الى الخورس، قاعة نوم الرهبان ثم المباول. وهناك حيث يدور السّور الشرقي نحو الجنوب، في زاوية الحزام، يوجد مبنى أكوار الحدادة. وكان الحدّادون الاخيرون يرتّبون أدواتهم ويطفئون المنافخ، للالتحاق بالفرض الديني. واتجه غوليالمو بفضول نحو قسم من أكوار الحدادة، يكاد يكون منفردا عن بقية المعامل، حيث كان أحد الرهبان منكبّا على ترتيب أدواته. وكانت توجد فوق طاولته مجموعة رائعة من قطع الزجاج مختلفة الالوان، وصغيرة الحجم بينما كانت قطع أخرى كبيرة مسندة إلى الحائط، وكان أمامه صندوق لحفظ بقايا القديسين لم ينته بعد من صنعه، ولا يوجد منه الا الهيكل من الفضة، ولكن من الواضح انه كان يرصّعه بالزجاج وبأحجار اخرى، يصغّرها بأدواته ويجعلها في حجم الفصّ.

هكذا تعرّفنا على نيكولا دا موريموندو، فتّي الزّجاج في الدير، وشرح لنا أنه في القسم الخلفي من أكوار الحدادة يُنفخ ايضا في الزجاج، بينما في الامامية، حيث يعمل الحدادون، تثبت قطع الزجاج الى شبكة الرصاص لصنع النوافذ الزجاجية، ولكنه أضاف قائلا ان الاعمال الزجاجية العظيمة التي تزين الكنيسة والصّرح قد أنجزت منذ قرنين على الاقل، ويقتصر عمله الآن على اشغال متواضعة أو على ترميم ما يفسده الزمن. ثم أضاف :

- وبجهد كبير، لانه من الصعب العثور على ألوان العهود الغابرة، خاصة منها الازرق الذي يمكن التأمل في روعته الى الآن، من صنف نقي حتى انه عندما تكون الشمس في أوجها ينصبّ في جناح الكنيسة نور فردوسي أمّا زجاج الجهة الغربية من الجناح، الذي أعيد صنعه منذ زمن غير طويل، فليس في نفس الجودة، ويبين ذلك في ايام الصيف - ثم أضاف : لا فائدة، نحن لا نملك حكمة القدامى، لقد ولّى زمن الجبابرة !.

فقال غوليالمو موافقا : «اننا أقزام، ولكننا أقزام نقف فوق اكتاف أولئك الجبابرة، ورغم صغرنا نستطيع ان نرى في بعض الأحيان أبعد منهم في الافق»

فهتف نيكولا قائلا : «قل لي ماذا نجيد من الاعمال ولم يجيدوها هم من قبل ! لو نزلت الى قبو الكنيسة حيث تحفظ كنوز الدير، لوجدت مذاخر لها من الروعة ما يجعل من هذا السّقط البائس الذي أنا بصدد صنعه» - وأشار الى عمله فوق الطاولة - «سيبدو لك هذا قردا يحاول تقليدها !»

- ما حكم قط على الزجّاجين ان يصنعوا النوافذ فقط أو على الصائغين ان يصنعوا صناديق بقايا القديسين فحسب، وقد عرف الفنّانون القدامى صنع أشياء من هذا القبيل فائقة الروعة لتبقى خالدة عبر القرون، وإلاّ لامتلأت الارض بتلك الصناديق. وأضاف غوليالمو هازئا : في عصر قلّ وندر ان يوجد فيه قدّيسون تحفظ بقاياهم. ولا أن يُقتصر على لحَم النوافذ أبد الدهر، ولكنني رأيت في بلدان مختلفة اعمالا جديدة مصنوعة من الزجاج تذكرنا بعالم الغد عندما يصبح الزجاج لا فقط في خدمة الفروض الدينية بل وأيضا معينا للانسان في ضعفه. أريد ان أريك عملا من أيامنا المعاصرة، والتي يشرفني انني أملك منها نموذجا عظيم النفع». ثم أدخل يده تحت ثوبه وأخرج عدستيه اللتين أذهلتا مخاطبنا.

وأخذ نيكولا الشدادة التي مدّها اليه غوليالمو باهتمام بالغ، وهتف : «عينان

من الزّجاج بمسّاكة !» لقد حدثني عنها أخ من الاخوان يدعى جيوردانو عرفته في بيزا ! وقد قال لي لم تمض بعد عشرون سنة على اكتشافها. ولكنني تحادثت معه منذ ما يزيد على العشرين عاما.

فقال غوليالمو : «أظن انها اخترعت قبل ذلك بكثير، ولكنها صعبة الصنع وتتطلب زجّاجين ذوي خبرة كبيرة، وتستنفد وقتا وعملا، وقد بيع زوج من هذه النظارات الزجاجية الصالحة للقراءة في بولينيا بستة فلوس وكان ذلك منذ عشر سنوات. وأهداني زوجا منها أستاذ كبير هو سالفينو ديلي أرماتي، منذ مايزيد على عشر سنوات، وحافظت عليها حفاظا بالغا طوال هذا الوقت، وكأنها - كما هي الآن حقّا - جزء لا يتجزأ من جسمي».

فقال نيكولا بحماس : « أرجو ان تدعني يوماً أفحصها وسأكون سعيدا لو تمكّنت من صنع واحدة مثلها.»

فأبدى غوليالمو موافقته : «بالتأكيد، ولكن انتبه الى أن سمك الزجاج يتغيّر حسب العين التي ستستعمله، وينبغي صنع الكثير من هذه العدسات لتجربتها على المصاب، الى ان يتوصّل الى السّمك الصحيح.»

فأضاف نيكولا قائلا : «يالها من أعجوبة، ومع ذلك قد يعتبرها البعض سحرا أو أعمالا شيطانية...»

- يمكنك ان تقول عنها انها من أعمال السحر، ولكن السحر نوعان : هناك سحر هو من عمل الشيطان ويهدف الى هلاك الانسان مستعملا حيلا لا يجوز لنا الحديث عنها. وهناك سحر هو آية الٰهية، عندما يِتجلّى علم الاله من خلال علم الانسان، ويغّير الطبيعة، ومن بين أهدافه مد عمر الانسان. وهذا سحر مقدس، ينبغي على العلماء ان يكرسوا أنفسهم له أكثر فأكثر، ليس فقط لاكتشاف أشياء جديدة ولكن لمعرفة الكثير من أسرار الطبيعة التي أظهرتها حكمة الاله الى اليهود، واليونانيون، والى شعوب أخرى قديمة وحتى في وقتنا هذا الى الكفّار (ولا أذكر لك الأشياء الرائعة في علم البصريات وعلم النظر التي توجد في كتب الكفّار !). وينبغي على العلم المسيحي أن يستحوذ على هذه المعارف، وان يستردها من الوثنيين ومن الكافرين بالكيفية نفسها التي امتلكوها بها جورا.

- ولكن هذا العلم لماذا لا يبلّغه أصحابه إلى أمة اللّه بأسرها؟.

- لأنّ أمّة اللّه ليست متأهّبة لتقبّل كل تلك الأسرار، وقد حدث مرارا ان اعتبر

المتمكنون من هذه المعرفة سحرة يربطهم ميثاق بالشيطان، ودفعوا حياتهم ثمنا لرغبتهم في تشريك الاخرين في معارفهم، أنا نفسي، خلال القضايا التي اتّهم فيها بعضهم بالتعامل مع الشيطان، أخذت حذري من استعمال هاتين العدستين ملتجئا الى كتّاب تطوعوا عن طيبة خاطر لقراءة ما أحتاج اليه من نصوص، والا اعتبرت أنا نفسي صديقا للمحقِّقِ مَعهم، خاصة وانها فترة كان فيها حضور الشيطان مكثّفا، حتى انه كانت تصلنا منه، ان جاز القول، رائحة الكبريت. واخيرا، كما نبهنا الى ذلك روجى باكون العظيم، لا ينبغي ان تصل دائما أسرار العلم الى ايدي الجميع، اذ قد يستعملها البعض لاغراض سيئة. وينبغي في الغالب ان يقدّم العالِم كتبا على انها سحرية وليست من السحر في شيء، بل هي من افضل كتب العلم لحمايتها من انظار الفضوليين.

فسأله نيكولا: «أنت تخشى اذن أن يسيئ الجهلاء استعمال تلك الأسرار؟».

– في مايحض الجهلاء، أخشى فقط أن يروّعهم ذلك، ظانّين أنها من أعمال الشيطان، التي كثيرا ما حدّثهم عنها الواعظون. انظر، لقد حدث لي ان تعرفت على أطبّاء ماهرين جدا قطّروا أدوية بامكانها أن تشفي في الحال من المرض، ولكنهم كانوا يسلّمون المرهم أو النقيع الى البسطاء ويصحبونها بكلمات مقدسة ومرتلين جملا تبدو كأنها صلوات. ليس لأن هذه الصلوات لها القدرة على الشفاء، وإنما ليظن البسطاء ان الشفاء يأتي بمفعول الصلاة فيشربون النقيع ويدهنون بالمرهم، وهكذا يشفون، دون ان يولوا اعتبارا كبيرا لقوته الحقيقية. وايضا لكي ترتاح النفس أكثر وتثق بمفعول الدواء لما تثيره تلك العبارات التقية من إيمان. ولكن تتحتم في الغالب حماية كنوز العلم لا من البسطاء بل من علماء آخرين. تصنع اليوم آلات مدهشة، سأحدثك عنها يوما، يمكن بواسطتها تسيير مجرى الطبيعة، ولكن، يا ويلنا لو وقعت بين ايدي أشخاص يستعملونها لبسط هيمنتهم على الأرض ولاشباع شهواتهم. لقد قيل لي إن حكيما من الكتاي صنع خليطا من مسحوق، لو مسته النار لاحدث دويا هائلا ولهيبا كبيرا، محطما ما حوله على بعد عدة أذرع. وهذا اختراع رائع، لو استعمل لتغيير مجرى الوديان ولتحطيم الصّخر في الاراضي التي يراد اعدادها للفلاحة، ولكن ماذا سيحدث لو استعملها أحدهم لايقاع الضرر بأعدائه؟»

فقال نيكولا بوَرَعٍ: «قد لايكون شرا لو استعملت ضد أعداء اللّه،» فأيده

غوليالمو قائلا : «قد لايكون، ولكن من هو اليوم عدوّ أمّة اللّه ؟ الامبراطور لودفيكو أو البابا جيوفاني ؟»

فقال نيكولا بفزع كبير : «آه يا الٰهي، لا أريد أن أحسم وحدي في مسألة مؤلمة كهذه !»

فقال غوليالمو : «انظر، في بعض الاحيان من الخير أن تبقى بعض الاسرار مغطاة تحت حجاب لغة غامضة. لا تنتقل أسرار الطبيعة فوق جلود الماعز أو الغنم، وقد قال أرسطو في كتاب الاسرار ان افشاء الكثير من أسرارالطبيعة والفن فيه تحطيم لختم مقدس يمكن ان تنجرَّ عنه عدة مآسي. وهذا لايعني انه لاينبغي ان تكشف الاسرار، ولكن على العلماء ان يقرروا متى وكيف.»

فقال نيكولا : «ولذا فمن الصالح في مكان كهذا ان لا تكون بعض الكتب في متناول الجميع.»

- هذه قصة أخرى. يمكن ان يكون الافراط في الهذر إثماً وكذلك الافراط في التكتّم. انني لم أعن انه ينبغي اخفاء مصادر العلم، على العكس، يبدو لي هذا خطأ كبيرا. كنت أعني، بخصوص أسرار قد ينشأ منها الخير كما قد ينشأ الشّر، ان العالم له الحق ومن واجبه ان يستعمل لغة غامضة، لا يفهمها الا أمثاله. فان سبل العلم وعرة ومن الشاق التمييز بين خيرها وشّرها. وفي الغالب لا يكون علماء الازمنة الحديثة الا أقزاما فوق أكتاف أقزام.

ويظهر ان هذه المحادثة الودية مع أستاذي مهدت الطريق لنيكولا كي يفضي اليه بدخيلة نفسه، اذ أومأ الى غوليالمو (بما معناه : أنا وأنت متفقان لاننا نتكلم عن نفس الاشياء) ولمّح قائلا :

- ولكن هنالك - وأشار الى الصّرح - تحمي أعمال السّحر أسرار العلم حماية جيّدة...

فقال غوليالمو متظاهرا بعدم الاكتراث : «صحيح ؟ أبواب موصودة، حظر صارم، تهديدات، أتصوّر.»

- كلا، بل أكثر من ذلك...

- ماذا مثلا ؟

- في الواقع... لا أدري بالضبط، انني اهتم بالزجاج، لا بالكتب، ولكن في الدير تسري حكايات... غريبة...

- من أي نوع ؟

- غريبة. مثلا، حول راهب أراد أثناء الليل ان يجازف ويدخل الى المكتبة، للبحث عن شئ لم يرد مَلاَخي ان يعطيه اياه، فراى ثعابين، وبشرا بدون رأس، وبشرا برأسين. كاد ان يخرج مجنونا من المتاهة. . .

- لماذا تقول انه سحر. ألاَ يمكن ان تكون رؤى شيطانية ؟

- لانني حتى لو كنت مجّرد زجّاج فأنا لست ساذجا لهذه الدرجة. فالشيطان (عافانا الله) لا يغوي راهبا عن طريق ثعابين وبشر برأسين، بل عن طريق رؤى شبقية، كما فعل مع آباء الصحراء، ثم، لو كان من فعل الشرّ أن يطلع المرء على بعض الكتب، لماذا يجنّب الشيطان راهبا ارتكاب الشر ؟

فوافقه أستاذي قائلا : « يبدو لي انه قياس اضماري مقنع»

- واخيرا، عندما كنت أصلح زجاج نوافذ المستشفى، تسلّيت بتصفح البعض من كتب سيفيرينو. كان هناك كتاب اسرار كتبه على ما أظن ألبارتو مانيو، وجذبتني بعض المنمنمات الفريدة، ،قرأت صفحات حول الطريقة التي يمكن بها دهن فتيلة مصباح زيتي بمادة يحدث تبخيرها رؤى. لعَلّك لاحظت، أو بالاحرى لم تلاحظ بعد لانك لم تقض ليلة في الدير، انه خلال الساعات المظلمة يكون الطابق الاعلى من الصرح مضاء. ومن النوافذ، في بعض النقاط، يتراءى نور ضعيف. وقد تساءل الكثيرون عن طبيعته، وقيل انها نيران جنّية، أو أرواح حافظي المكتبة الذين ماتوا، تعود لزيارة موطنها القديم ويؤمن الكثيرون هنا بذلك. أنا أظن انها مصابيح أعدت لتحدث الرؤى. أتعلم انك لو أخذت شحمة أذن كلب ودهنت بها فتيلة، من يتنفس دخان ذلك المصباح يخيل اليه ان رأسه تحول الى رأس كلب، وان كان بجانبه أحدلرآه برأس كلب. وهناك دهن آخر يجعل الذين يطوفون حول المصباح يحسّون انفسهم ضخاما كالفيلة. وبعيني خفاش وسمكتين لا أذكر اسمهما، ومرارة ذئب، يمكنك صنع فتيلة تظهر لك عند احتراقها، الحيوانات التي أخذ منها الشحم. وبذنب وزغة تبدو لك كل الاشياء التي حولك وكأنها من فضة، وبشحم ثعبان أسود وقطعة من كفن تبدو القاعة مليئة بالحيّات. أنا اعرف ذلك. وأعرف أن في المكتبة شخص كثير الدهاء. . .

- ألا يمكن ان تكون أرواح حافظي المكتبة هي التي تقوم بهذه الاعمال السحرية ؟

فبقي نيكولا حائرا وقلقا : «هذه فكرة لم تخطر على بالي، قد يكون، ليحمنا الله. إنني تأخرت، لقد بدأت صلاة الستّار. الى اللقاء.».

ثم تركنا واتجه نحو الكنيسة بينما تابعنا تجوالنا محاذيين الجانب الجنوبي : على اليمين كانت توجد دار الضيافة وقاعة المجلس، مع الحديقة، وعلى اليسار المعاصر، والطواحين، ومخازن الحنطة، وأقبية المؤونة، ودار الرهبان المبتدئين وكان الجميع يسارعون نحو الكنيسة. فسألت غوليالمو :

- ما رأيك فيما قاله نيكولا ؟

- لا أدري، تحدث أشياء في المكتبة، ولا أظن أنها من فعل أرواح المكتبيين الموتى...

- لماذا

- لاني أتخيل أنهم كانوا من التقوى بحيث تجدهم الآن في مملكة السماء يتأملون وجه ربهم، ان كان هذا الجواب يقنعك. أما المصابيح ان كانت موجودة فسنراها، وأما عن الدهون التي تحدث عنها صاحبنا الزجّاج فهناك وسائل أخرى أسهل لاحداث الرؤى، ،سيفيرينو يعرفها جيدا، كما لاحظت. من المؤكد انه لا يراد في هذا الدير ان يدخل أحد المكتبة أثناء الليل وأن الكثير حاول أو يحاول ذلك.

- والجريمة التي تهمنا لها دخل في هذه الحكاية ؟

- جريمة ؟ كلما أمعنت التفكير فيها كلما زاد اقتناعي بأن أدالمو انتحر.

- ولماذا ؟

- أتتذكر هذا الصباح عندما لاحظت موضع مصّب التبن الوسخ ؟ عندما كنا بصدد تسلق المنعطف الذي يعلوه البرج الشرقي لاحظت في تلك النقطة آثار تركها انهيار الارض : بالاحرى جزء من الارض، حسب التقدير حيث يوجد التبن الوسخ، إنهار متدحرجا حتى أسفل البرج. ولذا عندما نظرنا هذا المساء من أعلى بدا لنا التبن الوسخ غير مغطى الا قليلا بالثلج، أو بالاحرى مغطى بآخر ما سقط منه بالأمس، وليس بثلج الايام السابقة. وأما عن جثة أدالمو، فقد قال لنا رئيس الدير أنها تمزقت فوق الصخور، وفي أسفل البرج الشرقي حيث تطّل البناية على الهاوية، ينبت الصنوبر. أما الصخور فهي توجد حيث ينتهي السّور وتشكل نوعا من السلم، وبعدها يبدأ التبن الوسخ.

- واذن ؟

- اذن فكّر. ألا يكون أكثر... كيف يمكنني أن أقول ؟... ألا يكون من الأيسر بالنسبة إلى فكرينا التفكير في ان ادالمو، لاسباب لاتزال تستوجب التحقيق، ألقى بنفسه تلقائيا من فوق الحاجز متدحرجا فوق الصخور ثمَ سقط ميتا او مجروحا وسط الأوساخ. وبعد ذلك تسبّب انهيار جزء من الأرض، من جراء عاصفة تلك الليلة، في انزلاق التبن الوسخ وجثة المسكين الى أسفل البرج الشرقي.

- لماذا قلت انه حلّ ايسر بالنسبة الى فكرينا ؟

- ياعزيزي أدسو، لا لزوم للاكثار من الحلول والاسباب ان لم تكن هناك حاجة ملّحة الى ذلك. لو سقط أدالمو من البرج الشرقي لوجب ان يدخل الى المكتبة، وان يكون قد ضربه أحد قبل ذلك حتى لا يحاول المقاومة، ثمّ ان يجد المعتدي وسيلة للصعود حاملا المغمى عليه فوق كتفيه الى مستوى النافذة، وان يفتح النافذة ويرمي بالمسكين في الهاوية. أما حسب افتراضي يكفينا وجود أدالمو وإرادته وانهيار ذلك الجزء من الارض. يتضح كل شئ باستعمال عدد أقل من الاسباب.

- ولكن لماذا قتل نفسه ؟

- ولماذا قتلوه ؟ في كلتا الحالتين ينبغي العثور على الاسباب. ومما لا شك فيه ان الاسباب موجودة. يخيّم في الصّرح جوّ من التكتّم والتمنّع، جميعهم يخفون شيئا ما. الى حد الآن تحصلنا على بعض التلميحات، في الحقيقة غامضة جدا، حول علاقة غريبة كانت تربط أدالمو ببيرينغاريو وهذا يعني اننا سنراقب مساعد حافظ المكتبة.

وهكذا بينما كنا نتحدث انتهت صلاة الستّار، وعاد الخدم الى اعمالهم قبل الانصراف للعشاء وأخذ الرهبان طريقهم نحو قاعة الأكل. وكانت السماء قد اسودّت وأخذ الثلج في السقوط، ثلج خفيف يتساقط ندائف رقيقة، أظن انه استمّر ردحاً من الليل، لانه في الصباح الموالي كانت الهضبة بأكملها مغشاة برداء ناصع، كما سيأتي ذكره من بعد.

كنت جائعا فرحبت بفكرة الذهاب الى المائدة.

صَلاة النّوم

وفيه ينعم أدسو وغوليالمو بحسن ضيافة رئيس الدير
وبمحادثة يورج الحانقة

كانت تضيء قاعة الأكل مشاعل كبيرة، وكان الرهبان جالسين حول صف من الموائد، تعلوها، متعامدة، مائدة رئيس الدير فوق مصطبة فسيحة. وفي الجهة المقابلة منبر اعتلاه الراهب الذي سيقوم بالقراءات أثناء العشاء. وكان رئيس الدير ينتظرنا قرب حنفية صغيرة وبيده كتّان ابيض لينشف أيدينا بعد الغسل، متبعا في ذلك وصايا القديس باكوميو القديمة.

ثم دعا رئيس الدير غوليالمو الى الجلوس الى طاولته وأنا معه قائلا إنني ضيف حديث العهد ويمكنني لهذا المساء التمتع بنفس الامتياز، حتى ولو كنت بينيدكتيا مبتدئا . وأضاف بنبرة أبوية، انه بامكاني في الايام اللاحقة الجلوس الى مائدة الرهبان، واذا ما كلفني سيدي بمهمة ما، فباستطاعتي ان اذهب الى المطبخ امّا قبل ساعة الأكل او بعدها وسيعنى بي الطباخون.

وكان الرهبان الآن واقفين أمام الموائد دون حراك وطراطيرهم مدلاّة فوق وجوههم وأيديهم تحت أساكيمهم. وأسرع رئيس الدير الى طاولته ثم تلا صلاة التبّرك قبل تناول الطعام، ومن المنبر أنشد المرتّل «ليطعم الفقراء» ثم منح رئيس الدير بركته وجلس الجميع.

وكانت قاعدة مؤسس رهبانيتنا تنصّ على التزهد في الأكل ولكنّها تترك لرئيس الدير حرية القرار في ضبط حاجة الرهبان من الطعام.

الا انه في الوقت الراهن، ازداد الانهماك في لذات الأكل باديرتنا. ولا أتكلم عن تلك التي تحولت للأسف الى أوكار شرهين بل وحتى الأديرة التي تحيا حياة التكفير والطهارة تمد الرهبان، المنصرفين دائما الى أعمال فكرية مضنية بطعام غير

خفيف بل دسم. ومن ناحية أخرى، تتمتع مائدة رئيس الدير دائما ببعض الامتيازات، لانها غالبا ما تستضيف ضيوفا ذوي اعتبار والاديرة فخورة بما تنتجه أراضيها واصطبلاتها، وبمهارة طباخيها.

وتم عشاء الرهبان في صمت، كما هي العادة، مستعملين في اتصالاتهم اللغة المعهودة عندنا، لغة الأصابع. وكانت الأطعمة المعدّة للجميع تمرّ أولا بمائدة رئيس الدير، ثم يأتي دور المبتدئين والرهبان الأحدث سنا.

وكان يجلس معنا الى مائدة رئيس الدير مَلاَخي، والقيّم والرهبان الأكبر سنا، يورج دا بورغوس، الشيخ الضرير الذي تعرفت عليه في قاعة الكتابة، والهرم أليناردو دا غروتافيرّاتا : ينيف على المائة وهو أعرج وذو هيئة واهنة، وبدا لي غائب الذهن. وقد قال لنا رئيس الدير انه يقيم في الدير منذ ان كان راهبا مبتدئا، وعاش دائما هنا ويذكر على الاقل ثمانين سنة من الاحداث التي عاشها الدير، قال ذلك في البداية همسا، لانه فيما بعد تقيّد بتقاليد الرهبانية واستمعنا الى القراءات في صمت. ولكن، كما ذكرت، على مائدة رئيس الدير تؤخذ بعض الحريات واتفق ان اثنينا على الأكلات التي قدمت لنا، بينما كان رئيس الدير يمدح خصال زيته او خمره. بل حدث مرة بينما كان يسقينا ان ذكّرنا بتلك الفقرات من القاعدة التي يلاحظ فيها المؤسس القديس ان الخمرة لا تليق بدون شك بالرهبان ولكن بما انه لايمكن اقناع رهبان وقتنا الحاضر بالعدول عنها فليشربوا على الأقل دون الارتواء، لأن الخمرة تقود الى المروق حتى للحكماء منهم كما يذكرنا بذلك سفر الجامعة. وكان بينيدكت يقول «في وقتنا الحاضر» ويعني وقته هو، الذي يَعُدَ الآن كثيرا، فما بالك في الوقت الذي كنّا نتناول فيه العشاء في الدير، بعد كل الانحطاط الذي وصلت اليه العادات (ولا أتحدث عن وقتي الآن، الذي أكتب فيه، إلا ان هنا في «مالك» يغضّ الطرف أكثر عن الجعة ا): بايجاز شربنا ولم نسرف والتذذنا.

أكلنا لحما مشويا في السفافيد، لحم خنازير ذبحت لوقتها، ولاحظت بالنسبة الى أطعمة أخرى انهم لا يستعملون شحوما حيوانية ولا زيت السلجم، ولكن زيت الزيتون الجيّد، يجلب من أراض يملكها الدير في سفح الجبل ناحية البحر. واذاقنا رئيس الدير (وكان خاصا بمائدته) ذلك الفرخ الذي رأيتهم يعدّونه في المطبخ ولاحظت، وهذا شئ نادر جدا، انه يستعمل شوكة من المعدن، تذكّر في

شكلها بعدستي استاذي : كان مضيّفنا، وهو نبيل النشأة، يأبى ان يلوث يديه بالطعام بل وعرض علينا تلك الاداة على الأقل لتناول قطع اللحم من الطبق الكبير ووضعها في صحافنا، فرفضت، ولكنني رأيت ان غوليالمو قبل بطيبة خاطر واستعمل برشاقة تلك الاداة المألوفة لدى الأسياد وكأنه يريد ان يظهر لرئيس الدير ان الفرانشسكانيين ليسوا من أصل وضيع ولا عديمي التربية.

وألهتني طيبة تلك الأطعمة (بعد ايام من السفر تغذينا خلالها حسبما استطعنا)، عن القراءات التي تواصلت تلاوتها بخشوع، وردّتني اليها همهمة تأييد قوية من طرف يورج، وتفطنت الى ان القارئ وصل الى النقطة التي يقرأ فيها دائما باب من القاعدة وفهمت السبب الذي جعل يورج يبدي مثل ذلك الارتياح، بعد ان كنت استمع اليه في العشية، وفعلا كان القارئ يقول : لقد قررت، سأحترس في طريقي ان لا أزل بلساني، لقد وضعت على فمي كمامة، لقد خرست محقّرا نفسي، لقد امتنعت عن الكلام حتى عن أشياء طاهرة. واذا ما علمنا النبي في هذه الفقرة ان نحجم في بعض الاحيان، حبا للصمت، حتى عن الاحاديث الجائزة، فينبغي اكثر ان نحجم عن الاحاديث المحظورة حتى نتلافى عقاب هذه الخطيئة !» ثم واصل : «اما الابتذالات، والحماقات والسخافات فاننا نحكم عليها بالاقصاء الى الأبد، في كل مكان، ولا نسمح للمريد ان يفتح فمه للتفوه بأحاديث من ذلك القبيل.

ولم يتمالك يورج عن الملاحظة بصوت خافت «وهذا القول يصحّ بالنسبة الى الحواشي التي تحدّثنا عنها اليوم. لقد قال جيوفاني فم الذّهَب ان المسيح لم يضحك قط.»

فردّ غوليالمو ملاحظا «لا شئ في طبيعته الانسانية يمنعه من ذلك لان الضحك، كما يقول علماء اللاهوت، هو من طبيعة الانسان». فقال يورج بنبرة حاسمة ذاكرا قول بييترو كانتوري : «ربما كان بوسعه ان يفعل ذلك ولكن لم يثبت أحد انه فعله.»

فهمس غوليالمو : «كل، فالشواء جاهز» فسأل يورج : «ماذا ؟» وقد ظن انه يعني بعض الأكلَ الذي مدّ اليه.

- «هي الكلمات التي حسب أمبروجيو، نطق بها القديس لورانسو وهو على المشواة، عندما دعا سفّاحيه ليقلبوه على الجنب الآخر كما يذكر ايضا برودانسيو

في كتابه «بريستيفانون». وقال غوليالمو ذلك بنبرة قداسة، ثم أضاف «اذن فقد كان القديس لورانسو يعرف كيف يضحك ويقول أشياء سخيفة، ان هو أراد بها اهانة أعدائه».

- «وهذا ما يظهر ان الضحك أقرب ما يكون الى الموت والى فساد الجسم» ولا يسعني الا ان اعترف أنه تصّرف المفكر القدير.

عند ذلك الحد دعانا رئيس الدير بلطف الى ملازمة الصمت. وعلى كل كان العشاء قد اوشك على نهايته، فنهض رئيس الدير وقدم غوليالمو الى الرهبان، وأثنى على حكمته ذاكرا ما يمتاز به من صيت، وأعلن انه دعي الى التحقيق حول موت أدالمو طالبا من الرهبان الاجابة عن أسئلته والى أعلام من هم تحت تصّرفهم، في الدير كله، حتى يعملوا بنفس الوصايا، والى تسهيل ابحاثه، وأضاف قوله : شريطة أن لاتتنافى مطالبه وقواعد الدير، وفي ذلك الحال ينبغي السعي الى ترخيص منه.

عند نهاية العشاء تأهب الرهبان للذهاب الى الخورس للقيام بصلاة النوم فأسدلوا من جديد طراطيرهم على وجوههم واصطفوا أمام الباب في انتظار، ثم تحركوا في صف طويل، مجتازين المقبرة وداخلين الى الخورس من الباب الشمالي.

وأخذنا طريقنا صحبة رئيس الدير، فسأل غوليالمو : «في هذه الساعة تغلق أبواب الصّرح ؟»

- ما أن ينتهي الخدم من تنظيف قاعة الاكل والمطابخ حتى يغلق حافظ المكتبة بنفسه كل الأبواب، ممترسا اياها من الداخل.

- من الداخل ؟ ومن أين يخرج ؟

فحدّق رئيس الدير لحظة في غوليالمو وقد بانت الجدية على وجهه، وقال بحدّة : «من الأكيد انه لاينام في المطبخ» ثم حث خطاه.

فهمس غوليالمو : «حسن، حسن، اذن يوجد مدخل آخر، ولكن لا يجب علينا معرفته». وتبسمت وكلي اعتزاز باستنتاجه فأنبني قائلا : «يكفي ضحكاً قد رأيت ان الضحك لايتمتع بين هذه الجدران بسمعة طيبة.»

ودخلنا الخورس. كان هناك مصباح واحد موقد فوق منصب ثلاثي القوائم من البرونز يبلغ ارتفاعه طول رجلين. وجلس الرهبان فوق مقاعدهم في صمت بينما

أخذ القارئ يتلو فقرة من خطبة وعظية للقديس غريغوريو.

ثم أشار رئيس الدير الى المنشد فرتّل : « وأنت اللهّم ارحمنا» ورد عليه رئيس الدير : «وسأمنحكم عوني باسم الاله» ثم أنشد الجميع بصوت واحد «الذي خلق السموات والأرض» وعندئذ بدأ انشاد المزامير : «عندما ادعوك استجب لدعائي، يا إله العدل، أحمدك اللهم من كل قلبي، هلم نحمد الله، يا عباد الله». أما نحن فلم نجلس على المقاعد، وتراجعنا لنقف في جناح الكنيسة الرئيسي. وأتيح لنا من هناك ان نرى فجأة ملاخي يخرج من عتمة مصّلى جانبي. فقال لي غوليالمو:

- راقب تلك النقطة، فقد يكون هناك ممر يؤدي الى الصّرح.

- تحت المقبرة ؟

- ولم لا ؟ بالعكس لو فكرنا جيدا، لابد أن يكون في مكان ما موضع لحفظ عظام الموتى فمن المستحيل ان يحمل ذلك الشبر من الأرض كل الرهبان الذين دفنوا على مر القرون.

- وتريد حقيقة ان تدخل أثناء الليل الى المكتبة؟

- حيث يوجد الرهبان الموتى والثعابين والأضواء الغامضة يا عزيزى ادسو؟ لا ياولدي. لقد فكرت في ذلك طوال هذا اليوم وليس بدافع الفضول بل لأنني كنت أتساءل عن الكيفية التي لقي بها أدالمو حتفه أما الآن، كما قلت لك فانني أميل الى تفسير أكثر منطقية، وعلى كل حال أريد احترام عادات هذا المكان.

- اذن لماذا تريد ان تعرف ؟

- لان العلم ليس فقط معرفة ما ينبغي أو ما يمكن للانسان عمله، بل وأيضا معرفة ماهو في مقدور الانسان ولو أنه مع ذلك لا يجب عليه عمله. لذا كنت أقول اليوم للزجّاج انه يجب على العالم ان يخفي بطريقة ما الاسرار التي يكتشفها، كي لايستعملها الآخرون لأغراض سيئة، ولكن يجب عليه اكتشافها، وهذه المكتبة حسب ظني مكان تبقى فيه الأسرار مكتومة.

وبهذه الكلمات اتجهنا خارج الكنيسة لأن الفرض كان قد انتهى. وكنا متعبين جدا فذهبنا الى حجرتنا وانطويت أنا على نفسي في ما سمّاه غوليالمو بمزاح «مدفنتي» وغرقت لفوري في النوم.

اليوم الثّاني

اليوم الثاني

صَلاة أول الصّبح

وفيه تحدث حادثة دموية مريعة فتقطع بعض الساعات من الغبطة الصوفية

ليس هناك حيوان أخوَن من الديك، اذ هو احيانا رمز للشيطان وأحيانا رمز للمسيح الذي بعث حيا، وما أكثر ما عرف نظامنا من خاملين أمثاله ممن لا يصيح عند بزوغ الشمس. ومن ناحية أخرى خاصة في الايام الشتائية، تقام صلاة أوّل الصبح في غسق الليل عندما تكون الطبيعة كلها نائمة، اذ ينبغي على الراهب ان ينهض في الظلمة وان يصلي طويلا في الظلمة منتظرا النهار ومنيرا العتمة بنار العبادة. لذا من حكمة التقاليد انها تُبقي بعض الرهبان ساهرين فلا يذهبون الى الفراش مع اخوانهم بل يمضون الليل وهم يقرأون بايقاع ذلك العدد المضبوط من المزامير الذي يعطيهم قياس الوقت المنقضي، بحيث ينبهون النائمين ان حانت ساعة اليقظة عند انتهاء الساعات المقررة للنوم.

لذا أيقظنا تلك الليلة أولئك الذين يجوبون قاعة النوم ودار الضيافة وهم يدقون الاجراس، بينما يتنقل أحد الرهبان من حجرة الى أخرى صائحا بقوله «لنحمد اللّه» ويردّ عليه كل واحد قائلا «الحمد للّه».

وتقيدت أنا وغوليالمو بالعادة المتبعة عند البنيدكتيين فتهيأنا في اقل من نصف ساعة لمواجهة هذا اليوم الجديد ثم نزلنا الى الخورس حيث كان الرهبان ينتظرون منبطحين على الارض وهم ينشدون الخمسة عشر مزموراً الاولى الى أن دخل المبتدؤون يقودهم معلّمهم. عندئذ جلس كل واحد في مقعده، وأنشدت المجموعة «اللّهم افتح شفتيّ وسيسبّح فمي بحمدك» وارتفع الصوت إلى قباب الكنيسة كأنها تضرّعات صبي، ثم اعتلى راهبان المنبر وتعالى صوتاهما منشدين المزمور الرابع والتسعين «هلّم نسبّح للربّ» الذي تبعته المزامير الاخرى المحددة

لذلك الفرض. وأحسست أنا بحرارة الايمان المتجدّد.

كان الرهبان جالسين على المقاعد وقد جعلت منهم جبابهم وطراطيرهم ستين صورة مماثلة، ستين شبحاً ألقت عليها نار المشعل نورا ضعيفا، ستين صوتا ارتفعت بحمده تعالى. وعند سماعي ذلك النغم المؤثر، ذلك الرواق المؤدي الى نعيم الجنة، تساءلت ان كان الدير حقيقة مكانا لاسرار خفيّة، ولمحاولات غير مباحة لكشفها، ولتهديدات غامضة. لان الدير كان يبدو لي الآن على عكس ذلك، مأوى للقديسيين ومحلاً للفضيلة، مدّخر علم وفلك سداد، برجا للحكمة وسياجا للوداعة، قلعة لقوة الارادة ومبخرة للقداسة.

بعد انشاد ستة مزامير بدأت قراءة الكتاب المقدس. وكان بعض الرهبان يتمايلون من النعاس بينما أحد ساهري تلك الليلة يطوف بين المقاعد وبين يده قنديل صغير ليوقظ من أخذه النوم. واذا ما عثر على أحدهم وقد غلبه النعاس، يأخذ هو القنديل ويكمل دورة المراقبة تكفيراً عن ذنبه. إثر القراءة انشدت من جديد المزامير الستة ثم بارك رئيس الدير جميع الحاضرين وتلا الراهب المكلف بالفرائض في ذلك الاسبوع الصلوات وانحنى الجميع نحو المذبح في دقيقة خشوع، لا يدري عذوبتها الا من عاش تلك الساعات من الوله الروحي ومن السلام الداخلي العميق. وأخيرا أسدلت الطراطير من جديد على الوجوه ثم جلس الجميع وأنشدوا بهيبة «أنت ياربّ». وحمدت أنا أيضا الاله لانه خلصّني من ظنوني، وقد حرّرني من الاحساس بالضيق الذي اعتراني في يومي الأول بالدير، وقلت في نفسي اننا مخلوقات ضعيفة فحتى بين هؤلاء الرهبان العلماء والاتقياء ينشر الشيطان مشاعر الحسد الحقير والعداء الخفيّ، ولكنها ليست الا دخانا لا تلبث ريح الايمان العاتية ان تبدّده، حالما يجتمعون باسم الاب وحالما ينزل بينهم المسيح من جديد.

بين صلاة أوّل الصبح وصلاة الحمد لا يعود الراهب الى حجرته، حتى في قلب الليل. فأما المبتدؤون فقد تبعوا معلّمهم الى قاعة المجلس لمذاكرة المزامير، بينما بقي بعض الرهبان في الكنيسة يعتنون بالأشياء المقدسة وخرج جلّهم يتمشى في رواق الدير للتأمل في صمت، وهذا ما فعلناه أنا وغوليالمو. أما الخدم فكانوا نائمين، وواصلوا نومهم الى ان رجعنا الى الخورس لأداء صلاة الحمد، والسمّاء لا تزال حالكة.

وبدأ من جديد انشاد المزامير، وبالخصوص واحد من تلك المخصصة ليوم الاثنين، أعادني ثانية الى تخوفاتي الاولى : «قد كان سيطرت الخطيئة على الباغي، وامتلكت دخيلة قلبه - فلا ترى في عينيه خشية الله - فهو يعمل أمامه بخداع - بحيث يصبح لسانه مقيتا - فقد بدا لي طالع نحس أن حددت القاعدة بالنسبة الى ذلك اليوم بالذات انذارا رهيبا بتلك الصفة. ولم تهدّء من نبضاتي المليئة بالخوف، بعد مزامير الحمد، القراءة المعتادة لسفر الرؤيا، وعادت الى ذهني صور البوّابة التي شدّت قلبي ونظري في اليوم السابق. ولكن بعد ترنيمة الاستجابة والترتيل والآيات، وعندما بدأ نشيد الأنجيل، لمحت وراء نوافذ الخورس، فوق المذبح بالضبط ، نوراً شاحبا أضاء زجاج النوافذ بمختلف ألوانه، بعد أن كان الظلام مخيّما عليه الى ذلك الحين. لم ينبلج الفجر بعد، اذ سيفرض نوره كاملا عند «أولى»، تماما عند انشادنا «يا إلهي، أنت نور القدّيسين السّاطع، هو ذا نورك يضيئ النّهار» بل كان تبشيرا أول وضعيفا بالفجر الشتائي. ولكن ذلك النور الشاحب الذي أخذ يعوض العتمة وسط الرواق كان كافيا لادخال الانشراح على قلبي.

كنا ننشد كلمات الكتاب المقدس، وبينما كنا نشهد بكلمة الله التي جاءت لتنير العباد، بدا لي ان كوكب النهار اجتاح المعبد بكل شعاعه. والنور الذي مازال غائبا، بدا لي ساطعا في كلمات النشيد، كزنبق روحي تفتح بأريجه بين قُرَن القباب. وصليت في صمت «أشكرك اللّهم لهذه اللحظات من التنعّم الذي لا يمكن وصفه» ثم قلت لقلبي «وأنت أيها الغبي مَم تخاف ؟».

وفجأة تعالى صخبٌ من جهة الباب الشمالي. تساءلت كيف يمكن ان يحدث الخدم في استعدادهم للعمل تلك الضجة أثناء أداء الفروض المقدسة. وفي تلك اللحظة دخل ثلاثة رعاة خنازير وقد بان الفزع على وجوههم ثم اقتربوا من رئيس الدير وهمسوا اليه بشئ. في البداية هدّأ من روعهم بإشارة، كمن لا يريد قطع الفرض ولكن خدما آخرين دخلوا وتعالت الصيحات بقوة أكثر، بينما قال أحدهم «انه رجل، رجل ميّت !» وقال آخرون «انه راهب، ألم تر نعليه؟»

وسكت المصلّون بينما هرع رئيس الدير الى الخارج مشيرا الى القيّم ان يتبعه. وخرج اثرهما غوليالمو، وحتى الرهبان الآخرون تركوا الآن مقاعدهم وأسرعوا الى الخارج.

كانت السماء صافية وكان الثلج الذي يغطي الارض ينير السّهل. خلف الخورس وأمام الزرائب، حيث انتصب منذ اليوم السابق الاناء الضخم المملوء بدم الخنازير، كان يبرز من حافة الجرّة شئ غريب له شكل يشبه الصليب، كأنهما عودان غرسا في الارض ليصبحا بعد تغطيتهما بالخرق فزّاعة للطيور.

كانتا على عكس ذلك ساقي انسان، ساقي رجل غارق في الوعاء المليئ بالدم ورأسه الى أسفل.

وأمر رئيس الدير ان تخرج الجثة من ذلك السائل الكريه (اذ انه للآسف لا يمكن لأي شخص على قيد الحياة ان يبقى في تلك الوضعية الشنيعة) فاقترب رعاة الخنازير مترددين الى حافة الجرة وجذبوا ذلك الشيئ البائس المضرّج بالدم وقد تلوّثت منه أيديهم. وكما كان قد قيل لي حول الدم لمّا يمزج حال صبّه كما ينبغي ويترك في البرد، لم يتخثر الا من طبقة كانت تغطي الجثة وأصبحت على وشك التجمد، وتشربت منه الثياب وأصبح من المستحيل التعرف على الوجه. فتقدم أحد الخدم بسطل من الماء وصبه على وجه تلك الجثة المسكينة بينما انحنى آخر لينظف الملامح بخرقة من القماش، وظهر لانظارنا وجه أبيض واذا به فينانسيو دا سالفيماك العالم في الاغريقيات الذي تحادثنا معه في العشية السابقة أمام مخطوط أدالمو.

قال غوليالمو محدقا في ذلك الوجه : «قد يكون أدالمو انتحر، أما هذا فبالتأكيد لا. كما لا أظن ان يكون قد رُفع صدفة حتى حافة الجرّة وان يكون سقط دون قصد».

فاقترب منه رئيس الدير قائلا : «أخ غوليالمو، كما ترى تقع في الدير أشياء تتطلب حكمتك. ولكنني أرجوك عجّل بالعمل !»

فسأله غوليالمو مشيرا الى الجثة: «هل كان حاضرا في الخورس أثناء الفرض؟»

فأجاب رئيس الدير : «كلاّ، لقد لاحظت ان مقعده كان خاليا»

- هل كان أحد غيره غائبا ؟

- لا يبدو لي، لم ألاحظ شيئا.

وتردد غوليالمو قبل ان يلقي بالسؤال ثم طرحه هامسا، متخذا حذره حتى لا يسمعه الآخرون : «هل كان برينغاريو في مكانه ؟» فنظر اليه رئيس الدير باعجاب

يتخلّله الارتباك، كمن يعبر عن دهشته لرؤية استاذي يكنّ شكّا مرّ لحظة بخاطره هو، ولكن لاسباب أوضح، ثم قال بسرعة : «كان موجودا في الصف الاول على يميني تقريبا»

فقال غوليالمو «بطبيعة الحال، كل هذا لا يعني شيئا. لا أظن أن أحدا مَرَّ من وراء صدر الكنيسة للدخول إلى الخورس، لذا يمكن ان تكون الجثة هنا منذ عدّة ساعات، على الاقل منذ ان ذهب الجميع للنوم».

– أكيد فان أول من يستيقظ من الخدم لا ينهض الا مع الفجر، ولذا لِمَ لم يكتشفوه إلاّ الآن.

ثم انحنى غوليالمو على الجثة كما لو كان معتادا على معاملة الاجساد الميّتة. وبلّل قطعة من القماش التي كانت حذوه في ماء السطل وغسل جيدا وجه فينانسيو. في الاثناء تجمع الرهبان الآخرون مرتاعين، في دائرة صاخبة ولم يلبث رئيس الدير ان امرهم بالسكوت. وشق سفيرينو طريقه بينهم وهو الذي كانت تعهد اليه اجساد الموتى في الدير، وانحنى بقرب استاذي. وكي أستمع الى حوارهما، وأعين غوليالمو الذي كان يريد قطعة قماش أخرى نظيفة ومبللة بالماء، انضممت اليهما، متغلبا على فزعي واشمئزازي، وسمعت غوليالمو يسأل سفيرينو :

– هل رأيت غريقا قبل الآن ؟

فأجابه : «العديد من المّرات، واذا ما تكهنت بما تريد ان تصل اليه، ليس لهم هذا الوجه، فملامحهم تكون منتفخة.»

– اذن كان الرجل ميتا عندما أُلقي به في الجرّة .

– وما مراد القاتل من فعل ذلك ؟

– وما مراده من قتله ؟ اننا نجد انفسنا أمام عمل عقل زائغ. ولكن ينبغي الآن ان نرى ان كانت على الجسم آثار جروح أو رضوض. أرى أن نحمله الى الحمّام وان نخلع ثيابه فنغسله ثم نفحصه. سألحق بك بعد قليل».

وبعد أن استأذن سفيرينو رئيس الدير أمر رعاة الخنازير بحمل الجثة، بينما طلب أستاذي ان يعود كل الرهبان الى الخورس سالكين نفس الطريق الذي جاؤوا منه وان يعود الخدم الى اماكنهم بنفس الطريقة بحيث يبقى المكان خاليا. ولم يسأله رئيس الدير عن أسباب طلبه وأرضاه. وبقينا وحدنا، بجانب الجّرة التي

فاض منها الدم عند إخراج الجثة وأصبح الثلج من حولها كلّه أحمر بينما ذاب في اماكن عديدة من جّراء الماء الذي صُبّ على الجثة وبقيت بقعة كبيرة سوداء حيث مُدّ الجسد. ثم أشار غوليالمو الى الاشكال المتشابكة التي خلّفتها آثار أقدام الرهبان والخدم قائلا :

- يالها من بلبلة ! الثلج، يا عزيزي أدسو، رقّ رائع يترك عليه جسم الانسان كتابات على غاية من الوضوح. ولكن هذا رقّ قديم لم يقشط كما ينبغي، ولا أظن اننا سنجد فيه شيئا ذا فائدة. من هنا الى الكنيسة تراكض الرهبان، ومن هنا الى موضع السّماد ذهبت جموع الخدم. والفضاء الوحيد الذي لم يمسّ هو الموجود بين موضع السّماد والصّرح. فلنر هل نجد هناك شيئا ذا أهمية.»
فسألته : «ولكن ماذا تريد أن تجد ؟»

- ان لم يكن قد ألقى بنفسه في الوعاء، فهذا يعني ان أحدهم حمله الى هناك، ميتا حسب تصوري. ومن يحمل جسم رجل آخر يترك آثارا أكثر عمقا في الثلج. ولذا ابحث لعلك تجد قريبا من هنا آثارا تبدو لك مختلفة عن تلك التي تركها اولئك الرهبان الصاخبون الذين أتلفوا رقّنا.

وهكذا فعلنا. وأقول فورا انني كنت أنا، ليحفظني الله من الغرور، الذي اكتشفَ شيئا بين الجرّة والصرّح. كانت آثار أقدام آدمية عميقة شيئا ما، في مكان لم يكن قد مرّ به أحد آخر الى ذلك الحين وكما لاحظ أستاذي في الحال، كانت اقل بروزا من تلك التي تركها الرهبان والخدم. دليل على ان ثلجا آخر قد سقط فوقها وان تلك الآثار قد تركت اذن في وقت أبعد. ولكن الشيء الذي بدا لنا جديرا بالاهتمام هو ان تلك الآثار كانت ممتزجة بأثر متواصل، كما لو كان الشخص الذي ترك آثار الاقدام يجر شيئا. باختصار، كان خطّا يذهب من الجرّة الى باب قاعة الاكل، على جانب الصّرح الذي يوجد بين البرج الجنوبي والبرج الشرقي.

فقال غوليالمو : قاعة الكتابة، المكتبة. من جديد المكتبة. لقد لقي فينانسيو حتفه في الصّرح، واغلب الظن في المكتبة.

- ولماذا في المكتبة بالذّات ؟

- انني احاول ان اضع نفسي موضع القاتل. لو مات فينانسيو مقتولا في قاعة الاكل، في المطبخ او في قاعة الكتابة، لماذا لم يترك هناك ؟ ولكن لو مات في

المكتبة لكان ينبغي نقله الى مكان آخر، من جهة لانه في المكتبة لا يمكن لاحد ان يكتشفه أبدا (وقد يهمّ القاتل فعلا ان يكتشف) ومن جهة أخرى لان القاتل قد لا يودّ ان يتركّز الاهتمام على المكتبة.

– ولماذا يهتم المجرم بأن تكتشف جثة القتيل ؟

– لا أدري، انني أقوم بافتراضات. من يقول لك ان المجرم قتل فينانسيو لانه يحقد عليه؟ قد يكون قتله، عوضا عن اي شخص آخر، ليترك دلالة، ليعبّر عن قصد آخر.

فقلت هامسا : «كائنات الدنيا جميعها مثل كتاب مفتوح أو حرف مكتوب، ولكن بخصوص أية دلالة؟»

– هذا ما لا أعرفه. ولكن لا ننسَ ان هناك ايضا دلالات تبدو كأنها تعني شيئا ولكنها في الحقيقة عديمة المعنى، كما لو قلنا : «بليتيري» أو «بو – با – باف»...

فقلت : «من الفظاعة ان يقتل انسان إنسانا آخر لمجرد قول بو – با – باف !» فعقب غوليالمو : «ومن الفظاعة ايضا ان يقتله لقول «أؤمن بربّ واحد...»

في تلك اللحظة التحق بنا سفيرينو وكانت الجثة قد غسلت وفحصت بعناية. لم يكن هناك اي جرح ولا رضوض على الرأس. كأنه مات بفعل السحر.

فسأل غوليالمو : «كما لو كان عقابا الٰهيا ؟»

فقال سفيرينو : «قد يكون، »

– أو بالسّم ؟

فتردّد سفيرينو ثم قال : «قد يكون، أيضا»

فسأله غوليالمو ونحن في طريقنا الى المستشفى : «هل لديك سموم في المخبر ؟»

– نعم. ولكن يتوقف الأمر على ما تعني بالسّم. بعض الموادّ تكون نافعة اذا أخذت بمقادير ضئيلة وتؤدي، بمقادير وافرة، إلى الموت. ومثل كلّ عشّاب معتبر أحتفظ ببعضها وأستعمله حسب مقتضى الحال. فأنا أزرع في مبقلتي مثلا الناردين. قطرات قليلة منه في نقيع حشائش أخرى تهدئ القلب الذي يدق باضطراب، وجرعة مبالغ فيها تحدث فتورا ثم الموت».

– ألم تلاحظ على الجسم علامات سمّ معين ؟

– البتة. ولكن هناك سموما كثيرة لا تترك علامات.

كنا قد وصلنا الى المستشفى. وكان جسد فينانسيو، بعد غسله في الحمام، قد نقل الى هناك ومدّ على طاولة كبيرة في مخبر سفيرينو: وذكّرتني الانابيب والادوات الاخرى من الزجاج والطين بحوانيت الكيمائيين (ولكنني كنت سمعتُ عنها فقط من خلال روايات غير مباشرة). وعلى رف مرشوق على امتداد الحائط الذي يفصل المخبر عن الخارج كانت توجد مجموعة كبيرة من القناني والاباريق، والاوعية ممتلئة بمواد ذات الوان مختلفة.

فقال غوليالمو: «انها مجموعة جميلة من العقاقير، هل هي كلها من انتاج حديقتك ؟»

فقال سفيرينو: «كلاّ، الكثير من هذه المواد النادرة والتي لا تنبت في هذه الجهات، حملها الّي على مرّ السنين رهبان أتوا من كل أنحاء الدنيا. لدي أيضا أشياء نفيسة ونادرة الوجود نحصل عليها بسهولة من نبات جهاتنا. أنظر... مسحوق العقيق، مجلوب من الكتاي، أعطانيه عالم عربي. ألوة سوكوترين، من الهند، ملئم ممتاز للجروح. نبات محي، يحيي الموتى، أو بالاحرى، يوقظ من غاب عن الوعي. زرنيخ خطير جدا، سمّ فتّاك لمن ابتلعه. حمحم، نبات نافع للرئة المريضة. قطران، نافع لرضّات الجمجمة. مصطكاء، يهدئ من النزلة الصدرية ومن الالتهاب المقلق والمرّ...

فسألته: مرّ المجوس ؟

– نعم مرّ المجوس، ولكنها تصلح للوقاية من الاجهاض وهي تقطف من شجرة تسمى «بلساموداندرون ميرّا». وهذه تسمى «موميا» نادرة جدا تحصل من تعفن الاجساد المحنطة، وتصلح لتحضير الكثير من الادوية المعجزة. وهذه «ماندراغولا» نافعة للنوم...

فعلّق أستاذي: «ولاثارة الشهوة الجنسية.»

فابتسم سفيرينو وقال: «يقولون ذلك، ولكنها هنا لا تستعمل لذلك الغرض كما يمكن ان تتصور. وانظر الى هذه – ثم أخذ قنينة – انها توتيا، وهي معجزة لمداواة العينين».

وسأل غوليالمو: «وما هذه ؟» ثم لمس حجرة كانت موضوعة فوق رفّ.

– هذه لقد أهديت الي منذ مدة. أظن انها تسمى Lopris amatiti أو Lapis

ematitis. يظهر ان لها فضائل طبية مختلفة، ولكنني لم أكتشف الى الآن ما هي. هل تعرفها؟

فقال غوليالمو : «نعم، ولكن ليس بوصفها دواء». ثم أخرج من جيبه موسى صغيرة وقربها بأناة من الحجارة. وعندما أوصل غوليالمو بحركة رقيقة جدا الموسى قرب الحجارة رأيت السكين يقوم بحركة قوية، كما لو حرّك غوليالمو معصمه، بينما كان المعصم ثابتا، والتصقت الموسى بالحجارة محدثة حسّا معدنيا خفيفا. ثم قال لي غوليالمو : «أرأيت انه مغناطيس».

فسألته : ولايّ شيئ يصلح ؟

– لعدّة أشياء سأحدثك عنها فيما بعد. ولكنني أريد الآن ان أعرف من سفيرينو ان كان يوجد هنا شيئ يمكن ان يقتل إنسانا.

ففكّر سفيرينو لحظة، بدت لي طويلة، نظرا لشفافية جوابه : «اشياء كثيرة. لقد قلت لك ان الفارق بين الدواء والسمّ ضئيل جدا، فقد كان اليونانيون يطلقون على كليهما اسم «فارماكون».

– ولم يسرق شيئ من بعض هذه المواد في المدة الأخيرة ؟

ففكر سفيرينو من جديد ثم أجاب كمن يزن كلماته : «لا شيئ في المدة الأخيرة.»

– وفي الماضي ؟

– من يدري. لا أذكر. اني في هذا الدير منذ ثلاثين سنة وأعمل بالمستشفى منذ خمس وعشرين.

فأيده غوليالمو قائلا : «كثير بالنسبة الى ذاكرة انسان». ثم فجأة : «لقد تحدثنا بالامس عن الاعشاب التي يمكن ان تحدث رؤى. ماهي ؟»

فأعرب سفيرينو بحركاته وبتقاسيم وجهه انه لا يودّ الخوض في ذلك الموضوع وقال : «ينبغي ان أفكّر، أنت تعلم ان لديّ الكثير من المواد المعجزة. ولكن لنتحدث عن فينانسيو. ما رأيك ؟»

فأجاب غوليالمو : «ينبغي أن أفكّر».

اليوم الثّاني

أولى

وفيه يبوح بانشيو دا أوبسالا ببعض الأشياء، وأشياء أخرى يبوح بها برينغاريو دا أروندال ويعرف أدسو ما هي التوبة الحقيقية

شوّش الحدث المشؤوم حياة المجموعة، وقطعت الجلبة التي أحدثها العثور على الجثة الفرض المقدس، فدفع رئيس الدير الرهبان على الفور الى الخورس كي يصلّوا على روح أخيهم.

كانت أصوات الرهبان مرتعشة بينما اتخذنا موقعا مناسبا لدراسة ملامحهم عندما لا تكون الطراطير، حسب الطقس الديني، مسدلة. ورأينا حالا وجه برينغاريو. كان شاحبا متشنّجا، يلمع من العرق. وكان قد وصل الى سمعينا في اليوم السابق ما يتهامس به الرهبان حول علاقة برينغاريو بأدالمو، وكانوا يلمّحون الى طبيعة تلك العلاقة الخاصة التي كانت تتعدّى روابط الصداقة والتقارب في السنّ.

ولاحظنا بجانبه ملاخي. كان مكفهر الوجه، متشنجا وغامضا. بجانب ملاخي كان وجه يورج هو الآخر غامضا. ولاحظنا على العكس حركات بانشيو دا أوبسالا المتوتّرة، وهو المختصّ في البلاغة الذي تعرفنا عليه في اليوم السابق في قاعة الكتابة. وتفطنّا الى نظرة سريعة كان يلقيها نحو ملاخي. فلاحظ أستاذي قائلا: «بانشيو متوتر الأعصاب، وبرينغاريو مرتاع. ينبغي استنطاقهما على الفور.»

فسألته بسذاجة: «لماذا؟».

فقال غوليالمو: «ان مهنتنا مهنة شاقة. نعم مهنة المحقّق صعبة. ينبغي الضرب على من هم أضعف، وفي اللحظة التي يكون فيها ضعفهم أكبر.»

وفعلا، ما ان انتهى الفرض حتى التحقنا ببانشيو الذي كان متجها نحو المكتبة وأظهر الشاب بعض التضايق عندما سمع غوليالمو يناديه، وأختلق سببا واهيا بأن لديه عملا. كان يظهر شيئا من العجلة للالتحاق بقاعة الكتابة. ولكن أستاذي ذكّره بأنه يقوم بتحقيق بأمر من رئيس الدير، وقاده الى رواق الدير ثم جلسنا على حافة حاجز داخلي بين عمودين. وانتظر بانشيو ان يبدأ غوليالمو بالكلام ملقيا بين الفينة والاخرى بنظرات نحو الصّرح، فسأله غوليالمو: «اذن، ماذا قيل ذلك اليوم الذي تحدثتم فيه عن «الحواشي» التي كان أدالمو ينمنمها، أنت وبرينغاريو وفينانسيو وملاخي ويورج؟

– لقد سمعتَ ذلك بالامس. كان يورج يلاحظ أنه غير جائز أن تنمّق الكتب التي تحمل في طياتها الحقيقة بصور سخيفة. ولاحظ فينانسيو ان أرسطو نفسه تحدث عن النكتة والتورية كأداة لاكتشاف أكمل للحقيقة. وعلّق يورج بأن أرسطو. حسب ما يتذكّر، تحدث عن تلك الاشياء في كتاب «الشعر»، وبخصوص الاستعارات. وأنه يرى في ذلك حالتين تبعثان على القلق، أولاً لأن كتاب «الشعر» الذي بقي مجهولا في العالم المسيحي لمدة طويلة، قد يكون بارادة الاهية، وصل الينا عن طريق العرب الكافرين...».

فلاحظ غوليالمو: «ولكن ترجمه الى اللاتينية أحد اصدقاء العَلاّمة الطاهر الاكويني.»

فقال بانشيو وقد اطمئن لفوره: وذلك ما قلته له. فأنا لا أحسن قراءة اليونانية وتمكنت من الاطلاع على ذلك الكتاب العظيم فعلا من خلال ترجمة غوليالمو دي مويرباك. هذا ما قلته له. ولكن يورج أضاف ان السبب الثاني المثير للقلق هو انه في ذلك الكتاب يتحدث أصيل ستاجيرا عن الشعر، وهو مذهب وضيع يعيش من «الأوهام». فقال فينانسيو ان المزامير أيضا هي شعر وتستعمل الاستعارات. فغضب يورج وقال ان المزامير هي عمل من وحي الٰهي وتستعمل الاستعارات لتبليغ الحقيقة. بينما أعمال الشعراء الوثنيين تستعمل الاستعارات قصد نشر البهتان ولمجرد الاستمتاع. الشئ الذي أهانني كثيرا...».

– لماذا؟

– لأنني أهتم بالبلاغة وأقرأ للكثير من الشعراء الوثنيين وأعرف... أو بالأحرى أظن أنه من خلال كلماتهم بلغت أيضا حقائق «في طبيعتها» مسيحية...

باختصار، عند ذلك الحد لم تخنّي ذاكرتي، تحدث فينانسيو عن كتب أخرى فاحتدّ غضب يورج.

- أي كتب ؟

فتردّد بانشيو ثم قال : «لا أذكر. ماذا يهم عن أيِ كتب جرى الحديث ؟».

- يهم كثيرا لاننا بصدد التحقيق في ما حدث بين اشخاص يعيشون بين الكتب، مع الكتب ومن الكتب، واذن حتى اقوالهم حول الكتب تصبح هامّة.

فقال بانشيو مبتسما للمرة الاولى وقد تهلّل وجهه : «هذا صحيح نحن نعيش للكتب. ويالها من مهمة عذبة في عالم تسوده الفوضى والانحطاط. ويمكن عندئذ ان تفهم ماذا حدث بعد ذلك اليوم. فينانسيو الذي يفهم... كان يفهم جيدا اليونانية، قال أرسطو خصص للضحك الكتاب الثاني من «الشعر» وانه إذا خصص فيلسوف في عظمة أرسطو كتابا كاملا للضحك، فلا بدّ أن يكون الضحك شيئا هاماً. فقال يورج إن العديد من الآباء خصصو كتباً كثيرة للخطايا، التي هي أمر هام ولكن رديء. فقال فينانسيو انه حسب علمه تحدث أرسطو عن الضحك على انه شيئ طيب وأداة لمعرفة الحقيقة. وعندئذ سأله يورج بسخرية ان كان قرأ كتاب أرسطو ذاك وأجاب فينانسيو انه لا يمكن أن يكون قرأه أحد إلى الآن، لأنه لم يعثر عليه ابدا وقد يكون فقد. وفعلا لم يقدر أحد على الإطلاع على الكتاب الثاني من «الشعر»، ولم يتحصل عليه أبدا غوليالمو دي مويرباك. عندئذ قال يورج إن الكتاب غير موجود لأنه لم يكتب أبدا ولأن الحكمة الالهية لا تسمح ان تعظم الاشياء التافه. وأنا، كي أهدّئ الخواطر - لأن يورج سريع الغضب وكان فينانسيو يتكلم بطريقة استفزازية - قلت إن في الجزء الذي نعرفه من «الشعر» وفي «البلاغة» نجد الكثير من الملاحظات القّيمة حول الاحاجي الفطنة، ووافقني على ذلك فينانسيو. وكان معنا آذاك باتشيفيكو دا تيفولي، وكان يعرف جيدا الشعراء الوثنيين، فقال بخصوص الاحاجي الخفيّة لا أحد يفوق الشعراء الأفريقين. وذكر علاوة على ذلك لغز السمك لسانفوزيو :

«هناك دار على الأرض ترنّ بصوت صدّاح، الدار نفسها. تصدح، ولكنها لا ترنّ حينما يصمت الضيف، ومع ذلك يعدو الاثنان : الضيف والدار معا.»

عند ذلك قال يورج إن يسوع سيدنا أوصى بأن لا يتعدى كلامنا كلمتي «نعم» و«لا»، وان ما زاد على ذلك هو عمل من الشيطان، وانه يكفي ان يقول المرء

سمك للدلالة عن السمك، دون اخفاء المعنى بأصوات كاذبة. وأضاف أنه لا يبدو له حكيما أن نقتدي بالافريقيين... وعندئذ...»

- عندئذ ؟.

- عندئذ حدث شيء لم أفهمه. أخذ برينغاريو يضحك، ولما أنبه يورج قال انه يضحك لأنه تذكّر، انه لو بحث باحث جيدا بين الافريقيين لوجد أحاجي أخرى، وليست سهلة كأحجية السمك. فغضب ملاخي، الذي كان حاضرا، غضبا شديدا وأمسك برينغاريو، أو كاد، من ثوبه، وصرفه إلى الامام بأشغاله... برينغاريو، كما تعلم، هو مساعده...

- وبعد ذلك ؟

- بعد ذلك وضع يورج حدا للنقاش بمغادرته الحلقة. ومضى كّل منا لقضاء حاجاته، ولكن بينما كنت اعمل رأيت أوّلاً فينانسيو ثم أدالمو يقتربان من برينغاريو ليطلبا منه شيئا، ورأيته من بعيد وهو يحاول التملّص منهما، ولكنهما أثناء ذلك اليوم عادا إليه. وفي المساء رأيت برينغاريو وأدالمو يتحادثان في رواق الدير، قبل الذهاب الى قاعة الأكل. هذا كل ما أعرفه.

فقال غوليالمو - «أنت اذن تعرف أن الشخصين الذين لقيا حتفهما في ظروف غامضة طلبا شيئا من برينغاريو.»

فأجاب بانشيو بحرج: «لم أقل ذلك! لقد ذكرت ما وقع ذلك اليوم كما طلبت مني - ثم فكّر قليلا وأضاف بسرعة - ولكن ان أردت رأيي، قد يكون برينغاريو حدثهما عن شيء يوجد بالمكتبة، واذن ينبغي ان تبحث هناك.»

- لماذا ذهب بك الظن الى المكتبة ؟ ماذا كان يعني برينغاريو بقوله لو بحثنا جيدا بين الافريقيين ؟ ألم يكن يريد ان يقول انه يجب ان نقرأ أكثر الشعراء الافريقيين؟

- قد يكون، هكذا يبدو، ولكن لماذا غضب اذن ملاخي ؟ اذ اليه يعود أخذ القرار بتسليم كتاب من كتب الشعراء الافريقيين أو عدم تسليمه. ولكن هناك شيء انا واثق من معرفته وهو ان من يتصفح قوائم الكتب، يجد من بين العلامات، التي لا يعرف معناها إلا حافظ المكتبة، علامة تقول غالبا «finis Africae». وطلبت مرّة كتابا يحمل تلك العلامة، لا أذكر أي كتاب، كان العنوان قد أثار فضولي، فقال لي ملاخي ان الكتب التي تحمل تلك العلامة قد فقدت. هذا ما

أعرف، ، ولذا أقول لك إنه من الصائب أن تراقب برينغاريو، وراقبه عندما يصعد الى المكتبة. من يدري. . .

فأختتم غوليالمو الحوار قائلا : «من يدري. . .» ثم سمح له بالانصراف وبعد ذلك أخذ يتجول معي عبر الرواق ملاحظا انه : قبل كل شيء، ولمّرة أخرى، كان برينغاريو محلّ أحاديث رفاقه، وثانيا ان بانشيو كان يبدو ملحّا عل دفعنا نحو المكتبة. وقلت ربما إنه يريدنا ان نكتشف شيئا هناك يتوق هو نفسه الى معرفته. وأجاب غوليالمو أنه من المحتمل أن يكون الأمر كما أقول، ولكنه قد يريد دفعنا أيضا نحو المكتبة لابعادنا عن بعض الأماكن الأخرى. فسأله عن أي مكان يعني. وأجاب أنه لا يعرف، ربما تكون قاعة الكتابة، وربما المطبخ أو الخورس، أو قاعة النوم أو المستشفى. فلفتّ نظره الى انه في اليوم السابق، كان هو، غوليالمو، المفتون بالمكتبة، فأجاب أنه يريد أن تفتنه الأشياء التي تعجبه لا تلك التي ينصحه بها غيره. وأنه على كلٍ، يجب مراقبة المكتبة، وأنه لا يرى حرجا، عند ذلك الحّد من الأبحاث، من ان يحاول الدخول إليها بطريقة من الطرق. فالظروف تسمح له الآن بأن يشفي غليل فضوله، في حدود اللياقة والاحترام لعادات وقوانين الدير.

ثم أخذنا في الابتعاد عن الرواق. وكان الخدم والمبتدئون خارجين من الكنيسة بعد القّداس. وبينما كنا نتجاوز الجانب الغربي للمعبد لاحظنا برينغاريو وهو يخرج من باب جناح الكنيسة ويعبر المقبرة متجها نحو الصّرح. وناداه غوليالمو فتوقف، والتحقنا به. كان مضطربا أكثر مّما كان في الخورس فقرّر غوليالمو بطبيعة الحال استغلال حالته النفسية، كما فعل مع بانشيو، وقال له :

– يبدو اذن انك كنت آخر من رأى أدالمو حيّا.

فأوشك برينغاريو ان ينهار مغشّيا عليه وقال بصوت يكاد لا يسمع «أنا ؟». وكان غوليالمو قد طرح سؤاله هكذا دون قصد، وقد يكون فعل ذلك لانه سمع بانشيو يقول أنه رآهما يتهامسان في الرواق بعد صلاة الستّار. ولكنه يظهر أنه أصاب، ولا ريب أن برينغاريو كان يفكر في لقاء آخر، كان فعلا اللقاء الأخير، لأنه أخذ يتحدث بصوت متقطّع :

– كيف يمكن أن تقول ذلك، لقد رأيته قبل الذهاب للنوم ككّل الآخرين !

فقرّر غوليالمو عندئذ أنه من الأفضل أن لا يمهله :– كّلا، انت رأيته مرّة

أخرى ولديك من المعلومات أكثر مما تريد أن توهم. ولكن يوجد الآن قتيلان ولا يمكنك ان تتمادى في الصمت. انك تعرف جيدا أن هناك أكثر من طريقة لارغام شخص على الكلام !»

وكان غوليالمو قد قال لي عدّة مرات انه، حتى عندما كان محقّقا كان دائما ينفر من استعمال وسائل التعذيب. ولكن برينغاريو أساء فهمه (أو أراد غوليالمو أن يُساءَ الفهم)، على كّل أعطت حيلته نتائجها اذ قال برينغاريو مجهشا بالبكاء:

- نعم، نعم. لقد رأيت أدالمو تلك الليلة، ولكنّني رأيته ميّتا !

فسأله غوليالمو : «كيف ؟ في أسفل الهاوية ؟»

- كلا، كلا، رأيته هنا في المقبرة، يسير بين القبور، دودة بين الديدان. لقد اعترضني ولاحظت في الحال أنني لا أجد نفسي أمام انسان من هذه الدنيا، كان وجهه وجه جثّة، وكانت عيناه تنظران الى العقاب الابدي. بطبيعة الحال لم أفهم الا في الصباح، عندما علمت بموته، أنني لاقيت شبحه. ولكن منذ تلك اللحظة فهمت أنني أمام رؤيا وأنني أرى تجاهي روحا هالكة، شبحا. . . آه يا الهي، لقد حدثني بصوت خارج من القبر !

- وماذا قال لك ؟.

- انني هالك ! - هكذا قال لي - مثلما تراني، فانك ترى أمامك شخصا آتيا من الجحيم والى الجحيم ينبغي أن يعود - هكذا قال لي، فصحت به: أدالمو، هل تأتي حقيقة من الجحيم ؟ كيف هو عذاب الجحيم ؟ - وكنت أرتعد، لأنني خرجت منذ قليل من صلاة النوم حيث استمعت إلى قراءة صفحات مروّعة عن غضب الاله، فقال لي:

- ان عذاب الجحيم لامتناه اكثر مما يقدر اللّسان على وصفه، واضاف : اترى هذا الغطاء من السفسطة الذي ارتديته الى حدّ الآن، انه يثقل كاهلي ويسحقني فكأنني أحمل أكبر برج في باريس أو جبال العالم فوق كتفي ولن يمكنني خلعه أبدا. وقد عاقبتني العدالة الالهية هذا العقاب لغروري، لأنني ظننت جسدي موضعا للملذات، ولانني ظننت نفسي أكثر علما من الآخرين، ولانني تسلّيت بأشياء فظيعة، حلمت بها في مخيلتي فأحدثت في دخيلة نفسي أشياء أفظع بكثير، وسأعيش معها الآن الى الابد. أترى ؟ ان بطان هذه العباءة كما لو كان جمرا ونارا متوقّدة، وهي النار التي تلتهم جسمي، وقد منيت بهذا العقاب لخطيئة

الجنس الخسيسة، التي تلذذت بها، وهذه النار الآن تلتهمني وتحرقني دون هوادة. مدّ إلي يدك يا أستاذي الجميل !» - ثم حرّك اصبع يده التي كانت تشتعل، فسقطت على يدي قطرة صغيرة من عرقه وبدا لي وكأنها ثقبت يدي، حتى انني بقيت أحمل أثرها لعدة أيام، غير أنني أخفيتها عن الجميع. ثم غاب بين القبور، وفي الصباح علمت أن ذلك الجسد، الذي روّعني بتلك الصفة، كان اذاك يجثم ميّتا في أسفل الهاوية.

كان برينغاريو يتنفس بصعوبة ويبكي. فسأله غوليالمو : «ولماذا دعاك يا أستاذي الجميل ؟ لقد كنتما أندادا. هل علّمته شيئا ؟» فأخفى برينغاريو وجهه تحت الطرطور وسقط على ركبتيه مطوّقا بذراعيه ساقي غوليالمو : «لا أدري لا أدري لمذا دعاني كذلك، انني لم أعلّمه شيئا !» وأجهش بالبكاء : «أنني خائف يا أبت. أريدك أن تقبل أعترافي، ارحمني، فالشيطان يلتهم أحشائي.»

فأبعده غوليالمو عن نفسه ومدّ يده كي ينهض قائلا :

- لا يا برينغاريو. لا تطلب مني ان أسمع اعترافك. لا تغلق شفتي بفتح شفتيك. ما أريد أن أعرفه منك ستقوله لي بطريقة أخرى . وان رفضت قوله سأكتشفه بنفسي. اطلب مني الشفقة ان أردت ولكن لا تطلب مني الصمت. فالكثيرون في هذا الديريصمتون. ولكن قل لي، كيف رأيت وجهه الشاحب ان كان الليل حالكا، وكيف أحرق عرقه يدك ان كانت ليلة مطر وبرد وثلج، وماذا كنت تعمل في المقبرة ؟ هيّا - وهزه بعنف من كتفه - قل لي على الأقل هذا !

كان برينغاريو يرتعد بكل أعضائه : «لا أدري ماذا كنت أفعل في المقبرة. لا أذكر. لا أدري كيف رأيت وجهه، أظن انني كنت أحمل نورا، كلاّ. . . بل هو الذي كان يحمل نورا، قد أكون رأيت وجهه على ضوء فتيلة. . .»

- كيف يمكن أن يحمل نورا بينما كان المطر والثلج يتساقطان؟

- كان ذلك بعد صلاة النوم، بعدها بالضبط، ولم يكن الثلج يتساقط بعد، وانما أخذ يتساقط في وقت لاحق. . . اذكر ان الهبّات الأولى من الثلج قد أخذت في السقوط بينما كنت أسارع نحو قاعة النوم، في الأتجاه المعاكس لاتجاه الشبح. . . وبعد ذلك لا أدري شيئا، أرجوك، كفّ عن سؤالي، ان كنت لا تريد سماع اعترافي.

فقال غوليالمو : « حسنا، اذهب الآن، اذهب الى الخورس، اذهب وتحدث

مع الاله، بما أنك لاتريد الكلام مع البشر، أو أذهب للبحث عن راهب يقبل سماع اعترافك، لأنك ان لم تعترف منذ ذلك الحين بخطاياك، فقد اقتربت اذن أثما من القدّاس. اذهب. سنلتقي فيما بعد.»

وغاب برينغاريو بسرعة عن أنظارنا بينما فرك غوليالمو يديه، كما رأيته يفعل في عدة حالات أخرى عندما يريد التعبير عن الرضى، وقال: «حسنا، الآن اتضحت عدّة أشياء.»

فسألته: «اتّضحت، كيف يا أستاذي؟ كيف اتضحت الآن وقد أصبح لدينا أيضا شبح أدالمو؟»

فقال غوليالمو: «ياعزيزي أدسو، ان ذلك الشبح يبدوا لي شبحا صغيرا جدّا، وعلى كلّ حال كان يتلو صفحة سبق أن قرأتها في كتاب كان يستعمله الواعظون.

هؤلاء الرهبان يفرطون في القراءة، وعندما تهيج أعصابهم يعيشون من جديد تلك الرؤى التي قرأوها في الكتب. لا أدري ان كان أدالمو قد قال حقيقة تلك الأشياء أو ان برينغاريو سمعها لأنه كان في حاجة الى سماعها. الثابت هو أن هذه القصة تؤكد العديد من افتراضاتي. مثلا: ان أدالمو قد مات منتحرا. فحكاية برينغاريو تقول انه قبل ان يموت، كان يطوف وهو فريسة لهيجان كبير ولندم على لعلة كان قد اقترفها. كان ثائر الأعصاب ومروّعا من أجل الخطيئة التي ارتكبها، لأن أحدهم روّعه، وقد يكون قصّ عليه بالضبط الفقرة من الرؤيا الجهنمية التي تلاها بتلك المهارة الفائقة والمهلوسة. ومرّ من المقبرة لأنه كان آتيا من الخورس، حيث تحادث مع شخص أدخل عليه الهلع والندم (أو باح له باعترافه). وكان مارّا من المقبرة - كما قال برينغاريو - في الاتجاه المعاكس لقاعة النوم. نحو الصّرح اذن، لكن ايضا (وهذا ممكن) نحو السّور الخارجي وراء المزابل، ومن هناك، كما استنتجت يكون قد ألقى بنفسه في الهاوية. وقد رمى بنفسه قبل حدوث العاصفة، ومات عند أسفل السور، وبعد ذلك فقط حمل الانهيار جثته بين البرج الشمالي والبرج الشرقي.»

- ولكن قطرة العرق الملتهبة؟

- توجد هي ايضا في القصة التي سمعها وأعادها علينا، أو تخيلها برينغاريو وهو فريسة للاضطراب والندم، لأنه مع شعور أدالمو بالندم هناك شعور برينغاريو بالندم، مثلما سمعتَ. واذا كان أدالمو آتيا من الخورس فمن الممكن أنه كان

يحمل شمعة، والقطرة التي سقطت على يد صديقه ما هي الا قطرة شمع. ولكن برينغاريو أحس بحرق أكبر لأن أدالمو ناداه «أستاذي»، مما يدل على أن أدالمو كان يلومه لأنه علّمه شيئا جعله ييأس حتى الموت. وبرينغاريو يعلم ذلك ويتألم لأنه يعرف انه دفع بأدالمو إلى الموت بعد أن جعله يفعل شيئا كان ينبغي عليه أن لا يفعله. وليس من الصعب أن تتخيل ماذا، يا عزيزي أدسو، بعد ما سمعناه عن مساعد حافظ المكتبة.

فقلت وأنا خجل من نباهتي : «أظن أنني فهمت ماذا وقع بينهما. ولكن ألا نؤمن كلنا برب رحيم؟ لقد قلت إن أدالمو قد يكون اعترف؟ لماذا حاول أن يعاقب خطيئته الأولى بخطيئة دون شك أكبر أو على الأقل بنفس الخطورة؟»

– لأن أحدهم قال له كلمات ملؤها اليأس. لقد قلت إن صفحة كتبها بعض المبشرين في وقتنا هذا، قد تكون ألهمت أحدهم الكلمات التي روّعت أدالمو، وبدوره رّوع بها برينغاريو. فالمبشرون لم يقدّموا الى الشعب كما قدّموا في هذه السنوات الأخيرة، حتى يحثّوه على التقوى ويروّعوه (ويحرّكوا فيه الحماس والاجلال للشريعة الانسانية والالهية)، كلمات فظة، مثيرة ومرعبة الى هذا الحدّ.

وما حدث أبدا كما يحدث في أيامنا أن تسمع وسط مواكب المتسّوطين أناشيد مقدسة مستوحاة من آلام المسيح والعذراء، وما كان الواعظون يلحّون أبدا، كما يفعلون اليوم، على استحضار آلام الجحيم، بغية حثّ البسطاء على الايمان.

فقلت : «قد يكون من أجل التوبة»

– أدسو، لم أسمع أبدا كما سمعت في هذه الايام نداءات بهذه الكثرة الى التوبة، في زمن ليس بمقدور المبشرين ولا الاساقفة، ولا حتى اخواني الروحانيين، تحريك توبة حقيقية. . .

فقلت محتارا : « ولكن العهد الثالث، والبابا الملائكي، ومجمع بيروجيا». . .

– حنين الى الماضي. ان زمن التوبة العظيم قد ولّى، ولهذا حتى المجمع العامّ للنظام يستطيع ان يتكلم عن التوبة. نعم، لقد هبّت، منذ مائة أو مائتي سنة، ريح تجديد عاتية. كان ذلك عندما كان يحرق من يتكلم عنها، قديسا كان أو زنديقا. الآن يتحدث عنها الجميع، وحتى البابا، ان أردنا، يناقشها. لا تثق بتجديد الجنس البشري عندما تتكلم عن ذلك الهيئات الكنسية والبلاطات.»

فتجرأت وسألته : «ولكن الأخ دولتشينو»، - وكنت أتوق الى التعرف أكثر على ذلك الشخص الذي كثيرا ما سمعت اسمه يذكر في اليوم السابق.

- لقد مات، وبفظاعة، كما عاش. لأنه هو أيضا جاء بعد فوات الأوان. ولكن أنت ماذا تعرّف عنه ؟

- لا شيء، ولذا سألتك...

- أود أن لا أتحدث عنه أبدا. لقد حدث لي ان تعاملت مع البعض ممّن يسمّون الرّسل، وتأملت فيهم عن قرب. انها قصّة محزنة. ستشوّش بالك. على كل حال قد شوشت بالي أنا، وستثير اضطرابك أكثر عدم قدرتي على الحكم. انها قصة رجل قام بأشياء غير معقولة لأنه طبق فعليّا ما علّمه اياه الكثير من القديسين. وفي وقت من الأوقات لم أعد أفهم من المخطئ، لقد كنت وكأنني... تائه وسط ضباب في جو مألوف يهب من ساحتي الفريقين المتنازعين، من القديسين الذين يبشرون بالتوبة ومن مرتكبي الخطايا الذين كانوا يطبقونها، غالبا على حساب الآخرين... ولكنني بصدد الحديث عن شيء آخر. أو قد يكون لا، كنت أتحدث دائما عن هذا: لما انتهى زمن التوبة، أصبحت حاجة التائبين الى التوبة حاجة الى الموت، واولئك اللذين قتلوا التائبين المجانين، معوضين الموت بالموت، كي يهزموا التوبة الحقيقية التي تؤدي الى الموت، عوضوا توبة الروح بتوبة الخيال، بالرجوع الى رؤى خيالية كلّها ألم ودم، مسمين أياه «مرآة» التوبة الحقيقية. مرآة تجعل مخيلة البسطاء، وفي بعض الأحيان مخيلة العلماء، تعيش في الحياة الدنيا عذاب الجحيم. حتى لا يرتكب أحدهم الاثم، كما يقولون، آملين أن تعرض النفوس عن الخطيئة بوسيلة الخوف، واثقين من أن الخوف سيعوض الثورة.

فسألته بقلق : «ولكن هل سيعرضون حقيقة عن ارتكاب الخطيئة ؟» فأجاب أستاذي: «هذا يتوقف على ما تعني بارتكاب الخطيئة يا أدسو. انني لا أريد أن أغلط في حق أهل هذا البلد حيث أعيش منذ بضع سنين، ولكن يبدو لي أن من خاصيات قلّة تقوى الشعوب الايطالية عدم ارتكاب الخطيئة خوفا من بعض الآلهة، ولو أطلقوا عليها اسم قديس. انهم يخافون من القديس سيباستيانو أو القديس أنطونيو أكثر مّما يخافون من المسيح. فلو أراد أحدهم ان يُبقي مكانا نظيفا هنا، حتى لا يبول فيه الناس على طريقة الكلاب، فأنه يرسم فوقه صورة

القديس انطونيو بطرف من الخشب، فيبعد أولئك الذين كانوا يتأهبون للتبوّل فيه. وهكذا يتعرض الايطاليون، بفضل مبشريهم، لخطر العودة الى المعتقدات القديمة ولم يعودوا يؤمنون بانبعاث الجسد، انهم يخافون فقط خوفا عظيما من الجروح الجسدية ومن الكوارث، ولذا يخافون القديس أنطونيو أكثر مما يخافون المسيح.»

فقلت ملاحظا: «ولكن برينغاريو ليس ايطاليا.»

- لا يهم، انني أتحدث عن الجوّ الذي نشرته الكنيسة والأنظمة التبشيرية على شبه الجزيرة هذه ومنها ينتشر في كل مكان، ويصل حتى دير جليل يسكنه رهبان علماء. كهؤلاء.

فالححت قائلا: «ولكن ليتهم يمتنعون على الأقل عن ارتكاب الخطايا» لأنني كنت مستعدا للاكتفاء بذلك.

-«لو كان هذا الدير مرآة للعالم لوجدت الجواب.» فسألته: - «أو ليس كذلك؟»

فختم غوليالمو قائلا: «كي تكون للعالم مرآة ينبغي أن يكون للعالم شكل» لقد كان استاذي فيلسوفا كبيرا بالنسبة لقدرة شاب مراهق مثلي على الفهم.

ثالثة

وفيه يحضر غوليالمو وأدسو خصومة بين أشخاص مبتذلين ويقوم ايمارو دا أليساندريا ببعض التلميحات، ويفكر أدسو حول القداسة وبراز الشيطان. ثم يعود غوليالمو وأدسو إلى قاعة الكتابة، ويرى غوليالمو شيئا جديرا بالاهتمام، ثم يكون له حوار ثالث حول اباحة الضحك، ولكنه في الختام لا يمكنه أن ينظر حيث يريد.

قبل الصعود إلى قاعة الكتابة ذهبنا الى المطبخ لنصيب شيئا من الغذاء، لأننا لم نأكل شيئا منذ نهوضنا. وانشرحت لوقتي ما ان شربت صحفة من الحليب الساخن. وكانت المدفأة الجنوبية الكبيرة تشتعل كالمصهر، بينما كان الطباخون يعدّون في الفرن ما يلزم لذلك اليوم من خبز. وكان معّازان يضعان نعجة ذبحت منذ قليل. ورأيت بين الطباخين سلفاتوري الذي ابتسم لي بفمه الذي يشبه شدقي ذئب. ورأيته يأخذ من فوق المائدة بقايا دجاج من عشاء البارحة ويمدّه خفية الى المعّازين الذين أخفياه في سترتيهما المصنوعتين من [illegible] الجلد وهما يتضاحكان من الرضى. ولكن كبير الطباخين انتبه لذلك وأخذ يوبّخ سلفاتوري قائلا:

– «ياقيّم، عليك أن تدير أملاك الدير لا أن تبذرها»! فقال سلفاتوري: «انهم أبناء الرب. وقد أمر يسوع أن نعامله كما نعامل أولئك المساكين!».

فصاح به الطباخ عندئذ: «أيها الفرانشسكاني القذر، أيها الفرنشسكاني الضّراب. انك لست الآن بين اخوانك الصعاليك! ستعنى شفقة رئيس الدير بمساعدة أبناء الربّ!».

فتجهم وجه سلفاتوري والتفت اليه بغضب شديد: «انني لست راهبا فرنشسكانيا، انني راهب «القديس بندكت»! ايها الغائط البوغوميلي الغائط!».

فصاح الطباخ : «البوغوميلية هي البغي التي تنكحها في الليل بقضيبك الهرطوقي، أيها الخنزير!».

فأخرج سلفاتوري بسرعة المعّازين وعندما مرّ بالقرب منّا نظر إلينا بغمّ وقال لغوليالمو : «أيها الأخ، دافع أنت عن رهبانيتك فهي ليست رهبانيّتي. قل له إن أبناء القديس فرنشسكو ليسوا هراطقة! ثم همس في أذني : انه كذّاب، تفوه !» وبصق على الارض.

فجاء الطباخ ودفعه إلى الخارج بعنف مغلقا الباب وراءه ثم قال لغوليالمو باحترام : «يا أخي، انني لم أتحدث بسوء عن رهبانيتك ولا عن رجالها القديسين. كنت أتحدث عن هذا الفرنشسكاني الزائف والبندكتي الزائف الذي لا لون له ولا رائحة».

فقال غوليالمو بنبرة مسالمة : «انني أعرف من أين أتى. ولكنه الآن راهب مثلك ينبغي عليك احترامه احتراما أخويا».

- «ولكنه يتدخل فيما لا يعنيه لأنه تحت حماية القيّم، ويظن نفسه القيّم، ويستعمل الدير كما لو كان ملكه في النهار والليل !».

فسأله غوليالمو : «لماذا قلت في الليل ؟». فقام الطباخ بحركة يعني بها أنه لا يود الحديث عن أشياء تنقصها العفّة. فلم يزد غوليالمو في سؤاله وأنهى شرب حليبه.

أما أنا فقد كان فضولي يزداد شيئا فشيئا. اللقاء مع أوبارتينو، والتهامس حول ماضي سلفاتوري والقيّم، والتلميحات المتزايدة أكثر فأكثر عن الاخوان الفرنشسكانيين وعن الطوائف الفرنشسكانية الهرطوقية التي سمعتها في تلك الأيام، ثم احجام أستاذي عن الحديث حول الأخ دولتشينو... مجموعة من الصور أخذت تترتب في ذهني. مثلا، أثناء سفرنا اعترضتنا على الأقل مرتين جماعة من المتسوّطين وكان سكان المنطقة ينظرون اليهم مرّة على انهم قديسون، ويتهامسون أخرى على انهم هراطقة، بينما كانوا مع ذلك الأشخاص أنفسهم. كانوا يمشون في موكب، اثنان وراء اثنين، في طرقات المدينة ولم يغطوا من أجسادهم إلا العورة، متعدّين كل حدود الحياء. وكان كلّ واحد يمسك بسوط من الجلد يضرب به كتفيه حتى يخرج الدم، والجميع يبكون بدموع غزيرة كأنهم يشاهدون بأعينهم محنة المخلّص، ويتوسلّون بنشيد محزن رحمة الاله وعون أم

الربّ. وليس فقط في النهار بل وحتى في الليل، حاملين الشموع المشتعلة، في قسوة البرد الشتائي، كانوا يذهبون في مجموعات كبيرة يطوفون بالكنائس ويركعون بخشوع أمام المذابح، يتقدمهم الكهنة حاملين الشموع والرايات، لايوجد بينهم الرجال والنساء من عامة الناس فحسب، بل وحتى السيدات النبيلات، والتجار. . . واذا بك ترى أعمال توبة عظيمة، من اولئك الذين يعيدون ما سلبوه دون حق، إلى الذين يعترفون بجرائمهم. . .

ولكن غوليالمو نظر اليهم ببرود وقال لي ان تلك ليست التوبة الحقيقية. لقد تكلم بنفس الطريقة التي تحدث بها منذ حين في ذلك الصباح : وهو ان عهد الاغتسال التوبوي الكبير ولّى، وان تلك كانت الطرق التي يستعملها المبشرون أنفسهم لتنظيم تقوى الجماهير حتى لا يقعوا ضحية رغبة أخرى في التوبة - وتلك - هي هرطوقية، وتبعث الخوف في الجميع. كان يبدو لي ان الفارق لا يأتي من أعمال هؤلاء أو أولئك، ولكن من النظرة التي كانت الكنيسة تحكم بها على هذه، أو تلك من الأعمال.

كنت أتذكر النقاش مع أوبارتينو. لقد كان غوليالمو دون شكّ ملمّحا وحاول أن يقول ان الفارق ليس كبيرا بين ايمانه الروحي (والارثوذكسي) وايمان الهراطقة الملتوي. وشعر أوبارتينو بالاهانة كمن يرى جيّدا الفارق. والانطباع الذي بقي لي هو أنه كان مختلفا عن الآخرين لأنه كان يعرف ادراك الفارق. وقد انسحب غوليالمو من وظيفته في محكمة التفتيش لأنه لم يعد يعرف كيف ينظر اليها. ولذا لم يكن باستطاعته أن يحدثني عن قصة الأخ دولتشينو الغامضة ولكن عندئذ، من الواضح (كنت أقول في نفسي) ان غوليالمو فقد معونة الاله، الذي لا يعلم فقط معرفة الفارق، ولكنه ان أراد يمنح عباده المختارين تلك المقدرة على ادراكه. لقد بقي اوبارتينو وكيارا دا مونتيفالكو (ولو أنها كانت محاطة بالآثمين) قديسين لأنهما كانا يعرفان فعلا ادراك الفارق. هذه هي القداسة، لا غير.

ولكن لماذا لا يعرف غوليالمو كيف يميز ؟ ومع ذلك فهو رجل فطن، وفيما يخص أمور الطبيعة كان يلاحظ أدنى تخالف وأدنى تقارب بين الأشياء. . .

كنت غارقا في هذه الأفكار، بينما كان غوليالمو ينهي شرب حليبه عندما سمعنا أحدا يحيّينا. كان ايمارو دا أليساندريا الذي كنا قد تعرفنا عليه من قبل في قاعة الكتابة، والذي استرعى انتباهي إليه ملامح وجهه، التي تعلوها دائما ابتسامة

استهزاء، كمن لا يقدر على إقناع نفسه بحماقة كل المخلوقات البشرية ومع ذلك يعير اهتماما كبيرا لهذه المأساة الكونية.

- اذن، هل تعودت يا أخ غوليالمو على هذا الوكر من المجانين ؟ فقال غوليالمو بحذر : «انه يبدو لي مكانا عامرا برجال جديرين بالاعجاب لقداستهم ولحكمتهم».

- لقد كان كذلك، عندما كان رؤوساء الدير يقومون برئاسة الدير وحافظو المكتبة بحفظ المكتبة. لقد رأيت الآن هناك - وأشار الى الطابق الأعلى - ذلك الألماني الذي هو لا بالميت ولا بالحي، يستمع بعيني أعمى الى هذيان ذلك الأسباني الأعمى الذي له عينا ميّت. يبدو وكأنه المسيح الدّجال سيطلّ علينا كل صباح. هنا نقشط الرقّ ولكن القليل جدا من الكتب الجدية تدخل الى هذا المكان. اننا نقيم هنا بينما الحركة والنشاط هناك، في المدن. . . في السابق كانت أديرتنا هي التي تحكم العالم. والآن، ها أنت ترى، الأمبراطور يستعملنا لارسال أصدقائه لملاقاة أعدائه (انني على علم بعض الشيء عن مهمتك، فالرهبان يتحدثون، يتحدثون، ليس لديهم شيء آخر يفعلونه) ولكن ان أردت مراقبة أمور هذه البلاد فابق في المدينة. نحن هنا نجمع القمح ونربي الدواجن، وهناك تستبدل أذرعة الحرير بقطع القماش، وقطع القماش بأكياس التوابل، والكلّ بنقود صالحة. نحن هنا نحرس كنزنا وهناك تتراكم الكنوز. والكتب أيضا، وأجمل من كتبنا نحن.

- في العالم تقع دون شك أشياء كثيرة جدا. ولكن لماذا تظن انها غلطة رئيس الدير؟.

- لأنه وضع المكتبة بين أيدي الأجانب ولأنه يعتبر الدير قلعة بنيت للدفاع عن المكتبة. ان ديراً بندكتيا في هذا القطر الايطالي، ينبغي أن يكون مكانا يقرّر فيه الايطاليون الشؤون الايطالية. ولكن ماذا يفعل الايطاليون الآن ولم يعد لهم حتى البابا ؟ يتاجرون، يصنعون، انهم أثرى من ملك فرنسا. اذن، لنفعل مثلهم، فان كنا نتقن صنع كتب جميلة فلنصنعها للجامعات، ولنهتمّ بما يقع في اسفل الوادي، لا أقول نهتم بالامبراطور، مع كل احترامي لمهمتك، يا أخ غوليالمو، ولكن بما يفعل البولونيون والفلورنسيون. يمكننا من هنا مراقبة الحجيج والتجار، الذين يذهبون من ايطاليا الى بروفانسا والعكس. لنفتح المكتبة الى النصوص

باللغة الايطالية، وسيصعد الينا أيضا أولئك الذين لم يعودوا يكتبون باللاتينية. ولكننا مراقبون من طرف كتلة من الاجانب يواصلون ادارة المكتبة وكأنه لا يزال في كلوني الى الآن الشمّاس أوديلّوني الطيّب. . . » فقال غوليالمو : «ولكن رئيس الدير ايطالي».

-فقال ايمارو مبتسما دائما باستهزاء : «لا يحسب هنا أي حساب لرئيس الدير. له خزانة مكتبة عوضا عن دماغه. لقد نخره السوس. كي ينكّد بالبابا يترك الدير يمتلئ بالفرنشسكانيين. . . أعني أولئك الهراطقة، يا أخي، الهاربين من رهبانيتكم المقدّسة. . . وكي يتقرّب الى الامبراطور يجلب الى الدير رهبانا من كلّ أديرة الشمال، كما لو لم يكن في فلورنسا وفي بيزا أبناء تجّار، أثرياء وكرماء، يودّون الدخول في الرهبانية، لو أعطتهم الرهبانية الفرصة لتنمية نفوذ آبائهم وهيبتهم. ولكن هنا لا يقبل التسامح بخصوص أشياء الدنيا ما عدا الترخيص للالمان بـ. . . آه، يا الهي العزيز، لتصعق لساني اذ كنت سأقول ما لا يليق !».

فسأله غوليالمو دون اكتراث وهو يصب لنفسه قليلا من الحليب :

- أتقع في الدير أشياء غير لائقة ؟

فقال ايمارو بتكلف : «الراهب أيضا انسان» - ثم أضاف - «ولكن هنا صفة الانسان فيهم أقل من أي مكان آخر. وما قلته، ليكن واضحا اني لم أقله».

فقال غوليالمو : «هذا شيء هام جدا. وهل هذه آراؤك انت أم أن هناك الكثير ممن لهم نفس الرأي ؟»

- انه رأي الكثيرين والكثيرين. الكثيرين ممن يتحسّرون الآن على مصيبة أدالمو المسكين، ولكنهم لن يتأسّفوا لو سقط في الهاوية واحد آخر، ذلك الذي يتسكع في المكتبة أكثر مما ينبغي.

- ماذا تعني ؟

- لقد أكثرت من الكلام. اننا نكثر هنا من الكلام، قد تكون لاحظت ذلك. هنا لم يعد أحد يحترم الصمت، من ناحية، ومن ناحية أخرى هناك من يغالي في احترامه. هنا عوضا عن الكلام والصمت يجب علينا العمل. في العهد الذهبي الذي عاشته رهبانيتنا. عندما لا يكون رئيس الدير في مستوى وظيفته يكفي كأس من الخمر المسموم واذا بالخلافة مفتوحة. لقد قلت لك هذه الأشياء، يا أخي

غوليالمو، لا للتهامس في شأن رئيس الدير أو في شأن اخوان آخرين. ليحفظني الله من ذلك، من حظي انني براء من ذلك العيب القبيح، عيب الاغتياب. ولكنني مثل باتشيفيكو دا تيفولي أو بيترو دا سانتِالبانو. نحن لا دخل لنا في حكاية المكتبة. ولكننا نريد أن ندخل فيها أكثر. لذا ارفع الغطاء عن ذلك الوكر من الثعابين أنت الذي أحرقت العديد من الهراطقة.

فأجابه غوليالمو بنبرة جافة: «أنا لم أحرق أحداً أبدا». فوافقه ايمارو بابتسامة عريضة قائلا: «لقد قلت ذلك دون قصد. صيدا وفيرا، يا أخ غوليالمو، ولكن كن حذرا في الليل».

- ولَم ليس في النهار؟.

- لأن هنا. في النهار، يُعالج الجسم بالاعشاب النافعة وفي الليل تَمرض الروح بالأعشاب المضرّة. لا تظن أن أدالمو قد أسقطته في الهاوية أيدي أحد أو ان أيدي أحد وضعت فينانسيو في الدم. يوجد هنا أحد لا يريد أن يقرر الرهبان بأنفسهم أين يذهبون وماذا يفعلون وماذا يقرأون. وتستعمل قوى الجحيم وقوى السحرة أصدقاء الجحيم، لادخال الاضطراب على ادراك الفضوليين...

- هل تعني الأب العشّاب؟.

- ان سفيرينو دا سانتيمرّانو رجل طيب. بطبيعة الحال، هو ألماني، وملاخي ألماني...

وبعد أن أظهر مرة أخرى أنه بعيد عن عيب الاغتياب، صعد ايمارو للعمل.

فسألت: «ماذا كان يريد أن يقول؟»

- كل شيء ولا شيء. ان الدير دائما مكان يتنافس فيه الرهبان فيما بينهم للتحكم في ادارة المجموعة. وهكذا أيضا في «مالك»، ولكن من المحتمل، نظرا الى كونك مبتدئا، انك لم تنتبه لذلك. ولكن في بلادكم التحكم في دير يعني التحكم في مكان يسمح بالتعامل مباشرة مع الامبراطور. ولكن في هذه البلاد يختلف الأمر، فالامبراطور بعيد، حتى عندما ينزل الى روما. لا يوجد هنا بلاط، ولا حتى البلاط البابوي. هنا توجد المدن، قد تكون لاحظت ذلك.

- بالتأكيد، وقد أذهلني ذلك. المدينة في ايطاليا شيء مختلف عما يوجد عندنا.. ليست فقط مكانا للسكنى: هي مكان لأخذ القرارات، تجدهم دائما في الساحة، الحكام المدنيون أهم من الامبراطور أو البابا. انها كما لو كانت ..

ممالك عديدة. . .

- والملوك هم التجار. سلاحهم هو النقود. ان للنقود في ايطاليا صلاحية تختلف عن تلك الموجودةفي بلادك أو في بلادي. ان النقود رائجة في كل مكان، ولكن الحياة في أغلب مظاهرها يهيمن عليها وينظمها تبادل المنتجات، دواجن أو حرز من القمح، أو محصد، أو عربة، والنقود لامتلاك هذه الأشياء. وقد تكون لاحظت انه في المدن الايطالية، على العكس، تصلح المنتوجات لامتلاك النقود. والكهنة ايضا والأساقفة، وحتى الأنظمة الدينية تحسب للنقود ألف حساب. ولهذا السبب بطبيعة الحال تتجلّى الثورة على السلطة في صور نداء للفقر، والفقراء الثائرون على السلطة هم اولئك الذين بقوا خارج حلقة النقود. وكل نداء للفقر يثير توترا كبيرا ومناقشات حادة، والمدينة كلها، من الأسقف الى الحاكم المدني، ترى من يلحّ في المناداة بالفقر عدوّا شخصيا لها. والمحققون يشتمّون عفونة ابليس حيث يثور أحدهم ضدّ براز ابليس. ولذا تفهم الآن أيضا ماذا كان يريد ايمارو أن يقول. كان الدير البنديكتي، في العهود الذهبية التي عاشتها الرهبانية، المكان الذي يراقب منه الرعاة قطيع المؤمنين. ايمارو يريد الرجوع الى التقاليد. إلا أن حياة القطيع قد تغيرت، ولا يمكن للدير أن يعود الى التقاليد «الى مجده ونفوذه الماضيين» إلا اذا قبل وضع القطيع الآن وفي هذه الربوع لا يقع من خلال السلاح أو من خلال روعة الطقوس، ولكن من خلال السيطرة على النقود، يريد ايمارو أن يصبح الدير بأكمله، والمكتبة ايضا، معملا، ومصنعا للنقود.

- وما علاقة هذا بالجرائم، أو بالجريمة ؟

- لست أدري بعد. ولكنني أريد الآن أن أصعد إلى قاعة الكتابة. هيّا.

كان الرهبان قد أخذوا في العمل، وكان الصمت يسيطر على قاعة الكتابة، ولكن ليس ذلك الصمت الذي يعقب راحة القلوب المجتهدة. وتلقّانا برينغاريو، الذي سبقنا منذ قليل، بارتباك بينما رفع الرهبان الآخرون رؤوسهم عن أعمالهم. كانوا يعلمون اننا جئنا هناك لاكتشاف شيء عن فينانسيو، وركّز اتجاه أنظارهم نفسه اهتمامنا على مكان فارغ، تحت نافذة تنفتح داخل المثمن الوسطي.

وبالرغم من شدة برد ذلك اليوم فقد كانت الحرارة في قاعة الكتابة كافية. فهي لا توجد صدفة فوق المطابخ، التي تدفع اليها بحرارة كافية، كما ان مدخنتي

الفرنين الموجودين في الاسفل تمرّان داخل العمودين الذين يحملان السلّمين الحلزونيين الموجودين في البرج الغربي والبرج الجنوبي. أما البرج الشمالي، في الجهة المعاكسة للقاعة الكبيرة، فلم يكن به سلّم بل مدفأة كبيرة تتّقد ناشرة دفئا لذيذا. علاوة عن ذلك كانت الأرضية مغطاة بالتبن، مما جعل وقع اقدامنا دون حسّ. بايجاز، كان الركن الأقل دفئا ذلك الموجود في البرج الشرقي. وفعلا، بما أن المقاعد الشاغرة كانت أوفر من عدد الرهبان العاملين هناك، لاحظت أنهم كانوا كلهم يتفادون الطاولات الموضوعة في تلك الناحية. وعندما تبين لي من بعد أن السلم الحلزوني الموجود في البرج الشرقي هو الوحيد الذي يقود، اضافة الى الأسفل أي الى قاعة الأكل، الى الأعلى أيضا أي الى المكتبة، تساءلت ان لم يخطّط حساب ذكي تدفئة القاعة، بحيث يعرض الرهبان عن التطفّل في تلك الناحية وتصبح مراقبة الدخول الى المكتبة اسهل بالنسبة الى حافظ المكتبة. ولكنني قد أكون غاليت في ظنوني، محاكيا في ذلك، كالقرد الساذج، أستاذي اذ فكرت في الحال أن ذلك الحساب لن يعطي نتائجه في الصيف - (وقلت في نفسي) - إلا إذا كان ذلك الجانب في الصيف معرضا أكثر للشمس واذن يبتعد عنه الجميع مرة أخرى.

كانت طاولة فينانسيو المسكين تدير ظهرها الى المدفأة الكبيرة، ومن المحتمل أن تكون من بين الأماكن المرغوب فيها أكثر. وكنت قد قضيت في ذلك الوقت جزءا يسيرا من حياتي في قاعة كتابة، ولكنني فيما بعد قضيت فيها جانبا كبيرا منها، وأعرف الآلام التي يحسّها الناسخ، أو المفهرس أو الباحث عندما يقضي على طاولته الساعات الشتائية الطويلة فتنكمش أصابعه على المرقم (مع الاعتبار أن بعد ستّ ساعات وفي حرارة عادية، تأخذ الأصابع عقال الراهب الأليم ويصيب الابهام وجع وكأن أحدا داسه) وهذا يفسر لماذا نجد في كثير من الأحيان على حاشية المخطوطات جملا تركها الكاتب كشهادة على شدة احتماله (أو عدم احتماله) منها مثلا « الحمد لله ان بعد قليل سينزل الليل، أو آه لو كان لدي كأس من الخمر !» وأيضا «الطقس بارد اليوم، والنور باهت، وهذا الجلد كلّه شعر، ليست الأمور كما ينبغي» وكما يقول مثل قديم، ثلاث أصابع تمسك بالقلم، ولكن الجسم كله يعمل. ويتألم.

ولكنني كنت اتحدث عن طاولة فينانسيو. كانت أصغر من الأخرى، مماثلة

لتلك الموضوعة حول الفسحة المثمنة الزوايا، معدّة للباحثين، بينما الطاولات الموضوعة تحت توافذ الجدران الخارجية كانت أكبر ومعدّة للمنمنمين وللناسخين وكان فينانسيو مع ذلك يستعمل المقرأ اذ من المحتمل أنه كان يطالع المخطوطات المعارة للدير والتي ينقل منها نسخة. وتوجد تحت الطاولة رفوف قليلة الارتفاع تراكمت عليها أوراق غير مجلدّة، وبما أنها كانت كلها باللاتينية استنتجت انها ترجماته الأخيرة. كانت مخطوطة بخط متسرّع ولا تكوّن صفحات كتاب بل كان ينبغي أن تعهد من بعد الى الناسخ والى المُنمنِم. لذا كانت قراءتها صعبة. وكانت بين الأوراق بعض الكتب اليونانية، وكتاب آخر باليونانية كان مفتوحا على المقرأ، وهو الكتاب الذي كان فينانسيو في الايام السابقة يقوم بترجمته. لم أكن أعرف بعد اليونانية ولكن أستاذي قال لي إن المؤلف يدعَى لوتشيانو وتروي القصة حكاية رجل تحول الى حمار. فتذكرت عندئذ خرافة مماثلة لأبوليو يُنصح المبتدئون بصرامة بعدم قراءتها. فسأل غوليالمو برينغاريو الذي كان بجانبنا :

- ما الذي حمل فينانسيو على هذه الترجمة ؟

- لقد طلبها من الدير سيد ميلانو مقابل حق الشفعة على انتاج الخمر في بعض الاراضي الموجودة نحو الشرق - وأشار بيده بعيدا. ولكنه لم يلبث أن أضاف : «لا يعني أن الدير يقوم بخدمات لصالح المدنيين بمقابل، ولكن المتعهّد عمل بكل جهده لاستعارة المخطوط اليوناني للدير من دوق البندقية الذي حصل عليه من امبراطور بيزنطة. وعندما يكون فينانسيو قد أنهى شغله تصنع منه نسختان، واحدة للمتعهد والأخرى لمكتبتنا.

فقال غوليالمو : «أنت لا ترى مانعا اذن من جمع مثل هذه الخرافات الوثنية»، فجاء عندئذ صوت من خلفنا يقول «ان المكتبة شاهد علي الحقيقة وعلى الخطأ».

كان يورج، ومرة أخرى أذهلني (ولكن كان علي أن أذهل مرات عديدة أخرى في الايام الموالية) للطريقة الفجائية التي كان يظهر بها ذلك الشيخ، وكأنه يرانا ولا نراه. وتساءلت أيضا ماذا كان يفعل ضرير في قاعة الكتابة، ولكنني تفطنت من بعد أن يورج كان دائما حاضرا في كل مكان من الدير. وفي الغالب يبقى في قاعة الكتابة، جالسا فوق كرسي قرب المدفأة، ويبدو انه يتابع كل ما يقع في القاعة. ذات مرة سمعته يسأل من مكانه بصوت مرتفع : «من الصاعد؟» متوجها بالكلام الى ملاخي، الذي كان متجها، بخطى خفّف التبن من وقعها، نحو المكتبة. وكان

كل الرهبان يجلّونه كثيرا وغالبا ما يستعينون به في فهم الفقرات الصعبة. يستشيرونه في التأويل، مستنيرين برأيه في كيفية رسم حيوان أو قديس. وينظر في الفراغ بعينيه المظلمتين، وكأنه يحدق في صفحات بقيت حيّة في ذاكرته، ثم يجيب بأن الرسل الكاذبين لهم مثل لباس الأساقفة بينما تخرج من أفواههم ضفادع، أو يذكر الأحجار التي ينبغي أن تزخرف بها أسوار القدس السماوية، أو يقول انه ينبغي رسم قبيلة الارسمابيين المتوحشين على الخريطة قرب أرض الكاهن جياني - ناصحا بعدم المبالغة في تزويق قبحهم - وانه يكفي أن يكون رسمهم رمزيا، يمكن معه التعرف عليهم دون تشويق أو نفور يصل الى الاضحاك.

وقد سمعته مرة ينصح أحد الشارحين بالكيفية التي يجب أن يحلل بها «La recapitulatio» في نصوص تيكونيو حسب تفكير القديس أغوسطينيوس، حتى يتفادى الهرطقة الدوناتية. ومرة أخرى سمعته يعطي نصائح حول كيفية التمييز، عند الشرح، بين الهراطقة والمنشقين. أو يدل أحد الباحثين المحتارين على الكتاب الذي ينبغي أن يبحث عنه في قوائم المكتبة، وعلى التقريب في أية ورقة سيجده، مؤكداً له أن حافظ المكتبة سيسلمه اياه دون شك، لأنه عمل مستوحى من الاله. أخيرا، سمعته مرة يقول عن كتاب، أن لا فائدة في البحث عنه، ولو أنه موجود فعلاً في القائمة، ولكن الفئران قد أتلفته منذ خمسين سنة، والآن ما ان تمسه أصابع اليد حتى يتحول الى غبار. لقد كان باختصار ذاكرة المكتبة نفسها وروح قاعة الكتابة. وكان في بعض الأحيان يحذر الرهبان عندما يسمعهم يتحادثون «سارعوا بترك بيّنة على الحقيقة، لأن الآجال قريبة!» وكان يلمّح الى مجيء المسيح الدجّال.

قال يورج اذن : «ان المكتبة شاهد على الحقيقة وعلى الخطأ» فقال غوليالمو : «أكيد أن أبوليو ولوتشيانو مذنبان، اذ ارتكبا الكثير من الأخطاء. ولكن هذه الخرافة تخفي تحت غشاء أحداثها الخيالية موعظة كبيرة، لأنها تعلّم كم يدفع ثمن الأخطاء غالياً. وعلاوة على ذلك، أظن أن قصة الانسان الذي يتحول إلى حمار ترمز إلى تحول الروح التي تقع في الخطيئة».

فقال يورج : «قد يكون»».

- ولكنني فهمت الآن لماذا كان فينانسيو أثناء المناقشة التي حدثني عنها بالأمس يبدي اهتماما كبيرا بمسائل الملهاة. فعلا. الخرافات من هذا النوع أيضا

يمكن أن تعادل هزليات القدامى. فجميعها تحكي عن أشخاص لا يوجدون في الحقيقة، كما هو الشأن في المأساة ولكن، كما يقول ايزيدورو، هي خيال فقد استمد الشعراء اسم "favolo" من فعل "fando" س لأنه لا يعني أشياء وقعت حقيقة بل صنعها الخيال».

في البداية لم أفهم لماذا توغل غوليالمو في تلك المجادلة العلمية ومع رجل يبدو أنه كان لا يحبّذ مثل تلك المواضيع، ولكن جواب يورج أظهر لي كم كان أستاذي دقيقا، اذ قال يورج عابسا : « لم نتناقش ذلك اليوم حول الملهاة بل فقط حول اباحة الضحك». بينما كنت أتذكر جيدا انّ فينانسيو عندما أشار الى تلك المناقشة، وكان ذلك بالأمس، أكد يورج انه لم يعد يتذكرها.

فقال غوليالمو دون مبالاة : «آه كنت أظن انكم تحدثتم عن أكاذيب الشعراء وعن الأحاجي الثقافية. . .»

فقال يورج بجفاء: لقد تحدثنا عن الضحك. ان الهزليات كتبها الوثنيون لحمل المتفرجين على الضحك، ولم يعملوا صالحا. ان يسوع سيّدنا لم يقصّ قط هزليات أو خرافات، وانما كان يعطي الأمثال الشفافة المعنى ليعلّمنا من خلال استعارتها كيف نستحق الفردوس، وليكن كذلك. آمين.

فقال غوليالمو : « انني أتساءل لماذا تعارض بهذا الشكل فكرة ان المسيح ضحك في يومٍ ما. انني أظن ان الضحك دواء نافع، كالحمّامات، لمداواة المزاج وأمراض الجسم الأخرى، خاصة منها الكآبة»

فقال يورج : «الحمامات شيء نافع، وأكينات نفسه ينصح بها لابعاد الحزن، الذي قد يصبح هوسا مؤذيا ان لم يكن سببه كرب يمكن التخلص منه عن طريق الجسارة. الضحك يزعزع الجسم، ويشوه ملامح الوجه ويجعل الانسان شبيها بالقردة».

فقال غوليالمو : القردة لا تضحك، ان الضحك من خاصيات الانسان، وهو دليل على عقلانيته.

– الكلام ايضا من دلائل العقلانية الانسانية، وبواسطة الكلام يمكن التجديف. ما كل ما هو من خصائص الانسان يكون بالضرورة نافعا. الضحك دليل على البلاهة. من يضحك لا يؤمن بالشيء الذي أضحكه ولكنه مع ذلك لا يبغضه. فالضحك من الشرّ اذن يدلّ على عدم الاستعداد لمكافحته، والضحك من الخير

يدل على نكران القوة التي بفضلها ينشر الخير منافعه. ولذا تقول القاعدة «إن الدرجة العاشرة في التواضع تكمن في عدم الاستسلام بسهولة للضحك، وفعلا قد كتب: ان «الغبّي بضحكه يريد أن يعجب الآخرون بصوته».

فقاطعه أستاذي قائلا: «يقول كنتيليانو ان الضحك غير مقبول في خطب المدح، لاضفاء الوقار، ولكنه مشجع في عدة حالات أخرى. وينوه تاسيت بسخرية كالبورنيو بيزوني بينما كتب بلينيو الشاب يقول «في الحقيقة أضحك أحيانا وأمزح وألعب، فأحس بنفسي انسانا...».

فردّ يورج قائلا « كانوا وثنيين، فالقاعدة تقول «في الحقيقة المزاح والكلمات الخاوية والجمل التي تبعث على الضحك محجّرة أينما كانت تحجيرا أبديا، ولا يسمح لمريد أن يتلفظ بمثل تلك الأحاديث».

- ولكن حتى بعدما انتشرت كلمة المسيح على الأرض يقول سينيزيودي تشيريني ان الاله عرف كيف يمزج الهزلي بالمأساوي، ويقول سباستيانو عن الامبراطور أدريانو، الذي كان رجلا ذا أخلاق عالية وروح بطبيعتها مسيحية، انه عرف كيف يمزج لحظات الفرح بلحظات الجدّ. وأخيرا ينصح أوزونيو بالاعتدال في مزج الجدّ بالهزل.

- ولكن باولينو دانولا وكيلمانتي دي أليساندريا يحذراننا من تلك البلاهات، ويقول سولبيتشيو سيفيرون إن القديس مارتينو لم يره أحد قط فريسة للغضب ولا فريسة للضحك.

فقال غوليالمو: «ولكنه يذكر لنفس القديس بعض الأجوبة المفعمة بالظرافة».

- كانت اجوبة في محلها وعميقة المعاني، ولم تكن سخيفة. وقد كتب القديس أفراييم يحث الرهبان على الامتناع عن الضحك، وفي كتابة «سلوك الرهبان وعاداتهم» ينصح بتفادي البذاءة والاحتداد اذ هما كسمّ الأصلال !

- ولكن ايدالبارتو قال «يُسمح بالمزاح بعد الامور الجدية، إلا أنه ينبغي توخي طرقا مهذبة»، بينما سمح جيوفاني دي سالسبوري بشيء من الحبور. وأخيرا في الكتاب الرابع من العهد القديم، الذي أخذت منه الفقرة التي تنصها قاعدتكم يقر سليمان بالضحك الصامت، ضحك النفس المطمئنة.

- لا تطمئن النفس إلاّ عندما تتأمل في الحقيقة وتستمتع بالخير الذي فعلته، ولا ينبغي أن نضحك من الحقيقة والخير. ولذا لم يكن المسيح يضحك.

فالضحك دافع الى الشك.

- ولكنه من الصواب أحيانا أن يشك الانسان.

- لا أرى داعيا لذلك. عند الشك يجب الرجوع الى ذوي المعرفة، الى كلمات أب أو عالم، وتنتهي كل دواعي الشك. انك تبدو لي متشبعا بأفكار قابلة للجدال، كأفكارمنطقيي باريس. ولكن القديس برناردو عرف كيف يتدخل ضد ذلك المخصي ابيلاردو الذي كان يريد اخضاع كل المسائل الى فحص قاسٍ لا حياة فيه، امتحان عقل لا تنيره الكتب المقدسة، جاهرا بأحكامه : كذا وليس كذا. اكيد أن من يقرّ بهذه الأفكار الخطرة يمكن أيضا أن تعجبه لعبة الغبي الذي يضحك ممّا ينبغي عليه معرفة حقيقته الوحيدة، والتي قيلت وستقال مرّة واحدة إلى الأزل. وهكذا بضحكه يقول الغبي بصفة ضمنية «الربّ غير موجود».

- يورج الجليل، انك تبدو لي غير منصف عندما تنعت ابيلاردو بمخصي، أنت تعلم انه وصل الى تلك الوضعية التعيسة من جراء خبث الآخرين...

- للخطايا التي ارتكبها. لغرور ايمانه بعقل الانسان. وهكذا سخروا من ايمان الناس البسطاء، واستبطنوا أسرار الاله (أو حاولوا، أغبياء اؤلئك الذين سعوا الى ذلك) ودرسوا بجسارة مسائل تخص الأشياء السامية ساخرين من الآباء لأنهم رأوا أن مثل تلك المسائل ينبغي تركها مغلقة خيراً من حلّها.

- اني لا أوافقك على ذلك، يا يورج الجليل، فالله يريدنا أن نتدبّر بعقولنا العديد من الأشياء التي تركها الكتاب المقدس لحرية اختيارنا. وعندما يدعونا احد الى الايمان بفكرة ينبغي علينا أولا أن ننظر ان كانت مقبولة. لأن الله خلق لنا الفكر وما يستحسنه الفكر الالٰهي، الذي لا نعرف عنه إلاّ ما نستنتجه، بقياس التمثيل وغالبا بالنفي، من مناهجنا الفكرية. ولذا ترى انه في بعض الاحيان، لدحض القيمة الزائفة لفكرة منافية للعقل، حتى الضحك يمكن أن يكون أداة صالحة. غالبا ما يصلح الضحك لادخال البلبلة على السفلاء ولاظهار غباوتهم، يحكى عن القديس ماورو أنه، لما وضعه الوثنيون في الماء الساخن لتعذيبه، اشتكى أن الحمام كان باردا، فوضع الوالي الوثني يده بغباوة ليتعرّف بنفسه، فاحترق. وحسنا فعل ذلك القدّيس الشهيد الذي سخر بتلك الصفة من أعداء الدين.

فقال يورج بضحكة استهزاء : «حتى في الحكايات التي يقصها المبشرون نجد الكثير من النوادر. ان القديس الذي يلقى العذاب في الماء الساخن، يتألم من

أجل المسيح، ولا يلعب أدوارا سخيفة للوثنيين».

فقال غوليالمو : «أرأيت؟ ان هذه الحكاية تبدو لك منافية للعقل وتتّهمها بالسخافة! ومع ذلك انت تضحك من شيء حتى وان كنت صامتا ومراقبا حركة شفتيك وتريدني أنا أيضا أن لا أعتبره جادا. اضحك من الضحك، ولكن اضحك».

فقام يورج بحركة ضيق وقال : «بتلاعبك حول الضحك تجرّني إلى أحاديث فارغة. ولكنك تعلم أن المسيح لم يكن يضحك».

– لست واثقا من ذلك. عندما كان يدعو الفريسيين الى رمي الحجارة الأولى، وعندما كان يسأل لمن الصورة على قطعة النقود التي تدفع كضريبة، أو عندما كان يتلاعب بالألفاظ ويقول : «Tu es petrus» فأنا أظن انه كان يقول أشياء فطنة، لادخال البلبلة على عقول الآثمين ولتشجيع أصحابه. ويتحدث أيضا بفطنة عندما يقول لقيافا «لقد قلت أنت ذلك»، وعندما يشرح جيرولامو كتاب إرميا، حيث يقول الرب الى القدس «لقد عرّيت فخذيك وعجزك أمامك» ويفسر ذلك بقوله «سأعري فخذيك وأظهر عجيزتك».

الربّ أيضا يخاطب عن طريق التلاعب بالألفاظ لادخال البلبلة على اؤلئك الذين يريد عقابهم. وأنت تعلم أنه في أوج الصراع بين الكلونيين والشيستارشنسيين، اتهم الأولون الثانين، للسخرية منهم، بعدم لبس السراويل. ويحكى في كتاب «مرآة الحمقى» عن الحمار برونيلّو الذي تساءل ماذا يحدث لو رفع الريح الغطاء في الليل ورأى الراهب عورته...

فضحك الرهبان من حولنا بينما احتدّ غضب يورج الذي قال : «انك تجرّني ورفاقي الرهبان الى حفل المجانين. اني أعلم ان الفرنشسكانيين اعتادوا استعمال بلاهات من هذا النوع لكسب ودّ الجماهير. ولكنني أقول لك عن هذه الألعاب السخيفة ما يقوله بيت سمعته عن أحد مبشريكم : «لقد أخرج دبرك صوتا فظيعا».

كان التأنيب على شيء من الحدّة. صحيح ان غوليالمو كان نوعا ما وقحا، ولكن يورج يتهمّه الآن باصدار الضراط من فمه. وتساءلت ان لم يكن ذلك الردّ الصارم يعني الدعوة، من طرف الراهب الشيخ، للخروج من قاعة الكتابة. ولكنني رأيت غوليالمو، الذي كان منذ قليل متحمّسا للجدال، يصبح على غاية الوداعة قائلا :

- اني أعتذر اليك، يورج الجليل، لقد خان فمي أفكاري. لم أكن أريد الوصول إلى عدم الاحترام تجاهك. قد تكون أنت على صواب وأنا المخطيء.

تجاه ذلك التواضع البديع، أصدر يورج همهمة قد تكون تنم عن الرضى أو العفو، ولم يجد من عمل إلاّ العودة إلى مكانه بينما أخذ الرهبان، الذين كانوا قد اقتربوا شيئا فشيئا أثناء المناقشة، في الرجوع الى طاولات عملهم. وانحنى غوليالمو من جديد على طاولة فينانسيو ليتابع البحث بين الأوراق. باجابته المتواضعة ربح غوليالمو بعض الثواني من الهدوء، وما رآه أثناء تلك الثواني القليلة أوحى اليه بأبحاث الليلة المقبلة.

كانت فعلا بضع ثواني، اذ اقترب منا بانشيو بدعوى أنه نسي مرقمه فوق الطاولة عندما التحق بنا للاستماع الى الحوار مع يورج، وهمس إلى غوليالمو أنه يرغب في التحدث اليه في أقرب وقت، ضاربا موعدا وراء قاعات الاستحمام، على أن يبتعد هو أولا وسيلحق به بعد قليل.

فتردد غوليالمو لحظات ثم نادى ملاخي، الذي تابع كل ماجرى دون أن يترك طاولته قرب الفهرس، وترجّاه، بصفته مكلفا بمهمة من طرف رئيس الدير (مؤكدا كثيرا على ذلك الامتياز) أن يضع أحدا لحراسة طاولة فينانسيو، لانه يرى أنه من الصالح لأبحاثه أن لا يقترب منها أحد طوال ذلك اليوم، الى أن تتسنى له العودة اليها. وقال ذلك بصوت مرتفع، حتى لا يلزم فقط ملاخي بمراقبة الرهبان ولكن ليلزم ايضا الرهبان أنفسهم بمراقبة ملاخي. ولم يجد حافظ المكتبة بدّا من الموافقة فابتعدنا عندئذ أنا وغوليالمو.

وبينما كنا نعبر المبقلة مقتربين من قاعات الاستحمام، الموجودة خلف مبنى المستشفى، قال غوليالمو ملاحظا :

-- يبدو أن الكثيرين هنا لا يريدوننا أن نعثر على شيء يوجد فوق أو تحت طاولة فينانسيو.

- وماذا يكون ذلك الشيء ؟

- يبدو لي أن حتى الذي لا يعجبه ذلك ليس له به علم.

- اذن بانشيو يريد فقط ابعادنا عن قاعة الكتابة، وليس لديه شيء يريد قوله؟

فقال غوليالمو : «هذا ما سنعرفه حالا»

وفعلا بعد قليل التحق بنا بانشيو.

سَادسة

وفيه يروي بانشيو قصة غريبة تنكشف من خلالها أشياء
مزرية تخص حياة الدير

ما قاله بانشيو كان غامضا نوعاً ما. يبدو حقا أن غايته من ذلك كانت ابعادنا عن قاعة الكتابة لا غير. ومع أن أقواله كانت لا تبرّر ذلك الحرص على التحادث مع غوليالمو على انفراد فقد كشف أطرافا من حقيقة أوسع كان يعرفها.

قال لنا أنه، في الصباح، كان ممتنعا شيئا ما، ولكنه الآن، بعد تفكير عميق، رأى أن من واجبه أن يُطلع غوليالمو على كل الحقيقة. خلال تلك المناقشة «المشهورة» حول الضحك، لمّح برينغاريو الى «Finis Africae» ماذا يكون؟ كانت المكتبة مليئة بالأسرار، وخاصة بكتب لم تُسلم أبدا للرهبان لقراءتها. وقد أثرت على بانشيو كلمات غوليالمو حول الامتحان العقلاني للقضايا. فهو يرى ان الراهب الدارس له الحق في معرفة كل ما تحفظه المكتبة، وقال كلمات ملتهبة ضدّ مجمع سواسون الذي أدان أبيلاردو. وبينما كان يتحدث تبين لنا أن ذلك الراهب الذي مازال شابا والذي يسلّي فكره بدراسة البلاغة، كانت تأخذه الرغبة الاستقلالية، ويصعب عليه قبول القيود التي تفرضها قواعد الدير على حبّ اطلاعه. لقد تعلّمت دائما أن لا أثق بهذا النوع من حبّ المعرفة ولكنني أعرف جيدا أن أستاذي كان يحبذّ ذلك السلوك، ولاحظت أنه يتعاطف مع بانشيو ويثق بأقواله. باختصار، قال بانشيو أنه لا يعرف ماهي الاسرار التي تحادث في شأنها أدالمو وفينانسيو وبرينغاريو، وأنه سيكون سعيدا لو سلّط غوليالمو النور من خلال تحقيقه في تلك القضية المحزنة على أساليب تسيير المكتبة، وأنه يرجو أن يستمدّ منها أستاذي، مهما كانت الوسائل المستعملة لفكّ عقدة القضية، عناصر لتحريض رئيس الدير على التخفيف من حدّة المراقبة الفكرية التي تثقل كاهل الرهبان الذين

جاؤوا من أماكن نائية، كما جاء هو، قصد تغذية عقولهم بالكنوز التي تحفظها المكتبة في أرجائها الفسيحة.

وأظن أن بانشيو كان صادقا بخصوص الأشياء التي قال انه ينتظرها من التحقيق. ولكن من المحتمل انه كان يريد في نفس الوقت، كما توّقع غوليالمو، ان يدّخر لنفسه فرصة التفتيش في طاولة فينانسيو قبل أي شخص آخر، اذ كان الفضول يلتهمه وكان مستعّدا، كي يبقينا بعيدا عنها أن يعطينا مقابل ذلك معلومات أخرى هي الآتية :

كان برينغاريو، والعديد من الرهبان يعلم ذلك الآن، فريسة عاطفة جنونية نحو أدالمو، نفس العاطفة المشؤومة التي عاقبها غضب الاله في سدوم وعامورة. هكذا كان تعبير بانشيو، ربّما لصغر سني. ولكن من عاش سن مراهقته في دير يعرف، حتى وان احتفظ بعفّته، انه سمع بمثل تلك الميول، وفي بعض الاحيان كان عليه أن يحترس من أغواء من كان عبدا لها. ألم أتلقّ، عندما كنت راهبا صغيرا، في «مالك». من طرف راهب كبير السن ورقات عليها أبيات يهديها في العادة من هو غير راهب إلى امرأة؟ فالنذر الرهباني يحفظنا بعيدا عن بؤرة الرذائل التي هي جسد المرأة، ولكنه غالبا ما يحملنا قريبا جداً من زلاّت أخرى. وأخيرا، هل يمكنني أن أخفي عن نفسي أن شيخوختي نفسها يثيرها إلى الآن شيطان الظهيرة عندما يتوانى نظري، في الخورس، على وجه مبتدئ أمرد، صاف وغضّ كأنه طفلة؟

أقول هذه الأشياء، لا لأدخل الشكّ على الاختيار الذي اتبعته بتكريس نفسي للحياة الرهبانية، ولكن لأبرّر زلاّت الكثيرين من الذين ثقل على كاهلهم هذا الحمل المقدّس. وقد يكون لتبرير جرم برينغاريو الفظيع. ولكن يظهر، حسب بانشيو، أن هذا الراهب كان يمارس رذيلته بطريقة أكثر خساسة، مستعملا سلاح المساومة للحصول من الآخرين على ما لا تنصح العفة والسمعة باعطائه.

كان الرهبان اذن يتهكّمون منذ مدة من النظرات الرقيقة التي كان برينغاريو يلقيها على أدالمو، الذي يبدو أنه كان كثير الملاحة، بينما كان أدالمو مغرما جدّا بعمله ولا يجد متعة في سواه، فكان لا يهتم كثيرا بشغف برينغاريو به. ولكن من المحتمل، من يدري، أنه لم يتفطن إلى أنه في قرارة نفسه كان يميل إلى نفس الرذيلة. على كلّ، قال بانشيو انه فاجأ حوارا بين أدالمو وبرينغاريو يشير فيه

برينغاريو الى سّر كان أدالمو يرغب في معرفته ويعرض عليه تلك المساومة الخسيسة التي يمكن أن يتخيلها أبسط قارئ. ويظهر أن بانشيو سمع من شفتي أدالمو كلمات موافقة، قالها بنبرة تكاد تعبر عن الارتياح، وتجرأ بانشيو على القول بأن أدالمو ربّما كان لا يريد في نهاية الأمر إلا ذلك، وأنه كان يكفيه أن يجد عذرا غير الشهوة الجنسية للموافقة. وأضاف بانشيو مستنتجا من ذلك دليلا على أن سّر برينغاريو كان يخصّ أشياء العلم الغامضة، بحيث يمكن لأدالمو أن يتوهّم أنه يقبل على خطيئة الجنس لارضاء رغبة الفكر. وأضاف بانشيو بابتسامة قائلا انه كم من مرّة كانت رغبات الفكر تهيجه بحدّة تجعله قد يقبل لاشباعها، ارضاء شهوة الآخرين الجنسية ولو ضدّ شهوته هو.

ثم سأل غوليالمو : «أليست هناك حالات قد تقوم فيها بأشياء جديرة باللوم لو أتيح لك أن تحصل على كتاب تبحث عنه منذ سنين؟» فأجاب غوليالمو : «ان الحكيم والطاهر سيلفاسترو الثاني، قبل الآن بقرون، اهدى لأحدهم محلّقة ثمينة جدا مقابل الحصول على مخطوط، أظنه، لستاتسيو أو للوكانو- ثم أضاف بحذر: ولكنها كانت محلّقة، لا عفّته».

ووافقه بانشيو قائلا ان حماسه قد جرّه بعيدا، ثم تابع القصة. في الليلة التي سبقت موت أدالمو، تبع الاثنين، يحدوه في ذلك الفضول. ورآهما يتجهان بعد صلاة النوم نحو قاعة النوم. وانتظر طويلا تاركا باب حجرته مفتوحا، ولم تكن بعيدة عن حجرتيهما، ورأى بوضوح أدالمو، عندما خيّم الصّمت على نوم الرهبان، وهو يتسلل الى حجرة برينغاريو. وبقي ساهرا، دون ان يأخذه النوم إلى أن سمع باب حجرة برينغاريو يفتح، وأدالمو يخرج منها وهو يكاد يجري، بينما صديقه يحاول الامساك به. ثم تبع برينغاريو ادالمو الذي نزل الى الطابق السفلي. وتبعهما بانشيو بحذر وعند مدخل الرواق السفلي رأى برينغاريو مختبئا في ركن وهو يرتعد بينما كان يحدق في باب حجرة يورج. لقد أدرك أن أدالمو رمى بنفسه عند قدمي أخيه الراهب الشيخ ليعترف له بخطيئته. وكان برينغاريو يرتعد بكل فرائصه لعلمه ان سّره قد أفشي، حتى ولو كان في كنف سريّة الاعتراف.

ثم خرج أدالمو شاحب الوجه، وأبعد عن نفسه برينغاريو الذي كان يحاول التحدث اليه، وهرع خارج قاعة النوم، طائفا بصدر الكنيسة ثم دخل الى الخورس من الباب الشمالي (الذي يبقى دائما مفتوحا أثناء الليل). ومن المحتمل انه كان

يريد أن يصلي. وتبعه برينغاريو، ولكن دون الدخول الى الكنيسة، وبقي يطوف بين القبور وهو يفرك يديه من القلق.

لم يكن بانشيو يعرف ماذا كان يجب أن يفعل عندما تفطن إلى وجود شخص رابع يتحرك قريبا من هناك، وقد تبع هو أيضا الاثنين ومن المؤكد أنه لم ينتبه إلى وجود بانشيو، الذي كان واقفا وراء جذع شجرة بلّوط مزروعة على حدود المقبرة. كان فينانسيو. وعندما رآه برينغاريو اختبأ بين القبور ودخل فينانسيو هو الآخر الى الخورس. وعندها عاد بانشيو الى قاعة النوم، خوفا من أن يكتشفه أحد. وفي الصباح عثر الرّعاة على جثة أدالمو في سفح الهاوية. ولم يكن بانشيو يعرف أكثر من ذلك.

كانت ساعة العشاء قد اقتربت، فتركنا بانشيو وبقينا قليلا من الوقت وراء قاعات الاستحمام، ثم تجولنا بضع دقائق في المبقلة، ونحن نفكّر في تلك المكاشفات الغريبة.

وفجأة قال غوليالمو «نبق». وانحنى كي ينظر من قريب الى نبتة، تعرّف على نوعها في ذلك اليوم الشتائي من خلال جذوعها. «إن نقيع القشرة نافع لمداواة البواسير. وتلك الأخرى تسمّى «شبيّط قطبي» وكمّادة من جذوره الطازجة تدمل اكزيم الجلد».

فقلت له : «انك أبرع من سيفيرينو. ولكنني أريد الآن أن أسمع رأيك في ما سمعناه».

– يا عزيزي أدسو، يجب أن تتعلّم كيف تستعمل عقلك للتفكير. قد يكون ما قاله لنا بانشيو صحيحاً. فقصّته تتطابق مع قصة برينغاريو التي سمعناها في أول هذا الصباح وان كانت تشوبها الهلوسة. حاول أن تعيد تركيب الحادثة : برينغاريو وأدالمو يقومان معا بشيء فظيع جدا، قد فهمنا ما هو، ومقابل ذلك يطلع برينغاريو أدالمو على سرّ سيبقى، للأسف، سرّا. وأدالمو، بعد ارتكابه جرماً ضدّ العفّة وضدّ قواعد الطبيعة، لا يفكر إلاّ في الائتمان لأحد يستطيع أن يمنحه الغفران، ويسرع الى يورج، الذي له طبع صارم جداً، وقد تبيّن لنا ذلك. ومن المؤكد أنه عنّف أدالمو بشدّة، ولعلّه رفض منحه الغفران، أو ربّما فرض عليه القيام بتوبة مستحيلة، لا ندري. ولن يقوله لنا يورج أبدا. الأمر الحاصل هو أن أدالمو جرى الى الكنيسة ليركع أمام المذبح، ولكنه لم يقدر على تهدئة شعوره

بالذنب. عند ذلك اقترب منه فينانسيو. لا نعرف الحديث الذي دار بينهما. قد يكون أدالمو أعلم فينانسيو بالسرّ الذي حصل عليه كهدية (أو كمقابل) من طرف برينغاريو، والذي لم يعد يهمّه منه الآن شيء، اذ أصبح يملك سرّا يروّعه ويحرقه أكثر. ماذا يحدث لفينانسيو؟ من المحتمل انه كان يحرّكه نفس الفضول الذي يحرّك اليوم صديقنا بانشيو، ومكتفيا بما عرف، يترك أدالمو لتوبيخ ضميره. ويرى أدالمو نفسه وحيدا فيزمع على الانتحار، ويخرج يائسا الى المقبرة، حيث يلاقي برينغاريو، ويقول له كلمات مروّعة، ويذكّره بمسؤوليته ويناديه أستاذه في الفحش. أظن أن قصة برينغاريو، مجردة من كل هلوسة، هي فعلا صحيحة. فأدالمو يعيد عليه نفس الكلمات اليائسة التي قد يكون سمعها من يورج. وهكذا يذهب برينغاريو مرتبكا من ناحية وأدالمو يذهب لينتحر من الناحية الأخرى. ثم يأتي الباقي، الذي كدنا أن نكون شاهدين عليه. ويظن الجميع أن أدالمو مات مقتولا، فيستنتج فينانسيو من ذلك أن سرّ المكتبة أعظم ممّا كان يظنّ، فيتابع البحث وحده، الى أن أوقفه أحدهم، قبل أو بعد ان اكتشف ما كان يريد ».

ـ من يكون قتله؟ برينغاريو؟

ـ قد يكون، أو ملاخي، الذي أوكلت اليه حراسة الصّرخ. أو شخص آخر. يمكن الشكّ في برينغاريو لأنه مرتاع ولأنه يعرف أن فينانسيو على علم بسرّه، ويمكن الشكّ في ملاَخي : فهو حارس حرمة المكتبة، وعندما يكتشف أن أحدهم قد أنتهكها يقتله. ويورج يعرف كل شيء عن كل واحد، ويملك سرّ أدالمو، ولا يريد أن أكتشف أنا ما يمكن أن يكون فينانسيو قد وجده... الكثير من الوقائع تنصح بالارتياب فيه. ولكن قل لي أنت، كيف يقدر رجل أعمى على قتل رجل آخر في عنفوان قوّته، وكيف يمكن لشيخ، ولو صحيح البنية، أن يحمل الجثة ويضعها داخل الجرّة. ولكن في آخر الأمر، لماذا لا يكون القاتل بانشيو نفسه؟ يمكن أن يكون كذب علينا، وتحرّكه أهداف منكرة. ولماذا نحدّد المشبوه فيهم فقط من أولائك الذين شاركوا في الحوار حول الضحك؟ يمكن أن تكون للجريمة دوافع أخرى، لا دخل لها البتّه في المكتبة؟ على كلّ حال نحتاج لشيئين: أن نعرف طريقة الدخول الى المكتبة أثناء الليل، وان نحصل على سراج. بالنسبة الى السراج عليك أنت به. طف بالمطبخ أثناء الأكل وخذ واحدا...

ـ سرقة؟.

ـ استعارة، لعزّة اللّه ومجده.

ـ اذا كان الأمر هكذا، اترك ذلك لي.

ـ أحسنت. في ما يخص الدخول الى الصرح، قد رأينا من أين أطلّ ملاخي ليلة أمس. سأقوم اليوم بزيارة الى الكنيسة وإلى ذلك المصلّى بالخصوص. في ظرف ساعة سنذهب الى المائدة. بعد ذلك لدينا اجتماع مع رئيس الدير. وقد سمح لك بالحضور، لأنني طلبت كاتبا يتولّى تدوين ما سنقوله.

تاسعة

وفيه يبدو رئيس الدير فخورا بما يمتلكه ديره من كنوز وخائفا من الهراطقة، وأخيرا يتساءل أدسو إن لم يخطئ عندما ذهب للتجوّل عبر الدنيا.

وجدنا رئيس الدير في الكنيسة أمام المذبح الكبير. كان يتابع أعمال عدد من المبتدئين قد أخرجوا من بعض الخبايا مجموعة من الأوعية المقدّسة، والكؤوس والصواني، والمصامد، وصليباً لم أكن قد رأيته خلال فرض الصباح. ولم أقدر على كتمان صيحة اعجاب أمام الجمال الذي تشعّ به تلك الأمتعة المقدسة. كنا في تمام منتصف النهار، وكان النور ينفذ متدفقا من نوافذ المحراب، وخاصّة من نوافذ الواجهات، مكوّناً شلالات بيضاء، كأنها سيول روحانية من جوهر رباني، تصبّ كلها في نقاط مختلفة من الكنيسة، غامرة المذبح نفسه.

وكانت الأوعية والكؤوس وغيرها من الأشياء تكشف عن مادتها : بين صفرة الذهب، وبياض العاج الناصع وشفافية البلّور رأيت الأحجار الثمينة من كل حجم تشعّ بمختلف الألوان، وتعرّفت من بينها على الياقوت الزعفراني، والزمرد الأصفر، والياقوت الأحمر، واللازورد، والزمرّد، والزبرجد، والجزع، والكهرمان، واليشب، والعقيق اليماني. وفي نفس الوقت تفطنت الى شيء لم ألاحظه في الصباح، لما كنت عليه من الانخطاف أثناء الصلاة ثم من الاضطراب والفزع : كان ستار المذبح والثنايا الثلاث التي تحيط به كالتاج من الذهب الخالص، وأخيرا كان المذبح كلّه يبدو من ذهب من أيّ جهة نظرت اليه.

وابتسم رئيس الدير من ذهولي، وقال متلفتا اليّ والى استاذي :«ان هذه النفائس التي ترونها، وأخرى سترونها فيما بعد، هي تراث تركته قرون من التقوى والعبادة، وهي شاهد على هيبة هذا الدير وقداسته. أمراء وعظماء من كل أطراف الدنيا، رؤساء أساقفة ضحّوا لهذا المذبح وللأشياء التابعة له بخواتم مناصبهم

وبالذهب والأحجار التي تدلّ على عظمتهم، وارادوها هنا لتذوّب من جديد تعظيما لمجد الاله ولبيته هذا. فبالرغم من أن الدير شهد اليوم حدثا آخر محزنا، لا يمكننا أن ننسى، أمام ضعفنا، قوة العلّي وجلاله. فالاحتفالات بالمولد المقدس تقترب، وبدأنا في تنظيف الأشياء المقدسة، حتى نحتفل بمولد المخلّص بكل الابهة والفخامة التي يستحقها ويريدها. ينبغي أن يظهر كلّ شيء في تمام روعته...». ثم أضاف محدقا في غوليالمو، وفهمت لماذا يلحّ بذلك الزهو على تبرير عمله. «لأننا نظن أنه من النافع واللائق أن لا نخفي الهبات التقديسية، بل بالعكس، أن نعلنها جهرا».

فقال غوليالمو بأدب: «أكيد إن سموّكم يرى أنه ينبغي أن يمجّد الاله بهذه الابهة، فقد شارك ديركم في حمده بأبّهة لا يقدر عليها غيركم»

فقال رئيس الدير: وهكذا يجب أن يكون. فان كانت الجرار والقناني والمهارس الذهبية تستعمل بادارة الاله أو بأمر من الأنبياء لتلقّي دم الماعز أو العجل أو البقرة في هيكل سليمان، فينبغي اذن أن نعدّ الأوعية الذهبية المرصعة بالأحجار الكريمة وكل ما هو نفيس من بين الأشياء التي خلقت، كي نستعملها باجلال دائم وخشوع خالص لتلقّي دم المسيح! فلو خلقنا ثانية من مادّة تكون نفس المادة التي خلقت منها الملائكة والساروفيمون لبقينا دائما غير جديرين بخدمة ضحية لا يقدر اللسان على وصف عظمتها...».

فقلت: آمين،

- يعترض الكثيرون بقولهم ان عقلا ملهما بالقداسة، وان قلبا صافيا ونية مفعمة بالايمان تكفي لأداء هذا الفرض المقدس. ونحن أول من يؤكد بوضوح وثبات ان ذلك امر أساسي: ولكننا مقتنعون ان التكريم ينبغي أن يكون أيضا من خلال الزخرف الخارجي للأشياء المقدسة، اذ في نهاية الأمر، يكون من العدل واللائق ان نخدم مخلّصنا في كل شيء، بكمال، لأنه، هو لم يرفض أن يعنى بنا في كل شيء بكمال وبدون استثناء».

فأيده غوليلمو قائلا: لقد كان هذا أيضا رأي كبار رجال نظامكم، وأذكر أشياء على غاية من الروعة كتبها الأب العظيم والجليل سوغيرو، حول زخرف الكنائس».

فقال رئيس الدير: وهو كذلك. أرأيت هذا الصليب. ان زخرفه لم يتمم بعد»

وأخذه بين يديه بحب لامتناه وتأمل فيه بوجه يُضيئه نور الطوبى ـ «تنقصه هنا بعض الدّرر، وما وجدتها من الحجم المناسب. لقد قال فيما مضى القديس أندريا متحدثا عن صليب الجلجلة انه مزيّن بأعضاء المسيح كما لو كان بالدرر، وبالدرر ينبغي أن تزخرف هذه الصورة المتواضعة من تلك المعجزة العظيمة. حتى ولو أنني رأيت أنه من السانح أن أرصّع، في هذه النقطة، فوق رأس المخّلص نفسه، أروع ماس رأيته في حياتي ـ ومسّح بيدين ورعتين، بأصابعه الطويلة البيضاء على أنفس أجزاء اللوح المقدس، أو بالأحرى العاج المقدس، اذ كان ذراعا الصّليب مصنوعين من تلك المادّة الرائعة.

«انني، عندما أستمتع برؤية كل روائع هذا البيت المقدس، وينتزعني سحر هذه الأحجار المختلفة الألوان عن المشاغل الخارجية، يسوقني التأمل النبيل، محولا ما هو مادّي إلى ما هو غير مادّي، إلى التفكير في تنوّع الفضائل المقدسة، عندئذ يبدو لي أنني أجد نفسي، إن صح التعبير، في منطقة غريبة من الكون، لا هي سجينة في وحل الأرض ولا هي طليقة في صفاء السماء. ويبدو لي أنني، بنعمة من الاله، أرتفع من هذا العالم السفلي الى عالم أعلى عن طريق التأمّل الروحي. . .»

كان يتكلم وقد أدار وجهه نحو جناح الكنيسة. وكان سيل من النور المتدفق من أعلى، بسماحة خاصّة من الكوكب النهاري، يغمر وجهه ويديه المفتوحتين في شكل صليب، وقال وقد خطفه الحماس «كل كائن مرئيا كان أو غير مرئيّ، هو نور وضعه في الكون رب النّور. ان هذا العاج وهذا الجزع، ولكن ايضا هذه الحجارة التي تحيط بنا هي نور، لأنني أحسّ أنها طيبة وجميلة، وانها تعيش حسب قواعد تناسبها، تختلف من حيث الصنف والجنس عن كل الاصناف والأجناس الأخرى، وإنها محددة من حيث عددها، ولأنها لاتحيد عن نظامها، وتبحث عن مكانها الخصوصي وفقا لجاذبيتها. وتتجلى لي هذه الأشياء أكثر عندما تبهر عيني طبيعة مادتها النفيسة، وتصبح أكثر نورا لقوة الخلق الالهية، حتى اني أصل إلى سموّ السبب الأول، الذي لايمكن بلوغه بصفة تامة، من خلال سموّ المسبب، ولا غرابة أن يُحدثني بصفة أكمل عن السببية الالهية مسبّب رائع مثل الذهب أو الماس، ان كانت تقدر على ذلك حتى الحشرة! عندئذ، عندما تتبين لي من خلال هذه الأحجار مثل تلك الأشياء السامية، تبكي الروح، من

البهجة والتأثر، وليس من الغرور المادي أو من حب المال، ولكن من الحب الصافي الذي تكنّه للسّبب الأول الذي لم يسبّب».

فقال غوليالمو بكل تواضع : «إنها حقًّا أعذب لاهوتية». وبدا لي أنه يستعمل تلك الصورة الذهنية المخاتلة والتي يسميها علماء الفصاحة : السخرية، والتي ينبغي أن تتصدرها دائما نبرة، تدل عليها وتبرّرها، ولكن غوليالمو لم يكن يستعملها أبدا. ولهذا السبب رأى رئيس الدير، الذي كان ميالا بطبيعته إلى استعمال صور الكلام، أن يأخذ كلام غوليالمو على الجدّ وتابع وهو لا يزال فريسة انخطافه الروحي، قائلا : «انها أقوم طريق للوصول الى العليّ، المتجلّى من خلال المادة».

فأخذ غوليالمو يسعل بأدب : «إيه، أوه. . .» ـ وكان يفعل ذلك عندما يريد الدخول في موضوع آخر. وكان يحسن ذلك بلياقة تامّة لأن تلك هي عادته ـ وأظنها من خاصيات أناس بلده ـ أن يستهل كل تدخل بتأوهات طويلة، وكأنه يتهيأ لعرض فكرة متكاملة كلّفته مجهودا فكريا كبيرا. بينما تأكد لي، اذ أصبحت الآن مقتنعا بذلك، انه كلما أكثر من تلك التأوهات لتقديم رأيه، كلما كان متأكدا من صلاحية الفكرة التي يقدم على عرضها.

قال اذن غوليالمو : «إيه. . . أوه. أظن أنه ينبغي علينا أن نتحدث عن اللقاء وعن المناقشة حول الفقر».

فأعاد رئيس الدير : «آه. . . الفقر. . .» ـ وكان لايزال غارقا في أفكاره، كمن يجد صعوبة في النزول من تلك المناطق الكونية الجميلة حيث اختطفته أحجاره الكريمة. «صحيح، اللقاء. . .».

وأخذا يتحادثان بصفة مكثفة حول أشياء كنت أعرف بعضها من قبل والبعض الآخر فهمته فقط من خلال حوارهما. كان يخصّ، كما قلت في أول هذا العرض الوفي، النزاع بين الامبراطور والبابا من جهة ومن جهة أخرى بين البابا والفرنشسكانيين الذين تبنّوا في مجمع بيروجيا، ولو بعد مضيّ عدة سنين، أفكار الروحانيين بخصوص فقر المسيح، وحول التعقيد الذي تكوّن بتحالف الفرنشسكانيين مع الامبراطور، ومن تعقيد ثالوثي بين معارضين وحلفاء، تحوّل إلى رباعي بتدخّل رؤساء أديرة نظام القديس بنديكت، الذي بقيت لي دوافعه غامضة جداً.

لم أفهم أبدا بوضوح السبب الذي جعل رؤساء الأديرة البندكتيين يعطون الحماية والمأوى للفرنشسكانيين الروحانيين، حتى قبل أن يشاطرهم نظامهم نفسه بطريقة من الطرق آراءهم. لأنه، ان كان الروحانيون ينادون بالإعراض عن كل أمور الدنيا، فقد تأكد لي يومها بصفة واضحة أن رؤساء الأديرة التابعين لنظامي يتبعون طريقا وان كانت لا تقل عفّة عن الأخرى إلاّ أنها معاكسة تماما لها. ولكنني أظن أن رؤساء الأديرة كانوا يرون أنه باعطاء البابا سلطة كبيرة يقوى نفوذ الأساقفة والمدن، بينما احتفظ نظامي بنفوذه كاملا عبر القرون فعلا من خلال وقوفه ضدّ الاكليروس العلماني والتجار المدنيين، جاعلا من نفسه الوسيط المباشر بين السماء والأرض ومستشار الملوك.

كثيرا ما سمعت الجملة التي تقول إن شعب الرّب ينقسم الى رعاة (أي الاكليروس) وكلاب (أي المقاتلون) ونعاج أي الشعب. ولكنني تعلمت فيما بعد أن هذه الجملة يمكن قولها بطرق مختلفة. غالبا ما يتحدث البندكتيون لا عن ثلاثة أنظمة، ولكن عن فرعين كبيرين، يهتم أحدهما بادارة الأمور الدنيوية والآخر بادارة الأمور السماوية. وفي ما يخص الأمور الدنيوية فهي تتوزّع بين الاكليروس والأسياد والشعب، ولكن فوق هذا التقسيم الثلاثي يسيطر تواجد النظام الرهباني، الوسيط المباشر بين الرّب والشعب. ولا يشبه الرهبان في شيء أولائك الرعائيين المدنيين من قساوسة وأساقفة وجهلاء ومرتشين، الذين أصبحوا الآن خاضعين لمصالح المدن، حيث لم تعد النعاج أولائك الفلاحين الطيبين والمؤمنين، بل التجار وأصحاب الحرف. ولا يرى النظام البندكتي مانعا من أن تعهد شؤون العامّة الى الاكليروس المدني، اذا ماعادت في آخر الأمر الى الرهبان مهمّة تحديد قواعد تلك العلاقة، بما أنهم باتصال مباشر مع كلّ سلطة دنيوية، أي الامبراطورية، كما كانوا من قبل مع كل سلطة سماوية. ولهذا اذن، أظن أن الكثير من رؤساء الأديرة البندكتيين، لاعادة الهيبة للامبراطورية ضدّ حكومات المدن (أساقفة وتجّاراً معا) قبلوا أن يحموا الفرنشسكانيين الروحانيين، وان كانوا لا يشاطرونهم نفس الأفكار، لأن حضورهم يخدم مصالحهم ولأنه يوفّر للامبراطورية حججا قوية ضدّ سلطة البابا المفرطة.

هذه هي، حسب استنتاجي، الأسباب التي من أجلها يتهيأ أبّوني الآن للتعاون مع غوليالمو، مبعوث الامبراطور، ليكون وسيطا بين النظام الفرنشسكاني والبلاط

البابوي. وفعلا، حتى في أوج النزاع الذي كان يهدد وحدة الكنيسة، كان ميكيلي دا تشيزينا، الذي دعاه البابا جيوفاني الى أفينيون العديد من المرات، مستعدا في النهاية لقبول الدعوة، لأنه لم يكن يريد أن يصل نظامه الى اصطدام نهائي مع البابا فبصفته زعيم الفرنشسكانيين كان يريد في نفس الوقت إنجاح مواقف الجمعية وكسب موافقة البابا، اذ كان يحسّ أنه بدون موافقة البابا لا يمكنه ان يبقى طويلا على رأس النظام.

ولكن الكثيرين لفتوا انتباهه الى أن البابا ينتظره في فرنسا لينصب له فخّا، فيتهمه بالهرطقة ويحاكمه. ولذا نصحوا أن يكون ذهاب ميكيلي الى فرنسا مسبوقا ببعض المفاوضات. وكانت لمارسيليو فكرة أحسن، وهي أن يُرسَل أيضا، صحبة ميكيلي، مبعوث امبراطوري ليقدم للبابا وجهة نظر مؤيدي الامبراطورية، لا لاقناع كاهورس الشيخ ولكن لمساندة موقف ميكيلي : كعضو من بعثة امبراطورية، لا يمكن أن يقع بسهولة ضحية ثأر البابا.

ولكن هذه الفكرة أيضا تبرز عدّة نقائص، ولايمكن تحقيقها في الوقت نفسه. ومن هنا جاءت فكرة اعداد لقاء تمهيدي بين اعضاء البعثة الامبراطورية وبعض مبعوثي البابا، لإمتحان وجهات النظر ولاعداد اتفاق تكون فيه سلامة الزائرين مضمونة. وفعلا كُلّف غوليالمو دا بسكارفيل باعداد هذا اللقاء الأول، كما سيَكون عليه من بعد تقديم وجهة نظر اللاهوتيين الامبراطوريين، في أفينيون، اذا ما رأى أن السفر ممكن وخال من الأخطار. ولم تكن مهمة سهلة اذ من المتوقع أن البابا، الذي كان يريد أن يأتي ميكيلي وحده كي يتسنى له بسهولة اخضاعه لطاعته، سيرسل الى ايطاليا بعثة ستعمل ان أمكنها ذلك على احباط سفر المبعوثين الامبراطوريين الى بلاطه. وقد تحرك غوليالمو حتى ذلك الحين بمهارة كبيرة. فبعد استشارات مطوّلة مع عدة رؤساء أديرة بندكتيين (وهذا هو سبب توقفنا المتعدّد أثناء السفر) اختار الدير الذي نوجد فيه لأنه يعلم أن رئيسه كان مخلصا للامبراطور ومع ذلك، لمهارته الدبلوماسية الكبيرة، لم يكن مبغوضا من طرف البابا. فالمجموعتان ستلتقيان اذن في أرض محايدة هي أرض الدير.

ولكن مقاومة البابا لم تنته بعد. فقد كان يعلم أنه عندما تصل قصادته الى الدير، ستكون تحت تشريع رئيس الدير. وبما أن في البعثة البعض من أعضاء الاكليروس المدني، لم يقبل البابا تلك الوضعية، بدعوى أنه يخاف أن ينصب

الامبراطور لهم شركا. واشترط اذن أن تعهد سلامة مبعوثيه الى كتيبة من نبّالي ملك فرنسا، تحت أوامر شخص من ثقاته. وقد سمعت بعض الشيء عن ذلك من خلال حوار أجراه غوليالمو مع سفير البابا في بوبّيو : وتناول الحديث كيفية ضبط مهام هذه الكتيبة، أو بالأحرى توضيح ما يراد بحماية سلامة المبعوثين البابويين. وأخيرا قبل الجميع صيغة اقترحها الافينيونيون بدت معقولة : وهي أن تكون للمسلّحين ولقائدهم السلطة على «كل من يحاول بأيّة صفة كانت اغتيال أحد أعضاء القصادة البابوية أو التأثير على سلوكها وعلى حكمها باستعمال العنف». في ذلك الوقت بدا الاتفاق مستوحى من انشغال شكلي بحت. أما الآن وبعد الأحداث الأخيرة التي وقعت في الدير، كان رئيس الدير منشغلا، وأبدى قلقه لغوليالمو. لو وصلت البعثة الى الدير ولا يزال مقترف الجريمتين مجهولا (في اليوم التالي ازداد انشغال رئيس الدير، لأن الجرائم أصبحت ثلاثة) لاضطر الى الاعتراف ان بين تلك الجدران يطوف شخص في مقدرته أن يؤثر باستعمال العنف على حكم المبعوثين البابويين وسلوكهم. ولا نفع من اخفاء الجرائم التي ارتكبت، لأنه لو وقع بعد ذلك شيء آخر، لظنها المبعوثون البابويون مكيدة دبرت لهم. واذن هناك حلاّن فقط : إمّا أن يكتشف غوليالمو المجرم قبل وصول البعثة (وهنا حدّق فيه رئيس الدير وكأنه يلومه بصمت لأنه لم يصل بعد الى حلّ تلك العقدة)، أو ينبغي اعلام ممثّل البابا بصدق عمّا يحدث وطلب معونته لفرض مراقبة مشددة على الديرطوال مدة الأعمال. وهذا لايرضي رئيس الدير لأنه يمثل تنازلا عن جانب من سلطته ويضع رهبانه أنفسهم تحت مراقبة الفرنسيين. ولكن مع ذلك لا يمكن المجازفة. كان غوليالمو ورئيس الدير منشغلين للمجرى الذي اتخذته الاحداث ولكن لم يكن لديهما الخيار. وتواعدا اذن على أخذ القرار النهائي في اليوم التالي. في الانتظار لا يبقى إلاّ أن يسلما الأمر إلى العناية الالهية والى فطنة غوليالمو الذي قال :ـ «سأفعل ما في وسعي يا صاحب السموّ. من ناحية أخرى لا أرى كيف يمكن لأمر كهذا أن يحبط اللقاء. حتى الممثل البابوي يفهم الفارق بين عمل مجنون، أو مجرم، أو حتى روح تائهة، والمسائل الخطرة التي سيناقشها رجال أتقياء».

فقال رئيس الدير وهو يحدق في غوليالمو : «أتظن؟ لا تنس أن الأفينيونيين يعرفون أنهم سيتلاقون مع الفرنشسكانيين، واذن مع أشخاص يقتربون بصفة خطرة

من الإخوان المتسوّلين ومن آخرين أكثر جنونا منهم، من هراطقة خطرين لوّثوا أيديهم بجرائم ـ وهنا خفض رئيس الدير صوته ـ تتلاشى أمامها الأحداث الفظيعة التي وقعت هنا كما يتلاشى الضباب أمام الشمس».

فهتف غوليالمو بشدة : «ليس نفس الشيء! لا يمكنكم أن تضعوا في نفس الكفة فرنشسكانيّي مجمع بيروجيا وبعض الفئات الهرطقية التي فهمت غلطا رسالة الانجيل محوّلة الكفاح ضدّ المال الى سلسلة من الثارات الخاصة أو الجنون الإجرامي. . . ».

فقال رئيس الدير بنبرة جافة : «ان احدى تلك الفئات، كما تقول، قد أعملت الحديد والنار، منذ بضع سنوات وغير بعيد عن هنا، في أراضي أسقف فرتشيلّي والجبال المحيطة بنوفارا».

ـ تتحدث عن الأخ دولتشينو والرسوليين. . .

فصحّح رئيس الدير : «عن الرسل الزائفين» ومرة أخرى سمعت اسم الأخ دولتشينو يُذكر، ومرة أخرى يُذكر بنبرة فيها حذر وربما شيء من الخوف.

فاعترف غوليالمو تلقائيا قائلا : «عن الرسل الزائفين. ولكن لا دخل لهم بالفرنشسكانيين. . . ».

فعقب رئيس الدير قائلا : «أعرف، أعرف ذلك. وأنت تعلم بأي عناية أخوية تلقّت رهبانيتنا الروحانيين عندما سلّط عليهم البابا نقمته. ولا أتكلم فقط عن أوبارتينو ولكن عن العديد من الاخوان الآخرين المتواضعين والذين لا نعرف عنهم إلاّ القليل، بينما ينبغي علينا أن نعرفهم أكثر. اذ حدث أن تقدّم الينا لاجؤون لابسين زي الفرنشسكانيين، وعلمت فيما بعد أن الأحداث التي عاشوها حملتهم قريبا جدا من الدولتشينيين. . . ».

فسأله غوليالمو : «هنا أيضا؟»

ـ هنا ايضا. اني أخبرك الآن بشيء لا أعرف عنه في الحقيقة إلاّ القليل، لا يكفي، بأية حال، كي أوجّه اتهامات. ولكن، بما أنك تحقّق حول حياة هذا الدير فمن الأحسن أن تعرف أنت أيضا هذه الأشياء. وأقول لك اذن انني أظنّ، ولكن حذار، أنا أظنّ معتمدا على أشياء سمعتها أو تكهنت بها، أظنّ أنّ في حياة القيّم، فترة غامضة جدّا، اذ وصل الى هنا فعلا، منذ سنوات متّبعا نزوح الفرنشسكانيين.

فقال غوليالمو : «القيّم؟ رميجيو دا فراجيني من أتباع دولتشينو! انه يبدو لي

أودع كائن وأقلهم انشغالا بمسألة الفقر . . . ».

ـ وفعلا لا أستطيع أن أقول شيئا ضدّه، وإنّي لأستفيد من الأعمال التي يقوم بها هنا والتي تشكره عليها كل المجموعة. ولكنني أقول لك كل هذا كي تفهم كم من السهل ايجاد ارتباط بين راهب وراهب متسوّل.

فقاطعه غوليالمو قائلا : «ان حضرتك لم تعدل مرّة أخرى، ان صحّ القول. لقد كنا نتحدث عن الدولتشينيين لا عن الرهبان المتسوّلين الذين يمكن أن نقول عنهم الكثير، حتى دون التمييز بينهم لأنهم من أصناف متعدّدة، ولكن لا يمكن أن نقول عنهم أنهم سفّاحون. أقصى ما يمكن هو لومهم لأنهم طبقوا دون إعمال الفكر، أشياء نادى بها الروحانيون باعتدال أكبر، يحدوهم في ذلك حب حقيقي للاله، وفي هذا أعترف أن الفارق ضئيل جدا بين أولئك وهؤلاء . . . ».

فقاطعه رئيس الدير بحدّة : ـ ولكن الاخوان المتسوّلين هراطقة! انهم لا يكتفون بتأكيد فقر المسيح والحواريين، وهي فكرة حتى وان كنت لا أميل إلى مشاطرتها يمكن استغلالها لمواجهة غرور صاحب أفينيون. ولكن الاخوان المتسوّلين يستمدّون من تلك الفكرة قياسا عمليا، يستخرجون منه الحق في الثورة، والنهب، وافساد الأخلاق.

ـ ولكن أي اخوان متسوّلين؟

ـ كلهم، على الاطلاق. أتعرف أنهم لوّثوا أيديهم بجرائم لا يمكن وصفها، ولا يعترفون بالزواج، وينفون وجود الجحيم، ويمارسون اللّواط ويعانقون هرطقة نظام بلغاريا البوغوميلية، وهرطقة النظام الدريغونطي . . .

فقال غوليالمو : ـ أرجوك، لا تخلط بين أشياء مختلفة! أنت تتحدث وكأن الأخوان المتسوّلين، والبتاريين، والفوديين، والمانويين ومن بينهم بوغوميلي بلغاريا وهراطقة دراغوفيتسا، شيء واحد! فقال رئيس الدير بنبرة جافة : انهم كذلك. لأنهم هراطقة، ولانهم يعرّضون للخطر نظام العالم المتحضر نفسه، وحتى نظام الامبراطور الذي يبدو لي أنك تتمناه. لقد أحرق أتباع أرنالدو دا بريشا، منذ مائة سنة وأكثر، منازل النبلاء والكرادلة، وكانت تلك ثمار هرطقة البتاريين اللومباردية. اني أعرف حكايات مريعة حول أولائك الهراطقة وقرأتها أيضا عند تشيزاريو دي ايسرباك. لقد لاحظ مرة ايفيراردو كاهن كنيسة القديس جدعون بفيرونا، ان الرجل الذي يقيم عنده كان يخرج كل ليلة من البيت صحبة

زوجته وابنته. فسأل واحداً منهم إلى أين يذهبون وماذا يفعلون فأجابه : عليك أن تأتي معنا وسترى. فتبعهم الى منزل سفلي فسيح جدا، حيث كان يلتقي أشخاص من الجنسين. وبينما كان الجميع يستمعون في صمت ألقى زنديق خطابا مليئا بالتجديفات، بغية افساد حياتهم وأخلاقهم. ثم، بعد اطفاء الشمعة، ارتمى كل واحد على المرأة القريبة منه، دون التفرقة بين الزوجة الشرعية والبكر، وبين الأرملة والعذراء وبين السيدة والخادمة، ولا حتى (وهذا أسوأ من الباقي، ليغفر لي الاله ان تفوّهت بهذه الاشياء الفظيعة) بين البنت والأخت. وعندما رأى ايفيراردو ذلك، وكان عندئذ شابا طائشا وفاجرا، تظاهر بأنه تلميذ واقترب، لا أدري ان كان من بنت مضيفه أو من طفلة أخرى، وعندما اطفأت الشمعة ارتكب معها الخطيئة. وداوم على ذلك، للأسف، سنة أو أكثر، الى أن قال الأستاذ يوما ان ذلك الشاب يتابع بكثير من الاهتمام مجالسهم وأنه سيصبح عن قريب قادرا على تعليم المبتدئين. عند ذلك الحين فهم ايفيراردو الهاوية التي سقط فيها واستطاع التخلص من اغرائهم قائلا انه كان يأتي الى ذلك المنزل لا لأن الهرطقة كانت تعجبه ولكن لاعجابه بالفتيات. فطرده هؤلاء. وهذه كما ترى قاعدة الهراطقة وحياتهم سواء كانوا بتاريين أو مانويين أو جواكيميين أو روحانيين من كلّ شتلة. ولا غرابة في ذلك : فهم لا يؤمنون ببعث الأجساد وبالجحيم كعقاب للآثمين، ويظنون أنه يمكنهم القيام بكل الأعمال دون عقاب، اذ يسمّون أنفسهم «Catharoi» أي المتطهّرين.

فقال غوليالمو : أبّوني، أنت تعيش منعزلا في هذا الدير الرائع والمقدس، بعيدا عن رذائل العالم. فالحياة في المدن أكثر تعقيدا ممّا تظن، وأنت تعرف أن هناك تدرّجاً في الأخطاء وفي الاثم. لقد كان لوط أقل اثما من ابناء بلده الذين بنوا أفكارا دنسة حتى في ما يخص الملائكة الذين بعثهم الاله، وخيانة بطرس هي لا شيء بالقياس الى خيانة يهوذا، وبالفعل غفِر للأول ولم يُغفر للثاني. لا يمكن اعتبار البتاريين والمانويين نفس الشيء. فالبتاريون ينتمون الى حركة اصلاح أخلاقي داخل قوانين الكنيسة المقدسة. لقد أرادوا دائما تحسين حالة عيش رجال الكنيسة. . .

ـ مؤكدين أنه لا ينبغي قبول سرّ القربان المقدس من الكهنة غير الطاهرين. . .

ـ انهم أخطأوا، ولكن كان ذلك الخطأ الوحيد في مذهبهم. لم يكن أبدا في

نيّتهم تغيير قانون الرّب. . .

ـ ولكن التبشير البتاري الذي قام به ارنالدو دا بريشيا، في رومة منذ أكثر من مائتي سنة، دفع رعاع الفلاحين الى حرق منازل الأسياد والكرادلة.

ـ لقد حاول أرنالدو أن يجلب الى حركته أعيان المدينة، ولكنهم لم يتبعوه، ووجد تجاوبا من طرف جماعات الفقراء والمعوزين. لم يكن مسؤولا عن الاندفاع والحنق الذي استجاب به هؤلاء لنداءاته من أجل مدينة أقل فسادا.

ـ ان المدينة دائما فاسدة.

ـ المدينة هي المكان الذي يعيش فيه اليوم الشعب، نحن وايّاكم رعاته، هو شعب الرّب. انه مكان الفضيحة، حيث ينادي الأسقف الغني الى الفضيلة شعبا فقيرا جائعا. ان ثورات البتاريين كانت ناتجة عن تلك الوضعية. انها محزنة لا غامضة. المانويون شيء آخر. انها هرطقة شرقية، خارجة عن مذهب الكنيسة. انني لا أعرف ان كانوا اقترفوا حقّا الجرائم التي اتهموا بها، أعرف أنهم كانوا يرفضون الزواج وينفون وجود الجحيم. وأتساءل ان لم تنسب اليهم الكثير من الأعمال التي يقوموا بها، فقط من أجل الأفكار (التي هي فاسدة دون شك) التي أتوا بها.

ـ أأنت الذي تقول ان المانويين لم يختلطوا بالبتاريين، وانهم كلهم ليسوا إلاّ وجهين، من بين الوجوه المتعددّة، التي يظهر بها الشيطان؟

ـ أقول ان الكثير من هذه الهرطقات، بقطع النظر عن الأفكار التي تدافع عنها، كانت تجد تجاوبا عند السذّج، لأنها توحي اليهم بامكانية الوصول الى حياة أفضل. أقول انه في كثير من الأحيان لا يفهم السذّج شيئا عن المذاهب. أقول انه غالبا ما حدث ان مجموعات من السذّج اختلط عليها تبشير المانويين بتبشير البتاريين، وهذا الأخير عامّة، بتبشير الروحانيين. ان حياة العامّة، يا أبّوني، لا يضيئها نور المعرفة ولا يقودها ادراك الفارق الذي يجعل منا نحن عقلاء، ويرهقها هاجس المرض والفقر، الذي يجد التعبير عنه بجهل. غالبا ما يكون الانتماء، بالنسبة الى الكثير منهم، الى فريق هرطوقي وسيلة فقط مثل غيرها للتعبير عن اليأس. انهم يحرقون دار الكاردينال لأنهم يريدون في نفس الوقت أن تصل حياة الاكليروس الى درجة الكمال، ولأنهم يعتبرون ان الجحيم الذي يتحدّث عنه ذلك الكاردينال غير موجود. ولكنهم يفعلون ذلك دائما لأن الجحيم الدنيوي موجود،

حيث يعيش القطيع الذي نحن رعاته. ولكنك تعرف جيّدا، انه مثلما لا يفرقون هم بين الكنيسة البلغارية وأتباع الكاهن ليبراندو، غالبا لم تفرق السلطة الامبراطورية هي ايضا وأنصارها بين الروحانيين والهراطقة. وحدث ان ساندت بعض الفئات الجيبيلينية علنا أفكار المانويين، لإلحاق الهزيمة بخصومها (وبئس ما فعلت حسب رأيي). ولكن ما أعرفه الآن هو أن تلك الفئات نفسها، في أغلب الأحيان كي تتخلص من أولئك الخصوم المضطربين والخطرين لكثرة سذاجتهم، نسبت هرطقة أولئك الى هؤلاء، ودفعت بهم نحو المحرقة. لقد رأيت، أقسم لك يا أبّوني، رأيت بعينيّ، أشخاصا يعيشون عيشة طاهرة، متبعين بوفاء حياة الفقر والعفّة، ولكنهم كانوا أعداء الأساقفة، ورمى بهم الأساقفة الى السلطة المدنية، سواء كانت سلطة الامبراطور أو سلطة المدن الحرة، متهمين اياهم بالاختلاط الجنسي وباللّواط وبأعمال شنيعة، يمكن أن يكون قام بها آخرون، أما هم فلا. ان السذّج دواب تساق الى المجزرة، يستعملون عندما يراد وضع سلطة الخصم في أزمة، ويضحّى بهم عندما تنتهي الحاجة اليهم.

فقال رئيس الدير بخبث واضح: اذن الأخ دولتشينو ومجانينه، وجيراردو سيغاليلّي وتلك المجموعات من المجرمين أكانوا مانويين متوحشين أم إخوانا متسوّلين فضلاء، بروغوميليين لوطيين أو بتاريين مصلحين؟ أيمكنك أن تقول لي اذن، ياغوليالمو، انت الذي تعرف كل شيء عن الهراطقة، حتى أنك تبدو واحدا منهم، أين توجد الحقيقة؟

فقال غوليالمو بأسف: في بعض الأحيان، هي غير موجودة في أي مكان.

ـ أترى انك أنت أيضا لم تعد قادراً على التمييز بين هرطيق وهرطيق. على الأقل أنا لديّ قاعدة. أعرف ان الهراطقة هم أولئك الذين يضعون في خطر النظام الذي تقوم عليه حياة شعب الرب. وأدافع عن الامبراطورية لأنها تضمن لي هذا النظام. وأحارب البابا لأنه وضع السلطة الروحية بين أيدي أساقفة المدن الذين يتحالفون مع التجار والجمعيات المهنية، ولن يستطيعوا الحفاظ على هذا النظام. لقد حافظنا عليه نحن طيلة قرون. وحتى فيما يخصّ الهراطقة عندي أيضا قاعدة، وتتلخّص في الردّ الذي أجاب به أرنالدو أماليريكو رئيس دير سيطو، عندما سألوه ما العمل بأهالي بيزيي، المدينة المتهمة بالهرطقة، قال: اقتلوهم جميعا وسيعرف اللّه أتباعه. فخفض غوليالمو عينيه وبقي بعض الوقت صامتا ثم قال: عندما سقطت مدينة

بيزيي، لم يول رجالنا اعتباراً لا للمقام ولا للجنس ولا للسنّ وأعملوا السيف في حوالي عشرين ألف رجل. بعد المذبحة نُهبت المدينة وأحرقت.

ـ ان الحرب المقدسة حرب.

ـ ان الحرب المقدسة حرب. ولذا قد لا ينبغي أن تكون هناك حروب مقدسة. ولكنني ماذا أقول، أنا هنا للدفاع عن حقوق لودوفيكو، الذي هو أيضا بصدد اضرام النار في ايطاليا. أجد نفسي أنا أيضا داخل لعبة من التحالفات الغريبة. غريب تحالف الروحانيين مع الامبراطورية، وغريب تحالف الامبراطورية مع مارسيليو الذي ينادي بالسيادة للشعب. وغريب التحالف الذي بيننا نحن الاثنين مع اختلافنا الكبير من حيث التفكير والتقاليد. ولكن يجمعنا واجبان. نجاح اللقاء واكتشاف مجرم. فلنعمل بوفاق.

ففتح رئيس الدير ذراعيه قائلا : اعطني قبلة السلام، يا أخ غوليالمو. مع عالم مثلك يمكن النقاش طويلا حول مسائل دقيقة في اللاهوتية والأخلاق. ولكن لاينبغي أن نستسلم لميلنا إلي المجادلة كما يفعل أساتذة باريس. صحيح ينتظرنا موعد هام، وينبغي أن نواصل العمل باتفاق متبادل. ولكنني تكلمت عن هذه الأشياء لإنني أظن أن هناك علاقة، أفهمت؟ علاقة محتملة، أو بالأحرى، أن يجد الآخرون علاقة بين الجريمتين اللتين وقعتا هنا وأفكار رفاقك. لذا حذّرتك، ولذا يجب أن نتفطن الى أي ظنّ أو تلميح من طرف الافينيونيين.

ـ ألا ينبغي أن أفهم من ذلك ان حضرتك توعز اليّ باقتفاء أثر يخص الأبحاث التي أنا بصدد القيام بها؟ أتظن أن مصدر الأحداث الأخيرة يمكن أن يكون قصة غامضة تعود الى فترة هرطوقية مرّ بها أحد الرهبان في الماضي؟

فبقي رئيس الدير صامتا بضع لحظات، وهو ينظر الى غوليالمو دون أن يبدو على وجهه أدنى تعبير ثم قال : في هذه الحادثة المؤلمة المحَقّق هو أنت يمكنك أن ترتاب وأن تجازف حتى باتهام خاطئ. أنا هنا فقط أب للجميع، وأضيف، لو وصل الى علمي أن ماضي أحد رهباني يسمح بشكوك حقيقية لكنت اقتلعت النبتة الفاسدة. ما أعرفه، تعرفه. ما لا أعرفه، من الصائب أن يخرج الى النور بفضل فطنتك. ولكن على كل حال اعلمني دائما وقبل كل شيء.

ثم ودّعنا وخرج من الكنيسة.

قال غوليالمو وقد أكفهرّ وجهه : ـ ان القصة تتعقّد أكثر فأكثر يا عزيز أدسو.

نحن نجري وراء مخطوط، ونهتّم بمناقشات بعض الرهبان الذين يحركهم حب الاطلاع وبظروف بعض الرهبان الآخرين الذين كثر عندهم الفسق، وها أنه يتراءى بالحاح أكثر أثر آخر، مختلف تماما. القيّم، اذن. . . ومع القيّم جاء ذلك الحيوان الغريب سلفاتوري. . . ولكن الآن ينبغي أن نذهب للراحة، لأننا عزمنا على البقاء صاحيين طول الليل.

ـ اذن، انت عازم دائما على الدخول الى المكتبة هذه الليلة؟ لن تترك هذا الأثر الأول!

ـ أبدا. ثم من قال انهما أثران مختلفان؟ وأخيرا، قد تكون قصة القيّم مجرد شك خامر رئيس الدير.

ثم اتجه نحو دار الضيافة. وعندما وصل الى العتبة توقف وقال كمن يواصل حديثه الأول : لقد طلب مني رئيس الدير، في نهاية الأمر، أن أحقق في موت أدالمو عندما ظنّ أن هناك شيئا غير طاهر بين رهبانه الشبّان. ولكن الآن يثير موت فينانسيو شكوكا أخرى ولعلّ رئيس الدير أحسّ أن مفتاح هذا السرّ الغامض يوجد في المكتبة، ويريد أن يبعدني عنها. وها هو اذن يعرض عليّ أثر القيّم كي يبعد اهتمامي عن الصّرح.

ـ ولكن لماذا لا يردك ان. . .

ـ لا تكثر من الأسئلة. لقد قال لي رئيس الدير منذ البداية أن المكتبة لا تمسّ. قد تكون له تعلاّته. وقد يكون هو الآخر مرتبطا ببعض الأحداث كان يظن أن المكتبة لا دخل لها بموت أدالمو، ولكنه الآن يتفطن الى ان الفضيحة تتسع ويمكن أن تشمله هو الآخر. ولا يريد أن تكتشف الحقيقة، أو على الأقل لا يريد أن أكتشفها أنا. . .

فقلت وقد انتابني اليأس : نحن نعيش اذن في مكان هجرته رحمة اللّه.

فسألني غوليالمو وهو ينظر إليّ من علوّ قامته : هل وجدت من قبل أماكن أحسّ اللّه فيها نفسه في راحة؟

ثم بعثني كي أستريح. وبينما كنت أتهيأ للنوم قلت في نفسي انه ماكان على أبي أن يرسلني عبر الدنيا، اذ هي معقدة أكثر مما كنت أظن. لقد كنت بصدد تعلم الكثير من الأشياء في نفس الوقت. ثم صلّيت «اللّهم انقذني من أنياب الأسد» واستسلمت للنوم.

اليوم الثّاني

بَعد صَلاة الستّار

وفيه يذكر الشيخ أليناردو، رغم قصر هذا الباب، أشياء هامة جدا حول المتاهة وحول كيفية الدخول إليها.

أفقت وقد أوشكت ساعة الأكل المسائية. كنت أحس بنفسي مسترخيا من النوم، لأن نوم النهار كخطيئة الجنس : كلما أصبت منه كلما أردت الزيادة، ومع ذلك يحس المرء بنفسه غير سعيد، متخما وجائعا في نفس الوقت. لم يكن غوليالمو في حجرته، من الواضح أنه نهض قبلي بكثير. ووجدته، بعد تجوال وجيز، خارجا من الصّرح. وقال لي انه كان في قاعة الكتابة، يتصفح الفهرس ويعاين عمل الرهبان، محاولا الاقتراب من طاولة فينانسيو لمتابعة البحث. ولكن، لسبب أو لآخر، يبدو أنهم عقدوا النية على أن لا يتركوه يتطفل بين تلك الأوراق. في الأول اقترب منه ملاخي ليريه بعض النمنمات النفيسة، ثم ألهاه بانشيو بتعلاّت واهية. بعد ذلك، عندما انحنى ليتابع بحثه أخذ برينغاريو يحوم حوله عارضا عليه مساعدته.

أخيرا عندما رأى ملاخي أن أستاذي كان يبدو عازما على الاطلاع على أوراق فينانسيو، قال له بوضوح انه من الأحسن، قبل التفتيش بين أوراق الميّت، أن يطلب ترخيصا من رئيس الدير. وانه هو نفسه، رغم أنه الحافظ، امتنع عن ذلك، احتراما وطاعة. وانه على كل حال لم يقترب أحد من تلك الطاولة كما طلب منه ذلك غوليالمو، وانه لن يقترب منها أحد طالما لم يرخص في ذلك رئيس الدير. ولما نبّهه غوليالمو الى أن رئيس الدير سمح له بالتحرك بحرية داخل قاعة الكتابة أو، لا سمح الله، داخل المكتبة. وفهم غوليالمو انه من الافضل أن لا يدخل في صراع مع ملاخي، حتى وان زادت تلك التحركات وتلك التخوفات حول أوراق فينانسيو من رغبته في معرفة محتواها. ولكنه كان عازما على الدخول هناك أثناء الليل، دون أن يدري إلى الآن كيف، ولذا قرّر أن لا يتسبّب في أي حادث من

شأنه أن يعرقل خطته. كان مع ذلك يضمر نيات واضحة في الانتقام، ولو لم تكن مستوحاة من تعطشه الى معرفة الحقيقة لبدت عنيدة وجديرة بالذّم.

قبل الدخول الى قاعة الأكل، قمنا مرّة أخرى بجولة قصيرة في رواق الدير، لتشتيت ضباب النوم في هواء المساء البارد. وكان بعض الرهبان يطوفون هناك في تأمل. وفي الحديقة المواجهة للرواق لاحظنا الشيخ الهرم ألياردو دا غروتافيّراتا، الذي أصبح الآن ضعيف القوى، ويقضي قسطا كبيرا من يومه بين النباتات، عندما لايكون في الكنيسة للصلاة. كان يبدو وكأنه لا يحسّ بالبرد، جالسا على امتداد الجهة الخارجية للبوّابة. فبادره غوليالمو ببعض كلمات تحية وبدا الشيخ سعيدا أن حاوره أحد، وقال غوليالمو :

ـ انه يوم هادىء.

فأجاب الشيخ : من فضل اللّه.

ـ هادىء في السماء وقاتم على الأرض، أكنت تعرف فينانسيو؟ فقال الشيخ : فينانسيو من؟ ـ ثم لمع بريق في عينيه ـ آه، الشاب الذي مات. ان الوحش يطوف في الدير.

ـ أي وحش؟

ـ الوحش العظيم الذي يَأتي من البحر. . . له سبعة رؤوس وعشرة قرون وعلى قرونه عشرة تيجان وعلى رؤوسه ثلاثة أسماء تجديف. الوحش الذي يَبدو وكأنه نمر، وقوائمه كقوائم دبّ وفمه كفم أسد. . . اني رأيته.

ـ أين رأيته؟ في المكتبة؟

ـ في المكتبة؟ لماذا؟ منذ سنين لم أعد أذهب إلى قاعة الكتابة ولم أر أبدا المكتبة. لا يدخل أحد الى المكتبة. اني عرفت أولئك الذين كانوا يصعدون الى المكتبة. . .

ـ من، ملاخي، برينغاريو؟

ـ لا، كلاّ ـ وضحك الشيخ بصوت يشبه النقنقة ـ لا، قبل ذلك. الحافظ الذي أتى قبل ملاخي، منذ عدّة سنوات. . .

ـ من كان؟

ـ لا أذكر، لقد مات، عندما كان ملاخي شابّا، والحافظ الذي أتى قبل أستاذ ملاخي وكان اذاك مساعد الحافظ، كان شابا عندما كنت انا شابا. . . ولكنني لم

اضع أبدا قدميّ في المكتبة. انها متاهة. . .

ـ المكتبة متاهة؟

فتلا الشيخ وكأنه غارق في تفكير عميق : «تلك المتاهة هي صورة من هذا العالم: فسيحة لمن يريد الدخول، وضيقه لمن يرغب في الخروج» المكتبة متاهة كبيرة، وهي دليل على متاهة العالم. ادخل اليها ولن تعرف ان كنت ستخرج. لا ينبغي أن نتعدّى أعمدة هرقل. . .

ـ اذن انت لا تعرف كيف يمكن الدخول الى المكتبة عندما تكون ابواب الصّرح مغلقة؟

فضحك الشيخ قائلا : بلى، الكثير يعرف ذلك. مرورا من المعظمة. يمكنك المرور من المعظمة، ولكنك لا تريد أن تمرّ من المعظمة. الرهبان الموتى يحرسون.

ـ هل الرهبان الذين يحرسون هم هؤلاء، أم هم أولئك الذين يطوفون في المكتبة حاملين سراجاً؟

فقال الشيخ مستغرباً : حاملين سراجاً؟ انني لم أسمع أبدا هذه القصّة. ان الرهبان الموتى موجودون في المقبرة، شيئا فشيئا تنزل العظام من المقبرة وتتجمع هناك لحراسة الممرّ. ألم تر أبدا مذبح المصلّى الذي يؤدي الى المعظمة؟

ـ انه الثالث على الشمال بعد جناح الكنيسة المصالب، أليس كذلك؟

ـ الثالث؟ قد يكون. انه المصلّى الذي يحمل حجارة نقش عليها ألف هيكل عظمي. الجمجمة الرابعة على اليمين، ادفع داخل العينين. . . وستجد نفسك في المعظمة. ولكن لا تذهب. انني لم أذهب إلى هناك أبدا. رئيس الدير لا يريد.

ـ والوحش، أين رأيت الوحش؟

ـ الوحش؟ آه المسيح الدجّال. . . انه آت، لقد انقضت الالف عام، ونحن ننتظره.

ـ ولكن الألف عام انقضت منذ ثلاثمائة سنة ولم يأت. . .

ـ الدجال لا يأتي بعد الألف عام. بعد انتهاء الالف عام يبدأ العهد الذي يحكم فيه العادلون، ثم يأتي الدجّال لادخال البلبلة على العادلين، ثم تكون المعركة النهائية. . .

فقال غوليالمو : ـ ولكن العادلون سيحكمون ألف عام، امّا أن يكونوا حكموا

منذ موت المسيح الى الالف عام الأولى، واذن ينبغي أن يكون الدجال أتى وقتئذ، أو أنهم لم يحكموا بعد، ومجيء الدجال لا يزال بعيدا.

ـ ان الألف عام لا تحتسب من موت المسيح ولكن من هبة قسطنطين نحن الآن في نهاية الألف عام. . .

ـ اذن ينتهي الآن حكم العادلين؟ ـ لا أدري، لم أعد أدري. . . انني متعب. الحساب صعب. لقد قام به بياتو دي ليبانا، اسأل يورج فهو اصغر سنّا، ويتذكر جيدا. . . ولكن الأزمنة ناضجة. ألم تسمع الأبواق السبعة؟

ـ لماذا الأبواق السبعة؟

ـ ألم تسمع كيف مات الشاب الآخر، المنمنم؟ نفخ الملاك الاول في البوق الاول فسقط بَرَد ونار مخلوطان بدم. ثم نفخ الملاك الثاني في البوق الثاني فصار ثلث البحر دماً. . . ألم يمت الشاب الثاني في بحر من الدم؟ حذار من البوق الثالث! ستموت ثلث المخلوقات الحية التي تعيش في البحر. ان اللّه يعاقبنا. لقد اجتاحت الهرطقة كلّ العالم المحيط بالدير. لقد قالوا لي ان على عرش روما يجلس بابا ضالّ يستعمل القربان المقدس لاستحضار الموتى ولتغذية ثعابينه. . . وهنا انتهك أحدهم الحظر، وكسر اختام المتاهة. . .

ـ من قال لك هذا؟

ـ لقد سمعت ذلك، كلهم يتهامسون بان الخطيئة دخلت الدير. هل لديك حمّص؟

كان السؤال موجّها اليّ وفاجئني بارتباك : ـ كلاّ، ليس لديّ حمّص.

ـ في المرة القادمة، ائتني بالحمّص. انني أتركه في فمي، أترى فمي المسكين دون أسنان، أتركه حتى يصبح لينا. انه يساعد على تكوين اللعاب، «الماء نبع الحياة». هل تأتيني غدا بالحمص؟ فقلت : ـ غدا سآتيك بالحمص. ـ ولكنه استسلم للنوم فتركناه للذهاب الى قاعة الأكل. وسألت أستاذي :

ـ ما رأيك في ما قاله؟

ـ انه يتمتع بالخبل الالهي الذي يصيب من لحق المائة عام. من الصعب التمييز بين الصحيح والباطل في أقواله. ولكنني أظن أنه قال لنا شيئا حول كيفية الدخول الى الصّرح. لقد رأيت المصلّى الذي خرج منه ملاخي في الليلة الفارطة. يوجد به فعلا مذبح من الحجارة نقشت على قاعدته جماجم. سنحاول هذه الليلة.

صَلاة النَّوم

وفيه يدخل غوليالمو وأدسو إلى الضرح، ويكتشفان زائرا خفيا، ثم يعثران على رسالة غامضة تحمل علامات تنجيمية، ويختفي حال العثور عليه، كتاب سيتواصل البحث عنه في أبواب كثيرة أخرى، وآخر ما حصل سرقة عدستي غوليالمو النفيستين.

تعشّينا في كآبة وصمت. لقد مرّ ما يزيد بقليل على الاثنتي عشرة ساعة منذ أن اكتشفت جثة فينانسيو. وكان الجميع ينظرون خلسة الى مكانه الفارغ على المائدة. وعندما حانت ساعة صلاة النوم اتجه الموكب الى الخورس وكأنه صفّ مأتمي. وحضرنا الفرض جالسين في صحن الكنيسة ومراقبين المصلّى الثالث. كان النور خافتا، وعندما رأينا ملاخي يبرز من الظلمة للالتحاق بمقعده، لم نستطع أن نعرف من أين خرج بالضبط. على كل حال اختفينا في العتمة، متواريين في الجناح الجانبي، حتى لا يرى أحد أننا بقينا هناك بعد انتهاء الفرض. وكنت أخفي داخل ثوبي السّراج الذي أخذته من المطبخ أثناء العشاء والذي سنشعله فيما بعد من المشعل البرونزي ذي القوائم الثلاث الذي يبقى مشتعلا طول الليل. وكانت معي فتيلة جديدة، وكثير من الزيت، سيكون لدينا نور يكفي لوقت طويل.

وكنت ثائر الأعصاب وأنا أفكّر في المغامرة التي سنقوم بها حتى انني لم أهتمّ بالفرض، ولمّا انتهى كدت أن لا أنتبه لذلك. وأسدل الرهبان طراطيرهم على وجوههم وخرجوا في صفّ بطيئ للالتحاق بحجراتهم. وبقيت الكنيسة خالية، يضيئها وميض المشعل البرونزي.

قال غوليالمو : هيّا بنا، الى العمل.

واقتربنا من المصلّى الثالث. كانت قاعدة المذبح شَبيهة حقًّا بمعظمة : كانت

هناك مجموعة من الجماجم ذات الأعين الخاوية والغارقة، تثير الخوف في كل من ينظر اليها، وكانت موضوعة، كما تبدو من النحت الرائع، فوق كومة من الظنابيب وأعاد غوليالمو بصوت خافت الكلمات التي سمعها من أليناردو (الجمجمة الرابعة على اليمين، ادفع العينين). وأدخل اصبعيه في عيني ذلك الوجه المجرّد من اللحم في الحال سمعنا صريرا مبحوحا، وتحرّك المذبح، دائرا على محور خفيّ، فظهرت من ورائه فتحة مظلمة. ولما رفعت السراج لإنارتها، رأينا سلّما تنبعث منه الرطوبة. وقررنا النزول، بعد أن تناقشنا ان كان من الأفضل غلق الممرّ وراءنا. قال غوليالمو إنه من الأحسن أن لا نغلقه اذ لا نعرف ان كنّا سنقدر من بعد على فتحه. وأمّا عن احتمال أن يكتشف أحد وجودنا، فان من سيأتي في تلك الساعة ويحرك نفس الآلية يعرف كيفية الدخول ولن يوقفه على كلّ حال ممرّ مغلق.

ونزلنا ما يقرب عن عشر درجات ثم دخلنا في رواق تنفتح فيه على الجانبين كوى أفقية، كما أتيح لي أن أرى فيما بعد في العديد من النواميس. ولكنها كانت المرة الأولى التي أدخل فيها الى المعظمة، وجمد دمي من الفزع. كانت عظام الرهبان قد جمعت طيلة قرون، بعد اخراجها من القبور، ووضعت في تلك الكوى دون محاولة اعادة تركيب هيئة الجسم. فكانت بعض الكوى مليئة بعظام صغيرة، وأخرى بجماجم، مرتبة بشكل هرم، حتى لا تتدحرج الواحدة فوق الأخرى. كان حقّا منظرا مرعبا، خاصة مع تلاعب الظلال والأنوار التي يرمي بها السّراج على مدى الطريق. وفي كوّة لم أرى إلاّ أيد، مجموعة هائلة من الأيدي، أصبحت متماسكة الى الأبد، وقد تشابكت أصابعها الميتة. وأطلقت صيحة في ذلك المكان الآهل بالأموات، وقد أحسست للحظة أن هناك شيئا حيّا، وصفيرا، ثم حركة خاطفة في العتمة. فطمأنني غوليالمو قائلا انها فئران.

ـ ماذا تفعل الفئران هنا؟

ـ انها تمرّ، كما نمرّ نحن، لأن المعظمة تقود الى الصّرح، واذن الى المطابخ، والى كتب المكتبة اللذيذة. الآن تفهم لماذا كان وجه ملاخي صارما بتلك الصفة. فمهامّه تجبره على المرور من هنا مرتين في اليوم، في المساء وفي الصباح. أكيد أنه لا يجد أي دافع للضحك.

فسألته دون سبب : ـ ولكن لماذا لا يذكر الانجيل أبدا أن المسيح كان

يضحك؟ هل الحقيقة كما قال يورج؟

ـ ان الذين تساءلوا هل ضحك المسيح قطّ كثيرون جدا. والأمر لا يهمني كثيرا. أعتقد أنه لم يضحك أبدا، لأنه كان عالما بكل شيء كما ينبغي أن يكون ابن الرّب وكان يعرف اذن ماذا سنفعل نحن، المسيحيين. ولكن ها نحن قد وصلنا.

وفعلا انتهى الرواق والحمد لله، وبدأت مجموعة أخرى من الدرجات وبعد أن تجاوزناها لم يبق إلاّ أن ندفع بابا من اللوح الغليظ المقوى بالحديد، فوجدنا نفسينا وراء مدفأة المطابخ، بالضبط تحت السلم الحلزوني الذي يؤدي الى قاعة الكتابة. وبينما كنا نصعد، خُيِّل إلينا أننا سمعنا صوتاً آتياً من فوق. فبقينا لحظات في صمت ثم قلت :

ـ مستحيل، لم يدخل أحد قبلنا.

ـ ذلك اذا ما افترضنا أن هذه الطريق الوحيدة المؤدية الى الصّرح. في القرون الماضية كانت هذه قلعة، وقد يكون هناك من الممرات السرية أكثر مما يمكن أن نتصوّر. لنصعد بأناة، ولكن ليس لنا الخيار. إن أطفأنا السراج لن نتعرف على طريقنا وإن تركناه مشتعلا أنذرنا من هو موجود من فوق. أملنا الوحيد، إن كان هناك أحد، أن يكون خوفه أشدّ من خوفنا.

ووصلنا الى قاعة الكتابة، خروجا من البرج الجنوبي. كانت طاولة فينانسيو توجد في الجهة المعاكسة بالضبط. وكان سراجنا لا يُنير في تنقلنا إلاّ أذرع قليلة من الجدار، لأن القاعة كانت فسيحة جدا. وأملنا أن لا يكون هناك أحد في الساحة يرى النور من خلال النوافذ. كانت الطاولة تبدو مرتبة، ولكن غوليالمو انحنى ليعاين الأوراق في الرف السّفلي وبعث بصيحة تنمّ عن خيبة الأمل فسألته: هل ينقص شيء؟

ـ لقد رأيت اليوم هنا كتابين، وكان أحدهما باليونانية. وهذا الأخير غير موجود. لقد أخذه أحدهم، وبكثير من العجلة، لأن رقّا سقط هنا على الأرض.

ـ ولكن الطاولة كانت محروسة. . .

ـ أكيد، قد يكون أحدهم لمسها منذ قليل. ولعلّه لا يزال هنا ـ ثم التفت نحو الظلال ودوّى صوته قائلا : ـ ان كنت هنا حاذر على نفسك! ـ وبدت لي فكرة طيبة : كما قال غوليالمو منذ حين، من الأفضل أن يكون خوف من يثير فينا

الخوف أشدّ من خوفنا.

ثم وضع غوليالمو الورقة التي وجدها تحت الطاولة وقرّب منها وجهه، وطلب مني أن أضيئه. فقرّبت منه السراج ورأيت ورقة نصفها الأول أبيض، والنصف الثاني مغطّى بأحرف دقيقة جدا، تعرفت من خلالها بصعوبة على مصدرها. فسألته :

ـ هل هي يونانيّة؟

ـ نعم، ولكنني لا أفهم جيّدا. ـ وأخرج من ثنايا ثوبه عدستيه ووضعهما باحكام فوق أنفه، ثم قرّب وجهه أكثر :

ـ انها يونانية، كتبت بأحرف صغيرة جدا، وعلى كلّ حال بدون نظام، حتى بالعدستين أقرأ بصعوبة. يلزم نور أكثر. اقترب. . .

كان قد أخذ الورقة ممسكا اياها أمام وجهه وأنا، بغباوة، بدلا من أن أمرّ خلف كتفيه وأن أمسك بالنور عاليا فوق رأسه، وقفت أمامه بالضبط. فطلب مني أن أتحول على الجانب، وفي تنقلي لامست النار قفا الورقة، فدفعني غوليالمو بعيداً وسألني إن كنت أريد أن أحرق له المخطوط، ثم صاح صيحة إعجاب. ورأيت علامات تظهر بوضوح في النصف الأعلى من الصفحة، غير محددة وذات لون أصفر كستنائي. فطلب مني غوليالمو السّراج وحرّكه وراء الورقة، مقربا النار من سطح الرّق بحيث تُسخّنه دون أن تلمسه. وببطء، وكأن يدا خفيّة أخذت تكتب «Mane, Tekel, Fares» ورأيت رسوما لا تشبه أي نوع من الحروف إلاّ تلك التي يستعملها المنجمون، تظهر واحدة بعد الأخرى، كلّما حرك غوليالمو السّراج بينما الدخان الخارج من طرف الجذوة كان يسوّد القفا. فقال غوليالمو :

ـ رائع! اننا نمرّ من هام الى أهمّ! ـ ثم نظر حواليه وقال : ولكن من الأحسن أن لا نعرض هذا الاكتشاف الى تحيّلات ضيفنا المجهول، ان كان لا يزال هنا. . . ـ ثم خلع العدستين ووضعهما على الطاولة ولفّ الرقّ بعناية ثمّ خبأه بين ثنايا ثوبه. كنت لا أزال مندهشا لتلك السلسلة من الأحداث التي أقل ما يمكن أن يقال فيها انها معجزة، وكنت على وشك أن أسأله بعض الشروح، عندما لفت انتباهنا صوت مفاجىء وحادّ. كان يأتي من أسفل السلّم الشرقي المؤدي الى المكتبة. فصاح غوليالمو : ـ ان صاحبنا هناك، أمسك به!

واندفعنا نحو تلك الجهة، وكان هو أسرع مني لأنني كنت أحمل النور. ثم

سمعت صوت جسم يتعثّر ويسقط، فأسرعت ووجدت غوليالمو عند أسفل السلّم وهويتفحص مجلدا ضخما تشدّ غلافه اسطوانات من المعدن. وفي نفس اللحظة سمعنا صوتا آخرا صادراً من الجهة التي أتينا منها. فصاح غوليالمو : يا لي من غبّي! اسرع إلى طاولة فينانسيو!

وفهمت أن أحدا كان مختفيا في الظلمة وراءنا ورمى بالمجلّد كي يبعدنا.

ومرة أخرى كان غوليالمو أسرع مني والتحق بطاولة فينانسيو وبينما كنت أتبعه لمحت بين الأعمدة ظلاّ يختفي، متخذا سلم البرج الغربي.

وأخذني حماس المحارب فسلّمت السراج لغوليالمو ورميت بنفسي في الظلمة نحو السلّم الذي نزل منه الهارب. كنت أحسّ بنفسي في تلك اللحظة كمحارب المسيح في كفاح ضدّ كتائب الجحيم كلّها، وكنت أتّقد رغبة في القبض على المجهول لتسليمه الى أستاذي. وتدحرجت، ان صحّ القول على السلّم الحلزوني متعثرا في أطراف ثوبي (وأقسم انها كانت تلك المرة الوحيدة التي ندمت فيها على الدخول في نظام رهباني!) ولكن في نفس اللحظة تعزيت، كان خاطرا دام ومضة عين، مفكرا أن خصمي أيضا كان يعاني دون شك من نفس العرقلة. بل وأكثر، ان كان قد سرق الكتاب، لأن يديه ستكونان مشغولتين. واندفعت الى المطبخ وراء فرن الخبز، وفي ضوء الليلة المليئة بالنجوم التي كانت تنير الرواق الفسيح، رأيت الشبح الذي كنت ألاحقه، وهو يدخل من باب قاعة الأكل مغلقا الباب وراءه. وأسرعت نحو ذلك الباب ووجدت صعوبة في فتحه ولكنني بعد لحظات تمكنت من الدخول ونظرت حوالي فلم أر أحدا. كان الباب الذي يفتح على الخارج لا يزال موصدا. التفت ورائي، لا شيء غير الظلمة والصمت. ثم لمحت نورا آتيا من المطبخ فاتكأت على حائط، وعلى العتبة التي تفصل بين القاعتين ظهر شبح يضيئه نور. صحت. كان غوليالمو :

ـ لا أحد؟ لقد توقعّت ذلك. انه لم يخرج من باب من الابواب. هل اتخذ الممرّ عبر المعظمة؟

ـ كلاّ، لقد خرج من هنا، ولكن لا أدري من أين؟

ـ لقد قلت لك أن هناك ممرّات أخرى، ولا فائدة من البحث عنها. قد يكون صاحبنا الآن خارجا من بعض الأماكن البعيدة. ومعه عدستيّ.

ـ عدستاك؟

ـ فعلا، هو كذلك، لم يقدر أن يفتكّ مني الورقة ولكنّه عند مروره قرب الطاولة، وبحضور ذهني كبير، أخذ عدستيّ.

ـ ولماذا؟

ـ لأنه ليس غبيا. لقد سمعني أتحدث عن هذه المذكرة وفهم أنها هامّة، ففكّر انه دون العدستين لن يكون بامكاني فكّ رموزها، ويعرف بكلّ تأكيد انني لن أثق بأحد لاظهارها له. وفعلا، الآن أصبحت وكأنني لا أملكها.

ـ ولكنه كيف كان على علم بعدستيك؟

ـ ماذا تقول! بقطع النظر عن كوننا تحدثنا عن ذلك بالأمس مع الزّجّاج، فقد وضعتهما هذا الصباح في قاعة الكتابة لأتفحص بهما أوراق فينانسيو. واذن كثيرون يعرفون الآن قيمة تلك الأداة واهميّتها. وفعلا أستطيع أن أقرأ مخطوطاً عادياً، ولكن ليس كهذا ـ وكان يحلّ من جديد لفافة الرق الغامض ـ حيث كانت أحرف الجزء المكتوب باليونانية صغيرة جدّا، بينما كان الجزء الأعلى غامضاً تماما. . .

وأراني الرسوم الغامضة التي ظهرت، بصفة تكاد تكون سحرية، بفعل حرارة النار وقال : «لقد أراد فينانسيو أن يخفي سرّا هامّا وأستعمل حبرا لا يترك أثرا ويظهر عن طريق الحرارة. أو استعمل عصير الليمون. ولكن بما أنني لا أعرف أي مادّة استعمل، ويمكن ان تختفي الرسوم من جديد، اسرع انت، بما أن نظرك جيّدا، وانسخها حالا بأكثر ماتستطيع من الدقة وبحروف أكبر قليلا ان أمكن.

وهكذا فعلت دون أن أعرف ماذا كنت أنسخ. كانت مجموعة من أربعة أو خمسة سطور تنتمي حقيقة الى عالم الشعوذة، وأستحضر منها الآن العلامات الأولى فقط كي أعطي للقارىء فكرة عن الغموض الذي كان تحت أنظارنا :

♐☉☿♏☉♑♒♓ ♂♈♋♈♐ ♁♂♏♈☿♁☉

عندما انتهيت من النسخ نظر غوليالمو، للأسف دون عدستيه، ممسكا بلوحتي على مسافة بعيدة عن أنفه وقال : ـ انها دون شكّ حروف غامضة وينبغي فك رموزها. ولم تُرسم العلامات جيدا وربما نقلتها أنت بصفة أسوأ، ولكنها دون شك حروف بروجية. أترى؟ في السطر الأول عندنا. . . ـ وأبعد الورقة أكثر،

مضيّقا عينيه ومركزا جهوده ثم قال : الرامى، الشمس، عطارد، العقرب. . .
ـ وماذا تعني؟
ـ لو كان فينانسيو ساذجا| لا ستعمل الحروف البروجية المعتادة أكثر أي : أ، تساوي الشمس، ب تساوي الزهرة. . . السطر الأول يعني اذن. . . حاول أن تنقل : RAIQASVL . . . ـ ثمّ توقّف : لا، لا يعني شيئا، ولم يكن فينانسيو غبيّا. لقد أعاد تركيب الحروف حسب مفتاح آخر وينبغي أن أكتشفه.

فسألته باعجاب : وهل ذلك ممكن؟

ـ نعم، لو كان لدينا القليل من معرفة العرب. ان أروع الدراسات حول الشفرات الغامضة كتبها علماء كفّار، وفي أكسفورد استطعت ان أحصل على احداها لقراءتها. لقد صحّ قول باكون عندما أكّد أن التمكن من العلم يمرّ من خلال معرفة اللغات. لقد كتب أبوبكر أحمد بن علي بن واشية النباتي، منذ عدة قرون، كتاب «رغبة المخلص الغامرة في معرفة رموز الكتابات الغابرة»، وعرض عدة قواعدلتركيب ولفكّ رموز الحروف الغامضة، صالحة للشعوذة ولكن ايضا للمراسلة بين الجيوش، أو بين ملك وسفرائه. لقد رأيت كتبا عربية تعرض مجموعة من الوسائل حقا عبقرية. يمكنك مثلا أن تعوّض حرفا بحرف آخر، أو أن تكتب الحرف مقلوبا، أو أن تضع الحروف في نظام معاكس، أو أن تأخذ مرة حرف وأخرى لا، ثمّ تعيد الكرّة من جديد. يمكنك كما هو الحال هنا تعويض الحروف بالعلامات البروجية، معطيا للحروف الخفية قيمتها العدديّة وبعد ذلك، حسب حروف أبجدية أخرى، تعويض الأرقام بالحروف.
ـ وأي طريقة أتخذ فينانسيو من بين هذه الطرق؟
ـ ينبغي محاولتها كلها، وأخرى زيادة عنها. ولكن القاعدة الأولى لفكّ رمز رسالة هو معرفة ماذا تعني.

فضحكت قائلا : اذن لا داعي عندئذ لفك رموزها.

ـ ليس بذلك المعنى. ولكن بوسعنا أن نصوغ بعض الافتراضات حول المعنى الذي يمكن أن تؤديه الكلمات الأولى للرسالة، ثم التحقق إن كانت القاعدة المستخرجة منها صالحة لبقية المكتوب. مثلا، من المؤكد أن فينانسيو قد سجّل المفتاح للدخول الى «finis Africae». لو بنيت الفكرة على أن الرسالة تتحدث عن ذلك، ها انني أجد نسقا ينيرني. . . حاول ان تنظر الى الكلمات الثلاث

الأولى، لا تعط أهمية للحروف بل انتبه لعدد العلامات فقط . . . IIIIII IIIII IIIIIII. . . الآن حاول أن تقسّمها الى مقاطع يتركب كل منها من علامتين على الأقل واقرأ بصوت مرتفع : طا طا طا، طا طا، طا طا طا. . . ألا تذكرك بشيء؟

ـ أنا؟ لا شيء.

ـ أما أنا فنعم. ...Secretum finis Africae ولكن اذا كان الامر هكذا فسيكون في الكلمة الأخيرة حرف أول وسادس متماثلين، وفعلا هو كذلك، ها نحن نجد مرّتين رمز الأرض والحرف الأول في الكلمة الأولى، حرف «S» يكون مماثلا للحرف الأخير من الكلمة الثانية : وفعلا نجده أعاد رسم رمز العذراء. قد نكون على الطريق الصحيحة وقد تكون سلسلة من الصدف فقط. ينبغي ايجاد قاعدة التطابق.

ـ ايجادها أين؟

ـ في الرأس. خلقها. ثم التحقق ان كانت صحيحة. ولكن بين تجربة وأخرى سأضيع في هذه اللعبة يوما كاملا. لا أكثر ـ تذكّر ـ لأنه ليست هناك كتابة سريةلا يمكن فكّ رموزها بقليل من الصبر. ولكننا الآن قد نتعطل بينما نريد زيارة المكتبة. زد على ذلك أنه دون عدستي لن أقدر أبدا على قراءة الجزء الثاني من الرسالة، وأنت لا تستطيع مساعدتي لأن هذه العلامات بالنسبة اليك. . .

فأكملت متصاغراً «يونانيّة ولا يمكنني قراءتها».

ـ فعلا، كما ترى كان باكون على حقّ. ادرس! ولكن لا ينبغي أن نفقد العزم. لنحفظ الرق ومذكرتك ثم نصعد الى المكتبة، لأن هذا المساء لن تمنعني عن ذلك ولو عشر كتائب من الجحيم.

فرسمت علامة الصليب وسألته : ـ من تظن سبقنا الى هنا؟ بانشيو؟

ـ بانشيو قد يتّقد رغبة في معرفة ماذا يوجد بين أوراق فينانسيو، ولكنه لا يبدو لي قادرا أن يلعب لنا دور لئيما كهذا. في نهاية الأمر قد عرض علينا تحالفا، ثم لا يبدو لي من الشجاعة بحيث يدخل الى الصّرح أثناء الليل.

ـ اذن برينغاريو؟ أو ملاخي؟

ـ برينغاريو يبدو لي قادرا على القيام بأعمال من هذا القبيل. فهو في نهاية الأمر مكلف أيضا بالمكتبة، وهو فريسة لتوبيخ الضمير لأنه خان بعض أسرارها. يظن أن فينانسيو سرق الكتاب وكان يريد اعادته الى مكانه. لم يستطع الصعود

والآن قد أخفى الكتاب في مكان ما، واذا ما كان اللّه في عوننا، سنفاجئه ويده في الكيس عندما سيحاول اعادته الى موضعه.

ـ ولكن يمكن أن يكون ملاخي، فان نفس الدوافع تحرّكه.

ـ لا أظن. فقد سنح لملاخي كل الوقت الذي يريده للتفتيش في طاولة فينانسيو عندما بقي وحده لغلق الصّرح. كنت أعرف ذلك جيدا ولم تكن لدى أية وسيلة لتفاديه. الآن نعرف أنه لم يفعل ذلك. واذا ما فكرت جيدا، ليس لدينا دافع للظن أن ملاخي كان يعرف أن فينانسيو دخل الى المكتبة وأخذ منها شيئا. هذا يعرفه برينغاريو وبانشيو ونعرفه أنا وأنت. وبعد اعتراف أدالمو يمكن أن يكون يعرفه يورج، ولكنه، دون شك، ليس رجلا بمقدوره ان يندفع بتلك القوة في سلّم حلزوني...

ـ اذن، اما برينغاريو أو بانشيو...

ـ ولِمَ لا يكون باتشيفكو دا تيفولي أو أحد الرهبان الذين رأيناهم اليوم؟ أو نيكولا الزجّاج، فهو على علم بنظاراتي؟ أو ذلك الشخص الغريب سلفاتوري، الذي قالوا لنا انه يطوف أثناء الليل والله أعلم لقضاء أي شأن؟ ينبغي أن نحاذر من تضييق حلقة المشتبهين فقط لأن مكاشفات بانشيو وجهتنا نحو اتجاه واحد. قد يكون هدف بانشيو أن يضلّلنا.

ـ ولكنه كان يبدو لك صادقا.

ـ أكيد، ولكن تذكّر أن أوّل ما يجب على المحقق الكفء هو أن يشكّ بادىء ذي بدء فيمن يبدون له صادقين.

ـ انها لمهنة بغيضة تلك التي يقوم بها المحقق.

ـ لذلك تركتها، والآن كما ترى يجب عليّ الرجوع اليها. هيّا بنا الآن. الى المكتبة.

ليْـــلاً

وفيه يتوغل أدسو وغوليالمو أخيرا داخل المتاهة، وتحدث لهما رؤى عجيبة ثم، وكما يقع عادة في المتاهات، يتيهان.

صعدنا من جديد الى قاعة المكتبة، وهذه المرة عبر السلم الشرقي الذي يصعد أيضا الى الطابق المحجر، يسبقنا السّراج عاليا أمامنا. وكنت أنا أفكر في كلمات أليناردو حول المتاهة منتظرا أن أرى أشياء مرعبة.

وفوجئت عندما صعدنا إلى المكان الذي كان ينبغي أن لا ندخله، لما وجدت نفسي في قاعة ذات سبعة جوانب، ليست فسيحة جدا ولا توجد بها نوافذ، وكانت تسودها كباقي الطابق رائحة قوية من الانغلاق والتعفن. ولا شيء يبعث على الرعب.

قلت ان القاعة كانت ذات سبعة جوانب، ولكن في أربعة منها فقط ينفتح، بين عمودين مندمجين في الحائط، ممرّ على شيء من الاتساع يعلوه قوس ذو عقد كامل. وعلى طول الجدران الخالية من النوافذ تقف خزائن ضخمة محملة بكتب مرصوفة بنظام. وعلى كل خزانة بطاقة تحمل رقما وكلّ رف منها يحمل بطاقة مماثلة : من الواضح انها كانت نفس الارقام التي رأيناها في الفهرس. وفي وسط القاعة طاولة محملة هي أيضا بالكتب. وكان على كل الكتب غشاء خفيف من الغبار، مما يدل على أن الكتب كانت تنظف بشيء من الانتظام، وحتى الأرض كانت خالية من الأقذار من أي نوع كانت. وفوق قوس أحد الأبواب رشم كبير رسم على الحائط يحمل هذه الكلمات : Apocalypsis Iesu Christi ولم تفقد الكتابة لونها حتى وان كانت قديمة. ولا حظنا فيما بعد وفي القاعات الأخرى أيضا ان تلك الكتابات كانت في الحقيقة محفورة في الحجارة، وبعمق أيضا، ثم مُلىء التجويف بالألوان كما يقع العمل في الرسم بالألوان على جدران الكنائس.

ومررنا عبر أحد المنافذ فوجدنا نفسينا في قاعة أخرى توجد بها نافذة كانت تحمل عوضا عن الزجاج صفائح من المرمر الأبيض. ولها جداران مليئان ومنفذ يشبه المنفذ الذي مررنا منه يؤدي الى قاعة أخرى لها جداران مليئان هي أيضا وواحد يحمل نافذة، وباب آخر ينفتح أمامنا. وفي القاعتين رشمان شبيهان في شكليهما بالأول الذي رأيناه ولكن بكلمات أخرى. ويقول رشم الأولى : Super thronos viginti quatuor ورشم الثانية : Nomen illis mors. وماعدا ذلك، ولو أن القاعتين كانتا أصغر من التي دخلنا منها إلى المكتبة (وفعلا، كانت هذه مسبعة الأضلاع بينما كانت الأخريان مستقيمتي الأضلاع)، فان الأثاث كان هو نفسه : خزائن مليئة بالكتب وطاولة في الوسط.

ثم مررنا إلى القاعة الثالثة. كانت خالية من الكتب ولا تحمل رشما وكان تحت النافذة مذبح من الحجارة كما كان يوجد بالقاعة ثلاثة أبواب، الباب الذي دخلنا منه، والباب الذي يؤدي الى القاعة المسبّعة الأضلاع التي زرناها، وباب ثالث أدّى بنا إلى قاعة جديدة، غير مختلفة عن الأخريات، ما عدى الرشم الذي كان يقول : Obscuratus est sol et aer ومن هناك مررنا إلى قاعة أخرى تقول كتابتها : Facta est grando et ignis ولم تكن بها أبواب، أو بالأحرى، بعد الوصول إلى تلك القاعة لا يمكن المضي إلى الامام وينبغي الرجوع إلى الوراء.

فقال غوليالمو : لنفكر. خمس قاعات مربّعة الزوايا أو شبيهة بالمنحرف، تحمل كل منها نافذة وتحيط كلها بقاعة مسبعة الأضلاع دون نوافذ، يصعد اليها السلم. بسيطة. إننا في البرج الشرقي. كل برج يظهر من الخارج خمس نوافذ وخمسة جوانب. الحساب مضبوط. القاعة الفارغة هي فعلا تلك التي تطل على الشرق، في نفس اتجاه محراب الكنيسة وأشعة االفجر تضيء المذبح وهذا يدل على الصواب والتقوى. والفكرة الوحيدة التي تبدو لي ذكية هي صفائح المرمر الأبيض. في النهار ينفذ من خلالها ضوء جميل وفي الليل لا تنفذ منها حتى أشعة القمر. في آخر الأمر ليست متاهة كبيرة. لنر الآن أين يؤدي البابان الآخران الموجودان في القاعة المسبّعة الأضلاع. أظن أننا سنجد وجهتنا بسهولة.

لقد أخطأ أستاذي وكان بناة المكتبة أكثر مهارة ممّا كنا نظن. لا أعرف كيف أفسر جيّدا ما حصل، ولكن عندما تركنا البرج، أصبح نظام القاعات أكثر فوضى. فقد كان بعضها ذا بابين والبعض الآخر ذا ثلاثة. وكانت لكل واحدة منها

نافذة، حتى تلك التي دخلناها آتيين من قاعة ذات نافذة وقد توقعنا اننا سنذهب داخل المبنى. وكانت لكل قاعة دائما خزائن من نفس النوع وطاولات، وكانت الكتب المكدسة في نظام جميل كلها متشابهة ولا تعيننا البتة على التعرف بنظرة واحدة على المكان. فحاولنا أن نتجه متبعين الرسوم، فاجتزنا مرة قاعة تحمل كتابة تقول : In diebus illis وبعد طواف وجيز بدا لنا اننا عدنا الى هناك، ولكننا كنا نتذكر أن الباب أمام النافذة كان يؤدي الى قاعة تحمل كتابة تقول : «Primogenitus mortuorum»، بينما نجد الآن كتابة أخرى تقول من جديد : «Apocalypsis Iesu Christi»، وليست القاعة المسبّعة الأضلاع التي بدأنا منها. وهذا الأمر أقنعنا ان الرشوم تعاد هي نفسها في قاعات مختلفة. ووجدنا قاعتين تحملان : «Apocalypsis»، الواحدة تلو الأخرى تتبعهما حالا أخرى تحمل : «Cecidit de coelo stella magna»

كان معنى الجُمل التي تحملها الرشوم واضحا، هي أبيات من رؤيا يوحنا، ولكن لم يكن واضحا بالمرّة لماذا رسمت على الجدران، ولا حسب أي منطق رتبت. ومما زاد في حيرتنا، اننا لاحظنا أن بعض الرشوم، وليست كثيرة، كانت باللون الأحمر بدلا عن الأسود.

وفجأة وجدنا نفسينا في القاعة المسبعة الأضلاع التي بدأنا بها (كان من السهل التعرف عليها لأن مخرج السلم يفتح فيها)، ومضينا على يميننا محاولين المضي دائما الى الأمام مارين من قاعة الى أخرى. فاجتزنا ثلاث قاعات ثم وجدنا نفسينا أمام جدار مغلق. كان الممر الوحيد الموجود يؤدي الى قاعة أخرى بها باب واحد، لما خرجنا منه اجتزنا أربع قاعات أخرى ووجدنا نفسينا من جديد أمام جدار. فعدنا الى القاعة السابقة التي كان بها بابان واجْتزنا الباب الذي لم نجرّبه من قبل، ومررنا الى قاعة أخرى فوجدنا نفسينا من جديد في القاعة المسبعة الأضلاع التي بدأنا منها، فسألني غوليالمو : ـ ماذا كانت تسمّى القاعة الأخيرة التي رجعنا منها؟

فاجتهدت كي أجمع ذاكرتي وقلت : «Equus albus»

ـ حسناً، لنعد اليها.

وكان ذلك سهلا. من هناك ان أردنا أن لا نعود على أعقابنا فليس علينا ألاّ أن نمرّ من القاعة المسماة «Gratia vobis et pax»، ومن هناك، على اليمين بدا لنا

أننا وجدنا ممرا آخر يعيدنا من حيث أتينا. وفعلا وجدنا من جديد قاعتي «In diebus illis» و «Primogenitus mortuorum» (هل كانتا نفس القاعتين اللتين رأيناهما منذ حين؟) وأخيرا وصلنا إلى قاعة لم يبد لنا اننا زرناها من قبل تحمل كتابة «Tertia pars terrae combusta est» ولكن عند ذلك الحد لم نعد نعرف أين كنّا نوجد بالنسبة الى البرج الشرقي.

وتقدمت نحو القاعات الموالية ويدي يسبقني بالسراج. واذا بعملاق ذي هامة مخيفة وجسم متموج وسابح كجسم الشبح يتقدم نحوي فصحت : «الشيطان!» وكاد السّراج أن يقع من يدي بينما درت على نفسي دورة واحدة وهربت لألتجىء بين أحضان غوليالمو. فأخذ من يدي السّراج وبعد أن أبعدني عنه تقدم بعزم بدا لي رائعا. ورأى هو أيضا شيئا، لأنه تراجع فجأة الى الوراء ثم تقدم من جديد ورفع المصباح وانفجر ضاحكا : ـ فكرة عبقرية حقا. انها مرآة!

ـ مرآة؟

ـ نعم، أيها الفارس الشجاع. أنت الذي لاحقت بكل شجاعة عدوا حقيقيا في قاعة الكتابة، ترعبك الآن صورتك. مرآة تردّ اليك صورتك مضخمة وملتوية.

ثم أخذني من يدي وقادني أمام الجدار الذي يقع تجاه مدخل القاعة. في صفيحة من البلور متموجة رأيت صورتينا، الآن وقد أضاءهما النور من قريب، مشوهتين بصفة غريبة، ويتغيّر شكلهما وقامتهما كلما اقتربنا أو ابتعدنا عنها.

فقال غوليالمو بمرح : ـ يجب أن تقرأ بعض الكتب في علم البصريات كما قرأها دون شك مؤسسو هذه المكتبة. وأحسنها هي كتب العرب. لقد ألف الخازن كتابا بعنوان «زيج الصفائح» حيث يتحدث، مستدلاً ببراهين دقيقة في علم المساحة، عن قوة المرايا. فبعضها، حسب الشكل الذي صنع به سطحها، تستطيع أن تضخم الأشياء الصغيرة جدا (وليست عدستاي إلاّ ذلك)، وأخرى تظهر الصور منقلبة، أو مائلة، أو تظهرُ شيئين عوضا عن واحد، وأربعة عوضا عن اثنين. وأخرى كهذه تجعل من القزم عملاقا ومن العملاق قزما.

فقلت : يا الهي، هذه اذن الرؤى التي قال أحدهم انه رآها في المكتبة؟

ـ قد يكون. انها فكرة عبقرية جدا. ـ ثم قرأ الكتابة على الحائط، فوق المرآة : «Super thronos viginti quatuor»، لقد عثرنا عليها من قبل، ولكن القاعة كانت دون مرآة، ومن ناحية أخرى لا توجد بهذه نوافذ ومع ذلك فهي ليست

مسبّعة الأضلاع. أين نحن؟ ـ ثم نظر حواليه واقترب من خزانة : ـ أدسو، بدون تلك العدستين المجعولتين للقراءة لا أقدر على فهم ما هو مكتوب على هذه الكتب. اقرأ لي بعض العناوين،

فأخذت من بينها كتابا : ـ سيدي ليس مكتوبا!

ـ كيف؟ أرى أنه مكتوب. ماذا تقرأ؟

ـ لا أقرأ. ليست حروفا أبجدية ولا يونانية، لو كانت كذلك لكان بامكاني التعرف عليها. تبدو ديدانا أو ثعابين، أو وسخ ذباب. . .

ـ آه، انها عربية. هل هناك كتب أخرى مثل هذا؟

ـ نعم، البعض. ولكن ها واحد باللاتينية، ان شاء الله. الـ. . .، الخوارزمي،

ـ لوحات الخوارزمي الفلكية، ترجمها أديلاردو دا باث! انه كتاب نادر جدا! واصل.

ـ عيسى بن علي، «في علم البَصر»، الكندي، «حول أشعّة الكواكب».

ـ انظر الآن فوق الطاولة.

ففتحت كتابا كبيرا كان موضوعا على الطاولة، كتاب «الحيوان» وعثرت على صفحة منمنمة بدقة وتمثل وحيد قرن جميلا جدا. فقال غوليالمو معلقا : «انها من نمط رفيع»، ـ وكان بامكانه أن يرى جيدا الصور. والآخر؟

فقرأت « كتاب الوحوش بمختلف أنواعها». وهذا أيضا كان يحمل صورا جميلة ولكنها كانت تبدو لي أكثر قدما.

فانحنى غوليالمو بوجهه على النص : لقد نمنمه رهبان ارلنديون منذ خمسة قرون على الأقل. أما كتاب وحيد القرن فهو أحدث بكثير، ويبدو لي عمل رهبان فرانشسكانيين.

وأعجبت مرة أخرى بسعة علم أستاذي. ثم دخلنا الى القاعة الموالية، واجتزنا القاعات الأربع الموالية، وكانت كلها ذات نوافذ ومليئة بكتب في لغات مجهولة، مع بعض النصوص في علم التنجيم، ووصلنا الى جدار ألزمنا على الرجوع الى الوراء لأن الخمس قاعات الأخيرة كانت تفضي الواحدة إلى الأخرى دون امكانية للخروج.

فقال غوليالمو : حسب انحناء الجدران، نحن نوجد الآن في مخمس برج آخر. ولكن لا توجد هنا قاعة وسطى مسبعة الأضلاع، قد نكون أخطأنا. فقلت :

ولكن النوافذ؟ كيف يمكن أن توجد نوافذ بهذا العدد؟ من المستحيل أن تفتح كل القاعات على الخارج.

ـ لقد نسيت البئر الوسطى، ان الكثير من تلك النوافذ التي رأيناها تفتح على مثمن البئر. لو كان الوقت نهارا لاستطعنا أن نتبيّن، من اختلاف النور، النوافذ الخارجية من النوافذ الداخلية، ويمكن أن يرشدنا حتى إلى موقع القاعة بالنسبة الى الشمس. ولكن في الليل لا يمكن ملاحظة أي فارق. لنعد الى الوراء. ورجعنا الى قاعة المرآة ثم انعطفنا نحو الباب الثالث الذي ظننا أننا لم نمرّ منه بعد. فرأينا أمامنا أربع أو خمس قاعات متتابعة، ونحو القاعة الأخيرة لمحنا نورا ضعيفا. فصحت بصوت مختنق : هناك أحد!

فقال غوليالمو : «ان كان هناك فقد تفطن الى ضوئنا» ـ وغطّى مع ذلك السراج بيده. وبقينا كذلك دقيقة أو دقيقتين. وبقي الضياء يتراقص ببطء، ولكن دون أن يقوى أو يضعف.

فقال غوليالمو : قد يكون سراجا لا غير، من تلك التي وضعت لتقنع الرهبان بأن أرواح الموتى تسكن المكتبة. ولكن ينبغي أن نعرف. ابق انت هنا مغطيا الضوء، سأتقدم أنا بحذر.

كنت لا أزال خجلا من سلوكي الجبان منذ حين أمام المرآة وأردت أن أصلح من موقفي أمام غوليالمو فقلت : لا، سأذهب أنا، ابق أنت هنا. سأتقدم بحذر، فقامتي أصغر وأنا أخفّ. حالما أتأكد ان لا خطر هناك سأناديك.

وهكذا فعلت. تقدمت من قاعة الى أخرى محاذيا الجدران، خفيفا كالقط (أو كمبتدىء ينزل الى المطبخ ليسرق الجبن من المخزن، وكنت ماهرا في هذه العملية وأنا في دير مالك). ووصلت الى عتبة القاعة التي كان الضياء الضعيف يأتي منها، ملاصقا الجدار خلف العمود الذي كان يكوّن قائمة الباب اليمنى وألقيت نظرة على القاعة. لم يكن بها أحد. كان هناك شيء يشبه القنديل موضوعا على الطاولة، وكان يشتعل محدثا دخانا خفيفا. لم يكن قنديلا كقنديلنا، كان أشبه بمبخرة عارية، ولم يكن بها لهيب بل رماد خفيف كان يحترق فيه شيء. فتشجعت ودخلت. على الطاولة، قرب المبخرة كان يوجد كتاب مفتوح ذو ألوان زاهية. فاقتربت ولمحت على الصفحة إربع شرائط بألوان مختلفة، أصفر وزنجفر وفيروزي وكستنائي. وكانت تبرز وحشا فظيع المرأى، تنّيناً هائلاً ذا

عشرة رؤوس وكان يجذب بذنبه نجوم السماء ويقذفها على الأرض. وفجأة رأيت التنّين يتعدّد وحراشف جلده تصبح غابة من الشظايا المتوهجة تنفصل عن الورقة وتأخذ في الدوران حول رأسي. فسقطت الى الوراء ورأيت سقف القاعة ينحني ويسقط فوقي، ثم سمعت صفيرا كأنه صفير ألف ثعبان، ولكن لم يرعبني، بل وكأنه فتنني، ثم ظهرت امرأة يحيط بها النور وقربت مني وجهها حتى وصل نفسها الى وجهي. فأبعدتها بيديّ الممدتين وخيّل إليّ أن يدي تمسّ كتب الخزانة المقابلة، أو أن الكتب كانت تكبر بافراط. ولم أعد أدري أين أنا، وأين توجد الأرض وأين السماء، ورأيت وسط القاعة برينغاريو يحدّق فيّ بابتسامة بغيضة ملؤها الفجور. فأخفيت وجهي بين يدي وبدت لي يدايا وكأنهما أعضاء ضفدع، لزجة وكفيّة الشكل. فصحت، أو خُيّل إليّ، وأحسست بمرارة في فمي ثم سقطت في ظلام لا متناه، كان ينفتح دائما أكثر تحتي ولم أدر شيئا بعد ذلك.

أفقت بعد مدة بدت لي قرونا وأنا أحس بضربات تدوي في رأسي. كنت ملقى على الأرض وكان غوليالمو يصفعني على خدي. لم أعد في تلك القاعة ورأت عيناي كتابة تقول: «ليستريحوا من أتعابهم»، بينما كان غوليالمو يهمس الي:

ـ «تشجع، تشجع يا أدسو. ليس هناك شيء...».

فقلت وأنا لا أزال أهذي: «الأشياء... هناك، الوحش..»،

ـ ليس هناك أي وحش. لقد وجدتك تهذي عند أسفل طاولة توجد فوقها نسخة مستعربيّة جميلة من سفر الرؤيا، مفتوحة في صفحة رسمت عليها «امرأة متسربلة بالشمس» وهي تواجه التنين. ولكنني تفطنت من الرائحة الى أنك تنفّست شيئا فاسدا وأبعدتك في الحال عن ذلك المكان. أنا أيضا أحس بوجع في رأسي.

ـ ولكن ماذا رأيتُ؟

ـ لم تر شيئا. انهم يحرقون هناك مواد قادرة على احداث رؤى. لقد تعرفت على الرائحة، انها مادة يستعملها العرب. قد تكون نفس المادة التي يعطيها شيخ الجبل لمجرميه كي يتنفسوها قبل أن يدفعهم الى أعمالهم الجنونية. وهكذا فسرنا سرّ الرؤى. ان أحدهم يضع أعشابا سحرية أثناء الليل لاقناع الزائرين الغير مرغوب فيهم بان المكتبة يحميها حضور شيطاني. ماذا أحسست في نهاية الأمر؟

فقصصت عليه دون نظام وحسب ما كنت أتذكر الرؤيا التي عشتها فضحك غوليالمو قائلا: ـ نصف الرؤيا هو ما رأيته في الكتاب والنصف الآخر تركت فيه

رغباتك ومخاوفك تتكلم. تلك هي العملية التي تنشطها تلك الأعشاب. ينبغي أن نتحدث في هذا غدا مع سيفيرينو، أظنه يعرف أشياء أكثر مما يريد أن يوهمنا. انها أعشاب، أعشاب لا غير، دون اللجوء الى التحضيرات السحرية التي حدثنا عنها صانع الزّجاج. أعشاب، مرايا.. مكان العلم هذا، المحجّر، تحرسه ابتداعات علمية كثيرة. هنا يستعمل العلم للتغطية عوضا عن الانارة. هذا لا يعجبني. ان عقلا منحرفا يترأس حماية المكتبة المقدسة. ولكنّنا قضينا ليلة مضنية، ينبغي الخروج الآن. أنت مضطرب وتحتاج الى ماء وإلى هواء منعش. من العبث أن نحاول فتح هذه النوافذ، انها عالية جدا وقد تكون مغلقة منذ عشرات السنين. كيف ذهب بهم الظن إلى أن أدالمو رمى بنفسه من هنا؟

لنخرج، هكذا قال غوليالمو، كما لوكان امرا سهلا. كنّا نعرف أنه لا يمكن الدخول الى المكتبة إلاّ من برج واحد، البرج الشرقي. ولكن أين كنا في تلك الآونة؟ لقد ضيعنا الوجهة تماما. وذلك الطواف الذي قمنا به، إضافة الى خوفنا من أن لا نخرج أبدا من ذلك المكان، بينما كنت أنا لا أزال مرتجّا مع رغبة من حين لآخر في التقيّؤ وبينما كان غوليالمو قلقا عليّ وساخطا على قلّة علمه، أوحى لنا أو بالأحرى إلى غوليالمو فكرة لليوم المقبل. يجب ان نعود الى المكتبة، اذا ما استطعنا الآن الخروج منها، بعود محترق أو بمادة أخرى يمكن أن تترك علامات على الجدران.

وفعلا أخذ غوليالمو يقول : «لايجاد طريق للخروج من متاهة، ليس هناك إلا وسيلة. عند كل عقدة جديدة، أي لم نمرّ بها من قبل، ينبغي وضع ثلاث علامات عند آخر المطاف. اذا ما تبين من خلال علامات سابقة على أحد مسالك العقدة، ان تلك العقدة قد مررنا بها من قبل، وضعنا في نهاية المطاف علامة واحدة. واذا ما اصبحت كل الممرات مميّزة بعلامات ينبغي عندئذ اتخاذ تلك الطريق رجوعا الى الوراء. اما اذا كان هناك ممر أو ممران دون علامات فينبغي اختيار واحد منهما ووضع علامتين فوقه. وعند المرور من منفذ يحمل علامة واحدة تضاف فوقه علامتان اخريان بحيث يصبح ذلك الممر يحمل ثلاث علامات. وستكون كل اجزاء المتاهة قد طرقت، اذا ما لم نمرّ أبدا، عند الوصول الى عقدة ما، من الممرّ الذي يحمل ثلاث علامات، إلاّ اذا ما لم يتبقّ أي ممرّ آخر خال من العلامات.

ـ كيف تعرف ذلك؟ هل أنت عالم في المتاهات؟

ـ كلا، كنت أذكر فقرة من نص قديم قرأته فيما مضى.

ـ ويمكن الخروج حسب هذه القاعدة؟

ـ يكاد يستحيل ذلك، حسب علمي. ولكننا مع ذلك سنحاول. ستكون لدي في الأيام المقبلة عدستان ويمكنني التوقف أكثر عند الكتب. فلعلّ رشوم الكتب تعطينا قاعدة الاتجاه حيث جعلتنا رشوم الممرّات نضلّ طريقنا.

ـ ستكون لديك عدستان؟ كيف ستفعل للعثور عليهما؟

ـ لقد قلت ستكون لدي عدستان. سأصنع أخريين. أظن أن الزجّاج لا ينتظر إلاّ فرصة مثل هذه للقيام بتجربة جديدة اذا ما كانت لديه الآلات اللازمة لنحت قطع الزجاج. أما عن قطع الزجاج فالدكان مليئ بها.

بينما كنا نطوف باحثين عن طريقنا أحسست فجأة، وسط أحدى القاعات، بيد خفيفة تداعب وجهي، بينما تعالى أنين ليس بالانساني ولا بالحيواني في تلك القاعة وفي القاعة المجاورة، كما لو كان هناك شبح يتجول من قاعة الى أخرى. كان علي أن أكون متهيئا الآن لمفاجآت المكتبة ولكن تملكني الرعب مرة أخرى وقفزت الى الوراء. ويبدو أن غوليالمو تعرّض هو الآخر لنفس التجربة اذ لمس خده رافعا السراج الى فوق وملتفتا حوله.

ثم رفع يده مشيرا الى جذوة النار التي بدت أكثر التهابا وبلّل اصبعه بريقه ورفعه أمامه قائلا : «الأمر واضح»، وأراني نقطتين على جدارين متواجهين، على ارتفاع قامة انسان، تنفتح فيهما كوّتان ضيقتان، عندما تقرب منهما يدك يمكنك أن تحس الهواء البارد الآتي من الخارج. وعندما تقرب منهما اذنك تسمع حفيفا كما لو كانت الريح تهب في الخارج.

فقال غوليالمو : «كان لا بد أن تكون للمكتبة طريقة للترويح وإلاّ لكان الهواء غير قابل للتنفس، خاصة في الصيف. ومن جهة أخرى تعطي هاتان الكوتان كمية محددة من الرطوبة حتى لا تيبس الرقوق. ولكن حكمة المؤسسين لم تتوقف عند هذا الحد. باختيارهم موقع هاتين الكوتين حسب زوايا محدّدة تمكنوا من جعل هبات الريح في الليالي العاصفة تدخل من هذه النافذة وتلتقي بهبات أخرى فتنحشر جميعها داخل القاعات محدثة تلك الأصوات التي سمعناها. وهذه، مع المرايا والأعشاب تزيد من خوف المتهورين مثلنا، الذين يدخلون هنا دون معرفة

جيدة للمكان. ونحن أنفسنا ظننّا لبضع ثوان أنها أشباح تنفخ أنفاسها في وجهينا. والآن فقط انتبهنا الى ذلك لأن الريح لم تأخذ في الهبوب إلاّ الآن. وهذا السرّ أيضا قد وجدنا حلّه. ولكن مع كلّ هذا لا نعرف حتى الآن كيف الخروج من هنا».

وبقينا نطوف هكذا دون جدوى ونحن نتحدث، تائهين، وقد أهملنا حتى قراءة الرشوم التي كانت تطالعنا كلها متساوية. ثم وصلنا الى قاعة أخرى مسبعة الاضلاع وطفنا في القاعات المجاورة فلم نجد أي طريق للخروج. فعدنا على أعقابنا ومشينا لمدة ساعة تقريبا وقد عدلنا عن معرفة أين نوجد. وأخيرا قرر غوليالمو اننا قد غُلبنا على أمرنا ولم يتبق إلاّ أن ننام في احدى القاعات آملين أن يعثر علينا ملاخي في اليوم التالي. وبينما كنا نتأسف على النهاية البائسة التي آلت اليها مهمتنا الرائعة وجدنا بمحض الصدفة القاعة التي يوجد بها السلّم. فشكرنا السماء كثيرا ونزلنا بفرح كبير.

وحينما وصلنا الى المطبخ أسرعنا نحو المدفأة ودخلنا الى دهليز المعظمة، وأقسم ان ابتسامة الموت المرسومة على تلك الرؤوس العارية بدت لي ابتسامة وجوه صديقة. ودخلنا الكنيسة ثم خرجنا من الباب الشمالي وجلسنا أخيرا بانشراح فوق لوحات القبور الحجرية. وبدا لي ذلك الهواء الليلي الجميل بلسما إلٰهيا. وكانت النجوم تسطع من حولنا بينما أصبحت رؤى المكتبة شيئا بعيدا جدا، وقلت بارتياح : «ما أجمل العالم وما أقبح المتاهات!»

فأجاب أستاذي قائلا : «كم يكون العالم جميلا لو كانت هناك قاعدة للتجوّل داخل المتاهات».

فسألته : «كم الساعة يا ترى؟»

ـ لقد أضعت الاحساس بالزمن. ولكن من الأحسن أن نكون في حجرتينا قبل أن تدق صلاة أوّل الصبح.

ثم حاذينا جانب الكنيسة الأيسر ومررنا أمام البوّابة (وأدرت وجهي الى الناحية الأخرى حتى لا أرى شيوخ الرؤيا، «على أربعة وعشرين عرشاً»، وعبرنا الرواق للوصول الى دار الضيافة.

هناك على العتبة وجدنا رئيس الدير، الذي نظر الينا نظرة صارمة قائلا لغوليالمو : «لقد بحثت عنكما طول الليل، ولم أجدكما في الحجرة، ولا في

الكنيسة. . .»

فقال غوليالمو بارتباك واضح : «كنا نقتفي أثرا» دون أي تحديد فحدّق فيه رئيس الدير طويلا ثم قال بصوت بطيئ وصارم : «لقد بحثت عنكما حالما انتهت صلاة النوم. لم يكن برينغاريو في الخورس».

فسرّ غوليالمو لذلك وقال : «ماذا تقول!» لَقد اتضحت له فعلا الآن هويّة الشخص الذي كان مختبئا في قاعة الكتابة.

فأعاد رئيس الدير قوله : «لم يكن في الخورس عند صلاة النوم. ولم يعد الى حجرته. ان صلاة أوّل الصبح على وشك أن تدق وسنرى الآن هل سيظهر. وإلاّ فأنا أخشى وقوع كارثة أخرى».

عندما دقت صلاة أول الصبح لم يكن برينغاريو هناك.

اليوم الثالث

من صَلاة الحمد إلى أولى

وفيه يقع العثور على ثوب ملطخ بالدم في حجرة برينغاريو، وكفى.

انني أحس بنفسي متعبا وأنا أكتب كما كنت أحس بالتعب في تلك الليلة، أو بالأحرى في ذلك الصباح. ماذا يمكنني أن أقول؟ بعد أداء الفرض دعا رئيس الدير جلّ الرهبان، وقد انتابهم الجزع، الى البحث في كل مكان عن برينغاريو، دون جدوى.

حوالي صلاة الحمد، بينما كان أحد الرهبان يفتش في حجرة برينغاريو اذ عثر تحت الفراش على ثوب أبيض ملطخ بالدم. وحملوه الى رئيس الدير الذي رأى فيه طالع شؤم. وكان يورج حاضرا وعندما أعلموه بالخبر قال: «دم؟»، كما لو كان الأمر يبدو له بعيد الاحتمال. وقالوا ذلك لأليناردو الذي هزّ رأسه قائلا: «لا، لا، عندما ينفخ في البوق الثالث يأتي الموت عن طريق الماء...»

أمّا غوليالمو فعندما دقق جيدا في الثوب قال: «الآن اتضح كل شيء...»

فسألوه «أين برينغاريو اذن؟»

فأجاب «لا أدري». فسمعه ايمارو ورفع عينيه الى السماء هامسا الى بيترو دا سانتالبانو: «تلك هي طبيعة الانجليز»

حوالي «أولى» وقد بزغت الشمس، أرسل رئيس الدير الخدم للبحث عند أسفل الهاوية وحول الأسوار. وعادوا عند «ثالثة» دون ان يجدوا شيئا.

وقال لي غوليالمو انه لم يكن بوسعنا ان نفعل اكثر من ذلك. ينبغي ان ننتظر الأحداث. ثم ذهب الى المصاهر وتحادث طويلا مع نيكولا الزجّاج.

أما أنا فجلست في الكنيسة، قرب الباب الأوسط، بينما كان يقام القداس. ونمت في ذلك الجو من التقوى طويلا، لأنه يبدو أننا نحن الشبان نحتاج الى النوم أكثر من الشيوخ، الذين أخذوا قسطهم من النوم ويتأهبون الآن للنوم الأزلي.

ثالثـة

وفيه يفكر أدسو وهو بقاعة الكتابة في تاريخ جمعيته الرهبانية وفي مصير الكتب.

خرجت من الكنيسة وقد خفّ عني التعب ولكن فكري بقي مشوّشا، لأن الجسم لا يتمتع براحة آمنة الا خلال الساعات الليلية. وصعدت الى قاعة الكتابة، وبعد طلب الاذن من ملاخي أخذت أتصفح الفهرس. وبينما كنت القي بنظرات شاردة على الأوراق التي كانت تمرّ تحت أنظاري كنت أراقب الرهبان.

وراعني انكبابهم على أعمالهم في هدوء وطمأنينة كأن البحث لم يكن يفتقد اثنان آخران في ظروف مريعة. فقلت في نفسي، تلك هي اذن عظمة رهبانيتنا التي شهد رجالها من أمثال هؤلاء، طيلة قرون، عصابات الهمجية تغير وتنهب أديرتهم، ورأوا ممالك تسقط في دوامات من النيران، ومع ذلك تمادوا في شغفهم بالرقوق والحبر وواصلوا ترتيلهم الخافت لكلمات تناقلوها على مرّ القرون وبدورهم ينقلونها الى القرون اللاحقة : لقد تابعوا القراءة والنسخ بينما كان العام الألف يقترب، فما يمنعهم الآن من مواصلة ذلك؟

لقد قال بانشيو في اليوم السابق انه مستعدا لارتكاب معصية لو مكّنه ذلك من الحصول على كتاب نادر. لم يكن يكذب ولم يكن يمزح. لاشك انه يجب على الراهب ان يحب كتبه بخشوع، باحثا من خلالها عن الخير لا عن غرور الفضول: ولكن اغراء المعرفة عند الرهبان هو بمثابة اغواء الجنس عند غير الكنسيين او بمثابة التلهّف على المال عند رجال الكنيسة النظامية.

تصفحت الفهرس ورقصت أمام عينيّ محافل من العناوين الغامضة : «كتاب الأدوية» لكوينتو سريني، فينومينا، كتاب ايزوبس في طبيعة الحيوانات، كتاب بيرونيم الاخلاقي في الكوسموغرافيا، كتب الأسقف إركولفوس الثلاثة التي جمع

فيها كتابات ادمنانو حول الاماكن المقدسة في ما وراء البحر، كتاب ك. يولي هيلاريونيس حول نشأة العالم، كتاب سوليني بولسيستور في أحوال الكون الأرضي وأشياء أخرى عجيبة، ألماجستوس...

ولم يدهشني اذن ان يحوم سرّ الجرائم حول المكتبة. فبالنسبة الى اولائك الرجال الذين كرّسوا حياتهم للكتابة تعتبر المكتبة في الآن نفسه أورشليم المقدسة وعالما سفليا على الحدود بين الأرض المجهولة والجحيم. لقد كانت تسيطر عليهم المكتبة بوعودها وبممتنعاتها. كانوا يعيشون معها، ولها وربما ضدّها، يحدوهم الامل، في ضلالهم، ان يفكّوا يوما كلّ اسرارها، ولم لا يخاطرون بحياتهم لارضاء فضول عقولهم أو يقتلون لمنع أحدهم من الاستيلاء على سرّ من أسرارهم الغالية عليهم؟

انه بدون شك اغراء وغرور فكري. فما أبعدنا اليوم عن ذلك الراهب الناسخ الذي تصوّره قديسنا ومؤسس رهبانيتنا، الذي كان ينسخ دون فهم مستسلما لارادة الرب. ناسخ لانه متعبد ومتعبد بما انه ناسخ. لماذا لم يعد الأمر هكذا؟ آه، من الأكيد ان ليست هذه فقط مظاهر انحطاط نظامنا فقد قويت سلطته كثيرا واصبح رؤساء اديرته يتنافسون مع الملوك، ألا أرى في أبّوني نفسه مثالا لملك يحاول، بتصرف ملكي، حلّ الخلافات بين الملوك؟ والعلم نفسه الذي جمعته الاديرة يستعمل اليوم كبضاعة للتبادل، داعي كبرياء وسبب اعتزاز وهيبة، مثل الفرسان الذين يتباهون بالاسلحة والبيارق يتباهى رؤساء أديرتنا بمخطوطاتهم المنمنمة...

زد على ذلك (ياللجنون) أن أديرتنا اليوم قد فقدت قصب السبق في الحكمة : لقد أصبحت اليوم المدارس الكاتدرائية والهيئات المدنية والجامعات تنسخ كتبا، وربما أكثر وأحسن منا، وتنتج الجديد منها - وقد يكون ذلك السبب في كل تلك المآسي.

ان الدير الذي كنت أجد نفسي فيه قد يكون آخر الأديرة التي بإمكانها ان تعتز بجودة ما تنتج وما تنقل من العلم ولعله لهذا السبب لا يكتفي رهبانه بعمل النسخ المقدس، بل يريدون هم أيضا انتاج اضافات جديدة الى الطبيعة، يدفعهم في ذلك الطمع في معرفة أشياء جديدة. ولم يكونوا يفطنون، وكنت ادرك ذلك بالحدس حينذاك (وأعرف جيدا الآن وقد ابيضّ شعري من طول السنين والتجارب) كنت ادرك انهم بعملهم ذلك كانوا يقرّون بهلاك عظمتهم. لأنه لو

خرج ذلك العلم الذي كانوا يريدون انتاجه خارج تلك الأسوار، بحرية، لما فرق شيء بين ذلك المكان المقدس ومدرسة كاتدرائية أو جامعة مدنية. أمّا اذا بقي مخفيا فهو يحتفظ بهيبته وبقوّته كاملتين، فلا تفسده المجادلات ولا يفسده غرور الجدل الذي يريد عرض كلّ سر وكل عظمة على غربال الجزم والنفي. وقلت في نفسي، هذه هي اذن أسباب الصمت والظلام الذين يحيطان بالمكتبة فهي ذخر علم، ولكن لا يمكنها حفظ ذلك العلم كاملا الا بمنعه من ان يصل الى أي كان، حتى الرهبان أنفسهم. ليس كقطعة النقود التي تبقى مادّيا كاملة حتى عبر أشنع المقايضات : فهو بالأحرى كلباس جميل جدا، يتآكل من فرط الاستعمال والمباهاة، وفعلا، أليس الكتاب نفسه كذلك تتفتت صفحاته ويفقد حبره وذهبه لمعانهما عندما تلمسه أيد كثيرة؟ هوذا، كنت أرى على مقربة مني باتشيفيكو دا تيفولي وهو يتصفّح مجلّدا قديما قد التصقت صفحاته بعضها ببعض بفعل الرطوبة. فكان يبلل السبابة والابهام بلسانه لتصفح كتابه، وعند كل لمسه من ذلك اللعاب تفقد تلك الصفحات من قوتها، فان فتحها يعني ثنيها وعرضها لمفعول الهواء والغبار القاسي الذي سينخر الاخاديد الدقيقة التي تعرق بها الرق تحت الضغط وسيحدث عفنا جديدا حيث ليّن اللعاب زواية الورقة ولكنه أضعفها. وكما أن الافراط في الرقة يجعل المحارب متخاذلا وقاصرا، هذا الافراط في الحب التملكي والفضولي يجعل الكتاب عرضة للمرض الذي سيحمله الى الموت.

ماذا ينبغي ان نفعل؟ هل نكفّ عن القراءة ونكتفي بالمحافظة؟ هل كانت مخاوفي في محلها؟ ماذا سيقول أستاذي؟

ورأيت غير بعيد مفهرسا، مانيوس دا ايونا، قد أتم حكّ قطعة الجلد بالحجر الاسفنجي وأخذ يليّنها بالجبس ليصقل سطحها بعد ذلك بالمصقل. وآخر حذوه، ربانو دا طوليدو، قد ركّز رقّه فوق اللوحة ووضح حواشيه بثقب خفيفة جانبيةمن الناحيتين، سطّر بينهما بمرقم معدني خطوطا أفقية نحيفة جدا. بعد قليل ستمتلىء الورقتان بالالوان والاشكال، وستصبح الصفحة كالمدّخر، ساطعة بالجواهر المرصعة في ما سيصبح بعد ذلك نسيج الكتابة الخاشع. فقلت في نفسي ان ذينك الأخوين كانا يعيشان ساعاتهما الفردوسية على الأرض. فقد كانا يخلقان كتبا جديدة، مثل تلك التي سيفنيها الزمن حتما من بعد. . . اذن لا يمكن ان تكون المكتبة مهددة من طرف أية قوة أرضية، هي اذن شيء حيّ. . . ولكنها لو كانت

حية لم لا تتفتّح لمغامرة المعرفة؟ هل كان ذلك ما يريده بانشيو وربما أيضا ما كان يريده فينانسيو؟

وأحسست بنفسي مشوّشا ومتخوفا من أفكاري، فهي قد لا تكون صالحة لمبتدئ، عليه فقط ان يتبع القاعدة بالتزام وتواضع، طيلة كل السنوات المقبلة. وهذا ما فعلته من بعد، دون أن ألقي على نفسي أسئلة أخرى، بينما العالم من حولي يتردّى كل يوم أكثر في عاصفة من الدم والجنون.

وحانت ساعة الأكل الصباحية فتوجهت الى المطبخ، وقد أصبحت هناك صديقا للطباخين فأعطوني أفضل مالديهم من الطعام.

سَــادسَــة

وفيه يبوح سلفاتوري الى أدسو بقصته التي لا يمكن تلخيصها في كلمات قليلة، ولكنها أوحت اليه بالكثير من التأملات المقلقة للبال.

بينما كنت أتغدّى رأيت في ركن من الأركان سلفاتوري وقد بدا من الواضح انه تصالح مع الطباخ، وكان يلتهم بغبطة عجينة من لحم النعاج. كان يأكل وكأنه لم يذق شيئا في حياته، دون ان يسقط ولو فتاتة واحدة، وكان يبدو وكأنه يشكر ربه على ذلك الحديث الخارق للعادة.

وغمزني، قائلا لي في لغته الغريبة، انه يأكل لكل السنين التي صام فيها. وسألته عن قصته فحكى لي عن طفولته المؤلمة جدا، في قرية هواؤها فاسد تتساقط فيها الأمطار بكثرة فتتعفن الحقول بينما يتلف كل شيء في عفونة قاتلة. وفهمت ان فيضانات وقعت طيلة فصول حتى ان خطوط المحارث لم تعد ظاهرة في الحقول وأصبح الصاع من البذار لا يعطيك إلاّ ستيّة واحدة، وتنقص الستيّة حتى تصبح لا شيء. وحتى الاسياد كانوا شاحبي الوجوه كالفقراء، وأضاف ملاحظا، حتى ولو كان الفقراء يموتون أكثر من الأسياد (وعلّق بابتسامة) ربما لأنهم كانوا يتذكرون ان الحالة كانت هي نفسها في السابق، حتى أنهم استنتجوا ان الازمنة كانت دوما على وشك النهاية. وهكذا عندما أكل الناس كل جيف الطيور، وكل الحيوانات الدنسة التي عثروا عليها سرى الخبر في القرية ان أحدهم أخذ يخرج الموتى من تحت الأرض. وكان سلفاتوري يشرح بمهارة كبيرة، وكأنه ممثل، كيف كان يفعل أولائك البشر الاشرار «الذين كانوا ينبشون الأرض بأظافرهم في المقابر، في اليوم الموالي لدفن أحد الأموات ثمّ «يم!»، كان يقول ذلك ويقضم في عجينة لحم النعجة، ولكنني كنت أرى على وجهه تكشيرة البائس

الذي كان يأكل الجثة. وبعد ذلك لم يكفهم ان نبشوا في الأرض المقدسة، إذ أخذ بعضهم ممن هم شرّ من الآخرين، كقطاع الطرق، يختبىء في الغابة ويغافل المارّين و«تشاك!» - هكذا كان سلفاتوري يقول - بالسكين على حلقة ثم «يم!» ومن كان أكثر شرا من الجميع أخذ يغري الأطفال ببيضة أو بتفاحة ثم تقع المجزرة، ولكنهم - كما دقّق لي سلفاتوري بجديّة كبيرة - كانوا يطبخونهم قبل أكلهم. وحكي لي عن رجل أتى الى القرية ليبيع لحما مطبوخا بدراهم قليلة وكان الجميع لا يصدق عقله لذلك البخت، الى ان قال القسيس انه لحم انسان فأخذت الجموع الرجل وقد اتقد غضبها وقطعته اربا. ولكن في الليلة ذاتها ذهب أحد سكان القرية ونبش قبر الميت وأكل لحم آكل لحوم البشر، حتى انه، عندما اكتشف أمره، حكمت عليه القرية هو آيضا بالموت.

ولكن سلفاتوري لم يقصّ عليّ فقط هذه الحكاية. فقد قصّ عليّ، بنصف كلمات بينما اجتهدت أنا لأتذكر القليل مما أعرف من لغة بروفانسا ومن لهجات ايطالية، قصة هربه من القرية التي ولد فيها وتسكعه عبر الدنيا. وأعادت قصته الى ذهني عدّة متشرّدين تعرفت عليهم أو اعترضوا طريقي. وكثيرين آخرين عرفتهم فيما بعد ويتّضح لديّ الآن أمرهم، بحيث لست متأكدا من انني لا أنسب اليه بعد مرور زمن، مغامرات وجرائم ارتكبها آخرون، من قبله ومن بعده، وهي تتسطّح الآن في ذهني المتعب لترسم صورة واحدة، لقوة المخيلة التي تجمع ذكرى الذهب وذكرى الجبل، فتكوّن فكرة جبل من الذهب.

غالبا ما سمعت غوليالمو، خلال رحلتنا، يذكر البسطاء. وهي كلمة يستعملها بعض اخوانه للتعبير ليس فقط عن الشعب ولكن في نفس الوقت عن الاميّين. وهي عبارة بدت لي دائما غير محدّدة، لانني التقيت في المدن الايطالية بتجار ومحترفين ولم يكونوا من الأكليروس ولكنهم لم يكونوا أميّين، حتى وان أظهروا معرفتهم من خلال استعمال اللغة العامية. ويمكن ان نقول ان بعض الطغاة ممن كانوا يحكمون في ذلك الوقت شبه الجزيرة كانوا جاهلين فيما يخص علوم اللاهوت، والطب والمنطق واللاتينية ولكن من المؤكد انهم لم يكونوا لا بسطاء ولا سذّجا. ولذا أعتقد ان أستاذي أيضا، عندما كان يتحدث عن البسطاء كان يستعمل مفهوما بسيطاً على الأرجح. ولكن سلفاتوري كان دون شك بسيطا، أصيل ريف يعاني منذ قرون من المجاعة ومن جبروت الأسياد الاقطاعيين. كان

بسيطا ولكنه لم يكن غبيّا. كان يأمل في عالم مختلف، تجسّم له في تلك الفترة التي هرب فيها من دار أبويه، حسب ما قال، في صورة بلد النعيم حيث تنضح الاشجار بالعسل وتنبت قطع الجبن والنقانق الفوّاحة.

وبدافع من تلك الآمال، كمن يرفض ان يرى في هذه الدنيا نهرا من الدموع، الجور فيها هو ايضا (كما علّموني) من تدبير العناية الالهية للابقاء على توازن الأشياء حسب رسم غالبا ما يفوت اجتهادنا، رحل سلفاتوري عبر مختلف البلدان، من جهة مونفيراتّو التي ولد فيها الى ليغوريا، ثم من بروفانسا الى أراضي ملك فرنسا.

وجاب سلفاتوري الدنيا تارة متسوّلا وتارة سارقا، متظاهرا مرّة بالمرض وواضعا نفسه مرة أخرى، مؤقتا، في خدمة بعض الاسياد، ثم من جديد متخذا طريق الغابة أو الطريق الرئيسية : ومن القصة التي رواها لي تخيلته مع تلك الفرق من المتسكعين التي رأيتها فيما بعد خلال السنين التي تلت، تتجوّل أكثر الأحيان عبر أوروبا : رهبان زائفون ودجّالون وغشاشون ومحتالون وشحاذون بائسون وجذمى وكسحان ومتجولون ومتسكعون وقصّاص وكهنة دون وطن وطلبة متجولون وخداعون وبهلوانيون ومرتزقة عاجزون ويهود مشردون نجوا من الكافرين محطمي الروح ومجانين وهاربون محكوم عليهم بالنفي وأشرار قد قطعت آذانهم ولوطيّون ومعهم محترفون متجولون من حائكين، ونحاسين، وصانعي كراسي، ومجلخين، ومقشّسي كراسي وبنائين، ومن جديد أنذال من كل طائفة ومحتالون وفاسقون وأوغاد وسرّاق وأنذال خداعون ومتعسّفون ومتسكعون وصعاليك، وكهنة وقسوس سيمونيون وحانثون، وأناس يعيشون من سذاجة الغير، ومزيفو طوابع وأختام بابوية وبائعو غفرانات ومشلولون زائفون يضطجعون أمام أبواب الكنائس ومتسكعون هاربون من أديرتهم وبائعو بقايا القديسين، ومخلّصون ومنجمون وقارئو حظ وعرّافون وجامعو صدقات مزيفون وزناة من كلّ لون ومفسدو راهبات وفتيات بالخدعة وبالعنف، منهم من يتظاهر بداء الاستسقاء، أو بداء النقطة أو بداء الباسور، أو بالنقرس وبالقروح وحتى بالجنون الكئيب. ومنهم من كان يلصق على جسمه أدهنة ليتظاهر بأنه مصاب بقروح مستعصية، وآخرون يملأون أفواههم بمادة في لون الدم للتظاهر بسعال المسلولين، ولئام يتظاهرون بشلل أحد أعضائهم، حاملين عصيّا دون لزوم

ومتصنعين الصرع، والجرب، والدّمل والاورام، ملصقين الضمادات، وصبغ الزعفران، جاعلين الحديد في أيديهم، والعصابات على رؤوسهم يندسّون بنتونتهم في الكنائس ويسقطون فجأة وسط الساحة والزبد يخرج من أفواههم وأعينهم زائغة، مخرجين من فتحتي الأنف دما مصنوعا من عصير التوت والزنجفر لينتزعوا الطعام أو النقود من الاتقياء الذين كانوا يتذكرون دعوة الآباء القديسين للاحسان : «اقتسم خبزك مع الجائع، اصطحب الى منزلك من لا مسكن له، لنزر المسيح، لنتقبل المسيح، لنكس المسيح لأنه كما يطهر الماء النارتطهر الصدقة خطايانا».

وحتى بعد الاحداث التي أقصها، رأيت على طول نهر الدانوب الكثير منهم ولا أزال أرى الى الآن أولائك الدجالين الذين اتخذوا أسماء وتشعبوا الى طوائف، كالشياطين : أنذال وقذرون، أطباء دجّالون ومحتالون، خدّاعون، عملاء، كلاب، متاجرون ببقايا القديسين، مغبّرون، متعجرفون، ملبّدون، متسكّعون نتنون، متظاهرون بلدغة الرتيلاء، حمّالون، وسطاء، رعّاشون، صخّابون، كلاب سوق، شُغْي، متباكون مدنّسون.

فكأن سيل من الوحل يجري عبر دروب عالمنا، ويدنّس فيه واعظون نزهاء وهراطقة يبحثون عن فرائس جديدة ومشعلي فتن. وفعلا، كان البابا جيوفاني، الذي كانت دائما تخيفه حركات الاخوان البسطاء الذين ينادون بالفقر ويعيشون في الفقر، هو الذي توعّد الواعظين المتسوّلين الذين كانوا، حسب زعمه يجلبون الفضوليين، حاملين رايات ملوّنة بالصور، يعظون ويبتزون الاموال. هل كان على حق هذا البابا السيموني والمنحرف عندما كان يقارن الاخوان المتسوّلين الذين ينادون بالفقر بتلك الجموع من المحرومين وقطاع الطرق؟ ففي تلك الايام، بعد ان سافرت قليلا عبر شبه الجزيرة الايطالية، لم تعد الافكار في ذهني واضحة : لقد سمعت بعض اخوان ألتوباتشيو يعظون مهددين بالحرمان من اقتبال السرّ الاعظم وواعدين بالصّفح، وكانوا يغفرون لمن سرق أو قتل أخاه أو أرتكب جرما أو نكث باليمين مقابل مال. وكانوا يوهمون الناس أنهم في مستشفاهم يقيمون حتى مائة قداس كل يوم، فيجمعون له الهبات، وأنهم باملاكهم يدفعون المهر لمائتي فتاة فقيرة. وسمعت عن الاخ باولو دزوبو، الذي كان يعيش في نسك بغابة رييتي، انه كان يباهي بتلقي الوحي مباشرة من الروح القدس يقول له فيه ان

الصلة الجنسية ليست خطيئة : فكان يغري ضحاياه اللاتي كان يسميهن أخواته ويجبرهن على تلقي السوط عاريات وعلى الركوع على الارض خمس مرات في شكل صليب، قبل ان يقدمهن الى الرّب مطالبا اياهن بما يسميه قبلة السلام.

ولكن كان ذلك صحيحا؟ وما العلاقة بين هؤلاء النسّاك الذين كانوا يقولون عن أنفسهم انهم يحملون النور واخوان الحياة الفقيرة الذين كانوا يجوبون بتكفير حقيقي طرق شبه الجزيرة، مبغضين من طرف الاكليروس والاساقفة لأنهم كانوا يشهرون برذائلهم وبسرقاتهم؟

من خلال رواية سلفاتوري وبامتزاج ذلك بما حصل لدي أنا من معلومات كانت هذه الفوارق لا تظهر جلية في وضح النهار : كان كل شيء مساويا لكلّ شيء. كان يبدو لي في بعض الأحيان واحدا من أولائك المقعدين الشحاذين الذين كما تقول الأسطورة، هربوا عند اقتراب جثة القديس مارثينو المعجزة خوفاً من ان يشفيهم القديس من عاهاتهم فيحرمهم بذلك من مصدر الربح، ولكن القديس أنعم عليهم دون شفقة قبل ان يجتازوا الحدود فعاقبهم على شرّهم بان أعاد اليهم القدرة على استعمال أعضائهم. وأحيانا أخرى يستضيء وجه ذلك الراهب ذو التقاسيم الوحشية بنور لطيف جدّا، عندما يقص عليّ كيف استمع، وهو بين تلك الجماعات، الى كلمات الواعظين الفرنشسكانيين، وكانوا هم أيضا يعملون في الخفاء مثله، وفهم انه لا ينبغي ان يعتبر عيشة الفقر والتسكع التي كان يعيشها وكأنها حتمية بائسة، بل كعمل تكريسي يبعث على البهجة، وهكذا دخل ضمن طوائف وجماعات تكفيرية كان يذكر اسماءها ويعرّف بمذهبها بطريقة خاطئة. واستنتجت من حديثه انه التقى ببتاريين وفوديين وربما أيضا بمانويين وارنالديين ألبيجيين وانه مرّ أثناء تجواله عبر الدنيا من فريق الى آخر وشيئا فشيئا اعتبر تشرّده رسالة ينبغي ان يضطلع بها فعمل في سبيل الاله ما كان يفعل من أجل بطنه.

ولكن كيف، والى متى؟ ما فهمته هو انه انضم منذ ثلاثين سنة الى دير فرنشسكاني في توسكانا ولبس هناك زي طائفة القديس فرانشسكو دون الانخراط في الاخوية. وأظنه تعلّم هناك القليل من اللاتينية التي كان يتكلمها ويمزجها بكل لهجات الأماكن التي حلّ بها وهو فقير دون وطن وبلهجات كل رفاق التسكع الذين عرفهم، من مرتزقة جهاتنا الى البوغوميليين الدلماتيين. وهناك كرّس نفسه للحياة التكفيرية، كما كان يقول (ويردّد بعينين ملهمتين «Penitenziagite»،

وسمعت من جديد تلك العبارة التي اذكت فضول غوليالمو)، ولكن حسب ما يظهر لم تكن الافكار واضحة حتى لدى اولائك الفرانشسكانيين الذين انضم اليهم، لانهم استسلموا يوما لغضب شديد على كاهن الكنيسة المجاورة المتّهم بالسرقة وبرذائل أخرى وهجموا على داره ودفعوه من فوق السلم حتى ان المذنب لقى حتفه ثم نهبوا الكنيسة ممّا جعل الأسقف يرسل بالجند. وتشتت الاخوان وتجوّل سلفاتوري طويلا في ايطاليا الشمالية مع فريق من الاخوان البؤساء، أو بالاحرى فرنشسكانيين متسوّلين أصبحوا دون قاعدة ودون انضباط.

ومن هناك التجأ الى جهة تولوز، حيث سمع حكاية غريبة ـ وهناك اشتد حماسه اثناء الرواية ـ كانت تروي أعمال الصليبيين العظيمة. فقد اجتمعت يوما مجموعة كبيرة من الرعاة والفقراء في موكب كبير ليجتازوا البحر ويحاربوا أعداء الدين. وسمّوهم الرعاة. وكانوا في الحقيقة يريدون الهرب من أرضهم الملعونة. وكان هناك قائدان أوحيا لهم بنظريات خاطئة، أحدهما قس حرم من كنيسته والآخر راهب مرتد نظام القديس بنيدكت. وقد أخرج الاثنان أولائك السذج عن أطوارهم حتى ان أطفالا في الخامسة عشرة من عمرهم انضموا اليهما ضدّ ارادة أهاليهم، حاملين معهم فقط خرجا وعصا، دون نقود، وهكذا تركوا حقولهم وتبعوهما كالقطيع مكوّنين مجموعة هائلة. واصبحوا لا يتبعون لا العقل ولا العدالة، بل القوة فقط وارادتهم وصاروا كالسكارى لما اجتمعوا كلهم، بعد ان تحرّروا اخيرا، وراودهم امل غامض في بلوغ الارض الموعودة. فكانوا اذا ما أوقف أحدهم هجموا على السجون وحرّروه. ولتحرير البعض من رفقائهم الذين كان الاسياد قد سجنوهم، هجموا على قلعة باريس ولما حاول حاكم باريس التصدي لهم ضربوه وألقوا به من أعلى سلم القلعة ثم حطموا أبواب السجن وبعد ذلك اصطفوا للمعركة في سهل سان جيرمان، لكن لم يجرؤ أحد على ان يتقدم اليهم. ثم خرجوا من باريس متجهين نحو أكيتان وقتلوا كل اليهود الذين اعترضوهم هنا وهناك وسلبوا املاكهم...

فسألت سلفاتوري : ولماذا اليهود؟ ـ فأجاب : ولما لا؟ ـ وفسّر لي انهم سمعوا طيلة حياتهم من الواعظين ان اليهود اعداء المسيحية وانهم يجمعون تلك الاملاك التي حرموا هم منها. فسألته ان لم يكن صحيحا أيضا ان الاملاك كان يجمعها الاسياد والأساقفة عن طريق ضريبة العشور وأن الرّعاة اذن لم يكونوا يكافحون ضدّ

اعدائهم الحقيقيين. فأجابني انه عندما يكون الاعداء الحقيقيون أقوياء ينبغي اختيار اعداء اضعف منهم. ففكرت انهم لذلك سموّا بسطاء. ان الأقوياء وحدهم هم الذين يعرفون دائما بوضوح تام اين يوجد أعداؤهم الحقيقيون. لم يكن الاسياد يريدون أن يضع الرعاة أملاكهم في خطر وكان من حسن حظهم ان يوعز قواد الرعاة الى اتباعهم فكرة وجود أموال كثيرة في حوزة اليهود.

فسألته من أدخل في ذهن تلك المجموعة فكرة مهاجمة اليهود، لكن سلفاتوري لم يكن يتذكر. أظن أنه لما تجتمع حشود غفيرة، تسعى وراء وعد وتريد الحصول عليه فورا، وليس من الممكن ابدا معرفة من يتكلم. وبدا لي أن قوّادهم درسوا في الأديرة وفي المدارس الأسقفية وأنهم يتكلمون لغة الأسياد وان ترجموها الى لغة يقدر الرعاة على فهمها. لم يكن الرعاة يعلمون شيئا عن البابا ولكنهم كانوا يعرفون اليهود. وهكذا حاصروا برجا آخر عظيما لملك فرنسا، احتمت به جموع من اليهود وقد انتابهم الرّعب ودافع اليهود الذين خرجوا تحت أسوار البرج بشجاعة الى آخر رمق، قاذفين الألواح والحجارة. ولكن الرعاة ألهبوا النار في باب البرج لتعذيب اليهود المحاصرين بالدخان والنار. وعندما تبين لليهود ان لا أمل لهم في النجاة فضلوا الانتحار على الموت بأيدي أشخاص لم يختنوا، فطلبوا من أحدهم، كان يبدو أكثر شجاعة من غيره، ان يقتلهم بسيفه. فقبل وقتل منهم ما يقرب الخمسمائة ثم خرج من البرج مع أطفال اليهود وطلب من الرعاة ان ينصروه. ولكن الرعاة قالوا له : لقد قمت بمثل تلك المجزرة بناسك والآن تريد ان تجنب نفسك الموت؟ وقطعوه اربا بينما ابقوا على الاطفال وعمّدوهم. ثم اتجهوا نحو كركاسّو قائمين بالكثير من السرقات الدامية في طريقهم. عند ذلك أعلن ملك فرنسا انهم قد تعدّوا كل الحدود وأمر ان تقع مقاومتهم في كل مدينة يحلّون بها وان يقع الدفاع عن اليهود كما لو كانوا من رجال الملك...

لماذا أصبح الملك يظهر كلّ ذلك الاهتمام باليهود؟ ربما من خوفه ممّا قد يفعله الرعاة في كل المملكة وان يتزايد عددهم. لذا أحسّ نحو اليهود ببعض الرفق، لأنهم كانوا ذوي نفع في تجارة المملكة، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لأنه كان ينبغي القضاء على الرعاة حتى يجد المسيحيون الطيبون كلّهم داعيا للبكاء على جرائمهم. ولكن الكثير من المسيحيين لم يطيعوا الملك، رأيا

منهم أنه ليس من العدل الدفاع عن اليهود، الذين كانوا دائما أعداء الدين المسيحي. وفي كثير من المدن فرحت عامة الناس، خاصة أولائك الذين كان عليهم أن يدفعوا الربا لليهود، للعقاب الذي سلطه عليهم الرعاة من أجل ثرواتهم. عندئذ أمر الملك ان لا يمدّ أحد يد المعونة للرعاة والا كان جزاؤه الموت، وجمع جيشا كبيرا وهاجمهم فقتل منهم الكثيرين بينما نجا الآخرون بالهرب والاختفاء في الغابات حيث ماتوا جوعا وحرمانا. وفي وقت قصير تم القضاء عليهم، فكان مبعوث الملك يقبض عليهم ويشنقهم جماعات من عشرين وثلاثين معا في الاشجار الكبيرة، حتى تبقى جثثهم مثالا خالدا فلا يجرؤ أحد بعد ذلك على اثارة الفتنة في المملكة.

والغريب أن سلفاتوري كان يقصّ عليّ تلك القصة وكأنها عمل ورع جدا. وفعلا بقي مقتنعا أن جموع الرعاة كانت تحركت لافتكاك ضريح المسيح وتخليصه من الكافرين، وما كان بوسعي افهامه ان هذا الفتح العظيم قد تمّ في عهدي بيترو الناسك والقديس برناردو، وتحت حكم لويس قديس فرنسا. على كلّ لم يصل سلفاتوري الى الكفار لأنه أجبر على الابتعاد فورا عن الاراضي الفرنسية. وقال لي أنه مرّ الى جهة نوفارا، ولكنه بقي غامضا جدا حول ما حدث آنذاك. وأخيرا وصل الى كزالي حيث تلقاه دير فرنشسكاني (وأظن أنه تلاقى هناك مع ريميجيو)، بالتحديد في تلك الفترة التي استبدل فيها الكثير منهم لباسهم الطائفي، نظرا لاضطهاد البابا لهم، باحثين عن ملاذ في أديرة تابعة لرهبانيات أخرى، حتى لا يعدمواحرقا، كما قال لنا ذلك فعلا أوبارتينو. ونظرا لما حصل لديه من تجربة في الكثير من الاعمال اليدوية(التي كان قد قام بها لأهداف خسيسة عندما كان يتسكع حرّا ولاهداف مقدسة عندما اصبح يتسكع حبّا للمسيح)، اتخذه القيّم في الحال كمساعد له. وهذا يفسّر لماذا بقي هناك سنين طويلة، غير مهتم ببذخ الرهبانية ومهتما كثيرا بادارة قبو النبيذ ومخزن المؤنة، حرّا ان يأكل دون ان يسرق وان يشكر الاله دون ان يتعرض للحرق.

هذه هي القصّة التي سمعتها منه، بين لقمة وأخرى، ولا أدري ماذا اختلق وماذا كتم.

ونظرت اليه بفضول، لا لغرابة تجربته بل بالعكس لان ما وقع له كان يبدو لي خلاصة رائعة لكثير من الاحداث ومن الحركات التي كانت تجعل ايطاليا في تلك

الفترة جذّابة وغامضة.

ماذا تبيّن لي من تلك الاحاديث؟ صورة رجل عاش حياة مغامرة، قادر على قتل أخيه دون ان يتفطن لفداحة الجرم الذي قام به. ولكن رغم انه في ذلك الوقت كان كل عصيان للشريعة الالهية يبدو لي مساويا لغيره فقد بدأت أفهم البعض من الاحداث التي وصلت الى سمعي. وبدأت أفهم الفرق بين المجزرة التي تقوم بها مجموعة، تحت تأثير انخطاف يكاد يكون وجديا وقد اشتبهت لديها نواميس الشيطان بالنواميس الالهية، والجرم الفردي المدبر ببرودة دم، في الصمت وفي المكر. ولم يكن يبدو لي ان سلفاتوري قد لوّث يديه بجرم مماثل.

ومن ناحية أخرى كنت أريد اكتشاف بعض الشيء حول تلميحات رئيس الدير وقد استحوذت على بالي قصة الاخ دولتشينو التي لم أكن أعرف عنها إلاّ القليل، ومع ذلك كان شبحه يحلّق فوق العديد من المحادثات التي سمعتها خلال ذينك اليومين.

وهكذا سألته على غرّة : ألم تلتق أبدا خلال رحلاتك بالاخ دولتشينو؟

كان ردّ فعل سلفاتوري غريبا. فقد جحظت عيناه، ان كان بامكانهما ان تجحظا أكثر مما هما عليه من جحوظ، ورسم عدة مرات علامة الصليب هامسا ببعض الجمل المتقطعة في لغة لم أقدر حقيقة تلك المرة على فهمها. وكان الى ذلك الحين ينظر اليّ بتآلف وثقة، ويمكن أن أقول بصداقة، ولكنه في تلك اللحظة نظر اليّ بنفور ثم اختلق عذرا من الأعذار وابتعد.

عند ذلك لم يعد بوسعي أن أصبر أكثر من ذلك. من هو هذا الراهب الذي يبعث اسمه الخوف في كل من يسمعه؟ وقررت أنه لم يعد بامكاني البقاء طويلا فريسةلرغبتي في المعرفة وخطرت ببالي فكرة : أوبارتينو! لقد تلفظ هو نفسه بذلك الاسم في المساء الأول الذي التقينا فيه به، وهو يعرف كل شيء عن الأحداث الجلية والغامضة التي تحيط بذلك الراهب وبالاخوانيين وبالذريات الاخرى التي عاشت تلك السنين الأخيرة. أين يمكن أن أجده في تلك الساعة؟ بالتأكيد في الكنيسة، غارقا في صلاته. وبما انني كنت أحظى بقليل من الحرية ذهبت الى هناك.

لم أجده، بل لم يأتِ حتى المساء. وهكذا بقيت متشوقا، بينما كانت تقع الاحداث الأخرى التي يجب على أن أرويها الآن.

تاسعـــة

وفيه يحدّث غوليالمو أدسو عن الموجة الهرطيقية الكبرى وعن وظيفة البسطاء في الكنيسة، وعن شكوكه بخصوص معرفة القوانين العامة، ويقص عليه بإيجاز كيف تمكّن من فكّ رموز العلامات الغامضة التي تركها فينانسيو.

وجدت غوليالمو في المصهر، يعمل مع نيكولا. وكان كلاهما غارقين في العمل، وقد وضعا فوق الطاولة عدة أقراص صغيرة من الزجاج، ربما كانت معدّة لحشرها في صلات بعض النوافذ، وصغّرا بعضها بآلات مخصصة لذلك العمل الى ان أعطياها السّمك المرغوب. وكان غوليالمو يجربها بوضعها أمام عينيه، بينما كان نيكولا يعطي أوامره للحدادين كي يصنعوا الحمّالة التي ستقحم فيها قطعتا الزجاج الصالحتان.

وكان غوليالمو يتذمّر قلقا. فالعدسة الوحيدة التي لاقت رضاه كانت في لون الزمرّد. وقال انه لا يريد ان يرى المخطوطات كما لو كانت مروجا. وعندما ابتعد نيكولا لمراقبة الحدّادين وفي حين كان غوليالمو مشتغلا بأقراصه، رويت له ما دار بيني وبين سلفاتوري من حديث، فقال :

ـ لقد مرّ الرجل بعدة تجارب، وربما كان فعلا مع اتباع دولتشينو. هذا الدير حقيقة عالم مصغّر، وعندما يصلنا مبعوثو بابا جيوفاني والأخ ميكيلي سيكتمل الشمل.

فقلت : «يا أستاذي، انني لم أعد أفهم شيئا».

ـ بخصوص ماذا يا أدسو؟

ـ أولا، حول الفوارق بين مختلف المجموعات الهرطيقية. ولكن عن هذا سأسألك فيما بعد. ان ما يضنيني الآن هو مشكل الفوارق نفسه. لقد تهيأ لي في

حديثك مع أوبارتينو انك كنت تحاول اقناعه بان القديسيين والهراطقة هم على التساوي. بينما عند حديثك مع رئيس الدير كنت تحاول جاهدا ان تشرح له الفرق بين هرطيق وهرطيق، وبين هرطيق وأرثوذكسي. أي كنت تلوم أوبارتينو لانه كان يعتبر متشابهين من كانوا في نهاية الامر مختلفين.» فوضع غوليالمو العدسات لحظة على اللوحة وقال: «يا عزيزي أدسو، لنحاول أولا ضبط الفوارق. ولنفرق حسب معايير المدارس الباريسية. اذن يقولون هناك ان لكل البشر نفس الشكل الجوهري. هل أنا على خطأ؟»

فقلت معتزا بمعرفتي «أكيد. البشر حيوانات عاقلة، ومن خاصياتها القدرة على الضحك.»

ـ حسن جدا. ولكن تومّازو مختلف عن بونافانتورا. تومّازو بدين بينما بونافانتورا نحيف. ويقع ان يكون أوغوتشيو شرّيرا بينما فرانشسكو طيب، وأدالمو هادىء بينما أجيلفو غضوب، أم لا؟

ـ هذا صحيح دون أدنى شك.

ـ اذن هذا يعني ان هناك وحدة، عند اناس مختلفين، بخصوص الشكل الجوهري، واختلافات بخصوص العوارض، أو بالأحرى بخصوص الأطراف السطحية.

ـ هو كذلك بكل تأكيد!

ـ اذن عندما اقول لأوبارتينو ان الطبيعة الانسانية نفسها، في تعقّد عمليّاتها، توجّهنا بحدّ السواء نحو حب الخير ونحو حب الشر، أحاول اقناع أوبارتينو بوحدة الطبيعة الانسانية. وعندما أقول بعد ذلك لرئيس الدير ان هناك فرقا بين مانويّ وفوديّ، فاني أؤكد على تنوّع عوارضهما. وأؤكد على ذلك لأنه يحدث ان يحرق فوديّ بعد اتهامه بأعراض مانويّ، والعكس بالعكس. وعندما يحرق انسان يحرق جوهره الفردي، ويتحوّل الىٰ لا شيء ذلك الذي كان فعلاً وجوداً محسوساً، ولذا طيّبا، على الأقل في نظر الاله الذي يشده الى الكينونة. هل يبدو لك هذا تعليلا جيدا للتأكيد على الفوارق؟».

فقلت بحماس: «نعم يا أستاذي والآن فهمت لماذا تتحدث هكذا، وأقدّر حسن فلسفتك».

فقال غوليالمو: «ليست فلسفتي. ولست أدري حتى ان كانت حسنة. ولكن

المهم هو انك فهمت. لنأت الآن الى سؤالك الثاني».

فقلت «انني. . . ، انني أظن اني لست صالحا لشيء. انني لم اعد قادرا على تمييز الفوارق العرضية الموجودة بين فوديين ومانويّين، وفقراء ليون ومتذلّلين ومتزمتين ومرائين ولومبارديين وجواكيميين، وغولبالميين وبتاريين ورسوليين وفقراء لومبارديين وارنالديين، واتباع الفكر الحر وعبدة الشيطان. . . ماذا ينبغي ان أفعل؟»

فضحك غوليالمو ضاربا بكفه على رقبتي بودّ : «مسكين أنت يا أدسو، أنت لست مخطئا! انظر، إذ كما لو مرت خلال القرنين الاخيرين، وحتى قبل ذلك، على عالمنا، هبّات تعصّب، وأمل ويأس، معا. . . أو لا، انها ليست مقارنة جيدة. تخيل نهرا، كثيفا وعظيما، يجري أميالا وأميالا بين سدود قوّية، وأنت تعرف أين يوجد النهر، أين توجد السدود واين توجد اليابسة. في نقطة ما، لا يدري النهر ماذا يفعل، إما من التعب، لانه جرى مسافة طويلة في فضاء شاسع، أو لانه اقترب من البحر الذي تضمحل فيه كلّ الانهار، فيكوّن دلتا. قد يتبقى منه فرع رئيسي، ولكن فروعا كثيرة أخرى تنشأ منه، في كل النواحي، وبعضها يصب من جديد في البعض الآخر، فلا تعرف ما هو مصدر ماذا، وأحيانا لا تعرف اين النهر واين البحر. . .

ـ اذا ما فهمت مجازك فالنهر هو مدينة الاله أو عهد العادلين، الذي يقترب من الالف عام، وفي حيرته لا يتماسك، ويظهر رسل حقيقيون ورسل زائفون، وكلّهم يصبّون في السهل الكبير الذي سيقع فيه يوم الحشر.

ـ لم أكن أفكر في ذلك بالضبط. ولكنه صحيح ايضا، أنه بيننا نحن الفرنشسكانيين، لا تزال حية فكرة عهد ثالث وقيام ملك الروح المقدس. كلا، لقد كنت أحاول. ان افهمك كيف ان جسم الكنيسة، الذي كان أيضا لقرون، جسم كل المجتمع، شعب الرّب، قد أصبح متنوعا جدا، وكثيفا، فجذب معه حثالة كل البلدان التي اجتازها وفقد من نقاوته الاصلية. وفروع الدلتا هي، ان أردت، كل محاولات النهر للجري حثيثا نحو البحر، أو بالأحرى نحو وقت التطهير. ولكن استعارتي لم تكن كاملة. كانت تصلح فقط لتظهر لك ان فروع الهرطقة وحركات التجديد، عندما يخرج النهر عن مجراه، كثيرة ومتداخلة. ويمكنك ان تضيف الى استعارتي السيئة صورة شخص يحاول بكل وسعه ان يعيد

بناء السدود، دون ان يصل الى ذلك. فجُفّفت بعض فروع الدلتا وأعيد وصل بعضها الآخر بالنهر عبر قنوات اصطناعية واخرى تركت تجري لشأنها، لأن ليس من الممكن حصرها كلها ومن الاحسن ان يُضيع النهر جزءا من مياهه ان أراد ان يبقى مجراه مستقيما وبيّناً.

ـ أفهم أقلّ من ذي قبل.

ـ أنا أيضا. لست بارعا في الكلام من خلال المجاز. انس قصة هذا النهر. الأَوْلى هو ان تفهم ان الكثير من الحركات التي سميتها قد نشأت على الأقل منذ قرنين واندثرت، وأخرى نشأت حديثا. . . ـ ولكن عندما يأتي الحديث عن الهراطقة يقع ذكرهم معا.

ـ صحيح، ولكن هذه هي الطريقة التي تنتشر بها الهرطقة، واحدى الطرق التي تقضي عليها.

ـ لا أفهم من جديد.

ـ يا الهي، ما أعسر هذا الأمر. تخيل انك مصلح أخلاقي وأنك جمعت بعض الرفاق فوق قمة جبل للعيش في فقر. بعد مدة قصيرة ترى ان الكثيرين يأتونك حتى من بقاع نائية، ويعتبرونك نبيا، أو رسولا، ويتعبونك. هل أتوا حقيقة من أجلك أو من أجل اقوالك؟

ـ لا أدري، أرجو ان يكون الأمر كذلك، والا لماذا؟

ـ لانهم سمعوا من آبائهم قصص مصلحين آخرين، وأساطير جماعات كادت ان تصل حدّ الكمال، ويظنون ان هذه هي تلك وان تلك هي هذه.

ـ وهكذا ترث كلّ حركة أبناء الحركات الأخرى.

ـ أكيد، لأن أكثر من يسرع اليها هم من البسطاء الذين لا يستطيعون التدقيق في المذاهب. ومع ذلك فحركات الاصلاح الاخلاقي تنشأ في أماكن مختلفة وبطرق وبمذاهب مختلفة. مثلا، غالبا ما يقع الخلط بين المانويين والفوديّين، مع ان هناك فرقا كبيرا بينهم. فالفوديّون كانوا ينادون بإصلاح أخلاقي داخل الكنيسة ذاتها، بينما كان ينادي المانويون بكنيسة مختلفة، وبرؤية جديدة للاله وللاخلاق. كان المانويون يعتقدون ان العالم مقسم بين قوى الخير وقوى الشّر، وأسّسوا كنيسة يتميّز فيها الكاملون عن بسطاء المؤمنين ولهم قدّاسهم ونواميسهم، وانشأوا درجات على غاية من الدقة، تكاد تكون في دقّة درجات أمّنا الكنيسة المقدّسة ولم

يكونوا يفكرون أبدا في تهديم أي شكل من أشكال السلطة. وهذا يفسر لك لماذا انضم الى المانويين رجال قيادة وأصحاب أملاك واقطاعيون. وما كانوا يفكرون في اصلاح العالم، لأن التعارض بين الخير والشر بالنسبة اليهم لا يمكن التذليل منه. أمّا الفوديون (ومعهم الارنالديون والفقراء اللومبارديون) فقد كانوا يريدون خلق عالم مختلف يقوم على فكرة الفقر، لذا كانوا يجمعون المحرومين، ويعيشون جماعات يكسبون قوتهم من عمل ايديهم. وكان المانويون يرفضون أسرار القداس الكنسيّة، أما الفوديون فلا وانما يرفضون الاعتراف.

ـ ولكن لماذا يقع اذن الخلط بينهم، ويأتي الحديث عنهم كما لو كانوا نفس النبته الفاسدة؟

ـ لقد قلت لك ذلك. وهو ان ما يخلقهم هو أيضا ما يهلكهم. تتضخم صفوفهم ببسطاء كانت تحثهم حركات أخرى، فيظنون انها نفس فكرة الثورة والامل. ويهلكهم المحقّقون الذين ينسبون أخطاء أولائك الى هؤلاء، وإذا ما قام اتباع بعض الحركات بجريمة، تنسب تلك الجريمة الى كل الاتباع من كل الحركات. والمحققون مخطئون حسب العقل، لأنهم يضعون معا مذاهب متعارضة، ويصيبون حسب خطأ الآخرين. لأنه عندما تنشأ حركة ما في مدينة، حركة الارنالديين على سبيل المثال، يأتيها ايضا من كان ينبغي ان يكون أو من كان سابقا، في أماكن أخرى، مانويا أو فوديا. فقد كان رسل الأخ دولتشينو ينادون بابادة رجال الكنيسة والاسياد جسديا، وقاموا بكثير من الجرائم. وكان الفودّيون ضدّ العنف، وكذلك الاخوانيون. ولكنني متأكد انه في أيام دولتشينو انضم الى فريقه الكثيرون ممن تبعوا بشارة الاخوانيين أو الفودّيين، لا يستطيع البسطاء ان يختاروا هرطقتهم، يا أدسو، انهم يتشبثون بمن يأتي الى اراضيهم بنظرية أو بمن يمرّ عبر القرية أو بساحة المدينة. وأعداؤهم ينتهزون ذلك. فعندما يظهرون للشعب هرطقة واحدة، قد تنادي في نفس الوقت برفض المتعة الجسدية وبالتشارك في الأجساد، فتلك مهارة في فن التبشير: لأنها تظهر الهراطقة في مظهر خليط واحد من التناقضات الشيطانية الجارحة للاحساس العامّ.

ـ اذن ليست هناك علاقة بينهم، وبخدعة من الشيطان يجد البسيط نفسه بين أيدي المانويين بينما كان يريد ان يكون جواكيميا أو روحانيا، والعكس بالعكس؟

ـ ولكن ليس الأمر كذلك. لنحاول ان نبدأ المسألة من جديد من أولها يا

أدسو، وأؤكد لك انني أحاول ان أشرح لك شيئا لا اعتقد انا نفسي انني أملك عنه الحقيقة. أظن ان الخطأ هو الاعتقاد بأن الهرطقة تأتي أولا، ثم يأتي البسطاء الذين يتهالكون عليها (ويهلكون فيها). في الحقيقة تأتي أولا وضعية البسطاء ثم الهرطقة.

ـ كيف؟

ـ ان تركيبة شعب الرّب واضحة في ذهنك. قطيع كبير فيه نعاج طيبة ونعاج شريرة، تراقبها كلاب شرسة وهم الجند أو السلطة الزمنية المتمثلة في الامبراطورية والاسياد، يقود الجميع الرعاة أي رجال الكنيسة، الذين ينطقون باسم الاله. الصورة واضحة.

ـ ولكنها ليست صحيحة. ان الرعاة يتصارعون مع الكلاب لأن كلاّ منهما يريد حقوق الآخر.

ـ صحيح، وفعلا هذا ما يجعل طبيعة القطيع غير دقيقة. أهمل الرعاة والكلاب، القطيع لانشغالهم بتمزيق بعضم بعضا، وبقي جزء من القطيع على الحاشية.

ـ كيف على الحاشية؟

ـ نعم على الحاشية. فلاحون، وليسوا بفلاحين لأن لا أرض لهم أو لأن تلك التي يملكونها لا تسد رمقهم. مدنيون، وليسوا مدنيين لانهم لا ينتمون لا الى حرفة ولا الى هيئة عمالية أخرى. شعب فقير، ضحية الجميع. أرأيت أحيانا في الارياف بعض الجماعات من المجذومين؟

ـ نعم، لقد رأيت مرة مائة منهم معا. مشوّهين قد تعفن لحمهم حتى أصبح أبيضاً، كانوا يمشون على عكازاتهم، وجفونهم منتفخة، وعيونهم دامية. لم يكونوا يتكلمون أو يصيحون، كانوا يصفرون كالفئران.

ـ انهم بالنسبة الى الأمة المسيحية، الآخرون، أولائك الذين يوجدون على حاشية القطيع. والقطيع يبغضهم، وهم يبغضون القطيع. يودّون موتنا ويودّون لو كنّا كلّنا مرضى بالجذام مثلهم.

ـ نعم، اذكر قصة للملك تريستانو الذي كان يريد اعدام ايزوتّا الجميلة، وبينما كانت تقاد الى المحرقة جاء المجذومون للملك وقالوا له ان المحرقة عقاب خفيف، وان هناك عقابا أشد، وصاحوا بالملك ان اعطنا ايزوتّا لتكون لنا كلّنا،

فالداء يوقد شهواتنا، اعطها لمرضاك بالجذام. انظر، خرقنا ملتصقة بجروحنا التي تتألم، وهي التي كانت بجانبك تنعم بالاقمشة المبطنة بالفرو وبالحلي، عندما ترى بلاط المجذومين وتضطّر الى دخول أكواخنا والى مضاجعتنا، عندئذ ستقرّ فعلا بذنبها وستتحسّر على نار هذه المحرقة الجميلة.

فقال غوليالمو مازحا : أرى انه بالنسبة الى مبتدىء بنديكتي لك قراءات غريبة. واحمرّ وجهي لانني كنت أعلم انه لا ينبغي لمبتدىء ان يقرأ روايات غرامية، لكنها في دير «مالك» كانت تدور بيننا نحن الشبّان وكنا نقرأها في الليل على نور الشمع. وأضاف غوليالمو «ولكن لا يهمّ، لقد فهمت ماذا كنت أعني. يريد المجذومون ان يهلكوا الجميع معهم. وكلما زدت في ابعادهم زاد شرّهم. وكلما اعتبرتهم جمعا من الاشباح، كلما زدت في اقصائهم يريدون هلاكك. لقد فهم القديس فرنشسكو ذلك، وكان اختياره الاول ان يذهب ليعيش بين المجذومين. لا يتغيّر ما بأمة الرّب ما لم يرجع في صلبها العائشون على حاشيتها.

ـ ولكنك تتحدث عن محرومين آخرين. ليس المجذومين هم الذين يكونون الحركات الهرطيقية.

ـ القطيع هو كمجموعة من الدوائر المتراكزة، من ابعاد القطيع الاكثر اتساعا الى ضاحيته المباشرة. المجذومون يمثلون الحرمان بصفة عامة. لقد فهم القديس فرنشسكو ذلك. لم يكن يريد فقط مساعدة المجذومين والا ما كان عمله ليتعدّى فعل الرّحمة المتواضع وغير المجدي. كان يعني أكثر من ذلك. هل قصّوا عليك وعظه للطيور؟

ـ آه، نعم، لقد سمعت تلك القصة الرائعة وعجبت للقديس الذي ينعم بصحبة تلك المخلوقات الوديعة.

ـ اذن قد قصّوا عليك قصة خاطئة، أو بالأحرى القصة التي يقوم الآن النظام باعادة تركيبها. عندما تحدث فرنشسكو الى خلق الله والى حكّامهم ورأى أنهم لا يفهمونه ذهب نحو المقبرة وأخذ يبشر الغربان والعقاعق والصقور والجوارح التي تعيش من الجيف. فقلت : «ياله من شيء فظيع، لم تكن اذن طيورا وديعة».

ـ كانت طيورا مفترسة، طيورا ينفر منها الناس كالمرضى بالجذام. من المؤكد ان فرنشسكو كان يفكر في تلك الآية من سفر الرؤيا التي تقول : رأيت ملاكا،

ارتفع في الشمس، وصاح بصوت قوي الى كلّ الطيور المخفّقة في السماء هلمّ اجتمعي الى عشاء الاله العظيم لكي تأكلي لحوم ملوك ولحوم قوّاد ولحوم أقوياء ولحوم خيل والجالسين عليها ولحوم الكلّ حرّا وعبدا صغيرا وكبيرا.

ـ اذن فرنشسكو كان يريد حث المحرومين على الثورة؟

ـ كلاّ، ربما كان هذا ما فعله دولتشينو وأتباعه. كان فرنشسكو يدعو اليه المحرومين، المتأهبين للثورة، كي ينضمّوا الى شعب الرّب. لجمع شمل القطيع ينبغي استرجاع المحرومين. ولم ينجح فرنشسكو في مسعاه وأقول لك ذلك بكثير من المرارة. لاسترجاع المحرومين كان ينبغي ان يعمل داخل الكنيسة، وكي يعمل داخل الكنيسة كان ينبغي ان يحصل على اعتراف بقاعدته، التي منها يتكون نظام، والنظام، عند نشأته يغلق رسم الدائرة، التي يوجد على حاشيتها المحرومين. والآن تفهم لماذا توجد جماعات الاخوانيين والجواكميين، الذين يجمعون حولهم، مرة أخرى، المحرومين.

ـ ولكننا لم نكن نتحدث عن فرنشسكو، بل عن الكيفية التي تنتج بها الهرطقة من البسطاء المحرومين.

ـ فعلا. كنا نتحدث عن الذين وقع اقصاؤهم عن قطيع النعاج. طيلة قرون، بينما كان البابا والامبراطور يتناحران في مخاصماتهما حول السلطة، واصل هؤلاء العيش على حاشية المجتمع، هم المجذومون الحقيقيون، وليس المرضى بالجذام الا صورة وضعها الاله حتى نفهم هذه الاستعارة الرائعة ونفهم «مقصيين، فقراء، بسطاء، محرومين، مقتلعين من اريافهم، مذلولين في المدن». ونحن لم نفهم، لقد بقي سرّ الجذام يستحوذ على فكرنا لاننا لم نفهم طبيعته الدلالية. واقصاؤهم عن القطيع جعلهم مستعدّين لسماع أو لخلق كل بشارة تستعيد أقوال المسيح، وتعرّض للاتهام فعلا تصرفات الكلاب والرعاة واعدة بانه سيأتي يوم يجدون فيه عقابهم. وهذا ما فهمه دائما أهل الحول والطول. فاسترجاع المقصيين يُحتّم التقليل من امتيازاتهم ولذا يتّهم المقصّيون الذين يستيقظ فيهم الوعي بوضعيتهم كمقصيّين بالهرطقة، بقطع النظر عن نظريتهم. وهؤلاء من جهتهم ـ وقد اعمتهم وضعيتهم كمقصيّين ـ لا يهتمون في الحقيقة بأية نظرية. هذا هو خداع الهرطقة. جميعهم هراطقة وجميعهم أرثوذكسيين. لا تؤخذ العقيدة التي تأتي بها الحركة بعين الاعتبار ما يهم هو الامل الذي تعرضه (على الآخرين). كل الهرطقات راية

لواقع الاقصاء. اكشط الهرطقة تجد تحتها الجذام. وكل مكافحة ضد الهرطقة لا تريد الا هذا : ان يبقى الأجذم على حاله. واما المجذومون فماذا تريد منهم؟ ان يفرقوا، في عقيدة الثالوثي أو في سرّ القربان المقدس، بين ماهو صحيح وما هو باطل؟ هلّم يا أدسو، هذه ألعاب نلهو بها نحن رجال الفكر. أما البسطاء فلهم مشاكل أخرى. ولعلّك لا حظت انهم يحلّونها كلها بطريقة خاطئة. لذا يصبحون هراطقة.

ـ ولكن لماذا يؤيدهم البعض؟

ـ لأنهم يخدمون أغراضهم التي لا تعنى الاّ نادرا بالعقيدة وهمّها الظفر بالسلطة.

ـ لذا تتهم الكنيسة الرومانية بالهرطقة كل أعدائها؟

ـ نعم، ولذلك تعترف بصواب تلك الهرطقة التي يمكنها ان تعيدها داخل مراقبتها، أو تلك التي تجبر على قبولها لأنها أصبحت قوية جدا ولا يستحسن ان تكون في صف أعدائها. ولكن دون قاعدة مضبوطة، حسب الاشخاص وحسب الظروف. وهذا صحيح حتى بالنسبة الى الاسياد المدنيين. لقد أصدرت بلدية بادوفا منذ ثلاثين سنة، أمرا يقضي بأن من يقتل رجل كنيسة يحكم عليه بغرامة نقدية كبيرة. . .

ـ لا شيء!

ـ فعلا. كانت طريقة لحث الشعب على بغض رجال الكنيسة، لأن المدينة كانت في صراع مع الاسقف. تفهم الآن لماذا أعان سابقا الموالون للامبراطورية في كريمونا المانويين، لا لأسباب عقائدية ولكن لتوريط الكنيسة الرومانية. أحيانا يشجع الحكام المدنيون الهراطقة لانهم يترجمون الانجيل الى اللغة العامية : لقد أصبحت العاميّة الآن لغة المدينة، واللاتينية لغة روما ولغة الاديرة. أو يؤيدون الفوديين لأنهم يؤكدون ان الجميع، رجالا ونساء، صغارا وكبارا، يمكنهم ان يدرّسوا وان يعظوا والعامل الذي يصبح تلميذا، بعد عشرة أيام يبحث عن تلميذ آخر ليكون له أستاذا. . .

ـ وهكذا يمحون الفارق الذي يجعل رجال الكنيسة لا غنى عنهم! ولكن كيف يقع من بعد ان نفس الحكومات المدنية تثور ضدّ الهراطقة وتعين الكنيسة على حرقهم؟

ـ لانهم يتفطنون الى ان انتشارهم سيضع، في أزمة أيضا، امتيازات المدنيين الذين يتكلمون العامية. في مجمع لاتران سنة 1179 (ترى انها احداث تعود الى ما يزيد عن مائتي سنة) كان «والترماب» قد حذّر مما يمكن ان يحدث اذا ما وقع تصديق أولئك الفوديين الأغبياء الجهّال. قال، ان كنت أذكر جيّداً، انهم دون مسكن قارّ ودائم، يتجولون حفاة لا يملكون شيئا، مقتسمين بينهم كل شيء، يتّبعون عراة المسيح العاري. انهم يبدأون الآن بهذه الطريقة من التواضع الكبير لأنهم محرومون، ولكن لو ترك لهم مجال أكبر فسيطردون الجميع. لذلك ساعدت المدن الانظمة المتسوّلة وخاصة نحن الفرنشسكانيين : لأنها تسمح بعلاقة منسجمة بين الحاجة الى التوبة والحياة المدنية، بين الكنيسة والمدنيين الذين يهتمّون باسواقهم. . .

ـ قد تحقق اذن الانسجام بين حب الله وحب التجارة؟

ـ كلا، لقد توقفت حركات التجديد الروحاني ووقع توجيهها داخل حدود نظام يعترف به البابا. أما ما كان يسري من تحتها فلم يقع توجيهه. وانتهى من ناحية في حركات المتسوطين الذين لا يؤذون احدا، وفي الجماعات المسلحة أيضا كتلك التابعة للراهب دولتشينو، وفي طقوس الشعوذة مثل تلك التي يمارسها إخوان مونتيفالكو الذين تحدث عنهم أوبارتينو. . .

فسألته بحيرة :

ـ ولكن من كان على صواب، من الصائب ومن المخطىء؟

ـ لكل حجته المعقولة، وكلهم أخطأوا.

فصحت بحماس يكاد يكون ثوريا «ولكن أنت، لماذا لا تأخذ موقفا، لماذا لا تقول لي اين توجد الحقيقة؟»

فبقي غوليالمو بعض الوقت صامتا، رافعا نحو النور العدسة التي كان يصنعها. ثم وضعها على الطاولة وأراني من خلال العدسة أداة حديدية وقال لي «انظر، ماذا ترى؟» ـ الحديد، أكبر بقليل.

ـ هو ذا، ان أقصى ما يمكننا عمله هو ان ننظر أحسن.

ـ ولكن هو دائما نفس الحديد!

ـ ومخطوط فينانسيو سيبقى دائما نفس المخطوط عندما سأتمكن من قراءته بفضل هذه العدسة. ولكنني ربما بعد قراءة المخطوط سأعرف جزءا من الحقيقة

معرفة أحسن. وربما يمكننا ان نجعل حياة الدير أفضل.

ـ ولكن لا يكفي!

ـ انني اقول لك اكثر مما يبدو، يا أدسو. ليست هذه المرة الأولى التي احدثك عن روجي باكون. ربما لم يكن احكم رجل عرفه التاريخ، ولكن سحرني دائما الامل الذي كان يحرك فيه حب المعرفة. كان باكون يؤمن بقوة البسطاء الروحانية وبحاجاتهم وابتداعاتهم. ما كان يمكن ان يكون فرنشسكانيا لو لم يظن ان الفقراء، والمحرومين، والاغبياء والاميين يتكلمون غالبا بلسان سيدنا المسيح، ولو أمكنه أن يعرفهم عن قرب، لكان اهتمامه بالاخوانيين أكثر من اهتمامه بالآباء المشرفين على النظام.

ان للبسطاء شيئا لا يملكه العلماء، الذين غالبا ما يتيهون وراء البحث عن قواعد عامة جدا. انهم يدركون ما هو فردي ولكن هذا الادراك وحده لا يكفي. ان البسطاء يحسون بحقيقتهم، التي هي ربما حقيقية اكثر من حقيقة علماء الكنيسة، ولكنهم يستهلكونها في أعمال غير متبصرة. ما العمل؟ انعطي العلم الى البسطاء؟ هذا سهل جدا، أو صعب جدا. ثم أي علم؟ ذلك الموجود في مكتبة أبوني؟ غالبا ما طرح الفرنشسكانيين على انفسهم هذا المشكل. لقد كان بونفانتورا العظيم يقول انه ينبغي على الحكماء ان يوضحوا مفاهيم تلك الحقيقة المختفية وراء أعمال البسطاء...

فقلت: «كمجمع بيروجيا ومذكرات أوبارتينو العلمية التي تحوّل نداء البسطاء الى الفقر الى قرارات لاهوتيّة».

ـ نعم، ولكنك رأيت، إنها تأتي بعد فوات الأوان، وعندما تأتي تكون حقيقة البسطاء قد تحولت الى حقيقة اصحاب السلطة، صالحة اكثر للامبراطور لودوفيكو منها للاخ الذي يعيش حياة فقيرة. كيف يمكن الوقوف الى جانب تجربة البسطاء مع الحفاظ، ان استطعنا القول، على قوتها العملية، وعلى قدرتها على العمل من أجل تغيير العالم وجعله أفضل؟ كان هذا مشكل باكون وهو: «ان ما ينشأ من عمل المدنيين المتهوّر لا يمكن أن يؤدي إلاّ إلى نتيجة عرضية» ان تجربة البسطاء تصل الى نتائج وحشية ولا يمكن التحكم فيها. «في حين ان عوالم الحكمة تنظمها قاعدة مضبوطة وتبلغ يقينا النتيجة النهائية». فكأنه يقول انه حتى في ادارة الاشياء العملية، أكانت آليات، أو فلاحة أو حكم مدينة، يلزم نوع من اللاهوتية.

كان يرى ان علم الطبيعة الجديد يجب ان يكون عمل العلماء الجديد والعظيم لادارة الحاجيات الاولية من خلال معرفة مختلفة للتطورات الطبيعية والتي تتمثّل في التراكم غير المنظم، ولكنه على طريقته حقيقيّ وعادل، للآمال التي يتعلق بها البسطاء. هذا هو العلم الجديد، والسحر الطبيعي الجديد. الا أنه بالنسبة الى باكون ينبغي ان تشرف الكنيسة على هذا العمل، واظن انه كان يقول ذلك لانه في زمنه كانت مجموعة رجال الكنيسة تتطابق مع مجموعة العلماء. الآن لم يعد الأمر كذلك، فالعلماء يظهرون خارج الأديرة وخارج الكنائس وحتى خارج الجامعات. انظر مثلا في هذه البلاد، ترى ان اكبر فلاسفة هذا القرن ليس راهبا بل عقاقيري. اتحدث عن ذلك الفلورنسي الذي قد تكون سمعت قصيدته تذكر، والتي لم أقرأها لانني لا أفهم لغة العامّة، وحسب ما أعرف عنها لن تعجبني الا قليلا لان فيها هذياناً عن أشياء بعيدة جدا عن تجربتنا. ولكنه كتب، على ما أظن، أروع حكم أتيح لفهمنا ان يدركها حول طبيعة العناصر والكون كله، وحول قيادة الدول. وهكذا أظن، بما انني انا ورفاقي نرى ان قيادة الاشياء البشرية ليست الآن من مشمولات الكنيسة بل من مشمولات مجلس الشعب الذي عليه ان يقنّنها، انه بنفس الطريقة يتحتم في المستقبل على مجموعة العلماء تقديم هذه اللاهوتية الجديدة والانسانية التي هي فلسفة طبيعية وشعوذة ايجابية.

فقلت: «انه عمل رائع، ولكن هل هو ممكن؟».

ـ لقد كان باكون يؤمن به.

ـ وأنت؟

ـ أنا أيضا كنت أؤمن به. ولكن للايمان به ينبغي التأكد من أن البسطاء على حق لأنهم يملكون الاحساس بالفردية، الذي هو الوحيد الصحيح، كيف يمكن للعلم ان يعيد تكوين القوانين الشاملة التي من خلالها، ومن خلال تأويلها، تصبح الشعوذة الايجابية عملية؟

فقلت: صحيح، كيف سيمكنه ذلك؟

ـ لم أعد أدري. لقد كانت لي عدة مناقشات في أوكسفورد مع صديقي غوليالمو دي أو كّام، الذي يوجد الآن في أفينيون. انه ملأ نفسي شكوكا. فإن كان مجرّد الحدس بالفردية هو الصحيح يصبح من الصعب القول بأن أسبابا من نوع ما تنجرّ عنها مسبّبات من نفس النوع. ان نفس الجسم يمكن ان يكون باردا

أو ساخنا، حلوا أو مرا، رطبا أو جافا، في هذا المكان، لا في مكان آخر. كيف يمكنني اكتشاف العلاقة العامّة التي تجعل الأشياء منظمة ان لم يكن بامكاني ان أحرك إصبعا دون ان أخلق مجموعة لا نهائية من الحالات، بما انه بمثل تلك الحركة تتغيّر كل علاقات الموقع بين اصبعي وكل الاشياء الاخرى؟ ان العلاقات هي الكيفيات التي يرى بها فكري العلاقة بين حالات مفردة، ولكن من يضمن أن تلك الكيفية شاملة وقارة؟

ـ ولكنك تعرف ان سمكا معينا للزجاج تطابقه قوة معينة للرؤية، ولانك تعرف ذلك يمكنك الآن ان تصنع عدستين متساويتين لتينك اللتين أضعتهما والا فكيف سيمكنك ان تفعل؟

ـ انه رد ثاقب، يا أدسو. فعلا لقد وضعت هذه القضية وهي انه لسمك معين قوة رؤية معادلة تقابله. ووضعتها لأنه في مرات سابقة كانت لي أدراكات حدسية فردية من نفس النوع. انه من المعروف بكل تأكيد لمن يجرب الخاصية الشفائية للنباتات ان كل الأنواع النباتية من نفس الطبيعة لها نفس التأثير على المريض الذي له نفس العوارض، لذا يطرح المجرب القضية: ان كل نبتة من نوع معين تنفع المصاب بالحمى أو ان كل عدسة من نوع معين تزيد بدرجة معينة من نظر العين. ان العلم الذي كان يتحدث عنه باكون يتمحور دون شك حول هذه القضايا. احترس، فأنا أقصد قضايا عن الاشياء نفسها. فالعلم له علاقة بالقضايا وبأطرافها، والأطراف تعني أشياء مفردة. أتفهم يا أدسو، ينبغي ان أعتقد أن قضيتي ستعطي نتيجة لأني تعلمت ذلك من خلال التجربة، ولكن للإعتقاد في ذلك ينبغي ان أفترض وجود قوانين شاملة، ومع ذلك لا يمكنني قول ذلك لأن الفكرة نفسها ان هناك قوانين شاملة، ونظاما أعطي للأشياء، يؤدي الى القول بان الإلٰه سجين ذلك النظام، بينما الإلٰه حرّ مطلقا ولو أراد باشارة واحدة لجعل العالم مختلفا.

ـ إذن ان كان فهمي صائبا، فأنت تفعل، وتعرف لماذا تفعل، ولكنك لا تعرف لماذا تعرف انك تعرف ماذا تفعل؟

يجب ان أقول باعتزاز ان غوليالمو نظر اليّ باعجاب قائلا «قد يكون كذلك. على كل حال هذا يبيّن لك لماذا أحس بكل ذلك الشكّ في الحقيقة التي أملكها، حتى ولو اني أؤمن بها.

فقلت بخبث «انك أكثر تصوفا من أوبارتينو!» ـ ربما. ولكن كما ترى، أنا

أعمل حول أشياء الطبيعة. وحتى في التحقيق الذي نحن بصدد القيام به، لا أريد أن أعرف من الطيب ومن الشرير، ولكن من كان في قاعة الكتابة ليلة أمس، من سرق النظارات، من ترك على الثلج آثار جسم يجذب جسما آخر، واين يوجد برينغاريو. هذه وقائع ثم سأحاول الربط بينها، ان كان ذلك ممكنا، لانه من الصعب القول ما هو المعلول الذي أحدثته علة ما. يكفي تدخل ملاك كي يتغير كل شيء، لذلك ليس من العجيب ان لا نتمكن من البرهنة على أن شيئا هو سبب شيء آخر ولو أنه ينبغي دائما محاولة ذلك كما أفعل الآن.

فقلت «انك تعيش حياة صعبة»

فصاح غوليالمو «لكنني وجدت برونيلّو» ململحا الى الجواد الذي رأيناه منذ يومين.

فصحت بظفر «اذن هناك نظام للعالم!».

فأجاب غوليالمو «اذن هناك قليل من النظام في رأسي المسكين» عند ذلك دخل نيكولا وهو يحمل حمّالة للزجاج أوشك على اتمام صنعها وأرانا إياها بظفر، فقال غوليالمو «وعندما أضع هذه المسّاكة فوق أنفي المسكين، قد يصبح رأسي المسكين أكثر نظاما.»

ثم جاءنا مبتدىء يعلمنا ان رئيس الدير يريد مقابلة غوليالمو، وانه ينتظره في الحديقة. فتحتم على استاذي ترك تجاربه الى ما بعد وأسرعنا نحو مكان الملاقاة. وبينما كنا في طريقنا ضرب غوليالمو بكفه على جبينه وكأنه تذكر في تلك اللحظة فقط أمرا كان قد نسيه، وقال «بالمناسبة، لقد فككت رموز فينانسيو الغامضة».

ـ كلها؟متى؟

ـ بينما كنت أنت نائما. ويتوقف الأمر على ماتعني بكلّها. لقد فككت الرموز التي ظهرت بفعل النار، تلك التي نقلتها. أما المذكرة باليونانية فيجب ان تنتظر حتى أحصل على عدستين جديدتين.

ـ اذن كانت تخصّ سرّ «finis Africae»؟

ـ نعم، وكان المفتاح سهلا. كان فينانسيو يستعمل العلامات البروجية وثماني علامات للسيارات الخمس، والشمس والقمر، والأرض. عشرون علامة في مجموعها. كافية كي تناسبها الأحرف الابجدية اللاتينية، اذ بالامكان استعمال نفس الحرف لصوت الحرفين الاولين في «unum» و «velut». ترتيب الأحرف

نعرفه، ماذا يكون ترتيب العلامات؟ لقد فكرت في نظام السماوات، واضعا فلك البروج في أقصى محيط الدائرة. اذن، الارض، القمر، عطارد، الزهرة، الشمس... الى آخره، ثم تأتي العلامات البروجية في تتابعها الاعتيادي، كما رتبها إزيدورو دا سفيليا، مبتدئا بالحمل وبمنقلب الربيع ومنتهيا بالحوت. الآن لو حاولت ان تطبق هذا المفتاح لاصبح لمذكرة فينانسيو معنى». وأراني الرق وقد كتب فوقه فحوى المذكرة بأحرف لاتينية كبيرة «Secretum finis Africae manus supra idolum age primum et septimum de quatuor»

وسألني : هل هو واضح؟

فأعدت وأنا أهزّ رأسي : اليد فوق الصورة تحرك الاول والسابع من بين الأربعة... ليس واضحا بالمرة.

ـ أعرف ذلك. ينبغي علينا أولا ان نعرف ماذا كان فينانسيو يعني بـ «Idolum». صورة، أم شبحا ام رمزا؟ ثم، ماذا تكون هذه الأربعة التي لها أول وسابع؟ وماذا ينبغي ان نفعل؟ ان نحركها، ان ندفعها، أم ان نجذبها؟

فقلت بخيبة أمل كبيرة : «إذن نحن لا نعرف شيئا ولا نزال في نفس النقطة التي بدأنا منها.» فتوقف غوليالمو ونظر اليّ بهيئة لا تنم قط على الرقة وقال «أيها الولد، أمامك فرنشسكاني مسكين استطاع بمعرفته المتواضعة وبذلك القليل من المهارة التي وهبتها اياه قدرة الإلـه اللامتناهية ان يفكّ في بضع ساعات رموز كتابة سرية كان كاتبها واثقا من أنها ستبقى مغلقة على الجميع الا على نفسه.. وأنت، أيها الأمّي البائس تسمح لنفسك بأن تقول اننا لا نزال في النقطة التي بدأنا منها».

فاعتذرت اليه بارتباك كبير. لقد جرحت كبرياء استاذي مع انني كنت أعرف كم كان فخورا بسرعة استنتاجاته وبثباتها. لقد قام غوليالمو حقيقة بعمل يستوجب الاعجاب وليست غلطته ان الداهية فينانسيو لم يكتفِ بإخفاء ما اكتشف تحت حجاب أحرف بروجية غامضة، بل وضع أيضا لغزا لا يمكن فكّ رموزه.

فقاطعني غوليالمو قائلا «لابأس، لابأس، لا تعتذر. في نهاية الأمر انت على حق، اننا لا نعرف الى الآن الا شيئا قليلا جدا. هيّا بنا».

صَلاة الستّار

وفيه يجري غوليالمو محادثة أخرى مع رئيس الدير وتخطر بباله أفكار عجيبة لفكّ لغز المتاهة وينجح في ذلك بالطريقة الأكثر معقولية ثم يأكل أدسو وغوليالمو فطيرة من الجبن.

كان رئيس الدير ينتظرنا مكفهّر الوجه منشغلا، ممسكاً في يده ورقة . وقال «لقد تسلّمت الآن رسالة من رئيس دير كونك يعلمني فيها باسم الشخص الذي عهد اليه جيوفاني بقيادة الجنود الفرنسيين، وبضمان سلامة القصادة. ليس رجل سلاح، ولا رجل بلاط وسيكون في الوقت نفسه عضوا في القصادة.»

فقال غوليالمو بقلق «انه لاقتران نادر لمناقب مختلفة. من يكون؟

ـ برناردو غي، أو برناردو غويدوني، كما تريد ان تسميه.» فانطلقت من غوليالمو عبارة في لغته، لم أفهمها، ولا فهمها رئيس الدير، وربما كان من الأفضل كذلك بالنسبة الى الجميع، لأن الكلمة التي نطق بها غوليالمو أحدثت صوتا فاحشا. ثم أضاف في الحال «هذا أمر لا يعجبني. لقد كان برناردو لمدة سنين مدقّة الهراطقة في جهة تولوز وألّف كتابا بعنوان «دليل المفتش في التحقيق حول ضلال الهراطقة» مخصصا لمن كلّف بملاحظة الهراطقة وابادتهم من فوديين، ومترهبين متسكعين ومتزمتين منافقين، وإخوانيين ودولتشينيين.

ـ أعرف ذلك، وأعرف الكتاب، انه روعة في الفكر.

فأيده غوليالمو معيدا : روعة في الفكر. انه مخلص لجيوفاني الذي أوكل إليه في السنوات الماضية العديد من المهمات في جهات فلاندرا وفي ايطاليا الشمالية. وحتى عندما عين في غاليتسيا لم يظهر ابدا في أبرشيته وتابع نشاطه التفتيشي. كنت أظن أنه تنسّك في أسقفية لوداف، ولكن حسب ما يظهر قد أعاده جيوفاني

الى العمل وفي شمال ايطاليا بالذات. لماذا برناردو بالذات، ولماذا عهدت اليه مسؤولية الجند. . . ؟ فقال رئيس الدير «الجواب موجود، ويؤكد كل التخوفات التي عبّرت لك عنها بالامس. انت تعرف جيدا ـ حتى وان كنت لا توافقني على ذلك ـ ان المواقف حول فقر المسيح والكنيسة، التي أيدها مجمع بيروجيا، ولو بحجج لاهوتية وافرة، هي نفسها التي تؤيدها بأقل تبصّر وأقلّ استقامة في السلوك، الكثير من الحركات الهرطيقية. ليس من الصعب البرهنة على ان مواقف ميكيلي دا تشيزينا، التي تبنّاها الامبراطور، هي نفس مواقف أوبارتينو وانجيلو كلارينو. وعلى هذا ستكون البعثتان متفقتين. ولكن بمقدور غي ان يعمل أكثر من ذلك، ولديه المهارة الكافية لذلك: سيحاول أن يؤكد على ان أفكار مجمع بيروجيا هي نفس أفكار الاخوانيين، أو الرسل الكاذبين. أتوافقني على ذلك؟

ـ أتقول ان الأشياء هي على هذا النحو أم ان برناردو غي سيقول انها على هذا النحو؟

فاعترف رئيس الدير بحذر : لنقل انني أقول انه سيقول ذلك.

ـ اني أشاطرك الرأي. ولكن هذا كان متوقعا. أريد ان أقول انه من المعروف اننا سنصل الى ذلك حتى دون حضور برناردو. على أقصى تقدير سيقوم برناردو بذلك بفعالية أكثر من أولئك الكنسيّين الحمقى، وينبغي ان نناقشه بأكثر دقة.

فقال رئيس الدير : نعم، ولكن عند ذلك الحد سنجد أنفسنا في نفس القضية التي أثيرت أمس. اذا لم نعثر اليوم أو غدا على مرتكب الجريمتين أو ربما الثلاث سأضطر الى السماح لبرناردو بالقيام بمراقبة أمور الدير. لا يمكنني ان أخفي على رجل عهدت اليه سلطة، مثل تلك التي عهدت الى برناردو (وباتفاق متبادل من طرفنا، لنتذكر ذلك) انه وقعت في الدير ولا تزال تقع أحداث لا يمكن تفسيرها. والا، فعندما سيكتشف ذلك، أو عندما يقع (لا سمح الله) حدث جديد غامض، سيكون لديه الف حق في ان يصيح : ياللخيانة!»

فتمتم غوليالمو بانشغال قائلا «هذا صحيح، ليس هناك ما يمكننا عمله. ينبغي ان نكون حذرين، وان نراقب برناردو الذي سيراقب المجرم الغامض وربما يكون ذلك افضل، فسينشغل برناردو بالمجرم ولن يتوفر له الوقت للتدخل في المناقشة.

ـ ان اهتمام برناردو باكتشاف المجرم سيكون كالشوكة المرشوقة في جنب

سلطتي، تذكر ذلك. ان هذه الواقعة الملتبسة تضطرني لأول مرة ان أتنازل عن جانب من سلطتي داخل هذه الاسوار، وهذا حدث لم يسبق ان وقع ليس في تاريخ هذا الدير فحسب، بل وفي تاريخ النظام الكلوني نفسه. اني مستعد الى ان أفعل اي شيء لمنع ذلك. وأول ما يمكنني أن أفعله هو رفض استضافة البعثتين.
فقال غوليالمو «ارجو حضرتك بحرارة ان تفكر في هذا القرار الخطير. بين يديك رسالة من الامبراطور يسألك فيها بالحاح ان. . . »

فأجاب رئيس الدير بحدة «أعرف ماذا يربطني بالامبراطور، وانت أيضا تعرف ذلك. وتعرف اذن أنه للاسف، لا يمكنني التراجع. ولكن كل هذا فظيع جدا. أين برينغاريو، ماذا وقع له، وأنت ماذا تفعل؟»

ـ انني فقط راهب قاد بنجاح، في وقت مضى، ابحاثا تفتيشية فالحة. أنت تعرف ان الحقيقة لا تظهر في يومين. وأخيرا ماذا أعطيتني كسلطة؟ هل أستطيع الدخول الى المكتبة؟ هل يمكنني، بتأييد دائم من سلطتك، ان ألقي كل الأسئلة التي أريدها؟»

فقال رئيس الدير غاضبا «لا أرى العلاقة بين الجرائم والمكتبة.»

فشرح غوليالمو بصبر «لقد كان أدالمو منمنما، وفينانسيو مترجما، وبرينغاريو أمين المكتبة. . . »

هذا يعني أن الرهبان الستّين كلهم لهم علاقة بالمكتبة، كما لهم علاقة بالكنيسة. لماذا لاتبحث اذن في الكنيسة؟ أخ غوليالمو، انك تقوم بتحقيق بتكليف مني وفي الحدود التي رجوتك أن تقوده فيها. فيما تبقى، داخل هذه الأسوار، أنا هو الآمر بعد الرب، وبفضل منه. وهذا يصدق بالنسبة إلى برناردو أيضا». ـ ثم أضاف بلطف ـ «ومن جهة أخرى، ليس هناك ما يؤكد أن برناردو آت الى هنا من أجل اللقاء. لقد كتب اليّ رئيس دير كونك يقول أيضا إنه ينزل الى ايطاليا لمواصلة سفره نحو الجنوب. ويقول لي أيضا إن البابا رجا الكاردينال ديل بودجيتو للصعود من بولونيا والتحول الى هنا لتسلّم قيادة القصادة البابوية. ربما يكون برناردو آتيا الى هنا لملاقاة الكردينال»

ـ وهو أشنع ان نظرنا نظرة أشمل. فبرناردو هو مدقة الهراطقة في ايطاليا الوسطى. وهذا اللقاء بين بطلين في مكافحة الهراطقة يمكن ان يهيئ لهجمة أوسع في البلاد، تشمل في آخر الامر الحركة الفرنشسكانية كلها. .

فقال رئيس الدير «وسنعلم الامبراطور بذلك في الحال. ولكن في هذه الحالة لن يكون الخطر فوريا. سنكون يقظين. وداعا»

بقي غوليالمو برهة صامتا بينما كان رئيس الدير يبتعد ثم قال لي: «لنحاول بالخصوص يا أدسو، ان نتجنّب التّسرع. لا تحل الأشياء بسرعة عندما ينبغي ان تتجمع الكثير من التجارب الصغيرة الفردية. اني عائد الى المخبر، لأني دون العدستين لن يمكنني أن أقرأ المخطوط ولن يكون حتى من الصالح أن نعود هذه الليلة الى المكتبة. اذهب انت واستخبر ان جدّ جديد حول برينغاريو».

في تلك اللحظة هرع نحونا نيكولا دا موريموندو يحمل أخبارا سيئة للغاية. بينما كان يزيد في صقل أفضل عدسة، تلك التي علق عليها غوليالمو آمالا كبيرة اذ انكسرت، واخرى، كان يمكن ان تعوضها، انشقت عند محاولة اقحامها في المسّاكة. ورفع عينيه الى السماء مغموما، اذ حانت صلاة الستار وبدأت الظلمة تهبط. فاعترف غوليالمو بمرارة انه قد ضاع منا يوم آخر متماسكا عن الرغبة (كما اعترف لي فيما بعد) التي تملكته، في خنق الزجّاج الاخرق، الذي كان من ناحيته ذليلا بما فيه الكفاية.

وتركناه لخزيه وذهبنا للاستخبار عن برينغاريو. بطبيعة الحال لم يكن قد عثر عليه أحد.

كنا نحسّ بنفسينا في نقطة توقف، فتنزّهنا قليلا في الرواق، مترددين حول ما ينبغي عمله. ولكنني رأيت بعد قليل غوليالمو سابحا بنظره في الفراغ، وكأنه لا يرى شيئا. كان قد أخذ منذ حين من عباءته عودا صغيرا كنت قد رأيته يقطفه قبل أسابيع، وأخذ في مضغه كما لو كان يستنبط منه نوعا من التهيّج الهادىء. وفعلا كان يبدو هادئا لو لا انه من حين لآخر كانت عيناه تتقدان، وكأنما في الفراغ الذي يملأ فكره كانت تومض فكرة جديدة، ثم يسقط من جديد في بلهه الغريب النشيط. وفجأة قال «أكيد، يمكن..»

فسألته «ماذا؟»

ـ كنت أفكر في طريقة تمكّننا من ان نجد وجهتنا في المتاهة. ليس من السهل انجازها ولكنها قد تكون ناجعة... في نهاية الأمر نعرف ان الخروج يكون من البرج الشرقي. الآن افترض اننا نملك آلة تدلنا على الشمال. ماذا سيقع؟

فلاحظت قائلا «بطبيعة الحال يكفي ان ندور على يميننا وستوجهنا نحو

الشرق. أو يكفي ان نذهب في الاتجاه المعاكس، وسنعرف أننا بصدد الذهاب نحو البرج الجنوبي. ولكن حتى ولو افترضنا ان مثل هذا السحر موجود فالمتاهة هي فعلا متاهة، وما ان نتجه نحو الشرق حتى يعترضنا جدار يمنعنا من المضي الى الامام، وسنضيع الطريق من جديد...

ـ نعم، ولكن الآلة التي أتحدث عنها ستشير دائما الى الشمال، ولو غيرنا نحن اتجاهنا، وعند كل نقطة ستقول لنا اين ينبغي علينا ان ندور.

ـ سيكون شيئا رائعا. ولكن ينبغي ان تكون لدينا تلك الآلة ويجب ان تكون قادرة على معرفة الشمال في الليل وفي مكان مغلق، دون أن ترى الشمس أو النجوم... ـ ثم ضحكت قائلا ـ ولا أظن ان صاحبك باكون يملك مثل تلك الآلة!

فقال غوليالمو «بالعكس، انك مخطئ، لأن مثل هذه الآلة قد صنعت واستعملها بعض البحّارة. وهي لا تحتاج لا للنجوم ولا للشمس، لانها تستغل قوة حجارة عجيبة، تماثل تلك التي رأيناها في مستشفى سفرينو، تلك التي تجذب الحديد. وقد قام بدراستها باكون وساحر بيكاردي، بيترو دا ماريكور، الذي وصف استعمالاتها المتعدّدة.

ـ هل تستطيع انت صنعها؟

ـ لن يكون ذلك في حدّ ذاته شيئا صعبا. يمكن استعمال الحجارة لصنع عدة روائع من بينها آلة تتحرك بصفة لا نهائية دون أية قوة خارجية، ولكن الاختراع الأكثر بداهة قد وصفه عربي، بيلق القبياكي. خذ وعاء مليئا بالماء وضع بداخله قطعة خفاف تطفو فوق الماء وقد رشقت فيها ابرة من الحديد. ثم مرّر فوق سطح الماء الحجرة المغناطيسية بحركة مستديرة، إلى أن تحصل الإبرة على نفس خاصيات الحجرة. عند ذلك تتجه الابرة نحو الشمال ـ وستفعل الحجرة نفس الشيء لو أمكن ان تتحرك حول محور ـ ولو تحركت انت بالوعاء، لأشارت دائما الى جهة القطب. من العبث ان أقول لك، انه لو رسمت على حافة الوعاء، بصِلة مع القطب، مواقع الجنوب والشمال، إلى آخره، فستعرف دائماً نحو أي اتجاه تتحرك في المكتبة للوصول الى البرج الشرقي.»

فقلت باعجاب «ياله من شيء رائع! ولكن لماذا تتجه الابرة دائما نحو الشمال؟ الحجرة تجذب الحديد، لقد رأيت ذلك واتصور ان كمية كبيرة من

الحديد تجذب الحجارة. ولكن، اذن. . . اذن في اتجاه نجمة القطب، عند اقصى حدود الكرة الأرضية توجد مناجم الحديد الكبرى»!

ـ فعلا، لقد قال أحدهم ذلك. بيد ان الابرة لاتتجه بالضبط نحو النجمة البحرية، ولكن نحو نقطة التقاء الخطوط الاستوائية السماوية. وهذا يدل، كما قيل ان «هذه الحجرة ترتسم فيها السموات بدقة» وتستمد أقطاب المغناطيس انحناءها من أقطاب السماء لا من قطبي الارض. وهذا مثال رائع لحركة محدثة عن بعد، لا عن سببية مادية مباشرة. وهذه مسألة يهتمّ بها كثيرا صديق لي، جيوفاني دي جياندونو، عندما لا يطلب منه الامبراطور ان يدفن في جوف الارض افنيون. . .

فقلت باندفاع «اذن هيا نأخذ حجارة سفرينو ووعاء، وماء، وقطعة من خفاف. . .»

ـ اهدأ، اهدأ. لا أدري لماذا ولكني لم أر أبدا آلة وصلت الى الكمال في أوصاف الفلاسفة، وكانت كاملة أيضا في استعمالها الميكانيكي. بينما منجل الفلاح الذي لم يصفه اي فيلسوف يعمل كما ينبغي. . . وأخاف انه لو طفنا في المتاهة حاملين النور بيد ووعاء الماء بيد أخرى ان. . انتظر لدي فكرة أخرى. الآلة تشير إلى الشمال حتى وان كنا خارج المتاهة، أليس كذلك؟

ـ نعم، ولكن عندئذ لن تنفعنا اذ ستكون لدينا الشمس والنجوم. . .

ـ أعرف، أعرف ذلك، ولكن ان كانت الآلة تعمل بالخارج كما تعمل بالداخل، لماذا لا يكون الأمر كذلك حتى بالنسبة الى عقلنا؟

ـ عقلنا؟ اكيد انه يعمل حتى في الخارج، وفعلا نحن نعرف جيدا في أي اتجاه يقع الصرح! ولكن عندما نصبح بالداخل لا نفهم شيئا!

ـ فعلا ولكن انس الآن الآلة. ان التفكير في الآلة دفعني الى التفكير في القوانين الطبيعية وقوانين عقلنا. هذا هو المشكل : يجب أن نجد من الخارج الكيفية لوصف الصّرح كما هو بالداخل. . .

ـ وكيف؟

ـ دعني أفكر، لا يمكن ان يكون امرا صعبا جدا. . .

ـ انها الطريقة التي تحدثت عنها بالامس؟ الم تكن تريد التجول في المتاهة مصورا رسوما بالفحم؟

فأجاب «كلا، كلما زدت تفكيرا في ذلك كلما قل اقتناعي به. قد لا أذكر جيّدا القاعدة، أو قد يلزم للطواف داخل متاهة أن تكون معنا أريانا طيبة تنتظرنا عند الباب ماسكة بطرف الخيط. ولكن لا توجد خيوط في ذلك الطول. وحتى وان وجدت فهذا يعني (غالبا ما تقول الخرافات الحقيقية) انه لا وسيلة للخروج من متاهة إلاّ باعانة خارجية. حيث تكون قوانين الخارج موازية لقوانين الداخل. هو ذا يا أدسو. سنستعمل علوم الرياضيات. في علوم الرياضيات فقط كما يقول ابن رشد تتطابق الأشياء المعروفة لدينا وتلك المعروفة اطلاقا.

ـ ترى اذن انك تقرّ بالمعرفة الشاملة.

ـ ان علوم الرياضيات هي قضايا صنعها عقلنا بحيث تعمل دائما على انها حقيقيّة. إمّا لأنها فطرية أو لأن الرياضيات قد اخترعت قبل العلوم الأخرى. وقد بنى المكتبة عقل انساني كان يفكر بطريقة رياضية لأنه دون رياضيات لا تصنع متاهات. ينبغي اذن مقارنة قضايانا الرياضية بقضايا الباني، ومن هذه المقارنة يمكن استخراج علم، لأنه علم حدود حول حدود. وعلى كل حال كف عن جرّي في مناقشات ميتافيزيقية. أي شيطان تملكك هذا اليوم؟ الاجدر هو ان تأخذ رقّا، بما ان نظرك جيّدا ولوحة، أو شيئاً يمكنك ان ترسم فوقه علامات، ومرقما. . . حسن، لديك كل شيء أحسنت يا أدسو. هلم نطف حول الصرح مادام هناك قليل من النور. طفنا اذن حول الصرح لمدة طويلة. أي أننا حققنا من بعيد في البرج الشرقي، والجنوبي والغربي، والاسوار التي تربط بينها. لان ما تبقى كان يشرف على الهاوية، ولكن لأسباب تناسقية كان لا يمكن ان يكون مختلفا عمّا كنا نراه.

ولاحظ غوليالمو ان ما رأيناه ـ وكان يأمرني بكتابة ملاحظات دقيقة على لوحتي ـ وهو انه في كل جدار كانت هناك نافذتان وفي كل برج خمس نوافذ.

ثم قال لي استاذي «والآن فكر، كل قاعة من تلك التي رأيناها كانت لها نافذة. . .

فقلت «الا القاعات ذات الجوانب السبعة».

ـ طبيعي، هي تلك الموجودة وسط كل برج.

ـ وما عدا بعض القاعات التي كانت دون نوافذ ولم تكن مسبعة الزوايا.

ـ انسها. لنجد أولا القاعدة، ثم نحاول تفسير الشذوذ. اذن سيكون لدينا في

الخارج خمس قاعات بالنسبة لكل برج وقاعتان لكل جدار، ولكل واحدة منها نافذة. ولكن اذا ما مررنا من قاعة لها نافذة متقدمين نحو داخل الصرح، تعترضنا قاعة اخرى لها نافذة. وهذا يعني انها النوافذ الداخلية. الآن، ماهو شكل البئر الداخلية، كما تبدو لنا من المطبخ ومن قاعة الكتابة؟

فقلت : مثمنة الزوايا.

ـ حسن، وعلى كل جانب من المثمن، في قاعة الكتابة، نافذتان. هذا يعني ان كل جانب من المثمن تقابله قاعتان داخليتان؟ اليس كذلك؟

ـ نعم، ولكن القاعات الخالية من النوافذ؟

ـ ثمانية، في جملتها. فعلا، ان القاعة الداخلية لكل برج هي ذات سبعة أضلاع، ولها خمسة جدران تحدّ بالقاعات الخمس لكل برج. بماذا يحدّ اذن الجداران الآخران؟ ليس بقاعة موجودة طول الجدران الخارجية والا كانت بها نوافذ، ولا بقاعة موجودة طول المثمن، لنفس الاسباب، ولانها ستكون في تلك الحالة طويلة جدا. حاول ان ترسم كيف يمكن ان تظهر المكتبة لو رأيناها من فوق. تر ان كل برج توافقه قاعتان تحدان بالقاعة المسبعة الاضلاع وتفتحان على قاعتين تحدان بالبئر المثمنة الاضلاع الداخلية.

وحاولت رسم ذلك حسب ما أوحاه الي استاذي وانطلقت مني صيحة ظفر «اذن، نحن نعرف كل شيء! اتركني أعدّ. . . تحتوي المكتبة على ستّ وخمسين قاعة، منها أربع قاعات مسبعة الاضلاع واثنتان وخمسون شبه مربعة، ومن بينها، أربع دون نوافذ بينما ثمانية وعشرون تفتح على الخارج وست عشرة على الداخل!

ـ ويحتوي كل من البروج الأربعة على خمس قاعات لها اربعة جوانب وواحدة لها سبعة جوانب. . . لقد شيدت المكتبة حسب انسجام سماوي يمكن ان تنسب اليه معان مختلفة مدهشة. . .

فقلت : انه لاكتشاف رائع، ولكن لماذا اذن يصعب لهذا الحد ان يجد فيها المرء اتجاهه؟

ـ لأن ما لا يستجيب لاية قاعدة رياضية هو ترتيب الممرّات. بعض القاعات تسمح بالمرور الى قاعات اخرى عديدة وبعضها الى واحدة فقط، ويمكن التساؤل ان لم تكن هناك قاعات لا تؤدي الى اية قاعة اخرى. اذا ما أخذت بعين الاعتبار هذا العنصر، وأضفت اليه انعدام النور وغياب كلّ اشارة يمكن ان يوفرها موقع

الشمس (زد على كلّ ذلك الرؤى والمرايا) فهمت لماذا تقدر المتاهة ان تدخل الارتباك على كل من يعبرها بالإضافة الى ذلك الاحساس بالذنب. ومن ناحية أخرى أتذكر كيف تملكنا اليأس ليلة الامس، لما عجزنا عن العثور على طريقنا. أقصى البلبلة من خلال أقصى نظام: يبدو لي حسابا رائعا. ان بناة المكتبة كانوا فنيين عظاما.

ـ كيف سنفعل اذن لنجد اتجاهنا فيها؟

ـ عند هذا الحدّ ليس ذلك بالشيء الصعب. مع الخارطة التي رسمتها والتي توافق تقريبا رسم المكتبة، ما ان ندخل القاعة الأولى المسبعة الاضلاع حتى نتحرك في اتجاه إحدى القاعتين الخاليتين من النوافذ ثم ندور على يميننا، بعد ثلاث أو أربع قاعات، سنجد نفسينا من جديد في برج، ولا يمكن ان يكون إلاّ البرج الشمالي الى ان نعود من جديد الى قاعة أخرى دون نوافذ، تحدّ على شمالها بالقاعة المسبعة الاضلاع، وعلى يمينها تسمح لنا بقطع مسافة مماثلة لتلك التي وصفتها لك الآن، الى ان نصل الى البرج الغربي.

ـ نعم، هذا اذا ما كانت كل القاعات تفتح على قاعات أخرى...

ـ فعلا، ولذا تلزمنا خارطتك، التي سنرسم فوقها الجدران المليئة، بحيث نعرف ما هي المنعرجات التي قمنا بها. ولكن لن يكون ذلك صعبا.

فقلت محتارا: «أمن المؤكد ان تنجح هذه الطريقة؟» ـ لأن كل ذلك كان يبدو لي على غاية من البساطة.

فأجاب غوليالمو «ستنجح، ثم تلا: «ان كل علة لمعلول طبيعي تتجلّى من خلال خطوط وزوايا وصور والاّ أصبح من المستحيل اكتشاف السبب الذي من أجله وجدت فيه». انها كلمات أحد كبار أساتذة أوكسفورد. ولكن للاسف لا نعرف كل شيء. لقد تعلمنا كيف نتفادى ان نتيه. الآن ينبغي ان نعرف ان كانت هناك قاعدة في توزيع الكتب على القاعات. وأبيات سفر الرؤيا لا تنيرنا الا قليلا، وذلك راجع أيضا الى ان الكثير منها يتكرّر في قاعات مختلفة...

ـ ومع ذلك كان كتاب الحواري يسمح بايجاد اكثر من الستة والخمسين بيتا!

ـ دون شك. اذن ليست هناك الا بضعة ابيات صالحة. غريب كما لو كان لديهم أقل من خمسين أو ثلاثين أو عشرين... آه اقسم بلحية مرلينو!

ـ بلحية من؟

ـ لا شيء، انه ساحر من بلادي. . . لقد استعملوا من الابيات بقدر عدد الحروف الابجدية! أكيد ان الأمر هكذا! ان نص الابيات لا يهم، تهمّ الحروف الأولى. كل قاعة تحمل حرفا من الحروف الابجدية وجميعها تكون نصا ينبغي علينا ان نكتشفه!

ـ كقصيد مجازي، في شكل صليب أو سمكة!

ـ تقريبا، ومن الممكن انه في العصر الذي أسست فيه المكتبة كان ذلك النوع من الشعر منتشرا جدا!

ـ ولكن من أين ينطلق النص؟

ـ من رشم أكبر من الرشوم الاخرى، من القاعة المسبعة في البرج الذي يوجد به المدخل. . أو. . أكيد، من الجمل باللون الأحمر!

ـ ولكنها كثيرة!

ـ اذن ستكون هناك عدة نصوص أو عدة كلمات. انقل الآن خارطتك بشكل أحسن وأكبر، وعند زيارتنا للمكتبة سترسم بمرقمك، دون عمق، لا فقط القاعات التي نمر بها، وموضع الأبواب والجدران (مع النوافذ)، ولكن أيضا الحرف الأول للبيت الذي تحمله، وبطريقة من الطرق، وكمنمنم بارع، تكتب الأحرف الحمراء أكبر.

فقلت باعجاب : ولكن كيف حدث أنك قدرت على حل سرّ المكتبة ناظرا اليها من الخارج ولم تنجح في ذلك عندما كنت بداخلها.

ـ كذلك هي معرفة الرب للعالم، لأنه تصوّره في عقله، قبل خلقه، فكأنه من الخارج، بينما نحن نجهل قاعدته لأننا نعيش بداخله ولاننا وجدناه مهيأ.

ـ وهكذا تمكن معرفة الاشياء بالنظر اليها من الخارج!

ـ أشياء الفن، لأننا نعيد في فكرنا عمليّات فنانها. لا أشياء الطبيعة لأنها ليست من صنع عقلنا.

ـ ولكن بالنسبة الى المكتبة يكفينا ذلك، اليس صحيحا؟ فقال غوليالمو : نعم، ولكن بالنسبة الى المكتبة فقط. لنذهب الآن للنوم. ليس بامكاني ان أفعل شيئا قبل صبيحة الغد عندما سأحصل، ان تحقّق أملي، على عدستيّ. من الأحسن ان ننام وان نستيقظ في الابان. سأحاول التفكير.

ـ والعشاء؟

ـ آه، صحيح العشاء. لقد فات الاوان الآن وذهب الرهبان لصلاة النوم ولكن قد يكون المطبخ ما زال مفتوحا. اذهب وابحث عن بعض الأكل.

ـ أسرق؟

ـ اطلب من سلفاتوري، الذي أصبح الآن صديقك.

ـ ولكن سيسرق هو!

فأجاب غوليالمو بكلمات قابيل «أتكون أنت حارس أخيك؟» ـ ولكنني تفطنت الى انه كان يمزح وكان يريد ان يقول ان الله عظيم رحيم. ولذلك أخذت في البحث عن سلفاتوري ووجدته قرب اصطبلات الخيول.

بدأت أطارحه الحديث وأشرت الى برونيلّو قائلا: انه جواد جميل، كم بودّي ان امتطيه.

ـ لا يمكن، انه لأبّوني. ولكن لا يلزم جواد جميل للجري بسرعة، حتى يكفي. .» وأشار الى حصان قوي ولكن عديم الجمال «vide illuk, tertius...equi» وكان يريد ان يريني الحصان الثالث. ضحكت من لاتينيته الغريبة وسألته «وماذا تفعل بذلك الحصان؟»

فقصّ عليّ قصة غريبة. قال انه يمكن جعل أي حصان، حتى الحيوان الأكبر سنا والاضعف قوة جوادا سريعا مثل برونيلّو. يكفي خلط شوفانة بحشيش يسمى ساتيريون، بعد تفتيته جيدا، ثم دهن أوراكه بشحم أيل. وبعد ذلك يمتطى الجواد وقبل نخسه يوجه رأسه نحو الشرق وتهمس في أذنيه ثلاث مرات، وبصوت خافت، كلمات: «غسباري، مالكيور، مركيزاردو» وسينطلق الجواد بسرعة ويقطع في ساعة ما يقطعه برونيلو في ثمان ساعات. واذا ما علقت في رقبته أسنان ذئب، قد يكون الجواد قتله أثناء ركضه، فلن يحس الحيوان بأي تعب.

فسألته اذا ما كان قد جرب ذلك أبدا. فقال لي، مقتربا مني بحذر وهامسا في أذني، برائحة فمه الكريهة جدا، ان ذلك صعب جدا لأن حشيش الساتريون قد أصبح لا ينتجه الآن إلاّ الاساقفة والفرسان أصدقاؤهم، ويستعملونه لتقوية سلطانهم. فوضعت حدّا لحديثه وقلت له ان أستاذي يريد ذلك المساء ان يقرأ بعض الكتب في حجرته ويودّ أكل بعض الشيء، هناك.

فقال: اترك لي الامر سأعد فطيرة من الجبن.

ـ وكيف هي؟

ـ بسيطة! خذ جبنا ليس بالقديم ولا بالمالح وقطِّعه شرائح أو قطعا مربّعة أو كما يحلو لك. . . ثم ضع قليلا من الزبدة أو من الشحم الطازج يسخن فوق النار. وضع بداخله قطعتين من الجبن وعندما يبدو لك طريا، رش فوقه سكرا وقرفة واحمله في الحال الى المائدة، لأنه ينبغي أكله ساخنا.

فقلت : لتكن عجينة جبن ـ واختفى داخل المطبخ بعد ان طلب مني ان انتظره. وعاد بعد نصف ساعة يحمل صحنا مغطى بكتان. كانت الرائحة طيبة.

ثم قال «خذ» ـ ومد لي أيضا قنديلا كبيرا مليئا بالزيت. فسألته «ماذا سأفعل به»؟

فأجاب مراوغا : وما يدريني؟ قد يريد استاذك هذه الليلة ان يذهب الى مكان مظلم.

من الواضح ان سلفاتوري كان على علم بأشياء هي أكثر ممّا كنت أظن. لم أزد في سؤاله وحملت الأكل الى غوليالمو. أكلنا، وانسحبت أنا الى حجرتي. أو على الاقل، تظاهرت. كنت أريد اللقاء ثانية بأوبارتينو ودخلت خفية الى الكنيسة.

بعد صَلاة النّوم

وفيه يقص أوبارتينو على أدسو قصة الأخ دولتشينو، وأدسو من جهته يتذكر أو يقرأ في المكتبة قصصا أخرى، ثم يحدث له ان يلاقي صبيّة جميلة ومرهبة كجيش بالوية.

وجدت أوبارتينو عند صنم العذراء. واقتربت منه بصمت متظاهرا لبضع لحظات (أعترف بذلك) بالصلاة. ثم تجرأت على مخاطبته. وقلت له «ايها الاب القديس، ايمكنني ان أسألك ان تنيرني؟»

فنظر الي أوبارتينو وأخذني من يدي ثم وقف ورافقني لأجلس معه على مقعد. وضمني اليه بقوة حتى أحسست بانفاسه فوق وجهي. ثم قال «يابني العزيز، ان كل ما يستطيعه هذا المذنب المسكين من أجل روحك، فسيفعله بابتهاج. ما الذي يقلقك؟ العذاب، أليس كذلك؟ ـ وقال ذلك كأنما كان هو نفسه معذبا ـ «عذاب الجنس؟»

فاحمر وجهي خجلا وأجبت : كلاّ، أو بالاحرى عذاب الفكر، الذي يريد ان يعرف أكثر مما ينبغي...

ـ وهذا خطأ. الله هو الذي يعرف الاشياء، علينا نحن ان نقدّس علمه فقط.

ـ ولكن علينا نحن ايضا ان نميز بين الخير والشر وان نفهم طبيعة الأهواء البشرية. انني مبتدئ ولكنني سأصير راهبا ثم كاهنا، ويجب ان أعرف أين يوجد الشرّ وأي صورة يتّخذ، لأتعرف عليه ولأعلّم الآخرين كيف يتعرفون عليه.

ـ انه قول صائب، يا بنيّ. اذن ماذا تريد ان تعرف؟

فقلت باقتناع : نبتة الهرطقة الفاسدة، أيها الاب ـ ثم أضفت بنفس واحد ـ لقد سمعت حديثا عن رجل شرير أغوى الكثيرين، الأخ دولتشينو.

بقي أوبارتينو صامتا ثم قال «انك على حق، لقد سمعتنا نلمح إليه تلك الليلة

أنا والأخ غوليالمو. ولكنها قصة شنيعة حقا. والحديث عنها يؤلمني، لأنها تعلّم (نعم، في هذا المعنى ينبغي ان تعرفها كي تتلقن منها درسا نافعا)، كنت أقول، لأنها تعلّم كيف، من حبّ التوبة ومن الرغبة في تطهير العالم، يمكن ان ينشأ الدمار والدم - ثم استوى في جلسته وخفّف من تطويقه لكتفي، واضعا دائما يده على رقبتي، كمالو كان يريد ان ينقل اليّ لا أدري أعلمه أم حماسه. وقال :

تبدأ القصة قبل دولتشينو، منذ ستين سنة، وكنت آنذاك طفلا صغيرا. كان في ذلك الوقت بمدينة «بارما» رجل يدعى جراردو سيغاليلي أخذ يعظ الناس ويدعو الجميع الى حياة التوبة. وكان يطوف في الشوارع صائحا «Penitenziagite» كانت تلك طريقته كرجل أمّي ليقول : «Penitenziam agite, appropinquabit enim regnum coelorum»(*) وكان يدعو أتباعه للتشبه بالحواريين، وأراد ان تأخذ طائفته اسم نظام الحواريين، وان يجوب أتباعه الدنيا فقراء متسولين يعيشون من الصدقات فقط. . .

فقلت : كالاخوان المتسولين، اليست تلك وصيّة مولانا ووصيّة قديسكم فرنشسكو؟

فأقرّ أوبارتينو بتردّد خفيف في النبرة ويتحسّر : نعم، ولكن ربما أفرط غيراردو. لقد نسبت اليه والى اتباعه التهمة بأنهم لا يعترفون بسلطة الكهنة، وباقامة القداس، وبالاعتراف، وبالتسكع دون شغل.

- ولكن الفرنشسكانيين الروحانيين أيضا قد اتهموا بذلك. الا يقول الفرنشسكانيون الآن إنه لا ينبغي الاعتراف بسلطة البابا؟

- نعم، ولكن ليس سلطة الكهنة. نحن أنفسنا كهنة. من الصعب يا بني التمييز بين هذه الأشياء. ان الخيط الذي يفرق بين الخير والشر دقيق جدا. . . لقد أخطأ غيراردو بطريقة ما وشوّه نفسه بالهرطقة. . . طلب ان يدخل في نظام الفرنشسكانيين ولكن إخواننا لم يوافقوا. كان يقضي الايام في كنيسة فرنشسكانية ورأى هناك صورا للحواريين لابسين نعالا في أقدامهم ورداء ملتفا بأكتافهم، وهكذا فعل هو فأطال شعره ولحيته ووضع نعلين في قدميه ولبس زنّار الفرنشسكانيين، لأنه ينبغي لكل من يؤسس طائفة جديدة أن يأخذ دائما شيئا من

(*) توبوا واعملوا، وستنالوا دون شك مملكة السّماء.

نظام القديس فرنشسكو.

ـ لقد كان اذن في الطريق القويم...

ـ ولكنه في شيء ما أخطأ... بالتفافه بمئزر أبيض فوق رداء أبيض وبشعره الطويل، اكتسب لدى البسطاء صفة القداسة. فباع دارا صغيرة كانت على ملكه وبعد ان قبض ثمنها، جلس فوق صخرة كان الحكّام في العهود الغابرة يخطبون فوقها، ماسكا بكيس النقود، ولم يفرقه أو يعطيه الى الفقراء ولكنه نادى بعض الصعاليك الذين كانوا يلعبون قريبا من هناك وفرق عليهم النقود قائلا «ليأخذ منه من شاء منكم» فأخذ أولائك الصعاليك النقود وذهبوا للعب الميسر وهم يلعنون الرب الحي وهو الذي أعطاهم النقود كان يسمع ذلك ولا يحمرّ وجهه من الخجل.

ـ ولكن فرنشسكو أيضا تعرى من كل شيء وسمعت اليوم من غوليالمو انه ذهب ليبشر العقاعق والصقور، اضافة الى المجذومين، اي الى الحثالة التي يتركها الشعب المعتبر تقيّا على الحاشية.

ـ نعم، ولكن غيراردو أخطأ في شيء. لم يدخل فرنشسكو قط في صراع مع الكنيسة، ويقول الانجيل انه ينبغي اعطاء الصدقة الى الفقراء لا الى الصعاليك. غيراردو أعطى ولم يحصل على شيء عوضا عن ذلك لأنه أعطى الى أناس أشرار فكانت بداية نحس، ومتابعة نحس ونهاية نحس لأن جماعته لم تحظ بتأييد البابا غريغوريو العاشر...

فقلت: ربما كان ذلك البابا أقصر نظرا من البابا الذي أيد قاعدة فرنشسكو...

ـ نعم، ولكن غيراردو أخطأ في شيء. لقد كان فرنشسكو يعرف جيدا ماذا يفعل. وأخيرا، أيها الصبي، هؤلاء الرعاة للخنازير والبقر الذين أصبحوا بين عشية وضحاها رسلا كذّابين كانوا يريدون بكل راحة وبدون عرق ان يعيشوا بصدقات أولائك الذين تعب الاخوان الفرنشسكانيون تعبا شديدا في وعظهم ومثلوا لهم الفقر تمثيلا بطوليا! ـ وأضاف فورا ـ ولكن ليس هذا ما أقصد. للتشبه بالحواريين الذين كانوا من اليهود اختتن غيراردو، وهذا مخالف لتعاليم بولس الى الكلتيين، وأنت تعرف ان قدّيسين كثيرين أعلنوا ان الدّجال الآتي سيكون من شعب المختونين. ولكن غيراردو فعل أشنع من ذلك، كان يجمع البسطاء ويقول

لهم «هبّوا معي الى مزرعة الكروم» وأولائك الذين كانوا لا يعرفونه يدخلون معه الى كروم الغير، ظانين انها له فيأكلون من عنب الناس.

فقلت بوقاحة : لن يكون الاخوان الفرنشسكانيين هم الذين سيدافعون عن ممتلكات الغير.

فحدّق فيّ أوبارتينو بعين صارمة : ان الفرنشسكانيين يطلبون ان يكونوا فقراء ولكنهم لم يطلبوا أبدا من الآخرين ان يكونوا فقراء. لا يمكنك ان تمس دون عقاب أملاك المسيحيّين الطيبين، والا فسيعتبرك المسيحيون الطيبون لصا. وهذا ماوقع لغيراردو. وقالوا عنه أخيرا (حذار، فأنا لا أدري ان كان صحيحا، وأثق باقوال الأخ سالمبيني الذين عرف أولائك الناس) انه لامتحان قوة ارادته وعفته رقد مع بعض النساء دون ان تكون له معهن علاقة جنسية ولكن عندما حاول أتباعه تقليده كانت النتائج مختلفة كل الاختلافات. . . اوه، انها أشياء لا ينبغي لطفل ان يعرفها، فالانثى مركب للشيطان. . . وبينما كان غيراردو يواصل نداءه «توبوا وأعملوا» حاول احد اتباعه، غويدو بوتاجيو، ان يستولي على قيادة الفريق، وكان يطوف في موكب فخم يتبعه فرسان كثيرون منفقا أموالا طائلة ومقيما المآدب كما يفعل كرادلة رومة. ثم تصارعا من أجل قيادة الطائفة، ووقعت أشياء فاحشة جدا. ومع ذلك فقد تبع غيراردو أناس كثيرون، ولم يكونوا فقط من الفلاحين بل كان هناك أهل المدن من أصحاب الحرف وكان غيراردو ينزع عنهم كل ما يملكونه حتى يتبعوا عراة المسيح العاري، مرسلا اياهم عبر الدنيا للتبشير أما هو فقد صنع لنفسه جلبابا دون أكمام، أبيض، من خيوط قوية وبلباسه ذلك كان يبدو مهرّجا أكثر منه رجل دين! كانوا يعيشون في الهواء الطلق، ولكن في بعض الأحيان كانوا يصعدون فوق منابر الكنيسة مقاطعين جمع العباد الاتقياء وطاردين منها الواعظين، ووضعوا مرة طفلا فوق الكرسي الاسقفي في كنيسة القدّيس أورسودا رافينّا. وكانوا يدّعون انهم ورثاء مذهب جواكينو دافيوري. . .

فقلت : ولكن حتى الفرنشسكانيون، وحتى غيراردو دا بورغوسان دونينو ـ وأضفت صائحا ـ وحتى أنت!

ـ اهدأ أيها الصبيّ. لقد كان جواكينو دا فيوري نبيّا عظيما، الاول الذي فهم ان فرنشسكو سيجدّد الكنيسة. ولكن الرّسل الكذابين استعملوا مذهبه لتبرير جنونهم. لقد كان سيغاليلي برفقة رسولة، تدعى تريبيا أو ريبيا، كانت تدّعي انها

تملك موهبة النبوّة. امرأة، اتفهم ذلك؟

فحاولت معارضته : ولكن ايها الأب، انت نفسك تحدثت تلك الليلة عن قداسة كيارا دا مونتيفالكو وانجيلا دا فولينيو. . .

ـ لقد كانتا قدّستين! تعيشان في خشوع معترفتين بسلطة الكنيسة، ولم تدّعيا أبدا ملكة النبوّة! أما الرسل الكذّابون فكانوا يؤكدون ان النساء ايضا بامكانهن الطواف بالمدن للتبشير، كما فعل العديد من الهراطقة الآخرين. ولم يكونوا يميزون بين عزّب ومتزوجين، أو يحترمون نذرا من النذور الابدية مهما كان نوعه. باختصار، وحتى لا أطيل عليك بحكايات مؤسفة لا يمكنك ان تفهم جيدا خفاياها، قرّر الأسقف أوبيتزو دي بارما أخيرا ان يعدم غيراردو حرقا. ولكن حدث هنا شيء غريب، يريك كيف ان الطبيعة الانسانية ضعيفة وكيف ان الهرطقة مغوية. لأن الأسقف في نهاية الأمر أطلق سراح غيراردو وقرّبه الى مائدته، متسلّيا بحماقاته محتفظا به عنده كمهرّجه الشخصي.

ـ ولكن لماذا؟ ـ لا أعرف، أو أخشى معرفة ذلك. كان الاسقف نبيلا وكان يكره تجار المدينة وأصحاب الحرف. ربما كان يعجبه ان يتكلم غيراردو ضدّهم، من خلال تبشيره بحياة الفقر، وان يمرّ من التسوّل الى النهب. ولكن في آخر الامر تدخل البابا وعاد الاسقف الى صرامته العادلة، وأهلك غيراردو حرقا اذ كان هرطقيا سادرا. لقد كان ذلك في بداية هذا القرن.

ـ وما دخل الأخ دولتشينو في كلّ هذا؟

ـ له دخل، وهذا يظهر لك كيف ان الهرطقة تعيش حتى بعد هلاك الهراطقة انفسهم. دولتشينو هذا كان ابن زنا لقسيس كان يعيش في أبرشية نوفارا، في هذه الجهة من ايطاليا، أبعد الى الشمال بقليل. وقد قال بعضهم انه ولد في جهات أخرى، في سهل أوسّولا أو في رومانيانو. ولكن لا يهم. كان شابا حاد الذكاء، ودرس الآداب، ولكنه سرق القسيس الذي كان ساهرا عليه وفرّ نحو الشرق، الى مدينة ترانتو. وهنالك واصل تبشير غيراردو، وبهرطقة أكثر، مؤكدا انه رسول الرب الوحيد والحقيقي وانه ينبغي ان يكون كل شيء مشتركا في الحب، وانه حلال ان يضاجع المرء كل النساء على حد السواء بحيث لا يمكن اتهام اي كان بالتسري، حتى ولو ضاجع زوجته وابنته. . .

ـ أكان يقول حقيقة تلك الاشياء أم انهم اتهموه بها؟ لأنني سمعت ان

الروحانيين ايضا اتهموا بجرائم، مثل رهبان مونتيفالكو. . .

فقاطعني أوبارتينو بحدّة: قد سئمت الحديث عن هذا! أولئك لم يعودوا رهبانا. كانوا هراطقة. وقد لوّثهم فعلا دولتشينو. من ناحية أخرى اسمع، يكفي ان تعرف ماذا فعل دولتشينو بعد ذلك، ليتضح لك انه كان شريرا. قد يكون مرّ من بارما، وهو شاب وسمع غيراردو. مانعرفه هو انه حافظ على اتصالات في جهة بولونيا مع أولائك الهراطقة بعد موت سيغاليلي. ولكن المؤكد انه بدأ تبشيره في ترانتو. وهناك أغوى طفلة جميلة جدا من عائلة نبيلة، مارغريتا، أو هي أغوته، كما أغوت ايلوزا أبيلاردو، اذ لاتنس ان الشيطان ينفذ الى قلوب الرجال عن طريق المرأة! عند ذلك الحدّ طرده أسقف ترانتو من أبرشيته ولكن آنذاك كان دولتشينو قد جمع حوله ما يزيد على الالف من الاتباع وبدأ مسيرة طويلة قادته الى البلاد التي نشأ فيها. وأثناء الطريق التحق به العديد من السذج الآخرين، قد فتنتهم كلماته، وربما يكون التحق به العديد من الهراطقة الفوديين الذين كانوا يسكنون الجبال التي مرّ بها أو أنه هو كان يريد الالتحاق بالهراطقة الفوديين في تلك الجهات الشمالية. وعندما وصل الى جهة نوفارا وجد دولتشينو جوّا ملائما لثورته، لان المقطعين الذين كانوا يحكمون بلدة غاتينارا باسم اسقف فارتشيلي قد طردهم الاهالي الذين تقبلوا صعاليك دولتشينو كحلفاء صالحين.

ـ ماذا فعل مقطعوا الاسقف؟

ـ لا أدري، وليس لي أنا أن أحكم على ذلك. ولكن كما ترى تقترن الهرطقة بالثورة على الاسياد، في كثير من الاحيان، ولذا يبدأ الهرطيق في الدعوة الى الفقر ثم يسقط فريسة لكل مغريات السلطة، والحرب، والعنف. كان هناك صراع بين عائلات في فرتشيلّي، وانتهز الرسل الكذابون ذلك، واستخدمت تلك العائلات لصالحها الفوضى التي أحدثها الرسل الكذابون. وجنّد الاسياد الاقطاعيون مغامرين لنهب الاهالي فطلب الأهالي حماية أسقف نوفارا.

ـ يالها من قصّة معقدة. ولكن دولتشينو كان مع من؟

ـ لا أدري، كان يعمل لحسابه. لقد اندس في كل تلك النزاعات منتهزا منها الفرص للمناداة بالصراع ضدّ ملكية الغير باسم الفقر، وحطّ دولتشينو رحاله مع من معه، وقد بلغ عددهم ثلاثة آلاف، فوق جبل قرب نوفارا يحمل اسم «الجبل الأقرع» وأقاموا قصورا صغيرة وخربا، وكان دولتشينو يشرف على كل تلك

الجموع من الرجال والنساء الذين كانوا يعيشون في اختلاط مخز للغاية. ومن هناك كان يبعث الرسائل الى أوفيائه يعرض عليهم فيها مذهبه الهرطيقي. فكان يقول ويكتب إن مثلهم الأعلى هو الفقر وانهم ليسوا مقيدين باية طاعة خارجية، وانه هو، دولتشينو، قد أرسله الرب لفك ختم النبؤات ولفهم كتابات العهدين القديم والجديد. وكان يسمّي الاكليريكيين المدنيين، والمبشرين والفرنشسكانيين، رسل الشيطان ويعتبر أن الناس في حلّ من واجب الطاعة لهم. وكان يميز اربعة عهود في شعب الربّ. الاول هو العهد القديم، عهد الآباء والانبياء، وقبل مجيء المسيح، حين كان الزواج صالحا لأنه كان ينبغي ان يتزايد عدد البشر. الثاني هو عهد المسيح والحواريين وكان عهد القداسة والعفّة. ثم جاء العهد الثالث، حين كان على أحبار الكنيسة ان يقبلوا الثروات الارضية حتى يمكنهم حكم الشعب، ولكن عندما أخذ الانسان يبتعد عن حب الله جاء بنديكت، الذي عارض في تعاليمه كل شكل من أشكال الملكية الزمنية. وعندما أخذ رهبان بنديكت من جديد في جمع الأموال جاء اخوان القديسين فرنشسكو ودومينيكو الذين كانا اكثر صرامة من بنديكت في مناهضة السلطان والمال الدنيويين والآن أخيرا تتناقض من جديد حياة الكثير من الاحبار مع كل التعاليم الصالحة، فقد وصلنا الى نهاية العهد الرابع وينبغي الرجوع الى تعاليم الحواري».

ـ اذن كان دولتشينو ينادي بتلك الاشياء التي كان ينادي بها الفرنشسكانيون، ومن بين الفرنشسكانيين الروحانيون بالذات، وانت نفسك ايها الاب!

آه، صحيح، ولكنه كان يستنتج من ذلك قياسا خادعا! كان يقول انه لوضع حدّ لهذا العهد الثالث، عهد الفساد، ينبغي ان يموت كل الاكليريكيين، والرهبان والكهنة موتة قاسية جدا، كان يقول ان كل أحبار الكنيسة، الاكليركيين والمترهبين، ورجال الدين والراهبات، وكل من يدخل ضمن أنظمة المبشرين والفرنشسكانيين، والنساك، والبابا بونيفاسيو نفسه ينبغي ان يهلكهم الامبراطور الذي سيختاره هو، دولتشينو، اي فريدريك الصقلّي.

ـ ولكن ألم يكن فريديريك بالذات هو الذي تقبل بارتياح في صقلية الروحانيين المطرودين من جهة أومبريا، أو لم يكن الفرنشسكانيون هم الذين طلبوا من الامبراطور بالذات، ولو أنه الآن لودوفيكو، ان يهدم سلطة البابا والكرادلة الزمنية؟

ـ انه من قبيل الهرطقة أو الجنون ان تغيّر الأفكار المستقيمة وان تستعمل لأهداف تتناقض مع شريعة الله والانسان. ان الفرنشسكانيين لم يطالبوا أبدا الامبراطور بابادة الكهنة الآخرين.

كان على خطأ، الآن أعرف ذلك. لأنه بعد بضعة أشهر، عندما ركّز البافاري حكمه في رومة، فعل مرسيليو وفرنشسكانيون آخرون برجال الدين الذين كانوا مخلصين للبابا ما كان يطالب به دولتشينو. ولست أعني بهذا ان دولتشينو كان على صواب، بل ان مرسيليو كان على خطأ هو الآخر. وبدأت أتساءل، خاصة بعد نقاش العشية مع غوليالمو، كيف يمكن للسذّج الذين كانوا يتبعون دولتشينو ان يميزوا بين وعود الروحانيين وتنفيذ تلك الوعود من قبل دولتشينو. الا يمكن ان يكون خطؤه هو تنفيذه عمليا ما كان ينادي به رجال عرفوا باستقامة الرأي لأغراض روحية بحتة. أو ربما ذلك كان الفارق، وهو أن القداسة تتمثل في انتظار ان يمنحنا الاله ما وعدنا به قدّيسوه، دون محاولة الفوز به بطرق دنيوية؟ الآن أعرف أنه كذلك وأعرف لماذا كان دولتشينو مخطئا. لا ينبغي تغيير نظام الأشياء ولو أملنا بكل حماس تغييره. ولكنني كنت ذلك المساء فريسة أفكار متناقضة.

ـ أخيرا، ـ كان يقول لي أوبارتينو ـ ان علامة الهرطقة تكمن دائما في الغرور. في رسالة ثانية، سنة 1303، سمّى دولتشينو نفسه القائد الاعلى للجمعية الرسولية، وسمى، نوابا له، مارغاريتا المخاتلة (امرأة) ولونجينو دا برغامو، وفديريكو دا نوفارا، وألبارتو كارانتينو وفالديريك دا بريشيا. وأخذ يهذي حول سلسلة من البابوات القادمين، اثنان طيّبان، الاول والاخير، واثنان شريران، الثاني والثالث. الاول هو سيلاستينو، والثاني يونيفاسيوس الثامن، الذي قالت عنه الانبياء «لقد أخزاك كبرياء قلبك، يا أيها الذي يسكن في شقوق الصخور». البابا الثالث لم تقع تسميته ولكن قد يكون ذلك الذي قال عنه ارميا «هوذا، الأسد» وياللخزي، تعرّف عليه دولتشينو في شخص فريديريك الصقلّي البابا الرابع بالنسبة الى دولتشينو غير معروف الى الآن، وهو الذي سيكون البابا القديس، البابا الملائكي الذي كان يتحدّث عنه الشمّاس جواكينو. وسيختاره الرب وعندئذ سيغمر نور الروح القُدُس دولتشينو واتباعه جميعا (الذين بلغ عددهم اذاك الاربعة آلاف) وستجدّد الكنيسة الى نهاية العالم. ولكن في السنوات الثلاث التي ستسبق

الحرب في كل مكان. والبابا الرابع، وهنا يظهر كيف يسخر الشيطان من الخاضعين له، كان كليمانسيوس الخامس الذي أعلن حربا صليبية ضدّ دولتشينو. وكان على صواب لأن دولتشينو في تلك الرسائل اصبح يؤيد نظريات متناقضة مع الأرثودكسيين. فقد أكد أن الكنيسة الرومانية فاجرة، ولا تجب طاعة الكهنة، وان كل سلطة روحانية قد مرّت الى جمعية الرسوليين، وان الرسوليين فقط يكوّنون الكنيسة الجديدة ويمكنهم فسخ الزواج، وانه لا يمكن لأحد ان يحصل على النجاة ان لم ينضمّ الى الجمعية، وانه لا يمكن لأيّ بابا ان يحل من الخطايا، ولا ينبغي دفع العشور وان الحياة دون نذر هي أكمل من التي تقوم على النذور، وان كنيسة مقدّسة لا تصلح للصلاة، مثلها مثل اصطبل، وانه يمكن عبادة المسيح في الغابات وفي الكنائس على حد السواء.

ـ أقال حقا هذه الأشياء؟

ـ أكيد، هذا مؤكد، لقد كتبها. ولكنه للاسف فعل أسوأ من ذلك. عندما استقر فوق «الجبل الاقرع» أخذ ينهب القرى الموجودة في السهل ويقوم بغارات للحصول على المؤونة، باختصار، كان يقود حربا حقيقية وفعلية ضدّ القرى المجاورة.

ـ كان الجميع ضدّه؟

ـ لا أحد يدري. ربّما تحصل على مساعدة البعض، لقد قلت لك انه اندسّ في عقدة متشابكة من النزاعات في تلك المنطقة. وفي الأثناء جاء شتاء سنة 1305 وكان من أقسى شتاءات السنين العشرة الاخيرة وحلت بتلك الاماكن مجاعة كبيرة. وكان دولتشينو قد أرسل رسالة ثالثة الى اتباعه والتحق به العديد منهم. ولكن الحياة فوق ذلك الجبل أصبحت مستحيلة ووصل بهم الجوع الى حدّ أكل لحوم الخيل وحيوانات أخرى والتبن المطبوخ والعديد لقي حتفه من جرّاء ذلك. ـ ولكنهم أصبحوا يكافحون ضدّ من الآن؟

ـ طلب أسقف فارتشيلي تدخل كليمانسيوس الخامس وأعلنت حرب صليبية ضد الهراطقة. ووقع الاعلان عن غفران عامّ لكل من يشارك فيها، والتمست مساعدة لودفيكو دي سافويا وحكّام التفتيش اللومبارديين ومطران ميلانو وحمل الكثيرون الصليب لإغاثة أهالي منطقتي فارتشيلي ونوفارا، حتى من سافويا وبروفانسا ومن فرنسا وتقلّد أسقف فارتشيلي القيادة العليا. فكانت اصطدامات

متواصلة بين طلائع الجيشين، ولكن تحصينات دولتشينو كانت عصيّة، وبطريقة من الطرق كانت المساعدة تصل الى الزنادقة.

ـ ممّن؟

ـ من زنادقة آخرين، على ما أظن، كانوا يجدون صالحهم في ذلك المنبع من الفوضى. ولكن في أواخر 1305 اضطر الزنديق الى مغادرة «الجبل الاقرع» تاركا الجرحى والمرضى، وانتقل الى جهة ترفيرو، حيث تحصّن في جبل كان يسمّى سابقا «زوبيلّو» وأصبح يسمّى منذ ذلك الحين «روبيلّو» أو «ريبيلّو» لأنه أصبح قلعة المتمردين على الكنيسة. بايجاز، لا يمكنني ان أقصّ عليك كلّ ما حدث. لقد كانت مجازر رهيبة. ولكن في نهاية الامر اضطرّ المتمردون الى الاستسلام، وأسر دولتشينو ومن معه وكانت نهايتهم المحرقة.

ـ حتى مارغريتا الجميلة؟

فنظر اليّ أوبارتينو ثم قال : لقد تذكرت انها جميلة، أليس كذلك؟ يقولون انها كانت جميلة وان العديد من اسياد تلك الجهة حاولوا ان يتزوجوها لانقاذها من المحرقة. ولكنها ابت وماتت سادرة مع ذلك السّادر عشيقها. وليكن هذا درسا لك، لتحترس من فاجرات بابل، حتى ولو أتخذن شكل أودع خلق الله.

ـ ولكن قل لي الآن يا ابت. لقد علمت ان قيّم الدير وربما سلفاتوري أيضا كانا قد التقيا بدولتشينو، وبطريقة من الطرق كانا معه..

ـ اصمت، ولا تتفوه بأحكام جريئة. لقد عرفت القيّم في دير فرنشسكانيين، بعد الاحداث التي تخصّ قصّة دولتشينو، هذا صحيح. لقد عاش الكثير من الروحانيين في تلك السنوات، قبل ان يقرّروا الالتجاء الى نظام القديس بندكت، حياة مضطربة، واضطروا الى ترك أديرتهم. لا أدري أين كان ريميجيو قبل ان ألتقي به. أعرف انه كان دائما راهبا صالحا، على الاقل من جهة استقامة عقيدته. أما ماعدا ذلك، واسفاه، فارادة الانسان ضعيفة...

ـ ماذا تقصد؟ ـ انها أشياء لا يحسن ان تعرفها. حسن، ثم، بما أننا أخذنا في الحديث عن ذلك، يجب ان تعرف كيف تميّز بين الخير والشّر. ـ ثم تردّد من جديد ـ سأقول لك انني سمعت من يتهامس هنا في الدير بان القيّم لا يستطيع مقاومة بعض النزوات... ولكنه همس. عليك انت ان تتعلم حتى عدم التفكير في هذه الأشياء.

ثم جذبني اليه من جديد وضمّني بقوة مشيرا الى صنم العذراء : يجب عليك ان تتعلم الحب الصافي الذي لاتشوبه شائبة. هي ذي تلك التي تسامت فيها الانوثة. ولذا يمكنك ان تقول عنها انها جميلة، كمحبوبة نشيد الاناشيد ـ ثم قال بوجه فتنه الحبور الداخلي، كرئيس الدير بالضبط في اليوم السابق، عندما كان يتحدث عن ذهب وجواهر أوعيته ـ حتى جمال الجسم يصبح فيها دلالة على الجمال السماوي، ولذا مثّلها النحات بكل الحسن الذي يجب ان تتحلّى به المرأة ـ وأشار الى نصف العذراء الاعلى النحيف يشدّه الى أعلى مخصّر تربطه في الوسط خيوط كانت تلعب بها يدا الرضيع الصغيرتان ـ «جميل حقا ذلك النهد الذي يبرز قليلا، ممتلئ قليلا ولكنه لا يتموج بدعارة، بل مشدود بخفّة، متماسك قليلا دون سقوط». . . ماذا تحس أمام هذه الرؤية العذبة؟

فاحمرّ وجهي بقوة وأحسست وكأن نارا داخلية تلتهمني. وربما يكون أوبارتينو قد تفطن لذلك، أو أنه لاحظ احمرار وجنتيّ لانه أضاف على الفور : ولكن يجب ان تميز نار الحب السماوي من ميوعة الحواسّ. وهذا يصعب حتى على القدّيسين.

فقلت وأنا أرتعد : ولكن كيف نتعرف على الحب الصالح؟

ـ ماهو الحب؟ لا شيء في العالم، لا انسان ولا شيطان ولا أي شيء آخر أعتبره ادعى للإرتياب من الحبّ، اذ انه يلج الروح أكثر من أي شيء آخر. لا يوجد أي شيء يشغل ويقيد القلب كالحب. ولذا عندما تنعدم الاسلحة التي تقاومه، تهوي الروح من أجل الحب في مهلكة عظيمة. وأعتقد أنه دون فتنة مارغريتا ما كان لدولتشينو ان يرمي بنفسه الى التهلكة الابدية، ولا كانت كل تلك الجموع أحسّت بجاذبية ثورته، لولا حياة الصلف والاختلاط التي كانوا يعيشونها فوق «الجبل الاقرع». احترس، اني لا أقول لك هذه الأشياء بخصوص الحب الفاسد فقط، الذي ينبغي بطبيعة الحال ان يبتعد عنه الجميع كشيء شيطاني، أقول لك هذا بخوف كبير، حتى بخصوص الحب الصالح الذي بين الرب والانسان وبين الانسان والانسان. ويحدث غالبا ان يحبّ شخصان أو ثلاثة، رجالا أو نساء، بعضهم بعضا بأخوية كبيرة ويكنّ أحدهما للآخر عاطفة فريدة، ويودّ أحدهما لو عاش دائما قرب الآخر، وعندما يرغب أحدهما يريد الآخر. وأعترف لك بأنني أحسست بعاطفة مماثلة نحو نساء ورعات مثل أنجيلا وكيارا. ومع

ذلك، حتى هذا فهو جدير جدًا باللّوم، وان كنا نفعل ذلك روحيا وفي سبيل الرب. . . فحتى الحب الذي تحسه الروح، ان لم نتسلّح لمقاومته، بل تقبّلناه بوجد، فهو يسقط بعد ذلك أو أنه يعمل بطريقة فوضوية. آه، ان للحب خصائص متعدّدة، فالروح ترقّ في البداية من أجله، ثم تسقط عاجزة. . ولكنها بعد ذلك تحسّ بحرارة الحب الالهي الحقيقية وتصرخ وتتألم، وتجعل من نفسها حجارة في مصهر لتتحوّل صاروجا، وتتفرقع وسط ألسنة اللهب. . .

ـ وهذا هو الحب الصالح؟

مسح أوبارتينو بيده على رأسي، وعندما نظرت اليه رأيت عينيه قد رقّتا الى حدّ الدمع : نعم هذا هو أخيرا الحب الصالح ـ ونزع يده عن كتفي مضيفا ـ ولكن كم هو صعب، كم يصعب تمييزه عن الآخر. وأحيانا عندما تغري الشياطين روحك تحس بنفسك كالمشنوق من عنقه، وقد قيدت يداه خلف ظهره وضمّدت عيناه فيبقى معلقا في المشنقة ومع ذلك هو حيّ، دون غوث، دون سند، دون حيلة، يدور في الفراغ. .

ولم يعد وجهه مبلّلا بالدمع فقط بل بغشاء من العرق : اذهب، اذهب الآن ـ قالها لي بسرعة ـ لقد قلت لك ما كنت تريد ان تعرف. هنا موكب الملائكة وهناك مهاوي الجحيم. اذهب، وليكن الحمد للّه. ـ وركع من جديد أمام العذراء : وسمعته يجهش بهدوء. لقد كان يصلّي.

لم أخرج من الكنيسة. لقد أدخل الحوار مع أوبارتينو في روحي وفي عروقي نارا غريبة وارتباكا لا يوصف. ربما لذلك أقدمت على العصيان وقررت العودة وحدي الى المكتبة. لم أكن أعرف أنا نفسي عمّ كنت أبحث. كنت أريد أن أستكشف وحدي مكانا مجهولا وكانت تسحرني فكرة القدرة على التوجه فيها دون مساعدة استاذي. وصعدت اليها كما صعد دولتشينو الى جبل روبيلّو.

كان معي السراج (لماذا حملته معي؟ ربما كانت لدي منذ البداية تلك النية الخفية) وولجت المعظمة بعينين تكادان تكونان مغمضتين. وبعد برهة وجيزة وجدت نفسي في قاعة الكتابة.

كانت ليلة محتومة، على ما أظن، لانني بينما كنت أتطفل بين الطاولات لاحظت واحدة فوقها مخطوط مفتوح كان يقوم بنسخه أحد الرهبان في تلك الايام. وجذبني في الحال العنوان «سيرة الراهب الهرطيق دولتشينو». أظن أنها

كانت طاولة بيترو دا سانتالبانو، الذي قيل لي عنه انه بصدد تأليف عمل عظيم حول تاريخ الهرطقة (واثر الاحداث التي وقعت في الدير، بطبيعة الحال لم يكتبه ـ ولكن لا نستبق الاحداث). لم يكن من الغريب اذن ان يكون ذلك النص هناك، ومعه نصوص أخرى ذات مواضيع مماثلة، حول البتاريين والمتسوطين. ولكني اعتبرت تلك الصدفة دلالة خارقة للطبيعة، لا أدري ان كانت سماوية أو شيطانية، وانكببت علي قراءة النص بنهم. لم يكن طويلا جدا، وفي الباب الاول كان يقول بتفاصيل أكثر، نسيتها، ما كان قد قاله لي أوبارتينو. وكان يتحدث ايضا عن الجرائم العديدة التي ارتكبها أتباع دولتشينو أثناء الحرب والحصار، وعن المعركة النهائية التي كانت دامية جدا. ولكنني وجدت فيه ايضا ما لم يقصّه علي أوبارتينو، برواية راو كان دون شك شاهد عيان بقيت مخيلته تتقد بكل ما رأى.

علمت اذن كيف انه في مارس من سنة 1307 يوم السبت المقدس، وقع القبض أخيرا على دولتشينو ومارغريتا ولونجينو وحملوا الى مدينة بييلا حيث سلموا للاسقف الذي كان ينتظر قرار البابا. وعندما وصل الخبر الى البابا أرسل الى فيليب ملك فرنسا يقول له : «قد بلغتنا أخبار مرضية جدا، محمّلة بالفرح والجذل، لأن ذلك الشيطان الموبوء، ابن ابليس والهرطيق الفظيع دولتشينو، بعد أخطار كبيرة، واتعاب ومجازر وتدخلات متوالية، هو الآن أخيرا مع اتباعه أسيراً في سجوننا بفضل ما قام به أخونا الوقور رانييرو، أسقف فارتشيلّي، وقد قبض عليه يوم العشاء السري المقدس، والناس الكثيرون الذين أصيبوا بوبائه قد أعدموا في ذلك اليوم نفسه». لم يشفق البابا على الأسرى وأمر الأسقف باعدامهم. وفي شهر جويلية (يونيو) اذن من نفس ذلك العام، في اليوم الأول من الشهر سلّم الهراطقة الى السلطة المدنية. وبينما كانت الأجراس تدق دون انقطاع، وضعوا فوق عربة يحيط بها الجلادون يتبعهم الحرّاس، وطافت بهم كل المدينة، وعند كل عطفة كانت الكلابات الحامية تمزق لحم الآثمين. وأحرقت مارغريتا أولا أمام دولتشينو الذي لم تتحرّك في وجهه عضلة، كما لم تند عنه صرخة عندما كانت الكلاّبات تقطع أعضاءه وتابعت العربة طريقها، بينما كان الجلادون يغمسون أدواتهم الحديدية في أوعية مليئة بالجذوات الملتهبة. وكابد دولتشينو ألوانا أخرى من العذاب، صامتا دائما الا عندما قصّوا أنفه، لأنه هزّ كتفيه هزّة خفيفة وعندما قطعوا ذكره انطلق منه تأوه طويل كأنه عواء. وكانت الكلمات الاخيرة التي قالها

تنم على العصيان، وأعلن انه سيبعث في اليوم الثالث. ثم أحرق والقيت بقاياه الى الرياح.

وأغلقت المخطوط بيدي اللتين كانتا ترتعشان. لقد ارتكب دولتشينو آثاما متعدّدة، كما قيل لي، ولكنه أحرق بصفة شنيعة. وسلوكه فوق المحرقة. . . كيف كان؟ أكان ثبات الشهداء أم كبرياء الهالكين؟ وبينما كنت أصعد مترنحا السلّم الذي يحمل الى المكتبة، فهمت لماذا كنت مضطربا بذلك الشكل. فقد تذكرت فجأة مشهداً رأيته قبل بضعة أشهر، بعد وصولي الى توسكانا بقليل. وكنت اتساءل كيف كدت انساه الى ذلك الحين، وكأن نفسي المريضة ارادت فسخ ذكرى كانت تثقلها وكأنها كابوس. أو بالاحرى لم أكن قد نسيتها، لانني ما سمعت حديثا عن الاخوان المتسوّلين الا وعادت اليّ صور من تلك الواقعة، ولكنني كنت أعيدها في الحال الى طيات فكري، وكأن مشاهدتي لتلك الفظائع كانت في حد ذاتها خطيئة.

ان المرّة الاولى التي سمعت فيها عن الاخوان المتسولين كانت أثناء الايام التي قضيتها في فلورنسا، حيث شاهدت واحدا منهم يحترق فوق المحرقة. كان ذلك قبل لقائي بغوليالمو بقليل في بيزا. كان هو قد أخر مجيئه الى تلك المدينة فأذن لي أبي بزيارة فلورنسا التي سمعنا الكثير من الثناء على كنائسها الرائعة. وكنت قد طفت بجهات توسكانا كي أتقن العامية الايطالية، وأخيرا أقمت أسبوعا في فلورنسا لانني كنت قد سمعت الكثير عن تلك المدينة وكنت أتمنى التعرف عليها.

وهكذا، ما ان وصلت اليها حتى سمعت عن حدث كبير، كان يشوش حياة المدينة باكملها. كان بخصوص راهب من الاخوان المتسولين متهم بالهرطقة وبارتكاب خطايا ضدّ الدين، يمثل في تلك الايام أمام الأسقف واكليريكيين آخرين لمواجهة تحقيق صارم وتنقلت الى مكان الحدث مقتفيا أثر الأشخاص الذين حدثوني عن ذلك، بينما كنت اسمع الناس يقولون ان ذلك الاخواني، المدعو ميكيلي، كان في الحقيقة رجلا على غاية من التقوى، وكان ينادي بالتوبة وبالفقر، ومعيدا كلمات القديس فرانشسكو، وان خبث بعض النساء اللاتي كنّ يتظاهرن بالاعتراف لينسبن اليه من بعد أقوالا هرطيقية، هو الذي جرّه أمام القضاة. بل ان رجال الاسقف قبضوا عليه فعلا في دار تلك النساء، واستغربت

ذلك لانه لا ينبغي لرجال الكنيسة ان يقدموا سرّ القربان في أماكن غير لائقة، ولكن يبدو ان تلك كانت نقطة ضعف الاخوان المتسوّلين وهي عدم أخذ اللياقة بعين الاعتبار، وربما كان هناك شيء من الصحة في الاحاديث التي كان يتناقلها الرأي العام الذي كان ينسب اليهم، اضافة الى الهرطقة، سلوكا مريبا (كما كان دائما يقال عن المانويين من انهم بلغاريون ولوطيون).

وصلت الى كنيسة القديس سلفاتوري حيث كانت تجري المحاكمة، ولكنني لم أقدر على الدخول بسبب الغفر الكبير الذي كان موجودا أمامها إلاّ أن بعض الاشخاص تسلقوا الحائط وتشبثوا بحديد النوافذ فكانوا يشاهدون ويسمعون ما يحدث في القاعة وينقلون ذلك الى الآخرين الموجودين تحتهم. كانت تعاد آنذاك على الأخ ميكيلي قراءة الاعتراف الذي أدلى به في اليوم السابق، والذي قال فيه ان المسيح والحواريين «لم يملكوا أي شيء لا فرديا ولا جماعيا بغرض الملكية» ولكن ميكيلي كان يعارض لأن المسجّل الشرعي قد أضاف «الكثير من الأقوال الباطلة» وكان يصيح (وسمعت ذلك من الخارج) «ستُسألون عن ذلك يوم القيامة» ولكن المحققين قرأوا الاعتراف كما حرّروه وأخيرا سألوا ميكيلي ان كان يريد ان يمتثل الى تعاليم الكنيسة ولرأي عامّة سكان المدينة. وسمعت ميكيلي يصيح بصوت عال انه يريد التمسّك بما يؤمن به وهو أنه «يؤمن بالمسيح، فقيرا ومصلوبا وان البابا جيوفاني الثاني والعشرين هرطيق لأنه يقول عكس ذلك» وتبعت ذلك مناقشة كبيرة، حاول فيها المحققون، ومن بينهم العديد من الفرنشسكانيين اقناعه بان الكتابات لم تقل ما كان يقوله هو، وكان هو يتهمهم بانكار القاعدة نفسها التي يرتكز عليها نظامهم، ويجيبون سائلين اياه ان كان يظنّ أنه يفهم الكتابات أحسن منهم وهم فقهاؤها. وكان الاخ ميكيلي يعارضهم، بجهد كبير، حتى ان هؤلاء أخذوا يستفزونه بأقوال من نوع «اذن نريدك أن تقول إن المسيح صاحب أملاك، وان البابا جيوفاني كاثوليكي وقديس» وكان هو يجيب دون ان يحيد «كلا هرطيق» وكان هؤلاء يقولون انهم لم يروا أبدا أحدا يتمادى بذلك العناد في رجسه. ولكنني سمعت الكثيرين من بين الجموع خارج المبنى يقولون انه كالمسيح وسط الفريسين، ولاحظت ان الكثيرين من بينهم كانوا يؤمنون بقداسة الاخ ميكيلي.

وأخيرا اقتاده رجال الاسقف الى السجن مكبلا بالاغلال. وقيل لي في المساء ان العديد من الرهبان، أصدقاء الاسقف ذهبوا لشتمه طالبين منه ان يتراجع،

ولكنه كان يجيب كمن هو متأكد من الحقيقة التي يملكها. وكان يعيد لكلّ منهم ان المسيح فقير وان القديسين فرنشسكو ودومينيكو قالا ذلك أيضا وانه اذا ما كان سيعدم لمجاهرته برأي مستقيم، فسيكون ذلك خيرا له، لأنه هكذا سيرى عن قريب ما أتت به الكتابات، وسيرى شيوخ الرؤيا الاربعة والعشرين وعيسى المسيح والقديس فرنشسكو والشهداء المبجلين. ونقلوا لي انه قال «ان كنا نقرأ بورع كبير آراء بعض المطارنة القدّيسين، فبورع أكبر وبحبور ينبغي ان نتمنى ان نكون بينهم» وعند سماع أشياء من ذلك القبيل كان المحققون يخرجون من السجن ووجوههم متجهمة صائحين بسخط (وقد سمعتهم) ان الشيطان قد تملكهم! وفي اليوم التالي علمنا انه وقع التصريح بالحكم، وعندما ذهبت الى الاسقفية تمكنت من رؤية الرق، ونقلت البعض من فحواه فوق لوحتي.

كان يبدأ : «باسم سيدنا المسيح. آمين.

هذه عقوبة جسدية وحكم بعقوبة جسدية تم اصداره وتسليمه في هذا المكتوب بعد ان وقع الاعلان عنه واقرار الخ...»، ويتابع بوصف قاس لآثام وخطايا المسمّى ميكيلي، والتي أنقل جزءا منها هنا حتى يتمكن القارىء من الحكم عليها ببصيرة :

«جيوفاني المعروف بالاخ ميكيلي دي جياكومو، من جمعية القديس فريديانو، رجل شرّير وسيئ السمعة عرف بذلك في عيشه وفي أعماله هرطيق دنّس نفسه ببرص الهرطقة، عرف بآرائه ومعتقداته ضد العقيدة الكاثوليكية. أبعد عن نفسه صورة الاله واتبع عدوّ الجنس البشري وبادراك تام، عن قصد وبروية من له نفس خبيثة وبنية ممارسة الهرطقة، تآمر مع الاخوان المتسولين، كما يدعوهم عامة الناس، الهراطقة والمنشقين، واتبع طائفتهم الضالة وهرطقتهم ولا يزال يتبعها الى الآن ضد العقيدة الكاثوليكية.. ذهب الى مدينة فلورنسا وفي الاماكن العمومية الخاضعة لسلطة محكمة التفتيش صرّح بمعتقداته الراسخة وأعلن عن علم، بلسانه وبفكره... ان المسيح المخلص سيدنا لم يملك شيئا ملكا خاصا أو باشتراك مع آخرين وان ما ملكه، حسب ما جاء في الكتابات المقدسة، كان فقط لقصد الاستعمال...»

ولكن لم تكن هذه فقط الذنوب التي اتهم بها، ومن بين الاخرى بدا لي أحدهما دنيئا جدًا، ولو اني لم أكن أعرف (حسب الطريقة التي جرت بها

المحاكمة) ان هو أكد ذلك حقا، بايجاز كان يقال ان المتهم كان يؤكد ان القديس توما الاكويني لم يكن لا قديسا ولا كان ينعم بالنجاة الازلية، بل بالعكس هو من الهالكين! ويختتم الحكم بتحديد العقوبة بما ان المتهم لم يرد اصلاح ما به :

«ويتضح لنا ممّا سبق ذكره ومن الحكم الذي أصدره مولانا أسقف فلورنسا ان المذكور جيوفاني يعتبر هرطيق لا ينوي اصلاح ما به رافضا ان يتوب وان يعود الى الطريق القويم، لذا نعتبر المذكور جيوفاني رجلا عنيدا، ضالاً وسادرا في ضلاله وممارساته المنحرفة، وحتى لا يتجرأ المذكور جيوفاني على التباهي بضلاله وبممارساته المنحرفة وحتى يكون جزاءه مثالا يعتبر به الآخرون تقرّر ان المذكور جيوفاني المسمّى بالأخ ميكيلي، الهرطيق المنشق، سيقاد الى مكان الاعدام المعتاد وهناك، بعد اضرام النار، يحرق حرقا تاما الى أن تفارق روحه الجسد.» وبعد ان أخرج الحكم للعموم، جاء رجال كنيسة آخرون الى السجن وأعلموا ميكيلي بما سيقع، بل وسمعتهم يقولون له «أخ ميكيلي، لقد أعدّت البراطل والاردية، ورسمت فوقها صور أخوانيين مصحوبين بالابالسة» لترويعه ولاجباره على العدول عن أقواله. ولكن الاخ ميكيلي جثا على ركبتيه قائلا «انني أظن انه سيكون حول المحرقة أبونا فرنشسكو وأقول أكثر، أظن انه سيكون هناك عيسى والحواريون، والشهيدان الجليلان بارتولوميو وأنطونبو». وكانت تلك طريقته لرفض مطالب المحققين رفضا لا رجوع فيه.

وفي الصباح كنت أنا أيضا عند جسر الاسقفية حيث اجتمع المحققون، ومثل أمامهم الاخ ميكيلي مكبلا دائما بالاغلال. وركع أمامه أحد المؤمنين لتسلّم البركة منه فقبض عليه الجند وقادوه فورا الى السجن. وبعد ذلك تلا المحققون من جديد على المحكوم عليه نص الحكم وسألوه ان كان يريد التوبة وكلما كان النص يقول انه هرطيق، كان ميكيلي يجيب «لست هرطيقا، أنا مذنب صحيح، ولكن كاثوليكي» وعندما كان النص يذكر «الجليل والقديس بابا جيوفاني الثاني والعشرين» كان ميكيلي يجيب «كلاّ، بل هرطيق». عند ذلك أمر الأسقف ان يركع ميكيلي أمامه، فأجاب بأنه لا يركع أمام الهراطقة. وأركعوه غصبا عنه فهمس قائلا «ذلك مغفور لي أمام الرب». وبما أنه حمل الى هناك بأثوابه الكهنوتية، بدأت المراسيم التي تقضي بان تخلع الاثواب قطعة بعد قطعة، الى أن بقي بذلك الرداء الخفيف الذي يسمّونه في فلورنسا «Cioppa» وكما تقضي العادة بالنسبة الى .

الكهنة الذين تنزع عنهم القداسة قطعت أطراف أصابعه بحديد قاطع كما حلق شعره. ثم سلم الى القائد والى رجاله، الذين عاملوه معاملة قاسية جدا، ثم كبلوه بالاغلال وأعادوه الى السجن، بينما كان هو يقول للجموع «أموت من أجل الله». وعلمت انه سيحرق في اليوم الموالي. وفي ذلك اليوم ذهبوا من جديد ليسألوه ان كان يريد الاعتراف وتناول سرّ القربان المقدّس فرفض اقتراف خطيئة ان هو قبل القداس ممّن هو في الخطيئة. وفي هذا أظن انه أساء الفعل، وبدا لي ان هرطقة البتاريين قد أفسدته.

وأخيرا جاء صباح الاعدام وقدم لتسلّمه القاضي البلدي الذي بدا لي رجلا طيبا، لأنه سأله اي نوع من الرجال هو، ولماذا يعاند بينما كان يكفيه ان يقول ما كان يقوله كل الناس وان يقبل رأي الكنيسة المقدسة ولكن ميكيلي كان يجيب بعناد كبير «اني أؤمن بالمسيح فقيرا ومصلوبا». فذهب القاضي البلدي لحاله وهو يهزّ ذراعيه من اليأس. عند ذلك أتى القائد ورجاله وحملوا ميكيلي الى الساحة حيث كان هناك نائب الاسقف الذي قرأ عليه من جديد اعترافه ونصّ الحكم، وكان ميكيلي يتدخل من جديد معترضا على ما كان ينسب اليه من آراء باطلة : وكانت في الحقيقة من الدقة بحيث لا أذكرها كما لم أفهمها جيّدا آنذاك. ولكن بشأنها كان يقرّر اعدام ميكيلي، هذا مؤكد، واضطهاد الاخوان المتسولين. حتى اني لم أكن أفهم جيدا لماذا كان رجال الكنيسة والسلطة المدنية يتشدّدون بتلك الصفة مع أشخاص يريدون فقط ان يعيشوا في فقر ويعتقدون ان المسيح لم يملك أشياء دنيوية وكنت أقول لنفسي : كان عليهم بالاحرى ان يخافوا من أولائك الذين يريدون العيش في البذخ ويسلبون أموال الآخرين، ويدفعون الكنيسة الى الخطيئة مدخلين فيها الممارسات السيمونية. وقلت ذلك الى شخص كان بجانبي، لأنه لم يعد بطاقتي ان أصمت. فابتسم بسخرية وقال لي ان الراهب الذي يمارس الفقر يصبح مثالا سيئا للشعب، الذي لن يعتاد بعد ذلك على الرهبان الذين لا يمارسونه. وقال مضيفا ان المناداة بالفقر تعطي للشعب أفكار سيئة، اذ سيجد في فقره تعلّه للكبرياء، والكبرياء يحمل الى العديد من أعمال العجرفة. وأخيرا انه كان ينبغي عليّ ان اعرف، ولم يكن واضحا حتى بالنسبة اليه من خلال اي قياس منطقي، ان المناداة بالفقر من طرف الرهبان تعني الوقوف بجانب الامبراطور وان ذلك لا يرضي البابا. وكانت كلها حججا صائبة وان نطق

بها رجل قليل العلم. الا انني عند ذلك الحد لم أكن أفهم لماذا أراد ميكيلي الموت بتلك الشناعة لارضاء الامبراطور أو لفض مجادلة بين انظمة دينية. وفعلا كان من بين الحاضرين من كان يقول انه «ليس قديسا لقد ارسله لودفيكو لنشر الفتنة بين المواطنين وان الاخوان المتسولين هم توسكانيون ولكن يوجد وراءهم مبعوثو الامبراطور» ويقول آخرون «انه مجنون، لقد تملكه ابليس، وملأه الصلف، يريد الاستشهاد لارضاء كبريائه الفاسد، هؤلاء الرهبان يفرطون في قراءة سير القديسين، كان من الافضل ان يتزوجوا!» وآخرون كانوا يقولون أيضا «كلا، نحن في حاجة ان يكون كل المسيحيين مثله، مستعدون للبرهنة على ايمانهم كما كانوا في عهد الوثنيين» وبينما كنت أسمع كل تلك الآراء وصرت لا أدري ما هو موقفي منها اتفق ان رأيت من جديد وجه المحكوم عليه، الذي كانت تحجبه عني بين الفينة والاخرى الجموع التي كانت أمامي. فشاهدت وجه من كان ينظر الى شيء ليس على هذه الارض كما كنت أرى ذلك أحيانا على وجوه أصنام القديسين المنخطفين في الرؤى. وفهمت انه مجنونا كان أم مستبصرا، كان يريد الموت عن ادراك واع لاعتقاده بأنه بموته سيهزم عدوّه، مهما كان. وفهمت ان مثاله سيؤدي بآخرين الى الموت. الا اني بقيت مندهشا أمام ذلك الثبات، لانني الى الآن لا أدري ان كان يغلب على هؤلاء تفانيهم المغرور من أجل الحقيقة التي يؤمنون بها، الذي يجرهم الى الموت، أم تغلب عليهم رغبتهم المغرورة في الموت التي تجعلهم يبرهنون من خلاله على الحقيقة التي يؤمنون بها، أي كان نوعها. وكان ذلك يملؤني اعجابا ورهبة.

ولكن لنعد الى الاعدام، اذ كان الجميع يتجهون الآن الى المكان الذي سيقع فيه تنفيذ الحكم.

جذبه القائد ورجاله خارج الباب، بقميصه الخفيف والبعض من أزراره مفتوحة وكان يمشي بخطى واسعة منحني الرأس وهو يتلو صلواته وكأنه واحد من الشهداء. وكان هناك جمع غفير جدّا وكثيرون كانوا يصيحون به «لا تمت!» ويجيب «اريد ان أموت من أجل المسيح،» «ولكنك لا تموت من أجل المسيح»، فيجيب «ولكن من أجل الحقيقة». وعندما وصلوا الى مكان يسمّى زاوية برو كنصولو صاح به أحدهم ان يصلي للرب من أجلهم جميعا، وبارك هو الجموع. وعند فوند مانتي دي سانتا ليبيراتا، قال له أحدهم «يالك من أحمق، آمن بالبابا!»

فأجاب «لقد جعلتم منه ربا هذا البابا!» وأضاف «ان ببغاواتكم قد جعلتكم تفلسون» (وكان ذلك تلاعبا بالالفاظ، أو تلميحاً، يجعل من البابا في اللهجة التوسكانية حيوانا كما فسّروا لي ذلك) : وذهل الجميع لانه كان يواجه الموت وهو يمزح.

عند سان جيوفاني صاحوا به «انج بحياتك!» فأجابهم «انجوا من الخطايا!» وعند السوق القديمة صاحوا به «انج! انج!» فأجابهم «انجوا من الجحيم» وعند السوق الجديدة صاحوا به «تب، تب،» فأجابهم «توبوا عن الربا» وعندما وصل الى سانتا كروتشي رأى رهبانا من جمعيته فوق المدرج وعاتبهم لأنهم لا يتبعون قاعدة القديس فرنشسكو. ومن بين هؤلاء كان البعض يهزّون أكتافهم ولكن آخرين كانوا يخفون وجوههم في طراطيرهم من الخجل.

وفي الطريق نحو باب العدالة قال له الكثيرون «انكر، انكر، ارفض الموت» فأجاب «لقد مات المسيح من أجلنا» فيقولون «ولكنك لست المسيح، وليس عليك ان تموت من اجلنا» فيجيب «ولكنني أريد أن أموت من أجله» وعند مرج العدالة قال له أحدهم لماذا لا يتراجع كما تراجع راهب كان رئيسه قد أنكر ولكن ميكيلي أجاب انه لم ينكر ورأينا الكثيرين من بين الجمع أخذوا يؤيدون ويشجعون ميكيلي كي يكون قويا : ففهمت أنا وكثيرون آخرون أنهم من أتباعه وابتعدنا عنهم.

ووصلنا أخيرا خارج الباب وظهرت أمامنا المحرقة، أو الكوخ كما يسمّونها هنالك، لان الحطب كان يوضع في شكل كوخ. وهناك وقف الفرسان في شكل دائرة حتى لا يقترب الناس كثيرا ثم أوقفوا الاخ ميكيلي الى العمود. وسمعت من جديد أحدا يصيح به «ما هذا اذن الذي تريد ان تموت من أجله؟» فأجابه «انها حقيقة تسكن أعماقي ولا يمكن البرهنة عليها الا بالموت.» ثم أشعلوا النار. وكان الاخ ميكيلي قد انتهى من انشاد «أؤمن» واتبعه بـ «أنت يارب». وأنشد منه حوالي ثمانية أبيات، ثم انحنى كمن يريد ان يسعل، وسقط على الارض لأن الحبال التي كانت توثقه قد تقطعت. وكان قد مات لأنه قبل أن يحترق الجسم تماما يموت الانسان من فرط الحرارة التي تجعل القلب ينفلق من الدخان الذي يغمر الصدر.

ثم اشتعل الكوخ بأكمله كما لو كان مشعلا وأحدث وميضا كبيرا ولولا جسد

الاخ ميكيلي المسكين المحترق الذي كان لايزال ظاهرا بين الحطب المشتعل، لقلت انني أمام العوسج المشتعل. وكنت على وشك ان تختطفني رؤيا عادت الى ذهني (وتذكرتها بينما كنت أصعد سلم المكتبة) فيها بعض الكلمات حول انخطاف القديسة الدجيرالدا الصوفي، والتي كنت قد قرأتها في بعض كتب القديسة الدجيرالدا، وصعدت تلقائيا الى شفتيّ «الشعلة هي شعاع رائع، وقوة فطرية وأجّة نارية، الاشعاع الرائع كي تضيئ والاجّة النارية كي تحرق». وتذكرت بعض جمل أوبارتينو حول الحب. واختلطت صورة ميكيلي فوق المحرقة بصورة دولتشينو، وصورة دولتشينو بصورة مارغريتا الجميلة. وأحسست من جديد بذلك الاضطراب الذي تملكني في الكنيسة.

حاولت ان لا أفكّر في ذلك وتقدمت بعزم نحو المتاهة.

كانت المرّة الاولى التي أدخل فيها المتاهة وحدي، وكانت الظلال التي يلقيها السراج على الأرض تروعني بقدر ما روعتني رؤى الليالي الفارطة. كنت أخاف في كل لحظة ان أجد نفسي أمام مرآة أخرى، لان ذلك هو سحر المرايا، وهو انك ولو كنت تعرف انها مرايا فهي مع ذلك لا تنفك تدخل عليك الارتباك.

ومن ناحية أخرى لم أكن أحاول ان أجد وجهتي، أو ان أتفادى قاعة الروائح التي تحدث الرؤى. كنت أتقدم وكأنني فريسة حمّى، ولم أكن أعرف أين أذهب. وفعلا لم أبتعد كثيرا عن نقطة الانطلاق، لأنني وجدت نفسي بعد قليل في القاعة المسبعة الزوايا التي دخلت منها. كانت هناك بعض الكتب موضوعة فوق طاولة خيّل اليّ اني لم أرها في الليلة الفارطة. وخمّنت انها كتب أخذها ملاخي من قاعة الكتابة ولم يرجعها بعد الى الاماكن المخصصة لها. لم أكن أعرف ان كنت بعيدا عن قاعة العطورات، لانني أحسست بشيء من الدوران، ربما لان بعض الروائح كانت تصل الى ذلك المكان أو هي الاشياء التي تخيلتها الى ذلك الحين. وفتحت كتابا ثريا بالنمنمات، كان يبدو لي من أسلوبه انه متأت من أديرة «تول» الأخيرة.

وبهرتني صورة أسد في الصفحة التي يبدأ بها الانجيل المقدس للحواري مرقس. كان بكل تأكيد أسدا وان لم أر قط أسدا بلحمه ودمه، وكان المنمنم قد نقل بوفاء هيئته، وربما كان أستوحى ذلك من رؤية أسود ايبارنيا وهي أرض مخلوقات فظيعة واقتنعت بان هذا الحيوان، كما يقول ايضا الفزيولوجي، تجتمع فيه الوحشية والهيبة في نفس الوقت. كذلك كانت تلك الصورة توحي اليّ في

الآن نفسه بصورة العدوّ وبصورة سيدنا المسيح، وما كنت أدري حسب أي مفتاح رمزي كان ينبغي عليّ قراءتها، وكنت أرتعش بكل مفاصلي، من الخوف ومن الريح التي كانت تنفذ من كوات الجدران.

كان فم الاسد الذي تجلّى لنظري مليئا بالانياب الحادة، ورأسه مدرعا بدقة كرؤوس الثعابين، وكان جسمه الضخم يقف على أربع قوائم تحمل مخالب مسننة ومفترسة، ويشبه في صوفه البعض من تلك الزرابي التي رأيتها فيما بعد مجلوبة من الشرق، ذات حراشف حمراء وزمردية، رسمت فوقها، صفراء كالطاعون، أعضاء فظيعة وغليظة من عظام. وكان الذنب أيضا أصفر يلتوي من المؤخرة الى أعلى حتى يصل الى الرأس منتهيا بدورة أخيرة تحمل خصلات بيضاء وسوداء.

وكانت رؤيا الأسد قد أثرت عليّ بالغ التأثير (ودرت على نفسي أكثر من مرّة كمن ينتظر ان يرى حيوانا بذلك الشكل يظهر فجأة) حين قررت تصفح أوراق أخرى ووقع نظري عند بداية انجيل متّى، على صورة رجل. لا أدري لماذا ولكنه روعني أكثر من الاسد : كان الوجه وجه رجل ولكن ذلك الرجل كان مدرّعا في حلّة صلبة كانت تغطيه الى القدمين، وكانت تلك الحلة أو الدرع مرصعا بأحجار حمراء وصفراء. وذلك الرأس الذي كان يبرز غامضا من ذلك القصر المصنوع من الياقوت والزبرجد، كان يبدو لي (يا للرّعب، كيف جعلني أجدّف!) كالمجرم الغامض الذي كنا نقتفي آثاره الخفية. وفهمت بعد ذلك لماذا كنت أقيم في ذهني علاقة متينة بين الوحش والمدرّع من جهة والمتاهة من جهة أخرى : لأن كليهما، ككل صور ذلك الكتاب، كانا يبرزان فوق نسيج مصوّر من المتاهات المتشابكة، خطوط من الجزع والزمرد، وخيوط من الذهب وأشرطة من الزمرد الريحاني، كانت كلها تذكر بلفيفة القاعات والأروقة التي كنت أجد فيها نفسي. كان نظري يتيه فوق الصفحة، عبر مسالك بديعة، كما كانت قدمايا تتيهان في تلك السلسلة الرهيبة من قاعات المكتبة. وملأتني قلقا رؤية شرودي ممثلة على ذلك الرّق وأقنعتني بأن كلاً من تلك الكتب كانت تقص بتهكمات غامضة قصتي في تلك الآونة. «انما تروي الحكاية قصتك» قلت لنفسي، وتساءلت ان لم تكن تلك الصفحات تحتوي على قصة اللحظات المقبلة التي كانت تنتظرني.

فتحت كتابا آخر، وبدا لي منتميا للمدرسة الاسبانية. كانت الألوان عنيفة، فالحمراء منها تبدو وكأنها دم أو نار. كان كتاب «وحي الحواري»، ووقع نظري

فالحمراء منها تبدو وكأنها دم أو نار. كان كتاب «وحي الحواري»، ووقع نظري مرّة أخرى، كالليلة الفارطة، على صفحة «المرأة المتسربلة بالشمس». ولكنه لم يكن نفس الكتاب، كانت النمنمة مختلفة، هنا ألحّ الفنان أكثر على ملامح المرأة. وقارنت وجهها، ونهديها وانعطافة خاصرتها بصنم العذراء التي رأيتها مع أوبارتينو. كانت قسماتها مختلفة، ولكن هذه المرأة أيضا بدت لي جميلة جدا. وفكرت أنه لا ينبغي أن ألح على هذه الأفكار، وأدرت بعض الصفحات فوجدت امرأة أخرى، ولكن هذه المرّة كانت بغي بابل. ولم تسترع انتباهي كثيرا ملامحها ولكن فكرة انها هي أيضا امرأة كالاخرى، ومع ذلك فهذه كانت تحمل كل الرذائل، وكانت الأخرى مجمع كل الفضائل. ولكن الملامح كانت في الحالتين ملامح امرأة، وصرت غير قادر، الى حد ما على فهم الفارق بينهما. وأحسست من جديد باضطراب داخلي، واختلطت صورة عذراء الكنيسة بصورة مارغريتا الجميلة. فقلت لنفسي «لقد هلكت!» أو «اني مجنون». وقررت أن لا أبقى أكثر من ذلك في المكتبة.

ومن حسن الحظ أنني كنت قريبا من السلّم. وهرعت الى أسفل، غير مكترث بأنه يمكنني أن أتعثّر وان ينطفي النور. ووجدت نفسي تحت عقود قباب قاعة الكتابة الفسيحة، ولكني حتى في ذلك المكان لم أتوقف وانطلقت نازلا السلم المؤدي الى قاعة الأكل.

هنالك توقفت، لاهثا. كان نور القمر، في تلك الليلة الساطعة، ينفذ من الزجاجيات، وكان بوسعي اذن أن أستغني عن السراج، الذي كان لازما في قاعات المكتبة وفي أروقتها. إلا أنني احتفظت به مشتعلا ربما بحثا عن بعض الطمأنينة. ولكنني كنت لا أزال ألهث، وفكرت أنه ربما يكون من الأفضل أن أشرب قليلا من الماء لتهدئة التوتر، وبما أن المطبخ كان قريبا، اجتزت قاعة الأكل وفتحت ببطء أحد الأبواب التي تفتح على الجزء الثاني من طابق الصرح الأرضي.

وعند ذلك الحد، وعوض أن يهدأ روعي، ازداد. لأنني تفطنت حالا الى وجود شخص بالمطبخ، قرب فرن الخبز : أو على الأقل تفطنت الى نور كان يلمع في ذلك الركن، ومن شدّة فزعي اطفأت سراجي. ولشدّة ارتياعي روّعت من كان هناك، وفعلا أطفأ الآخر (أو الآخرون) سراجه. ولكن دون جدوى، لأن

ضياء الليل كان ينير المطبخ بما فيه الكفاية، ليصوّر أمامي على الأرضية، ظلا أو ظلالا عديدة مختلطة.

فتجمّدت أنا، ولم أعد أجرؤ لا على التراجع، ولا على التقدم. وسمعت وشوشة، همسا متذللا، بدا لي صوت امرأة. ثم من كتلة الظلال العديمة الشكل، المصورة في العتمة قرب الفرن، تملص شبح أسود وقصير وهرب نحو الباب الخارجي، الذي من الواضح أنه كان منفرجاً، وأغلقه خلفه.

بقيت أنا، على الحد الفاصل بين قاعة الأكل والمطبخ، مع شيء غير واضح ـ وكيف يمكن أن أقول؟ ـ متأوه. كان يتأتى من ذلك الشبح فعلا أنين، يكاد يكون بكاء متذللا، نجيشا ايقاعيا ينمّ عن الخوف.

ولا شيء يبعث الشجاعة لدى الخائف قدر خوف الآخرين : ولكنني لم أتقدم نحو الشبح بدافع من الشجاعة. وانما، يمكن أن أقول، كانت تدفعني نشوة غير بعيدة عن تلك التي أحسستها عندما حدثت لي الرؤى. وكان في المطبخ شيء يشابه التبخيرات التي فوجئت بها اليوم الفارط في المكتبة. ربما لم تكن نفس المواد، ولكن كان لها نفس التأثير على حواسّي الهائجة. كانت تصلني رائحة حامزة من صمغ الكثيراء وشبّ ودردي كان الطباخون يستعملونها لتعطير الخمر. أو ربما كانوا يعدّون ـ كما علمت فيما بعد ـ في تلك الايام الجعة (التي كانت محبذة في تلك الجهة من شمال شبه الجزيرة) وكانت تصنع حسب طريقة بلادي، بالخلنج، وريحان المستنقع واكليل البركة البرّي. وكل تلك الروائح أسكرت عقلي أكثر ممّا أسكرت خياشيمي.

وبينما كنت بدافع من غريزتي المنطقية أريد أن أصيح «أعوذ بالله!» وأن أبتعد عن ذلك الشيء الذي يئن والذي كان دون شك شيطانا أرسله اليّ ابليس، كان هناك شيء في غريزتي الشهوانية يدفعني الى الأمام، كما لو كنت أريد المشاركة في حدث عجيب.

وهكذا اقتربت من الشبح الى أن تفطنت على ضوء الليل، الذي كان يسقط من النوافذ، الى انها امرأة، كانت ترتعد وتضمّ بيدها لفافة الى صدرها، وكانت تزحف متراجعة الى الوراء نحو فوهة الفرن.

ليقف الرب والعذراء المنعمّة وكلّ قديسي الفردوس الآن الى جانبي وأنا أقصّ ما وقع لي. ان الحياء وهيبة وضعيتي (وأنا الآن راهب شيخ في دير «مالك»

التقوى. كان من الأولى أن أقول ببساطة ان شيئا سيئا وقع، ليس من الاستقامة أن أقصّه، فلا أشوّش نفسي ولا أشوش قارئي.

ولكنني وعدت نفسي أن أقص، عن تلك الأحداث، كل الحقيقة، والحقيقة لا تتجزأ، وهي تسطع بشفافيتها الداخلية ولا تقبل أن تبتر من أجل مصالحنا أو من أجل حيائنا. المشكل هو بالأحرى، ان أقص ما حدث لا كما أراه الآن وكما أتذكره (حتى ولو أني كنت أذكر الى الآن كلّ شيء بحيوية لا ترحم، ولا أدري ان كانت التوبة التي تبعته هي التي ركزت بتلك الحيوية ظروفا وأفكارا في ذاكرتي، أو أنه ضعف تلك التوبة نفسها هو الذي يعذبني معيدا الى فكري المتأمل أقلّ مشاعر الخزي الذي أحسست به)، ولكن كما رأيته وأحسست به آنذاك. ويمكنني أن أفعل ذلك، بوفاء المؤرخ، لأنني لو أغمضت عيني لأمكنني أن أقص لا فقط كل ما فعلته ولكن كل الأفكار التي جالت بخاطري في تلك اللحظات، كما لو كنت أنسخ رقا حرّر في ذلك العهد. ينبغي اذن أن أتابع على هذا النحو، وليحفظني ميخائيل ملك الملائكة. لأنني، قصد اعطاء العبرة للقراء الآتين وتكفير ذنبي، أريد الآن أن أقص كيف يمكن أن يسقط شاب في مكائد الشيطان، حتى تصبح هذه واضحة بينة فيمكن لمن يسقط ضحيتها أن يهزمها.

كانت اذن امرأة. ماذا أقول، فتاة صغيرة. وبما أنه لم تكن لي الى ذلك الحين (ومنذ ذلك الحين، والحمد لله) صلة كبيرة بمخلوقات ذلك الجنس، لا أستطيع أن أقول كم كان سنها. أعرف أنها كانت صغيرة السن، تكاد تكون يافعة، ربما في ربيعها السادس عشر أو الثامن عشر أو العشرين، وأذهلني تعبير الواقعية الانسانية الذي كان ينبعث من ذلك الوجه. لم تكن رؤيا وبدت لي على كل حال «طيبة جدا». ربما لأنها كانت ترتعد كالعصفور في ليلة شتاء، لأنها كانت تبكي ولأنها كانت خائفة مني.

وهكذا، وأنا أفكر ان واجب كلّ مسيحي طيب هو اغاثة أمثاله، اقتربت منها بلطف كبير وقلت لها بلاتينية جيّدة أنه لا ينبغي أن تخاف لأنني صديق، وانني على كلّ حال لست عدوّا، وبالتأكيد غير العدوّ الذي كانت ربما تهابه.

وربما كانت الرقة التي تنبعث من نظري هي التي هدأتها، فاقتربت مني. وتفطنت الى انها لا تفهم اللاتينية وخاطبتها عفويا بلغتي الألمانية فأذعرها ذلك كثيرا، ولا أدري ان كان من أجل نبراتها الخشنة، وغير المعهودة عند اناس تلك

الجهة، أو لأن تلك النبرات كانت تذكرها ببعض التجارب مع جند بلادي. عندئذ ابتسمتُ، لاعتقادي ان لغة الحركات والوجه أبلغ من لغة الكلمات، فاطمأنت، ثم ابتسمت وقالت لي بضع كلمات.

كنت أفهم شيئا قليلا جدا من لهجتها، التي كانت مختلفة عن اللهجة التي تعلمت بعضها في بيزا. ومع ذلك عرفت من النغمة أنها كانت تقول لي كلمات عذبة، وبدا لي أنها كانت تقول شيئا من قبيل «أنت شاب، أنت جميل...». وكان من النادر أن يحدث لراهب مبتدئ قضى كامل طفولته في دير ان يسمع أحكاما تخصّ جماله، بل وكانوا يحذروننا ان جمال الجسم زائل وانه لا يستحقّ أي اعتبار : ولكنّ مكائد الشيطان ليست لها حدود وأعترف أن ذلك التلميح الى جمالي، مهما كان كاذبا، كان له أعذب وقع في مسمعي وكان له في نفسي تأثير لا يوصف. زد على ذلك أن الفتاة مدت يدها، وهي تقول لي تلك الكلمات، ولمست لمسا خفيفا بأناملها وجنتي، التي كانت آنذاك حليقة اللحية تماما. وأحسست وكأنه سيغمى عليّ، ولكني لم أكن أشعر في تلك اللحظة بأدنى احساس بالخطيئة. مما يدلّ على قدرة الشيطان عندما يريد امتحاننا ويمسح من نفوسنا آثار العفو الربّاني.

ماذا أحسست؟ ماذا رأيت؟ أذكر فقط أن انفعالات اللحظة الأولى كانت خالية من كلّ تعبير، لأن لساني وفكري لم يتعلما التعبير عن احساسات من ذلك النوع. الى أن عادت الى ذاكرتي كلمات أخرى داخلية، سمعتها في أوقات أخرى وفي أماكن أخرى، ومن المؤكد أنها كانت قد قيلت لأغراض أخرى، ولكنها بدت لي تتناسب بروعة مع عذوبة تلك اللحظات، وكأنها نشأت متشاركة معها في الجوهر لتعبر عنه. كلمات تزاحمت في تجاويف ذاكرتي وصعدت الى سطح شفتي (الصامتتين)، ونسيت أنها استعملت في الكتابات المقدّسة أو في صفحات القدّيسين للتعبير عن حقيقة أسطع بكثير. ولكن أكان هناك حقيقة فارق بين اللذات التي كان القديسون يتحدثون عنها وتلك التي كانت نفسي المتهيجة تحس بها في تلك الآونة؟ في تلك اللحظة زالت مني تلك القدرة الحذرة على فهم الفارق. وهذا فعلا، حسب رأيي، الدليل على الانخطاف في مهاوي الذاتية.

وفجأة ظهرت لي الصبية كالعذراء السوداء والجميلة التي يتحدث عنها نشيد الأناشيد. كانت تحمل ثوبا بسيطا من الكتان الخشن ينفتح دون احتشام فوق

الأناشيد. كانت تحمل ثوبا بسيطا من الكتان الخشن ينفتح دون احتشام فوق الصدر، وحول عنقها قلادة من الحجيرات الملونة والتي كانت، حسب ظني، عديمة القيمة. ولكن رأسها كان يعلو مزهوّا، عنقا أبيض كبرج من العاج، وكانت عيناها صافيتين كمسابح حشبون وأنفها كبرج لبناني وشعرها في لون الارجوان. نعم، لقد بدا لي شعرها كقطيع من الماعز، وأسنانها كالنعاج الصاعدة من الحمّام، اثنتين اثنتين، دون أن تسبق واحدة الأخرى. ورحت أقول: «كم أنت جميلة، يا حبيبتي، كم أنت جميلة» وأهمس: «شعرك كقطيع ماعز نازل من جبال قلعاد، وشفتاك كسلكة من القرمز، وخدّك كفلقة رمانة وعنقك كبرج داود علّق عليه ألف مجنّ». وكنت أتسائل وأنا مروّع ومنخطف من تكون هذه التي تقف أمامي كأنها الفجر جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، «مرهبة كجيش بألوية».

عندئذ اقتربت مني الصبية أكثر، ملقية باللفافة التي كانت الى ذلك الحين تشدها بقوة الى صدرها، ورفعت يدها من جديد لتداعب وجهي معيدة مرّة أخرى الكلمات التي كنت قد سمعتها. وبينما كنت لا أدري أأهرب منها أم أقترب أكثر، وكان رأسي يدق كما لو كانت أبواق يشوع على وشك أن تسقط أسوار مدينة أريحا، وكنت في نفس الوقت راغبا في لمسها وخائفا منه، فابتسمت هي ببهجة كبيرة، وندّ عنها أنين متذلل كأنها معزة رقيقة، ثم فكّت الخيوط التي كانت تربط الثوب فوق صدرها ونزعت الثوب عن جسدها كما ينزع الجلباب، وبقيت أمامي كما يمكن أن تكون ظهرت حواء لآدم في جنّة عدن. وهمست معيدا الجملة التي سمعتها من أوبارتينو «جميل حقا ذلك النهد الذي يبرز قليلا، ممتلئ قليلا ولكنه لا يتموج بدعارة» لأن نهديها ظهرا لي وكأنهما شادنان، توأمان من الغزلان يرعيان بين الزنابق، وبدت لي سرّتها كأسا مستديرا لا يفرغ أبدا من الخمر المخدّر، وبطنها كومة من القمح تحفّ بها أزهار الوادي.

وصحت بها: «يا كوكبي المشرق، أنت جنّة مغلقة، ينبوع مختوم، حجرة مقفلة على مرّ وعود، حجرة مليئة بالعطور». ووجدت نفسي رغم إرادتي لصيق جسدها وأحسست بدفئه وبعطره الحامز كعطر مراهم ما سبق لي أبدا أن عرفتها. وتذكرت «يا أبنائي، عندما يأتي الحب المجنون، لا يستطيع الانسان شيئا!». وفهمت أنه، مهما كان ما كنت أشعر به، مكيدة دبّرها لي الشيطان أو هبة سماوية، لم يعد بامكاني أن أفعل شيئا لمقاومة الاندفاع الذي كان يحركني.

وصحت «آه» اني أتلاشى»، وأضفت : «من شدّة وجدي أراها ولا أحذر من حبّها» لأن عطرا ورديا كان ينبعث من شفتيها وكانت قدماها جميلتين في ذينك النعلين، وساقاها كانتا عمودين، وكعمودين كانت انعطافة خاصرتيها، فهي روعة أبدعها فنان عظيم. وكنت أهمس لنفسي. آه يا حبّ، يا ابنة النعم، لقد بات ملك أسير ضفيرتك، وارتميت بين ذراعيها وسقطنا معا على أرضية المطبخ العارية، ولا أدري ان كانت المبادرة مني أو كانت من صنعها هي، وجدت نفسي قد تحررت من جلباب المبتدئ ولم نشعر بالخجل من جسدينا «وكان كلّ شيء طيبا».

وقبّلتني هي بقبلات فمها، وكان حبّها ألذ من الخمر ورائحة عطورها شذية، وكان عنقها جميلا وسط اللآلي وخدّاها جميلين وسط الأقراط، كم أنت جميلة يا حبيبتي، كم أنت جميلة، عيناك حمامتان (هكذا كنت أقول) ثم أرني وجهك، اسمعيني صوتك، فصوتك نغم ووجهك سحر، لقد جننتني من الحبّ يا أختاه، لقد جننتني بنظرة من عينيك، بلؤلؤة واحدة من عنقك، شفتاك رحيق يقطر، وتحت لسانك الحليب والعسل، وشذى أنفاسك كعطر التفاح، وثدياك عناقيد، كعناقيد العنب ثدياك، وفمك خمر لذيذة تصل الى أعماق حبي وتسيل فوق الشفتين وفوق الأسنان. . . ينبوع بستان، ناردين وزعفران، قرفة وكافور، صبر وألوة، وكنت آكل قرصي وعسلي، وأشرب خمري وحليبي، من تكون، من تكون هذه التي تقف أمامي كالفجر، جميلة كالقمر، ساطعة كالشمس، رهيبة كجند شاكي السلاح.

آه يا الهي، عندما تنخطف الروح، تكون الفضيلة الوحيدة في حب ما تراه (أليس كذلك؟)، وتكون السعادة العظمى في امتلاك ماهو لك، وتشرب الحياة السعيدة من ينبوعها (ألم يقولوا ذلك؟)، وتستلذ بالحياة الحقيقية التي سنعيشها بعد هذه الحياة الزائلة، قرب الملائكة الى الأبد. . . كنت أفكر في ذلك وكان يبدو لي أن النبؤات تتحقق أخيرا، بينما كانت الفتاة تغمرني بملذات لا توصف وكنت كما لو كان جسدي كله عينا من الخلف ومن الأمام وكنت أرى بنظرة واحدة كلّ مايحيط بي. وكنت أفهم أنه منه هو، الحبّ، تنشأ في نفس الوقت الوحدة والرقة والخير، والقبلة والعناق، كما كنت قد سمعت من قبل وكنت أظن أنهم كانوا يحدثونني عن شيء آخر. وللحظة واحدة فقط، بينما كانت غبطتي تكاد

تصل أوجها، تذكرت انني ربما كنت أجرّب، وفي الليل، استحواذ شيطان الظهيرة وقد حكم عليه أن يتجلى أخيرا، على حقيقته الشيطانية، للنفس التي تتساءل منخطفة «من أنت» هو الذي يعرف كيف يخطف الروح وكيف يوهم الجسد. ولكني اقتنعت في الحال أن ترددي هو الذي كان دون شك شيطانيا لأنه لا يمكن أن يكون في الوجود شيء أعدل، وأطيب، وأقدس مما كنت أحسّه والذي كانت عذوبته تزداد من لحظة إلى أخرى. كالقطرة الصغيرة من الماء في كمية من الخمر، تذوب فيه لتأخذ لون الخمر وطعمه، كالحديد المتقد والمشتعل الذي يصبح شبيها جدا بالنار ويفقد شكله الأول، كالهواء الذي يغمره نور الشمس ويتحول الى نفس اشراقها والى نفس ضيائها، حتى أنه لا يبدو مضاء بل هو نفسه نور ، كذلك كنت أحس أنا بنفسي أموت في ذوبان عذب، حتى انه لم يبق لي من القوة إلا ما يكفي لأهمس كلمات المزمور «هو ذا صدري، انه كالخمر الجديدة، لا ثغرة فيه، يحطّم القرب الجديدة»، ورأيت على الفور نورا ساطعا جدا وفي وسطه صورة في لون اللازورد تشتعل كلّها بنار متوهجة وعذبة، وانتشر ذلك النور الساطع في كلّ أرجاء تلك النار المتوهجة، وانتشرت تلك النار المتوهجة في تلك الصورة الساطعة وذلك النور المشع وتلك النار المتوهجة في كامل الصورة.

بينما كنت أسقط، وأنا على وشك الاغماء، فوق الجسد الذي جامعته، فهمت في نفس أخير من الحيوية أن النار تتكون من ضياء ساطع ومن قوة كامنة ومن حرارة نارية، ولكن الضياء الساطع تملكه لكي تنير والحرارة النارية لكي تحرق. ثم فهمت الهاوية والهُوى التابعة التي تدعو اليها.

الآن وأنا أكتب هذه السطور بيد ترتعش (ولا أدري ان كان لفظاعة الخطيئة التي أقصها أو للحنين المذنب نحو الحدث الذي أتذكره) أتفطن الى انني استعملت لوصف نشوتي المخجلة في تلك اللحظات نفس العبارات التي استعملتها، في صفحات قليلة سابقة، لوصف النار التي كانت تحرق جسد الشهيد الفرنشسكاني ميكيلي. وليس من قبيل الصدفة أن تصوغ يدي، المنكبّة على تنفيذ ما تأمر به روحي، بنفس العبارات تجربتين مختلفتين تمام الاختلاف لأنني قد أكون عشتها آنذاك بنفس الطريقة، عندما أحسست بهما، ومنذ قليل، عندما كنت أحاول أن أبعثهما ثانية على الرق.

هناك حكمة غامضة تجعلنا نسمّي أحداثا مختلفة فيما بينها بعبارات مماثلة، هي نفسها تلك التي تجعلنا ندل على الأشياء الالهية بأسماء أرضية، فيمكن القول عن الرب برموز ملتبسة انه أسد أو فهد، وان الموت جرح، والفرحة شعلة، والشعلة موت، والموت هاوية، والهاوية هلاك، والهلاك غشيان والغشيان وجد.

لماذا، وأنا شاب حديث السن، كنت أسمي وجد الموت الذي راعني عند الشهيد ميكيلي بالعبارات التي سمّت بها القديسة وجد الحياة (الالهية)، ولكن ما كان يمكنني أن أسمّي بغير تلك العبارات وجد المتعة الأرضية (الآثم والزائل)، الذي من جهته بدا لي حالا احساسا بالموت وبالتلاشي؟ انني أحاول الآن أن أفكر في الكيفية التي أحسست بها، على بعد بضعة أشهر، تجربتين كلتاهما مثيرتان وأليمتان، وحول الكيفية التي تذكرت بها، تلك الليلة في الدير، واحدة وباحساسي عشت الأخرى، على فترة بضع ساعات، وأيضا الكيفية التي عشتهما بها في نفس الوقت من جديد الآن، محررا هذه السطور، وكيف انني في الحالات الثلاث ذكرتها لنفسي بكلمات تجربة مختلفة لروح قديسة كانت تتلاشى في رؤيا الاله. ربما أكون جدّفت (آنذاك، الآن؟) ما وجه الشبه بين توق ميكيلي الى الموت، وبين الانخطاف الذي أحسسته وأنا أنظر الى النار التي كانت تلتهمه، ثم بين التوق الى الوصال الجنسي الذي أحسسته نحو الصبية، والعفة الروحية التي كنت أترجمه بها مجازيا، وبين نفس الرغبة في التلاشي العذب التي كانت تحمل القديسة الى الموت من فرط وجدها لتعيش حياة أبدية؟ أيمكن التعبير عن أشياء على هذه الدرجة من الاختلاف بكيفية لها تلك الدرجة من الوحدة؟ ومع ذلك، يبدو لي، ان هذا هو ما علّمنا اياه الكبار من بين العلماء : «كل صورة اذن تكشف الحقيقة بجلاء أكثر، إذا ما أستطاعت بوضوح أكثر من خلال التشابه والاختلاف أن تظهر انها هي نفسها ليست صورة الحقيقة». ولكن ان كان حب النار وحب الهاوية صورة من حب الرب، أيمكن ان يكونا صورة من حب الموت ومن حب الخطيئة؟ نعم، كما ان الأسد والثعبان هما في نفس الوقت صورة للمسيح وللشيطان. ذلك أن صحة التأويل لا يمكن أن تحددها إلا سلطة الآباء، وفي الحالة التي تضنيني ليست هناك سلطة يمكن أن يعود اليها ذهني الطائع، ويحرقني الشك (ومرّة أخرى تدخل صورة النار لتعني غياب الحقيقة واكتمال الخطأ الذين يذيبانني!) يا الهي، ماذا يحدث في نفسي، وقد أخذتني دوّامة الذكريات محدثة

في الآن نفسه انقلابا لأزمنة مختلفة كما لو كنت أعبث بنظام الكواكب وتعاقب حركتها السماوية؟ انني أتجاوز دون شك حدود فكري المذنب والمريض. هيّا، لنعد الى هذه المهمة المتواضعة التي تعهدت القيام بها. كنت أقص أحداث ذلك اليوم وعن الفقدان التام للاحاسيس الذي هويت فيه. هو ذاك، لقد قلت ما تذكرته عن ذلك الظرف، وليكتف بهذا القدر قلمي الضعيف الذي يروي الحقيقة بوفاء وإخلاص.

لا أدري كم من الوقت، بقيت مستلقيا، والفتاة الى جانبي. كانت يدها تواصل بحركة خفيفة لمس جسدي، الذي قد بلله العرق. وكنت أحس بنشوة داخلية، ولم يكن هدوءا، بل كان كاشتعال أخير وضعيف لنار تتباطأ في الانطفاء تحت الرماد بعد أن مات لهيبها. ولن أتردد في أن أسمي سعيدا من أمكنه أن يحس بشيء مماثل (كنت أهمس بذلك وكأني في المنام)، ولو نادرا، في هذه الحياة (وفعلا أحسست بذلك في تلك المرة فقط) وحسبه أن يكون خاطفا، أن يدوم لحظة واحدة. فكأن الوجود غاب، والاحساس بالنفس انمحى، فنشعر وكأننا انهرنا، وتحطمنا، ولو قدر لأحدهم (هكذا كنت أقول في نفسي) أن ينعم لحظة واحدة وبصفة خاطفة بما تنعمت به، فسينظر في الحال بعين السخط الى هذا العالم الفاسد، وسيثيره خبث الحياة اليومية، وسيحس بثقل جسم الموت... أليس ذلك ما علموني؟ تلك الدعوة التي كانت روحي كلها تنادي بها إلى نسيان كل شيء في الطوبى، كانت بالتأكيد (الآن أفهم ذلك) إشعاع الشمس الأزلية، والحبور الذي ينشأ منه، يفتح، ويبسط، ويعظم الانسان، والحلق الفاغر الذي يحمله الانسان في نفسه لن ينغلق بسهولة، انه الجرح الذي فتحه سيف الحب، وليس هناك شيء على هذه الأرض أعذب ولا أرهب. ولكن تلك هي سنّة الشمس، انها ترمي الجريح بأشعتها فتنفتح كل الجروح وينفتح الانسان ويتمدد، وعروقه نفسها تنفتح، ولا تعود قواه بوسعها أن تنفذ الأوامر التي تتلقاها ولكن تحركها الرغبة فقط، وتحترق النفس الهاوية في هوّة ما تلمسه الآن، وهي ترى رغبتها وحقيقتها قد تجاوزهما الواقع الذي عاشته والذي تعيشه. وتشاهد مذهولة ذوبانها.

وتحت وقع تلك الاحاسيس بمتعة داخلية لا توصف أخذني النعاس.

فتحت عيني وقد مرّ بعض الوقت، وكان ضياء الليل، وربما بسبب سحابة،

قد ضعف كثيرا. ومددت يدي إلى جانبي فلم ألمس جسد الفتاة. أدرت وجهي : لم تكن هناك.

وفجأة نبهني غياب الشيء الذي أهاج رغبتي وشفى عليلي إلى طيش تلك الرغبة وإلى ضلال ذلك العطش : «جميع الحيوانات كئيبة بعد الجماع» وأخذني الوعي بأنني قد أرتكبت خطيئة. الآن، بعد سنين وسنين، بينما أبكي بمرارة ذنبي، لا يمكنني أن أنسى أنني أحسست تلك الليلة بمتعة عظيمة وسأخطئ في حق العليّ الذي خلق كل شيء للخير وللجمال، لو أنكرت أنه، حتى في تلك القصة التي جمعت مذنبين، حدث شيء كان، في طبيعته، طيبا وجميلا. ولكن لعلها شيخوختي الحالية هي التي تجعلني أشعر، وأنا آثم في ذلك، بأن كل ما عشته في شبابي كان جميلا وصالحا. بينما ينبغي أن أوجه أفكاري نحو الموت الذي يقترب. آنذاك، وأنا شاب، لم أفكر في الموت، ولكنني بكيت خطيئتي بقوة وبصدق.

نهضت وأنا أرتعش، ذلك لأنني بقيت أيضا وقتا طويلا على أرضية المطبخ الباردة فتجمد جسدي. وارتديت ثيابي وكأنني محموم. ورأيت إذاك، في احدى الزوايا، اللفافة التي تركتها الفتاة أثناء فرارها. فانحنيت لافحصها : كانت لفافة من الكتان، ربما متأتية من المطابخ. ففتحتها، ولأول وهلة لم أفهم ماذا كان بداخلها، وذلك لقلة النور وللشيء العديم الشكل الذي كانت تحتويه. ثم فهمت: وسط الدم المتجمد وقطع لحم أكثر طراوة وبياضا، كان يوجد أمام عينيّ، ميتا ولكنه لا يزال نابضا بالحياة اللزجة للأحشاء الميتة، قلب كبير الحجم، تخدّده تعاريق ممتقعة.

وسقط على عيني حجاب أسود وامتلأ فمي ببريق مرّ، ثم أطلقت صيحة وسقطت كما تسقط الجثة الهامدة.

اليوم الثالث

ليـــلاً

وفـيـه يـعـتـرف أدسو، وهـو فـريـسـة لـلاضـطـراب، الـى غـولـيـالمو بخطيئته ثم يفكر في دور المرأة في رسم الكون، ولكنه يكتشف بعد ذلك جثة رجل.

استفقت وأنا أشعر بشخص يبلّل وجهي. كان غوليالمو الذي حمل معه سراجا ووضع شيئا تحت رأسي. ثم سألني «ماذا حدث لك يا أدسو، حتى تطوف أثناء الليل في المطبخ لسرقة بعض أسلاب الحيوانات؟».

بايجاز، كان غوليالمو قد استيقظ وبحث عني لا أدري لأيّ سبب. ولما لم يجدني فكر انني ربما أكون ذهبت لامتحان جسارتي في المكتبة. وبينما كان يقترب من الصرح رأى شبحا يخرج من الباب متجها نحو المبقلة (كانت الفتاة وهي بصدد الفرار، ربما لأنها سمعت أحدا يقترب). فحاول أن يعرف من يكون وأنْ يتبعه ولكنه (أي ذلك الذي كان بالنسبة اليه شبحا) ابتعد نحو السور الخارجي واختفى. عندئذ، وبعد أن قام بجولة استطلاعية في الأماكن المحيطة، دخل غوليالمو الى المطبخ وهنالك وجدني فاقد الحسّ.

وعندما أشرت، وأنا لا أزال مروّعا، الى اللفافة التي تحمل القلب، مغمغما انها جريمة جديدة، أخذ يضحك قائلا: «أي انسان، يا أدسو يمكن أن يكون له قلب بذلك الحجم؟ انه قلب بقرة، أو ثور. لقد ذبحوا اليوم بالذات بعض الحيوانات! بل قل لي، ماذا يفعل بين يديك»؟

عند ذلك الحد، وقد طغى علي الندم، اضافة الى الرعب الذي تملكني، انفجرت باكيا وطلبت منه أن يمنحني سرّ الاعتراف. وهذا ما فعل، فقصصت عليه كل ما حدث ولم أخف عنه شيئا.

وأصغى إليّ الاخ غوليالمو بجدية كبيرة، ولكن مع شيء من التسامح وعندما

انتهيت بدت على وجهه الصرامة وقال لي «أدسو، لقد أرتكبت خطيئة، هذا أكيد، في حقّ الوصية التي تلزمك بعدم الزنى، وفي حق واجباتك كمبتدئ. وما يمهد لك العذر هو انك وجدت نفسك في احدى تلك الحالات التي يضلّ فيها حتى أب في الصحراء. أما حول المرأة كمنبع للاغراء فقد تحدثت الكتابات المقدسة عن ذلك بما فيه الكفاية. وعن المرأة يقول سفر الجامعة إن حديثها كالنار الملتهبة، وتقول الأمثال إنها تستحوذ على أرواح الرجال النفيسة وإن أقواهم قد هلكوا بسببها. ويقول سفر الجامعة أيضا : أكتشفت أن ما أمرّ من الموت إلاّ المرأة، فهي كشرك الصيادين، قلبها كالشبكة ويداها كالحبال. وقال آخرون انها مركب للشيطان. بعد هذا التوضيح، يا عزيزي أدسو، لا أستطيع أن أقنع نفسي بان الاله أراد أن يدخل في الكون مخلوقا بتلك النجاسة دون أن يهبه بعض الخصال. ولا يمكنني عدم التفكير في أنه منحها امتيازات عديدة ودواعي للفخر، منها على الاقل ثلاثة كبرى. وفعلا، قد خلق الرجل في هذا العالم الدنيئ، من الطين وخلق المرأة في وقت لاحق، في الجنة ومن مادة انسانية نبيلة. ولم يخلقها من قدمي آدم أو من أحشائه، بل من الضلع. ثانيا كان يمكن للاله، الذي يقدر على كل شيء أن يتجسّد مباشرة في صورة رجل، بطريقة من الطرق المعجزة، ولكنه اختار أن يسكن في بطن امرأة، وهذا يدل على انها ليست بالنجاسة التي تُنسب اليها. وعندما بعث بعد الموت ظهر لامرأة. وأخيرا، في المملكة السماوية لن يكون أي من الرجال ملكا، وستكون ملكة امرأة لم ترتكب أبدا خطيئة، فاذا ما أولى الاله كل تلك العناية بحواء نفسها وبيناتها، أيكون غير طبيعي أن نحس في أنفسنا نحن جاذبية نحو حسن ذلك الجنس ونبله؟ ان ما أريد أن أقوله لك يا أدسو، هو أنه لا ينبغي، دون شك، أن تكرر فعل ذلك، ولكن ليس شنيعا الى هذه الدرجة أن تكون رغبت في فعله. ومن جهة أخرى، أن يجرّب راهب على الأقل مرّة في حياته العشق الجسدي، بحيث يمكنه فيما بعد أن يكون متسامحا ومتفهما مع المذنبين الذين سينصحهم وسيطمئنهم... هو إذن، يا عزيزي أدسو شيء يحسن أن لا نتمناه قبل وقوعه، ولكنه اذا ما وقع لا يستحقّ هذا التشنيع الكبير. اذن، اذهب وليكن الله معك وكفى حديثا في هذا. ولكن الأجدر، وحتى لا نطيل التفكير في أمر من الأفضل أن ننساه، ان أمكنك ذلك، ـ وبدا لي عند ذلك الحد أن صوته ضعف كما لو كان مضطربا داخليا ـ لنتساءل بالأحرى عن

معنى ما حدث هذه الليلة. من هي تلك الفتاة ومع من كانت على موعد؟

فقلت : هذا حقيقة ما لا أعرفه، ولم أر الرجل الذي كان معها.

ـ حسناً، ولكن يمكننا أن نستنتج من هو من خلال الكثير من الأدلة القاطعة. قبل كل شيء هو رجل دميم ومسنّ، لا تعاشره الفتاة عن طيب خاطر، خاصة ان كانت جميلة كما تقول، ولو أنه يبدو لي أيها الذئب الصغير، انك تستلذّ كل طعام.

ـ لماذا دميم ومسن؟

ـ لأن الفتاة تعاشره لا عن كلف به، ولكن مقابل لفافة من الكلي. من المؤكد انها فتاة من القرية تتاجر بجسدها، ربما ليس للمرة الاولى، مع بعض الرهبان الفاسقين يدفعها الى ذلك الجوع، وكمقابل تتلقى بعض الأكل لها ولعائلتها.

فقلت بجزع : عاهرة؟

ـ فلاحة فقيرة، يا أدسو. ربما لها أخوة يحتاجون الى طعام. ولو أمكنها لمنحت نفسها من أجل الحبّ لا من أجل الربح. كما فعلت هذا المساء. ولقد قلت لي فعلا انها وجدتك حديث السن جميلا، وأعطتك مجانا وحُبّاً بك، ما تعطيه لآخرين مقابل قلب ثور أو قطعة رئة. وأحسّت بنفسها عفيفة ومرتاحة لأنها جادت بنفسها، حتى أنها هربت دون أن تأخذ شيئا مقابل ذلك. لذا أظن أن الشخص الآخر الذي قارنتك به ليس حديث السنّ ولا جميلا.

أعترف، رغم قوة توبتي، ان ذلك الشرح ملأني اعتزازا عذبا للغاية، ولكنني بقيت صامتا وتركت أستاذي يواصل حديثه.

ـ لا بدّ أن هذا الشيخ الفاسد والدميم بامكانه النزول الى القرية والاتصال بالفلاحين، لأسباب لها صلة بمهامه. انه يعرف طريقة لادخال وإخراج أشخاص من أسوار الدير، ويعرف أنه في المطبخ توجد تلك الأسلاب (ولو سئل غدا عن اختفائها لقال ان الباب بقي مفتوحا وان كلبا دخل وأكلها). وأخيرا، هذا الرجل مقتصد شيئا ما، ويهمّه أن لا يحرم المطبخ من مأكولاته النفيسة، وإلاّ لاعطاها شريحة من اللحم أو قطعة أخرى طيبة. واذن ترى أن صورة رجلنا المجهول تتضح بكلّ جلاء وان كلّ تلك الصفات، أو العوارض، تتلاءم ومادة لا أخشى أن أعرفها بقيّم ديرنا، ريميجيو دا فاراجيني. أو لو أخطأت، بصاحبنا الغامض سلفاتوري. الذي هو أصيل هذه الجهات ويتكلم جيدا مع أهل هذا المكان

ويعرف كيف يقنع فتاة بأن تفعل ما يريده، لو لم تأت أنت.

فقلت باقتناع : لا بد أن يكون الأمر كذلك، ولكن ما تنفعنا الآن معرفة ذلك؟.

فقال غوليالمو : بلا شيء، وبكل شيء. قد تكون لهذه القصة علاقة، أو قد لا تكون لها علاقة بالجرائم التي نهتم بها. ومن جهة أخرى، اذا ما كان القيم في السابق من اتباع دولتشينو، فهذا يفسر ذلك والعكس بالعكس. ونعرف أخيرا ان هذا الدير يصبح في الليل ساحة لأعمال صعلوكية كثيرة. ومن يدري ان لم يكن القيم، أو سلفاتوري، اللذان يطوفان في الظلام بهذه السهولة، يعرفان أشياء أكثر ممّا يقولان.

ـ ولكن هل يخبراننا بها نحن؟

ـ كلا، اذا ما عاملناهم بشفقة، متجاهلين ما ارتكباه من آثام. ولكن لو أردنا فعلا أن نعرف شيئا، ستكون لدينا وسيلة لاقناعهما بالاعتراف. بعبارات أخرى، ان لزم، فالقيم وسلفاتوري تحت رحمتنا، وسيغفر لنا الاله زيغنا عن الحق، بما أنه يغفر أشياء كثيرة أخرى ـ قال ذلك ونظر إليّ بخبث، ولم أجد الجرأة على ابداء ملاحظات حول استقامة نواياه.

ـ والآن ينبغي ان نذهب للنوم، لأن صلاة أول الصبح ستدقّ بعد ساعة. ولكنني أراك لا تزال مضطربا أيها المسكين، وخائفا من الخطيئة التي ارتكبتها. . . لا شيء أفضل لانشراح النفس من وقفة في الكنيسة. لقد منحتك الغفران ولكن من يدري، اذهب واطلب مصادقة الرب.

وحرّضني بضربة من كفّه على رأسي، قوية شيئا ما، ربما كدليل على حبّه الأبوي والرجولي، أو كعقاب حليم، أو (كما خطر ببالي الآثم في تلك اللحظة) لشيء من الغيرة الصادرة عن رجل مثله متشوق لتجارب جديدة وقوية.

واتجهنا نحو الكنيسة، خارجين من طريقنا المعتاد الذي عبرته بسرعة، مغمض العينين، لأن رؤية تلك العظام كانت تذكرني بوضوح جليّ، في تلك الليلة بانني أنا أيضا تراب، وكم كان جنونيا ذلك الذي أحسست به من اعتزاز بجمالي.

عندما وصلنا الى صحن الكنيسة رأينا شبحا أمام المذبح الأكبر. ظننته من جديد أوبارتينو. ولكنه كان أليناردو، الذي لم يتعرف علينا في البداية. ثم قال انه أصبح لا يقدر على النوم، فقرّر ان يقضي ليلته في الصلاة من أجل ذلك الراهب

الشاب المفقود (ولم يكن يذكر حتى اسمه). كان يصلي على روحه ان كان قد مات، وعلى جسده ان كان مصابا ووحيدا في مكان ما. ثم قال «أموات كثيرون... أموات كثيرون... ولكن كان كلّ ذلك مكتوبا في كتاب الحواري. عندما يُنفخ في البوق الأول يسقط البرد، ومع البوق الثاني يصبح ثلج البحر دما، وقد وجدتم الأول في الثلج والثاني في الدم... وينبئ البوق الثالث ان كان كوكبا متّقدا سوف يسقط على ثلث الأنهار وعلى ينابيع المياه. هكذا أقول لكما. لقد فقدنا أخانا الثالث وخافوا مصير الرابع، لأنه سوف يُضرب ثلث الشمس وثلث القمر وثلث النجوم، حتى يوشك الظلام أن يصبح تامّا...»

وبينما كنّا خارجين من الجناح، تساءل غوليالمو ان لم يكن في كلمات الشيخ بعض الصحّة.

فلفت انتباهه قائلا : ولكن ذلك يعني ان عقلا شيطانيا واحدا، مستعملا سفر الرؤيا دليلا يتبعه، هو الذي هيأ الجرائم الثلاث اذا ما افترضنا ان برينغاريو أيضا قد مات. بينما نعرف أن موت أدالمو كان ناتجا عن ارادته...

فقال غوليالمو : هذا صحيح، ولكن نفس هذا العقل الشيطاني أو المريض، يمكن أن يكون قد ألهمه موت أدالمو فهيأ رمزيا الجريمتين الأخريين. واذا ما كان الأمر هكذا، فيمكن أن يكون برينغاريو الآن غارقا في نهر أو في عين ماء. ولا توجد في الدير أنهار ولا عيون، أو على الأقل ليس بالحجم الذي يمكن أن يغرق فيه شخص، أو أن يغرقوه فيه...

فقلت ملاحظا، دون مبالاة : هنا توجد فقط حمّامات.

ـ أدسو، أتعرف أن هذه يمكن أن تكون فكرة؟ الحمّامات!

ـ ولكنهم قد فتشوا فيها...

ـ لقد رأيت الخدم هذا الصباح بينما كانوا يفتشون، لقد فتحوا باب الحمّامات وألقوا نظرة حواليها، دون تفتيش، لأنهم لم يتصوروا بعد أنه يجب البحث عن شيء مخفي جيدا، كانوا ينتظرون أن يجدوا جثة ملقاة بصفة مسرحية في مكان ما، كما وجدوا جثة فينانسيو في الجرّة هيّا نلق نظرة، فالظلام لا يزال حالكا وسراجنا يشتعل نقوّة.

وهكذا كان العمل، وفتحنا دون عناء باب مبنى الحمّامات، خلف المستشفى. كانت أستار عريضة تحجب الأحواض أحدها عن الآخر، ولا أدري كم كان

عدد تلك الأحواض. وكان الرهبان يستعملونها للاغتسال، عندما يحدد نظام الدير اليوم المخصص لذلك، ويستعملها سفيرينو لأغراض علاجية. لأن لا شيء يهدئ الجسم والعقل كالحمّام وفي ركن كانت هناك مدفأة لتسخين الماء بسهولة. ووجدناها وسخة برماد جديد بينما كان يوجد أمامها سخّان مقلوب. وكان الماء يستمدّ من حنفية موجودة في أحد الأركان.

ألقينا نظرة على الأحواض الأولى التي كانت فارغة، إلاّ الحوض الأخير يحجبه ستار قد سحب، وكان مليئا وبجانبه كومة من الثياب. كان سطح الماء يبدو، لأول وهلة وتحت نور سراجنا، هادئا. ولكن عندما سقط فوقه النور رأينا في قاع الحوض جسم انسان، عاريا ودون حياة. فجذبناه خارج الحوض بأناة: كان برينغاريو. وقال غوليالمو: «هذا، له حقيقة وجه غريق». كانت ملامح وجهه منتفخة. وكان جسده أبيض مرتخيا، وخاليا من الشعر، شبيها بجسد امرأة، لولا منظر الخصيتين القبيحتين والمتدليتين. فاحمرّ وجهي واقشعرّ بدني. ورسمت علامة الصليب بينما كان غوليالمو يبارك الجثة.

اليوم الرّابع

صَلاةُ الحَـمد

وفيه يفحص غوليالمو وسفيرينو جثة برينغاريو، ويكتشفان ان لسانه أسود، وهو أمر غريب بالنسبة الى غريق. ثم يتحادثان عن سموم فتاكة وعن سرقة وقعت في ماض بعيد

لن أطيل في ذكر كيف أخبرنا رئيس الدير وكيف استفاق كلّ الدير قبل الساعة الكنسية، ولن أحكي عن صيحات الهول، وعن علامات الفزع والألم التي كانت تقرأ على كلّ الوجوه، وكيف انتشر الخبر ليصل الى أهل الوادي، وعن الخدم الذين كانوا يرسمون علامة الصليب ويستعيذون. لا أدري اذا ما كان الفرض الأول في ذلك الصباح قد أقيم حسب ما تمليه القاعدة، ولا من حضره. لأني تبعت غوليالمو وسفيرينو اللذين لفّا جسد برينغاريو وأمرا أن يمدّد فوق طاولة بالمستشفى.

وبعد ان ابتعد رئيس الدير والرهبان الآخرون أخذ العشّاب وأستاذي في فحص مطول للجثة، ببرودة دم رجال الطب.

وقال سفيرينو: «لقد مات غريقا، ليس في ذلك شكّ، فهو منتفخ الوجه، مشدود البطن...».

فلاحظ غوليالمو: «ولكنه لم يغرق بفعل آخرين وإلاّ لتمرد على عنف قاتله، ولوجدنا آثارا للماء حول الحوض. ولكن على العكس، كان كلّ شيء مرتبا ونظيفا، كما لو سخن برينغاريو الماء، وملأ الحوض وغطس فيه من تلقاء نفسه».

فأجاب سفيرينو: «انني لا أستغرب ذلك. فقد كان برينغاريو يشكو أحيانا من التشنج، وقلت له بنفسي مرارا إن حماما دافئا يُهدِّئ من اضطراب الجسم والعقل وطلب مني عدة مرات أن أسمح له بالدخول إلى الحمامات. ويمكن أن يكون فعل ذلك هذه الليلة أيضا...»

فأبدى غوليالمو ملاحظة : «تلك الليلة، لأن هذا الجسد ـ كما ترى ـ قضى في الماء على الأقل يوما. . .»

فأيده سفيرينو قائلا : «يمكن أن يكون في الليلة السابقة». وأعلمه غوليالمو جزئيا بأحداث الليلة الفارطة. لم يقل له اننا دخلنا خفية الى قاعة الكتابة ولكن قال له، مخفيا عنه عدة تفاصيل، اننا لاحقنا شبحا غامضا سرق منا كتابا. وفهم سفيرينو ان غوليالمو كان يقول له فقط جزءا من الحقيقة، ولكنه لم يلق أسئلة أخرى. وقال ان ارتباك برينغاريو، ان كان هو السارق المجهول، يمكن أن يكون دفعه للبحث عن بعض الهدوء من خلال حمّام مهدئ. وأضاف ملاحظا أن برينغاريو كان ذا طبيعة حسّاسة جدا، أحيانا تكفي بعض الخلافات أو بعض الانفعال لتثير فيه ارتعاشات وعرقاً باردا، وتزُوغ عيناه ثم يسقط على الأرض والزبد يخرج من فمه.

فقال غوليالمو : «على كلّ حال، قبل أن يأتي إلى هنا ذهب إلى مكان آخر، لأنني لم أر في الحمام الكتاب الذي سرقه».

فأيدت كلامه بشيء من الاعتزاز «صحيح، لقد رفعت ثوبه الملقى قرب الحوض ولم أجد أثرا لشيء ذي حجم».

فابتسم لي غوليالمو قائلا : «أحسنت. اذن قد ذهب إلى مكان آخر، ثم لنفترض أنه لتهدئة اضطرابه، وربما للافلات من متابعتنا، انسلّ داخل الحمّام وغطس في الماء. أتظن، سفيرينو، ان الداء الذي كان يصيبه كاف ليفقده الحواس ويغرقه؟»

فأجاب سفيرينو مرتابا : «كلاّ. أرأيت أبدا قتيلا يخلع ثيابه قبل أن يغرقوه؟»

فهزّ سفيرينو رأسه، كما لو كانت تلك الحجة قد فقدت كلّ معانيها. وكان منذ برهة يفحص يدي القتيل، ثم قال : «انه شيء غريب. . .»

ـ ماذا؟

ـ لقد فحصت في اليوم الفارط يدي فينانسيو، بعد أن نظفت الجثة من الدم، ولاحظت شيئا لم أولِهِ اذاك أهمية كبيرة. كانا طرفا اصبعين من يدي فينانسيو اليمنى سوداوين، كأنهما سوّدا بمادة قاتمة. هكذا بالضبط، انظر. مثل طرفي اصبعي برينغاريو الآن. بل وأكثر، نجد هنا بعض الأثر على اصبع ثالث. عندئذ ذهب بي الظن الى أن فينانسيو كان قد لمس بعض الحبر في قاعة الكتابة. . .

فقال غوليالمو متأملا : «هامّ جدا، ـ ثم اقترب لينظر من قريب إلى أصابع برينغاريو. كان الفجر قد أخذ يطلع والنور بالداخل كان لا يزال ضعيفا ومن الواضح أن أستاذي كان يعاني من فقدان عدستيه. وردّد قائلا «هام جدّا. السبابة والابهام مسودان على مستوى الأنملين، والوسطى من الداخل، أقل سوادا. ولكن هناك آثارا أضعف على اليد اليسرى أيضا، على الأقلّ فوق السبابة والابهام. ـ لو كانت فقط اليمنى، لكانت أصابع من يقبض شيئا صغير الحجم، أو شيئا طويلا ونحيفا. . .

ـ كمرقم، أو طعام أو حشرة. أو ثعبان. أو معرض القربان المقدس. أو عصا. أشياء عديدة. ولكن اذا كانت هناك آثارا على اليد الأخرى يمكن أن يكون كأسا، تشدّه اليمنى بقوة وتشارك اليسرى بجهد أقل. . .

فأخذ عندئذ سفيرينو يفرك بخفة أصابع الميت ولكن اللون القاتم لم ينمح. ولاحظت أنه لبس قفازا، ربما كان يستعمله عندما يجب عليه أن يلمس بعض المواد السامة. وأخذ يشتم الأصابع دون أن يستنتج أي احساس، ثم قال : «يمكنني أن أذكر لك عدة مواد نباتية (وأيضا معدنية) تترك آثارا من هذا النوع. بعضها قاتل والآخر لا. فأصابع المنمنمين تكون أحيانا وسخة بمسحوق الذهب. . .»

فقال غوليالمو «كان أدالمو منمنما. وأتصور أنه أمام جسده المهشّم لم يخطر ببالك أن تفحص أصابعه. ولكن الآخرين قد يكونان لمسا شيئا كان في السابق لادالمو».

فأجاب سفيرينو «هذا حقيقة ما لا أعرفه. ميّتان، والاثنان أصابعهما سوداء، ماذا تستنتج؟»

ـ لا أستنتج شيئا. لا يمكن الخروج باستنتاج انطلاقا من خصوصيات من نفس الطبيعة. يجب أن نعيد كلتا الحالتين الى قاعدة واحدة. مثلا : توجد مادة تسوّد أصابع من يلمسها. . .

فأكملت القياس المنطقي بظفر «فينانسيو وبرينغاريو أصابعهما سوداء، إذن قد لمسا تلك المادة!»

فقال غوليالمو : «حسن يا أدسو، ولكن قياسك ليس صحيحا، لأن الحدث الذي يقع مرّة أو يتكرر حدوثه لا يفضي بالضرورة إلى قاعدة عامّة، وفي هذا

القياس لا يظهر الحدّ الأوسط أبدا في مظهر حقيقة عامة. وهذا يدلّ على اننا لم نحسن اختيار المقدمة الكبرى. كان ينبغي أن لا أقول : كلّ من يلمس مادة ما له أصابع سوداء، لأنه يمكن أن يكون هناك أشخاص لهم أصابع سوداء ولم يلمسوا تلك المادة. كان ينبغي أن أقول : «كل الذين وفقط كل الذين لهم أصابع مسودة قد لمسوا بالتأكيد مادة ما. فينانسيو وبرينغاريو الى آخره. وهذا ما يعطينا «Darii» وهو قياس ثالث يمتاز عن الشكل الأول»

فقلت بفرح كبير : «اذن لدينا الجواب!»

ـ للأسف يا أدسو، كم تؤمن أنت بالقياسات المنطقية! لدينا فقط ومن جديد السؤال. لنفترض أن فينانسيو وبرينغاريو قد لمسا نفس الشيء، وهذا افتراض دون شك معقول. ولكن بعد أن تصورنا وجود مادة، وحيدة من بين كل المواد، تعطي هذه النتيجة (وهذا لا يزال يستوجب التحقيق) فنحن لا نعرف ما هي وأين وجداها ولماذا لمساها. واحترس جيدا، نحن لا نعرف حتى ان كانت تلك المادة التي لمساها، هي التي أودت بهما. تصوّر ان مجنونا يريد أن يقتل كلّ من يلمس مسحوق الذهب. أتقول ان مسحوق الذهب هو الذي يقتل؟

بقيت مرتبكا. لقد كنت دائما أظن أن المنطق سلاح شامل، والآن أتفطن الى أن صلاحيته تتوقف على الطريقة التي يستعمل بها. ومن جهة أخرى، وبمخالطة أستاذي تفطنت، وتفطنت أكثر في الأيام الموالية، الى أن المنطق يمكن أن يصلح في كثير من الحالات على شرط أن ندخل اليه وأن نخرج منه بعد ذلك.

وفي الأثناء كان سفيرينو، الذي لم يكن بكل تأكيد منطقيا كبيرا يفكر حسب تجربته الخاصّة «ان عالم السموم متنوع كتنوع أسرار الطبيعة»، قال ذلك وأشار الى مجموعة من الأوعية والقناني كنا قد تأملناها سابقا باعجاب مرتبة أحسن ترتيب فوق الرفوف على طول الجدران، مع كثير من الكتب وأضاف قوله : «كما كنت قد ذكرت لك، إن الكثير من هذه الأعشاب، مخلوطة كما ينبغي وبأقساط، يمكن أن تعطي مشروبات وأدهانا قاتلة. هناك مثلا، الداتورة وستّ الحسن والشوكران : يمكنها أن تحدث استرخاء أو هيجانا، أو الاثنين معا. عندما تستعمل بحذر يمكن أن تكون أدوية نافعة جدا، وبمقادير مفرطة تؤدي الى الموت. وهناك، فول القديس اينياتسو والانغتورة وجوزة القئ وهي قادرة على قطع النفس.

ـ ولكن لا تترك أية واحدة منها آثارا على الأصابع؟

ـ كلاّ، على ما أظن. ثم هناك مواد تصبح خطرة فقط عندما تبتلع، وأخرى على العكس، تؤثر على الجلد. الخربق الأبيض يثير القيء عند من يمسكه ليقتلعه من الأرض. وهناك نوع من البغونيات عندما تزهر تحدث نشوة عند الجنّائنيين الذين يلمسونها، كما لو شربوا خمرا. والخربق الأسود، عند لمسه فقط يحدث الاسهال. ونباتات أخرى تحدث خفقانا للقلب، وأخرى للرأس، وأخرى أيضا تفقد الصوت. وسمّ الأفعى، على العكس، عند دلك الجلد به دون وصوله إلى الدم، يحدث التهابا خفيفا فقط. . . ولكنني رأيت مرّة خليطا، عندما يلصق في المنطقة الداخلية من فخذي الكلب، قريبا من الأعضاء التناسلية، يؤدي بالحيوان إلى الموت في وقت قصير وسط تشنجات فظيعة بينما تتصلب الأعضاء شيئا فشيئا. . .»

فقال غوليالمو : «إنك تعرف أشياء كثيرة عن السموم»، وقال ذلك بصوت كانت تبدو فيه نبرة إعجاب. فحدّق فيه سفيرينو وقاوم نظرات غوليالمو لبضع لحظات ثم قال : «إنني أعرف ما ينبغي أن يعرفه طبيب أو عشّاب أو من يتعاطى علم الصحة الانسانية».

وبقي غوليالمو وقتا طويلا غارقا في التفكير ثم رجا سفيرينو ان يفتح فم الميت، وأن يفحص لسانه. وبدافع حب الاطّلاع أخذ سفيرينو مبسّطا نحيفا، وهو إحدى الأدوات التي يستعملها في فنّه الطبي، ونفذ ما أراده غوليالمو. ثم أطلق صيحة استغراب : «اللسان أسود!».

فهمس غوليالمو «هذا هو إذن. لقد أمسك شيئا بأصابعه وابتلعه. . . وهذا يلغي إمكانية استعمال السموم التي ذكرتها، وتلك التي تقتل بنفاذها عبر الجلد. ولكن هذا لا يسهل استقراءاتنا لأنه ينبغي علينا الآن أن نتصور بالنسبة إليه وبالنسبة إلى فينانسيو، انها بادرة تلقائية، غير عفوية، وغير ناتجة عن غفلة أو عن عدم احتياط، أو ناتجة عن تعنيف. لقد أمسكا بشيء وحملاه إلى فمهما وهما يعلمان ماذا كانا يفعلان. . .

ـ أيكون طعاما؟ أم شرابا؟

ـ ربما. أو ربما. . لا أدري، آلة موسيقية، نايا مثلا. . .

فقال سفيرينو «مستحيل»

ـ أكيد مستحيل. ولكن لا ينبغي أن نهمل أي افتراض، مهما كان غريبا. ولكن لنحاول الآن أن نتعرف على المادة السامة. لو دخل إلى هنا أحد له درايتك بالسموم واستعمل البعض من أعشابك، أيمكنه أن يصنع مرهما قاتلا يمكن أن يترك تلك العلامات على الأصابع وعلى اللسان؟ يمكن وضعه في طعام، أو في شراب، أو ملعقة، أو فوق شيء يمكن حمله إلى الفم؟

فوافقه سفيرينو قائلا «نعم، ولكن من؟ ثم، حتى ولو قبلنا هذا الافتراض، كيف أمكنه أن يسقي السمّ إلى زميلينا التعيسين؟»

وبصراحة لم أكن أتصوّر أنا أيضا، فينانسيو أو برينغاريو يقبلان أن يقترب منهما أحد مادا إليهما مادة مجهولة ومقنعا إياهما بأكلها أو بشربها. ولكن غوليالمو لم يكن يبدو مستغربا من ذلك وقال: «سنفكر في ذلك فيما بعد، لأنني أودّ منك حاليا أن تحاول تذكر حدث لم يعد إلى الآن إلى ذهنك، لا أدري، أحد ألقى عليك الأسئلة عن أعشابك، أحد يدخل بسهولة إلى المستشفى..»

فقال سفيرينو: «انتظر لحظة، منذ وقت طويل، أعني سنوات، كنت أحتفظ على أحد تلك الرفوف بمادة عظيمة الفعالية، أعطاني أياها زميل قام بأسفار إلى بلدان بعيدة. لم يكن يعرف ممّا كانت متكونة، دون شك من أعشاب، ولم تكن كلها معروفة. كانت في هيئتها لزجة ويميل لونها إلى الأصفر، ولكنه نصحني بأن لا ألمسها، لأنها لو لمست فقط شفتي لقتلتني في وقت وجيز. وقد قال لي ذلك الزميل إنها لو ابتلعت ولو بمقدار طفيف جدا، فهي تحدث في ظرف نصف ساعة احساسا بفتور كبير، يتبعه شلل بطيء لكل الأعضاء وأخيرا الموت. لم يكن يريد أخذها معه وأهداني إيّاها. واحتفظت بها مدة طويلة، إذ وعدت نفسي بأن أفحصها بحال من الأحوال. وفي يوم من الأيام قامت على المرتفع عاصفة كبيرة. وكان أحد مساعدي، وهو راهب مبتدئ قد ترك باب المستشفى مفتوحا فقلبت الزوبعة هذه القاعة التي نحن فيها رأسا على عقب. قنّاني محطمة، وسوائل على الأرض، وأعشاب ومساحيق منتشرة. وعملت يوما كاملا لاعادة ترتيب حوائجي.. ولم أستعن بأحد إلا لكنس الشظايا والأعشاب التي أصبحت غير صالحة. وفي الآخر تفطنت إلى غياب تلك القارورة بالذات التي حدثتك عنها. وانشغلت في بداية الأمر ثم اقتنعت أنها انكسرت واختلطت بالبقايا الأخرى. فغسلت جيدا أرضية المستشفى، والرفوف...

ـ وهل كنت قد رأيت القنينة قبل قيام الزوبعة ببضع ساعات؟

ـ نعم، . . أو بالأحرى لا، الآن تذكرت. كانت وراء مجموعة من الأوعية، مخفية جيدا، ولم أكن أراقبها كلّ يوم . .

ـ إذن، حسب علمك، يمكن أن تكون سرقت قبل الزوبعة بمدّة طويلة، دون أن تتفطن إلى ذلك؟

ـ الآن وقد نبهتني إلى ذلك، نعم، دون شكّ.

ـ وذلك المبتدئ مساعدك، يمكن أن يكون أخذها ثم أنتهز فرصة الزوبعة لترك الباب مفتوحا وإدخال الفوضى بين حوائجك.

فبدا سفيرينو كثير التهيج وقال «أكيد، نعم. ليس ذلك فقط، ولكن عند تذكري لما حدث استغربت كثيرا كيف أمكن للزوبعة، مهما كانت قوية، أن تكون قلبت كل تلك الأشياء. يمكنني جيّدا أن أقول إن أحدهم انتهز فرصة الزوبعة لإحداث الفوضى في القاعة وإحداث خسائر أكثر ممّا تقدر على فعله الريح!

ـ من كان ذلك المبتدئ؟

ـ كان يسمّى أغوسطينو. ولكنه مات السنة الفارطة، لما سقط من الدعائم التي كان يعمل فوقها مع رهبان آخرين ومع بعض الخدم لتنظيف نقوش واجهة الكنيسة. ثم، أذكر الآن أنه أقسم أغلظ الايمان أنه لم يترك الباب مفتوحا قبل الزوبعة. لقد كنت أنا، في شدة غضبي، أعتبره مسؤولا عمّا حدث. ربما كان حقيقة بريئاً.

ـ وهكذا يصبح لدينا شخص ثالث، ربّما يفوق بكثير راهبك المبتدئ علما وتجربة، ويعرف قصة السم الذي تحتفظ به. إلى من تحدثت بذلك؟

ـ هذا مما لا أذكره بالضبط. إلى رئيس الدير، دون شك، عندما طلبت منه الاذن بالاحتفاظ بتلك المادة الخطرة. وإلى شخص آخر، ربّما في المكتبة، لأنني كنت أبحث عن بعض كتب أعشاب لعلها تكشف لي شيئا.

ـ ولكن ألم تقل لي أنك تحتفظ بالكتب التي تحتاجها لممارسة عملك؟

ـ نعم، والكثير ـ ثم أشار إلى ركن من القاعة به رفوف محمّلة بعشرات المجلدات ـ ولكني كنت إذاك أبحث عن بعض الكتب التي لم يكن بإمكاني الاحتفاظ بها عندي، والتي كان ملاخي غير مستعد لأن يريني إياها حتى أني التجأت إلى رئيس الدير ـ ثم خفض صوته وكأنه يتحرز من أن أسمعه أنا أيضا ـ

أتعرف أنه، في مكان خفي من المكتبة توجد أيضا كتب عرافة وسحر، ووصفات لمشروبات شيطانية. لقد تمكنت من مراجعة البعض من تلك المؤلفات، لواجب المعرفة، مؤملا أن أجد وصفا لذلك السم ولاستعمالاته، دون جدوى.

ـ إذن تحدثت في ذلك مع ملاخي؟

ـ أكيد، دون شك معه، وربما أيضا مع برينغاريو نفسه الذي كان يساعده. ولكن لا تتسرع في استنتاجاتك. لا أذكر، ربما كان هناك رهبان آخرون عندما تحدثت في ذلك، أنت تعرف أن قاعة الكتابة تكون في بعض الأوقات مكتظة..

ـ إنني لا أتهم أحدا. أريد فقط أن أفهم ماذا يمكن أن يكون قد حدث. على كل حال أنت قلت إن كل هذا وقع منذ سنين طويلة، ومن الغريب أن يسرق أحد سمّا ليستعمله بعد وقت طويل. فلن يدلّ ذلك إلاّ على إرادة شيطانية أضمرت في الخفاء ومنذ وقت طويل نية القتل». فرسم سفيرينو علامة الصليب وقد بدت على وجهه علامات الفزع وقال «ليغفر لنا الرب جميعا!».

ولم تعد هناك أشياء أخرى يمكن قولها، فغطينا جثة برينغاريو، التي كان ينبغي أن تهيأ للجنازة.

اليَوم الرّابع

أولـــى

وفيه يستدرج غوليالمو سلفاتوري أوّلا ثم القيّم الى الاعتراف بماضيهما، ويعثر سفيرينو على العدستين المسروقتين ويأتي نيكولا باخريين جديدتين. ويمضي غوليالمو بستّ أعين لفكّ رموز مخطوط فينانسيو.

كنا نتأهب للخروج عندما دخل ملاخي، وبدا متضايقا من حضورنا وتأهب للعودة على أعقابه. فرآه سفيرينو من الداخل وسأله: «أتبحث عني؟ في ما يخص...» ثم توقف عن الكلام ناظرا الينا، بينما أومأ اليه ملاخي بإشارة تكاد لا تبين، كمن يقول: «سنتحدث عن ذلك فيما بعد...». كنا بصدد الخروج وكان هو داخلا وتعارضنا كلنا في فتحة الباب فقال ملاخي، وقد غلب عليه التردد: «كنت أبحث عن العشّاب... انني... انني أحسّ بصداع.»

فقال غوليالمو بنبرة تفهم واشفاق: «قد يكون من جراء هواء المكتبة المغلق. عليك بالتبخير.»

فحرّك ملاخي شفتيه كمن يريد أن يضيف شيئا ثم عدل عن ذلك واحنى رأسه ودخل بينما كنا نبتعد. فسألت غوليالمو: «ماذا يريد من سفيرينو؟»

فأجاب أستاذي بنفاذ صبر: «أدسو، تعلّم أن تفكر بعقلك» - ثم غيّر مجرى الحديث وقال: «الآن، ينبغي أن نستجوب بعض الأشخاص.» - وأضاف مستطلعا الرحبة بأنظاره: «ما داموا على الأقل على قيد الحياة. وبالمناسبة: من الآن فصاعدا ينبغي أن نحاذر عند الأكل والشرب. خذ طعامك دائما من الصحن الجماعي وشرابك من الأبريق الذي اغترف منه الآخرون. بعد برينغاريو نحن نعرف أشياء أكثر، ما عدا المجرم بطبيعة الحال».

- ولكن من تريد أن تستنطق الآن؟

فقال غوليالمو: «أدسو، لقد لاحظت أن الأحداث الأكثر أهمية تقع أثناء

الليل: هناك من يموت، هناك من يطوف بقاعة الكتابة، وهناك نساء يدخلن من الأسوار. . . لدينا دير نهاري ودير ليلي، والليلي يبدو للأسف أهم من النهاري. ولذا كل من يطوف أثناء الليل يهمنا، بمن فيهم الرجل الذي رأيته ليلة أمس مع الفتاة. قد تكون قصة الفتاة دون علاقة البتة بقصة السموم، وقد تكون لها علاقة. على كل حال عندي فكرة عن رجل الليلة الفارطة، والذي سيكون دون شكّ على علم بأشياء أخرى تخص حياة هذا المكان المقدس الليلة. و، مثل ذئب الخرافة، ها هو بالذات يمرّ هناك».

وأشار إلى سلفاتوري الذي كان قد رآنا هو الآخر. ولاحظت ترددا خفيفا في خطواته كأنه يرغب في تفادي ملاقاتنا، اذ توقف متأهبا للعودة على أعقابه. كان ذلك في لحظة. ومن الواضح انه رأى أنه لا يمكنه تفادينا فتابع سيره وألقى علينا ابتسامة عريضة وسلاماً كلّه تملّق. فلم يتركه أستاذي ينهي كلامه وبادره بنبرة خشنة: «أتعلم أن محكمة التفتيش تصل غدا؟»

فظهر على سلفاتوري عدم الارتياح لذلك الخبر وقال بصوت ضعيف: «وأنا، ما دخلي؟»

ـ أنت، خير لك ان تقول لي الحقيقة، إليّ أنا صديقك، وفرنشسكاني مثل ما كنت أنت، خير من أن تقولها غدا الى هؤلاء الذين تعرف جيدا من هم.»

وأفقدت تلك المبادرة العنيفة سلفاتوري كل قدرة على المقاومة، ونظر بخضوع الى غوليالمو وكأنه يريد أن يفهمه انه مستعدّ ان يقول له ما يريد ان يعرف.

ـ هذه الليلة كانت توجد في المطبخ امرأة. من كان معها؟

فأخذ سلفاتوري يقول «آه، انثى تبيح نفسها وتتاجر بجسدها لا يمكن ان تكون طيبة، ولا محترمة.»

ـ لا أريد أن أعرف ان كانت فتاة طيبة. أريد أن أعرف من كان معها!

ـ يا إلهي، كم أن النساء ماكرات لعينات. يفكرن ليلا نهارا كيف يخدعن الرجال.

فأمسكه غوليالمو بشدة من تلابيبه: «من كان معها، أنت أم القيم؟» ففهم سلفاتوري انه لا جدوى من التمادي في الكذب وأخذ يقصّ حكاية غريبة، فهمنا منها بمشقة أنه كان يجلب فتيات من القرية، لارضاء القيم، ويدخلهن اثناء الليل

داخل الأسوار من مسالك لم يرد أن يكشف عنها. ولكنه أقسم أنه يفعل ذلك لطيبة قلبه، مبدياً أسفا مضحكا لعدم تمكنه هو أيضا من تلبية رغائبه، فتمنحه الفتاة، بعد ارضاء القيم، شيئا قليلا أيضا. وقال كل ذلك بابتسامات لزجة وفاحشة، وبغمزات، كأنه يعني أنه يتحدث إلى بشر من لحم ودم، معتادين على نفس الممارسات. وكان ينظر إليّ من تحت، وما كنت أستطيع أن أنهره، كما كان بودي أن أفعل، وأنا أحسّ أن سرا واحدا كان يجمعنا، فأنا شريكه وصديقه في الخطيئة.

عند ذلك الحد قرر غوليالمو أن يجازف مجازفة واحدة وباغته قائلا: «هل عرفت ريميجيو قبل أم بعد علاقتك بدولتشينو؟» فجثا سلفاتوري على ركبتيه عند قدمي غوليالمو وتوسّل اليه بين الدموع أن لا يعمل على هلاكه وأن ينقذه من محكمة التفتيش فأقسم غوليالمو بأن لا يقول لأحد ما سيسمعه منه فلم يتردّد سلفاتوري وكشف لنا ماضي القيم. لقد تعارفا عند «الجبل الأقرع» وكان كلاهما من جماعة دولتشينو، ثم هرب مع القيم والتجأ إلى دير كزالي، ومنه تنقل بصحبته ضمن الكلونيين. وكان يلوك توسلات عفو وبدا من الواضح انه لا يعرف شيئا آخر. فقرر غوليالمو انه من الأحسن أخذ رميجيو على غرّة، وترك سلفاتوري الذي جرى للاحتماء بالكنيسة.

كان القيم في الجهة المقابلة من الدير، يساوم بعض قرويي الوادي. ونظر الينا بتخوف متظاهرا بأنه مشغول جدا، ولكن غوليالمو ألح في طلب التحدث إليه. لم تكن لنا، إلى ذلك الحين، مع الرجل إلا علاقات قليلة وكان دائما متأدبا معنا وكذلك نحن معه. في ذلك الصباح توجه اليه غوليالمو بالكلام كما يفعل مع زميل من نظامه. وبدا القيم متحرجا من تلك الألفة وأجاب في البداية بكثير من الاحتراس. وقال له غوليالمو: «اتصور، انك للقيام بمهامك، تجبرك الظروف دون شك بأن تطوف في الدير عندما يكون الآخرون نائمين.»

فأجاب ريميجيو: «حسب الظروف، قد تكون هناك في بعض الأحيان أعمال ينبغي اتمامها وتكلفني بضع ساعات أسرقها من النوم.»

ـ ألم يحدث لك شيء أثناء تلك الحالات، يمكن أن يدلّنا على الشخص الذي يطوف، دون أن تكون لديه مبرراتك، بين المطبخ والمكتبة؟

ـ لو كنت رأيت شيئا لاخبرت رئيس الدير.

فوافقه غوليالمو قائلا : «هذا صحيح» ـ ثم غيّر فجأة مسار الحديث وسأله «القرية في الوادي ليست ثرية، أليس كذلك؟»

فأجاب ريميجيو : «نعم ولا، يعيش فيها بعض المنتفعين من الدير وهؤلاء يتقاسمون نعمنا، في السنوات الدسمة. ففي يوم القديس يوحنّا مثلا تسلموا اثني عشر مدا من الشعير المجفف وحصانا، وسبعة أبقار وثورا، وأربع بقرات صغيرات وخمسة عجول، وعشرين نعجة، وخمسة عشر خنزيرا، وخمسين دجاجة وسبع عشرة خلية نحل. ثم عشرين خنزيرا مدخنا وسبعة وعشرين قالبا من شحم الخنزير، ونصف لتر من العسل، وثلاث لترات من الصابون، وشبكة للصيد. . .

فقاطعه غوليالمو «فهمت، فهمت، ولكنك تعترف أن كل هذا لا يرشدني عن وضعية القرية، ومن هم المنتفعون من الدير من بين سكانها، وكم يملك غيرهم من الأرض. . .»

فقال ريميجيو : «آه، هذا سهل. إن عائلة عادية تملك هناك حتى خمسين لوحة من الأرض».

ـ كم تعادل اللوحة؟

ـ بطبيعة الحال، أربعة ترابوكات مربّعة.

ـ ترابوكات مربعة؟ وكم تساوي؟

ـ ستا وثلاثين قدما مربعة بالنسبة الى الترابوك الواحد. أو إن أردت، فثمانمائة ترابوكات خطية تساوي ميلا بييمونتيا. واعتبر أن عائلة، في الأراضي نحو الشمال تستثمر من الزيتون ما يوفر لها على الأقل نصف كيس من الزيت.

ـ نصف كيس؟

ـ نعم، الكيس يساوي خمس ايمينات، الايمينة تساوي خمسة أكواب. فقال أستاذي بيأس «لقد فهمت، لكل بلاد أكيالها. أنتم مثلا تكيلون الخمر بالقماقم؟»

ـ أو بالروبية. ست روبيات، تعادل برانتا واحدة وثماني برانتات تساوي برميلا. أو إن أردت، الروبي يساوي ست بنتات من قمقمين.

فقال غوليالمو مسلّما أمره لله «أظن أن الأفكار أصبحت أكثر وضوحا،» فسأله ريميجيو، بنبرة بدا لي أن فيها تحديا «أتريد معرفة شيء آخر؟»

ـ نعم ، كنت أسألك عن حالة عيش سكان الوادي، لأني كنت اليوم أفكر في

المكتبة حول مواعظ أومبارتو دا رومانس للنساء، وخاصة الفصل «إلى نساء القرى الفلاحية المعوزات»، حيث يقول انهن معرّضات، أكثر من غيرهن لخطايا الجنس، من جرّاء بؤسهن، ويقول بحكمة انهن : «يرتكبن خطيئة مميتة عندما يزنين برجل كنيسي، وخطيئتهن أعظم عندما يضاجعن رجل كنيسة رسّم في الكهنوت المقدس، وأشنع عندما يرتكبن خطيئة الجنس مع رجل دين نذر العفة وتخلى عن شهوات الدنيا». أنت تعرف أكثر مني أنه حتى الأماكن المقدسة كالأديرة لا تخلو من اغواء شيطان الظهيرة. كنت اتساءل أن لم يصل إلى علمك، في علاقتك مع أهالي القرية، إن كان بعض الرهبان، لا سمح الله، قد حمل بعض الفتيات على ارتكاب الزنى».

وبالرغم من أن أستاذي كان يقول تلك الأشياء بنبرة تكاد تكون شاردة، فالقارئ يفهم أن تلك الكلمات أدخلت الارتباك على القيم المسكين، لا أستطيع أن أقول ان لونه أصبح شاحبا، ولكنني أقول انني كنت أنتظر حقا أن يصفرّ وجهه لدرجة أنه بدا لي شاحبا فعلا. وأجاب بخضوع «إنك تسألني عن أشياء لو كانت وصلت إلى علمي لأخبرت بها رئيس الدير. على كلّ حال، وكما أتصوّر، تصلح هذه المعلومات للتحقيق الذي أنت بصدد القيام به، ولن أخفي عنك شيئا مما يمكن أن يصل إليّ من معلومات. بل بالعكس، الآن وقد نبهتني إلى ذلك وبخصوص سؤالك الأول... الليلة التي مات فيها أدالمو المسكين، كنت أتجوّل في الساحة... أنت تعرف، قصّة الدجاجات... وصل إلى علمي أن لئيما، أثناء الليل يسرق الدجاج من القن... إذن، تلك الليلة، اتّفق لي أن لمحت من بعيد، ولكني لا أقدر أن أجزم بذلك، لمحت برينغاريو وهو يعود إلى قاعة النوم محاذيا الخورس، كأنما لو كان آتيا من الصرح... ولما أستغرب ذلك، نظرا لما يتهامس به الرهبان منذ مدّة بشأن برينغاريو، ربما أنت على علم بذلك...

ـ كلاّ، قل لي.

ـ حسن، كيف يمكن أن أقول؟ كان يقال ان لبرينغاريو ميولا... لا تليق براهب...

ـ تريد أن تقول أنه كانت له علاقات مع فتيات من القرية، كما جاء في سؤالي؟

فسعل القيم بحرج، وابتسم ابتسامة سمجة «لا، كلا، ميول أقلّ لياقة من

ذلك. . .»

ـ لأن راهبا يلتذّ جنسيا مع فتيات من القرية يمارس بطريقة من الطرق ميولا لائقة؟»

ـ لم أقل ذلك، ولكنك تقول ان هناك درجات في الرذائل كما هو الشأن في الفضائل. يمكن أن تغوي الانسان ميول مطابقة للطبيعة أو. . . منافية للطبيعة.

ـ أنت تقول لي ان برينغاريو كانت تحرّكه شهوات جنسية نحو أشخاص من جنسه؟

ـ أنا أقول إن ذلك ما يتهامس به الآخرون. . . وأقول لك هذه الأشياء كدليل على صدقي وعلى حسن نيّتي.

ـ وأنا أشكرك، وأتفق معك على أن خطيئة اللواط هي أشنع أنواع الفسق الأخرى، والتي لست مؤهلا، بصراحة للتحقيق فيها. . .

فقال القيم بفلسفة : إنها تفاهات، تفاهات. . . حتى وان حدثت. . .

ـ صحيح يا ريميجيو، تفاهات. كلنا نخطئ. ولن أبحث أبدا عن التبنة التي في عين أخي، من خوفي أن بعيني أنا عود. ولكنّي سأكون لك شاكرا، لكل الأعواد التي ستريد في المستقبل أن تحدثني عنها. وهكذا سنتحاور حول جذوع كبيرة وشديدة ونترك التبن يطير في الهواء. كم قلت ان الترابوك يساوي؟

ـ ستا وثلاثين مربّعة. ولكن لا تجهد نفسك بذلك. عندما تريد ان تعرف شيئا بدقة، تعال إليّ. اعتبرني صديقا وفيّا.

فقال غوليالمو بحماس «وكذلك أعتبرك. لقد قال لي أوبارتينو انك كنت في السابق من نظامي. ولن أخون أبدا زميلا قديما، خاصة في هذه الأيام التي ننتظر فيها وصول بعثة بابوية يقودها محقق كبير، عرف بإحراق العديد من أتباع دولتشينو. كنت تقول أن الترابوك الواحد يساوي ستا وثلاثين قدما مربّعة؟

لم يكن القيم غبيا. ورأى أن لا فائدة من التمادي في لعبة القط والفأر، خاصة وأنه كان يعرف أنه هو الفأر، فقال «أخ غوليالمو، أرى أنك تعرف أشياء أكثر مما كنت أتصوّر. لا تخني، ولن أخونك. صحيح أني رجل مسكين فاسق، وأرضخ لشهوات الجنس. لقد قال لي سلفاتوري انك أنت أو تلميذك قد فاجأهما أحدكما ليلة أمس في المطبخ. وأنت سافرت كثيرا يا غوليالمو، وتعرف أنه حتى كرادلة أفنيون ليسوا مثالا للفضيلة. أعرف أنك لا تستنطقني بخصوص هاته الخطايا

الصغيرة الحقيرة. ولكني أفهم انك علمت بعض الشيء عن قصة ماضيّ. لقد عشت حياة غريبة، كما حدث لكثير منا نحن الفرنشسكانيين. لقد آمنت لسنوات بمثال المعيشة في الفقر، وتركت المجموعة لأتعاطى حياة صعلوكية، وآمنت بتبشير دولتشينو، ككثيرين آخرين مثلي. لست رجلا مثقفا. لقد تسلمت زي النظام ولا أعرف حتى كيف أقيم القداس. أعرف القليل جدا من اللاهوتية. وربما لا أستطيع حتى أن أتمسك بالأفكار. كما ترى، في ما مضى حاولت أن أثور على الأسياد، والآن أخدمهم. وأعطي الأوامر لمن هم مثلي خدمة لسيد هذه الأراضي. إمّا الثورة أو الخيانة، ليس لنا نحن البسطاء خيارات كثيرة.

فقال غوليالمو «أحيانا يفهم البسطاء أكثر من العلماء».

فهزّ القيم كتفيه قائلا : «ربما. ولكني لا أعرف حتى لماذا فعلت ما فعلته آنذاك. كما ترى، بالنسبة إلى سلفاتوري يمكن فهم ذلك. فأصله من الخدم والغوغاء، وليد المجاعات والبؤس... كان دولتشينو يمثل الثورة وتحطيم الأسياد. بالنسبة اليّ كان الأمر مختلفا، فقد كنت من عائلة مدنية وما كنت هاربا من الجوع. كانت... لا أدري كيف يمكن أن أقول، كانت حفلة مجانين، كرنفالا جميلا... فوق الجبال مع دولتشينو، قبل أن يصل بنا الأمر إلى أن نأكل رفقاءنا الذين سقطوا في المعارك، وقبل أن يموت الكثيرون من الضنى حتى استحال أكلهم كلهم، والقينا بهم للجوارح وللوحوش المفترسة في منحدرات جبل ربيلو... أو ربما حتى في تلك اللحظات... كنا نتنفس هواء... أأستطيع أن أقول هواء الحرية؟ لم أكن أعرف قبل ذلك ما هي الحرية، كان المبشرون يقولون لنا «الحقيقة ستجعلكم أحرار». كنا نحس بأنفسنا أحرارا، كنا نظن أنها الحقيقة. كنا نظن أن كلّ ما كنّا نفعله كان عادلا...»

فسألته : «وهناك تعلمتم... ان تجامعوا النساء بحرية؟» ولم أكن أدري لماذا ألقيت ذلك السؤال، ولكن كلمات أوبارتينو كانت تستحوذ عليّ منذ الليلة الفارطة، وكذلك ما قرأته في قاعة الكتابة والوقائع نفسها التي حدثت لي. ونظر إليّ غوليالمو بإستغراب، وربما لم يكن ينتظر مني مثل تلك الجرأة، وتلك الدعارة. أمّا القيم فقد حدق فيّ كما لو كنت حيوانا غريبا ثم قال : «فوق جبل ربيلو كان هناك أناس ناموا كامل عهد طفولتهم بالعشرات وأكثر، في حجرة حدودها بضعة أذرع، اخوة مع أخواتهم وآباء مع بناتهم. ماذا تريد أن يكون

بالنسبة اليهم قبول هذه الوضعية الجديدة؟ انهم يفعلون خيارا ما كانوا يفعلون سابقا بحكم الضرورة، حتى لا تحس البرد. . . الهراطقة : انتم، الاطفال الذين تخرجون من قصر لتدخلوا إلى دير، تعتقدون أنها طريقة تفكير أوحى بها الشيطان. ولكن على العكس، هي طريقة عيش، وهي. . . وكانت. . . تجربة جديدة. . . لم يعد هناك أسياد، وكانوا يقولون لنا انّ الرب معنا. لا أقول اننا كنا على حق، ياغوليالمو، وفعلا ها انك تراني هنا، لأنني سرعان ما تركتهم. إلاّ أنني لم أفهم أبدا مجادلاتكم العلمية حول فقر المسيح، والعبادة والعمل والعدل. . . لقد قلت لك، كان كرنفالا عظيما، وفي الكرنفال ينقلب كل شيء. ثم تصير شيخا، ولا تصبح عاقلا بل نهما. وهنا أرضي نهمي. . . تستطيع أن تدين هرطيق، ولكن أتريد أن تدين نهما؟»

فقال غوليالمو «كفى ياريميجيو، انني لا أستنطقك بشأن ما حصل آنذاك، ولكن بخصوص ما حصل أخيرا، ساعدني وأوكد لك انني لن أكون سبب هلاكك. لا أقدر، ولا أريد أن أحكم عليك. ولكن ينبغي أن تقول لي ماذا تعرف عن شؤون الدير. يبدو لي مستحيلا أن لا تكون على معرفة بشيء وأنت تطوف كثيرا، ليلا ونهارا. من قتل فينانسيو؟»

ـ لا أدري، أقسم لك. أعرف متى مات ، وأين.

ـ متى؟ وأين؟

ـ اتركني أقص عليك. تلك الليلة، بعد مضي ساعة من صلاة النوم، دخلت الى المطبخ. . . ـ من أين؟ ولأي سبب؟

ـ من الباب، ناحية المبقلة. لديّ مفتاح طلبت صنعه منذ زمان من الحدّادين. ان باب المطبخ هو الوحيد الذي لا يوصد من الداخل. والأسباب. . لا أهمية لها، لقد قلت بنفسك إنك لا تريد أن تدينني لضعف ارادتي ـ وابتسم بحرج ـ ولكني لا أريدك أن تظن أني أقضي أيامي في تعاطي الزنى. . . تلك الليلة كنت أبحث عن بعض الأكل للفتاة التي كان سلفاتوري سيدخلها وراء الأسوار. . .

ـ من أين؟

ـ آه، ان حزام الأسوار له عدّة مداخل، إضافة إلى الباب الرئيسي. ورئيس الدير يعرفها، وأعرفها أنا أيضا. . . ولكن الفتاة لم تأت تلك الليلة، لقد أرجعتها على أعقابها فعلا بسبب ما اكتشفته وما سأقصه عليك الآن. لذا حاولت أن

أرجعها ليلة البارحة. ولو وصلتما بعد لحظات لوجدتماني انا عوضا عن سلفاتوري. لقد أخبرني هو بوجود أشخاص في الصرح، فعدت إلى حجرتي. . .

ـ لنعد الى الليلة الفاصلة بين الأحد والأثنين.

ـ هو ذاك، لقد دخلت الى المطبخ ورأيت فينانسيو ملقى على الأرض ميّتا.

ـ في المطبخ؟

ـ نعم قرب المغسلة. ربما كان قد نزل آنذاك من قاعة الكتابة.

ـ أكانت هناك آثار لصراع؟

ـ لا أثر. بل كان قرب الجسد كوب محطّم، وآثار ماء على الأرض.

ـ لماذا تقول أنه ماء؟

ـ لا أدري. كنت أظن أنه ماء. وماذا يمكن أن يكون؟

كان ذلك الكوب، كما لفت انتباهي الى ذلك غوليالمو، يمكن أن يعني شيئين مختلفين. إما أن أحدهم أعطى لفينانسيو، في المطبخ بالذات، شرابا مسموما، أو أن المسكين كان قد ابتلع السمّ (ولكن أين؟ ومتى؟) ونزل ليشرب حتى يهدئ من احتراق فجائي، أو من ألم حاد، أو من وجع يحرق أمعاءه، أو لسانه (ومن المؤكد أن لسانه كان أسود كلسان برينغاريو).

على كل، لم يكن ممكنا في تلك الآونة معرفة المزيد. عندما أكتشف ريميجيو الجثة، ارتاع وأخذ يتساءل ماذا يفعل، وأخيرا قرر أن لا يفعل شيئا. لو طلب العون، لكان عليه أن يبرّر طوافه في الصرح أثناء الليل، ولم يكن لذلك فائدة بالنسبة الى الزميل الذي فقد وانتهى أمره. ولذا قرر أن يترك الأشياء على حالتها، منتظرا أن يكتشف أحدهم الجثة في الصباح الموالي عند فتح الأبواب. وأسرع لإمساك سلفاتوري الذي كان بصدد إدخال الفتاة إلى الدير، ثم ذهب ـ هو وشريكه ـ للنوم، ان كان ممكنا أن نسمي نوما تلك اليقظة القلقة التي عاشاها الى الصبح. وعند صلاة أول الصبح، عندما جاء رعاة الخنازير لاعلام رئيس الدير، كان ريميجيو يظن أن الجثة اكتشفت حيث تركها، وبقي مبهوتا عندما رآها في الجرّة. من أبعد الجرّة عن المطبخ؟ حول ذلك لم تكن لدى ريميجيو أدنى فكرة.

فقال غوليالمو «ان الوحيد الذي يمكنه التحرّك بحرية داخل الصرح هو ملاخي».

فرد القيم بقوة: «لا، ملاخي لا. أي. لا أظن. . . على كلّ لم أقل أنا شيئا

ضد ملاخي . . .»

ـ مهما يكن الدين الذي يربطك بملاخي، فلا تنشغل. هل يعرف عنك شيئا؟

فأحمر وجه القيم وقال : «نعم، وتصرّف معنا تصرّف رجل كتوم. لو كنت في مكانك لراقبت بانشيو. لقد كانت له علاقات غريبة مع برينغاريو وفينانسيو. ولكني أقسم لك أنني لم أر شيئا آخر. ان وصل الى علمي شيء أخبرتك به.

ـ يكفيني الآن ما عرفت. سأعود إليك عند الحاجة.

فعاد القيّم، وقد بان عليه الارتياح بوضوح، إلى مساوماته، زاجرا بعض القرويين الذين حوّلوا في تلك الأثناء أكياسا من البذور من مكانها.

وبينما نحن كذلك اذ التحق بنا سفيرينو وهو يحمل بين يديه عدستي غوليالمو اللتين سرقتا منه في الليلة الفارطة وقال : «وجدتهما في جيب برينغاريو. لقد رأيتهما فوق أنفك، ذلك اليوم في المكتبة انهما لك، أليس كذلك؟»

فصاح غوليالمو بابتهاج : «الحمد لله! لقد حللنا مشكلتين! استعدت عدستي، وعرفت أخيرا، ودون شك، أن برينغاريو هو الذي سرقنا تلك الليلة في قاعة الكتابة.»

لم يكد ينهي كلامه حتى هرع الينا نيكولا دا موريموندو، يبدو عليه الظفر أكثر من غوليالمو، وهو يحمل في يديه زوجا من عدستين جاهزتين، محملتين على مسّاكتهما، وصاح : «غوليالمو، لقد نجحت في صنعهما وحدي، انهما جاهزتان. أظن أنهما صالحتان!» ـ ثم تفطن الى أن غوليالمو كان يحمل على وجهه عدستين أخريين وبقى كأنه من حجر. فلم يرد غوليالمو اذلاله، وخلع عدستيه القديمتين وجرّب الجديدتين ثم قال : «انهما أحسن من الأخريين، وهذا يعني أني سأحتفظ بالقديمتين كعدستين احتياطيتين، وسأحمل دائما عدستيك.» ثم قال لي «أدسو، الآن سأختلي بنفسي في حجرتي لقراءة الورقات التي تعرفها، أخيرا! انتظرني في مكان ما. وشكرا، شكرا لكم كلّكم، يا اخواني الأعزاء». كانت «صلاة ثالثة» تدق وذهبت الى المحراب لأنشد مع الآخرين النشيد والمزامير، والآيات والكيريي(*). وكان الآخرون يصلّون ترحما على روح

(*) نشيد ابتهالي من أصل يوناني يعني «يا رب. . .»، ينشد في الجزء الأول من القدّاس (المترجم).

برينغاريو، وكنت أنا أشكر الاله الذي ساعدنا على العثور لا على زوج بل على زوجين من العدسات.

كان يسود هدوء عظيم، ونسيت كل الدناءات التي رأيتها وسمعتها، فنمت، ولم أستيقظ إلاّ عندما انتهى الفرض. وتفطنت الى أنني لم انم تلك الليلة، وارتبكت وأنا أفكر أنني استنفذت من قواي أكثر ممّا ينبغي. وعند ذلك الحد، لمّا عدت الى الخارج، عادت ذكرى الفتاة لتستحوذ على فكري.

حاولت أن أشغل نفسي بشيء آخر وأخذت أتحرك بسرعة عبر السهل. كنت أشعر بدوار خفيف. كنت أضرب يدي المجمدتين بالبرد الواحدة بالأخرى، وأضرب الأرض بقدميّ. كنت لا أزال أحسّ بالنعاس، ومع ذلك كنت أحسّ بنفسي مستيقظا ومليئا بالحيوية. لم أكن أفهم ماذا كان يحدث لي.

ثـالثــة

وفيه يتخبط أدسو في آلام الحب، ثم ياتي غوليالمو ومعه نصّ فينانسيو، الذي بقى غامضا، حتى بعد فكّ رموزه

في الحقيقة، بعد لقائي الآثم بالصبية، كادت الأحداث المفجعة الأخرى أن تنسيني تلك الواقعة. ومن جهة أخرى، ما أن ألقيت باعترافي على مسامع غوليالمو حتى تخففت نفسي من الندم الذي شعرت به بعد الاستفاقة من استسلامي الآثم، وبدا لي أني سلمت إلى الأخ، مع أقوالي، الحمل الذي كانت تلك الكلمات تعنيه. وفعلا، مافائدة اغتسال الاعتراف ونعيمه، ان لم يكن لالقاء حمل الخطيئة، والندم الناتج عنه، في حضن سيدنا نفسه، فنحس، مع الصفح، بخفة هوائية تنعش الروح، بحيث ننسى الجسد الذي جرحته الرذائل؟ ولكنني لم أتحرر من كل شيء. الآن وأنا أتجول تحت أشعة الشمس الشاحبةِ وفي برد ذلك الصباح الشتائي، يحيط بي حماس الانسان والبهائم، بدأت أحداث الماضي تعود اليّ بطريقة مختلفة، وكأنه من كلّ ما حدث، لم يبق شيء البته من التوبة ومن كلمات اغتسال التوبة المواسية، وانما بقيت فقط صور أجساد وأعضاء انسانية. ويعود إلى ذهني المتهيج شبح برينغاريو المنتفخ بالماء، فيقشعر بدني من الاشمئزاز والشفقة. ثم، وكأني أريد أن أهرب من ذلك الشبح، يتجه خاطري الى صور أخرى لا تزال الذاكرة تحتفظ بها حية، ولم يكن بوسعي آنذاك أن أتفادى رؤيةً، واضحة أمام عينيّ (أمام عيني الروح، ولكنها تكاد تظهر أمام العينين الجسديتين): صورة الصبية، الجميلة والمرهبة كجيش بألوية.

لقد وعدت نفسي مجددا (أنا الناسخ العجوز لنصّ لم يكتب أبدا قبل الآن ولكنه تحدّث إليّ لمدة عشرات السنين الطويلة) بأن أكون راويا مخلصا. وليس فقط حبا للحقيقة، ولا للرغبة (وهي دون شك جديرة جدا بذلك) في تهذيب

قرائي الآتين، ولكن أيضا لتحرير ذاكرتي الذابلة والمنهكة، من رؤى أرهقتها طول الحياة. واذن ينبغي ان أقول كل شيء، باحتشام نعم، ولكن دون خجل. وينبغي أن أقول، الآن وبكلمات واضحة، ما مرّ آنذاك بخاطري وما حاولت أن أخفيه حتى عن نفسي، وأنا أتجول عبر السهل، وأركض أحيانا لأنسب إلى حركة الجسم خفقات قلبي الفجئية، متوقفا لانظر الى أعمال القرويين، موهما نفسي بالتشاغل وانا أتأمل فيهم، ومتنفسا الهواء البارد بكل رئتي، كما يفعل من يشرب الخمر لينسى الخوف أو الألم.

دون جدوى. كنت أفكر في الفتاة. كان جسدي قد نسى المتعة العميقة، والآثمة الزائلة (والخسيسة) التي وجدتها في وصالها، ولكن روحي لم تنس وجهها، ولم تكن تقدر ان تحس بان تلك الذكرى ضالة، بل بالعكس، كانت تخفق كما لو كانت تسطع في ذلك الوجه كل عذوبة الخلق.

كنت أحس بغموض، وأكاد أنفي لنفسي حقيقة ما كنت أحسه، وهو أن تلك البائسة، القذرة، تلك المخلوقة الداعرة التي تبيع جسدها (ومن يدري بأي تماد في الفجور) الى آثمين آخرين، ابنة حواء هذه التي، في ضعفها الشديد ككل أخواتها، تاجرت عديد المرات بجسدها، كانت مع ذلك شيئا رائعا وعجيبا. كان عقلي يقول لي إنها وازع للخطيئة، وكانت رغبتي الحسية ترى فيها مثوى لكل جمال. من الصعب أن أقول ماذا أحسست، وأكاد أكتب أنني، وأنا لا أزال سجينا في مكائد الخطيئة، كنت أرغب، آثما، ان أراها تظهر في كل لحظة، وأكاد أرقب أشغال العاملين وأتقصّى زاوية بعض الزرائب أو عتمة الاصطبل، مؤملا أن تظهر تلك الصورة التي فتنتني. ولكنني لا أكتب الحقيقة، أو أني أحاول أن أحجب الحقيقة لأخفف من قوتها ومن جلائها. لأنني في الحقيقة كنت «أرى» الفتاة. كنت أراها في أغصان الشجرة العارية التي ترتعش ارتعاشة خفيفة حينما يطير اليها عصفور قد جمده البرد ليحتمي بها. كنت أراها في أعين العجول التي تخرج من الأصطبل، واسمعها في ثغاء الحملان التي تعترض تجوالي. كان وكأنما الخلق كله يحدثني عنها، وكنت أرغب، نعم، في رؤيتها، ولكني كنت مستعدا أيضا لقبول فكرة أن لا أراها بعد ذلك أبدا، وأن لا أجامعها أبدا، لو مكنني ذلك من التمتع بذلك الحبور الذي كان يغمرني ذلك الصباح، وأن تكون بقربي حتى ولو كانت، للأبد، بعيدة عني. كان الحال، الآن أحاول فهم ذلك، كما لو كان الكون

بأجمعه، الكون الذي من الواضح أنه يكاد يكون كتابا خطته يد الرب، وكلّ شي فيه يحدثنا عن طيبة خالقه اللامحدودة، وحيث كل مخلوق يكاد أن يكون كتابة ومرآة للحياة وللموت، وحيث تصبح أحقر وردة تفسيرا لمسارنا الأرضي، بايجاز، كان كل شيء لا يحدثني إلاّ عن الوجه الذي تراءى لي في عتمة المطبخ الفائحة. وكنت أتسامح مع نفسي وأنا أعيش تلك الخيالات، لأنني كنت أقول لنفسي (أو بالأحرى، لم أكن أقول لنفسي، لأنني في تلك الآونة لم أكن أصوغ أفكارا يمكن التعبير عنها بالكلام) انه إذا كان هدف العالم كله هو أن يحدثني عن عظمة الخالق، وطيبته، وحكمته، واذا كان العالم كله ذلك الصباح يحدثني عن الفتاة (مهما كانت آثمة) التي هي أيضا فصل من كتاب الخلق العظيم، وبيت من نشيد يغنيه الكون ـ كنت أقول لنفسي (وأقول الآن)، انه اذا ما كان ذلك حدث فلا يمكن أن لا يكون جزءا من الرسم الالهي العظيم الذي ينظم الكون، والمهيّأ في شكل مزهر، معجزة في التناغم والانسجام. وكالثمل، كنت أنعم اذاك بوجودها من خلال الاشياء التي كنت أراها، ومن خلالها كنت أتشوق اليها، وبرؤية تلك الأشياء كنت أشبع نهمي. ومع ذلك كنت سعيدا بكل أشباح الحضور تلك. ويصعب عليّ أن أفسر غموض هذا التناقض، وهذا دليل على أن الروح الانسانية ضعيفة، ولا تتبع أبدا طرق الحكمة الالهية المستوية، التي صنعت الكون كقياس منطقي كامل، ولكنها تلتقط من ذلك القياس قضايا منعزلة، وفي الغالب دون ترابط، ولذا تقع بسهولة ضحية أوهام الشيطان. أكان وهما من الشيطان ذلك الذي كان يجعلني مضطربا الى ذلك الحد؟ أظن الآن أنه كان كذلك، لأنني كنت مبتدئا، ولكن أظن أن العاطفة الانسانية التي كانت تهيجني لم تكن في حد ذاتها فاسدة، بل كانت كذلك إذا ما اعتبرنا وضعيتي. لأنها في حد ذاتها كانت العاطفة التي تحرك الرجل نحو المرأة حتى يتجامعا. ، كما يريد رسول البشر، وان يصبحا لُحمة من جسد واحد، وينجبا معا مخلوقات انسانية اخرى، فيعنى أولائك بهؤلاء من الشباب الى الشيخوخة. إلاّ أن الرسول قال ذلك لمن يبحث عن دواء للشهوة الجنسية ولمن لا يريد أن يحترق، مذكرا مع ذلك أن حالة الطهر أفضل بكثير، وهي الحالة التي كرست لها نفسي راهبا. ولذا كنت في ذلك الصباح أتألم من شيء كان بالنسبة إليّ شرّا، ولكنه بالنسبة الى الآخرين كان خيرا، وربما خيرا على غاية من العذوبة، بحيث أفهم الآن ان حيرتي لم تكن ناتجة عن فساد أفكاري،

التي كانت في حد ذاتها لائقة وعذبة، ولكن عن رداءة العلاقة بين أفكاري وبين النذور التي نذرتها. اذن كنت مخطئا وأنا ألتذ بشيء حسن إذا ما نظرنا اليه من زاوية، سيء اذا ما نظرنا من زاوية أخرى، وكان خطئي هو محاولة التوفيق بين الشهوة الطبيعية وأفكار الروح العقلانية. الآن أعرف انني كنت أتألم من التباين بين الشهوة العقلية، حيث كان يجب أن تظهر سلطة الارادة، والشهوة الحسية، شأن العواطف الانسانية. وفعلا «يقال عن أفعال الشهوة الحسية إنها أهواء لأنها تتجلى من خلال انفعالات جسدية، لا بفعل الارادة». وكان عملي الشهواني فعلا مصحوبا بارتعاش في كامل الجسد، وباندفاع جسدي يجعلني أصيح وأضطرب. ويقول العالم الملائكي ان العواطف في حد ذاتها ليست سيئة، إلا أنه ينبغي أن تعدلها الارادة التي تقودها العقلانية. ولكن روحي العقلانية كانت في ذلك الصباح خامدة من التعب الكابح لجماح الشهوة العاتية التي تتجه نحو الخير ونحو الشر قصد الامتلاك، ولكن ليست الشهوة الحسية التي تتجه نحو الخير ونحو الشر على أنهما متعارفان. ولتبرير خفتي اللامسؤولة آنذاك أقول اليوم، وبعبارات العالم الملائكي، انني كنت دون شك أسير الحب، الذي هو عاطفة وشريعة كونية، فحتى جاذبية الاجساد هي حب طبيعي. وكنت بطبيعة الحال مفتونا بتلك العاطفة، لأنه في تلك العاطفة «تميل الشهوة الى أن تتحقق بامتلاك ما تشتهي كي تبلغ هدفها» مما يجعل الحب بطبيعة الحال «يتحقق في تقيق الأشياء التي يطمح اليها المحبوبان والتي تمكنهما من الوصال، كما أن الحب متكون من التجربة أكثر منه من المعرفة المجردة».

وفعلا كنت وقتها أرى الفتاة أحسن مما كنت قد رأيتها في الليلة الفارطة، وكنت أفهمها «باطنيا وظاهريا» لأني كنت أفهم نفسي فيها، وفي نفسي كنت أفهمها هي نفسها. وأتساءل الآن إن كان ما كنت أشعر به هو حب الصداقة، حيث يحب القريب قريبه ويريد فقط الخير للغير، أم أنه حب الشهوة الجنسية، حيث كنت أريد من الفتاة شيئا لم أحصل عليه أبدا قبل ذلك، بينما في ذلك الصباح لم أكن أريد من الفتاة أي شيء، وكنت أريد فقط الخير لها، وأود لو أخرجت من الضرورة القاسية التي كانت تجبرها على منح نفسها مقابل قليل من الطعام، وان تكون سعيدة، وما كنت أريد أن أطلب منها شيئا ولكن فقط أن أتمادى في التفكير فيها وفي رؤيتها من خلال النعاج، والثيران، والشجر، والضياء

الهادئ الذي يغمر الدير بالحبور.

الآن أعرف أن سبب الحب هو الخير وما هو خير يتحدد من خلال المعرفة، ولا يمكن أن نحب إلاّ ما عرفنا أنه خير، بينما عرفت الفتاة، أي نعم، على أنها خير الشهوة العاتية، لكن على أنها شر الارادة. ولكنني كنت آنذاك فريسة تفاعلات روحية متعددة ومتناقضة لأن ما كنت أحسه كان مشابها للحب الأكثر قداسة، كما يصفه فعلا الحكماء: كان يحدث في نفسي ذلك الوجد، الذي يجعل المحب والمحبوب يريدان نفس الشيء (وبوحي غامض، كنت أنا في تلك الآونة أعرف أن الفتاة، أينما كانت، كانت تريد نفس الأشياء التي كنت أريدها أنا)، ومن أجلها كنت أحس بالغيرة، لا تلك السيئة التي أدانها بولس في الرسالة الأولى الى أهل كورنثوس التي هي «الرغبة القوية في الامتلاك» ولا تقبل «المشاركة في المعشوق»، ولكن تلك التي يتحدث عنها ديونيجي في «الأسماء الالهية» حيث يقول أن الرب أيضا غيور «للحب العظيم الذي يكنّه نحو كل الوجود» (وفعلا كنت أحب الفتاة لأنها كانت موجودة، وكنت سعيدا، لا أشعر بالحسد من وجودها). كنت غيورا بالمعنى الذي يقول فيه العلامة الملائكي ان الغيرة هي «تحرّك نحو المعشوق»، غيرة الصداقة التي تحمل على التحرّك ضد كل ما من شأنه أن يضر بالمحبوب (وكنت أنا لا أتصور إلاّ شيئا واحدا في تلك اللحظة، وهو أن أخلص الفتاة من سلطان من كان يشتري جسدها ملوّثا إياها بعواطفه الدنسة).

أعرف الآن أن الحب، كما قال العلامة، يمكن أن يضر بالمحب عندما يكون مفرطا. وكان حبي مفرطا. لقد حاولت أن أفسر ماذا أحسست آنذاك، ولا أحاول بالمرة تبرير ما كنت أحس. أتحدث عن تلك التي كانت صبوة شبابي الآثمة. كانت آثمة، ولكن الحقيقة تلزمني القول بأنني في ذلك الوقت أحسست بها طيبة للغاية. وليكن هذا درسا لمن سيقع، كما حدث لي، في شباك الاغراء. اليوم، وأنا شيخ، أعرف ألف طريقة للافلات من مثل تلك الفتن (وأتساءل ان كان يمكنني أن أعتز بذلك، بما أنني اذ تحررت من فتن شيطان الظهيرة، فلست متحررا من كل الفتن الأخرى، مما يجعلني أتساءل إن كان ما أنا الآن بصدد القيام به ليس مطاوعة لعاطفة الذاكرة الدنيوية، التي ليست إلاّ محاولة غبية للهرب من تيار الزمن، ومن الموت).

نجوت آنذاك بإلهام معجزة من الغريزة. كانت الفتاة تبدو لي في الطبيعة وفي

الأشغال الانسانية التي كانت تحيط بي. فحاولت اذن، بالهام صائب من الروح، أن أغوص في تأمل فسيح لتلك الأشغال. فتأملت في رعاة الأبقار وهم يحملون الثيران خارج الاصطبل، وفي رعاة الخنازير وهم يحملون العلف لتلك الحيوانات، وفي الرعاة الذين كانوا يحرضون الكلاب على تجميع النعاج، وفي الفلاحين وهم يحملون القمح والذرة الى المطاحن ويخرجون منها بأكياس من الغذاء النافع. وغرقت في تأمل الطبيعة، محاولا نسيان أفكاري ومحاولا أن أرى المخلوقات فقط كما هي، وأن أنسى نفسي في رؤياها، بانشراح.

كم كان منظر الطبيعة جميلا ولم تمسسه بعد يد المعرفة الانسانية، التي غالبا ما تكون منحرفة!

رأيت الحمل، الذي سمّي كذلك كما لو كان اعترافا بنقائه وبطيبته. وفعلا، يأتي اسم «agnus» من كون هذا الحيوان «agnoscit» يعرف أمه بالذات ويعرف صوتها وسط القطيع بينما الأم، وسط حملان كثيرة لها شكل واحد وثغاء واحد، تعرف دائما وفقط ابنها، وتغذيه. ورأيت النعجة، واسمها ovis ويقال عنها ab oblatione لأنها منذ القدم كانت تصلح للطقوس القربانية، النعجة التي، كعادتها، عندما يحل الشتاء، تبحث بلهفة عن العشب وتشبع نفسها بالعلف قبل أن يحرق الصقيع المراعي. وكانت القطعان تحرسها الكلاب، التي تستمد اسمها من canor بسبب نباحها. والكلب من بين الحيوانات الأخرى كامل، ويمتاز عليها بحدة ذكائه، ويعرف الكلب سيده، ويروض لصيد الوحوش في الغاب، وأحيانا يهلك أثناء مهمة الدفاع تلك. والملك غرامانتي، الذي أخذه أعداؤه أسيرا، ارجعته الى وطنه مجموعة من مئتي كلب، شقت طريقها وسط جيوش العدو. وكلب جيازوني ليتشو، بعد موت سيده، امتنع عن الاكل حتى مات هزالا. وكلب الملك لسيماكو رمى بنفسه في المحرقة التي أعدم فيها سيده للموت معه. وللكلب المقدرة على شفاء الجراح بلعقها بلسانه كما ان لسان صغاره يشفي من أوجاع الأمعاء. ومكنته الطبيعة من استعمال نفس الأكل مرتين بعد تقيئه. هو القناعة التي هي رمز الكمال الفكري، كما أن قدرة لسانه الاعجازية هي رمز التطهير من الخطايا الذي يتحصل عليه المرء من خلال الاعتراف والتوبة. ولكن في عودة الكلب الى ما تقيأه رمز أيضا، وانه بعد الاعتراف يعود المرء الى ارتكاب نفس الخطايا. وكانت هذه الموعظة نافعة جدا بالنسبة إليّ في ذلك

الصباح لتحذير قلبي، بينما أتأمل في روائع الطبيعة.

وكانت خطواتي تحملني في هذه الأثناء الى اصطبلات الثيران، التي كانت خارجة في جموع يقودها البقارون. وبدت لي في الحال كما كانت وكما هي، رمز الصداقة والطيبة، لأن كل ثور، أثناء العمل، يلتفت للبحث عن رفيق المحراث، واذا ما حدث ان كان في تلك الآونة غائبا أرسل اليه خوارا ودودا. وتتعلم الثيران ان تطيع وأن تعود وحدها الى الاصطبل عندما يكون الطقس ممطرا، وعندما تحتمي بالمعلف تمد رأسها وتواصل ذلك لتنظر ان كف الطقس الردئ في الخارج لأنها تود العودة الى العمل. ومع الثيران كانت تخرج في تلك الآونة العجول التي، اناثا وذكورا، تستمد اسمها من viriditas أو أيضا من vigro، لأنها في ذلك السن لا تزال غضة، صغيرة السن وطاهرة، وكنت أقول في نفسي انني كنت قد أسأت وكنت أسيء عندما كنت أرى في حركتها الرشيقة صورة الفتاة، التي، هي، لم تكن طاهرة. كنت أتأمل في تلك الأشياء وقد تصالحت مع الدنيا ومع نفسي وانا أنظر الى العمل الصباحي البهيج. ولم أفكر بعد ذلك في الفتاة، أو بالاحرى، اجتهدت كي احول العاطفة التي كنت أحس بها نحوها الى معنى من معاني الحبور الداخلي والسلام التقي.

وقلت لنفسي ان العالم طيب ويستحق الاعجاب. وان طيبة الخالق تظهر حتى من خلال أبشع الحيوانات، كما يفسر ذلك أونوريو أوغوسطو دونيانسي. وهذا صحيح. هناك ثعابين ضخمة تبتلع وعلا بأكمله وتسبح في المحيط، وهناك وحش الشنقروش الذي له جسد حمار وقرنا وعل، وصدر أسد وفكّاه ورجل حصان ولكن مشقوق كظلف الثور، وشق في فمه يصل الى أذنيه، وصوته يكاد يكون آدميا وعوضا عن الاسنان له عظم واحد صلب. وهناك وحش المنتاكورة، بوجه انسان وثلاثة صفوف من الاسنان، وجسم أسد، وذنب عقرب وعينان دهماوان لونها في لون الدم وصوتها يشبه صفير الثعابين، وتكون نهمة للحم الانسان. وهناك وحوش لها ثمانية أصابع بكل رجل، وخيشوم ذئب، ومخالب معقوفة، ولها جلد نعجة ونباح كلب، تصبح، بتقدم السن، سوداء عوضا عن بيضاء وعمرها أطول بكثير من عمرنا. وهناك مخلوقات لها عيون على أعضائها وثقبان على صدرها عوضا عن فتحتي الأنف، لأنه ينقصها الرأس، وأخرى أيضا تعيش طول نهر الغانج، وتعيش من رائحة نوع من التفاح فقط، اذا أبتعدت عنه

ماتت. ولكن حتى هذه الحيوانات البشعة تتغنى على اختلافها بحمد الخالق وبحكمته، كالكلب، والثور، والنعجة، والحمل والفهد. وقلت آنذاك لنفسي، معيدا كلمات فينتشانسو بيلوفتشانسي، يا لعظمة أحقر جمال في هذه الدنيا، ويا لها من متعة أن تتأمل عين الفكر بانتباه، لا في أشكال الأشياء وأعدادها ومراتبها فحسب وقد وضعت في مثل ذلك التناسب عبر الكون بأجمعه، بل وأيضا في مرور الأزمنة التي تمتد في تتابع وعثرات يرسمها موتُ ماوُلِد. وأعترف، أنا ذلك الآثم الذي كانت روحه الى وقت قريب حبيسة شهوات الجسد، انه حركتني نحو الخالق ونحو قاعدة هذا العالم عذوبة روحية، واعجبت بانشراح وباجلال بعظمة الخلق وباستقراره.

وعلى هذه الحال من طيب الخاطر لقيني أستاذي حيث افترقنا قبل ساعتين وكانت قدماي قد حملتاني، دون أن أفطن، عبر السهل حتى كدت أكمل دورة الدير، كان غوليالمو هناك، وما قاله لي ألهاني عن أفكاري وأعاد ذهني من جديد الى أحداث الدير الغامضة.

كان غوليالمو يبدو مغتبطا جدا. وكان يمسك في يده ورقة فينانسيو وقد تمكن أخيرا من فك رموزها، فذهبنا إلى حجرته، بعيدا عن الآذان المتطفلة. وترجم لي ما كان قد قرأه. بعد الجملة المكتوبة بالأحرف البروجية التي كانت تقول (Secretum finis Africae manus supra idolum age primum et septimum de quatuor)* هذا ما كان يقوله النص باليونانية:

«السم المريع الذي يعطي الطهارة...

السلاح الأفضل لاهلاك العدوّ...

استعمل الأشخاص المتواضع منهم والذليل والدميم، استمتع برذائلهم... لا ينبغي أن يموتوا... لا في ديار النبلاء والمقتدرين ولكن من قرى الفلاحين، بعد طعام وفير وشرب... أجساد قزمة، وجوه ممسوخة. يغتصبون العذارى ويضطجعون مع البغايا، لا أشرار، دون خشية. حقيقة مختلفة، صورة للحقيقة مختلفة...

أشجار التين الجليلة.

(*) سرّ قاعة «أقصى إفريقيا» اليد فوق الصورة تحرّك الأول والسابع من الأربعة.

الحجرة العديمة الحياء تتدحرج الى السهل. . . تحت الأعين.

يجب أن نخاتل وأن نفاجئ بالمخاتلة، نقول الأشياء عكس ما يظنها الغير، نقول شيئا ونعني شيئا آخر.

اليهم ستغني الزيزان من الأرض.

لا شيء آخر. حسب رأيي قليل جدا، لا شيء أو يكاد.

كان يبدو هذياناً مجنوناً وقلت ذلك لغوليالمو فقال: «قد يكون. ويبدو أكثر جنونا مما هو عليه بسبب ترجمتي فأنا أعرف اليونانية بصفة جد تقريبية. ومع ذلك حتى ولو فرضنا ان فينانسيو مجنون، أو أن مؤلف الكتاب مجنون، فهذا لا يفسّر لنا لماذا بذل أشخاص عديدون، وليسوا كلهم مجانين، ما في وسعهم، في البداية لاخفاء الكتاب ثم لاستعادته من جديد. . .

ـ ولكن هل الأشياء المكتوبة هنا مستمدة من الكتاب السرّي؟

ـ انها دون شك أشياء كتبها فينانسيو. ترى بنفسك انه ليس رقّا قديما. ربما كانت ملاحظات كتبها وهو يقرأ الكتاب، وإلاّ فلا داعي إلى أن يكتبها باليونانية، لقد نقل دون شك، باختصار، جملا من المجلد المسروق من القاعة المسماة «أقصى أفريقيا». وحمله معه الى قاعة الكتابة وأخذ في قراءته، مسجلا ما كان يبدو له جديرا بالملاحظة. ثم حدث شيء. امّا أنه أحسّ بوجع أو أنه سمع أحدا يصعد. عند ذلك وضع الكتاب مع الملاحظات، تحت طاولته، وربما ممنيا نفسه بالعودة اليه في المساء. على كل حال لا يمكننا معرفة طبيعة الكتاب السري إلا بداية من هذه الورقة، ومن طبيعة الكتاب فقط يصبح بالامكان الوصول الى طبيعة المجرم. فمن خلال كل جريمة ترتكب للحصول على شيء، تعطينا طبيعة ذلك الشيء فكرة، ولو باهتة، عن طبيعة القاتل. لو ارتكبت جريمة من أجل الظفر بقبضة ذهب، يكون القاتل شخصا جشعا، لو كانت الجريمة من أجل كتاب، ذلك يعني أن القاتل يريد الاحتفاظ وحده بأسرار ذلك الكتاب. ينبغي اذن أن نعرف ماذا يقول الكتاب الذي هو ليس بحوزتنا.

ـ ويمكنك أن تعرف، من خلال هذه السطور القليلة، ما هو الكتاب المعني؟

ـ يا عزيزي أدسو، هذه الكلمات تبدو لي كلمات نص مقدس، ومغزاها يتجاوز المعنى الحرفي. عندما قرأتها هذا الصباح، بعد حديثنا مع القيم، اذهلني انه حتى هنا يقع التلميح الى البسطاء والى الفلاحين، كأشخاص يحملون حقيقة

مختلفة عن الحقيقة التي يحملها العلماء. وقد جعلنا القيم نفهم ان علاقة غريبة تربطه بملاخي. أيكون ملاخي أخفى نصا هرطيقيا خطيرا سلمه اياه ريميجيو؟ عندئذ يكون فينانسيو قد قرأ وسجل بعض الملحوظات الغامضة حول مجموعة من الاجلاف والبسطاء في ثورة على كل شيء وعلى الجميع. ولكن. . .

ـ ولكن؟

ـ ولكن هناك شيئان يناقضان هذا الافتراض. الأول هو أن فينانسيو كان لا يبدو مهتما بتلك المسائل: كان مترجما للنصوص اليونانية، لا مبشرا بأفكار هرطيقية. . . والأمر الآخر هو أن جملا كالتي تتعلق بالتين، والحجارة والزيزان لا يفسرها الافتراض الأول. . .

ـ قد تكون أحاجي لها معان أخرى، أم أن لديك افتراض آخر؟

ـ لديّ افتراض آخر لكنه لا يزال مبهما. يبدو لي من قراءة هذه الصفحة انني قد قرأت البعض من هذه الكلمات في وقت سابق، وتعود الى ذهني جمل مماثلة كنت قد رأيتها في أماكن أخرى. بل يبدو لي أن هذه الورقة تتكلم عن شيء جرى الحديث عنه في الأيام السابقة. . . . ولكنني لا أذكر ماذا. ينبغي أن أفكر في ذلك. ربما يجب أن أقرأ كتبا أخرى.

ـ كيف ذلك؟ كي تعرف ما يقول كتاب يجب أن تقرأ كتبا أخرى؟

ـ في بعض الأحيان يتحتم أن نفعل ذلك. غالبا ما تتحدث الكتب عن كتب أخرى. وغالبا ما يكون كتابا غير مؤذ، كالبذر يزهر من بعد في كتاب خطير، أو العكس، يكون غلّة حلوة من جذور مرّة. ألا يمكنك من قراءة ألبارتو أن تعرف ماذا كان يريد أن يقول توما! أو بقراءة توما معرفة ما قاله ابن رشد؟

فقلت باعجاب «هذا صحيح،» ـ لقد كنت أعتقد الى ذلك الحين أن كل كتاب يتكلم عن الأشياء، الانسانية والالهية، الموجودة خارج الكتب. وتفطنت آنذاك الى أنه ليس من النادر أن تتحدث الكتب عن كتب، أو بالأحرى، ان الكتب كانت وكأنها تتحدث فيما بينها. وعلى ضوء هذه الفكرة، بدت لي المكتبة مخفية أكثر من ذي قبل. فهي اذن مكان لتهامس طويل وسحيق، لحوار لا يدرك بين رق ورقّ، هي شيء حي ومأوى لقوى لا يقدر الفكر الانساني على السيطرة عليها، هي كنز من أسرار ابدعتها عقول كثيرة، وبقيت حية بعد موت من أبدعها أو من كان رسولها. وقلت«ولكن، ما المنفعة اذن من إخفاء الكتب، اذ يمكن من الكتب

المكشوفة الوصول الى الخفية؟»

ـ على مستوى القرون، لا ينفع لشيء. على مستوى السنين والأيام ينفع. أنت ترى، بالفعل، كم نحن تائهان.

فسألته بحيرة «اذن ليست المكتبة اداة لنشر الحقيقة بل لتأجيل ظهورها؟»

ـ ليس دائما ولا بالضرورة. ولكن في حالتنا الراهنة هي كذلك.

ســادســة

وفيه يذهب أدسو لجمع الكمأ ويرى الفرنشسكانيين وهم قادمون ويكون لهؤلاء حديث طويل مع غوليالمو وأوبارتيني وتعرف عدّة أشياء محزنة عن جيوفاني الثاني والعشرين

بعد تلك الاعتبارات قرر أستاذي أن لا يفعل شيئا. لقد سبق أن ذكرت أن نشاطه ينعدم تماما في بعض الأحيان، كما لو أن دورة الكواكب المستمرة قد توقفت، وتوقف هو معها. وهكذا فعل ذلك الصباح. تمدد فوق الحصير وعيناه مفتوحتان في الفراغ، مشبكا يديه فوق صدره ومحركًا شفتيه، بحركة لا تكاد ترى، كأنه يتلو صلاة ولكن دون انتظام ودون خشوع.

مرّ ببالي أنه كان يفكر، وقررت أن أحترم تأمله، وعدت الى الساحة ورأيت أن الشمس قد فترت حدّتها، والصباح الذي كان صافيا وجميلا (بينما كان النهار في نصفه الأول) أضحى رطبا وضبابيا. سحب كبيرة من الشمال كانت تغمر قمة المرتفع وتغطيها بضباب خفيف. كان يبدو ضبابا، وربما كان ضبابا صاعدا من الأرض، ولكن عند ذلك الارتفاع من الصعب التمييز بين الضباب الآتي من تحت وذلك الذي ينزل من فوق. وأصبح من الصعب رؤية أشكال المباني الأكثر بعدا.

رأيت سفيرينو وهو يجمع بابتهاج رعاة الخنازير والبعض من حيواناتهم، وقال لي أنهم سينزلون منحدرات الجبل والى الوادي للبحث عن الكمأ ولم أكن أعرف بعد غلّة الغاب الممتازة تلك التي تنبت في تلك البلاد، وكانت تبدو من خاصيات الأراضي البندكتية، في نورتشيا ـ ولونها أسود ـ أو في تلك الأراضي ـ حيث تكون أنصع وأفوح. وشرح لي سفيرينو ما هي، كم هي لذيذة، عندما تطبخ بمختلف الطرق. وقال لي أنه من الصعب جدا العثور عليها، لأنها مختفية تحت الأرض، وهي أخفى من الفطر، والحيوانات الوحيدة القادرة على العثور

عليها مستعملة الشم هي الخنازير. إلاّ أنه، عندما تعثر عليها فهي تحاول التهامها وينبغي في الحال إبعادها والتدخل لاستخراج الكمأة من الأرض. وعرفت من بعد أن الكثير من الأسياد لا يزدرون تعاطي هذا الصيد، متبعين الخنازير كما لو كانت أنبل كلاب الصيد، ويتبعهم الخدم بدورهم حاملين المجارف. بل وأذكر، بعد ذلك الحدث بسنوات، أحد سادة بلادي الذي سألني لمّا عرف انني زرت ايطاليا، كيف يمكن أن يحمل الأسياد هنالك الخنازير الى المرعى، وضحكت أنا لأنني فهمت أنهم، على العكس، كانوا يبحثون عن الكمأة ولكن عندما قلت له ان هؤلاء كانوا يريدون العثور على الـ «tar_tufo» تحت الأرض لأكله من بعد، رسم بخشوع علامة الصليب وهو ينظر إليّ بدهشة. إذ فهم أنني كنت أقول الـ «der Teufel» أي الشيطان. ثم رُفع الالتباس وضحكنا من ذلك معا. ذلك هو سحر الكلام البشري، الذي باتفاق بشري، غالبا ما يعني، بأصوات مماثلة، أشياء مختلفة.

وحرّكت استعدادات سفيرينو فضولي فقررت أن أتبعه، ولأني فهمت أيضا أنه يخرج لذلك طلباً لتناسي الأحداث المفجعة التي كانت تحزن الجميع، وفكرت أنني بإعانته على تناسي أفكاره قد أنسى أنا أيضا، أو على الأقل أكبح جماح أفكاري. ولا أخفي، بما أنني قررت أن أكتب دائما وفقط الحقيقة، انها كانت تفتنني تلك الفكرة فربما بنزولي الى الوادي قد أتمكن من رؤية شخص لا أقول من هو. ولكني أؤكد لنفسي وأكاد أقول لها ذلك بالصوت العالي أنه بما أننا كنا ننتظر وصول القصادتين، ربما وقع بصري على واحدة منهما من بعيد.

وكان الهواء، كلما نزلنا في منحدرات الجبل، يصبح أكثر صفاء، ليس لأن الشمس عادت للظهور، اذ أن السماء كانت مثقلة بالغيوم، ولكن الأشياء كانت تبين بدقة لأن الضباب بقي فوقنا. بل وأكثر، عندما نزلنا أكثر وأدرت وجهي لأنظر الى قمة الجبل لم أر شيئا: من منتصف المنحدر الى ما فوق، قمة الجبل والسهل والصرح، كل شيء اختفى بين السحاب.

صباح وصولنا الى الدير، عندما بلغنا الجبال كان بامكاننا عند بعض المنعطفات رؤية البحر، على بعد عشرة أميال لا أكثر، بل ربما أقل. كانت سفرتنا ثرية بالمفاجآت، لأننا كنا نجد نفسينا فجأة كما لو كنا فوق شرفة جبلية تفتح من أعلى على خلجان رائعة، وبعد قليل كنا ندخل وسط مضائق عميقة

حيث ترتفع بين الجبال جبال أخرى، وكل منها تحجب عن الأخرى رؤية الساحل البعيد بينما كانت الشمس تنفذ بصعوبة إلى أعماق الأودية. لم أر قط كما رأيت في ذلك المكان من ايطاليا منافذ في ذلك الضيق وفي تلك الفجئية للبحر وللجبال، لسواحل ولمشاهد جبلية. ومن خلال الريح التي تصفر بين الأودية يمكن الاحساس بالصراع المتبادل بين البلاسم البحرية وأنفاس البرّ المثلجة.

ذلك الصباح، على العكس، كان كلّ شيء رماديا، يكاد يكون أبيض كالحليب ولم تكن هناك آفاق حتى عندما تنفتح المضائق على السواحل البعيدة. ولكنني أطيل الحديث حول ذكريات لها أهمية قليلة بالنسبة الى غايات الواقعة التي تشغل بالنا يا قارئي الصبور. واذن لن أذكر الأحداث التي تخللت بحثنا عن الـ «derteufel»، وسأتحدث، على العكس، عن قصادة الاخوان الفرنشسكانيين التي كنت أول من أبصرها وهرعت حالا إلى الدير لإعلام غوليالمو.

وأنتظر أستاذي أن يدخل القادمون الجدد وان يحييهم رئيس الدير وفقا للطقوس. ثم ذهب لملاقاة الجماعة. فكانت سلسلة من المعانقات ومن التحيات الأخوية.

كانت قد أنقضت ساعة الأكل، ولكن أعدت للضيوف مائدة ومن لطف رئيس الدير أنه تركهم فيما بينهم، وحدهم مع غوليالمو، وأعفاهم من وجوب اتباع قاعدة الدير، وتركهم أحرارا في أن يأكلوا ويتبادلوا الآراء في نفس الوقت: اذ في نهاية الأمر، وليغفر لي الرب هذا التشبيه الكريه، كان كمجلس حرب ينبغي أن يلتئم في أقرب وقت قبل أن يصل الضيف الخصم، أي القصادة الأفينيونية.

من العبث أن أقول أن القادمين الجدد التقوا حالا بأوبارتينو أيضا وحيوه بابتهاج واجلال وقد سرتهم المفاجأة لغيابه الطويل وللمخاوف التي صاحبت اختفاءه ولخصال ذلك المناضل الشجاع الذي خاض منذ عشرات السنين نفس المعركة التي يخوضونها الآن.

سأتحدث فيما بعد عن الرهبان الذين يكونون الجماعة، عند الحديث عن اجتماع اليوم الموالي. وأيضا لانني تكلمت معهم قليلا جدا، إذ كنت مهتما بالمجلس الثلاثي الذي التأم فورا بين غوليالمو وأوبارتينو وميكيلي دا تشيزينا.

كان ميكيلي يبدو رجلا غريبا: متوقدا جدا في حماسه الفرنشسكاني (كانت له أحيانا حركات، ونبرات أوبارتينو في لحظات انخطافه الروحي) مع انسانية

وبشاشة كبيرتين في طبيعته الدنيوية، كرجل من جهات رومانيا، يقدّر أطايب المائدة ويسعد برفقة الأصدقاء، حاذقا ومراوغا، وفجأة يصبح متنبها بارعا كالثعلب، مرائيا كالجلذ، عندما يمس الحديث العلاقات بين ذوي النفوذ، قادرا على ضحكات كبيرة وعلى توتر متوهج وعلى صمت فصيح، ماهرا في غض الطرف عن محدثه عندما يتطلب سؤاله أن يخفي رفضه للجواب، متظاهراً بالشرود. لقد كنت تحدثت عنه قليلا في الصفحات السابقة. وكانت أشياء سمعتها عنه، ربما من أشخاص سمعوها بدورهم عن غيرهم. أما الآن فكنت أفهم أحسن الكثير من تصرفاته المتناقضة وتغيرات أغراضه السياسية المفاجئة التي أدهش بها في السنوات الأخيرة أصدقاءه وأتباعه أنفسهم. كان الرئيس العام لنظام الرهبان الفرنشسكانيين. مبدئيا هو خلف القديس فرنشسكو، وفعليا خلف مسؤوليه: كان عليه أن يباري مع قداسة وحكمة سلف مثل بونفانتورا دا بانيوريجيو، كان عليه أن يضمن احترام القاعدة وفي الوقت نفسه مصير النظام الذي أصبح في تلك القوة وفي ذلك الانتشار، كان عليه ان يصغي الى البلاطات والى الحكام المدنيين التي يتحصل منها النظام، ولو في شكل صدقات، على هبات أو وصايا، تمكنه من أسباب الرخاء والثراء، وكان عليه في الآن نفسه أن يحترس من أن تجرّ الرغبة الشديدة في التوبة الروحانيين الأكثر حماسا إلى خارج النظام فتفكك تلك المجموعة الرائعة التي كان على رأسها، الى كوكبة من الجماعات الهرطيقية، كان عليه أن يرضي البابا، والامبراطور، والرهبان الذين أختاروا حياة الفقر، والقديس فرنشسكو الذي كان دون شك يراقبه من السماء، والأمة المسيحية التي تراقبه على الأرض. عندما أدان جيوفاني كل الروحانيين كهراطقة لم يتردد ميكيلي وسلّمه خمسة من بين رهبان بروفانسا الأكثر تصلبا، تاركا الحبر الأعظم يرسل بهم الى المحرقة. ولكنه عندما أحس أن الكثيرين كانوا يتعاطفون مع أتباع البساطة الانجيلية (ولحركة أوبارتينو ضلع في ذلك)، تصرف بطريقة جعلت مجمع بيروجيا، بعد أربع سنوات من ذلك، يتخذ عرائض المحرقين لوائح له. وبطبيعة الحال محاولا أن يتبنى داخل حدود وأسس النظام رغبات، كان يمكن أن تكون هرطيقية، حتى يصبح ما يريده النظام مرادا أيضا من طرف البابا. ولكن، في حين كان ينتظر اقناع البابا، الذي بدون موافقته كان لا يريد أن يمضي الى الأمام، لم يكن يرفض مساعدة الامبراطور واللاهوتيين

الامبراطوريين. قبل سنتين من اليوم الذي رأيته فيه كان قد أمر رهبانه في مجمع ليون العام أن لا يذكروا شخص البابا إلاّ بإعتدال وتقدير (وكان ذلك بعد بضعة أشهر من تهجمات البابا على الفرنشسكانيين واحتجاجاته على «نباحهم، وهفواتهم وحماقاتهم») وها هو الآن على المائدة، صديق حميم لأشخاص كانوا يتحدثون عن البابا بتقدير أقل ما يقال فيه أنه منعدم.

أمّا بقية القصة فقد ذكرتها من قبل. كان جيوفاني يريده في أفنيون، وكان هو يريد ولا يريد الذهاب الى هناك. ولقاء اليوم الموالي كان يجب أن يقرر ظروف وضمانات سفرة لا ينبغي أن تظهر بمظهر الخضوع ولا أن تظهر بمظهر التحدّي. لا أظن أن ميكيلي كان قد لاقى شخصيا جيوفاني، على الأقل منذ أن أصبح بابا. وعلى كل حال لم يكن قد رآه منذ عهد بعيد، فكان رفقاؤه يرسمون له، بألوان قاتمة، صورة ذلك البابا السيموني. وكان غوليالمو يقول له: «يجب أن تعرف شيئا، أن لا تثق بأيمانه، لأنه يحترمها دائما لفظيا وينتهكها جوهريا».

بينما كان أوبارتينو يقول له: «الجميع يعرفون ماذا حدث زمن انتخابه...».

فقاطعه أحد الجالسين إلى المائدة، سمعتهم يدعونه أوغودا نوفوكاسترو، وكانت لهجته قريبة من لهجة أستاذي: «انني لا أسميه انتخابا، بل الزاما، قبل كلّ شيء، ان موت كليمانتي نفسه لم يكن واضحا جدا. ولم يغفر له الملك ابدا وعوده بمحاكمة ذكرى بونيفاسيو الثامن كما لم يغفر له من بعد ما بذله من جهد حتى لا يتنكر لسابقه. لا يعرف أحد جيدا كيف مات في كاربنتراس. على كل عندما أجتمع الكرادلة في كاربنتراس لانتخاب البابا، لم يظهر من بينهم البابا الجديد، لأن النقاش تحول (وذلك ما كان واجبا) الى الاختيار بين رومة وأفينيون. لا أعرف جيدا ماذا حدث في تلك الايام، كانت مجزرة فيما قالوا لي، وقد هدد حفيد البابا المتوفي الكرادلة، واغتيل خدمهم، وأحرق القصر، واستغاث الكرادلة بالملك، فقال هذا الأخير أنه لم يرد أبدا أن يهجر البابا رومة، وطلب منهم أن يتحلّوا بالصبر وأن يحسنوا الاختيار... ثم مات فيليب الجميل، هو أيضا، ويعلم الله كيف مات».

فقال أوبارتينو «أو يعلم الشيطان كيف» ثم رسم علامة الصليب وحاكاه الجميع.

ووافقه أوغو بضحكة استهزاء «أو يعرف الشيطان كيف، على كل خلفه ملك

آخر بقي ثمانية عشر شهرا ثم مات، ومات أيضا بعد بضعة أيام ولي عهده المولود حديثا، وأخذ الملك أخوه الذي كان وصيّاً على العرش. . .»

فقال ميكيلي: «الذي هو بالذات فيليب الخامس. هذا الذي، كان لا يزال كونتا في بواتيي، أعاد شمل الكرادلة الفارّين من كاربنتراس.»

وتابع أوغو: «فعلا، يجمعهم في مجمع انتخاب في ليون في دير الدومينيكان، مقسما أن يصون سلامتهم وأن لا يسجنهم. ولكن ما أن سلّم هؤلاء أنفسهم اليه حتى أغلق الابواب (وكان صائبا في ذلك) ولكن لم يكفه ذلك وأخذ ينقص لهم الأكل يوما بعد يوم ما لم يتخذوا قرارا. وكان يعد كلا منهم بان يسانده في تطلعه الى العتبة البابوية، وعندما جلس على العرش وبعد أن تعب هؤلاء من سجن دام عامين، خائفين ان يبقوا هناك طوال حياتهم يأكلون طعاما رديئا جدا، قبل النهمون كلّ شيء ووضعوا فوق كرسي بطرس ذلك القزم الذي يتجاوز سنه السبعين عاما. . .

فضحك أوبارتيني قائلا «صحيح قزم، وله مظهر مسلول، ولكنه أصحّ وأدهى مما يظنّونه!»

فغمغم أحد أعضاء القصادة «ابن اسكافي».

ولامه أوبارتينو بشدة قائلا: «كان المسيح ابن نجار! ولكن ليس هذا هو الامر. انه رجل مثقف درس القانون في مونبولي والطب في باريس، وعرف كيف يقيم صداقاته بالطريقة التي تمكنه من الحصول على المناصب الأسقفية وعلى القلنسوة الكردلية عندما كان يرى ذلك صالحا. وعندما كان مستشار روبرتو الحكيم في نابولي اذهل الكثيرين بذكائه. وعندما كان أسقف أفينيون أعطى كل النصائح الصائبة (أقول صائبة لأهداف تلك العملية الدنيئة) الى فيليب الجميل لإبادة الهيكليين. وبعد الانتخاب أستطاع النجاة من مؤامرة دبرها الكرادلة لقتله. . ولكن ليس هذا ما كنت أريد قوله، كنت أتحدث عن مهارته في حنث مايقسم عليه دون أن يمكن أتهامه بالحنث. عندما انتخب، وكي ينتخب وعد الكاردينال أورسيني باعادة كرسي البابوية الى رومة، وحلف على القربان المقدس انه لو أخلف وعده فلن يركب أبدا جوادا أو بغلا. أتعرفون ماذا فعل ذلك الثعلب؟ عندما لبس التاج في ليون (ضد ارادة الملك الذي كان يريد أن تقام المراسم في أفينيون) سافر بعد ذلك من ليون إلى أفينيون على زورق!».

فضحك كلّ الرهبان. لقد كان البابا حانثا ولكن لا يمكن أن ننكر انه كان على شيء من الذكاء.

وعلق غوليالمو قائلا: «إنه قليل الحياء. ألم يقل أوغو إنه لم يحاول حتى إخفاء سؤ نيته؟ ألم تقصّ لي أنت، يا أوبارتينو ماذا قال لأورسيني يوم وصوله إلى أفينيون؟»

فقال أوبارتينو «أكيد. لقد قال له إن سماء فرنسا هي من الروعة بحيث لا يرى لماذا يضع قدميه في مدينة مليئة بالخرب مثل رومة. وقال له بما أن البابا كبطرس، له سلطة الحل والعقد، فالآن هو يمارس تلك السلطة، وله هو أن يقرر البقاء حيث هو وحيث يجد نفسه في أحسن حال. وعندما ذكره أورسيني ان واجبه يحتم عليه العيش فوق هضبة الفاتيكان، أمره بجفاء بالطاعة ووضع حدا للنقاش. ولكن قصة القسم لم تنته. عندما نزل من الزورق كان ينبغي أن يمتطي بغلة بيضاء يتبعه الكرادلة فوق خيول سوداء، كما تقضي العادة. ولكنه، على العكس، ذهب الى القصر الأسقفي على قدميه. وما سمعت أنه ركب بعد ذلك أبدا جوادا. وتنتظر من هذا الرجل، يا ميكيلي، أن يحترم الضمانات التي سيعطيها لك؟»

بقى ميكيلي طويلا صامتا ثم قال: «أستطيع أن أفهم رغبة البابا في البقاء بأفينيون، ولا أناقش ذلك. ولكن لا يمكنه مناقشة رغبتنا في الفقر وتأويلنا لمثال المسيح».

فتدخل غوليالمو قائلا: «لا تكن ساذجا يا ميكيلي، رغبتكم، ورغبتنا، تظهر رغبته هو تحت ضوء قاتم. يجب أن تعرف أنه منذ قرون لم يصعد أبدا فوق كرسي البابوية رجل أكثر طمعا. ان بغايا بابل اللاتي كان يدمدم ضدّهن صديقنا أوبارتينو، والاحبار الفاجرين الذين تحدث عنهم شعراء بلادك مثل ذلك الشاعر أليغيري هم حملان وديعة وقنوعة إذا ما قارناهم بجيوفاني. انه عقعق سارق ومراب يهودي. في أفينيون تمارس التجارة أكثر مما يقع في فلورنسا! لقد علمت بالمساومة الخسيسة مع حفيد كليمانتي، بارتران دي غوث، ذلك الذي قام بمجزرة كاربنتراس (وقد حدث فيها من جملة ما حدث سلب الكرادلة مجوهراتهم). لقد وضع هذا الأخير يده على كنز عمه، الذي لم يكن بالشيء القليل، ولم يخف على جيوفاني أي شيء مما كان قد سرقه (في الفتوى البابوية «Cum venerabiles» عدّ بدقة النقود والأوعية الفضية والذهبية والكتب والزرابي

والأحجار الثمينة والحلي. . .) ولكن جيوفاني تظاهر بأنه يجهل أن بارتران حصل على أكثر من مليون ونصف من الفلورينات الذهبية خلال نهب كاربنتراس، وناقشه بخصوص ثلاثين الفا من الفلورينات الأخرى اعترف بارتران انه تسلمها من عمّه للقيام بمهمة «ورعة» أي بحرب صليبية. ووقع الاتفاق بان يحتفظ بارترن بنصف المبلغ للصليبية وأن يذهب النصف الآخر الى كرسي البابوية. ولكن بارتران لم يقم أبدا بالصليبية أو على الأقل لم يقم بها الى الآن، ولم ير البابا ولو فلورينا واحدا. . .

فعقب ميكيلي ملاحظا: «ليس هو إذن بالذكاء الذي يقولونه عنه.»

وأجاب أوبارتينو: «لقد كانت المرة الوحيدة التي خسر فيها لعبة تخص المال. يجب أن تعرف مع أي نوع من التجار ستتعامل. في كل الحالات الأخرى أظهر مهارة شيطانية في جمع الأموال. انه الملك ميداس، ما يلمسه يصير ذهبا يتدفق الى صناديق أفينيون. ما دخلت مرة الى شققه إلاّ ووجدت عنده مموّلين وصيارفة وطاولات محملة بالذهب وقساوسة يحسبون ويكدسون الفلورينات الواحدة فوق الأخرى. . . وسترى أي قصر صنع لنفسه، ببذخ كان ينسب في الماضي فقط لإمبراطور بيزنطة أو للخان الأكبر التتري. والآن تفهم لماذا أصدر كل تلك البراءات ضدّ فكرة الفقر. أتعرف أنه، لشدة كرهه لنظامنا، أجبر الدومينيكان على صنع أصنام لمسيح يحمل التاج الملكي وحلة من الارجوان والذهب وأحذية فخمة؟ لقد علّقت في أفينيون صلبان تحمل عيسى وقد دقّ مسمارا في يد واحدة بينما كانت اليد الأخرى تلمس كيسا معلقا في حزامه، بمعنى أنه يسمح باستخدام الأموال لأغراض دينية. . .»

فصاح ميكيلي: «يا لقلة حيائه! ولكن هذا هو التجديف بعينه!»

وتابع غوليالمو: «لقد أضاف تاجا ثالثا للتاج البابوي، أليس كذلك يا أوبارتينو!»

ـ أكيد في بداية الألف عام اتخذ البابا ألديبراندو تاجا، كتب عليه «تاج الملك من يد الإله» وأضاف بونيفاسيو اللئيم منذ عهد قريب تاجا ثانيا كتب فوقه «إكليل السيادة من يد بطرس» وما كان من جيوفاني إلاّ أن أكمل الرمز: ثلاثة تيجان، السلطة الروحية السلطة الزمنية والسلطة الاكليريكية، انه رمز ملوك فارس، رمز وثني. . .

كان هناك راهب بقي الى ذلك الحين صامتا، منشغلا بورع كبير في التهام الأكلة الطيبة التي أمر رئيس الدير بحملها إلى المائدة. كان يصغي بأذن شاردة إلى الأحاديث المختلفة، مصدرا من حين لآخر ضحكة ساخرة تجاه البابا أو غمغمة تأييد لتعابير السخط المتأتية من الجالسين الى المائدة. وماعدا ذلك كان مهتما بمسح ذقنه من المرق ومن قطع اللحم التي كانت تسقط من فمه النهم، رغم خلوّه من الأسنان، والمرات الوحيدة التي تحدث فيها إلى أحد مجاوريه كانت للتنويه ببعض المأكولات اللذيذة. عرفت من بعد أنه كان السيد جيرولامو، أسقف قيافا، ذلك الذي كان أوبارتينو يظنه، قبل بضعة أيام، قد مات (ويجب أن أقول إن فكرة موته منذ عامين قد جالت كنبأ صحيح عبر كل العالم المسيحي ولوقت طويل، لأنني سمعتها حتى بعد ذلك. وفعلا مات بعد بضعة أشهر من لقائنا ولا أزال أعتقد أنه مات بسبب الغضب الكبير الذي تملكه أثناء اجتماع اليوم التالي، حتى أنني كدت أظنه سينفلق على الفور، لما كان عليه من ضعف الجسم وشدة الانفعال).

تدخل عند ذلك الحد في المناقشة بفم مليئ: «ثم أتعلمون أن ذلك اللئيم قد أعد قانونا حول «الرسوم المقدّسة لمنح الغفران» حيث يتاجر بخطايا رجال الدين لإبتزاز أموال أخرى. إذا ما ارتكب رجل كنيسة خطيئة الجنس، مع راهبة أو مع قريبة أو حتى مع امرأة مهما كانت (لان ذلك يحدث أيضا!) فلن يتمكن من الحصول على الصفح ما لم يدفع سبعا وسبعين ليرة ذهبية واثني عشر فلسا. أمّا إذا أقترف خطيئة بهيمية فتصير أكثر من مائتي ليرة، ولكنه اذا ما ارتكبها مع طفل أو مع حيوان، لا مع امرأة، فتخفض الغرامة بمقدار مائة ليرة. والراهبة التي تبيح جسدها لرجال كثيرين، سواء كانوا معا أو في أوقات مختلفة، داخل الدير أو خارجه، ثم تريد أن تصبح بعد ذلك رئيسة دير، ينبغي عليها أن تدفع مائة وواحدة وثلاثين ليرة ذهبية وخمسة عشر فلسا...»

فأحتج أوبارتينو قائلا: «هلمّ ميسيّر جيرولامو، انك تعرف قلة حبي للبابا، ولكن في هذا يجب أن أدافع عنه! انها تهمة كاذبة أذاعها بعضهم في أفينيون، اني لم أر قط هذا القانون!»

فأكد جيرولامو بحدّة: «انه موجود. أنا أيضا لم أره، لكنه موجود».

فهزّ أوبارتينو رأسه وصمت الآخرون. وفهمت أنهم كانوا متعودون على أن لا

يحملوا ما يقوله ميسيّر جيرولامو محمل الجد، وهو الذي سمّاه غوليالمو في يوم سابق غبيا. على كل حاول غوليالمو أن يستأنف الحوار وقال: «على كل حال، حقيقيا كان أم زائفا، هذا ما يعطينا فكرة عن الجوّ المعنوي الذي يخيم على أفينيون، حيث يعرف الجميع، المستغِلّون والمستغَلّون انهم يعيشون أكثر في سوق منه في بلاط ممثل المسيح. عندما ارتقى جيوفاني الكرسي كان يتحدث عن كنز يساوي سبعين الفا من الفلورينات الذهبية، والآن هناك من يقول أنه جمّع ما يزيد عن عشرة ملايين».

فقال أوبارتينو «هذا صحيح، ميكيلي، ميكيلي، لا يمكنك أن تتصوّر الأشياء المخزية التي رأيتُها في أفينيون».

فأجاب ميكيلي «لنحاول أن نكون منصفين. نحن نعرف أنه حتى اخواننا ارتكبوا تجاوزات. لقد وصلتني أخبار عن فرنشسكانيين يهاجمون بالسلاح أديرة دومينيكية ويجردون رهبانها من أثوابهم ويفرضون عليهم الفقر.. . لذلك لم أجرؤ على معارضة جيوفاني زمن أحداث بروفانسا.. . أريد أن أصل الى أتفاق معه، لن أذل كبرياءه، سأطلب منه أن لا يذل خشوعنا. لن أحدثه عن المال، سأسأله فقط أن يقبل تأويلا سليما للكتابات. وهذا ما ينبغي أن نفعل مع مبعوثيه، غدا. انهم في نهاية الامر رجال لاهوت، ولن يكونوا كلهم جشعين كجيوفاني. وعندما يأخذ رجال حكماء قرارات تخصّ تأويل الكتابات فلن يمكنه.. .»

فقاطعه أوبارتينو: «هو؟ بل أنت لا تعرف خبله في الميدان اللاهوتي. انه يريد فعلا أن يربط كل شيء بيده، في السماء وعلى الأرض. لقد رأينا ماذا فعل على الأرض. أما في السماء.. . هوذا، انه لم يصرح بالافكار التي أذكرها، على الأقل ليس علنا، ولكني أعرف بالتأكيد انه همس بها الى بعض ثقاته. انه بصدد اعداد بعض المقترحات الجنونية، ان لم تكن المنحرفة، والتي ستغير جوهر المذهب نفسه وتفرغ خطبنا الوعظية من كل قوّة وفعالية».

فسأله كثيرون «ما هي؟»

ـ اسألوا برينغاريو، فهو يعرف، لقد قال لي هو ذلك. ـ وأشار الى برينغاريو تالّوني، الذي كان في السنوات السابقة أحد خصوم البابا الأكثر عزما في بلاطه. كان آتيا من أفينيون والتحق منذ يومين بجماعة الفرنشسكانيين الآخرين ووصل معهم الى الدير.

فقال برينغاريو: «انها قصة غامضة، لا تكاد تصدق. يبدو أن جيوفاني ينطوي على فكرة ان الصالحين لن ينعموا بالرؤية الطوبوية إلاّ بعد يوم القيامة. وهو منذ زمن طويل يتأمل في البيت التاسع من الباب السادس للرؤيا، وفيه يذكر فك الختم الخامس: حيث يظهر تحت المذبح أولائك الذين قتلوا ليشهدوا بكلمة الرب ويطلبوا الانصاف. والى كل منهم يُعطى ثوب أبيض ويطلب منهم أن يصبروا قليلا... وهذا، حسب استنتاج جيوفاني، دليل على انهم لا يمكنهم رؤية الرب في جوهره إلاّ عند اكتمال يوم الحساب.

فسأله ميكيلي ذاهلا: «ولكن لمن قال هذه الأشياء؟»

- إلى حد الآن لبعض ثقاته، ولكن الخبر ذاع، ويقال إنه يعد مداخلة مفتوحة.

فضحك جيرولامو بسخرية وهو يمضغ «ها، ها»

- ولا يكفي هذا، يبدو انه يريد أن يذهب الى أبعد من ذلك مؤكدا أن الجحيم أيضا لن يفتح قبل ذلك اليوم... حتى للابالسة.

فصاح جيرولامو: «ليكن سيدنا عيسى في عوننا. وماذا سنقول للمذنبين ان لم نهددهم بجحيم فوري، حالا بعد الموت!»

وقال أوبارتينو «إننا في قبضة مجنون. ولكني لا أفهم لماذا يريد تأكيد كل هذه الأشياء...»

فقال جيرولامو متشكيا «ان مذهب الصفح كله يتلاشى كالبخار، وهو لا يمكنه الاتجار به. لماذا يدفع راهب ارتكب خطيئة بهيمية كل تلك الليرات الذهبية لتفادي عقاب بعيد الأمد؟»

فقال أوبارتينو بقوة «ليس بالبعد الذي تعتقده، فالآجال قريبة!» - فصاح جيرولامو الذي يبدو أنه لم يعد يلتذ بالأطعمة الموجودة أمامه:

- أنت تعرف ذلك أيها الأخ العزيز، ولكن البسطاء لا يعرفون. يا للفكرة الفاسدة، قد يكون أوحى بها اليه أولئك الرهبان المبشرون... آه! ثم هزّ رأسه. بينما ردد ميكيلي داتشيزينا «ولكن لماذا؟»

فقال غوليالمو «لا أظن أن هناك سببا. انه دليل على أنه فعل ذلك ليرضي غروره. يريد أن يكون حقيقة هو صاحب الحل والربط في الامور السماوية والأرضية. كنت على علم بهذه الشائعات، لقد كتب إليّ في ذلك غوليالمو دا أوكّام. سنرى في النهاية من سينتصر، البابا أم علماء اللاهوت وصوت الكنيسة

كلّها ورغبات شعب الرب والاساقفة. .»

فقال ميكيلي بحزن: «أوه، في المسائل المذهبية يقدر أن ينحني حتى رؤوس علماء اللاهوت».

فأجاب غوليالمو: «ليس بالضرورة. اننا نعيش في عصر لا يهاب فيه العلماء في الامور الدينية التصريح بان البابا هرطيق. وعلماء الامور الدينية هم بطريقة ما صوت الامة المسيحية. ولن يقدر البابا أبدا أن يقف ضدها».

فهمس ميكيلي مروّعا: «من شيء الى أسوأ. من جهة بابا مجنون، ومن جهة أخرى شعب الرب، ولو على لسان علمائه في اللاهوت، سيدّعي مستقبلا تأويل الكتابات بحرّية. . .»

فسأله غوليالمو: «لماذا؟ وماذا فعلتم انتم في مجمع بيروجيا؟»

واهتزّ ميكيلي وكأنه لدغ في موضع حساس «ولذا أريد مقابلة البابا، اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا دون موافقته».

وردّ غوليالمو بنبرة غامضة «سنرى، سنرى».

لقد كان أستاذي حقيقة ثاقبا. كيف كان بامكانه ان يتوقع بان ميكيلي نفسه سيقرر فيما بعد الاستعانة بعلماء اللاهوت الامبراطوريين وبالشعب لادانة البابا؟ كيف كان بامكانه ان يتوقع انه، بعد أربع سنوات من ذلك وبعد ان أعلن جيوفاني للمرّة الاولى فكرته المذهلة، ستقع انتفاضة للمسيحية بأسرها؟ لو تأخرت الرؤية الطوبوية كل ذلك التأخير كيف يمكن للموتى ان يتوسطوا للأحياء؟ وماذا سيكون مآل عبادة القديسين. وسيكون الفرنشسكانيون بالذات هم الذين سيبدأون المناهضة مدينين البابا وفي مقدمتهم سيكون غوليالمو دا أوكّام، صارما، لا يلين في حججه. وسيدوم الصراع ثلاث سنوات الى ان يقوم جيوفاني، وقد قرب من الموت، بتكفير جزئي. وسمعتهم يصفونه، بعد أعوام، كيف ظهر في مجلس الكرادلة في ديسمبر 1334، أصغر حجما مما كان عليه أبدا الى ذلك الحين وقد أيبسته السنون، مناهزا التسعين ومحتضرا، شاحب الوجه وقال (وكان كالثعلب يتلاعب بالكلمات، لا ليحنث في ايمانه فحسب ولكن ليرتد أيضا عن أفكاره العنيدة): «اننا نعترف ونعتقد أن الأرواح المنفصلة عن الأجساد والمطهرة تماما تصعد الى السماء، الى الفردوس مع الملائكة، ومع عيسى المسيح، وانها ترى الرب في جوهره الرباني، بوضوح ووجها لوجه. . .» ثم سكت بعض الوقت،

ولا يدري أحد ان كان لصعوبة التنفس أو لإرادته الضالة لإبزاز الفقرة الأخيرة كاعتراض، مضيفا «بالقدر الذي تسمح به حالة وظروف الروح المنفصلة عن الجسد.» وفي الصباح الموالي وكان يوم أحد، طلب أن يمدّدوه فوق كرسي طويل، محني الظهر وتسلّم قبلة اليد من كرادلته ومات.

ولكنني أخرج من جديد عن الموضوع، وأقصّ غير ما يجب عليّ روايته. وذلك لأن بقية الحوارات على المائدة كانت لا تضيف في الحقيقة شيئا كثيرا لفهم الأحداث التي أرويها. واتفق إذن الفرنشسكانيون على السلوك الذي سيسلكونه في اليوم التالي. وقوموا منافسيهم واحدا واحدا، معلّقين بانشغال على النبأ الذي أخبر به غوليالمو عن قدوم برناردو غي، وأكثر منه على أن رئيس القصادة البابوية سيكون الكاردينال دل بودجيتو. محققان اثنان، هذا كثير، ويدلّ على وجود نية استعمال حجة الهرطقة ضد الفرنشسكانيين.

وقال غوليالمو: «ليكن، ونحن أيضا سنصفهم بأنهم هراطقة.»

فقال ميكيلي: «لا، لا، لنتصرّف بحذر، لا ينبغي أن نجازف بتضييع أي اتفاق محتمل.»

فقال غوليالمو: «انني حسب ما يقدر عليه فهمي، ورغم اني سعيت لتحقيق هذا اللقاء، وأنت تعرف ذلك يا ميكيلي، فلا أظن ان الأفينيونيين قادمون الى هنا للخروج بأية نتيجة أيجابية. جيوفاني يريدك وحدك في أفينيون ودون ضمانات. ولكن هذا اللقاء سيصلح على الأقل لشيء، وهو أن يفهمك ذلك. ولو ذهبت اليه دون أن تكون لك هذه التجربة لكان الأمر أدهى».

فأجاب ميكيلي بمرارة «وهكذا بذلت ما في وسعك مدّة شهور عديدة، لتحقيق شيء تعتقد أنه بلا جدوى».

فقال غوليالمو: «لقد طلبوا مني ذلك. طلبته مني أنت وطلبه مني الامبراطور. وأخيرا، ليس أبدا دون فائدة ان يعرف المرء خصومه أكثر».

وعند ذلك الحد جاء أحدهم لاعلامنا بأن القصادة الثانية قد وصلت. فنهض الفرنشسكانيون وذهبوا لاستقبال رجال البابا.

تاسعـــة

وفيه يصل الكاردينال دل بودجيتو، وبرناردو غي ورجال أفينيون الآخرون، ثم يقوم كل واحد بأشياء مختلفة

رجال يعرف بعضهم البعض منذ زمن، ورجال دون سابق معرفة عن بعضهم البعض كانوا يتبادلون التحية في الساحة، ظاهريا بوداعة. كان الكاردينال دل بوجيتو يتحرّك بجانب رئيس الدير كمن له إلف بالسلطان، كما لو كان هو نفسه بابا ثانيا، موزّعا على الجميع، وخاصة على الفرنشسكانيين ابتسامات أخوية، راجيا حصول اتفاقات رائعة من لقاء اليوم التالي، ومبلغا أدعية جيوفاني الثاني والعشرين بالسلام والخير (واستعمل قصدا هذه العبارة الأثيرة عند الفرنشسكانيين).

وعندما تفضل غوليالمو بتقديمي اليه كتلميذه وككاتبه قال لي «أحسنت، أحسنت،» وسألني إن كنت أعرف بولونيا وأثنى على جمالها وعلى أكلها الطيب وعلى جامعتها الرائعة ودعاني الى زيارتها عوضا عن العودة يوما، كما قال، بين قومي الالمان الذين كانوا يؤلمون بذلك الشكل سيدنا البابا. ثمّ مد إليّ الخاتم لتقبيله بينما كانت ابتسامته اتجهت الى آخر.

رمن جهة أخرى اتجه انتباهي حالا الى الشخص الذي سمعت عنه أكثر خلال تلك الأيام: برناردو غي، كما يسميه الفرنسيون، أو برناردو غويدوني أو برناردو غويدو كما يسمّونه في بقاع أخرى.

كان دومينيكيا يناهز السبعين، نحيفا ولكن مستقيم الهيئة. وراعتني عيناه الرماديتان، الباردتان، والقادرتان على التحديق فيك دون تعبير، واللتان رأيتهما في كثير من الأحيان تلمعان على العكس تلمعان بوميض غامض، وكان بارعا سواء في اخفاء أفكاره وعواطفه أو في التعبير عنها قصدا. وفي التبادل العام

للتحيات لم يكن كالآخرين ودودا أو أخويا، بل دائما في حدود اللياقة فحسب. وعندما رأى أوبارتينو، الذي كان يعرفه، كان معه مؤدبا ولكنه حدّق فيه بطريقة جعلتني أشعر بارتعاشة قلق. وعندما حيّا ميكيلي دا تشيزينا بدت عليه ابتسامة يصعب تفسيرها وهمس دون حرارة «انهم ينتظرونك هناك منذ وقت طويل».

ولم أتمكن من أن ألمس في تلك الجملة لمحة انشغال أو ظل سخرية، أو إصدار أمر ولا حتى نبرة اهتمام. وتلاقى مع غوليالمو، وعندما عرف من هو نظر اليه بضغينة مؤدبة. وليس لأن وجهه نمّ عن مشاعره الخفية ـ كنت متأكدا من ذلك (حتى وإن كنت متشككا ان كانت له أبدا مشاعر مهما كان نوعها)، ولكنه كان دون شك يريد أن يحسّ غوليالمو بتلك الضغينة. وبادله غوليالمو العداوة مفرطا في المودة، قائلا له «كنت أود منذ زمن أن أعرف الرجل الذي كانت شهرته بالنسبة إليّ درسا وتحذيرا في الكثير من القرارات الهامة التي ألهمت حياتي». وكانت تبدو دون شك جملة إطراء تكاد تكون تملقية لمن كان لا يعرف، بينما كان برناردو على العكس يعرف، ان من أهم القرارات التي اتخذها غوليالمو في حياته هي تركه لمهنة المحقق وخيّل إليّ أنه إذا كان غوليالمو يود رؤية برناردو في أحد السجون الامبراطورية فإن برناردو كان يرى بعين الرضى ان تخطف الأخ غوليالمو موتة مباغتة وفورية. وبما أنه كان تحت أوامر برناردو رجال سلاح في تلك الأيام، فقد خفت على حياة أستاذي الطيب.

وكان برناردو قد علم عن طريق رئيس الدير بالجرائم المرتكبة في الدير. وفعلا تظاهر بعدم فهم ما في جملة غوليالمو من خبث وقال له « يبدو أنه في هذه الأيام، بأمر من رئيس الدير، وكي أقوم بالمهمة التي عهدت إليّ في نطاق الاتفاق الذي يجمعنا هنا، ينبغي عليّ أن أهتم بأحداث مفجعة تشتم من ورائها رائحة الشيطان النتنة. وأقول لك ذلك لأني أعرف أنك في أوقات بعيدة، حيث كان بإمكانك أنت أيضا أن تكون قريبا مني، إلى جانبي، وألى جانب أمثالي، كنت قد كافحت في ذلك الميدان الذي كانت فيالق الخير تواجه فيه فيالق الشرّ».

فقال غوليالمو بهدوء: «فعلا، ولكنني مررت بعد ذلك إلى الشق الآخر». فتقبل برناردو تلك الضربة ببراعة وقال «أيمكنك أن تقول لي شيئا مفيدا حول هذه الأحداث الاجرامية؟»

فأجاب غوليالمو بأدب «لسوء الحظ، لا. ليست لي تجربتك في الأشياء الاجرامية».

ومنذ ذلك الحين إلى ما بعد فقدت آثار كل منهما. بعد محادثة أخرى مع ميكيلي وأوبارتينو اختلى غوليالمو بنفسه في قاعة الكتابة، وطلب من ملاخي أن يطالع بعض الكتب، لم أتمكن من سماع عناوينها. ونظر إليه ملاخي بصفة غريبة ولكنه لم يقدر على منعه منها والغريب في الأمر أنها لم تستوجب جلبها من المكتبة، كانت كلها فوق طاولة فينانسيو. وغرق أستاذي في القراءة فقررت أن لا أزعجه.

نزلت إلى المطبخ. وهناك رأيت برناردو غي. ربما كان يّريد أخذ فكرة عن حياة الدير وأخذ يطوف في كل مكان. وسمعته يستنطق الطباخين وخدما آخرين، متكلما ما أمكنه بلهجة تلك الجهة (وتذكرت أنه كان فيما مضى محققا في إيطاليا الشمالية). وخيّل إليّ أنه كان يطلب معلومات حول المحاصيل وحول تنظيم العمل في الدير. ولكن حتى عندما كان يلقي الأسئلة الأكثر براءة فقد كان ينظر إلى محدّثه بعينين ثاقبتين، ثم يلقي فجأة سؤالا جديدا وعند ذلك يشحب وجه ضحيته ويتلعثم. واستنتجت أنه كان يحقق، بطريقة من الطرق، فريدة من نوعها. وكان يستعمل سلاحا رهيبا، يملكه كل محقق عند القيام بمهامه ويستعمله وهو خوف الآخرين. لأنه في العادة كل معني بالتحقيق، خشية أن يشتبه فيه، يقول للمحقق ما يمكن أن يلقي بالشبهة على شخص آخر.

وطوال بقية العشية، وأينما ذهبت، رأيت برناردو يفعل ذلك، إما قرب الطواحين أو في الرواق. ولكنه لم يواجه أبدا أو نادرا الرهبان، وإنما كان دائما يسأل الاخوان العوام أو الفلاحين. عكس ما فعل غوليالمو إلى ذلك الحين.

صلاة الستّار

وفيه يبدو أن أليناردو يعطي معلومات ثمينة، ويكشف غوليالمو عن منهجه للوصول إلى حقيقة محتملة من خلال سلسلة من الأخطاء المؤكدة

بعد قليل نزل غوليالمو من قاعة الكتابة وهو بشوش. وبينما كنا ننتظر ساعة العشاء وجدنا في الرواق أليناردو. وبما أني تذكرت طلبه كنت قد أخذت معي منذ اليوم الفارط قليلا من الحمص من المطبخ وأعطيتها له. فشكرني ودسها في فمه الخالي من الأسنان والمليئ باللعاب ثم قال لي: «أرأيت أيها الصبي، الجثة الأخرى كانت هي أيضا في الموضع الذي أنبأ به الكتاب. . . انتظر الآن البوق الرابع!».

فسألته ما الذي جعله يظن أن مفتاح سلسلة الجرائم يوجد في كتاب التنزيل. فنظر إليّ بدهشة قائلا: «ان كتاب يوحنا هو مفتاح كل شيء!» وأضاف بتكشيرة شنعاء «لقد كنت أعرف ذلك، وكنت أقول ذلك منذ زمن طويل. . . لقد كنت أنا، أتعرف ذلك، الذي عرض على رئيس الدير. . . رئيس الدير في ذلك الوقت، ان يجمع أكثر ما يمكن من تفاسير كتاب الرؤيا. كنت سأصبح أنا حافظ المكتبة. . . ولكن الآخر تمكن من الحصول على ترخيص بالذهاب الى سيلوس، حيث وجد أجمل المخطوطات وعاد بغنيمة رائعة. . . آه، لقد كان يعرف أين يجب أن يبحث، وكان يتكلم لغة الكافرين. . . وهكذا تحصل هو على مهمة حفظ المكتبة، لا أنا. ولكن الرّب عاقبه وأدخله قبل الأوان إلى عالم الظلمات، ها، ها. . .» وضحك ضحكة شريرة، ذلك الشيخ الذي بدا لي الى ذلك الحين غارقا في سلام شيخوخته، كأنه طفل بريئ. فسأله غوليالمو «من ذلك الذي تتحدث عنه؟»

فنظر الينا بدهشة مجيبا «عمّن كنت أتحدث؟ لا أذكر. . . كان ذلك منذ زمن بعيد. ولكن الرب يعاقب. الرب يمحو، الرب ينزل الظلام حتى على الذاكرة. لقد ارتكبت في المكتبة الكثير من الأعمال التي تنم عن الكبرياء. خاصة عندما سقطت بين أيدي الأجانب. الرب لا يزال يعاقب. . . ».

ولم يكن بإمكاننا أن ننتزع منه كلمات أخرى فتركناه لهذيانه الهادئ والمشحون بالحقد. بينما قال غوليالمو إنه وجد ذلك الحوار هاما «يجب أن نستمع الى ما يقوله أليناردو. مَا تكلّم إلاّ وقال شيئا هاما»

ـ وماذا قال هذه المرّة؟

فأجاب غوليالمو: «أدسو، ان حلّ لغز غامض ليس كاستنتاج من علل أولى. ولا يعادل حتى جمع عدة معطيات معينة ثم الخروج منها بقاعدة عامة. بل يعني بالأحرى اننا نجد أنفسنا أمام معلومة أو معلومتين أو ثلاث معلومات معينة لا شيء البتة يجمع بينها في الظاهر، ونحاول تصوّر انها يمكن أن تكون حالات متعددة لقاعدة عامة لا نعرفها وربما لم تبيّن أبدا. أكيد أنك لو عرفت ـ كما يقول الفيلسوف ـ ان الانسان والحصان والبغل جميعا لا مِرّة لهم ويعيشون طويلا، أمكنك أن تحاول وضع مبدأ أن الحيوانات التي ليست لها مِرّة تعيش طويلا. ولكن تصوّر حالة الحيوانات التي لها قرون. لماذا تملك قرونا؟ وتتفطن فجأة إلى أن كل الحيوانات التي لا تملك قرونا لا تملك أيضا أسنانا في الفك الأعلى. يكون اكتشافا عظيما اذا لم تتفطن، وأسفاه، الى أن هناك حيوانات دون أسنان في الفك الأعلى ومع ذلك ليست لها قرون، كالجمل. وأخيرا تتفطن الى أن كل الحيوانات التي لا تملك أسنانا في الفك الأعلى تملك معدتين. حسن، يمكنك أن تتصور أن من لا يملك أسنانا كافية لا يمضغ جيدا وتلزمه اذن معدتان لهضم الأكل هضما جيدا. ولكن القرنين؟ تحاول اذن أن تتصور علّة مادية للقرنين، وهي ان انعدام الأسنان يمنح الحيوان طفحاً عظميّاً ينبغي أن يبرز في مكان ما من الجسم. ولكن هل هو تفسير كاف؟ كلاّ، لأن الجمل لا يملك أسنانا عليا، وله معدتان، ولا يملك قرنين. واذن ينبغي أن تتصور علّة نهائية، ان المادة العظمية تبرز في شكل قرون فقط عند الحيوانات التي لا تملك وسائل دفاعية. بينما الجمل له جلد قويّ جدا ولا حاجة له بالقرون. اذن يمكن أن تكون القاعدة. . . ».

فقاطعته وقد نفذ صبري: «ولكن ما دخل القرون؟ ولماذا تهتم بالحيوانات التي لها قرون؟»

ـ انني لم أهتمّ بها أبدا، ولكن أسقف لنكولن اهتمّ بها كثيرا، متتبعاً فكرة لأرسطو. بصراحة، لا أعرف ان كانت الحجج التي وجدها هي الصحيحة، كما لم أتحقق أبدا أين يملك الجمل أسنانا، وكم معدة له، ولكن كل هذا لأقول لك إن البحث عن القواعد التفسيرية، الأشياء الطبيعية، يتقدم بطريقة متعثرة. أمام بعض الظواهر التي يمكن شرحها يجب أن تتصور عدة قوانين عامة، لا ترى بعد علاقتها بالظواهر التي تهتم بها: وفجأة في إرتباط مفاجئ لنتيجة، لحدث أو لقاعدة، يظهر لك استنتاج مقنع أكثر من الاستنتاجات الأخرى فتحاول أن تطبقه على كل الحالات المماثلة، وان تستعمله لتستنتج منه تكهنات، وتكتشف أن تخمينك كان صحيحا. ولكنك لن تعرف الى النهاية ما هي المحمولات التي ينبغي اعتبارها في برهنتك وما هي تلك التي ينبغي الاستغناء عنها. وهكذا أفعل أنا الآن. أصفف عدة عناصر لا ارتباط بينها، وأتخيل افتراضات. ولكن ينبغي أن أتصور العديد من الافتراضات، والكثير منها هو من السخافة بحيث أخجل من عرضها عليك. مثلا، بشأن الجواد برونيلو، عندما رأيت الآثار، تصورت الكثير من الافتراضات المكمّلة والمتناقضة: كان يمكن أن يكون جوادا هاربا، كان يمكن أن يكون رئيس الدير قد نزل المنحدر ممتطيا ذلك الجواد الجميل، كان يمكن أن يكون جواداً اسمه برونيلو قد ترك الآثار على الثلج وترك جواد آخر اسمه فافيلو، في اليوم السابق، الشعر عالقا بالعوسج، وان يكون أناس قد كسروا الأغصان. ولم أكن أعرف أي الافتراضات كانت صحيحة إلاّ عندما رأيت القيم والخدم يبحثون بقلق. عند ذلك فهمت أن افتراض برونيلو فقط هو الصحيح، وحاولت التحقق من صحته بمخاطبة الرهبان كما فعلت، ونجحت، ولكن كان يمكنني أن أخفق. وظنني الآخرون حكيما لأنني نجحت، ولكنهم لايعرفون الحالات الأخرى الكثيرة التي ظهرت فيها بمظهر الغبي لأنني أخفقت، ولم يكونوا يعرفون انني قبل بضع ثوان لم أكن واثقا من أنني لن أخفق. الآن، وحول أحداث هذا الدير، لدي الكثير من الافتراضات، ولكن ليس هناك أي حدث جليّ يسمح لي بالقول أي منها أفضل. ولذا، وحتى لا أظهر غبياً من بعد، فأنا أعدل الآن عن الظهور فطنا. اتركني أفكر، إلى غد، على الأقل».

فهمت عندئذ منهج أستاذي في التفكير، وبدا لي مختلفا جدا عن منهج الفيلسوف الذي يفكر في العلل الأولى، بحيث يكاد يسلك عقله طرق العقل الالهي. وفهمت أن غوليالمو، عندما لا يكون لديه جواب، يعرض على نفسه أجوبة متعددة ومختلفة جدا فيما بينها. وبقيت محتارا وقلت له بجرأة: «إذن، أنت لا تزال بعيدا عن الحل...»

فأجاب غوليالمو: «اني قريب جدا منه، ولكن لا أدري من أي حل».

- إذن ليس لديك جواب واحد لأسئلتك؟ - أدسو، لو كان لديّ جواب لدرّست اللاهوتية في باريس.

- ألديهم دائما الجواب الصحيح في باريس؟

فقال غوليالمو «أبدا، ولكنهم متأكدون غاية التأكد من أخطائهم». فقلت بوقاحة صبيانية «وأنت، ألا تخطئ أبدا؟»

فأجاب «كثيرا، ولكن عوضا عن تصور خطأ واحد أتصور الكثير من الأخطاء. وهكذا لا أصبح سجين أي منها».

وبدا أن غوليالمو لا تهمه كثيرا الحقيقة، التي ليست سوى التطابق بين الشيء والعقل، كان هو، على العكس، يتسلى بتصور أكثر ما يمكن من الامكانيات.

أعترف أنني في تلك اللحظة يئست من أستاذي ووجدت نفسي أفكر: «من حسن الحظ أن محكمة التفتيش قد وصلت»، وانحزت الى تعطشي لمعرفة الحقيقة، ذلك التعطش الذي كان يحرك برناردو غي. وفي تلك الحالة الفكرية المذنبة، وقد فاق ارتباكي ارتباك يهوذا ليلة الخميس المقدس، دخلت مع غوليالمو الى قاعة الأكل لتناول طعام العشاء.

صلاة النـــوم

وفيه يتحدث سلفاتوري عن سحر معجز

كان العشاء المعد للقصادة رائعا. لا شك أن رئيس الدير كان على معرفة جيدة بميول الانسان من ناحية وبعادات البلاط البابوي من ناحية أخرى (والتي، يجب أن أقول، أعجبت أيضا رفاق ميكيلي). كان من المفروض أن تكون هناك الفصائد المصنوعة حسب طريقة كاسّينو، كما قال لنا الطباخ، بدم الخنازير التي ذبحت منذ أيام قليلة. ولكن نهاية فينانسيو المفجعة أجبرت الطباخين على القاء كل دماء الخنازير، في انتظار أن تذبح خنازير أخرى. ومن ناحية أخرى أظن أنه في تلك الأيام كره الجميع قتل مخلوقات الرب. ولكن كانت هناك فراخ حمام قد نقعت في خمر تلك الجهات، وأرانب مشوية كما تشوى الخنوصات، وأقراص القديسة كيازا، وأرز بلوز تلك الجبال، بعبارة أخرى الأكل الأبيض بمناسبة الاحتفال بالبَيْرمون، خبز مقلي بالحمحم، زيتون محشو، جبن مقلي، لحم نعجة بمرق فلفل نيء، فول أبيض، وحلويات لذيذة، أقراص القديس برناردو، ومرطبات القديس نيكولا، وعوينات القديسة لوتشيا، وخمور، وروح شراب من نباتات جعلت الجميع ينشرحون، حتى برناردو غي، الذي هو في العادة صارم: روح الترنجان، والجوز، وخمر ضد النقطة وخمر جنطيانة. كان يبدو اجتماع أكولين،لو لم تكن كل جرعة وكلّ لقمة مصحوبة بقراءات خاشعة.

وأخيرا نهض الجميع وهم على غاية من الجذل، واختلق بعضهم توعكا مفاجئا لعدم النزول لصلاة النوم. ولكن رئيس الدير لم يتأذّ من ذلك. ليس الجميع مطالبا بالواجبات التي يطالب بها من كرّس نفسه لرهبانيتنا.

وبينما كان الرهبان خارجين تباطأت بفضول في المطبخ، حيث كانوا يتهيأون للغلق الليلي. فرأيت سلفاتوري ينسل نحو المبقلة حاملا في يديه لفافة. وحرّك

ذلك فضولي فتبعته وناديته. وحاول هو ان يتجنبني ثم، إزاء أسئلتي أجاب أنه يحمل في الصرة (التي كانت تتحرك كما لو كان بداخلها شيء حي) عظاءة.

ـ حاذر من العظاءة، ملكة الثعابين، مليئة بالسم حتى انه ينضح منها في الخارج. أقول لك السم، ان رائحته تخرج وتقتلك، تسمّمك... ولها بقع بيضاء على الظهر ورأسها كرأس الديك، ونصفها يمشي واقفا فوق الأرض والنصف الآخر يزحف على الأرض كالثعابين الأخرى. ويقتلها السرعون...

ـ السرعون؟

ـ نعم، إنه حيوان صغير جدا، أطول بقليل من الفأر، ويبغضه الفأر كثيرا. والثعبان أيضا والضفدع السام. وعندما تعضه احداها يجري السرعوب الى الشمرة أو الى السرخس ويأكل منها، ويقولون إنه يعود بعد ذلك للقتال وإن الأنثى تلد من عينيها، ولكن أغلب الناس يقولون انهم على خطأ.

فسألته ماذا يفعل بعظاءة وأجاب أنه أمر يخصه. فقلت له، وقد التهمني الفضول، انه في تلك الأيام ومع كل تلك الميتات لم تعد هناك أمور سرية، وانني سأقول ذلك لغوليالمو. عندئذ توسل إليّ سلفاتوري بحرارة أن أسكت وفتح الصرة وأراني قطاً أسود. ثم جذبني اليه وقال لي بابتسامة فاجرة انه لم يعد يقبل أن يحظى القيم أو أحظى أنا بحب بنات القرية لأن أحدنا ذو نفوذ والآخر شاب جميل، بينما يحرم هو لأنه دميم وبائس. وانه يعرف سحرا معجزا لاسقاط كل النساء في شرك الحب. ينبغي قتل قط أسود وإقتلاع عينيه، ثم وضعهما داخل بيضتين باضتهما دجاجة سوداء، عين في كل بيضة، (وأراني بيضتين مؤكدا لي أنه أخذهما من الدجاجات المعنية). وينبغي وضع البيضتين كي تنتنا وسط كومة من روث جواد (وقد أعد كومة في ركن من المقبلة لا يمرّ به أحد)، وسيولد من كل بيضة عفريت صغير يكون من بعد في خدمته ويجلب اليه كل ملذات الدنيا. وأضاف لكن، وأسفاه، كي ينجح السحر يجب أن تبصق المرأة، التي يريد حبها، على البيضتين قبل أن يدفنهما في الروث. وكان ذلك يشغله، اذ يجب أن تكون المرأة المعنية بجانبه تلك الليلة، وان تقوم بما يطلب منها دون أن تعرف الهدف من العملية.

فأحسست عندئذ بنار تستعر في وجهي، أو في أحشائي، أو في كامل بدني، وسألته بصوت لا يكاد يسمع ان كان سيدخل تلك الليلة الى الدير فتاة الليلة

الماضية. فضحك، ساخرا مني، وقال اني حقيقة فريسة إغراء كبير (فأنكرت وقلت اني أسأله بدافع الفضول فقط). ثم قال لي ان هناك نساء كثيرات في القرية، وانه سيأتي بإمرأة أخرى، أجمل من تلك التي أعجبتني. وخمنت أنه يكذب ليبعدني عنه. ومن ناحية أخرى ماذا كان بإمكاني أن أفعل؟ ان أتبعه كامل الليل بينما كان غوليالمو ينتظرني لأشياء أخرى أهم؟ وأن أعود لأرى تلك التي (ان كانت هي المعنية) تدفعني شهواتي اليها بينما كان عقلي يبعدني عنها، والتي لا يجب أبدا أن أراها حتى وإن كنت دائما أرغب في رؤيتها مرّة أخرى! أكيد لا. ولذا أقنعت نفسي بأن سلفاتوري كان يقول الحقيقة فيما يخص المرأة، أو أنه كان يكذب بخصوص كل شيء، وان السحر الذي كان يتحدث عنه هو خيال من فكره الساذج والخرافي، وانه لن يفعل شيئا من ذلك.

واحتدّ غضبي وأنبته بعنف، وقلت له أنه من الأفضل أن يذهب تلك الليلة للنوم، لأن الجند يطوفون في الساحة. فأجاب أنه يعرف الدير أحسن من الجند، وأن ذلك الضباب لن يسمح لأحد بأن يرى الآخر ـ وأضاف: «بل وأكثر، الآن سأذهب وحتى أنت لن تراني، حتى ولو كنت هناك على بعد خطوتين منك وأنا أستمتع بالفتاة التي ترغب فيها». وقال ذلك بعبارات أخرى، أوقح جدا، ولكن ذلك كان معناها. فأبتعدت ساخطا، لأن مثلي، نبيلا وراهبا مبتدئا، لا يمكنه حقا أن يكون منافسا لذلك الوغد.

والتحقت بغوليالمو وعملنا ما كان ينبغي أن نعمل. أي أننا تهيأنا لحضور صلاة النوم، في آخر صحن الكنيسة، بحيث نكون مستعدين حالما ينتهي الفرض لسفرتنا الثانية (وبالنسبة اليّ الثالثة) في أعماق المتاهة.

بعْد صـلاة النــوم

وفـيـه يـزور أدسو وغوليالمو المتاهـة مـن جديـد، ويصلان إلى عتـبـة قـاعـة «أقصى إفـريقـيـا»، ولـكـنـهـمـا لا يـتـمـكـنـان مـن الـدخـول الـيـهـا، لأنـهـمـا لا يـعـرفـان مـا هـو الأول والـسـابـع مـن بـين الأربعـة، وأخـيـرا يـقـع أدسـو مـن جـديـد فـي مـرض الحب وقـوعـا علميًا إن شئنا

لقد أخذت منا الزيارة الى المكتبة ساعات طويلة من العمل. نظريا كان الفحص الذي كنا نريد القيام به سهلا، ولكن التقدم وراء نور سراج، وقراءة الكتابات، ورسم الممرات والجدران المليئة على الخريطة، وتسجيل الحروف الأولية، والقيام بمختلف المسافات التي كانت تسمح بها لعبة المنافذ والمسدات، كل ذلك كان طويلا جدا، ومضجرا.

كان البرد شديدا. ولم تكن الليلة عنيفة الريح فلم نكن نسمع ذلك الصفير الخفيف الذي روّعنا في الليلة الأولى، ولكن هواء رطبا ومثلجا كان ينفذ من الكوى. وكنا قد أتخذنا قفازين من الصوف للمس الكتب دون أن تتجمد يدانا. ولكنها كانت تلك التي تستعمل في الشتاء للكتابة، أطراف الأصابع عارية، فكنا نقرب من حين لآخر أيدينا للشعلة، أو ندسها داخل ثوبينا أو نضربها الواحدة بالأخرى، قافزين من شدة البرد.

لذلك لم نقم بكل العملية تباعا بل توقفنا للنظر في خزانات الكتب، والآن وقد أمكن لغوليالمو، بزجاجه الجديد فوق أنفه، ان يتباطأ لقراءة الكتب، كان يطلق صيحات فرح عند كل اكتشاف لعنوان، إما لأنه كان يعرف الكتاب، أو لأنه يبحث عنه منذ وقت طويل أو أخيرا لم يسمع أحدا يذكره من قبل فبلغ به الهيجان والفضول كل مبلغ. باختصار، كان كل كتاب بالنسبة اليه بمثابة حيوان خرافي يعترضه فوق أرض مجهولة. وبينما كان يتصفح مخطوطا كان يأمرني بان أبحث

عن مخطوطات أخرى. ـ انظر ماذا يوجد في تلك الخزانة!

فأخذت أهجّي وأحوّل الكتب من أماكنها «في تاريخ الانجليز»، ومؤلفه «بيدا». . . . ودائما لبيدا «حول تشييد هيكل لسليمان»، «حول بيت القربان»، «في علم الكتابة»، «حول ديونيجي وزمنه والاحداث التي عاشها وحسابه الزمني ودوائره [الفلكية]»، «في علم الأوزان»، «حول سيرة القديس كوبارث»، «في علم البحور الشعرية. . »

ـ طبيعي، كلها أعمال العلامة الجليل. . . . وانظر هذه: «في علم البلاغة»، «تحديد الصور البلاغية»، وهنا العديد من النحويين، بريشيانو، أونوراتو، ماسيمو، فيتورينو، متيروريو، أوتيكي، سارفيو، فوكا، أسبيروس. . . غريب، كنت أعتقد في بداية الأمر أنّه هنا يوجد مؤلفو انجلترا. . . لننظر تحت. . . . »

ـ «Hisperica.... famina» ما هو؟

ـ قصيدة من إيرلندا. اسمع :

Hoc spumans mundanas obvllat Pelagus oras
terrestres amniosis fluctibus cudit margines.
Saxeas undosis molibus irruit avionias.
Infima bomboso vertice miscet glareas
asprifero spergit spumas sulco,
sonoreis frequenter quatitur flabris...(*)

لم أكن أفهم المعنى، ولكن غوليالمو كان يقرأ والكلمات تتلاطم في فمه

(*) هذا البحر المزبد يحصر شواطئ المعمورة
يكوّن بأمواجه المتلاحقة حدودا من الرمال،
بتلاطم مياهه يندفع على الأحجار
فتتدحرج،
وبزمجرة مدوية يقلب قاع البحر
وحصاه،
وينشر زبده في أغوار عميقة،
وكثيرا ما تهزه الرياح المولولة.
وهذا أقصى ما أمكننا ترجمته لأن الفقرات التالية تبرز غرابة لاتينية الارلنديين وتعطي أمثلة من البهلوانيات اللغوية التي كانوا يتسلّون بها والتي يصعب نقلها الى عربية واضحة وسليمة.

فيخيّل إليك أنك تسمع صوت الأمواج والزبد في البحر.

ـ وهذا؟ إنه أدالم دي ملماسبوري، اسمع هذه الصفحة:

Primitus pantorum procerum poematorum pio potissimum paternoque presertim privilegio panegiricum poemataque passim prosatori sub polo promulgatas...

ـ تبدأ كلّ الكلمات بنفس الحرف!

فقال غوليالمو باعتزاز «ان أهل جزيرتي كلّهم على شيء من الجنون. لننظر في الخزانة الأخرى».

ـ فيرجيليو.

ـ ماذا يفعل هنا؟ فيرجيليو من؟ هل هو كتاب «Georgiche»؟

ـ كلاّ «Epitomi» لم أسمع عنه شيئا أبدا.

ولكنه ليس ماروني! انه فريجيليو دي تولوزا، الخطيب، لستة قرون بعد ولادة سيدنا المسيح. لقد عرف بالحكمة...

ـ يقول هنا إن الفنون هي poema, rethoria, grama, leporia, dialecta, geometria ولكن بأية لغة يتكلم؟

ـ لاتينية، ولكنها لاتينية من ابتداعه هو، يعتبرها أكثر جمالا بكثير، اقرأ هنا: يقول ان علم الفلك يدرس العلامات البروجية التي هي : mon, man, tonte, piron, dameth, perfellea, belgalic, margaleth, lutamiron, raphalut»

ـ أكان مجنونا؟

ـ لا أدري، لم يكن أصيل جزري. اسمع هذا أيضا. يقول أن هناك اثنتي عشرة طريقة للدلالة على النار:

ignis, coquihabin (quia incocta coquendi habet dictionem), ardo, calax ex calore, fragon ex fragore flammae, rusin de rubore, fumaton, ustrax de urendo, vitius quia pene mortua membra suo vivificat, siluleus, quod de silice siliat, unde et silex non recte dicitur, nisi ex qua scintilla silitÛ E aeneon, de Aenea deo, qui in eo habitat, sive a quo elementis flatus fertur.

ـ ولكن لا يوجد أحد يتكلم بهذه الطريقة!

ـ لحسن الحظ. ولكنها فترة كان يتسلى فيها النحويون، لنسيان عالمهم الشرير، بمسائل معقدة. لقد قيل لي إن في ذلك الزمن، لمدة خمسة عشر يوما

وخمس عشرة ليلة، تناقش الخطيبان غابوندوس وتيرانسيوس حول الحرف الندائي «ego» وفي النهاية استعملا السلاح.

- ولكن هذا أيضا، اسمع... وكنت قد أخذت كتابا منمنما بطريقة رائعة بمتاهات نباتية تطلّ من تعاريشها قردة وثعابين. اسمع هذه الكلمات :

cantamen, collamen, gongelamen, stemiamen, plasmamen, sonerus, alboreus, gaudifluus, glaucicomus...

فقال غوليالمو من جديد بحنين «انها جزري. لا تكن صارما مع أولائك الرهبان في إيرلندا النائية. قد يعود الفضل إليهم أن كان هذا الدير موجودا وأن كنا لا نزال نتكلم عن الامبراطورية الرومانية المقدسة. في ذلك الوقت صار باقي أوروبا كوما من الأنقاض، وفي يوم من الأيام قيل إن التعميد الذي قام به بعض الرهبان في بلاد الغال غير صالح، لأنهم كانوا يعمدون «in nomine patris et filiae»، لا لأنهم كانوا يمارسون هرطقة من نوع جديد معتبرين يسوع امرأة، بل لأنهم نسوا اللاتينية.

- كسلفاتوري؟

- تقريبا. كان قراصنة أقصى شمال أوروبا يصلون عبر الأنهار الى رومة لنهبها. وكانت المعابد الوثنية تندثر بينما لم تكن قد أقيمت المعابد المسيحية بعد. ورهبان إيرلندا وحدهم، في أديرتهم، كتبوا وقرأوا، قرأوا وكتبوا، ونمنموا، ثم رموا بأنفسهم في قوارب صغيرة مصنوعة من جلود الحيوانات وأبحروا نحو هذه الأراضي وبشروها بالانجيل كما لو كنتم كفارا، أفهمت؟ قد ذهبت الى بوبيو، لقد أسسها القديس كولومبانو، وكان واحدا منهم. اتركهم إذن يبتدعون لاتينية جديدة بما أن الناس في أوروبا لم يعودوا يعرفون القديمة. كانوا رجالا عظاما. لقد وصل القديس برناردو الى جزر فورتوناتي، وطول سواحل الجحيم حيث رأى يهوذا مقيدا بالسلاسل الى صخرة، ووصل يوما الى جزيرة فنزل اليها، وكانت وحشا بحريا». وأعاد بسرور - «بطبيعة الحال كانوا مجانين».

فقلت بإعجاب كبير: «يا لرسومهم... انني لا أكاد أصدق عيني. ويا لها من ألوان!»

- في أرض لا تملك من الألوان إلاّ القليل، قليل من الزرقة وكثير من الخضرة. ولكننا لسنا هنا للحديث عن رهبان إيرلندا. ما أريد معرفته هو لماذا

يوجدون هنا مع مؤلفي انجلترا ومع نحويين من بلدان أخرى. انظر فوق خريطتك، أين نحن؟

ـ في قاعات البرج الغربي. ونقلت أيضا الكتابات. اذن، عندما نخرج من القاعة الخالية من النوافذ ندخل القاعة المسبعة الزوايا وهناك ممر واحد يفضي إلى قاعة واحدة في البرج، والحرف باللون الأحمر هو H ثم نمر من قاعة إلى أخرى طوافا بالبرج لنعود إلى القاعة الخالية من النوافذ. وتتابع الأحرف يعطي. . . انك على صواب! HIBERNI!

ـ HIBERNIA، اذا ما رجعت من القاعة الخالية من النوافذ الى القاعة المسبعة الزوايا التي لها كالقاعات الثلاث الأخرى حرف A من Apocalypsis ولذا نجد أعمال «تول» الأخيرة وحتى النحويين والخطباء، لأن منظمي المكتبة فكروا أن النحوي ينبغي أن يكون مع النحويين الشماليين، ولو كان من تولوز. انه معيار مثل غيره من المعايير. أرأيت اننا بدأنا نفهم بعض الشيء.

ولكن في قاعات البرج الشرقي، الذي دخلنا منه قرأنا FONS . . . . ماذا يعني؟

ـ اقرأ جيدا خريطتك، واصل قراءة حروف القاعات التي تتبع حسب الدخول.

ـ FONS ADAEU

ـ لا، Fons Adae حرف «u» هي القاعة الخالية من النوافذ الثانية، الشرقية، انني أتذكرها، ربما تدخل في سلسلة أخرى. وماذا وجدنا في Fons Adae أي في الفردوس الأرضي (تذكر أنه يوجد بها المذبح المتجه نحو مشرق الشمس)؟

ـ كان فيها الكثير من كتب التوراة، ومن تفاسير الكتاب المقدس، وكلّها مؤلفات تخص الكتابات المقدسة.

ـ ترى إذن أن كلمة الرب توافق الفردوس الأرضي، التي هي، كما يقول الجميع، بعيدة نحو الشرق. وهنا في الغرب إيرلندا.

ـ إذن ينقل رسم المكتبة خارطة العالم والكون؟

ـ ربما. والكتب مرتبة حسب البلدان المتأتية منها، أو حسب المكان الذي ولد فيه كاتبها أو، كما هو الحال هنا، حسب المكان الذي كان ينبغي أن يولد فيه. لقد رأى أمناء المكتبة أن فريجيليو النحوي ولد خطأ في تولوز وكان ينبغي أن يولد في الجزر الغربية. لقد صوّبوا أخطاء الطبيعة.

ثم تابعنا طوافنا. ومررنا بمجموعة من القاعات الثرية بنسخ رائعة من سفر

الرؤيا، وكانت إحدى تلك القاعات هي التي حدثت لي فيها الرؤى. بل رأينا من بعيد النور فهرع غوليالمو، وقد سدّ أنفه، لإطفائه، باصقا على الرماد. وزيادة في الحيطة عبرنا القاعة بسرعة، ولكني أذكر أني رأيت فيها الرؤيا الرائعة ذات الألوان المختلفة وصورة المرأة المتسربلة بالشمس والتنين. وأعدنا ترتيب هذه المجموعة من القاعات ابتداء من الأخيرة التي دخلناها والتي كانت تحمل كحرف أولي باللون الأحمر Y. والقراءة بالتراجع أعطتنا كلمة YSPANIA، ولكن A الأخيرة كانت هي نفسها التي تختتم بها HIBERNIA. دليل، قال غوليالمو، انه بقيت قاعات تجمع فيها أعمال ذات موضوعات مختلفة.

على كل حال بدا لنا القسم الذي يحمل اسم YSPANIA زاخرا بمخطوطات كثيرة لسفر الرؤيا، كلها جيدة للغاية، تعرّف من خلالها غوليالمو على أنه فن اسباني. ولاحظنا أن المكتبة قد تكون تملك أكبر مجموعة من نسخ كتاب الرسول في العالم المسيحي مع مجموعة ضخمة من التعليقات على ذلك النصّ. مجلدات ضخمة كانت تخص التعليق على كتاب الرؤيا لبياتو دي ليبانا، وكان النص تقريبا هو نفسه دائما، ولكننا وجدنا تنوعا رائعا لرسوم تعرّف غوليالمو من خلالها على البعض من أولائك الذين كان يعتبرهم من أكبر منمنمي مملكة أستوريا ماجيوس، فاكوندوس وآخرون.

وبينما كنا نتبادل هذه الاعتبارات وأخرى أيضا وصلنا الى البرج الجنوبي، الذي مررنا بجانبه في الليلة السابقة. كانت القاعة S من YSPANIA، دون نوافذ، تؤدي إلى قاعة E وأخذنا نطوف عابرين قاعات البرج الخمس الى الأخيرة، دون ممر آخر، وتحمل حرف L بالأحمر ثم قرأنا بطريقة معاكسة فوجدنا LEONES.

ـ LEONES، الجنوب، على خريطتنا نكون الآن في افريقيا، «هنا توجد الأسود». وهذا ما يفسر لماذا وجدنا هنا نصوصا بتلك الكثرة لكتّاب كفّار.

فقلت وأنا أفتش في خزانة «وها هنا كتب أخرى. «القانون» لابن سينا، وهذا المخطوط الجميل بخط لا أعرفه...».

ـ من الزخرفة يبدو أنه قرآن، ولكن للأسف لا أعرف العربية.

ـ القرآن، كتاب الكفّار، انه كتاب ضالّ...

ـ كتاب فيه حكمة مختلفة عن حكمتنا. ولكنك تدرك لماذا وضعوه في هذا

المكان، حيث الأسود والوحوش. لذلك رأينا هنا ذلك الكتاب حول المخلوقات الفظيعة وحيث وجدت أيضا وحيد القرن الخرافي. هذا القسم المسمّىLEONES يحتوي على تلك الكتب التي اعتبرها مؤسسو هذه المكتبة كتب بهتان. ماذا يوجد هناك؟

ـ انها باللاتينية، ولكنها مترجمة من العربية. أيوب الروحاوي، دراسة حول رُهاب الماء عند الكلاب. وهذا كتاب الكنوز. وهذا «في علم البصر» للخازن.

ـ أرأيت، لقد وضعوا بين الوحوش والأكاذيب كتب علم أيضا فيها الكثير مما يمكن للمسيحيين أن يتعلموه. هكذا كان الناس يفكرون في العهود التي أسست فيها المكتبة. . .

فسألته «ولكن لماذا وضعوا بين الأكاذيب كتابا فيه وحيد القرن الخرافي؟

ـ من الواضح أن مؤسسي هذه المكتبة كانت لهم أفكار غريبة. لقد أعتبروا أن هذا الكتاب الذي يتحدث عن حيوانات غريبة تعيش في بلدان نائية هو من جملة الأكاذيب التي أتى بها الكفّار.

ـ ولكن هل وحيد القرن كذب؟ انه حيوان وديع جدا وهو رمز رفيع. هو صورة للمسيح وللعفة، ولا يمكن تصيّده إلاّ بوضع عذراء في الغاب فيشتم الحيوان رائحتها الطاهرة ويأتي إليها ليضع رأسه في حجرها، مسلما نفسه فريسة لحبال الصيّادين».

ـ هكذا يقولون، يا أدسو. ولكن يميل الكثيرون الى اعتبار ذلك ابتداعا خرافيا جاء به الوثنيون.

فقلت: «يا للخيبة. كنت آمل أن يعترضني أحدها وأنا أجتاز الغاب. وإلاّ ما المتعة في اجتياز الغاب؟»

ـ هذا لا يعني أنه غير موجود. ربما هو مختلف عمّا تصفه هذه الكتب. لقد ذهب رحالة بندقي إلى بقاع نائية، قريبة جدا من منبع الفردوس الأرضي الذي تذكره الخرائط، ورأى وحيد القرن. ولكنه وجدها خشنة وسمجة، قبيحة الشكل سوداء اللون. أظن أنه رأى حيوانات حقيقية لها قرن في جبينها. من المحتمل أن تكون هي نفسها تلك التي ذكرها علماء المعرفة القديمة والصحيحة دائما، الذين أتاح لهم الرب فرصة لرؤية أشياء لم نرها نحن، وأعطونا منها وصفا أوليا وفيّا. وذلك الوصف، في تنقله من سلطة علميّة إلى أخرى، تغيّر لتتابع التركيبات

الخيالية، فأصبح وحيد القرن حيوانا أسطوريا، أبيض وديعا. لذا لو قيل لك إن هناك وحيد قرن يسكن الغاب، لا تذهب إليه مصحوبا بعذراء، إذ يمكن أن يكون الحيوان أشبه بذلك الذي ذكره شاهد عيان منه بحيوان الكتاب.

ـ ولكن كيف حدث أن علماء المعرفة القديمة تسلموا من الرب الوحي بخصوص طبيعة وحيد القرن الحقيقية؟

ـ ليس الوحي ولكن التجربة. لقد كان من حظهم أنهم ولدوا في بقاع كان يعيش فيها وحيد القرن، أو في عهود كان يعيش فيها وحيد القرن في نفس البقاع.

ـ ولكن كيف يمكن اذن أن نثق بالمعرفة القديمة، التي تقتفي أنت دائما أثرها، بينما نقلتها إلينا كتب كاذبة أوّلتها بكثير من الحرية؟

ـ الكتب لم توضع كي نؤمن بما تقوله ولكن كي نتحرّى فيها. لا يجب أن نتساءل أمام كتاب ماذا يقول ولكن ماذا يريد أن يقول، وهي فكرة كانت واضحة جدا عند مفسّري الكتب المقدسة القدامى. ووحيد القرن الخرافي كما تتحدث عنه هذه الكتب يخفي حقيقة أخلاقية، أو رمزية أو تأملية، تبقى حقيقية، كما تبقى حقيقيةً فكرة أن العفة فضيلة نبيلة. ولكن بخصوص الحقيقة الحرفية التي تقوم عليها الثلاث الأخرى، يبقى أن نرى من أية تجربة أصلية نشأ اللفظ. يجب أن نناقش اللفظ، حتى عندما يكون المعنى الإضافي صحيحا. لقد ذكر في بعض الكتب أن الماس لا يقطعه إلاّ دم تيس. فقال أستاذي الكبير روجي باكون أن ذلك غير صحيح، لأمر بسيط، لأنه جرّب ذلك ولم ينجح. ولكن لو كان لعلاقة الماس بدم التيس معنى سام، فذلك المعنى يبقى سامياً.

فقلت: «إذن يمكن أن نقول حقائق سامية ونكذب بخصوص المعنى الحرفي. ولكن ما يؤسفني هو أن وحيد القرن الخرافي، هكذا كما وصفوه، غير موجود، أو لم يوجد، أو لا يمكن أن يوجد يوما».

ـ ليس جائزا أن نضع حدودا لقدرة الاله العظيمة، ولو أراد الله فسيوجد أيضا وحيد القرن الخرافي. ولكن هوّن عليك، انه موجود في هذه الكتب، التي ان كانت لا تتحدث عن الكائن الواقعي فهي تتحدث عن الكائن الممكن.

ـ ولكن، ينبغي إذن أن نقرأ الكتب دون اللجوء الى الايمان، الذي هو فضيلة الٰهية؟

ـ تبقى فضيلتان الٰهيتان أخريان. الرجاء أن يكون الممكن موجودا. والمحبّة،

نحو من آمن باخلاص أن الممكن موجود.

ـ ولكن ما منفعتك بوحيد القرن الخرافي ان كان فكرك لا يؤمن به؟

ـ ينفعني كما نفعتني آثار قدمي فينانسيو على الثلج، وهو يُجرُّ الى جرّة دم الخنازير. وحيد القرن الخرافي الموجود في الكتب هو كالأثر. ان وجد الأثر فيجب أن يكون هناك الشيء الذي هو منه أثر.

ـ ولكن مختلفا عن الأثر، هكذا تقول لي.

ـ أكيد. لا يكون دائما للأثر شكل الجسم الذي رسمه ولا ينشأ دائما من ضغط جسم. أحيانا يصوّر انطباعا تركه جسم في فكرنا، هو أثر لفكرة. والفكرة دلالة على الشيء، والصورة دلالة على الفكرة، دلالة دلالة. ولكن من الصورة أعيد تركيب، ان لم يكن الجسم، فالفكرة التي أخذها عنه الآخرون.

ـ ويكفيك ذلك؟

ـ كلا، لأن العلم الحقيقي لا يجب أن يكتفي بالأفكار، التي هي فعلا دلالات، ولكنه يجب أن يعثر على الأشياء في حقيقتها الفريدة. وأذن يسعدني أن أصل من هذا الأثر الى أثر وحيد القرن الكائن، الفرد الموجود في أول السلسلة. كما سيسعدني أن أصل من الآثار الملتبسة التي تركها قاتل فينانسيو (وهي آثار يمكن أن تعود إلى أشخاص كثيرين) الى شخص واحد هو القاتل بعينه. ولكن لا يمكن تحقيق ذلك دائما في وقت وجيز دون الاستعانة بدلالات أخرى.

ـ ولكن، أستطيع أن أتحدث دائما وفقط عن شيء يحدثني عن شيء آخر الى آخره، ولكن الشيء النهائي، ذلك الحقيقي غير موجود أبدا!

ـ قد يكون موجودا. انه وحيد القرن، الكائن الفرد. ولا تغتم ستلتقي به في يوم من الأيام، حتى وإن كان أسوداً وقبيحا.

فقلت عند ذلك الحدّ: «وحيد القرن، أُسود ومؤلفون عرب وسودان بصفة عامة. انها دون شك افريقيا التي يتحدث عنها الرهبان».

ـ هي ذي دون شكّ. وان كانت هي ينبغي أن نعثر على الشعراء الافريقيين الذين لمّح اليهم باتشيفيكو دا تيفولي.

وفعلا عندما رجعنا الى الوراء وعدنا الى القاعة L، وجدت في إحدى الخزانات مجموعة من كتب فلورو، فرونطوني، أبوليو، مارتسيانو كابيلاّ وفولجانسيو. فقلت :

«اذن هذا هو المكان الذي يقول برينغاريو انه يوجد فيه سرّ ما.

ـ هنا تقريبا. لقد استعمل عبارة «finis Africae»، وهذه هي العبارة التي أغضبت كثيرا ملاخي. يمكن أن تكون هذه القاعة الأخيرة، أو... ـ ثم صاح ـ بكنائس كلوماكنوا السبع! ألم تلاحظ شيئا؟

ـ ماذا؟

ـ لنعد الى الوراء، إلى القاعة S التي انطلقنا منها!

فرجعنا الى القاعة الأولى الخالية من النوافذ حيث يقول البيت Super thronos viginti quatuor. كانت لها أربع فتحات. واحدة منها تفضي إلى القاعة Y، ولها نافذة تفتح على مثمن الزوايا. والأخرى تفضي إلى القاعة P التي تواصل، متبعة الواجهة الخارجية، سلسلة YSPANIA. وتلك الموجودة قرب البرج تفضي الى القاعة E التي طفنا بها منذ حين. ثم جدار ملئ وأخيرا فتحة تؤدي إلى قاعة ثانية دون نوافذ تحمل حرفا أوليا U والقاعة S كانت قاعة المرآة، ومن حسن الحظ أن المرآة كانت على الحائط الموجود على يميني، وإلاّ لذعرت من جديد.

وعندما تأملت جيدا في الخريطة تفطنت الى غرابة تلك القاعة. ككل القاعات الأخرى الخالية من النوافذ كان ينبغي أن تفضي الى القاعة المسبعة الزوايا الوسطى. إن لم تكن كذلك فالدخول إلى مسبع الزوايا ينبغي أن يكون من القاعة دون نوافذ المحاذية، القاعة U. ولكن هذه كانت تؤدي عبر فتحة إلى قاعة T التي لها نافذة تفتح على المثمن الداخلي، وترتبط عبر الفتحة الأخرى بالقاعة S وجدرانها الثلاثة الأخرى كانت دون فتحات وتغطيها الخزانات. وعندما نظرنا حوالينا لاحظنا ما أصبح الآن واضحا من خلال الخريطة أيضا: لأسباب منطقية، اضافة الى التناسب الدقيق، كان ينبغي أن يكون لذلك البرج قاعته المسبعة الزوايا. ولكنها لم تكن موجودة!

فقلت «انها غير موجودة».

ـ لا، موجودة. لو لم تكن موجودة لكانت القاعات الأخرى أكبر، بينما هي تقريبا بنفس حجم قاعات الجوانب الأخرى. انها موجودة ولكن لا يمكن الوصول اليها.

ـ أسدّوا عليها الحائط؟

ـ ربما. هو ذا «أقصى افريقيا»، هو ذا المكان الذي كان يحوم حوله أولائك الفضوليون الذين لقوا حتفهم. لقد سدوا عليه بحائط، ولكن هذا لا يعني أنه لا يوجد ممر. بل من المؤكد أنه موجود، وقد وجده فينانسيو، أو أنه حصل على وصفه من أدالمو وهذا الأخير من برينغاريو. لنعد قراءة مذكراته.

وأخرج من ثوبه ورقة فينانسيو وأعاد قراءتها «اليد فوق الصورة تحرّك الأول والسابع من الأربعة». ـ ثم نظر حواليه ـ «أكيد. idolum هو الصورة في المرآة! كان فينانسيو يفكر باليونانية وفي تلك اللغة، أكثر مما في لغتنا، eidolon هي في نفس الوقت الصورة والشبح، والمرآة ترجع الينا صورتنا مشوهة وهي التي ظنناها نحن تلك الليلة شبحا! ولكن ماذا تكون الأربع Supra speculum؟ شيء فوق سطح المرآة العاكس؟ اذن ينبغي أن نقف في ناحية بحيث نتمكن من رؤية شيء ينعكس في المرآة ويتطابق مع الوصف الذي أعطاه فينانسيو.

فتحركنا في كل الاتجاهات، ولكن دون نتيجة. كانت المرآة ترجع خلف صورتينا خطوطا غير واضحة لبقية القاعة، التي كان ينيرها السراج بضوء ضعيف جدا.

فقال غوليالمو مفكراً «إذن، ربما كان يعني بـ Supra speculum وراء المرآة. . . وهذا يحتم أن نذهب أولا وراء المرآة، لأن هذه المرآة هي دون شكّ باب. . .»

كانت المرآة أعلى من قامة رجل عادي، وكانت مركبة في الجدار ومندمجة بواسطة إطار متين من خشب السنديان. فلمسنا الإطار بكل الطرق، وحاولنا حشر أصابعنا، وأظافرنا بين الإطار والجدار، ولكن المرآة بقيت ثابتة كأنها جزء من الحائط، حجر وسط حجر.

وكان غوليالمو يتمتم «إن لم يكُن ما وراء، فيمكن ان يكون Super speculum ـ ويرفع ذراعيه، واقفا على أطراف أصابعه، ممررا يده على حافة الإطار العليا دون أن يجد شيئا ما عدا الغبار.

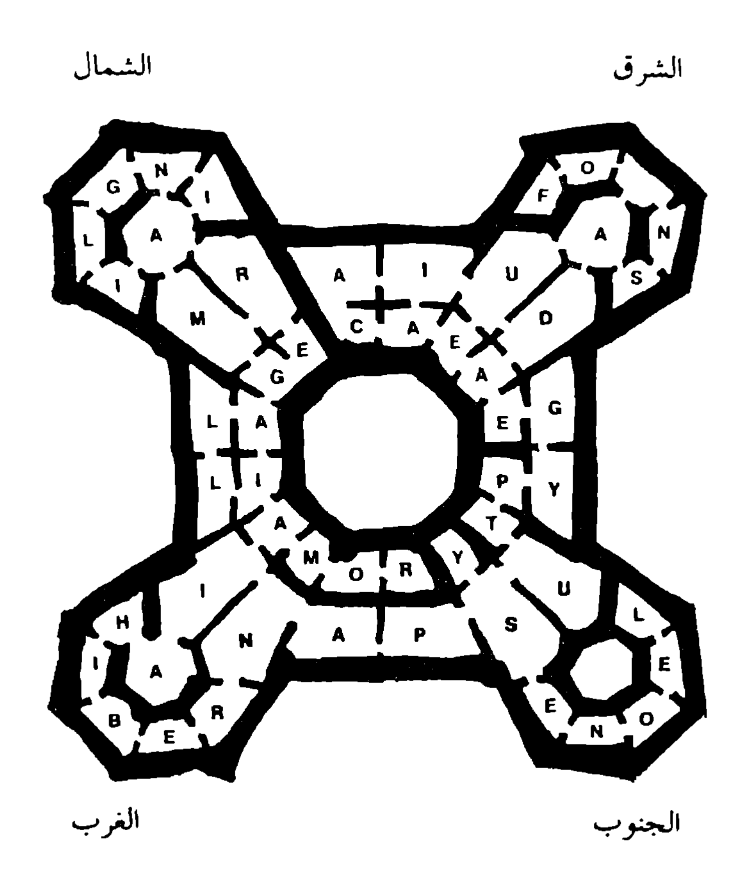
وكان يفكر بكآبة «من ناحية أخرى، حتى وإن كانت وراءها قاعة، فالكتاب الذي نبحث عنه، والذي بحث عنه آخرون، لم يعد موجودا بها لأنهم أخذوه، حمله فينانسيو أوّلا وبرينغاريو ثانيا، يعلم الله إلى أين».

ـ ولكن، ربما يكون برينغاريو قد أعاده إلى هنا.

ـ كلاّ. لقد كنّا تلك الليلة في المكتبة، وكل شيء يحملنا على الظن أنه مات بعد وقت قليل من سرقة الكتاب، تلك الليلة نفسها، في قاعات الاستحمام. وإلا لكنا رأيناه في الصباح الموالي. لا يهمّ. . . لحد الآن تحققنا من المكان الذي توجد فيه قاعة «أقصى إفريقيا» ولدينا تقريبا كل العناصر لاتمام خريطة المكتبة اتماما أفضل. يجب أن نعترف بأن الكثير من أسرار المتاهة قد توضحت الآن. جميعها، يمكن أن أقول، إلا واحداً. أظن أنني سأستمد من قراءة أخرى منتبهة لمخطوط فينانسيو معلومات أكثر مما يمكن أن تمدني به زيارات أخرى. لقد رأيت أننا اكتشفنا سر المتاهة من الخارج أحسن من الداخل. هذه الليلة، وأمام صورتينا المشوهتين لن نصل إلى حلّ هذه المعضلة. وأخيرا قد بدأ النور يضعف. هيّا، لنضع العلامات الأخرى التي ستصلح لاتمام الخريطة.

وعبرنا قاعات أخرى مسجلين دائما ما نكتشفه على خريطتي واعترضتنا قاعات مخصصة فقط للرياضيات ولعلم الفلك، وأخرى لكتب بحروف آرامية لم نكن نفهمها، وأخرى بخط مجهول أكثر، ربما كانت نصوصا هندية. كنا نتحرك وسط سلسلتين متشابكتين تحملان اسمي IUDAEA و AEGYPTUS. باختصار، وحتى لا أضجر القارئ بسرد تفاصيل فكّ كل الرموز، عندما انتهينا من اتمام الخريطة، اقتنعنا بان المكتبة قد بنيت ووزعت حسب صورة الأرض. في الشمال وجدنا ANGLIA و GERMANI، اللتين تربطان طول الجانب الغربي بـ GALLIA لتولّدَا بعد ذلك في أقصى الغرب HIBERNIA ونحو السور الجنوبي ROMA (فردوس الكلاسيكيين اللاتينيين!) وYSPANIA. تأتي بعد ذلك في الجنوب LEONES و AEGYPTUS التي تصبح نحو الشرق IUDAEA و FONS ADAE. بين الشرق والشمال، على طول السور ACAIA، مجاز بلاغي جميل، كما قال غوليالمو، للتعبير عن اليونان، وفعلا في تلك القاعات الأربع يوجد عدد وافر من شعراء وفلاسفة العصور الوثنية القديمة.

كانت طريقة القراءة غريبة، أحيانا تسير في اتجاه واحد، وأحيانا إلي الخلف، وأحيانا في شكل دائرة، وكما قلت، غالبا ما يصلح حرف واحد لتكوين كلمتين مختلفتين (وفي تلك الحالات تكون للقاعة خزانة مخصصة لموضوع وأخرى



الشمال
الشرق
N O
G
I F
L A A N
R A I U S
I
M D
C A E
E
G A
G
L A E
L I P Y
A T
M Y
O R
I U
L
H S
N A P
I E
A
E
R
B N O
E
الغرب
الجنوب

مخصصة لموضوع آخر). ولكن أتضح أنه لا فائدة من البحث عن قاعدة ذهبية تحكم ذلك التنظيم. كانت حيلة استذكارية فحسب، تسمح لحافظ المكتبة بالعثور على كتاب. عندما تقول عن كتاب انه موجود في quarta Acaiae يعني أنه في القاعة الرابعة ابتداء من القاعة التي تظهر فيها A الاستهلالية، أما عن كيفية العثور عليه فيفترض ان حافظ المكتبة يعرف الطريق عن ظهر قلب، ان كان مستويا أم دائرا. مثلا ACAIA موزعة على أربع قاعات، مما يجعل A الأولى هي أيضا الأخيرة، وهذا فهمناه نحن أيضا في وقت وجيز. كما تعلمنا حالا لعبة الحواجز: مثلا، عندما نأتي من الشرق، ليست هناك أية قاعة من ACAIA تفضي إلى القاعات التالية: عند ذلك الحد تنتهي المتاهة، وللوصول الى البرج الشمالي ينبغي المرور من القاعات الثلاث الأخرى. ولكن، بطبيعة الحال، يعرف أمناء المكتبة جيدا، انه عند الدخول من FONS وللذهاب مثلا الى ANGLIA ينبغي عليهم أن يعبروا GALLIA, YSPANIA, AEGYPTUS و GERMANI.

بهذه وبغيرها من الاكتشافات الرائعة أنهينا استطلاعنا المثمر للمكتبة. ولكن قبل أن أقول إننا كنا نتهيأ للخروج، ونحن راضيان، (للمشاركة في أحداثٍ أخرى سأقصها بعد قليل)، يجب أن أفضي لقارئي باعتراف. لقد قلت أننا قمنا برحلتنا الاستطلاعية باحثين من جهة عن مفتاح المكان السري، ومن جهة أخرى متوقفين من حين لآخر، في القاعات التي نكتشف موقعها وموضوعها، لتصفح كتب مختلفة، كما لو كنا نكتشف قارّة سرّية أو أرضا مجهولة. وفي العادة كان ذلك الاستطلاع يقع باتفاق الطرفين، نتوقف، أنا وغوليالمو، حول نفس الكتب، فأشير أنا الى الكتب الأكثر غرابة، ويُفسّر لي هو الكثير من الأشياء التي لم أكن أقدر على فهمها.

ولكن في نقطة ما، بينما كنا نطوف في قاعات البرج الجنوبي بالذات، تلك المسماة LEONES، حدث أن توقف أستاذي في قاعة ثرية بالكتب العربية والتي تحتوي على رسوم غريبة في علم البصريات، وبما أننا كنا لا نحمل في تلك الليلة سراجاً واحدا بل سراجين، تحوّلت أنا بدافع الفضول الى القاعة المجاورة، متفطنا الى أن حكمة مخططي المكتبة وحذرهم جعلاهم يجمعون على طول أحد جدرانها كتبا، لا يمكن دون شك أن تسلم للقراءة لكل إنسان، لأنها بطرق مختلفة (الرسم الخاص بالمتاهة في الصفحة 352) تتحدث عن أمراض متنوعة

تصيب الجسم والعقل، وتكاد تكون كلها من تأليف علماء كفار. ووقع نظري على كتاب غير كبير، تزخرفه نمنمات مختلفة تماما (ولحسن الحظ!) عن الموضوع فيها أزهار وتعاريش وأزواج من الحيوانات، وبعض النباتات الطبية كان عنوانه «Speculum amoris» للراهب ماسيمو دا بولونيا، روى فيه شواهد منقولة عن مؤلفات أخرى عديدة، كلها حول مرض الحب. ولعلّ القارئ قد فهم ان ذلك كان كافيا لاثارة فضولي المريض. بل وأكثر، كان ذلك العنوان كافيا ليضطرم ذهني، الذي خمدت ناره منذ الصباح، مهيّجا اياه من جديد بصورة الفتاة.

وبما أني أبعدت عني طيلة ذلك اليوم الأفكار الصباحية، قائلا لنفسي انها لا تليق بمبتدئ سليم متوازن، وبما انه، من ناحية أخرى، كانت أحداث ذلك اليوم ثرية جدا ومكثفة بما يكفي لتصرفني عن تلك الأفكار، خمدت شهواتي بحيث كنت أظن أنني تحرّرت من ذلك الذي لم يكن إلا اضطرابا عرضيا. ولكن كفتني رؤية ذلك الكتاب كي أقول لنفسي إن تلك الصفحات «لا تروي إلاّ قصّتي» وان أكتشف أني مريض بالحب أكثر مما كنت أظن. وتعلمت فيما بعد أننا عندما نطالع كتب الطب، نقتنع دائما بأننا نحسّ بالأوجاع التي تتحدث عنها. وكان ذلك ما حدث لي فعلا، وهو قراءة تلك الصفحات، التي كنت أختلس إليها النظر بسرعة، مخافة أن يدخل غوليالمو الى القاعة وأن يسألني على ماذا كنت منكبا بذلك الاهتمام العلمي، أقنعتني بأنني أعاني فعلا من ذلك الداء، الذي كانت أعراضه موصوفة بروعة، مما جعلني، من جهة، أنشغل من إصابتي به (وبرفقة علماء يعتبرون حجّة) بينما كنت من جهة أخرى مبتهجا لرؤية حالتي موصوفة بتلك الدقة، مقنعا نفسي، اني، وان كنت مريضا، فمرضي، ان أمكن القول، عادي، بما أن الكثيرين عانوا منه نفس معاناتي، وكان يبدو لي أن الكتّاب المذكورين اتخذوني انا بالذات نموذجا لأوصافهم.

وتأثرت وأنا أقرأ صفحات ابن حزم، الذي يعرّف الحب كمرض عضال، دواؤه فيه، والمصاب به لا يريد الشفاء منه ولا يبتغي الخروج منه (والله يعلم كم كان هذا القول صائبا!) وتفطنت لماذا كنت عند الصباح متأثرا إلى ذلك الحد بكل ما كنت أشاهده، إذ يبدو أن الحب ينفذ من العين كما يقول أيضا بازيليو دانتشيرا، وهناك دلالة واضحة ـ وهي أن المصاب بذلك المرض يبدي جذلا مفرطا، بينما يحبذ في نفس الوقت الانفراد والعزلة (كما فعلت أنا ذلك الصباح)، وتصحب

ذلك أعراض أخرى، منها الإضطراب العنيف والانذهال الذي يخرس.. وجزعت كثيرا عندما قرأت قرأت أن المحب الصادق، عندما يمنع من رؤية المحبوب، لا يلبث أن يقع في حالة ذبول غالبا ما تضطره الى ملازمة الفراش، وأحيانا يغلب الداء المخ، فيفقد المصاب رشده ويهذي (وكان من الواضح انني لم أصل بعد الى تلك الحالة بما أنني قمت بعمل جيّد في استطلاع المكتبة). ولكنني قرأت يانشغال انه عندما تسؤ حالة المريض، يمكن أن يصل الى الموت وتساءلت ان كانت البهجة التي تغمرني عندما يذهب فكري الى الفتاة تساوي هذه التضحية السامية بالحياة، بقطع النظر عن كل اعتبار بخصوص نجاة الروح.

ذلك لأنني وجدت استشهادا آخر لبازيليو يقول فيه: «أولئك الذين يلوثون الروح بنزوات الجسد وهيجان الحواس يحطمون تحطيما تاما ذلك الذي هو على العكس نافع وضروري للحياة، ومن جهة أخرى يلقون في وحل الملذات الجسدية روحا نقية وشفافة، والقذارة التي يوسخون بها نقاوة الجسم وطهارته تلحق أذى كبيرا بالحياة» وهي حالة قصوى لا أودّ قط أن أجد نفسي فيها.

وعرفت أيضا من جملة للقدّيسة ايلديغاردا أن ذلك المزاج الكئيب الذي أحسست به ذلك اليوم، والذي كنت أنسبه إلى الاحساس العذب بالألم لغياب الفتاة، شبه بخطورة الاحساس الذي يشعر به من يحيد عن حالة الانسجام، الكمال الذي يحس به الانسان في الفردوس، وان تلك الكآبة «السوداء والمرّة» متأتية من نفس الثعبان ومن وسوسة الشيطان. وهي فكرة يشاطرها أيضا كفّار في نفس المستوى من الحكمة، إذ وقع نظري على السطور المنسوبة إلى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي، الذي يطابق في كتاب «الحاوي» كآبة المحب،بالذئبية، وهي تدفع المصاب بها الى التصرف مثل الذئب. وقد انقبض قلبي لوصفه ذلك: في البداية يبدو المحبين متغيرين في مظهرهم الخارجي، فيضعف نظرهم وتغرق عيونهم وتفرغ من الدموع، ويجف اللسان شيئا فشيئا وتظهر فوقه القروح، ويجف الجسم كله ويتألمون دائما من العطش، عند ذلك الحد يقضون يومهم مستلقين على وجوههم، وتظهر علامات شبيهة بعضات الكلب على الوجه وعلى الظنابيب وفي النهاية يجوبون المقابر كالذئاب.

وأخيرا لم تبق لديّ شكوك حول خطورة حالتي عندما قرأت استشهادات لابن سينا العظيم، حيث يعرف الحب بأنه هاجس معذب ذو طبيعة كئيبة، ينشأ من

التفكير واعادة التفكير في قسمات وحركات أو عادات شخص من جنس مقابل (كيف صوّر ابن سينا بوفاء حيّ حالتي أنا!): لا ينشأ كمرض ولكنه يصبح مرضا عندما لا يلاقي ارضاء فيصبح هاجسا استحواذيا (ولماذا أحس أنا إذن بالاستحواذ ان كنت، والله يغفر لي، أرضيت نفسي إرضاء كاملا؟ أو ربما ما حدث لي في الليلة الفارطة ليس شفاء للحب؟ وكيف يشفى هذا الداء) وتكون نتيجته حركة متواصلة للجفنين، وتنفسا غير منتظم، ويضحك المرء أحيانا ويبكي أحيانا أخرى، ويخفق النبض بشدة (وفعلا كان نبضي يخفق بشدة وأنفاسي تتقطع وأنا أقرأ تلك السطور!). وينصح ابن سينا بطريقة ناجعة، كان قد عرضها غالينو، لمعرفة الشخص المصاب بالحب: امساك نبض المريض والتلفظ بأسماء كثيرة لأشخاص من الجنس المقابل الى أن يحس الممسك بالنبض عند ذكر إسم من الأسماء بزيادة في سرعة النبض. وكنت أخاف أن يدخل أستاذي فجأة ويمسكني من ذراعي فيكشف سرّي من خلال نبضات شراييني، مما سيجعلني أخجل كثيرا. . . واحسرتاه، كان العلاج الذي يشير به ابن سينا هو الجمع بين المحبوبين عن طريق الزواج. صحّيح أنه كان كافرا، وان كان حكيما، لأنه لم يقرأ حساباً لحالة راهب مبتدئ بندكتي، محكوم عليه إذن بأن لا يشفي أبدا ـ أو بالأحرى نذر باختيار منه، وباختيار متمعن من والديه، ان لا يمرض أبدا بذلك الداء. لحسن الحظ أن ابن سينا، وان لم يفكر في النظام الكلوني، اعتبر حالة محبوبين لا يمكن وصالهما، وينصح كعلاج جذري، بالاستحمام بالماء الساخن (أكان يريد برينغاريو أن يبرأ من حبه لأدالمو؟ ولكن أيمكن أن يتألم المرء من حبه لشخص من نفس الجنس، أو أن ذلك ليس إلاّ فجورا حيوانيا؟ أيكون غير حيواني فجوري أنا في الليلة الفارطة؟ من الأكيد لا، هكذا كنت أقول في نفسي، لقد كان على غاية من العذوبة ـ ولكنني كنت أقول على الفور: كلاّ، انك تخطئ يا أدسو، لقد كان ذلك وهما من الشيطان، وكان حيوانيا جدا، وان أنت ارتكبت خطيئة جنسية فانك ترتكب الآن خطيئة أكبر لأنك لا تريد الاعتراف بذلك!). ولكني قرأت بعد ذلك، ودائما ابن سينا، ان هناك طرقا أخرى: مثلا اللجوء الى معونة العجائز المجربات كي يقضين الوقت في ذم المعشوقة، ويبدو أو للعجائز خبرة أكثر من الرجال في هذا الميدان. قد يكون ذلك هو الحل ولكن من أين لي في الدير بعجائز (ولا حتى بصغيرات السن، في حقيقة الأمر). أينبغي إذن أن أطلب من بعض الرهبان أن يحدثني بسوء

عن الفتاة، ولكن ممن؟ ثم هل يمكن لراهب أن يعرف المرأة كما تعرفها عجوز ثرثارة؟ والحلّ الأخير الذي كان ينصح به ذلك العربي كان حقيقة وقحا جدا لأنه يتطلب أن يجامع المحبّ البائس عدة إماء، وهو شيء لا يليق أبدا براهب. وأخيرا، قلت لنفسي، كيف يمكن لراهب شاب أن يبرأ من مرض الحب، أو أنه حقيقة لا نجاة له منه؟ ربما ينبغي أن أستعين بسفيرينو وبأعشابه؟ وفعلا، وجدت فقرة لأرنالدو دا فيلانوفا، وهو كاتب سمعت غوليالمو يذكره بكثير من التقدير، ينسب فيها مرض الحب الى وفرة الأخلاط والأهوية في الجسم، أي عندما يوجد في الجسم إفراط في الرطوبة والحرارة، بما أن الدم (الذي يولّد البذر التناسلي) عندما يزيد فوق المقدار يحدث إفراطا في البذر، وهو ما يسمّى بالـ «Complexio venerea»، ورغبة شديدة في الجماع بين رجل وامرأة. هناك طاقة تقييمية موجودة في الجهة الظهرية للقسم الأوسط للمخ (وتساءلت ماذا يكون؟) وهدفها هو التقاط الرغبات اللامحسوسة الموجودة في الأشياء المحسوسة الملتقطة من طرف الحواس، وما أن تصبح الرغبة فيما تدركه الحواس قويّة جدا حتى تضطرب الطاقة التقييمية ولا تنتعش إلاّ بشبح الشخص المحبوب. عندئذ تتوقد الروح والجسم، وتتعاقب الكآبة مع البهجة، لأن الحرارة (التي تنزل في فترات اليأس الى المناطق السفلية من الجسم مجمّدة الجلدة) في فترات الجذل تصعد الى السطح فيلتهب الوجه. والعلاج الذي ينصح به أرنالدو ويتمثل في فقدان الثقة والأمل في الوصول الى الشيء المحبوّب بحيث يبتعد عنه الفكر.

فقلت في نفسي، لقد شفيت إذن، أو أتماثل للشفاء، لأن أملي في رؤية محل أفكاري ضعيف إن لم يكن مفقودا تماما، وان رأيته، في الوصول اليه، وان وصلت اليه في امتلاكه من جديد، وان امتلكته في الاحتفاظ به الى جانبي، سواء بسبب حالتي الرهبانية أو بسبب الواجبات التي يفرضها عليّ مقام أهلي... فقلت في نفسي، لقد نجوت. وأغلقت الكرّاس مستعيدا هيئتي الاعتيادية في الحين نفسه الذي دخل فيه غوليالمو القاعة. وتابعت معه الرحلة عبر المتاهة وقد خلعنا عنها قناعها (كما كنت قد ذكرت) ونسيت على الأقل بالنسبة لتلك الآونة الأفكار التي كانت تستحوذ علي.

ولكنها، كما سنرى، ستعود إليّ بعد وقت قليل وفي ظروف، للأسف، مختلفة جدا.

ليــلاً

وفيه يفتضح أمر سلفاتوري من طرف برناردو غي، ويقبض على الفتاة المحبوبة بتهمة السحر ثم يذهب الجميع إلى النوم أكثر تعاسة وانشغالا من ذي قبل

وفعلا، كنّا بصدد النزول الى قاعة الأكل عندما سمعنا صخبا ورأينا أضواء ضعيفة تلمع من ناحية المطبخ. فأطفأ غوليالمو النور واقتربنا محاذيين الجدران إلى الباب الذي يفضي إلى المطبخ، فسمعنا الضجيج آتيا من الخارج، إلاّ أن الباب كان مفتوحا. ثم أبتعدت الأصوات والأضواء وأغلق أحدهم الباب بعنف. كانت جلبة كبيرة تنبئ بمكروه. مررنا من جديد بسرعة عبر المعظمة وبرزنا في الكنيسة التي كانت خالية، ثم خرجنا من الباب الجنوبي ورأينا أضواء مشاعل في الرواق.

اقتربنا، وفي غمار الفوضى كان يبدو أننا هرعنا، نحن أيضا، إلى ذلك المكان مع الكثيرين الذين كانوا هناك، وقد خرج بعضهم من قاعات النوم وبعضهم من دار الضيافة. ورأينا النبالين يمسكون بشدة بسلفاتوري، شاحبا أكثر من بياض عينيه، وبامرأة كانت تبكي. وأحسست بانقباض في قلبي: انها هي، فتاة خواطري. ولما رأتني عرفتني وألقت اليّ بنظرة متوسلة يائسة. كدت أندفع لتخليصها ولكن غوليالمو أمسكني هامسا إليّ بكلمات تعنيف خالية تماما من المودّة. وكان الرهبان آنذاك والضيوف يتراكضون من كلّ صوب.

وصل رئيس الدير، ووصل برناردو غي الذي قدّم اليه قائد النبالين تقريرا وجيزا. وهذا ما حدث.

بأمر من المحقق كانوا يطوفون أثناء الليل عبر المكان كلّه، مولين اهتماما خاصا بالمسلك المؤدي من باب الدير الى الكنيسة، بجهة المبقلة، وبواجهة

الصرح (وتساءلت لماذا؟ ثم فهمت: من الواضح أن برناردو غي التقط من الخدم ومن الطباخين معلومات عن تحرّكات ليلية، ربما دون معرفة المسؤولين عنها بالضبط، كانت تقع بين خارج الأسوار والمطابخ، ومن يدري ان لم يكن ذلك الغبي سلفاتوري، كما حدثني أنا عن مقاصده، كان قد تحدث بذلك في المطبخ أو في الاصطبلات الى بعض اللئام وأخافت هذا الأخير تحقيقات برناردو في العشية فنقل اليه تلك الأحاديث). وبينما كانوا يطوفون، متيقظين، في العتمة وبين الضباب، فاجأ النبالون أخيرا سلفاتوري صحبة المرأة بينما كان منهمكا في شؤونه أمام باب المطبخ.

وقال برناردو بصرامة متوجها الى رئيس الدير: «امرأة في هذا المكان المقدس! ومع راهب!» ثم تابع «سيدي الجليل، لو كان الأمر يقتصر على انتهاك نذر العفة فعقاب هذا الرجل يكون من مشمولاتكم القضائية. ولكن بما أننا لا نعرف إلى الآن ان كانت لأعمال هذين الفاجرين علاقة بسلامة الضيوف، ينبغي قبل كل شيء أن نزيح الستار عن هذا السر الغامض. هلم اذن، أتحدث إليك أيها البائس»

ـ وانتزع من صدر سلفاتوري اللفافة التي كانت ظاهرة بوضوح بينما كان يظن أنها مخفية ـ «ماذا يوجد بداخلها؟».

كنت أعرف أنا ماذا يوجد بها: سكين، وقط أسود وثب وهو يموء هائجا عندما فتحت اللفافة، وبيضتان أصبحتا لزجتين وقد كسرتا، وبانتا للجميع دما أو مِرّة صفراء أو مادة أخرى نجسة. كان سلفاتوري يستعد للدخول إلى المطبخ لذبح القط وانتزاع عينيه، ومن يدري بأي وعود جعل الفتاة تتبعه. وعرفت حالا نوعية تلك الوعود عندما فتّش النبالون الفتاة وسط ضحكات خبيثة وانصاف كلمات داعرة، ووجدوا عندها ديكا صغيرا ميتا لم ينتف ريشه بعد. وشاء سوء الحظ في الليل، حيث تبدو كل القطط رمادية، أن يظهر الديك أسوداً كالقط. بينما فهمت أنا أنّ ذلك كان كافيا لاستمالة تلك الجائعة المسكينة التي تخلّت في الليلة الفارطة (ومن أجل حبها لي!) عن قلب الثور الثمين...

وصاح برناردو بنبرة تنمّ عن الانشغال الكبير «قط وديك كلاهما أسود... ولكنني أعرف أدوات الشيطان هذه...» ـ ثم لمح غوليالمو من بين الحاضرين ـ فقال له: «ألا تعرفها أنت أيضا، يا أخ غوليالمو؟ ألم تكن محققا في كيلكينيّ،

منذ ثلاث سنوات، حيث كانت تلك الفتاة تتعامل مع شيطان يظهر لها في هيئة قط أسود؟»

وبدا لي أن أستاذي كان يسكت عن جبن. فأمسكته من كمّه وحرّضته هامسا اليه بيأس «بل قل له إنها أخذته كي تحصل على قوت...»

فتحرر من قبضتي وتوجه بأدب إلى برناردو «لا أظن أنك بحاجة إلى خبراتي القديمة كي تصل إلى استنتاجاتك». فابتسم برناردو قائلا «آه، كلاّ، توجد شهادات أكثر وثوقاً فهذا ستيفانو دي بوربوني يروي في دراسته حول هبات الروح القدس السبع كيف أن القديس دومنيكو، بعد أن وعظ بفونجو ضدّ الهراطقة، أعلن إلى بعض النساء انهن سيرين من كن يخدمن الى ذلك الحين. وفجأة قفز بينهن قط فظيع في حجم كلب كبير، له عينان كبيرتان وملتهبتان، ولسان دام يصل الى السرة، وذنب قصير منتصب، كيفما يتحرك الحيوان يظهر فجور دبره النتن أكثر من أي دبر آخر، كما يجدر بذلك الدبر الذي اعتاد دائما متعبدو ابليس، وجنود الهيكل ليسوا الأخيرين، أن يقبّلوه أثناء اجتماعاتهم. وبعد أن طاف حول النساء لمدّة ساعة قفز القط على حبل الجرس وتسلّقه تاركا وراءه بقاياه العفنة. أو ليس القط هو الحيوان الذي يحبه المانويون الذين يستمدون اسمهم (catari) حسب ألانو ديلّي ايزولي، من (catus) بالذات، لأنهم يقبّلون من الحيوان مؤخرته وهم يعتبرونها تجسيدا للوسيفوروس! ألا يؤكد هذه الممارسة الكريهة غوليالمو دالفارنيا أيضا، في كتابه «في القانون»؟ ألا يقول ألبارتو مانيو إن القطط شياطين بالقوّة؟ ثم ألا يقول زميلي الوقور جاك فورنيي انه ظهر على فراش موت المحقق غوفريدو دا كار كاسوني قطّان أسودان، لم يكونا إلاّ شياطين كانا يريدان العبث بتلك الجثة؟

وسرت همسات الفظاعة بين مجموعة الرهبان بينما رسم العديد منهم علامة الصليب المقدس.

وقال في الأثناء برناردو بنبرة ورع «سيدي رئيس الدير، سيدي رئيس الدير، قد لا تعرف سيادتكم ماذا اعتاد المذنبون أن يفعلوا بهذه المعدّات! ولكني أنا أعرف ذلك جيدا، لا سمح الله! لقد رأيت نساء شريرات جدا كنّ في الساعات الحالكة من الليل صحبة نساء أخريات من طائفتهن، يستعملن قططا سوداء للحصول على معجزات لم يقدرن أبدا على إنكارها: كن يذهبن راكبات صهوة

بعض الحيوانات، قاطعات تحت ستر الظلام مساحات شاسعة وهن يجذبن وراءهن عبيدهن وقد تحوّلوا الى كوابيس ذوي شهوات جنونية... والشيطان نفسه يظهر لهن، أو على الأقل هن يعتقدن ذلك بقوة، في هيئة ديك، أو حيوان آخر شديد السواد، ويجامعن، ولا تسألوني كيف، ذلك الحيوان. وأعرف بالتأكيد انه بسحر مماثل، وفي وقت غير بعيد، في أفينيون بالذات، كانت تعد مشروبات سحرية وأدهان لاغتيال مولانا البابا نفسه، بتسميم الأكل. وقد أستطاع البابا أن ينجو من ذلك وأن يتفطن للسم فقط لأنه محصن بجواهر معجزة في شكل لسان ثعبان، مقوّاة بأحجار رائعة من الزمرّد والياقوت تصلح بقدرة إلٰهية لاكتشاف وجود السم في الأكل! وقد أهدى إليه ملك فرنسا أحد عشر لساناً من تلك الألسن الثمينة، ليكن الشكر للسماء، وهكذا فقط أستطاع مولانا البابا النجاة من الموت! صحيح أن خصوم الحبر الأعظم فعلوا أكثر من ذلك. ويعلم الجميع ماذا أكتشف حول الزنديق برنار ديليسيو الذي وقع ايقافه منذ عشر سنوات: لقد اكتشفت في منزله كتب سحر فيها ملاحظات في أكثر الصفحات فسوقاً بالذات، مع كلّ التعليمات لصنع صور من الشمع يستطيع من خلالها أن يلحق الضّرر بخصومه. ولن تصدقوا ذلك، لقد وجدوا لديه صورا تمثل، بفن دون شك جدير بالاعجاب، صورة البابا نفسه، بدوائر صغيرة في مناطق الجسم الحيويّة: ويعلم الجميع أن مثل تلك الصور تعلق في حبل وتوضع أمام مرآة ثم تصاب الدوائر الحيوية بابر فـ... آه، ولكن لماذا أطيل الحديث في مثل هذه الحقارات المخزية؟ البابا نفسه حدثني عنها ووصفها لي وقد أدانها، في السنة الفارطة بالذات، في دستوره «Sper illius specula» وأرجو أن تكون لديكم نسخة منه في مكتبتكم الثرية، للتأمل فيه كما ينبغي...»

فسارع رئيس الدير بالتأييد وهو مرتبك أشد الارتباك «لدينا، لدينا ذلك».

فاختتم برناردو قائلا: «حسن. الآن يبدو لي الأمر واضحا. راهب ضال، وساحرة، وبعض الطقوس التي من حسن الحظ لم تتم. ولكن لأي غرض؟ وهذا ما سنعرفه، وأريد اختلاس بعض الساعات من النوم لمعرفة ذلك. هل تتفضل سيادتكم أن تضع تحت تصرفي مكانا يمكن لنا فيه حراسة هذا الرجل...»

فقال رئيس الدير «لدينا بعض الزنزانات في الطابق السفلي تحت مشغل الحدّادين، تستعمل لحسن الحظ قليلاً وهي خالية منذ سنين»..

فقال برناردو «لحسن الحظ أو لسوء الحظ». وطلب أن تبين الطريق للنبالين آمرا أن يقاد الأسيران إلى زنزانتين مختلفتين، وأن يوثق الرجل جيدا الى بعض الحلق المثبتة في الحائط، حتى يتمكن بعد قليل من النزول لاستنطاقه محدقا جيدا في وجهه. وقال مضيفا: أما الفتاة ومن تكون فذلك واضح، وليست هناك جدوى من استنطاقها هذه الليلة. تنتظرها محن أخرى قبل حرقها على أنها ساحرة. وان كانت ساحرة فلن تتكلم بسهولة. ولكن الراهب، من يدري، قد يتوب (وحدّق في سلفاتوري الذي كان يرتعد، كما لو كان يريد أن يفهمه أنه يمنحه فرصة أخيرة للتوبة) كاشفا عن هويّة شُركائه.

وجُرّ كلاهما، أحدهما صامت ومنكسر؛ وكأنه محموم، والأخرى تبكي وتركل وتصرخ كحيوان يقاد الى المجزرة. ولكن لا برناردو ولا النبالون ولا أنا، كنا نفهم ماذا كانت تقول في لهجتها تلك، لهجة الفلاحين، ورغم كلّ أقوالها كانت كأنهابكماء. هناك كلمات تعطي نفوذا وأخرى تجعل صاحبها أكثر ضعفا من ذي قبل. ومن هذا النوع الأخير كلمات البسطاء العامية، الذين لم يمنحهم الاله القدرة على التعبير باللّغة الكونية، لغة العلم والنفوذ.

ومرة أخرى كدت أتبعها، ومرّة أخرى أمسكني غوليالمو وهو مكفهر الوجه، قائلا «لا تتحرك، أيها الغبيّ. ان الفتاة هالكة، فهي لحم محروق».

وبينما كنت أتابع المشهد بارتياع، في دوامة من الأفكار المتناقضة وأنا أحدق في الفتاة، اذ أحسست بأحد يلمس كتفي. ولا أدري لماذا ولكني قبل أن ألتفت لأراه عرفت من اللمسة انه أوبارتينو. وسألني:

ـ «انك تنظر الى الساحرة، أليس صحيحا؟.» وكنت أعرف أنه لا يمكن أن يكون على علم بقصتي، وانه كان يتحدث اذن كذلك فقط لأنه تفطن، لعمق معرفته بالعواطف الانسانية، الى عمق نظراتي.

فأجبت منفلتا «كلاّ، لم أكن أنظر إليها... أي، ربما كنت أنظر إليها، ولكنها ليست ساحرة... لا نعرف ذلك، ربما هي بريئة».

ـ انك تنظر اليها لأنها جميلة. انها جميلة أليس كذلك؟ ـ وألقى سؤاله بحرارة غريبة، ضاغطا على ذراعي «ان كنت تنظر اليها لأنها جميلة وترتبك من أجل ذلك (وأعرف أنك ترتبك، لأنها متهمة بخطيئة تجعلها أكثر فتنة في عينيك)، ان كنت تنظر اليها وتحس بالرغبة، فلذلك السبب نفسه هي ساحرة. حذار، يا بني... ان

جمال الجسد لا يتعدى الجلد. لو أن الرجال رأوا ماذا يوجد تحت الجلد، كما حدث مع فهد بيوتسيا، لأقشعروا من رؤية المرأة. كل ذلك الجمال متكون من نخاع ودم، من أخلاط ومرّة. ولو فكرنا فيما يختفي في المنخرين، في المزدرد وفي البطن لما وجدنا إلاّ عفونة. وان كنت تنفر من لمس المخاط أو الروث بطرف اصبعك، فكيف يمكن أن ترغب في معانقة الكيس نفسه الذي يحتوي على الزبل؟»

فشدتني رغبة في التقيوء ولم أعد أرغب في سماع تلك الكلمات، فسارع أستاذي لنجدتي، وكان قد سمع ذلك، فاقترب بعنف من أوبارتينو وأمسكه بشدة من ذراعه، وفك قبضته عني قائلا له :

«كفى يا أوبارتينو. عمّا قريب ستعذب تلك الفتاة، ثم تحرق. ستصبح بالضبط كما كنت تقول، مخاطا، ودما وأخلاطا ومرّة. ولكن سيكون أمثالنا هم الذين سيخرجون من تحت جلدها ما أراد الرب اخفاءه وتزيينه بذلك الجلد. ومن ناحية المادة الأولى، أنت لست أفضل منها. اترك الولد لحاله».

فارتبك أوبارتينو هامسا «قد أكون أرتكبت ذنبا. اني ارتكبت دون شك ذنبا. وماذا يمكن أن يفعل مذنب؟»

كان الجميع في ذلك الحين بصدد العودة الى حجراتهم، معلقين فيما بينهم على ما حدث. وتحادث غوليالمو قليلا مع ميكيلي ومع الفرنشسكانيين الآخرين، الذين كانوا يسألونه عن انطباعاته.

ـ برناردو يملك الآن حجّة، ولو أنها ملتبسة. يطوف في الدير مشعوذون يفعلون نفس الأشياء التي استعملت ضد البابا في أفينيون. دون شك هذا ليس دليلا، ولا يمكنه استعماله في مقام أول لتشويش لقاء الغد. سيحاول هذه الليلة أن ينتزع من ذلك التعيس بعض المعلومات الأخرى، ولم يستعملها حالا، كما أنا متأكد من ذلك، في صبيحة الغد. سيحتفظ بها لتصلح له فيما بعد، لعرقلة مسار المناقشات اذا ما اتخذت مجرى لا يعجبه.

فسأله ميكيلي دا تشيزينا «أيمكن أن يرغمه على قول شيء يستعمله ضدنا؟»

فبقى غوليالمو مترددا ثم أجاب «نرجو أن لا يفعل ذلك». ففكرت في أن سلفاتوري إن قال لبرناردو ما قاله لنا نحن، عن ماضيه وعن ماضي القيم، وإن لمح ولو بصفة خاطفة الى علاقتهما بأوبارتينو، فسيخلق ذلك حالة محرجة جدّاً.

فقال غوليالمو بهدوء «على كل حال لننتظر الأحداث. ومن ناحية أخرى، يا ميكيلي، لقد تقرّر كل شيء من قبل. ولكنك تريد أن تحاول».

فأجاب ميكيلي «أريد ذلك، وسيكون الاله في عوني. وليتوسط بيننا القديّس فرانشسكو».

فردّ الجميع «آمين».

فعقب غوليالمو متجاسراً «ولكن ليس ذلك مؤكداً، قد يكون القديس فرانشسكو ينتظر في مكان ما يوم الدينونة الأخيرة دون رؤية الرب وجها لوجه».

وسمعت ميسيّر جيرولامو يغمغم بينما كان الجميع يعودون إلى فراشهم «لعنة الله على الزنديق جيوفاني! اذا ما حرمنا من معونة القدّيسيين، ماذا سيكون حالنا، نحن المذنبين المساكين؟».

اليوم الخامس

أولى

وفيه تدور مناقشة أخوية حول فقر المسيح

استيقظت صباح اليوم الخامس بينما كانت تدق «أولى»، تثير نفسي آلاف مشاعر القلق بعد مشهد تلك الليلة، وبعد أن هزّني غوليالمو بعنف ونبّهني الى أن القصادتين ستجتمعان بعد قليل. نظرت خارج نافذة الحجرة فلم أر شيئا. لقد أصبح ضباب اليوم السابق ستارا كثيفا كالحليب يهيمن دون منازع على السهل.

ما أن خرجت حتى رأيت الدير كما لم أره قبل ذلك. ما عدا بعض البناءات الكبرى كالكنيسة والصرح وقاعة المجلس، التي كانت تبرز حتى من بعيد، ولو بدون دقة في الخطوط، أشباحا بين الأشباح، كانت باقي البناءات ظاهرة على بعد خطوات قليلة فقط، فكأن الأشكال والأشياء والحيوانات تبرز بصفة مفاجئة من العدم، وكان الأشخاص يبرزون من الضباب، في البداية رماديّ اللون كأنهم أشباح، ولا يمكن التعرف عليهم إلاّ بصعوبة.

لم يكن ذلك العنصر الطبيعي جديدا بالنسبة الي، أنا المولود في البلدان الشمالية، وكان يمكن في حالات أخرى أن يذكّرني، بشيء من الحنان، بالسّهل والقصر اللذين نشأت فيهما. ولكن في ذلك الصباح بدت لي حالة الهواء مماثلة في كدرها لحالاتي النفسية وأزداد شيئا فشيئا ذلك الاحساس بالكرب الذي أستيقظت عليه كلما زدت اقترابا من قاعة المجلس.

على بعد خطوات قليلة من المبنى رأيت برناردو غي يستأذن في الانصراف من شخص آخر لم أتعرف عليه من أول وهلة. ولمّا مر بجانبي رأيت أنه ملاخي. وكان ينظر حواليه كمن يريد أن لا يراه أحد وهو يرتكب جريمة: ولكني كنت قد ذكرت أن ملامح ذلك الرجل هي بطبيعتها ملامح من يخفي، أو يحاول إخفاء سرّ لا يمكن الاعتراف به.

لم يتعرف علي، وابتعد. وأنا، بدافع الفضول، تبعت برناردو ورأيته يقرأ بعض الأوراق، ربما كان قد سلّمها إليه ملاخي. وعلى عتبة القاعة أومأ إلى قائد النبالين الذي كان قريبا من هناك وهمس اليه بضع كلمات. ثم دخل، وتبعته.

كانت تلك هي المرة الأولى التي أضع فيها قدمي في ذلك المكان، الذي كان من الخارج ذا حجم متواضع وأشكال بسيطة، وتفطنت الى أن بناءه قد أعيد في عصور قريبة فوق أنقاض كنيسة ديرية بدائية ربما كان قد دمر حريق جزءا منها.

عندما يدخل المرء من الخارج يمر تحت باب كبير مصنوع على الطريقة الجديدة، ذي قوس قوطية، دون زخرف تعلوها نجمية. ولكن من الداخل تجد نفسك في بهو أعيد بناؤه فوق بقايا مجاز قديم. في الجهة المقابلة يقف باب كبير آخر، ذو قوس على الطريقة القديمة، له لوحة جبهية في شكل نصف دائرة منحوتة بروعة. قد تكون بوّابة الكنيسة المندثرة.

وكانت نقوش لوحة الجبهة في مثل جمال نقوش الكنيسة الحالية ولكنها كانت أقلّ ترويعا. وهنا أيضا كان يعلو لوحة الجبهة مسيح فوق العرش، ولكن كان بجانبه، في أوضاع مختلفة وماسكين بأشياء مختلفة، الحواريون الاثنا عشر الذين تسلموا منه الأمر بالذهاب عبر العالم ليبشروا بالانجيل. فوق المسيح وفي قوس مقسّم الى اثني عشر اطاراً، وعند قدمي المسيح، في صف لا ينقطع من الصور، كانت شعوب العالم كلها ممثلة، تلك التي ستتسلم البشارة الجديدة. وتعرّفت من لباسهم، على اليهود، والكبادوقيين، على العرب والهنود، على الفريجيين، على البيزنطيين والارمينيين، على السّيت والرومان. ولكن أمتزج بهم، في دوائر موضوعة في شكل نصف دائرة فوق قوس الأطر، سكان العوالم المجهولة، التي حدثنا عنها قليلا «الفيزيولوجي» وروى لنا الرحالة عنها روايات قليلة وغير ثابتة. وكنت أجهل كثيرا من تلك الشعوب وأعرف أخرى: مثلا هناك المتوحشون الذين لهم ستة أصابع في كل يد، والفونيون، الذين يولدون من الديدان المتكوتة بين لحاء الشجر والشكير، وعرائس البحر ذات الذنب المحرشف، التي تغري البحارة، والاثيوبيون ذوو الجسد الاسود الذين يحمون أنفسهم من حرارة الشمس بحفر مغاور تحت الأرض، والسنتوريون وهم بشر الى السرة وحمير ما تحت ذلك، والعمالقة بعين واحدة في حجم درع وسيّلا الذي له رأس وصدر فتاة، وبطن ذئبة وذنب دلفين ورجال الهند الكثيفو الشعر الذين يعيشون في المستنقعات

وعلى ضفاف نهر ابيغماريد، وكلبيّات الرؤوس التي لا تستطيع أن تقول شيئا دون النباح من حين لآخر، والسكيابوديون الذين يعدون بسرعة فائقة على ساق واحدة وعندما يريدون الاحتماء من الشمس يستلقون ويرفعون قدمهم الكبيرة كأنها مظلة، وعديمو الفم الذين يتنفسون من المناخير ويعيشون بالهواء فقط، ونساء أرمينيا ذوات اللحيّ، والأقزام، والابيستجيون، وبعضهم يسمونهم بليميين، يولدون دون رأس، لهم فم فوق البطن وعينان على الكتفين، ونساء البحر الأحمر الفظيعات، تبلغ قامتهن أثنتي عشرة قدما ويصل شعرهن الى القدمين، ولهن ذنب بقر في أسفل الظهر وحوافر جمل، وأولائك الذين لهم باطن قدم منقلب، ومن يطاردهم متتبعاً آثارهم يصل دائما إلى المكان الذي أنطلقوا منه ولا يصل أبدا إلى المكان الذي ذهبوا اليه، ثم بشر بثلاثة رؤوس، وآخرون بعيون لامعة كالفوانيس ومسوخ جزيرة سيرسي، بجسم بشر وعنق حيوانات مختلفة.

هذه وروائع أخرى كانت منقوشة على تلك البوابة. ولكن لم يكن أحدها يثير الخوف لأنها لم تكن تمثل شرور هذه الأرض أو عذاب الجحيم، بل كانت شاهدة على أن البشارة بالخير قد وصلت الى كل بقاع الأرض المعروفة وأنها تمتد الى المجهولة منها، بحيث تكون البوابة واعدة بالوفاق وباتمام الوحدة تحت كلمة المسيح، وبشمول رائع.

فقلت في نفسي انه لبَشير خير بالنسبة الى اللقاء الذي سيقع وراء تلك العتبة، حيث سيتلاقى رجال أصبحوا أعداء لاختلاف تأويلهم للانجيل، ربما ليصلحوا ما بينهم من خلاف. وقلت لنفسي انني كنت مذنبا ضعيفا اذ كنت أتألم لحالاتي الشخصية بينما ستقع أحداث ذات أهمية عظيمة بالنسبة الى تاريخ المسيحية. وقارنت حقارة آلامي بعظمة الوعد بالسلام وبالأمن المنحوت على حجارة لوحة الجبهة. وسألت الرب أن يغفر لي ضعفي، واجتزت العتبة بطمأنينة أكبر.

ما ان دخلت حتى رأيت أعضاء القصادتين، وقد تواجهوا جالسين فوق مجموعة من الكراسي وضعت في شكل نصف دائرة، وتفصل الجبهتين طاولة جلس اليها رئيس الدير والكاردينال برتراندو.

ووضعني غوليالمو، الذي أخذني معه كي أدون ما سيقال، في جهة الفرنشسكانيين، حيث كان يجلس ميكيلي ورفاقه مع فرنشسكانيين آخرين من بلاط أفينيون. إذ كان ينبغي أن لا يبدو اللقاء نزالا بين ايطاليين وفرنسيين، ولكن

مجادلة بين مؤيدي القاعدة الفرنشسكانية ومنتقديهم، يوحّد الجميع اخلاص صادق وكاثوليكي للبلاط البابوي.

مع ميكيلي دا تشيزينا كان يجلس الأخ أرنالدو داكيتانيا والأخ أوغو دا نوفو كاسترو والأخ غوليالمو ألنويك، الذين كانوا قد شاركوا في مجمع بيروجيا، ثم أسقف قيافا وبرينغاريو طالّوني، بونغراتسيا دا برغامو وفرنشسكانيون اخرون من البلاط الافينيوني. في الجهة المقابلة كان يجلس لورانتسو ديكوالكوني، فقيه أفينيون وأسقف بادوفا وجون دانّو، عالم في اللاهوتية بباريس. بجانب برناردو غي كان يجلس، صامتا وغارقا في أفكاره، الدومينكاني جون دي بون الذي كانوا يسمونه في ايطاليا جيوفاني دالبينا. وقال لي غوليالمو إنه كان قبل سنوات محققا في ناربونا، حيث حاكم العديد من المتزمتين والمترهبين، ولكن بما أنه أدان بالهرطقة تلك الفكرة بالذات التي تتعلق بفقر المسيح، قام ضدّه برينغاريو طالوني، وكان مقرئا في دير تلك المدينة، مستنجدا بالبابا. كان جيوفاني اذاك مترددا حول تلك القضية فدعا الأثنين الى البلاط للمجادلة، دون الخروج بأية نتيجة. مما جعل الفرنشسكانيين بعد وقت قليل يتخذون الموقف الذي كنت قد تحدثت عنه، في مجمع بيروجيا. وأخيراً من جهة الافينيون كان هناك آخرون، من بينهم أسقف ألبوريا.

وأفتتح أبوني الجلسة ورأى أنه من الأفضل تلخيص الأحداث القريبة العهد. فذكّر انه في السنة الميلادية 1322 قرّر مجمع الرهبان الفرنشسكانيين العام، الذي التأم في بيروجيا تحت زعامة ميكيلي دا تشيزينا وبعد مداولة جادّة ومعمّقة ان المسيح، كي يعطي مثال الحياة الكاملة، والحواريين كي يتّبعوا تعاليمه، لم يشتركوا أبدا في ملك شيء لغاية الامتلاك أو لغاية السيادة، وان هذه الحقيقة تكوّن المادة لعقيدة صحيحة وكاثوليكية، كما يمكن استخلاص ذلك من استشهادات مختلفة من الكتب الكنيسية. ولذا يكون جديرا بالتقدير ومقدّسا العدول عن امتلاك كلّ الاشياء، وكان المؤسسون الأولون للكنيسة المناضلة قد تمسّكوا بهذه القاعدة المقدّسة. كما أن مجمع فيينا كان قد تمسّك سنة 1312 بهذه الحقيقة وان البابا جيوفاني نفسه سنة 1317، في الدستور الذي يخصّ حالة الأخوان الفرنشسكانيين الذي يبدأ بـ «Quorundam exigit»، كان قد علّق على قرارات ذلك المجمع على أنها وضعت بقداسة وجلاء وبثبات ونضج. ولذا اعتبر

مجمع بيروجيا، ان ما أيده برأي صائب كرسي البابوية ينبغي أن يبقى دائما مقبولا، ولا يمكن بطريقة من الطرق الحياد عنه، فاكتفى بتأييد ذلك القرار المجمعي من جديد بإمضاء علماء في اللاهوتية المقدّسة كالأخ غوليالمو من انجلترا، والأخ انريكو من المانيا والأخ أرنالدو من أكيتانا، وولاة ووزراء، دون أن ننسى ختم الأخ نيكولاو وزير فرنسا، والأخ غوليالمو بلوك الذي كان فقيها، والوزير العام وأربعة وزراء جهويين، والأخ طومازو من بولونيا، والأخ بيترو من مقاطعة القديس فرانشسكو، والأخ فرناندو دا كاستيلو والأخ سيموني دا تورونيا، ولكن، أضاف أبوني، في السنة الموالية أصدر البابا الفتوى «Ad conditorem canonum» التي نادى بنقضها الأخ بوناغراتسيا دا برغامو، واعتبرها مناقضة لمصالح نظامه. عند ذلك خلع البابا تلك الفتوى من باب الكنيسة الكبرى في افينيون ونقّحها في عدّة نقاط. ولكنه جعلها في الحقيقة أكثر حدّة، والدليل أنه كنتيجة فورية لذلك بقي الأخ بوناغراتسيا سنة في السجن. ولم تعد هناك شكوك بخصوص صرامة البابا، اذ أصدر في السنة نفسها الفتوى التي أصبحت مشهورة جدا «Cum inter nonnullos»، والتي يدين فيها نهائيا مواقف مجمع بيروجيا.

فتكلم عندئذ الكاردينال برتراندو، مقاطعاً أبوني بأدب قائلا انه ينبغي التذكير بأنه مما زاد الأشياء تعقيدا وأغضب البابا تدخل الامبراطور لودوفيك البافاري سنة 1324 بتصريح ساكشنهاوسن، الذي يؤيد فيه دون سبب معقول مواقف بيروجيا (ولا يفهم لماذا، لاحظ برتراندو بابتسامة مريبة، يؤيد الامبراطور بذلك الحماس فقرا لا يمارسه هو نفسه البتّة)، ويتّخذ فيه موقفا معاديا لمولانا البابا، مسمّيا اياه «عدوّ السلام» وقائلا انه لا يهتم إلاّ بخلق الفضائح والشقاق، ورماه أخيرا بالزندقة، بل بالإلحاد.

فحاول أبوني أن يتوسّط قائلا «ليس تماما».

وردّ برتراندو بجفاء «كان ذلك هو الفحوى». وأضاف أنه للرد فعلا على تدخل الامبراطور الذي جاء في غير محله اضطر ميسّر البابا إلى إصدار فتوى «Quia quorundam»، وانه لذلك دعا بصرامة ميكيلي دا تشيزينا للمثول أمامه. فبعث ميكيلي برسائل يعتذر فيها بأنه مريض، ولم يشك أحد في ذلك، وأرسل عوضا عنه الأخ جيوفاني فيدانتسا والأخ أوميلي كوستديو دا بيروجيا. ولكن حدث كما قال الكاردينال أن الغوالفيين في بيروجيا أخبروا البابا بان الأخ ميكيلي،

الذي لم يكن مريضا البتة، كانت له اتصالات مع لودوفيك البافاري. وانه على كل حال ما وقع قد وقع وانتهى، والآن يبدو الأخ ميكيلي مطمئنا ومعافى، وانه منتظر اذن في أفينيون. ومن الأحسن كما اعترف الكاردينال، أن توزن، أمام رجال متبصرين من الشقين، الأقوال التي سيتقدم بها ميكيلي الى البابا، اذ أن الهدف الذي يصبو اليه الجميع هو أن لا تزيد الأشياء حدّة أكثر مما هي عليه وأن يوضع حدّ لمجادلة ما كان ينبغي أن تقع بين أب عطوف وأبنائه الأتقياء، والتي الى ذلك الحين لم تتأجج نارها إلاّ من تدخل المدنيين، من امبراطوريين ونائبين، الذين ليس لهم نظر البتة في أمور الكنيسة المقدسة.

فتدخل عندئذ أبّوني وقال انه، بالرغم من أنه رجل كنيسة ورئيس دير نظام تدين له الكنيسة بالكثير (وجرت عند ذلك همسات تقدير وإجلال تأتّت من ناحيتي نصف الدائرة) فهو لا يعتبر مع ذلك ان الامبراطور يجب أن يبقى غريبا عن مثل تلك المسائل، لكثير من الأسباب سيذكرها بعد قليل غوليالمو دا باسكارفيل. وواصل أبّوني قوله إنه صحيح مع ذلك أن الجزء الأول من المناقشة يجب أن يدور بين المبعوثين البابويين وممثلي أبناء فرنشسكو، أولائك الذين بمشاركتهم نفسها في هذا اللقاء، يظهرون الأبناء الأوفياء. ولذا يدعو الأخ ميكيلي أو من سيتكلم باسمه الى كشف ماذا ينوي أن يقول في أفينيون.

فقال ميكيلي انه بابتهاج وبتأثر بالغين يرى بينهم ذلك الصباح أوبارتينو دا كزالي، الذي طلب منه البابا نفسه، سنة 1322، تقريرا مدعّما حول قضية الفقر وأوبارتينو بالذات يمكنه أن يلخص، بالوضوح، وبالمعرفة وبالايمان المتحمّس الذي يعترف له بها الجميع، النقاط الرئيسية لتلك التي أصبحت الآن، وستبقى دائما، مواقف النظام الفرنشسكاني.

فنهض أوبارتينو، وما أن أخذ في الكلام حتى فهمت لماذا كان يثير كلّ ذلك الحماس عند سامعيه كواعظ وكرجل بلاط. لقد كان ذا حركات متحمّسة، وصوت مقنع وابتسامة جذابة وتفكير واضح ومنطقي واستهلّ حديثه، فشدّ اليه السامعين طيلة الوقت الذي تكلم فيه. واستهل حديثه بعرض مفصّل ودقيق للحجج التي تدعم مواقف بيروجيا. قال أنه ينبغي قبل كل شيء الاعتراف بأن المسيح وحوارييه كانوا في حالة مزدوجة، لأنهم كانوا أحبار كنيسة العهد الجديد وفي هذا المعنى أمتلكوا مالا، كي يعطوا للفقراء ورجال الكنيسة، وذلك بوصفهم

سلطة التوزيع والتفريق، كما هو مكتوب في الباب الرابع من أعمال الحواريين، ولا أحد يناقش ذلك. ولكن، من ناحية ثانية ينبغي اعتبار المسيح والحواريين أشخاصا أفرادا، هم أساس كلّ كمال ديني، ومثال للاحتقار لحطام الدنيا. وفي هذا المعنى تتوضح طريقتان في الامتلاك، الأولى مدنية ودنيوية، تلك التي تعرفها الأحكام الامبراطورية بكلمات «in bonis nostris» لأن تلك الأملاك التي يحق لنا الدفاع عنها تُعتبر لنا، واذا ما انتزعت منّا، فلنا الحق في المطالبة بها. لذا، فحق أن يدافع المرء مدنيا ودنيويا عن ملكه ممن يريد انتزاعه منه، مستغيثا بالقاضي الامبراطوري (والقول بأن المسيح والحواريين ملكوا أشياء بهذا المعنى هو قول هرطقي، لأنه، كما يقول متّى في الاصحاح الخامس، لمن يطالبك أمام القاضي ويريد خلع قميصك عنك أعطه أيضا معطفك، ولا يقول خلاف ذلك لوقا في الاصحاح السادس، وبكلماته يبعد المسيح عن نفسه كل هيمنة وسيادة ويفرض على حوارييه نفس الشيء، ولننظر أيضا متّى في الاصحاح الرابع والعشرين، حيث يقول بطرس لسيدنا (انهم تركوا كل شيء ليتبعوه). ولكن من ناحية أخرى، يمكن مع ذلك امتلاك الأشياء الدنيوية، بموجب الاحسان الأخوي المشترك، وبهذه الطريقة امتلك المسيح وحواريوه أشياء بموجب طبيعي، ذلك الموجب الذي يسميه بعضهم «Jus poli» أي موجب من السماء، لاعالة الطبيعة التي عندما تكون دون تشريع بشري تكون مطابقة للفكر المستقيم. بينما الحق المسمّى «Jus fori» هي سلطة مستمدة من دستور بشري. وقبل التقسيم الأولي للأشياء، كانت هذه ـ من حيث السلطة ـ كالأشياء التي تعتبر الآن دون مالك لها، وهي اذن لمن يمتلكها، وكانت بمعنى من المعاني مشتركة بين كل البشر، بينما فقط بعد الخطيئة أخذ أسلافنا في تقاسم ملكية الأشياء ومنذ ذلك الحين بدأت السلطة الزمنية كما نعرفها اليوم. ولكن المسيح والحواريون امتلكوا الأشياء حسب الطريقة الأولى، وهكذا حصلوا على اللباس والخبز والسمك وكما يقول بولس في «رسالته الأولى الى تيموثاوُس»، لدينا الطعام وما نستتر به، ونحن سعداء. ولذا هذه الأشياء حصل عليها المسيح ورفاقه لا كملك ولكن كاستعمال، دون أن يغيّر ذلك من فقرهم المطلق. وذلك ما أعترف به البابا نيكّولو الثاني في فتواه «Exiit qui seminat».

ولكن نهض من الجهة المقابلة جون دانّو وقال إن مواقف أوبارتينو تبدو له

متناقضة سواء مع الرأي الصائب أو مع التأويل الصحيح للكتابات. بما أنه بالنسبة الى الأشياء القابلة للتلف من جراء الاستعمال كالخبز والسمك، لا يمكن التحدث عن مجرد حق الاستعمال، كما لا يمكن التحدّث عن استعمال فعلي إلاّ تجاوزا. كلّ ما كان المؤمنون يشتركون في امتلاكه في الكنيسة البدائية، كما يستنتج ذلك من «أعمال الرسل»، الأصحاح الثاني والثالث، كانوا يمتلكونه بنفس الطريقة التي كانوا يمارسونها قبل اعتناق الدين، وقد ملك الحواريون أراضي في اليهودية بعد نزول الروح القدس، ثم إن النذر بالعيش دون ملكيّة لا يمتد إلى الأشياء، التي هي ضرورية لحياة الانسان كي يعيش، وعندما يقول بطرس إنه ترك كلّ شيء لم يكن يعني أنه عدل عن الملكية، لقد حصل آدم على سلطة وملكية الأشياء، والخادم الذي يأخذ نقودا من سيده لا يقوم بالتأكيد لا بالتصرف فيها ولا بسوء التصرف، ان كلمات Exiit qui seminat التي يعود اليها دائما الفرنشسكانيون، والتي تحدد أن الرهبان الفرنشسكانيين يملكون فقط حق استعمال الأشياء التي تصلح لهم دون أن تكون لديهم عليها سلطة ولا ملكية، تعني فقط الأملاك التي لا تتلف عن طريق الاستعمال، وفعلا لو كانت فتوى «..Exiit» تضمّ الأملاك القابلة للتلف فإنها تؤكد شيئا مستحيلا. لا يمكن التمييز بين الاستعمال الفعلي والسلطة الشرعية. كل الحقوق البشرية، التي تمكّن من امتلاك أشياء مادية موجودة في قوانين الملوك. والمسيح كانسان فان، منذ اللحظة التي خلق فيها، كان مالكا لكل الأشياء الأرضية وكالرّب حصل من الأب على السلطة الشاملة على كلّ شيء، ملك أثوابا وأطعمة ونقودا من مساهمات ومن هبات المؤمنين، وان كان فقيرا فهو لم يكن كذلك لأنه لم تكن لديه ملكية، ولكن لأنه لم يكن يجني ثمارها، اذ أن مجرد الملكية الشرعية، دون تقاضي الفوائد، لا تجعل مالكها غنيا. وأخيرا، حتى وأن قالت الفتوى أشياء تختلف عن هذا، فالحبر الروماني، فيما يخصّ العقيدة والمسائل اللاهوتية، يستطيع أن يلغي قرارات سابقيه وحتى الجزم بضدّها.

عند ذلك الحد قام الأخ جيرولامو، أسقف قيافا، بحدّة ولحيته ترتعش من الحنق حتى وان حاولت كلماته أن تظهر مسالمة. وبدأ محاجّة بدت لي غامضة بعض الشيء، فقال «إن ما أريد أن أقوله للأب المقدس، وسأقول له ذلك بنفسي، وليصوبني إن أخطأت، لأني أظن حقيقة أن جيوفاني نائب المسيح، ومن

أجل هذا الاعتراف أعتقلني المسلمون. وسأبدأ بذكر رواه عالم كبير، حول مجادلة وقعت يوما بين بعض الرهبان حول من يكون أب «مَلْكِي صادق». وعندما سئل رئيس الدير كوبس عن ذلك، ضرب رأسه وقال «ويحك يا كوبس لأنك تبحث فقط عن تلك الأشياء التي لم يأمرك الرب بالبحث عنها وتهمل تلك التي يأمر بها». هوذا، كما يستنتج بوضوح من المثل الذي قلته، يبدو من الواضح أن المسيح والعذراء البارّة والحواريين لم يملكوا شيئا لا فرديا ولا جماعيا، ويكون أقل وضوحا من ذلك الاعتراف بان يسوع كان انسانا وربّا في نفس الوقت، واذن يبدو لي واضحا أن من ينفي الحقيقة البديهية الأولى ينبغي أن ينفي أيضا الثانية!»

قال ذلك ظافرا، ورأيت غوليالمو يرفع عينيه الى السماء وخمّنت أنه يجد القياس المنطقي الذي أتى به جيرولامو ضعيفا شيئا ما، ولا يمكنني القول أنه كان مخطئا في ذلك، ولكن بدا لي أضعف الرد الحانق والمعارض الذي أتى به جيوفاني دالبينا الذي قال ان من يجزم بشيء حول فقر المسيح يجزم بما يرى (أو ما لا يرى) بالعين، بينما للتعريف بطبيعته البشرية وبطبيعته الالهية يدخل الايمان، ولذا لا يمكن وضع القضيتين في نفس المستوى. وكان جيرولامو في رده ثاقبا أكثر من منافسه فقال «أوه، كلاّ أيها الأخ العزيز. يبدو لي صحيحا العكس بالذات، لان كل الاناجيل تقول أن المسيح كان بشرا اذ كان يأكل ويشرب وكان أيضا ربّا لمعجزاته الواضحة تمام الوضوح، وكلّ هذا جلّي حقيقة للعيان!».

فقال دالبينا بإستعلاء: «السحرة والمنجمون أيضا قاموا بمعجزات» فردّ جيرولامو «صحيح، ولكن بواسطة أعمال سحرية. وتريد أنت أن تضاهي معجزات المسيح بعمل السحر؟» فندت عن المجلس همسات سخط تعني رفضها لذلك. فتابع جيرولامو وقد أحسّ بنفسه قريبا من الانتصار «أيريد سيدي الكاردينال ديلبوجيتو أن يعتبر هرطوقيا الاعتقاد في فقر المسيح عندما تقوم على هذه الفكرة قاعدة نظام مثل النظام الفرنشسكاني، لا توجد مملكة لم يذهب اليها أبناؤه للتبشير ولاراقة دمائهم، من المغرب الى الهند؟»

فهمس غوليالمو: «لتحفظنا روح بيترو اسبارو البارّة».

فتقدم عندئذ دالبينا خطوة الى الأمام وصرخ «أيها الأخ العزيز، قل ما شئت عن دم إخوانك، ولكن لا تنسى أن هذه التضحية قد قدمها أيضا رجال دين من أنظمة أخرى...»

فصاح جيرولامو «مع تقديري لسيدي الكاردينال، لم يمت أي دومينيكي أبدا بين الكافرين، بينما في الفترة التي عشتها أنا فحسب استشهد تسعة من الفرنشسكانيين!».

فنهض عندئذ الدومينيكي أسقف ألبوريا محمرّ الوجه وقال «اذن يمكنني أن أبرهن أنه قبل أن يذهب الفرنشسكانيون إلى بلاد التتار أرسل البابا اينوتشانسو إلى هناك ثلاثة دومينيكيين. !

فضحك جيرولامو هازئا «آه صحيح؟ وأنا أعرف أن الفرنشسكانيين يوجدون منذ ثمانين سنة في بلاد التتار ولديهم أربعون كنيسة عبر كل أنحاء البلاد، بينما لا يملك الدومينيكيون إلاّ أماكن على الساحل ولا يتجاوز عددهم في مجموعه خمسة عشر راهبا! وهذا يفض المسألة!».

فصاح ألبوريا «هذا لايفض أية مسألة، لأن ؤلائك الفرنشسكانيين الذين يضعون صعاليك كما تضع الكلاب صغارها، ينسبون كل شيء اليهم، ويعتزون بشهدائهم، ثم يمتلكون كنائس جميلة وديباجا فاخرا لمذابحهم ويشترون ويبيعون ككل رجال الدين الآخرين!».

فقاطعه جيرولامو قائلا «كلا يا سيدي، كلاّ، هم لا يشترون ويبيعون بأنفسهم، ولكن عن طريق وكلاء من السدّة الرسولية، والوكلاء يحتفظون بالملكية بينما لا يملك الفرنشسكانيون إلاّ الاستعمال!»

فقال ألبوريا ساخراً «صحيح؟ وكم من مرّة بعت أنت دون وكلاء اني أعرف قصةبعض الأراضي التي...».

فسارع جيرولامو بمقاطعته قائلا «ان كنت فعلت ذلك فقد أخطأت، لا تلق التبعة على النظام بما قد يكون ضعفا منّي!»

فتدخل عندئذ أبّوني قائلا «ولكن يا اخواني المبجّلين، المسألة ليست ان كان الفرنشسكانيون فقراء، ولكن ان كان سيّدنا فقيرا...»

فسمع من جديد صوت جيرولامو يقول «حسن، لديّ حول هذه القضية حجّة قاطعة كالسيف...»

فقال غوليالمو بيأس «أيها القدّيس فرانشسكو ذد أنت عن أبنائك...».

وتابع جيرولامو «الحجة هي أن الشرقيين واليونانيين، الذين لهم ألفة أكثر بعقيدة الآباء لقدّيسين، يعتبرون فقر المسيح أمرامؤكدا. واذا كان أولائك الهراطقة

والانشقاقيون يجزمون بمثل هذا الوضوح حقيقة جلية كهذه، أنستطيع نحن أن نكون أكثر منهم إلحادا وانشقاقا وأن ننفيها؟ لو سمع أولائك المشارقة البعض منا يعظ بعكس هذه الحقيقة لرجموهم!»

فقال ألبوريا بتهكم «ولكن ماذا تقول؟ ولماذا اذن لا يرجمون الدومينيكيين الذين يعظون بعكس ذلك بالذات؟»

ـ الدومينيكيون؟ ولكني لم أرهم أبدا هناك!.

فلفت ألبوريا إنتباه الحاضرين، ووجهه محمر من الغضب إلى أن ذلك الراهب جيرولامو قد قضى في اليونان خمسة عشر عاما تقريبا، بينما هو كان هناك منذ الطفولة. فردّ جيرولامو انه هو، الدومينيكي ألبوريا، ربما يكون قد ذهب الى اليونان ولكن ليعيش حياة ترف في القصور الأسقفية الجميلة، بينما هو الفرنشسكاني عاش هناك، لا لمدة خمسة عشر عاما بل لأثنين وعشرين عاما ووعظ أمام الامبراطور في القسطنطينية. عند ذلك، ولمّا أعوزت ألبوريا الحجج، حاول أن يقطع المسافة التي تفصله عن الفرنشسكانيين، معلنا بصوت عال وبكلمات لا أجرؤ على ذكرها، عزمه الراسخ على نتف لحية أسقف قيافا، قائلا أنه يشك في رجولته وانه يريد معاقبته، طبقا لمنطق القصاص، مستعملا تلك اللحية كسوط.

فهرع الفرنشسكانيون الآخرون وكوّنوا حاجزا لحماية زميلهم، بينما رأى الافينيون انه من الصالح أن يمدوا يد الغوث للدومينيكي، فتبع ذلك (يا الهي، كن رحيما بأفضل أبنائك!) عراك حاول رئيس الدير والكاردينال دون جدوى تهدئته. وفي الصخب الذي تبعه تبادل الفرنشسكانيون والدومينيكيون كلمات قاسية جدا، كما لو كان كل منهم مسيحيا في صراع مع المسلمين. والوحيدان اللذان بقيا في مكانيهما كانا من جهة غوليالمو، ومن الجهة الأخرى برناردو غي.

كان غوليالمو يبدو حزينا وبرناردو مبتهجا، ان أمكن القول ان تلك الابتسامة الصفراء التي ارتسمت على شفتي المحقّق تنمّ على الابتهاج.

فسألت أستاذي بينما كان ألبوريا يتحامل على لحية أسقف قيافا «أليست هناك حجج أخرى لاثبات أو لنفي فقر المسيح؟»

فأجاب غوليالمو «ولكن يمكنك يا عزيزي أدسو أن تؤكد الأمرين، ولا يمكنك أبدا أن تثبت معتمدا على الاناجيل ان كان المسيح يعتبر ملكه، والى أي حد،

القميص الذي كان يرتديه ثم يلقيه فيما بعد لأنه بال. ثم، ان أردت، فرأي توما الأكويني حول الملكية، أكثر جرأة من رأينا نحن الفرنشسكانيين، نحن نقول «لا نملك شيئا وكل ما لدينا لنا الحق فقط في استعماله». ويقول هو «يمكنكم أن تعتبروا أنفسكم مالكين على شرط، انه عندما يحتاج أحد الى شيء هو ملككم ان تسمحوا له باستعماله، لا كصدقة، بل كفرض. ولكن القضية ليست ان كان المسيح فقيرا، ولكن ان كان يجب أن تكون الكنيسة فقيرة. وفقيرة لا يعني امتلاك قصر أم لا، بل الاحتفاظ أو العدول عن حق التشريع في الأمور الدنيوية».

فقلت «لذلك اذن يولي الامبراطور كل ذلك الاهتمام بأقوال الفرنشسكانيين حول الفقر».

ـ فعلا يخدم الفرنشسكانيين لعبة الامبراطور ضد البابا. ولكن بالنسبة الى مارسيليو وبالنسبة اليّ اللعبة ذات وجهين، ونريد أن تكون لعبة الامبراطور في صالح لعبتنا نحن وأن تُستخدم لموقفنا من الحكم البشري».

ـ وستقول هذا عندما ستتكلم؟

ـ لو قلت هذا لأتممت مهمتي، التي هي تقديم آراء اللاهوتيين الامبراطوريين. ولكن لو قلت ذلك لفشلت مهمتي، بينما ينبغي أن أمهد للقاء ثان في أفينيون، ولا أظن أن جيوفاني يقبل أن يذهب الى هناك لأقول تلك الأشياء».

ـ إذن؟

ـ إذن يا حبيس قوّتين متضاربتين، كحمار لا يدري، بين كيسين من التبن، من أي كيس يأكل. والواقع أن الوقت لم يحن بعد. مرسيليو يهذي بتغيير مستحيل، فَوْريّاً، ولودوفيك ليس أفضل من سابقيه، وان كان الوحيد الذي يبقى الآن درعا ضدّ شقي مثل جيوفاني. لعلّ من واجبي أن أتكلم، إن لم يقتل هؤلاء بعضهم بعضا قبل ذلك. على كلّ حال أكتب يا أدسو ليبقى على الأقل أثر ممّا يحدث اليوم.

ـ وميكيلي؟ ـ أخاف أن يكون بصدد اضاعة وقته. الكاردينال يعرف أن البابا لا يبحث عن وساطة، وبرناردو غي يعرف أنه ينبغي أن يعمل لإحباط اللقاء، ويعرف ميكيلي أنه سيذهب الى أفينيون مهما كان الأمر، لأنه لا يريد أن تقطع الرهبانية كل صلة بالبابا. وسيجازف بحياته.

بينما كنّا نتحدث ـ ولم أكن أعرف في الحقيقة كيف تسنى لنا أن يسمع أحدنا

الآخر ـ بلغت المعركة أوجها. وتدخّل النبالون بإشارة من برناردو غي، لمنع الفريقين من الوصول الى الإمساك أحدهما بتلابيب الآخر. وبقيا كمحاصَرين ومحاصِرين، من كلتا جهتي أسوار قلعة، يتقاذفان الاحتجاجات والشتائم التي أرويها كما اتفق، دون أن أستطيع نسبتها الى قائلها، مع أن الجمل لم تنطق كل حسب دوره، كما يمكن أن يقع في مجادلة في بلدي، ولكن على الطريقة المتوسطية، الواحدة تلو الأخرى، كأمواج بحر عنيف.

ـ يقول الانجيل أنه كان للمسيح كيس!

ـ اسكت أنت وذلك الكيس الذي تصورونه حتى فوق الصلبان! ماذا تقول إذن عن عودة سيدنا المسيح كلّ ليلة إلى «بيت عينا» عندما كان في القدس؟.

ـ وان أراد سيدنا أن يذهب لينام في «بيت عينا»، من تكون أنت حتى تنتقد قراره؟

ـ كلاّ، أيها الحمار الغبي، كان سيدنا يعود الى «بيت عينا» لأنه لم يكن يملك نقودا لقضاء الليل في فندق بالقدس!

ـ بوناغراتسيا، انت هو الحمار! وماذا كان يأكل سيدنا في القدس؟

ـ وستقول انت أن الحصان الذي يحصل على العلف من صاحبه للبقاء على قيد الحياة له ملكية!

ـ أنت تقارن المسيح بحصان...

ـ كلاّ، أنت تقارن المسيح باسقف سيموني من بلاطك، يا مجمع الروث!.

ـ صحيح؟ وكم من مرّة وجب على السدّة المقدسة تحمّل قضايا للدّفاع عن أملاككم؟

ـ أملاك الكنيسة، لا أملاكنا! لنا نحن استعمالها فقط!

ـ لكم استعمالها لأكلها، لتشييد الكنائس الجميلة بالأصنام الذهبية، أيها المنافقون، وزاد الفساد ومقترفو الإلحاد وبؤر الموبقات! انتم تعرفون ان المحبة عماد الحياة الكاملة وليس الفقر!

ـ هذا ما قاله ذلك الجشع، صاحبكم توما!

ـ احترس أيها الزنديق! ذلك الذي تسميه جشعاً هو قدّيس من كنيسة رومانية مقدّسة!

ـ قديس مثل نعليّ، لقد جعله جيوفاني قديسا للنكاية بالفرانشسكانيين! ان

حبركم لا يمكنه أن يسمّي قدّيسين، لأنه زنديق بل أكثر، لأنه ملحد!

- إننا نعرف هذه الجملة الجميلة! لقد قالها بهلوان بافييرا في ساكشنهاوسن، وقد أعدّها له صاحبكم أوبارتينو!

- حاذر عندما تتكلم أيها الخنزير، ابن بغيّ بابل وبغايا أخريات! أنت تعلم أنه لم يكن تلك السنة مع الامبراطور ولكنه كان في أفينيون بالذات، في خدمة الكاردينال أورسيني، وكان البابا يوفده سفيراً في أراغونا!

- أعرف ذلك، أعرف أنه كان ينذر الفقر ويأكل على مائدة الكاردينال، كما يفعل الآن في أغنى دير بشبه الجزيرة! ان لم تكن هناك، يا أوبارتينو، من يكون قد أوحى للودوفيك باستعمال تآليفك؟

- أهي غلطتي ان أراد لودوفيك قراءة مؤلفاتي؟ أكيد أنه لا يمكنه قراءة مؤلفاتك أنت لأنك جاهل!

- أنا جاهل؟ أكان عالما صاحبكم فرنشسكو الذي كان يخاطب الأوزّ؟

- انك جدّفت!

- أنت الذي جدّفت، أيها الراهب الفاجر!

- انني لم أقترف أبدا الفجور وأنت تعرف ذلك!

- بل كنت تفعل ذلك مع إخوانك الرهبان الصعاليك، عندما كنت تنساب داخل فراش كيارا دا مونتيفالكو.

- ليصعقك الله! لقد كنت اذاك محققا، وكانت كيارا قد ماتت وشذى القداسة يفوح منها!

- كيارا تفوح بالقداسة، ولكنك أنت كنت تفوح بروائح أخرى عندما كنت تنشد صلاة الصبح للراهبات!

- واصل، واصل، ستسقط عليك لعنة الرب وعلى سيدك، الذي منح حمايته لهرطيقيين مثل ذلك المتوحش ايخارت وذلك المنجم الانجليزي الذي تسمّونه برانوشارتون!

وكان الكاردينال برتراندو ورئيس الدير يصيحان اثناء ذلك «يا اخواني المبجلين، يا اخواني المبجلين!».

ثـــالثـة

وفيه يحدث سفيرينو غوليالمو عن كتاب غريب ويحدّث
غوليالمو أعضاء القصادتين عن تصوّر غريب للحكم الدنيوي

كانت المشاجرة عند أوجّها لمّا دخل أحد المبتدئين الذين كانوا يحرسون الباب، مارّا وسط تلك الجلبة كمن يجتاز حقلا ينهال عليه البرد، وهمس الى غوليالمو أن سفيرينو يريد التحادث إليه على الفور. فخرجنا الى البهو وقد تجمع فيه عدد من الرهبان المتطفلين الذين كانوا يريدون من خلال الصياح والضوضاء فهم بعض الشيء ممّا كان يحصل بالداخل. ورأينا في أول الصف ايمارو داليساندريا الذي تلقانا بابتسامته الساخرة المعتادة والتي تنمّ عن الرثاء لغباوة الكون بأكمله، وقال «أكيد أنه منذ أن ظهرت أنظمة المتسوّلين أصبحت الكنيسة أكثر عفّة».

فأبعده غوليالمو عنه، بجفاء، واتجه نحو سفيرينو، الذي كان ينتظرنا في أحد الأركان. كان مضطربا، ويريد التحادث الينا على انفراد، إلاّ أنه كان من المستحيل أن نجد أي مكان هادئ وسط تلك الفوضى. فكّرنا في الخروج الى الساحة، ولكن ميكيلي دا تشيزينا أطلّ من عتبه القاعة محرّضا غوليالمو على الدخول، لأن المشاجرة كانت على وشك الانتهاء وتنبغي مواصلة المداخلات.

ووجد غوليالمو نفسه بين نارين، فحرّض سفيرينو على الكلام وحاول العشّاب ان يقول ما عنده دون أن يسمعه باقي الحاضرين.

ـ لقد ذهب برينغاريو دون شكّ إلى المستشفى قبل ذهابه الى الحمام.

ـ ما الذي عرّفك بذلك؟ ـ وبما أن بعض الرهبان قد أخذوا في الاقتراب وقد أثار تهامسنا فضولهم، خفّض سفيرينو من صوته أكثر وهو ينظر حواليه :

ـ قلت لي إن ذلك الرجل... كان معه شيء... حسن، لقد وجدت شيئا في

مخبري، مندسّا في الكتب الأخرى. . . كتابا ليس لي، كتابا غريبا. . .

فقال غوليالمو ظافرا «انه هو، هاته الي فورا».

فأجاب سفيرينو «لا أستطيع، سأشرح لك فيما بعد، لقد اكتشفت، اظن اني أكتشفت شيئا هامّا. . . يجب أن تأتي أنت، يجب أن أريك الكتاب. . . بحذر. . . » ولم يتمم. تفطنا الى يورج الذي ظهر فجأة بجانبنا، صامتا كعادته. كان مادا يديه الى الأمام وكأنه غير معتاد على التحرك في ذلك المكان، فكان يحاول أن يجد وجهته. لن يكون بوسع انسان عادي أن يسمع همسات سفيرينو، ولكننا كنا نعرف منذ مدّة أن يورج، مثل كل العميان، كان مرهف السمع جداً.

ولكن كان يبدو أن الشيخ لم يسمع شيئا. بل بالعكس، ذهب في اتجاه معاكس لاتجاهنا، ثم لمس أحد الرهبان وسأله شيئا، فأخذه بلطف من ذراعه وقاده الى الخارج. في تلك اللحظة ظهر من جديد ميكيلي واستحث مرّة أخرى غوليالمو، فاتخذ استاذي قرارا وقال لسفيرينو «أرجوك، عد من حيث أتيت. واغلق وراءك الباب وانتظرني» ـ ثم قال لي «وأنت أتبع يورج. حتى ولو سمع شيئا لا أظن أنه سيطلب أن يحملوه إلى المستشفى. على كلّ حال، راقبه وقل لي أين ذهب».

كان داخلا الى القاعة، عندما لمح (كما لمحته أنا أيضا) ايمارو وهو يشق لنفسه طريقا وسط الحشد لاقتفاء أثر يورج الذي كان بصدد الخروج. وهنا ارتكب غوليالمو هفوة، لأنه هتف بصوت عال، دوّى من طرف البهو الى طرفه الآخر، محذرا سفيرينو الذي كان يوجد على العتبة الخارجية «أوصيك، لا تسمح لأحد بأن. . . تلك الأوراق. . . . لا يجب أن يعيدها أحد إلى حيث كانت!». أمّا أنا، فبينما كنت أتأهب لملاحقة يورج، رأيت في تلك اللحظة القيم، متكئا الى ركيزة الباب الخارجي، وكان قد سمع كلمات غوليالمو ثم نظر تارة إلى أستاذي وأخرى الى العشّاب، ووجهه منقبض من الخوف. ولمح سفيرينو وهو يخرج فتبعه. وكنت أنا على العتبة، خائفا أن يغيب يورج عن بصري وقد أوشك الضباب أن يبتلعه، ولكن القيم والعشّاب اللذين ذهبا في الاتجاه المعاكس، كانا بصدد الغياب وسط الضباب. فكرت بسرعة فيما يجب أن أفعل. لقد طُلب مني أن أتبع الأعمى مَخافة أن يذهب الى المستشفى. ولكن الاتجاه الذي اتخذه مع مرافقه، كان مختلفا، إذْ اجتاز الرواق متجها نحو الكنيسة أو نحو الصرح. بينما كان القيّم،

على العكس، يتبع دون شك العشّاب وكان غوليالمو منشغلا بما يمكن أن يحدث في المخبر. لذا أقتفيت أثرهما. وأنا أتساءل من ناحية أخرى أين يمكن أن يكون ايمارو قد ذهب، إن لم يكن قد خرج لأسباب مختلفة تماما عن أسبابنا.

كانت لا تغيب عني، وأنا على مسافة معقولة، رؤية القيم، الذي تمهل في خطاه لأنه تفطن الى أني كنت أتبعه. لم يكن يعرف ان كان الشبح الذي يتبعه هو أنا، كما لم أكن أستطيع أن أعرف ان كان الشبح الذي أتبعه كان هو، ولكن بما أنه لم يكن لديّ أدنى شك بشأنه، لم يكن لديه أدنى شك بشأني.

وبما أني أجبرته على مراقبتي، فقد منعته من الاقتراب كثيرا من سفيرينو. وهكذا، عندما بان باب المستشفى من خلال الضباب، كان قد أُغلق. لقد دخل سفيرينو، والحمد لله. والتفت القيم مرّة أخرى إليّ، بينما كنت واقفا وسط المبقلة كأنني شجرة، ثم بدا أنه اتخذ قرارا واتجه نحو المطبخ. بدا لي أن مهمتي أنتهت، فقد كان سفيرينو رجلا رصينا، وسيحافظ على نفسه وحده ولن يفتح لأحد. لم يبق لي إذن شيء آخر أعمله، وكان الفضول يلتهمني لرؤية ما كان يحدث في قاعة المجلس. لذا قررت العودة إلى هناك لاعلام غوليالمو. ربما أخطأت وكان عليّ أن أبقى لمراقبته، ربما مكنني ذلك من تفادي كوارث أخرى كثيرة. لكني صرت أعرف ذلك الآن ولم أكن أعرفه إذّاك.

بينما كنت داخلا، كدت اصطدم ببانشيو الذي ابتسم ابتسامة تواطؤ وقال «لقد وجد سفيرينو شيئا تركه برينغاريو، أليس كذلك؟».

فأجبته بغلظة «ما دخالك أنت في ذلك؟» ـ معاملا اياه كندّ من ناحية لأني كنت حانقا ومن ناحية أخرى لوجهه الشابّ الذي ينم الآن عن خبث يكاد يكون صبيانيّا. وأجاب :

ـ لست غبيا. سفيرينو يسرع ليقول شيئا لغوليالمو، وانت تراقب من عسى أن يتبعه...

فقلت بغضب «وأنت تراقبنا وتراقب سفيرينو أكثر ممّا يجب»،

ـ أنا؟ أكيد اني أراقبكم. ان نظري، منذ أول أمس، لا يغيب لحظة لا عن قاعات الاستحمام ولا عن المستشفى. لو قدرت فقط ان أدخل اليها لفعلت. اني مستعد للتضحية بعين من عينيّ لمعرفة ماذا وجد برينغاريو في المكتبة.

ـ أنت تريد أن تعرف أشياء أكثر ممّا يحق لك أن تعرف!

ـ انني طالب ولي الحق في المعرفة، لقد أتيت من أبعاد الدنيا للتعرّف على المكتبة، والمكتبة تبقى مغلقة كما لو كانت تحوي أشياء فاسدة وأنا. . .

فقلت بحدّة «اتركني لشأني».

ـ سأتركك تذهب، لقد قلت لي ما كنت أريد أن أعرف.

ـ أنا؟

ـ حتى من خلال الصمت تقال أشياء.

فقلت له «انصحك بان لا تدخل الى المستشفى». ـ لن ادخل، لن أدخل، كن مطمئنا. ولكن لا أحد يمنعني من أن أنظر من الخارج.

عدلت عن الاستماع اليه ودخلت. لم يكن يبدو لي أن ذلك الفضولي يمثل خطرا كبيرا. واقتربت من غوليالمو وأخبرته بايجاز بما وقع. فهزّ رأسه موافقا ثم أشار اليّ بالسكوت. كانت الجلبة في طريقها الى الهدوء، وقد أخذ المبعوثون من القصادتين في تبادل قبلة السلام. كان ألبوريا يثني على إيمان الفرنشسكانيين وجيرولامو يمجّد تضحية المبشرين، وكلهم ينشدون الامل في كنيسة لا تزعزعها صراعات داخلية. منهم من كان ينوّه بشجاعة هذه الطائفة، ومنهم من كان ينوه باعتدال الطائفة الأخرى، وكلّهم ينادون بالعدالة وينصحون بالرّوية. لم أر قط رجالا متفقين بذلك الصدق على نصرة الفضائل اللاهوتية الأساسية.

ولكن برتراند دل بودجيتو كان قد دعا غوليالمو لتقديم مواقف اللاهوتيين الامبرطوريين. فنهض غوليالمو، دون رغبة: كان يحس، من ناحية، ان اللقاء عديم الجدوى، ومن ناحية أخرى كان بودّه أن يعجّل بالخروج اذ كان الكتاب الغامض يشغله، الآن، أكثر من نتائج اللقاء. ولكن كان من الواضح أنه لا يمكنه التراجع عن أداء واجبه.

فأخذ اذن في الحديث مع الاكثار من «الآه» و«الاوه»، ربما أكثر من العادة وفوق اللزوم، كما لو كان يريد أن يفهمهم شكوكه فيما سيقوله واستهل مؤكدا انه يفهم جيدا وجهات نظر من سبقه في الكلام، ومن جهة أخرى، فان ما كان يسميه بعضهم «مذهب» اللاهوتيين الامبراطوريين لا يعدو أن يكون بعضِ الملاحظات المتفرقة التي لا تدّعي فرض نفسها كحقيقة عقائدية.

قال اذن أنه، نظرا للمحبة العظيمة التي خص بها الاله أبناءه عند خلقهم، محبا أياهم دون تفرقة منذ تلك الصفحات من سفر التكوين، التي لا يذكر فيها إلى

ذلك الحين الكهنة والملوك، واعتبار أن الاله أعطى لآدم وخليقته السلطة على الأشياء على هذه الأرض، شريطة أن يمتثلوا للشريعة الالهية، فالظن جائز ان الاله نفسه لم تكن تغيب عنه الفكرة أنه بخصوص الأشياء الأرضية يكون الشعب هو المشرّع والعلة الأولى الفعلية للشريعة. وقال انه من بين المواطنين ينبغي اعتبار الأطفال أيضا، والأغبياء، والأشرار والنساء، ربما يمكن الاتفاق بصفة معقولة على تعريف الشعب على أنه القسم الأفضل من المواطنين، لو أنه عند خلقهم لم ير من الصالح تحديد من يدخل حقا ضمن تلك المجموعة. ثم سعل معتذراً للحاضرين مشيرا أن هواء ذلك اليوم كان دون شك رطبا جدا، وأفترض أن الطريقة التي يمكن للشعب أن يعبّر بها عن إرادته يمكن أن تتطابق مع مجلس عام منتخب. وقال أنه يبدو له مطابقا للفكر السليم ان مجلسا مماثلا يمكنه تأويل أو تغيير أو أيقاف قانون ما، لأنه إذا كان المشرّع شخصا واحدا فمن المحتمل أن يسيء التصرف عن جهل أو عن خبث، مضيفا أنه لا لزوم لتذكير الحاضرين بالحالات العديدة المماثلة التي وقعت حديثا. ورأيت بعض الحاضرين، الذين كانوا مترددين شيئا ما حول ما سبق من كلامه، يؤيدون كلماته الأخيرة اذ كان من الواضح أن كلاً منهم كان يفكر في شخص مختلف، ويعتبر الشخص الذي كان يفكر فيه أسوأ خلق الله.

ثم تابع غوليالمو: حسن، ان كان شخص واحد يسيء التشريع أليس من الأفضل أن يكون المشرّعون كثيرون؟ وحدّد قائلا: بطبيعة الحال نحن نتكلّم عن القوانين الزمنية، التي تخص حسن تدبير الأشياء الدنيوية. لقد قال الاله لآدم أن لا يأكل من شجرة الخير والشّر، وتلك هي الشريعة الالهية، ولكنه آذنه فيما بعد، ماذا أقول؟ شجعه كي يعطي الأسماء للأشياء، وحول ذلك ترك الحرية لعبده الدنيوي. وفعلا، رغم أن بعضهم، في عصرنا هذا يقول أن: «الأسماء متأتية من الأشياء»، فسفر التكوين واضح حول هذه النقطة: قدّم الرب للانسان كل الحيوانات ليرى كيف يسميها وكيفما يسمي الانسان كلا من تلك المخلوقات الحية فسيكون ذلك اسمه. وان كان من المؤكد ان الانسان الأول كان من الادراك بحيث سمّى، في لغته الفردوسية، كل شيء وكل حيوان كلاً حسب طبيعته، فانه لم يكن يمارس أي نوع من الحقوق المطلقة في تصوّر الاسم الذي حسب رأيه يناسب تلك الطبيعة أكثر. اذ أصبح الآن بالفعل معروفا أن الأسماء التي يعطيها

البشر للدلالة على المفاهيم مختلفة، بينما المفاهيم بالنسبة إلى الجميع واحدة، وهي دلالات على الأشياء. بحيث يكون من المؤكد أن كلمة nomen ، تأتي من nomos أي القانون، فعلا لأن الأسماء يعطيها الانسان كيفما أراد، أي باتفاق حرّ واجماعي.

ولم يجرؤ الحاضرين على معارضة هذه البرهنة العلمية. لذا، قال غوليالمو مستنتجا: يظهر جيدا كيف أن التشريع في الأشياء الدنيوية، واذن حول شؤون المدن والممالك، لا علاقة له البتة بالحفاظ على الكلمة الالـٰهية وبإرادتها وهو امتياز غير قابل للانتقال، تحظى به الهيئة الاكليريكية وحدها. وأضاف غوليالمو ما أتعس الكفّار الذين لا يملكون هيئة مماثلة تترجم لهم الكلمة الالهية (ورثى الجميع لحال الكفّار) ولكن أيمكننا لذلك أن نقول أن الكفار لا يشرّعون ولا يديرون أمورهم بواسطة حكومات، وملوك، وأباطرة وسلاطين وخلفاء، أيا كان الاسم الذي أردناه؟ وهل يمكن نفي أن الكثير من الأباطرة الرومان مارسوا الحكم الدنيوي بحكمة، مثل ترايانو؟ ومن أعطى الى وثنيين والى كافرين تلك القدرة الطبيعية على التشريع وعلى العيش في مجموعات سياسية؟ أتكون آلهتهم الكاذبة التي هي حتماً غير موجودة (أو هي غير موجودة حتماً، مهما تكن الكيفية التي يراد بها نفي الامكانية)؟ أكيد لا. لا يمكن أن يكون أعطاهم اياها إلاّ رب الجيوش، رب اسرائيل، أب سيدنا عيسى المسيح... وهو دليل رائع على المحبّة الالهية التي وهبت القدرة على الحكم في الامور السياسية حتى لمن لا يعترف بسلطة الحبر الروماني ولا يقرّ بنفس أسرار الشعب المسيحي المقدّسة والعذبة والرهيبة! وهل هناك برهنة أروع على أن السلطة الدنيوية والتشريع المدني ليست لها علاقة البتة بالكنيسة وبشرع يسوع المسيح، والرب أمر بها خارج كلّ مصادقة كنسية وقبل حتى أن يظهر ديننا المقدّس؟

وسعل من جديد، ولكنه لم يكن وحده هذه المرّة. كان العديد من الحاضرين يتململون فوق مقاعدهم ويتنحنحون. ورأيت الكاردينال يمرّر لسانه على شفتيه ويومئ، بقلق لكن بأدب، داعيا غوليالمو الى الوصول الى الغرض. وواجه غوليالمو تلك الاستنتاجات التي كانت ربما تبدو مزعجة للجميع، حتى لمن كان لا يشاطرها، والذي كان يفضي اليها استدلال لا جدال فيه. وقال غوليالمو عندئذ أن استنتاجاته تبدو له مؤيدة بمثال المسيح نفسه، الذي لم يأت إلى هذه الدنيا

للحكم، ولكن ليخضع للظروف التي وجدها في هذا العالم، على الأقل في ما يخص قوانين القيصر. ولم يرد أن تكون للحواريين قيادة أو سلطة، ولذا يبدو أمرا حكيما أن يتخلى خلفاء الحواريين عن كل سلطة مدنية وجبريّة. ولو لم يخضع البابا والاساقفة والكهنة لسلطة الأمير المدنية والجبريّة، لبطلت سلطة الأمير وبطل معها نظام رسمه الرّب، كما وقع توضيح ذلك من قبل. ثم قال غوليالمو انه ينبغي دون شك اعتبار حالات دقيقة جدا، مثل حالة الهراطقة، الذين تنفرد الكنيسة وحدها - حافظة الحقيقة - بالبت في أمرهم، ومع هذا فالسلطة المدنية هي وحدها القادرة على التنفيذ العملي للحكم. عندما تكتشف الكنيسة هراطقة ينبغي عليها اعلام الأمير بذلك، اذ من الأفضل أن يكون على علم بظروف رعاياه. ولكن ماذا سيفعل الأمير بهرطيق؟ ايدينه باسم تلك الحقيقة الالهية التي ليس هو حافظها؟ يمكن للامير وينبغي عليه أن يدين الهرطيق اذا ما الحق فعله الضرر بحياة المجموعة، أي لو فرض هرطقته بقتل أو بعرقلة من لا يشاطره اياها. ولكن عند ذلك الحد تقف سلطة الأمير، لأنه لا يمكن اجبار أحد بوسائل التعذيب باتباع تعاليم الانجيل، وإلاّ أين ستؤول تلك الارادة الحرّة التي سيحاسب عليها كل واحد منّا في العالم الاخر؟ يمكن للكنيسة وينبغي عليها أن تحذّر الهرطيق أنه بصدد الخروج عن مجموعة المؤمنين ولكنها لا تستطيع محاكمته على الأرض واكراهه على ما تأباه إرادته. لو أراد المسيح أن تكون لكهنته سلطة جبرية لوضع تعاليم مضبوطة كما فعل موسى بالشريعة القديمة. ولكنه لم يفعل ذلك. اذن فهو لم يرد ذلك، أو لعلّ المقصود أنه كان يريد ذلك ولكن أعوزه الوقت أو نقصته القدرة على قول ذلك، في ثلاث سنوات من التبشير؟ ولكن كان من الصواب أن لا يريد ذلك، لأنه لو أراد لأمكن للبابا أن يفرض سلطته على الملك ولكانت المسيحية، عوضا عن شرع حرية، عبودية لا تحتمل.

كل هذا، أضاف غوليالمو بوجه جذلان، لا يعني الحد من سلطة الحبر الأعظم، ولكن بالعكس تعظيم مهمته: لأن خادم خدم الرب، هو على هذه الأرض كي يخدم لا كي يخدموه. وأخيرا، من الغرابة أن يكون للبابا نظر على أمور الامبراطورية، ولا يكون له ذلك على الممالك الأخرى. كما هو معروف، ما يقوله البابا عن الأشياء الالهية يطبق على رعايا ملك فرنسا كما يطبق أيضا على رعايا ملك انجلترا، ولكن ينبغي أن يطبق أيضا على الخان الأكبر أو سلطان

الكفّار، اذ يقال عنهم أنهم كفّار لأنهم لا يؤمنون بهذه الحقيقة الرائعة. واذن لو كانت للبابا سلطة زمنية - بصفته تلك - على شؤون الامبراطورية، وحدها، لأدخل ذلك شكا، اذا ما انصهرت السلطة الزمنية مع السلطة الروحية، في أنه لنفس السبب ليس فقط لن تكون له سلطة روحية على المسلمين أو على التتر، ولكن حتى على الفرنسيين والانجليز - مما يؤدي إلى تجديف اجرامي». لذلك السبب قال استاذي في خاتمة حديثه، يبدو لي من الصواب القول إن كنيسة أفينيون تهين الانسانية قاطبة عندما تجزم أنه عليها هي قبول أو رفض من وقع انتخابه امبراطورا للرومان. ليست للبابا حقوق على الامبراطور أكثر من حقوقه على الممالك الأخرى، وبما أنه لا ملك فرنسا ولا السلطان هما رهينا موافقة البابا، فهو لا يرى سببا معقولا ليكون امبراطور الألمان والايطاليين على خلاف ذلك، فذلك الخضوع لايدخل ضمن الشرائع الالهية لأن الكتابات لا تذكره. ولا يقرّه قانون الناس، للأسباب المذكورة أعلاه. أما عن علاقات هذا مع المجادلة حول الفقر، قال أخيرا غوليالمو، فآراؤه المتواضعة، والمتمثلة في اقتراحات تبادله مع آخرين كمارسيليو دا بادوفا وجيوفاني دا جياندونو، تفضي إلى الاستنتاجات التالية: ان كان الفرنشسكانيون يريدون البقاء فقراء، فالامبراطور لا يقدر ولا ينبغي عليه أن يعارض رغبة في مثل تلك العفّة. أكيد أنه لو أقيم البرهان على فرضية فقر المسيح، فذلك لن يعين الفرنشسكانيين فحسب، بل سيدعّم فكرة أن يسوع لم يرد لنفسه أية سلطة زمنية. ولكنه سمع ذلك الصباح أشخاصا على غاية من الحكمة يؤكدون انه لا يمكن البرهنة على أن يسوع كان فقيرا. ولذا يبدو له أنه من الأفضل عكس البرهنة. بما أنه لم يجزم أحد، ولا أحد يقدر أن يجزم أن المسيح طلب لنفسه ولرفقائه أية سلطة زمنية، فالاعراض عن الأشياء الدنيوية يبدو له دليلا كافيا لكي نعتبر، دون ارتكاب خطيئة، ان يسوع قد اختار الفقر.

قال غوليالمو كل ذلك بنبرة فيها من التواضع وبيقين فيه من الشك ما جعل الحاضرين لا يجرؤون على الوقوف للاعتراض. ولا يعني ذلك أنهم كانوا كلهم مقتنعين بأقواله. لم يكن أنصار أفينيون وحدهم الذين يتململون الآن في مقاعدهم بوجوه غاضبة ويتهامسون بالتعاليق فيما بينهم، ولكن يبدو أن تلك الكلمات كان لها انطباع سلبي للغاية على رئيس الدير نفسه، كما لو كان يرى أن تلك العلاقات ليست تماما ما كان يتصوّره قيامها بين نظامه والامبراطور. وأما في صفوف

الفرنشسكانيين فقد كان ميكيلي محتارا، وجيرولامو منذهلا، وأوبارتينو مغتمّا.

قطع الكاردينال الصمت، دائما مبتسما ومنطلقا، وسأل غوليالمو بلطف ان كان سيذهب الى أفينيون ليقول تلك الأشياء الى ميسيّر البابا. فطلب غوليالمو رأي الكاردينال الذي أجاب أن ميسيّر البابا قد سمع في حياته الكثير من الآراء القابلة للنقاش وانه كان دائما رجلا محبّا لابنائه ولكن من الأكيد أن تلك الأفكار ستؤلمه جدا. فتدخل برناردو غي، الذي لم يفتح فمه بكلمة الى ذلك الحين وقال: «سأكون سعيدا جدا لو تفضل الأخ غوليالمو، الذي يملك هذه المهارة والفصاحة في عرض أفكاره، بالمجيئ لعرضها على نظر البابا. . . ».

فقال غوليالمو: «لقد أقنعتني، أيها السيد برناردو، لن أذهب». ـ ثم توجه بالحديث الى الكاردينال بنبرة اعتذار: «انتم تعلمون أن هذه النزلة التي تنتابني في صدري تنهاني عن الاقدام على سفرة طويلة كهذه وفي هذا الفصل. . . ».

فسأله الكاردينال «ولكن لماذا تكلمت هكذا طويلا؟».

فأجاب غوليالمو بتواضع «لأشهد بالحقيقة. الحقيقة ستجعلنا أحرارا».

عند ذلك الحد انفجر جيوفاني دالبينا «آه كلاّ! الكلام هنا ليس عن الحقيقة التي ستجعلنا أحرارا، بل عن الحرية المفرطة التي تريد أن تصبح حقيقة!».

فأقرّ غوليالمو برقّة: «وهذا أيضا ممكن». فأدركت باحساس غريزي مفاجئ ان عاصفة من العواطف ومن الكلمات هي بصدد الهبوب، هوجاء أكثر من الأولى. وبينما كان دالبينا لا يزال يتكلم اذ دخل قائد النبالين وذهب ليهمس شيئا في اذن برناردو الذي نهض لفوره وباشارة من يده طلب أن يصغوا اليه، وقال «اخواني، يمكننا أن نعود الى هذه المناقشة الثرية فيما بعد، أمّا الآن فقد حدث شيء على غاية من الخطورة يجبرنا على ايقاف أعمالنا، باذن من رئيس الدير. ربما أكون قد أرضيت، دون أن أريد ذلك، ترقبات رئيس الدير نفسه الذي كان يأمل في اكتشاف مرتكب الجرائم المتعددة التي وقعت في الأيام السابقة. ذلك الرجل هو الآن في قبضتي. ولكن، للاسف، قبضنا عليه بعد فوات الأوان، مرّة أخرى. . . لقد حدث شيء هناك. . . » وأشار، دون تحديد، إلى الخارج. ثم اجتاز القاعة بسرعة وخرج، يتبعه كثيرون، غوليالمو من بين الأولين وأنا معه.

ونظر إليّ أستاذي ثم قال «أخشى أن يكون حدث شيء لسفيرينو».

سـادسـة

وفيه يُعثَر على سفيرينو مقتولا ولا يعثر على الكتاب الذي وجده

اجتزنا الرحبة بخطى سريعة وقلقة. كان قائد النبالين يقودنا ناحية المستشفى، وعندما وصلنا لمحنا في العتمة أشباحا تتحرك: رهبان وخدم هرعوا الى هناك ونبالون كانوا واقفين أمام الباب يمنعون الدخول.

قال برناردو: لقد أرسلت هؤلاء النبالين للبحث عن رجل يمكن أن ينيرنا حول هذه الأحداث الغامضة.

فسأله رئيس الدير مندهشا «الأخ العشّاب؟».

فأجاب برناردو «كلاّ، الآن سترون». ثمّ شق لنفسه طريقا نحو الداخل. دخلنا مخبر سفيرينو وهناك تجلّى لأنظارنا منظر مؤلم. كان العشّاب المسكين ملقى جثة هامدة وسط بركة من الدم، وقد شجّ رأسه. وكانت الرفوف حوله تبدو وكأن إعصارا اجتاحها: أباريق، وقنانيّ وكتب ووثائق ملقاة هنا وهناك في فوضى وفي تلف كبيرين. قرب الجثة كانت هناك محلّقة، حجمها أكبر بمرتين من حجم رأس انسان، من معدن منقوش بدقة يعلوها صليب من الذهب ويحملها منصب قصير ومزخرف. وكنت قد لاحظت وجودها مرات عدّة على شمال المدخل.

وفي طرف القاعة الآخر كان نبالان يسدان بقوّة القيم وهو يحاول التملّص منهما محتجا ببراءته، وعلت صيحاته عندما رأى رئيس الدير يدخل.

ـ سيدي، ان المظاهر ضدي! عندما دخلت كان سفيرينو ميّتا ووجدوني بينما كنت أتأمل، دون قدرة على الكلام، هذه المجزرة!

فاقترب قائد النبالين من برناردو، وبعد استئذانه أدلى بتقريره أمام الجميع. لقد تلقى النبالون الأمر بالبحث عن القيم وبإيقافه، ومنذ ما يزيد عن ساعتين كانوا يفتشون عنه في الدير. فقلت في نفسي ربما تلك كانت الأوامر التي أعطاها

برناردو قبل الدخول الى قاعة الاجتماعات، وبما أن الجند كانوا غرباء عن المكان، فقد قاموا بأبحاثهم في الأماكن الخاطئة، ولم يتفطنوا الى أن القيم، الذي كان على جهل بأمره، كان مع الآخرين في البهو، ومن ناحية أخرى جعل الضباب مهمتهم أشق. على كل من خلال أقوال القائد يستنتج أنه عندما ذهب ريميجيو، بعد أن تركته، نحو المطابخ رآه أحدهم وأخبر بذلك النبالين، الذين وصلوا الى الصرح وقد غادره ريميجيو من جديد، ومنذ بضع لحظات، لأن يورج كان في المطبخ وأكد لهم أنه تحدث اليه منذ قليل. عندئذ فتش النبالون الرحبة في اتجاه المباقل وهناك التقوا بالينياردو، الذي برز من الضباب كالشبح، وقال أنه رأى القيم قبل ذلك بقليل وهو يدخل الى المستشفى. فذهب النبالون الى هناك ووجدوا الباب مفتوحا فدخلوا وعثروا على سفيرينو فاقد الروح بينما كان القيم يفتش بجنون بين الرفوف، ملقيا بكل شيء على الأرض، كما لو كان يبحث عن شيء. واختتم القائد قائلا انه من السهل فهم ما حدث. لقد دخل ريميجيو وانقض على العشّاب فقتله ثم أخذ يبحث عن الشيء الذي أجرم من أجله.

ورفع أحد النبالين المحلقة من الأرض ومدها إلى برناردو. كانت الهندسة الأنيقة المتكوّنة من دوائر نحاسية وفضية يشد بعضها الى البعض هيكل قوي من الحلقات البرونزية قد أمسكت من ساق المنصب ودقت بقوة على دماغ الضحية، حتى أنه من قوة الضربة كسّرت الكثير من الدوائر الأكثر نحافة أو هرست من احدى جوانبها. وان ذلك هو الجانب الذي سقط على رأس سفيرينو فقد كانت تدل عليه آثار الدم وحتى علقات الشعر ولطخات المادة المخيّة المائعة والمقززة.

وانحنى غوليالمو ليتأمل جثة سفيرينو. كانت عينا المسكين، المغشّاتان بالدم الذي سال كالأنهار من رأسه، جاحظتين وتساءلت ان لم يكن ممكنا أن نقرأ في الحدقة المتحجرة، كما يحكى أنه وقع في حالات أخرى، صورة القاتل وهي آخر أثر لمرئيات الضحية. ورأيت أن غوليالمو يفحص يدي الميت للتأكد من وجود البقع السوداء على الأصابع، ولو أنه في تلك الحالة كانت أسباب الموت واضحة وضوحا كبيرا دون ذلك: ولكن سفيرينو كان يحمل نفس القفازين من الجلد اللذين رأيته يستعملهما مرّات أخرى عندما يلمس أعشابا خطيرة أو عظايا أو حشرات مجهولة.

في الأثناء كان برناردو غي يخاطب القيم ويسأله «ريميجيو دا فراجين، هذا هو

اسمك، أليس كذلك؟ لقد أرسلت رجالي للبحث عنك لاتهامات أخرى وللتأكد من شبهات أخرى. الآن أرى أنني قد فعلت حسنا وان كان، وألوم نفسي على ذلك، بكثير من التأخير - ثم توجه الى رئيس الدير - سيدي، انني أكاد أعتبر نفسي مسؤولا عن هذه الجريمة الأخيرة، لأنني كنت أعلم منذ صبيحة هذا اليوم أنه ينبغي تسليم هذا الرجل الى العدالة، بعد ان استمعت الى مكاشفات ذلك البائس الآخر الذي أوقفناه هذه الليلة. ولكنكم رأيتم، أنتم أيضا، انني كنت منشغلا هذا الصباح بواجبات أخرى وفعل رجالي ما في وسعهم. . .»

وبينما كان يتكلم بصوت مرتفع كي يسمعه كل الحاضرين (وقد اكتضت القاعة بأشخاص انسابوا الى كلّ الزوايا وهم ينظرون إلى الأشياء المبعثرة والمحطمة، مشيرين أحدهم للآخر الى الجثة ومتهامسين حول ذلك الجرم الفظيع)، لمحت بين ذلك الجمع الصغير ملاخي وهو ينظر مكفهر الوجه الى الى المشهد. ورآه أيضا القيّم، الذي كان في تلك الآونة بالذات يجرّ إلى الخارج، فتخلّص من قبضة النبالين وارتمى على زميله، فأمسكه من ثوبه وخاطبه بايجاز وبيأس وقد ألصق وجهه في وجه الآخر، الى أن أمسكه النبالون من جديد. ولكن بينما كانوا يقودونه بعيدا بشدة التفت مرّة أخرى الى ملاخي وصاح به «أَقسِمْ، وأنَا أُقسم!».

لم يجب ملاخي في الحال كما لو كان يبحث عن الكلمات المناسبة. ثم بينما كان القيم يجتاز العتبة كرها، قال له: «لن أفعل شيئا ضدّك».

فتبادلت أنا وغوليالمو النظرات متسائلين ماذا كان يعني ذلك المشهد. وبرناردو أيضا تابعه ولكنه لم يبد محتارا من ذلك، بل العكس، ابتسم لملاخي كما لو كان يؤيد كلماته ويتواطأ معه تواطؤاً رهيباً. ثم أعلن أنه، فورا بعد الأكل، ستلتئم في قاعة المجلس محاكمة أولى للتحقيق علنيا. وخرج آمرا أن يقاد القيّم الى المصاهر دون أن يتركوه يتحادث مع سلفاتوري.

في تلك اللحظة سمعنا بانشيو من الخلف ينادينا، وقال لنا همسا: «لقد دخلت بعدكم انتم بالضبط، عندما كانت القاعة نصف فارغة، ولم يكن ملاخي هناك».

فقال غوليالمو «ربما دخل من بعد».

فأكد بانشيو «كلا لقد كنت حذو الباب ورأيت من دخل. أقول لكما إن ملاخي كان في الداخل. . . . قبل».

ـ قبل ماذا؟

ـ قبل أن يدخل القيّم. لا أستطيع أن أقسم بذلك، ولكني أظن أنه خرج من وراء ذلك الستار، عندما اجتمع هنا عدد غفير منّا» وأشار الى ستار كبير يخفي سريرا اعتاد سفيرينو أن يريح فوقه من يتلقى علاجا. فسأله غوليالمو «تريد أن تلمّح أنه هو الذي قتل سفيرينو ثم توارى خلف ذلك الستار عندما دخل القيّم؟»

ـ أو أنه من الخلف شاهد كل ما حدث هنا. وإلا لماذا ترجّاه القيم أن لا يلحق به ضررا مقابل أن يفعل هو نفس الشيء؟

فقال غوليالمو «قد يكون. على كل كان يوجد هنا كتاب، وينبغي أن يكون هنا إلى الآن لأن القيم وملاخي خرجا فارغي اليدين». كان غوليالمو يعرف من تقريري أن بانشيو على علم بذلك: وفي تلك اللحظة كان بحاجة الى المساعدة. فاقترب من رئيس الدير الذي كان ينظر بحزن إلى جثة سفيرينو وترجّاه أن يخرج الجميع لأنه يريد أن يفحص المكان مليّا. فوافقه رئيس الدير، وهو نفسه خرج ولم ينس أن يلقي الى غوليالمو بنظرة شك كأنما يلومه على وصوله دائما بعد فوات الأوان. وحاول ملاخي أن يبقى مختلقا أعذارا مختلفة، وواهية، فنبهه غوليالمو الى أن ذلك المكان ليس المكتبة وأنه لا يمكنه أن يفرض فيه أي حق من الحقوق. كان متأدبا ولكن صلبا، وثأر لنفسه من المرّة التي لم يتركه فيها ملاخي يفحص طاولة فينانسيو.

عندما بقينا نحن الثلاثة أخلى غوليالمو احدى الطاولات من الشظايا ومن الأوراق التي كانت تملأها وأمرني بأن أمد اليه، الواحد بعد الآخر، الكتب التي كانت تكون مجموعة سفيرينو. كانت مجموعة صغيرة بالمقارنة مع تلك العظيمة الموجودة في المتاهة. ولكنها كانت مع ذلك تحوي العشرات والعشرات من المجلدات من مختلف الأحجام. وكانت قبل ذلك مرتبة في نظام جميل فوق الرفوف وصارت الآن ملقاة بفوضى على الأرض، بين أشياء أخرى مختلفة، زادت في تبعثرها يدا القيم المتسرعتان، وكان بعضها ممزقا كما لو كان يبحث لا عن كتاب بل عن شيء يمكن أن يكون موجودا بين صفحات كتاب. وبعضها قد مزق بعنف مما فصلها عن تجليدها. فكان جمعها وفحص طبيعتها ثم وضعها في كومة على الطاولة أمرا غير سهل، قمنا به بسرعة لأن رئيس الدير لم يترك لنا وقتا كثيرا، اذ كان ينبغي أن يدخل الرهبان ليعيدوا لجسد سفيرينو المتقطع هيئته الأولى ولتهيئته للدفن. وكان لا بدّ أيضا من البحث في أنحاء القاعدة، وتحت الطاولات

ووراء الرفوف والخزانات، للتحقق ان كان هناك شيء غاب عن تفتيش أول. ولم يرد غوليالمو أن يساعدني بانشيو وسمح له فقط بالبقاء على الباب للمراقبة. فبالرغم من أوامر رئيس الدير كان الكثيرون يتزاحمون للدخول، من خدم روّعهم الخبر، ورهبان يبكون زميلهم ومبتدئين يحملون أكفانا ناصعة البياض وأواني مملوءة ماء لغسل الجثة وتكفينها.

كان ينبغي أن نعمل اذن بسرعة. فكنت أمسك بالكتب وأمدّاها الى غوليالمو الذي كان يفحصها ثم يضعها فوق الطاولة. ثم رأينا أن العمل كان بطيئا فواصلنا معا، أي انني كنت التقط الكتاب وأعيد تركيبه ان كان مفككا، وأقرأ العنوان ثم أضعه. وفي حالات كثيرة كانت عبارة عن أوراق مبعثرة. وكان غوليالمو يقرأ: «الكتب الثلاثة في الأعشاب» ويضيف ساخطا: «يا للعنة، ليس هذا!» ثم يرمي بالكتاب فوق الطاولة.

ومن جهتي كنت أقرأ: «كنوز الأعشاب» ويردّ غوليالمو «اترك ذلك جانبا، اننا نبحث عن كتاب باليونانية!».

فسألته: «هل هو هذا؟» وأريته كتابا يملأ صفحاته خط مبهم.

ـ كلاّ، هذه عربية أيها الغبي! صدق باكون عندما قال أول ما يجب على العالم هو دراسة اللغات!

فأجبته وقد جرحت كلماته شعوري «ولكنك أنت أيضا لا تعرف العربية» فرد غوليالمو قائلا: «ولكني أعرف على الأقل أنها عربية!» فاحمرّ وجهي خجلا لأني كنت أسمع بانشيو يضحك من ورائي.

كانت الكتب كثيرة، وأكثر منها كانت المذكرات، ومدارج تحمل رسوم القبة السماوية، وجداول لنباتات غريبة، ومخطوطات ربما كتبها الفقيد، على أوراق متناثرة. عملنا طويلا ونظرنا في كل زاوية من زوايا المخبر، ووصل غوليالمو الى حد أنه حرّك الجثة ببرودة دم كبيرة ليرى اذا ما كان تحتها شيء كما فتّش أيضا في ثياب الميت. لا شيء.

فقال غوليالمو «لا بدّ أن يكون هنا. لقد أغلق سفيرينو على نفسه ومعه كتاب. ولم يكن مع القيم...».

ـ أيكون أخفاه بين أثوابه؟

ـ كلا، الكتاب الذي رأيته ذلك الصباح فوق طاولة فينانسيو كان كبير الحجم،

فلو أخفاه لكنا لاحظناه. . .

فسألته «كيف كان تجليده»؟

ـ لا أعرف. كان مفتوحا ونظرت اليه بضع لحظات فقط، ما يكفي لمعرفة أنه مكتوب باليونانية، ولكني لا أذكر شيئا آخر. لنواصل: لم يأخذه القيم، ولا ملاخي، حسب ما أظن».

فأكد بانشيو ذلك قائلا: «على الاطلاق لا. عندما أمسكه القيم من صدره كان واضحا أنه لم يكن يحمله تحت ثوبه.

ـ حسن؟ أعني أنه ليس حسنا بالمرة. ان لم يكن الكتاب في هذه القاعة فمن الواضح أن أحدا آخر غير ملاخي والقيم، قد دخل قبلهما. ـ اذن شخص ثالث يكون قد قتل سفيرينو!

فقال غوليالمو «أرى أن عدد المشبوه فيهم صار كبيرا!»

فقلت «ثم، من يمكن أن يكون على معرفة بوجود الكتاب هنا؟»

ـ يورج، مثلا، لو كان قد سمعنا.

فقلت «نعم، ولكن يورج لا يمكن أن يكون قتل رجلا قوّيا مثل سفيرينو، وبكل ذلك العنف».

ـ أكيد لا. ومن ناحية أخرى قد رأيته أنت يتجه نحو الصرح، ووجده النبالون في المطبخ قبل العثور على القيم بقليل. اذن لم يكن لديه الوقت الكافي للمجيء الى هنا والرجوع الى المطبخ. خذ بعين الاعتبار أنه، وان كان يتحرك بخفة، فهو مجبر على محاذاة الجدران ولا يمكنه اجتياز المباقل، عدواً. . .

فقلت وقد أصبحت أتوق الآن الى منافسة أستاذي «دعني أفكّر. اذن لا يمكن أن يكون يورج. كان أليناردو يتجوّل قريبا، ولكن هو أيضا يتماسك بصعوبة فوق ساقيه ولا يمكن أن يكون تغلب على سفيرينو. كان القيم هنا، ولكن الوقت الذي مرّ منذ خروجه من المطبخ ووصول النبالين الى هنا كان قصيرا، حتى أنه يبدو لي من الصعب ان يقنع سفيرينو بأن يفتح له، ثم يواجهه فيقتله ليحدث بعد ذلك كل هذه الفوضى. يمكن أن يكون ملاخي قد سبق الجميع: يورج سمعكما في البهو فذهب الى قاعة الكتابة وأعلم ملاخي ان كتابا من كتب المكتبة موجود عند سفيرينو، فيأتي ملاخي الى هنا ويقنع سفيرين بان يفتح له ثم يقتله، والله يعلم لماذا. ولكن ان كان يبحث عن الكتاب فقد كان بوسعه أن يتعرّف عليه دون أن

يقلب كل شيء رأسا على عقب، لأنه هو أمين المكتبة؟ اذن من تبقى؟
فقال غوليالمو «بانشيو».
فهز بانشيو رأسه نافيا ذلك بقوة «لا يا أخ غوليالمو، أنت تعلم أن الفضول يلتهمني. ولكنني لو دخلت الى هنا وأمكنني أن أخرج بالكتاب، فلن أكون في هذه الساعة هنا معكما، ولكن في مكان ما لأكتشف كنزي...»
فابتسم غوليالمو قائلا «تكاد تكون حجة مقنعة. ولكن أنت أيضا لا تعرف شكل الكتاب. ويمكن أن تكون قتلت والآن تحاول أن تتعرف عليه».
فاحمرّ وجه بانشيو بشدة واحتج قائلا: «اني لست مجرما!».
فأجاب غوليالمو بفلسفة «لا أحد يكون مجرما قبل ارتكاب جريمته الأولى. على كل حال الكتاب غير موجود، وهذه حجة كافية تدلّ على أنك لم تتركه هنا. ويبدو لي معقولا أنك، لو أخذته قبل الآن، لتسللت الى الخارج أثناء الفوضى». ثم التفت نحو الجثة، كأنه تفطن في تلك اللحظة فقط الى موت صديقه «يا لسفيرينو المسكين، لقد أرتبت بك أنت أيضا وبسمومك. وكنت أنت تنتظر أن تأتي المكيدة من سمّ، وإلاّ لما لبست القفازين. كنت تخاف من خطر يأتيك من الأرض واذا به أتاك من القبة السماوية...» وأخذ من جديد المحلقة وفحصها بعناية «ترى لماذا استعمل القاتل هذا السلاح بالذات...».
- لانها كانت على مقربة منه...
- ربما. ولكن كانت هناك أشياء أخرى، أوعية، أدوات جنّان... انها نموذج جميل من فن المعادن ومن علم الفلك. لقد أتلفت و...» وفجأة صاح «وحقّ السماء»!
- ماذا حدث؟
فذكر: «وضُرب ثُلُثُ الشمس وثُلُثُ القمر وثُلُثُ النجوم...» كنت أعرف جيدا نص يوحنا الحواري، فهتفت «البوق الرابع!».
- فعلا. الأول برد، والثاني دم، ثم الماء والآن النجوم... اذا كان الأمر كذلك فينبغي اعادة النظر في كل شيء، لم يسدّد القاتل ضرباته دون تبصّر، لقد خطط لذلك... ولكن أمن الممكن تصوّر عقل شرير إلى حد أن يقتل فقط عندما يمكنه اتباع ما جاء في كتاب الرؤيا؟
فسألته بارتياع «ماذا سيحدث في البوق الخامس؟» - ثم حاولت أن أتذكر

«فرأيت كوكبا قد سقط من السماء إلى الأرض وأُعطِي مفتاح بئر الهاوية. . . سيموت أحدهم غرقا في البئر؟».

فقال غوليالمو «ان البوق الخامس يعدنا بأشياء كثيرة أخرى. من البئر يصعد دخان أتون، ثم يخرج منه جراد يعذب البشر بشوكة تشبه شوكة العقرب. وشكل الجراد شبه خيل مهيأة للحرب وعلى رؤوسها كأكاليل شبه الذهب وأسنانها كأسنان الأسود. . . ستكون لدى صاحبنا وسائل مختلفة لتحقيق كلمات الكتاب. . . ولكن لنترك جانبا هذه التخيلات. ولنحاول أن نتذكر ماذا قال لنا سفيرينو عندما أخبرنا أنه عثر على الكتاب. . . »

ـ لقد سألته أن يحمله اليك فقال انه لا يستطيع. . .

ـ فعلا، ثم قاطعنا أحد. لماذا كان لا يستطيع؟ من السهل أن يحمل المرء كتابا. ولماذا لبس القفازين؟ هل هناك شيء في تجليد الكتاب له علاقة بالسمّ الذي قتل برينغاريو وفينانسيو؟ مكيدة غامضة، شوكة سامّة. . .

فقلت «ثعبان!».

ـ ولِمَ لا تكون سمكة؟ كلاّ، اننا نتخيل من جديد. السم، لقد رأينا ذلك، يجب أن يمرّ عبر الفم. ثم لم يقل لنا سفيرين انه لا يستطيع حمل الكتاب، قال انه يفضل ان يريني اياه هنا. ووضع قفازيه. . . مما يدل على أنه ينبغي لمس ذلك الكتاب بقفازين. وهذا يصح حتى بالنسبة اليك يا بانشيو ان تمكنت من العثور عليه، كما نرجو ذلك. وبما أنك خدوم بهذه الصفة، فيمكنك مساعدتنا. اصعد من جديد الى قاعة الكتابة وراقب ملاخي. لا يجب أن يغيب عن انظارك.

فقال بانشيو «سأفعل ذلك!» وخرج سعيدا بالمهمة حسب ما بدا لنا.

ولم يعد بامكاننا أن نحبس أكثر من ذلك جمع الرهبان، فامتلأت بهم القاعة. كانت قد انقضت ساعة العشاء، ومن المحتمل أن برناردو كان بصدد جمع مجلس قضائه.

فقال غوليالمو «لم يبق لنا هنا ما نفعل».

فخطرت ببالي فكرة وقلت «ألا يمكن أن يكون القاتل قد القى الكتاب من النافذة ثم ذهب لأخذه من وراء المستشفى؟ ـ فنظر غوليالمو بتشكك الى نوافذ المختبر، التي كانت تبدو مغلقة باحكام ثم قال «لنحاول التأكد من ذلك».

خرجنا وفحصنا الجانب الخلفي للبناية، الذي يكاد يكون متكئا على سور

الحزام، تاركا ممرا ضيقا. وتقدّم غوليالمو بحذر لأنه في ذلك الموضع بقي الثلج الذي سقط في الأيام الفارطة سليما لم يمسّ. وكانت خطواتنا ترسم على القشرة المتجمدة، والرقيقة، آثارا واضحة، واذن لو مرّ أحد من هنا قبلنا لدلّنا الثلج على ذلك. ولكننا لم نرَ شيئا.

تركنا المستشفى، ومع المستشفى افتراضي السخيف، وبينما كنا نجتاز المبقلة سألت غوليالمو ان كان يثق فعلا ببانشيو، فقال «ليس تماما، ولكننا على كل حال لم نقل له شيئا كان يجهله من قبل، وجعلناه يخاف على مصير الكتاب. وأخيرا بينما هو يراقب ملاخي يكون بدوره مراقبا من طرف ملاخي، الذي من الواضح أنه بصدد البحث عن الكتاب لحسابه الخاص».

ـ وماذا كان القيم يريد؟

ـ سنعرف ذلك قريبا. من المؤكد أنه كان يريد شيئا، وكان يريده حالا لتحاشي خطراً كان يروّعه. وهذا الشيء كان لا يخفى على ملاخي، وإلاّ فكيف نفسّر تضرّع رميجيو اليائس اليه. . . ».

ـ على كلّ حال قد اختفى الكتاب. . .

فقال غوليالمو بينما كنا بصدد الوصول الى قاعة المجلس «هذا هو الشيء الأكثر غرابة، ان كان هناك، وقد قال لنا سفيرينو ذلك، إما انه نقل من مكانه أو أنه لايزال هناك».

فقلت مستنتجا «وبما أنه غير موجود فقد أخذه أحدهم».

ـ لم يقل أحد إنه لا يمكن تقديم برهنة انطلاقا من مقدمة صغرى. وبما أن كلّ شيء يثبت أنه لم يأخذ أحد. . .

ـ اذن ينبغي أن يكون هناك. ولكنه غير موجود.

ـ لحظة. نحن نقول انه ليس هناك لأننا لم نعثر عليه. ولكن ربما لم نعثر عليه لأننا لم نره حيث كان موجودا.

ـ ولكننا نظرنا في كل أرجاء القاعة.

ـ نظرنا لكننا لم نر. أو رأيناه ولم نتعرف عليه. . . أدسو، كيف وصف لنا سفيرينو الكتاب؟ ما هي الكلمات التي استعملها؟

ـ لقد قال انه وجد كتابا ليس من كتبه، باليونانية. . .

ـ كلاّ، الآن أذكر. لقد قال كتابا «غريبا». لقد كان سفيرينو عالما، وبالنسبة

الى عالم لا يكون غريبا كتابا باليونانية، وان كان ذلك العالم لا يعرف اليونانية، فهو يتعرّف على الأقل على الحروف. والعالم لا يقول عن كتاب انه غريب وان كان بالعربية، حتى لو كان لا يعرف العربية...» ـ ثم توقف وتساءل «ولكن ماذا يفعل كتاب عربي في مخبر سفيرينو؟».

ـ ولكنه لماذا ينعت كتابا عربيّا بأنه غريب؟

ـ هذا هو المشكل. ان كان نعته بالغريب فلأن له شكلا غير مألوف، على الأقل بالنسبة اليه، هو الذي كان يهتم بالأعشاب لا بالكتب. وفي المكتبات يحدث أن تجلد عدة مخطوطات معا، وان تجمع في مجلد واحد نصوص مختلفة ونادرة، واحد باليونانية، وآخر بالآرامية...

فصحت، وقد صعقتني تلك الاستنارة «... وواحد بالعربية!»

فجذبني غوليالمو بقوة خارج البهو ودفعني كي أعدو نحو المستشفى: «أيها الألماني العنيد، رأس اللفت، أيها الجاهل، لقد نظرت الى الصفحات الأولى ولم تنظر الى الباقي!».

فقلت وأنا ألهث «ولكن، سيدي، لقد نظرت أنت الى الصفحات التي أريتك إياها وقلت انها بالعربية لا اليونانية!».

ـ صحيح يا أدسو، صحيح، أنا هو المغفل، أسرع!

فعدنا إلى المخبر ولاقينا صعوبة في الدخول لأن المبتدئين كانوا ينقلون الجثة الى الخارج. وكان هناك متطفلون آخرون يطوفون في القاعة. فسارع غوليالمو الى الطاولة. ورفع الكتب بحثا عن كتاب السوء، وكان يلقي بالكتب على الأرض أمام أنظار الحاضرين المندهشة. ثم فتحها، وأعاد فتحها كلها مرتين. ولكن للاسف اختفى المخطوط العربي. لقد كنت أذكر بصفة تقريبية غلافه القديم، الرقيق والمتآكل جدا بعصائبه المعدنية الخفيفة.

فسأل غوليالمو أحد الرهبان «من دخل الى هنا بعد أن خرجت؟» فهزّ الآخر كتفيه. كان من الواضح أنهم دخلوا كلهم، وليس واحداً بالذات.

فحاولنا أن نعتبر كل الامكانيات. ملاخي؟ ربما، كان يعرف ماذا يريد، قد يكون راقبنا ثم رآنا نخرج فارغي الأيدي، فعاد متأكدا من أمره. بانشيو؟ تذكرت أنه عندما وقع الخصام حول النص العربي ضحك. اذاك ظننته ضحك من جهلي، ولكنه ربما ضحك من سذاجة غوليالمو، كان يعرف كيفيات التجليد الممكنة

لمخطوط قديم وجال بذهنه ما لم يجل بذهننا فورا، وكان ينبغي علينا أن نعمل الفكر، أي أن سفيرينو كان لا يعرف العربية وكان من الغريب اذن أن يحتفظ بين كتبه بكتاب لا يمكنه قراءته. أم أن هناك شخصا ثالثا؟

كان غوليالمو يحس بخزي عميق. وحاولت أن أهوّن عليه، وقلت له إنه يبحث منذ ثلاثة أيام عن نص باليونانية، فكان من الطبيعي أن يلقي جانبا، أثناء فحصه، بكل الكتب التي لا تبدو باليونانية. وكان هو يجيب أن الخطأ هو دون شك من طبيعة الانسان، ولكن هناك مخلوقات بشرية ترتكب أخطاء أكثر من أخرى، ويسمّونهم مغفلين، وانه هو من بينهم، وكان يتساءل ان كان من النافع أن يكون درس في باريس وفي أوكسفورد ان كان غير قادر ان يفكر ان المخطوطات تجلّد أيضا في مجموعات، وهذا شيء يعرفه حتى المبتدؤون، عدا الأغبياء من أمثاله، وان غبيين مثلنا نحن سيكون لهما نجاح كبير في المعارض، وانه كان ينبغي أن نفعل ذلك لا أن نحاول فك الالغاز، خاصة عندما يكون تجاهنا أشخاص أكثر مكراً منّا بكثير.

ثم اختتم قائلا «ولكن لا فائدة من البكاء. ان كان ملاخي هو الذي أخذه، ففي هذه الساعة يكون قد أعاده الى المكتبة. وسنجده فقط لو أمكن لنا الدخول الى قاعة «أقصى افريقيا». وان كان بانشيو هو الذي أخذه، فسيتصور انني في وقت ما سيداخلني الشك وأعود الى المخبر، وإلا لم تصرف بتلك السرعة السرعة. واذن يكون قد اختفى، والمكان الوحيد الذي من المؤكد أنه لم يختف فيه هو المكان الذي سنبحث عنه فيه فورا، أي حجرته. لنعد اذن الى قاعة المجلس ولنر ان كان القيم سيقول شيئا مفيدا أثناء التحقيق. لأنه في نهاية الأمر لم يتّضح لي إلى الآن مخطط برناردو، فقد كان يبحث عن صاحبه قبل موت سفيرينو، ولأغراض أخرى. فعدنا إلى قاعة المجلس. بينما كان من الأفضل أن نذهب الى حجرة بانشيو لأنه، وكما علمنا من بعد، لم يكن صاحبنا الشاب يحسن الظن كثيرا بغوليالمو، ولم يكن يخمّن أنه سيعود بتلك السرعة الى المخبر. ولذا، ظنّ أننا لن نبحث عنه في تلك الناحية فذهب فعلاً لاخفاء الكتاب في حجرته.

ولكني سأقول ذلك من بعد. في الأثناء حدثت أشياء مزعجة ومقلقة إلى حدّ أنها أنستنا الكتاب الغامض. وحتى ان لم ننسه، فإننا كنا منشغلين بأشياء أخرى أكيدة، مرتبطة بالمهمة التي كان غوليالمو رغم كلّ شيء مكلفا بها.

تاسعة

وفيه تقع المحاكمة ويبقى الانطباع المحيّر بان الجميع قد أخطأوا

توسّط برناردو غي الطاولة الكبيرة المصنوعة من خشب الجوز في قاعة المجلس. وكان بالقرب منه دومينيكي يقوم بمهمة كاتب عدل وحبران من قصادة البابا يجلسان الى جانبه كقاضيين. وكان القيّم واقفا أمام الطاولة، بين نبّالين.

توجه رئيس الدير الى غوليالمو هامسا اليه «لا أدري ان كان الإجراء شرعيا. فقد حدّد المجمع اللاتيراني سنة 1215 في بنده السابع والثلاثين انه لا يمكن دعوة شخص للمثول أمام قضاة يجلسون على بعد أكثر من يومين سيرا من محلّ سكناه. ربما تكون الوضعية هنا مختلفة، القاضي هو الذي يأتي من بعيد، ولكن. . . ».

فقال غوليالمو «المحقق لايخضع لأية سلطة قضائية عادية، وليس مجبرا على اتباع قواعد القانون العام. وله امتيازات خاصة وليس مجبرا حتى على الاستماع الى المحامين».

نظرت الى القيّم، لقد آل ريميجيو الى أسوإ حال. كان ينظر حواليه كحيوان مذعور، كما لو تعرّف على حركات واشارات طقس مروّع. الآن أعرف أنه كان خائفا لسببين لا يقل أحدهما فظاعة عن الآخر: أولا لأنهم قبضوا عليه، حسب كل الظواهر، متلبّسا بالجريمة، ثانيا لأنه منذ اليوم السابق، عندما شرع برناردو في تحقيقه وفي التقاط الهمسات والتلميحات، كان يخاف أن يكتشف ماضيه وزاد رعبه عندما قبض على سلفاتوري.

ولئن كان ريميجيو البائس فريسة لمخاوفه فقد كان برناردو غي يعرف كيف يحول خوف ضحاياه الى هلع. كان صامتا: فبينما كان الجميع ينتظرون أن يبدأ الاستنطاق، كان هو واضعا يديه فوق الأوراق أمامه، متظاهرا بترتيبها من جديد،

ولكن بشرود. نظره في الحقيقة مركزا على المتهم، نظرة هي مزيج من التسامح المخادع (كأنه يقول له: لا تخف، أنت بين يدي مجمع أخوي لا يريد لك إلاّ الخير) ومن السخريةّ الجامدة (كأنه يقول: أنت لا تعرف ما هو خير لك، وأنا الذي سأقوله لك عمّا قريب) ومن الصرامة القاسية (كأنه يقول: على كلّ حال أنا قاضيك الوحيد، وأنت حاجتي). وكلها أشياء كان القيم يعرفها، ولكن صمت القاضي وتمهله كانا يذكّرانه بها، كي يتذوّقها إن صحّ التعبير، ـ وعوض أن ينساها ـ تكون له باعثا على الخزي، وكي يتحول قلقه الى يأس فتكون تبعيّته للقاضي تبعية مطلقة، ويصبح صمغا لينا بين يديه.

وأخيرا قطع برناردو الصمت ناطقا ببعض الجمل الطقسية، وقال للقضاة إنه سيشرع في استنطاق المتهم لجرمين شنيعين، واحد منهما واضح للجميع ولكن أقل دناءة من الآخر، لأن المتهم فوجئ بينما كان يرتكب جريمة قتل في حين كان يُفتش عنه بتهمة الهرطقة.

لقد نطق بها. وأخفى القيم وجهه بين يديه اللتين كان يحرّكهما بصعوبة للاغلال التي كانت تشدهما. واستهل برناردو الاستنطاق سائلا اياه:

ـ من أنت؟

ـ ريميجيو دا فراجيني. ولدت منذ أثنتين وخمسين سنة ودخلت وأنا صبيّ دير الفرانشسكانيين في فراجيني.

ـ وكيف حدث انك توجد الآن في نظام القديس بنديكت؟

ـ منذ سنوات، عندما أصدر البابا براءة «Sancta Romana» وبما اني كنت أخاف أن تصيبني عدوى هرطقة الاخوان المتسولين... ولو أني لم أؤيد أبدا أفكارهم... فكرت أنه أصلح لنفسي المذنبة أن أبتعد عن ذلك المحيط المشحون بالمغريات وتحصلت على الاذن بالدخول ضمن رهبان هذا الدير حيث أقوم منذ ما يزيد عن ثمانية أعوام بمهمّة قيّم.

فقال برناردو بتهكم «فررت من مغريات الهرطقة أم من تحقيق من كان مكلّفا باكتشاف الهرطقة وباقتلاع نبتتها الفاسدة، وظن الرهبان الكلونيون انهم يقومون بعمل صالح بقبولك وقبول أمثالك. ولكن لا يكفي أن يتغير الزي الرهباني كي ينمحي فحش الانحراف الهرطيقي من الروح، ولذلك نحن هنا الآن لاكتشاف ما

يجول في خبايا نفسك العاصية وما فعلت قبل أن تصل الى هذا المكان المقدّس».

فقال القيّم بحذر «ان نفسي بريئة ولا أعرف ماذا تعنون بالانحراف الهرطيقي».

فصاح برناردو متلفتا الى القضاة الآخرين «أترون. كلّهم هكذا! عندما يقبض على أحدهم يمثل أمام العدالة كما لو كان مرتاح الضمير ودون ندم. ولا يعرفون ان ذلك هو أوضح دليل على جرمهم، لأن الطيبين يمثلون، عند المحاكمة، مرتبكين! اسألوه عن السبب الذي من أجله أمرت بإيقافه. أتعرفه، يا ريميجيو؟

فأجاب القيّم «سيدي، سأكون سعيدا لو سمعت ذلك من فمك».

وفوجئت اذ بَدا لي أن القيّم كان يجيب عن أسئلة طقسية بكلمات طقسية مثلها، كما لو كان يعرف جيدا قواعد التحقيق ومكائده، وتعلّم منذ مدّة كيف يجابه مثل ذلك الظرف.

وكان برناردو يصيح: «هذا هو الجواب المثالي للهرطيق الذي لا يعرف التوبة! انهم يسلكون نفس طرق الثعالب ومن العسير أن تفاجئهم لأن جماعتهم تسمح لهم بالكذب لتجنب العقوبة التي يستحقونها. فيلجؤون إلى أجوبة ملتوية محاولين بذلك مخادعة المحقّق، الذي ينبغي عليه مع كل ذلك تحمل الاتصال بأشخاص في تلك الدناءة. اذن أخ ريميجيو، لم تكن لك أية علاقة بمن يسمون الاخوان المتسوّلين أو اخوان الحياة الفقيرة أو المترهبين؟»

ـ لقد عشت الأحداث التي عاشها الفرنشسكانيون، أثناء المجادلة الطويلة حول قضية الفقر، ولكني لم أنضمّ أبدا الى طائفة المترهبين.

فقال برناردو «أترون، إنه ينفي أنه كان مترهبا لأن المترهبين رغم مشاركتهم لنفس هرطقة الاخوان المتسولين، كانوا يعتبرون الاخرين كالغصن الميّت في النظام الفرنشسكاني، ويعتبرون أنفسهم أطهر وأكمل منهم. ولكن الكثير من تصرّفات الأولين هي نفس تصرفات الآخرين. أيمكنك أن تنفي يا رميجيو، أنهم رأوك في الكنيسة منكمشا على نفسك ووجهك الى الحائط، أو منبطحا على الأرض ووجهك مغطى بالاسكيم، عوضا عن الركوع مع ضمّ اليدين على الصدر كما يفعل كلّ الناس؟»

ـ حتى في نظام بنديكت يجثو المرء عند اللزوم...

ـ انني لا أسألك ماذا فعلت عند اللزوم، ولكن في غير لزوم لذلك! اذن لا

تنفي انك اتخذت تلك الوضعية أو الأخرى، الخاصتين بالمترهبين! ولكنك قلت لي إنك لست مترهبا. . . اذن قل لي : بماذا تؤمن؟

- سيدي، اني أؤمن بكل ما يؤمن به مسيحي صالح. . .

- يا له من جواب طاهر! وبماذا يؤمن المسيحي الصالح؟

- بما تعلّمه الكنيسة المقدّسة.

- وأية كنيسة مقدّسة؟ تلك التي يؤمن بها أولائك الذين يعرّفون أنفسهم بأنهم كاملون والرسل الكذّابون، والمتسولون الهراطقة، أم الكنيسة التي يقارنوها ببغيّ بابل، والتي نؤمن بها نحن كلنا بثبات؟

فأجاب القيّم محتارا «سيدي، قل لي أنت أيهما تظن أنها الكنيسة الحقيقية. . .»

- اني أؤمن بالكنيسة الرومانية، واحدة مقدّسة ورسولية، بقيادة البابا وأساقفته.

فقال القيّم «وهذا ما أؤمن به أنا أيضا».

عندئذ صاح المحقق «يا لها من حيلة جديرة بالاعجاب، يا لها من فطنة في القول حقيقة رائعة! اسمعتموه: يريد أن يقول إنه يؤمن بالكنيسة التي أؤمن بها، ويتهرّب من الافصاح لنا بماذا يؤمن هو! ولكننا نعرف جيدا حيل النمس هذه! لنصل الى لب الموضوع. أتؤمن أنت بأن أسرار البيعة قد وضعها سيدنا المسيح، وانه للتوبة الصادقة يجب أن يعترف المذنب بخطاياه لخدم الاله، وان للكنيسة الرومانية السلطة في الحل والعقد على هذه الأرض لما سيُحل ويعقد في السماء؟»

- ولِمَ لا يجب أن أؤمن بذلك؟

- انني لا أسألك بماذا يجب أن تؤمن، أسألك بماذا تؤمن؟

فأجاب القيّم بهلع «انني اؤمن بكل ما تؤمنون به أنتم وبكل ما أمرني العلماء الصالحون أن أؤمن به.»

- آه، ولكن العلماء الصالحين الذين تلمّح إليهم ليسوا هم الذين يقودون طائفتك؟ هذا ما كنت تريد أن تقول عندما تكلّمت عن العلماء الصالحين؟ وتعود أنت الى أولائك الكاذبين المنحرفين الذين يعتقدون أنهم الخلفاء الوحيدون للحواريين لتستمدوا قواعد ايمانكم؟ تريد أن تلمّح بانني اذا كنت أؤمن بما يؤمنون به، فستؤمن به، وإلاّ فلن تؤمن إلاّ بما يؤمنون!

فتمتم القيم «لم أقل ذلك يا سيدي. انت الذي جعلتني أقول ذلك. اني اؤمن

بما تقول، ان علّمتني ما هو صالح».

فصاح برناردو ضاربا الطاولة بجمع يده «يا للوقاحة! أنت تعيد عن ظهر قلب وبثبات أعمى الجمل التي تتعلمونها في طائفتكم. تقول أنك ستؤمن بي فقط لو وعظت ما تعتبره طائفتك صالحا. كان هذا دائما جواب الرسل الزائفين وهكذا تجيب أنت أيضا، ربما دون أن تتفطن، لأن جمل الماضي البعيد تعود الى شفتيك وتعلمتها لتخادع بها المحققين. وهكذا أقوالك هي التي تلصق التهمة بك، وأكون قد سقطت في شركك لو لم تكن لي خبرة طويلة في التحقيق. ولكن لنصل الى القضية الحقيقية أيها الرجل المنحرف. ألم تسمع أبدا بغيراردو سيغاليلي دا بارما؟»

فأجاب القيم وقد أصفرّ وجهه، ان كان من الممكن أن ننعت بالصفرة ذلك الوجه الفاقد اللون: «سمعت به».

ـ أسمعت أبدا بالأخ دولتشينو دا نوفارا؟

ـ سمعت به.

ـ ألم تره أبدا، شخصيا، ألم تتحدث اليه؟

فبقي القيم لحظات صامتا، كمن يزن الى أي حد يكون في صالحه أن يصرح بشيء من الحقيقة. ثم صمّم، وبصوت يكاد لا يسمع أجاب «رأيته وتحدثت اليه».

فصاح برناردو «ارفع صوتك، حتى نسمع أخيرا كلمة حقيقة تخرج من شفتيك! متى تحدثت اليه؟»

فقال القيم « سيدي، لقد كنت راهبا في دير بهجة نوفارا عندما اجتمع اتباع دولتشينو في تلك النواحي، ومرّوا بالقرب من ديرنا، وفي بداية الأمر لم نكن نعرف من كانوا بالضبط. . .

ـ تكذب! ماذا يفعل فرانشسكاني من فراجيني في دير من جهات نوفارا؟ لم تكن في دير، آنذاك. كنت ضمن مجموعة من الاخوان المتسوّلين الذين كانوا يجوبون تلك الأراضي، عائشين من الصدقات، ثم أنضممت الى الدولتشين.

فقال القيم «كيف يمكنك أن تجزم بذلك يا سيدي؟»

فأجاب برناردو «سأقول لك كيف يمكنني أن أجزم بذلك، بل كيف ينبغي عليّ أن أجزم بذلك» ـ وأمر بإدخال سلفاتوري.

وبعثت رؤية ذلك البائس الشفقة في نفسي. لقد قضى ليلته دون شك في استنطاق سري أشد صرامة. لقد سبق أن ذكرت أنّ وجه سلفاتوري كان بطبيعته فظيعا. ولكنه ذلك الصباح كان أشبه بوجه حيوان. لم يكن يحمل آثار تعنيف. ولكن الكيفية التي كان يتحرّك بها الجسم بأكمله، وسط الأغلال، وأعضاؤه المفككة التي تكاد تكون عاجزة عن الحركة بينما كان النبالون يجرّونه كأنه قرد موثق بحبل، كانت تعبر جيدا عن الطرق التي تم بها استنطاقه المريع. فهمست الى غوليالمو «لقد عذّبه برناردو...»

فأجاب «كلاّ، لا يقوم المحقق أبدا بالتعذيب. يعهد دائما بجسد المتهم الى السلطة المدنية».

فقلت «ولكنه نفس الشيء!»

ـ أبدا. ليس نفس الشيء. لا بالنسبة الى المحقق الذي تبقى يداه نقيتين، ولاهو نفس الشيء بالنسبة الى من يقع استنطاقه، الذي يجد في المحقق عندما يزوره، معينا وعزاءًا لآلامه، فيفتح له قلبه.

فقلت بارتياع «أنت تمزح»،

فأجاب «أتبدو لك أمورا يمكن المزاح بشأنها»؟

كان برناردو بصدد استنطاق سلفاتوري، ولا تقدر ريشتي على نقل الكلمات المتقطعة التي أصبحت، ان كان ذلك ممكنا، أقرب الى لغة بابل والتي كان يجيب بها ذلك الرجل المنقوص الذي انحط الى صف القردة. وكان يفهمه الجميع بمشقة بينما كان برناردو يعينه بالقاء أسئلة لا تترك له من امكانيات للاجابة إلاّ بنعم أو لا، دون أن يقدر على أي اختلاق، ويمكن للقارىء أن يتصور ما قاله سلفاتوري. فقد قصّ، أو أعترف بأنه قصّ خلال تلك الليلة، جزءا من تلك القصة التي كنت قد أعدت تركيبها: تسكعاته كراهب متسوّل، كراهب ورسول كذّاب وكيف التقى زمن دولتشينو بريميجيو بين الدولتشيين، وكيف نجوا بعد معركة جبل ربيلّو، ملتجئين بعد شتى الظروف الى دير كزالي. وأضاف أن الملحد دولتشينو، عندما أوشكت هزيمته وكاد أن يقبض عليه، عهد الى ريميجيو ببعض الرسائل، ليحملها لا يدري الى أين أو الى من. وان ريميجيو حمل دائما تلك الرسائل معه دون أن يجرؤ على تسليمها الى مستحقيها. وعند وصوله الى الدير، وخوفا من الاحتفاظ بها دائما معه، وبما أنه كان لا يريد اتلافها سلّمها الى حافظ

المكتبة، نعم الى ملاخي بالذات، كي يخفيها في ركن ما من أركان الصرح.

بينما سلفاتوري يتكلم كان القيم ينظر اليه بحقد، وعند حد ما لم يتمالك نفسه وصرخ به «أيها الثعبان، أيها الشقي، لقد كنت لك أبا وصديقا ودرعا واقيا، وبهذا تجازيني؟»

فنظر سلفاتوري الى حاميه الذي أصبح الآن محتاجا هو نفسه الى حماية وأجابه بصعوبة «سيدي ريميجيو، لو كان بارادتي لكنت لك. وأنا أحبك كثيرا. ولكنك تعرف عائلة بارجيلّو : من لا يملك فرسا يمشي على قدميه». فصاح به من جديد رميجيو «مجنون! أتظن أنك بهذا ستنجو؟ ألا تعرف أنك ستموت أنت أيضا كهرطيق؟ قل إنك اعترفت تحت التعذيب، قل إنك اختلقت كلّ شيء!»

ـ وما يدريني يا سيدي ما اسم كل تلك الهرطقات... باتارينيين، غادزنيين، ليونيين، ارنالديين، سبيرونيين، مختونين... لست رجل علم، لقد أخطأت عن جهل والسيد الجليل برناردو يعرف ذلك، وأنا أرجو صفحه باسم الاب والابن والروح القدس...». فقال المحقق «سنتسامح ما أمكنتنا من ذلك مهمتنا، وسنعاين بشفقة أبوية حسن الارادة التي فتحت لنا بها روحك. اذهب، اذهب الآن، عد الى التأمل في زنزانتك واطلب الرحمة من الاله. ينبغي علينا الآن أن نناقش قضية لها أهمية أخرى أكبر. اذن يا ريميجيو، كنت تحمل معك رسائل من طرف دولتشينو، وسلّمتها الى زميلك الذي يُعنى بالمكتبة...».

فصاح القيّم «ليس صحيحا، ليس صحيحا!» كما لو كانت تلك المدافعة تصلح لشيء. وفعلا قاطعه برناردو قائلا «لن تؤكد أنت لنا ذلك، بل ملاخي دا هيلديشايم».

ونودي على ملاخي، ولم يكن بين الحاضرين، كنت أعرف أنه في قاعة الكتابة أو قرب المستشفى، يبحث عن بانشيو وعن الكتاب. وذهبوا للبحث عنه ولمّا ظهر كان مرتبكا ولم ينظر في وجه أحد، فهمس غوليالمو بخيبة أمل «الآن يمكن لبانشيو أن يفعل ما يريد». ولكنه لم يكن مصيباً لأنني رأيت وجه بانشيو يبرز من فوق أكتاف الرهبان الآخرين، الذين ازدحموا عند أبواب القاعة لمتابعة الاستنطاق. فنبهت غوليالمو الى وجوده، وظننّا آنذاك ان حبّ اطلاعه على الحديث كان أقوى من حبّ اطلاعه على الكتاب. وعلمنا من بعد، انه عند ذلك الحد كان قد اتمّ صفقته الدنيئة.

مثل اذن ملاخي أمام القضاة، دون أن تلتقي عيناه أبدا بعيني القيّم. وقال له برناردو :

ـ ملاخي، هذا الصباح، بعد الاعتراف الذي أدلى به هذه الليلة سلفاتوري سألتك ان كنت قد تسلّمت من المتهم الموجود هنا رسائل. . .

فصاح القيّم: «ملاخي، منذ حين أقسمت انك لن تفعل شيئا ضدّي!».

فالتفت ملاخي برهة قصيرة الى المتهم، وكان يدير له ظهره، وقال له بصوت خافت جدا، كدت أن لا أسمعه «لم أحنث في قسمي. ان كان باستطاعتي أن أفعل شيئا ضدّك، فقد فعلته. لقد سلّمت الرسائل الى السيد برناردو هذا الصباح، قبل أن تقتل سفيرينو. . . .».

ـ ولكنك تعرف، يجب أن تعرف أنني لم أقتل سفيرينو! أنت تعرف ذلك لأنك كنت هنالك عندما وصلت!».

فسأله ملاخي «أنا؟ لقد دخلت بعد أن اكتشفوك».

فقاطعه برناردو «حتى وإن كان الأمر كذلك، عمّ كنت تبحث أنت لدى سفيرينو، يا ريميجيو؟».

فالتفت القيم نحو غوليالمو بنظرة حائرة، ثم نظر الى ملاخي، ثم الى برناردو، وقال «ولكني. . . انني سمعت هذا الصباح الاخ غوليالمو الحاضر هنا يقول لسفيرينوأن يحتفظ ببعض الأوراق. . . وكنت منذ البارحة، عندما القي القبض على سلفاتوري، خائفا من أن يصل الحديث الى تلك الأوراق. . .».

فصاح برناردو ظافرا «اذن أنت تعرف شيئا عن تلك الرسائل!». لقد سقط القيم حقيقة في الشرك. كان يجد نفسه حبيس أمرين أكيدين، أن يبرئ نفسه من تهمة الهرطقة، وان يبعد الظنون بأنه القاتل. ومن المحتمل انه قرّر مجابهة التهمة الثانية، مدفوعا بالغريزة، لأنه أصبح الآن يعمل دون قاعدة، ودون نصيحة «سأتكلم عن الرسائل فيما بعد. . . سأبرّر ذلك. . . سأقول كيف وصلت اليّ. . . ولكن اتركوني أشرح ماذا حدث هذا الصباح. كنت أظن أن قصّة تلك الرسائل ستكشف عندما رأيت سلفاتوري يقع في قبضة السيد برناردو، ان ذكرى تلك الرسائل تقض مضجعي منذ سنين طويلة. . . اذن، عندما سمعت غوليالمو وسفيرينو يتحادثان عن بعض الأوراق. . . لا أدري، تملكني الخوف، وظننت أن ملاخي تخلّص منها وأعطاها لسفيرينو. . . كنت أريد اتلافها ولذا ذهبت الى

سفيرينو. . . كان الباب مفتوحا وكان سفيرينو ميّتا، فأخذت أفتش بين حوائجه للعثور على الرسائل. . . لقد كنت خائفا فقط. . . »

فهمس غوليالمو في أذني «يا للغبي المسكين، من خوفه الوقوع في مصيبة رمى بنفسه منحني الرأس في مصيبة أخرى. . . ».

فتدخل برناردو قائلا «لنفترض أنك تقول تقريبا ـ أقول تقريبا ـ الحقيقة. كنت تظن ان سفيرينو كان يملك الرسائل وذهبت للبحث عنها عنده. لماذا ذهب بك الظن انها لديه؟ ولماذا قتلت زملاءك الآخرين أيضا؟ ربما كنت تعتقد أن تلك الرسائل كانت تدور منذ مدّة بين أيدي الكثيرين؟ ربما من تقاليد هذا الدير الاحتفاظ برفات الهراطقة الذين احرقوا؟».

ورأيت رئيس الدير يرتجف. ليست هناك تهمة أكثر كيدا من التهمة بجمع بقايا الهراطقة، ،كان برناردو بارعا جدا في خلط الجرائم بالهرطقة وخلط الكلّ بحياة الدير. وقاطعت خواطري صيحات القيّم وهو يحتج بأن لا دخل له في الجرائم الأخرى. فهدأه برناردو بتسامح قائلا له ان الوقت لم يحن بعد لمناقشة تلك القضية، وانه يستنطقه الآن بخصوص الهرطقة، وأن لا يحاول (وهنا صار صوته صارما) أن يصرف الأنظار عن ماضيه الهرطيقي بحديثه عن سفيرينو أو باتهام ملاخي. وليعد اذن الى الرسائل. ثم توجه بالحديث الى الشاهد: «ملاخي دا هيلديشايم، أنت لا تمثل أمامنا كمتهم. هذا الصباح أجبت عن أسئلتي ولبيت طلبي دون أن تحاول اخفاء شيء. ستعيد الآن ما كنت قد قلته لي هذا الصباح ولا تخف من شيء».

فقال ملاخي «أعيد ما كنت قد قلته هذا الصباح. بعد وقت قليل من وصول ريميجيو الى هنا أخذ في العمل في المطابخ، وكانت لنا اتصالات متكررة بحكم وظيفتينا. . . ولا أرى سببا يجعلني أخفي أن صداقة أخوية نشأت بيننا، ولا كان لديّ سبب كي أظن الظنون بهذا الشخص. وحكى لي هو أنه يملك وثائق لها طابع سرّي، عُهد بها اليه في كنف سرّية الاعتراف، ولا ينبغي أن تقع بين أيد غير عفيفة، ولا يجرؤ هو على الاحتفاظ بها عنده. وبما انني مكلّف بالمكان الوحيد في الدير الممنوع على كلّ الآخرين، طلب منّي أن أحتفظ بتلك الأوراق بعيدا عن الأنظار المتطفلة، فوافقت دون أن يمرّ بخيالي أن لتلك الوثائق طابعا هرطيقيا، ولا حتى قرأتها، واضعا اياها. . . واضعا اياها في أبعد مداخل المكتبة منالا،

ومنذ ذلك الحين نسيت تلك الواقعة، الى أن لمّح اليها هذا الصباح سيادة المحقّق، عندئذ ذهبت للبحث عنها وسلّمتها اليه. . .»

فأخذ رئيس الدير الكلمة حانقا «ولماذا لم تخبرني باتفاقك ذلك مع القيّم؟ المكتبة ليست مخصصة لحفظ أشياء على ملك الرهبان!» وهكذا أظهر رئيس الدير بوضوح أنه لا دخل للدير في تلك الواقعة. وأجاب ملاخي مرتبكا «سيدي، لقد بدا لي الأمر دون أهمية. لقد أذنبت دون خبث».

فقال برناردو بنبرة ودّية: «أكيد، أكيد. كلنا مقتنعون بأن حافظ المكتبة تصرّف بحسن نيّة، والصراحة التي أعان بها هذه المحكمة دليل على ذلك، أرجو سيادتكم رجاء أخوياً أن لا تؤاخذوه على ما أبدى سالفا من قلّة حذر. نحن نثق بأقوال ملاخي. ونريده الآن فقط أن يؤكد لنا مُقسِماً بأن الأوراق التي سأريه اياها هي نفسها تلك التي سلّمها اليّ هذا الصباح وهي نفسها التي تسلّمها منذ سنوات من ريميجيو اثر وصوله الى الدير» وكان يظهر رقّين أخذهما من بين الأوراق الموضوعة على الطاولة. فنظر اليهما ملاخي وقال بصوت ثابت «أقسم بالأب القادر القدير، وبالعذراء المقدّسة وبكلّ القدّيسين ان ذاك مايقع وما وقع».

فقال برناردو «يكفيني ذلك، اذهب لحالك يا ملاخي دا هلديشايم».

بينما كان ملاخي خارجا مطأطىء الرأس اذ ارتفع صوت من بين المزدحمين في آخر القاعة «أنت كنت تخفي رسائله وهو كان يريك أدبار الرهبان المبتدئين في المطبخ!» وانطلقت بعض الضحكات بينما خرج ملاخي بسرعة دافعا بمرفقيه على اليمين وعلى الشمال. كنت متأكدا أن نبرة الصوت هي نبرة ايمارو، ولكن الصوت الذي صرخ بتلك الجملة كان حادّا. فصاح بهم رئيس الدير، وقد أصبح وجهه قانيا أن اسكتوا وهددهم بعقوبات رهيبة، آمرا الرهبان بمغادرة القاعة. وكان برناردو يبتسم بفجور، بينما كان الكاردينال برتراندو، في جانب من القاعة، يهمس بشيء الى جون دانّو، وردّ عليه الآخر مغطّيا فمه بيده ومطرقا وكأنه يسعل. فقال غوليالمو «لم يكن القيّم مذنبا جنسيا لحسابه الخاص بل كان يقوم أيضا بمهمّة القواد. ولكن هذا لا يهمّ برناردو إلاّ بما يكفي لإحراج أبّوني، الوسيط الامبراطوري. . .».

وقاطعه برناردو بالذات الذي توجه اليه بالحديث قائلا «يهمني أن أعرف منك، يا أخ غوليالمو، طبيعة الأوراق التي كنت تتحدّث في شأنها هذا الصباح مع

سفيرينو، عندما سمعكما القيم وارتكب الجرم».

فصمد غوليالمو أمام نظراته وقال «لقد أخطأ فعلا. كنا نتحدث عن نسخة من دراسة لأيوب الروحاوي حول رهاب الماء عند الكلاب، وهو كتاب علم رائع تعرفه دون شك لشهرته، ولأنه غالبا ما كان ذا نفع كبير بالنسبة اليك... داء الكلب، يقول أيوب، يمكن التعرّف عليه من خلال خمس وعشرين دلالة واضحة..».

رأى برناردو الذي كان ينتمي الى نظام «domini canes*» انه من الأفضل أن لا يواجه معركة جديدة فقال بسرعة «كانت اذن أشياء بعيدة عن الأمر الذي يهمّنا». ثم واصل التحقيق.

ـ لنعد اليك يا أخ ريميجيو، أنت الأخطر بكثير من الكلب المصاب بداء الكلب. لو اهتم الأخ غوليالمو هذه الأيام بلعاب الهراطقة أكثر من اهتمامه بلعاب الكلاب، لربّما اكتشف الثعبان الذي اتخذ جحره في هذا الدير. لنعد الى هذه الرسائل. نعرف الآن بالتأكيد أنها كانت عندك وأنك عملت على اخفائها كما لو كانت شيئا ساما جدا، وانك وصلت حتى الى القتل... ـ وتصدّى باشارة الى محاولة نفي ذلك ـ سيأتي الكلام عن الجريمة من بعد... وانك قتلت، كنت أقول، حتى لا أحصل عليها أبدا. اذن هل تعترف بان هذه الوثائق كانت لك؟

لم يجب القيّم ولكن كان معبّرا بما فيه الكفاية ولاحقه برناردو «وما هي هذه الوثائق؟ صفحتان خطّهما زعيم الهراطقة دولتشينو بيده قبل أن يقبض عليه بأيام قليلة، وعهد بهما الى أحد أتباعه كي يحملهما إلى زعماء طوائفه المنتشرين في ايطاليا. باستطاعتي أن أقرأ عليكم ما جاء فيهما، وكيف أن دولتشينو، عندما أحسّ بقرب نهايته، عهد الى رفقائه في الاثم، برسالة أمل يواسيهم بها منذرا اياهم، انه حتى وان كانت التواريخ التي يعلنها هنا لا تتطابق مع التواريخ التي ذكرها في رسائله السابقة، حيث تنبأ بأن سنة 1305 ستشهد هلاك الرهبان التامّ على يدي الامبراطور فديريكو، فان ذلك الهلاك ليس بعيدا. ومرّة أخرى كذب الملحد لأن أكثر من عشرين سنة مضت منذ ذلك اليوم دون أن يتحقق واحد من

---

* حرفيا تعني «كلاب الرّب»، وهو تلاعب بالألفاظ لأن برناردو غي ينتمي إلى «الدومينيكان»

تنبؤاته المشؤومة. ولكن ليس لنا أن نتناقش حول هذه التنبؤات السخيفة، ولكن حول حاملها الذي هو ريميجيو. أيمكنك أن تنفي بعد هذا، أيها الراهب الهرطيقي والعاصي، انه كانت لك علاقة ومعاشرة مع طائفة الرسل الكذّابين؟

لم يعد القيم قادرا على النفي وقال «سيدي، لقد كان شبابي مليئا بالأخطاء المحزنة. عندما سمعت ببشارة دولتشينو، وكانت قد أغرتني هفوات الرهبان المتسوّلين، آمنت بأقواله والتحقت بجماعته. نعم، صحيح، كنت معهم في جهة بريشّا وفي جهة برغامو، كنت معهم في كومو وفي فالسيسيا، واحتميت معهم «بالجبل الأقرع» وفي وادي «راسّا»، وأخيرا على جبل «ربيلّو». ولكني لم أشارك في أي عمل سوء، وعندما كانوا يقوموا بالنهب والعنف، كنت لا أزال أحمل روح الوداعة التي كانت من خصال أبناء فرنشسكو، وفي جبل «ربيلّو» بالذات قلت لدولتشينو انني لا أحسّ في نفسي المقدرة على المشاركة في معركتهم، وسمح لي بالذهاب، لأنه قال انه لا يريد معه الجبناء، وسألني فقط أن أحمل بعض الرسائل من طرفه إلى بولونيا...»

فسأله الكاردينال برتراندو «إلى من؟»

فسارع ريميجيو بطمأنته: «إلى بعض زعماء طوائفه، يبدو لي أنني أذكر أسماءهم، وبما أنني أتذكرها فسأقولها لكم، يا سيدي»، ونطق ببعض الأسماء فأظهر الكاردينال برتراندو أنه يعرفهم لأنه ابتسم ابتسامة رضى وأومأ باشارة اتفاق الى برناردو. فقال هذا الأخير «حسن جدا» ـ وسجل تلك الأسماء، ثم سأل ريميجيو «وما دفعك الآن إلى أن تسلم الينا أصدقاءك؟».

ـ ليسوا أصدقائي، يا سيدي، والدليل على ذلك انني لم أسلّم اليهم أبدا تلك الرسائل. بل فعلت أكثر من ذلك. وأقول ذلك الآن بعد أن حاولت لسنين طويلة أن أنساه. حتى يتسنّى لي ترك تلك الأماكن دون أن يقبض عليّ جند أسقف فارتشيلّي الذي كان ينتظرنا في السّهل، تمكّنت من الاتصال ببعضهم، ومقابل اذن بالمرور دللتهم على ممرّات يمكنهم منها مهاجمة تحصينات دولتشينو. بحيث يعود ظفر قوات الكنيسة الى المساعدة التي قدمتها أنا.

ـ هام جدا. هذا ما يبيّن لنا انك لم تكن فقط هرطيقا، ولكنك كنت أيضا جبانا وخائنا، ممّا لا يغيّر شيئا من وضعيّتك. كما حاولت اليوم أن تنجو بنفسك باتهام ملاخي، رغم أنه ساعدك، سلّمت آنذاك رفاقك في الاثم الى العدالة كي تنجو

أنت بنفسك. ولكنك خنت أجسادهم، ولم تخن تعاليمهم واحتفظت بهذه الرسائل كرفات، منتظرا أن تعود اليك يوما الشجاعة أو أن تسنح لك الفرصة، لتسلّمها اليهم دون أن تجازف بحياتك، وتعود من جديد ذا حظوة لدى الرسل الكذّابين.

فأجاب القيّم والعرق يتصبّب منه ، ويداه ترتعشان «كلاّ يا سيدي، كلاّ، أقسم لك أن. . .».

فقاطعه برناردو: «قسم الهراطقة! هوذا دليل آخر على خبثك!تريد أن تقسم لأنك تعرف أنني أعرف أن الهراطقة الفوديين مستعدون لكل الحيل، وحتى للموت، حتى لا يقسموا! وان دفعهم الى ذلك الخوف يتظاهرون بالقسم متمتمين بأيمان باطلة! ولكني أعرف جيدا انك لست من طائفة فقراء ليون، أيها الثعلب اللعين، وتريد أن تقنعني بأنك لست من أنت حتى لا أكشف أنك أنت من أنت! بامكاني أن أطلب قسما، اثنين، أو ثلاثة أو مائة، قدر ما أريد. أعرف جيدا أنكم أنتم الرسل الكذّابين تتسامحون مع من يقسم بالباطل كي لا يخون الطائفة وهكذا سيكون كل قسم تنطق به دليلا جديدا على جنايتك!»

فصاح القيّم جاثيا على ركبتيه «اذن ماذا ينبغي أن أفعل؟»

فأجاب برناردو بابتسامة باهتة «لا تركع كالمترهبنين! لا تفعل شيئا. أعرف أنا فقط الآن ما العمل. ليس عليك أنت إلاّ أن تعترف. وستكون ملعونا ومُدانا إن أعترفت، وستكون ملعونا ومُدانا ان لم تعترف، لأنك ستعاقب على انك تقسم بالباطل! الآن اعترف، على الأقل لاختصار هذا الاستنطاق الأليم الذي يؤذي ضمائرنا وشعورنا بالحلم والشفقة!

ـ بماذا يجب أن أعترف؟

ـ بجرمين أثنين. انك كنت ضمن طائفة دولتشينو، وشاطرتهم أفكارهم الهرطيقية، وسلوكهم واهاناتهم لشرف الأساقفة والحكام المدنيين، وانك تواصل، رافضا التوبة، مشاطرة أكاذيبهم وأوهامهم حتى بعد أن مات الزنديق وبعد أن شتت طائفته، حتى وان لم تقتلع وتهلك نهائيا. وانك، لانحراف دخيلتك من جرّاء الممارسات التي تعلمتها في تلك الطائفة الرجسة، أجرمت في حق الرب والنّاس بجرائم أرتكبتها في هذا الدير، لأسباب لا تزال خفيّة والتي لا يجب مع ذلك أن توضّح تماما، بعد أن أظهرنا بجلاء (كما نحن بصدد فعل ذلك)

كيف أن هرطقة أولائك الذين ينادون بالفقر، ضدّ تعاليم سيدنا البابا وضدّ براءاته، لا تؤدي إلاّ لأعمال إجرامية. هذا ما يجب أن يعرفه المؤمنون وهذا يكفيني. اعترف!».

وبدا واضحا عند ذلك الحد ما كان برناردو يريد. لم يكن يهمّه ألبتة معرفة من قتل الرهبان الآخرين، كان يريد فقط أن يظهر أن ريميجيو كان يشاطر بطريقة من الطرق الأفكار التي يدافع عنها اللاهوتيون الامبراطوريون. وبعد أن أظهر العلاقة بين تلك الأفكار، التي كانت أيضا، أفكار مجمع بيروجيا، وأفكار الاخوان المتسوّلين والدولتشينيين، وبعد أن أظهر أن رجلا واحدا، في ذلك الدير، كان طرفا مشاركا في كل تلك الهرطقات وانه المسؤول عن الكثير من الجرائم، يكون بتلك الطريقة قد وجّه حقيقة الضربة القاضية لخصومه. نظرت الى غوليالمو وفهمت أنه فهم ذلك ولكنه لا يستطيع شيئا، حتى وإن توقع ذلك. ونظرت الى رئيس الدير فرأيته مكفهرّ الوجه: لقد تفطّن، بعد فوات الأوان انه وقع هو أيضا في الفخّ، وان سلطته نفسها كوسيط كانت بصدد التّفتت، الآن وقد ظهر بمظهر المشرف على مكان التقت فيه فضائح القرن. أمّا القيم فلم يعد يعرف من أيّ جرم يمكنه أن يبرىء نفسه. ولكن ربما لم يكن قادرا في تلك الآونة على أي حساب، والصيحة التي انطلقت منه كانت صيحة روحه، وفيها ومن خلالها ألقى عن كاهله سنين من الندم الطويل والمكتوم. أو بالأحرى بعد حياة من الشكّ، والحماس والخيبات، من الجبن والخيانة، الآن، وقد وجد نفسه أمام حتمية هلاكه، قرّر أن يصيح بما آمن به في شبابه، دون أن يتساءل ان كان صوابا أو خطأ، ربما ليظهر لنفسه أنه قادر على الايمان بشيء.

وصاح «نعم، صحيح. كنت مع دولتشينو وشاطرته جرائمه واباحيته. ربما كنت مجنونا، كنت أخلط حب سيدنا يسوع المسيح بالحاجة الى الحرية وبالحقد على الأساقفة، صحيح، لقد أذنبت، ولكنني بريء ممّا حدث في الدير، اني أقسم على ذلك!».

فقال برناردو «لقد حصلنا على شيء. أنت تعترف اذن بأنك مارست هرطقة دولتشينو والساحرة مارغريتا ورفاقها. تعترف بأنك كنت معهم عندما شنقوا بالقرب من تريفيرو مؤمنين كثيرين مخلصين للمسيح من بينهم طفل بريء عمره عشر سنوات؟ وعندما شنقوا رجالا آخرين بحضور زوجاتهم ووالديهم لأنهم

رفضوا أن يسلّموا أنفسهم الى سلطة أولائك الكلاب؟ ولماذا تعتقدون، وقد أعماكم هوسكم وخيلاؤكم، انه لا نجاة لمن ليس منضمّا الى طائفتكم؟ تكلّم!

ـ نعم، نعم، لقد آمنت بهذا.

ـ أكنت حاضرا عندما قبضوا على بعض المخلصين للأساقفة، وتركوا البعض منهم يموت جوعا في السجون، وعندما قطعوا ذراع امرأة حامل ويدها، وتركوها تضع مولودا مات على الفور دون تعميد؟ هل كنت معهم عندما دمروا وأحرقوا قرى موسّو وتريفيرو وكوسّيلا وفليكيا، ومناطق عديدة أخرى في جهة كريباكوريو، وديارا كثيرة في مورتيليانو وفي كويرينو وأحرقوا كنيسة تريفيرو ملطخين الصّور المقدسة، منتزعين النقوش من المذابح، ومكسرين ذراعا من صنم العذراء، ناهبين كؤوس القداس، والأنسجة والكتب، مدمرين برج الكنيسة ومكسرين الأجراس، ومستحوذين على كلّ أوعية الأخويّة وأملاك القسّ؟

ـ نعم، نعم، لقد كنت هناك، ولم يكن أحد يعرف ماذا يفعل، كنا نريد أن نسبق يوم القصاص، كنّا طلائع الامبراطور المبعوث من السماء ومن البابا القديس، كان علينا أن نعجّل بوقت نزول ملاك فيلادلفيا، وعندئذ يحصل كل واحد على صفح الروح القدس وتتجدّد الكنيسة، وبعد هلاك الضّالين يبقى فقط الكاملون ليحكموا!

كان القيم يبدو في الآن نفسه مجنونا ملهما، كان يبدو أن سدّ الصمت والتّصنع قد تحطّم، وان ماضيه يعود لا من خلال الكلمات فحسب بل وأيضا من خلال الصّور وأنه يحس من جديد بالمشاعر التي أوقدت حماسه فيما مضى.

وكان برناردو يحثّه «اذن أنت تعترف أنكم أكرمتم غيراردو سيغاليلي بصفته شهيدا وانكم نفيتم كل سلطة للكنيسة الرومانية، وتؤكدون أنه لا البابا ولا أية سلطة أخرى يمكنها أن تُلزمكم بطريقة عيش مغايرة لطريقتكم، وأن لا حق لأحد يحرمكم من القداس، وانه منذ زمن القديس سيلفاسترو كان كلّ أحبار الكنيسة فاسدين ومضلّلين، ما عدا بيترو دا مروّني، وان الدنيويين ليسوا ملزمين بدفع العشور للكهنة الذين لا يمارسون حياة كمال مطلق وفقر كما مارسها الحواريون الأوّلون، وانه يجب دفع العشور لكم أنتم فقط، فأنتم الحواريون الوحيدون وفقراء المسيح، وان كنيسة مقدسة، لعبادة الله، لا تساوي أكثر من اصطبل، وانكم كنتم تنشدون «تحية العذراء» لجلب الجموع بالحيلة، وانكم كنتم تظهرون

للآخرين التوبة باتباع عيشة الكمال ظاهريا، ثم تبيحون لأنفسكم كل أنواع الدعارة والفسق، لأنكم لا تؤمنون بقداسة الزواج، ولا بأية قداسة أخرى، وأنكم إذ تعتبرون أنفسكم أطهر من الآخرين فبإمكانكم تعاطي كلّ القذارات والاهانات لأجسادكم ولأجساد الآخرين؟ تكلّم!

ـ نعم، نعم، أعترف بما كان آنذاك إيماني الحقيقي والذي آمنت به بكل جوارحي. أعترف أننا تركنا لباسنا دلالة على التجرّد وأننا تخلّينا عن كلّ أملاكنا بينما أنتم يا معشر الكلاب لن تتخلّوا عنها أبدا، وأننا منذ ذلك الحين لم نقبل مالا ولا حملنا مالا معنا، وعشنا من الصدقات، ولم نحتفظ بشيء للغد، وعندما كانوا يضيّفوننا ويعدّون لنا المائدة كنا نأكل ثم نذهب لحالنا تاركين على المائدة كل ما تبقّى. . .

ـ وانكم حرقتم ونهبتم للاستيلاء على أملاك المسيحيّين الطيّبين!

ـ وحرقنا ونهبنا لأننا أتخذنا الفقر قاعدة شاملة، وكان لنا الحق في الاستيلاء على أملاك الآخرين اللامشروعة، وكنّا نريد أن نضرب في الصميم دسيسة الجشع التي تمتدّ من خورنية الى أخرى، ولكننا لم ننهب أبدا قصد الامتلاك، ولا قتلنا من أجل السلب. كنّا نقتل لنعاقب، لنطهّر بالدم من كان غير طاهر، ربما كنا فريسة رغبة مفرطة في العدالة، يمكن ارتكاب الخطيئة من الافراط في حبّ الله أيضا، لوفرة الكمال، لقد كنّا المجموعة الروحانية الحقيقية التي بعثها الرب وأعدّها لمجد الساعة الأخيرة، كنّا نبحث عن جزائنا في الفردوس مستبقين ساعة هلاككم، لقد كنّا نحن فقط رسل المسيح، كل الآخرين خانوا، وغيراردو سيغاليلي كان نبتة مقدسة «زرع الرب الذي ينبت من جذور الايمان»، كانت قاعدتنا تأتينا من الرّب، لا من عندكم أيها الكلاب الخاسرون، أيها الواعظون الدجّالون الذين ينشرون من حولهم نتونة الكبريت عوضا عن عبق البخور، أيها الكلاب الانذال، الجيف النتنة، الغربان، خدّام بغيّ أفينيون، إنتم الموعدون للخسارة! كنت أؤمن حينئذ بذلك، وحتى أجسادنا تحرّرت، كنا سيف الاله وكان علينا أن نقتل الأبرياء أيضا كي نقضي عليكم كلّكم في أقرب وقت. كنا نريد عالما من الوداعة ومن السلام أفضل، وكنا نريد السعادة للجميع، كنّا نريد أن نقضي على الحرب التي كان جشعكم يثيرها في كل مكان، لماذا تعيبون علينا اراقة قليل من الدماء ان كانت من أجل اعادة العدالة الى نصابها والسعادة. . .

لأنه . . . لأن تحقيق ذلك بسرعة لم يكن يستوجب الكثير من الدم، وكان جديرا ان نجعل كل مياه كرناسكو حمراء، ذلك اليوم في ستافيلّو، كان دمنا نحن أيضا، لم نكن ندّخر أنفسنا، دمنا نحن ودمكم أنتم، الكثير والكثير من الدم، وحالاً، حالاً، ان أوقات تنبؤات دولتشينو وشيكة وكان ينبغي أن نعجّل بسير الأحداث. . . ».

كان يرتعد بكلّ جسمه، ويمرّر يديه على ثيابه كما لو كان يريد غسلها من االدماء التي كان يذكرها. فقال لي غوليالمو «لقد عاد ذلك الشّره من جديد طاهرا».

فسألته بارتياع «ولكن، أهذه هي الطهارة؟» فقال غوليالمو «هناك أيضا طهارة من نوع آخر. ولكن مهما كان نوعها فهي تخيفني دائما».

فسألته «ماذا يخيفك أكثر في الطهارة؟».

فأجاب «التسرّع». كان برناردو آنذاك يقول: «يكفي، يكفي. طلبنا منك الاعتراف لا المناداة بالمجزرة. حسن، لم تكن هرطيقيا فحسب بل لا تزال إلى الآن. لم تكن مجرما فحسب، ولكنك قتلت من جديد. اذن قل لنا كيف قتلت اخوانك في هذا الدير، ولماذا؟».

فكفّ القيم عن الارتعاش، ونظر حواليه وكأنه خرج من حلم وقال «لا، لا دخل لي في جرائم الدير. لقد اعترفت بكل ما فعلت، لا تجعلوني أعترف بما لم أفعل. . . ».

ـ ولكن ماذا تبقى ولم تفعله؟ الآن تقول عن نفسك أنك بريء؟ يا للحمل، يا لك من مثال للوداعة! أسمعتموه، لقد كانت يداه فيما مضى ملطخة بالدم والآن هو بريء! ربما نكون قد أخطأنا. ريميجيو دا فراجيني مثال للفضيلة، ابن مخلص للكنيسة، عدوّ أعداء المسيح، لقد احترم دائما النظام الذي فرضته الكنيسة بمشقة على القرى والمدن، لسلامة التجارة، لدكاكين الحرفيين ولكنوز الكنائس. هو بريء، ولم يرتكب اثما، هيّا بين احضاني اذن يا أخي ريميجيو، حتى أواسيك من التهم التي رماك بها الأشرار!» ـ وبينما كان ريميجيو ينظر اليه بعينين حائرتين، كما لو كان يأمل حقيقة في تبرئة نهائية، استعاد برناردو هيئته الأولى وتوجه بنبرة الآمر الى قائد النبالين :

«اني أكره الالتجاء الى وسائل أدانتها الكنيسة عندما وقع استعمالها من طرف

السلطة المدنية. ولكن هناك قانونا أخضع اليه ويقود مشاعري الشخصية أيضا. اسألوا رئيس الدير مكانا نهيّئ فيه أدوات التعذيب. ولكن لا تشرعوا فورا. ليبق ثلاثة أيام مكبلا في زنزانة مكبّلا بالأغلال من يديه وساقيه. ثم أروه معدّات التعذيب. فقط. وفي اليوم الرابع أشرعوا في تعذيبه. فالعدالة ليست مستعجلة، كما يظن الرّسل الكذّابون، وعدالة الرّب أمامها قرون تتصرّف فيها. وابدأوا ببطء، وبتدرّج. وتذكروا بالخصوص ما قلنا مرارا: تجنّبوا بتر الأعضاء وخطر الموت. من أحد التدابير السماوية التي يمنحها هذا المنهج للباغي هي فعلا أن يتذوق الموت، وينتظره، ولكنه لا يأتي قبل أن يكون الاعتراف كاملا، عن طواعيّة ومطهّرا».

فانحنى النبالون على القيم لأنهاضه ولكنه ركّز قدميه على الأرض وحاول المقاومة، مشيرا إلى أنه يريد أن يتكلم. وعندما سمح له بذلك، تكلّم، ولكن الكلمات كانت تخرج بعناء من فمه، وكان حديثه كغمغمة الثمل وفيها شيء من الفحش. إلاّ أنه، كلّما تقدّم في الكلام، كلّما ازدادت شيئا فشيئا تلك الحيوية الوحشية التي أذكت اعترافه منذ حين.

ـ لا يا سيدي، التعذيب لا. انني رجل جبان. لقد خنت آنذاك، ونبذت لإحدى عشرة سنة في هذا الدير ايماني القديم، متسلّما العشور من منتجي الخمر ومن الفلاحين، معاينا الاصطبلات والزرائب حتى أنمّي من ثراء رئيس الدير، وشاركت عن طيب خاطر في ادارة مصنع الدجّال هذا. وكنت أجد نفسي هنا في أحسن حال، ونسيت أيام الثورة، وتمتّعت بملذات الحلق وبأخرى أيضا. انني جبان. لقد خنت اليوم زملائي القدامى في بولونيا وخنت آنذاك دولتشينو. وكجبان، تنكّرت في زي رجل من رجال الصليبية، وحضرت أسر دولتشينو ومارغريتا، وعندما حملوهما يوم السبت المقدس الى قلعة «بوجيلّو». وتسكّعت لمدة ثلاثة أشهر حول فارتشيلّي الى أن وصلت رسالة البابا كليمانتي تحمل الأمر بالاعدام. ورأيت مارغريتا تقطع إربا أمام عيني دولتشينو، وتصرخ وهي تذبح، يا للجسد المسكين، أنا أيضا لمسته ليلة. . وبينما كانت جثتها المقطّعة تحرق، ارتموا على دولتشينو وقطعوا أنفه وخصيتيه بكلاّبات حاميّة، وليس صحيحا ما قيل عنه، من بعد، انه لم يطلق ولو أنينا واحدا، كان دولتشينو طويل القامة صحيح البنية، وكانت له لحية كبيرة شيطانية وشعر أحمر يتساقط في حلقات على

كتفيه، كان جميلا وقويا حين كان يقودنا وعلى رأسه قبّعة عريضة الجوانب ذات ريشة، وسيفه مرشوق في حزام لباسه الرّمادي، كان يبعث الخوف في الرجال ويجعل النساء يصحن من المتعة... ولكن عندما عذبوه كان يصرخ هو أيضا من الألم، كأنه امرأة، كأنه عجل، وكان الدم يسيل من كل جراحه بينما كانوا يجرونه من ركن الى آخر ويواصلون جرحه جروحا غير قاتلة ليظهروا للناس كيف أن رسول الشيطان لا يموت بسهولة، وكان هو يطلب الموت ويتوّسل ان ينهوا أمره، ولكنه مات بعد وقت طويل، حين وصل الى المحرقة وقد أصبح كومة من اللحم السائل بالدم. وكنت أتبعه مهنئا نفسي لأنني نجوت من تلك المحنة، كنت فخورا بفطنتي. وكان ذلك النذل سلفاتوري معي وكان يقول لي: حسنا فعلنا يا أخ ريميجيو، حين تصرّفنا كشخصين لهما بعد نظر، ليس هنا أشنع من التعذيب! كنت مستعداً ان أرتدّ ذلك اليوم عن ألف دين. ومنذ سنين، سنين طويلة، وأنا أقول لنفسي كم كنت جبانا، وكم كنت سعيدا لأني جبان، ومع ذلك كنت آمل أن أقدر يوما على أن أظهر لنفسي على انني لست جبانا إلى ذلك الحد. اليوم أعطيتموني أنتم القوّة على ذلك، يا سيدي برناردو، كنت بالنسبة إليّ ما كان الامبراطوريون الوثنيون بالنسبة الى الشهداء الأكثر جبنا. لقد أعطيتني الشجاعة للاعتراف بما كنت أؤمن به بكلّ روحي بينما كان جسدي يرتدّ عنه. ولكن لا تطلب مني أن أكون شجاعا كبيرا، أكثر ممّا يمكن أن تتحمّله هذه العظام الفانية. التعذيب لا. سأقول كلّ ما تريده أنت، أفضّل أن أذهب الآن الى المحرقة، يموت المرء مختنقا قبل أن يحترق. التعذيب كما عذّب دولتشينو، لا. أنت تريد جثة، تحصل عليها تحتاج الى من يأخذ على عاتقه جرم الجثث الأخرى. على كل حال سأكون جثة بعد قليل. ولذا سأقول ما تريد. قتلت أدالمو دا أوطرانطو لحقدي على شبابه ولمهارته في التلاعب بالمسوخ أمثالي، أنا الشيخ البدين والقصير القامة، والجاهل. قتلت فينانسيو دا سلفيماك لأنه كان عالما كبيرا يقرأ كتبا لم أكن أفهمها. وقتلت برينغاريو دا أروندال لأنني كنت أحسده على مكتبته، أنا الذي درست اللاهوتية وضربت بالعصا الخوارنة الأكثر بدانة. وقتلت سفيرينو دا سانتيميرانو... لماذا؟ لأنه كان يجمع الأعشاب، وأنا الذي عشت على جبل ربيلّو كنت آكل الأعشاب مع الآخرين دون أن نتساءل عن فضائلها. في الحقيقة يمكنني أن أقتل الآخرين أيضا، بما فيهم رئيس ديرنا: سواء كان حليف البابا أو

الامبراطور فهو دائما ضمن أعدائي وكنت دائما أكرهه، حتى عندما كان يطعمني لأنني كنت أطعمه. أيكفيك ذلك؟ آه، لا، تريد أن تعرف كيف قتلت هؤلاء.. ولكن قتلتهم... لنر كيف... آه، مستعينا بالقوى الجهنميّة، باعانة آلاف الفيالق وضعتها تحت أوامري بما علّمني سلفاتوري من فن. ليس من الضروري ضرب الشخص لقتله، الشيطان يفعل ذلك عوضكم، ان كنتم تعرفون كيف تأمرون الشيطان.

وكان ينظر الى الحاضرين نظرة تواطؤ وهو يضحك. ولكنه أصبح الآن ضحك رجل معتوه، حتى وأن لم ينس ذلك المجنون، كما نبّهني الى ذلك غوليالمو، أن يجرّ سلفاتوري معه في التهلكة، ليثأر لنفسه من وشايته.

وكان برناردو يلاحقه بالاسئلة معتبرا ذلك الهذيان اعترافا شرعيا «وكيف أمكنك أن تأمر الشيطان؟».

ـ أنت أيضا تعرف ذلك، لا يتعامل المرء طيلة سنوات مع أتباع الشيطان دون أن يتّخذ هيئتهم! أنت أيضا تعرف ذلك يا ذابح الرّسل! خذ قطّا أسود، أليس كذلك؟ لا يجب أن تكون فيه شعرة بيضاء واحدة (أنت تعرف ذلك) وأربط قوائمه الأربع ثم أحمله عند منتصف الليل الى مفترق طرقات وصح بأعلى صوتك «يا لوسيفوروس العظيم، امبراطور الجحيم، انني آخذك وأدخلك في جسد هذا القط، وان أنت أذقت عدوّي الموت فسأقدم اليك في اليوم الموالي عند منتصف الليل، في نفس هذا المكان، هذا القط قرباناً منّي، وستفعل أنت ما آمرك به بحكم السحر الذي أمارسه الآن حسب كتاب القديس شبريانو السّحري، اسم كلّ زعماء فيالق الجحيم العظمى، أدرامالك وألاستوز وأزازال، الذين أترجاهم الآن كلّهم، هم ورفاقهم...» كانت شفتاه ترتعشان وعيناه تكادان تخرجان من مداريهما، وأخذ يصلّي ـ أو بالأحرى كان يبدو أنه يصلّي ولكنه كان يرفع رجاءه لكلّ زعماء فيالق الجحيم... «أبيغور، اجعلنا من الآثمين. آمون، ارفق بنا... سمايال، احمنا من الخير... بليال ارحمنا... فوكالور، علّمني أسرار الضّلال... هابوريم، لنلعن الرب... زايبوس، افتح دبْري... ليوناردو، بلّلني بمنيك ولوّثني... وكان الحاضرون يصيحون راسمين علامة الصليب «كفى، كفى، آه يا الهي، اغفر لنا جميعا!».

وصمت القيم. الآن، وبعد أن نطق بأسماء كلّ أولائك الشياطين، سقط

ووجهه الى الأرض وسال لعاب أبيض من فمه المعوج ومن نصف أسنانه الضاحك بسخرية، وكانت يداه، رغم الأغلال التي كانت تشدّهما، تنفتحان وتنغلقان بتشنّج، وكانت قدماه تركلان الهواء دون انتظام، من حين لآخر، وعندما أحسّ غوليالمو أنني أرتعش من الرعب وضع يده على رأسي وأمسكني من رقبتي شاداً عليها ليعيد الهدوء الى نفسي، وقال لي «ليكن ذلك درساً لك، تحت التعذيب أو عندما يهدّد المرء بالتعذيب، لا يقول فقط ما فعله ولكن ما كان يريد أن يفعل، حتى وان كان لا يعرف ذلك، الآن يريد ريميجيو الموت بكل جوارحه».

وقاد النبالون القيم وهو لا يزال فريسة للتشنج. وجمع برناردو أوراقه ثمّ حدّق في الحاضرين، وقد تجمدوا وهم فريسة ارتباك عظيم.

ـ لقد انتهى الاستنطاق وسيقاد المتهم، الذي اعترف بجرمه، الى أفينيون حيث ستقع المحاكمة النهائية، حرصا منّا على معرفة الحقيقة وعلى اقامة العدل، وبعد تلك المحاكمة القانونية فقط سيحرق. فهو، يا أبّوني لم يعد لك، ولا هو لي، لأنني فقط كنت الأداة المتواضعة التي أظهرت الحقيقة. أما أداة القصاص فهي في مكان آخر، لقد قام الرعاة بواجبهم، الآن على الكلاب أن تبعد النعجة الموبوءة عن باقي القطيع وأن تطهرها بالنار. لقد انتهت آخر حلقة بائسة في حياة هذا الرجل الذي أرتكب جرائم كثيرة وفظيعة. ليعش الدير الآن في سلام. ولكن العالم. . . وهنا رفع صوته وتوجّه الى أعضاء القصادتين «العالم لم يجد السلام الى الآن، لقد مزّقته الهرطقة التي تجد ملاذا حتى في قصور الامبراطور! ليتذكّر اخواني هذا: ان «حلفا شيطانيا» يربط زعماء طوائف دولتشينو المنحرفين بعلماء مجمع بيروجيا الموقّرين. لا ننس ذلك، لا يختلف في ذكر الرب هذيان ذلك البائس الذي سلّمناه منذ حين الى العدالة عن هذيان العلماء الذين يأكلون على مائدة ألماني بافييرا المحروم. ان منبع شناعات الهراطقة يتدفّق من عديد البشارات، حتى الموقرة منها، والتي لم يقع بعد القصاص منها. انه لأمر كبير وانها لمحنة شاقّة تلك التي يقاسيها من ناداه الرب، مثل شخصي المذنب، لاكتشاف الحجر الذي يقبع فيه ثعبان الهرطقة، أينما كان. ولكن ممارسة هذه المهمة تعلّم أن الهرطيق ليس فقط من يمارس الهرطقة علنا. ويمكن التعرف على مؤيدي الهرطقة من خلال خمسة أدلّة قاطعة: أولا أولائك الذين يزورونهم خفية

عند اعتقالهم في السجون. ثانيا، أولائك الذين يذرفون الدموع لأنه قبض عليهم، وكانوا لهم أصدقاء حميمين في حياتهم (يصعب فعلا على من عاشر طويلا هرطيقا أن لا يعرف شيئا عن نشاطه)، ثالثا أولائك الذين يؤكدون أن الهراطقة أعدموا ظلما، حتى بعد أن ثبت جرمهم. رابعا، أولائك الذين ينظرون شزرا وينتقدون من يلاحق الهراطقة، وينادون بنجاح الى الوقوف ضدّهم، ويمكن التعرّف على ذلك من العينين، والأنف، ومن الملامح التي يريدون اخفاءها، مبدين بذلك حقدهم على من يشعرون نحوهم بالمرارة وحبّهم لمن يشفقون عليهم في محنتهم. والدليل الخامس، أخيرا، هو جمع عظام ورماد الهراطقة المحروقين وجعلها موضوع تقديس... ولكنني أعطي أهمية كبيرة جدا لدليل سادس أيضا، وأعتبر أن أصدقاء الهراطقة بدون شك هم أولائك الذين وجد الهراطقة في كتبهم (حتى وان كانت تلك الكتب لا تتهجّم جهرا على العقيدة) المقدّمات المنطقيّة لِقياساتهم المنحرفة».

قال ذلك وهو ينظر الى أوبارتينو. وفهم جميع أفراد القصادة الفرنشسكانية ما كان يلمّح اليه برناردو. لقد فشل اللقاء، ولن يتجرأ أحد على مواصلة مناقشة الصباح، لمعرفتهم بان كلّ كلمة ستؤول بارتباط مع الأحداث الأخيرة المفجعة. ان كان البابا قد أرسل برناردو لمنع حصول اتفاق بين القصادتين فقد نجح في ذلك.

صَلاة الستّار

وفيه يلوذ أوبارتينو بالفرار، ويأخذ بانشيو في احترام القوانين ويقوم غوليالمو ببعض الملاحظات حول أنواع الشهوة المختلفة التي اعترضتنا ذلك اليوم

بينما كان الحاضرون في المجلس يغادرون فشيئاً فشيئ قاعة الاجتماعات اقترب ميكيلي من غوليالمو، والتحق بهما أوبارتينو. وخرجنا جميعا، قصد تبادل الحديث في الرواق، يحمينا الضباب الذي لم يكن يبدو أنه يريد التناقص، بل بالعكس أصبح أكثر كثافة من جراء العتمة.

قال غوليالمو «أظن أن لا حاجة للتعليق على ما حدث، لقد هزَمَنا برناردو. لا تسألوني إن كان ذلك الدولتشيني الغبي قد أرتكب حقيقة كلّ تلك الجرائم. حسب ما فهمت، دون شكّ، لا. المشكل هو أننا عدنا الى نقطة الانطلاق. جيوفاني يريدك بمفردك في أفينيون، ياميكيلي، ولم يعطك هذا اللقاء الضمانات التي كنّا نريدها. بل بالعكس، أعطاك فكرة عن الكيفية التي يمكن أن ينقلب بها، هنالك، معنى كلّ كلمة من كلماتك. ممّا جعلني أستنتج انه لا ينبغي، حسب رأيي، ان تذهب اليه».

فهزّ ميكيلي رأسه مجيبا «ولكنني سأذهب. لا أريد انشقاقا. أنت ياغوليالمو تكلمت بوضوح، وقلت ما كنت تريد. حسن، ولكنّ ذلك غير ما أريد أنا. لقد أتضح لي أن قرارت مجمع بيروجيا استعملت من طرف اللاهوتيين الامبراطوريين بطريقة تجاوزت مفاهيمنا نحن. انني أريد أن يقبل البابا النظام الفرنشسكاني بمبادئه حول الفقر. وينبغي أن يفهم البابا أنه لا يمكن للنظام احتواء تفاريعه الهرطيقية إلاّ اذا تبنّى مبادئ الفقر. انني لا أفكر في مجمع الشعب أو في حقوق الناس. يجب أن أمنع أن يذوب النظام في تعدّدية الاخوانيات المتسوّلة. سأذهب

الى أفنيون، وان لزم الأمر سأقبل الاستسلام لجيوفاني. سأتساهل في كلّ شيء إلاّ مبدأ الفقر». فتدخل أوبارتينو قائلا «إلا تعرف أنك تجازف بحياتك؟».

ولقد جازف حقا بحياته، وخسر أيضا روحه، اذا كان جيوفاني على صواب (وذلك ما لا أعتقده الى الآن). كما يعرف الجميع الآن، ذهب ميكيلي الى البابا، في الأسبوع الذي تلا الأحداث التي أقصها. وصمد أمامه أربعة أشهر الى أن دعا جيوفاني في شهر أفريل من العام الموالي الى التئام مجمع، ونعت أثناءه ميكيلي بالجنون، والتهوّر، والعناد، والطغيان، ومصدر الهرطقة وبأنه الثعبان الذي ربّته الكنيسة في حضنها. ويذهب الظن الى انه عند ذلك الحدّ، وحسب الكيفية التي صار ميكيلي ينظر بها الى الأشياء، كان جيوفاني على صواب، لأنه في تلك الأشهر الأربعة أصبح ميكيلي صديقا لصديق أستاذي، غوليالمو الآخر، دا أوكّام وأصبح يشاطره أفكاره التي لم تكن تبعد كثيرا، ولو أنها كانت أكثر تطرفا، عن الأفكار التي كان أستاذي يشاطرها مع مارسيليو والتي عرضها ذلك الصباح. وأصبحت حياة أولائك المنشقين معرّضة للخطر، في أفنيون، وفي آخر شهر ماي فرّ ميكيلي وغوليالمو دا أو كّام وبونغراتسيا دا برغامو وفرانشسكو داسكولي وهنري دي تلايم بينما كان رجال البابا يلاحقونهم في نيس وطولون ومارسيليا وآغ مورت، حيث التحق بهم الكاردينال بيار دي أرابلي الذي حاول دون جدوى أن يقنعهم بالرجوع، ولم يستطع أن يقلب مقاومتهم وحقدهم على البابا وخوفهم. وفي جوان وصلو الى بيزا حيث خصّهم الامبراطور باستقبال كبير، وكان على ميكيلي ان يدين البابا علنا في الأشهر الموالية. ولكن فات الأوان، لأن حظوظ الامبراطور كانت في نقصان. ومن أفنيون، كان جيوفاني يتحايل لتعيين رئيس عام جديد للفرانشسكانين، ونجح أخيرا في ذلك. كان من الأفضل أن لا يقرر ميكيلي ذلك اليوم الذهاب إلى البابا: كان بامكانه ان يهتم أحسن وعن قرب بتنظيم مقاومة الفرانشسكانيين، دون أن يضيّع شهورا عديدة تحت رحمة عدوّه، وان يضعف. وضعيته... ولكن ربما أعدت العناية الالهية كل ذلك ـ ولا أدري الآن من كان على صواب من بين هؤلاء ـ بينما تخمد جذوة الأهواء أيضا، ومعها ما كان يبدو أنه نور الحقيقة. من منّا يقدر اليوم أن يقول ان كان اتّوري على صواب أم أكيلّي، أغاممنون أم بريامو عندما كانوا يتنافسون من أجل جمال امرأة هي الآن من رمادٍ؟

ولكنني أتيه في هذر كئيب بينما يجب أن أقول كيف أنتهت تلك المحادثة المؤلمة. كان ميكيلي قد أخذ قراره ولم تكن هناك وسيلة لاقناعه بالعدول. إلاّ أن مشكلاً آخراً بقي قائما، وذكره غوليالمو دون لفّ أو دوران: أوبارتينو لم يعد في مأمن: الجمل التي توجه بها اليه برناردو، والحقد الذي أصبح البابا يكنّه له، وبينما كان ميكيلي لا يزال يمثّل طرفا يمكن التفاوض معه بقي أوبارتينو يمثّل طرفا لنفسه...

ـ جيوفاني يريد ميكيلي في البلاط وأوبارتينو في الجحيم. ان صحّ ما أعرف عن برناردو، فمن الآن الى صباح الغد، وبمعونة الضباب، سيعمل على قتل أوبارتينو، وان تساءل أحد عن القاتل، فالدير قادر على تحمل جريمة أخرى، سيقول أنها شياطين استحضرها ريميجيو بواسطة قططه السوداء، أو أنهم بعض الدولتشيين الذين نجوا من العدالة ولا يزالون يطوفون بين هذه الأسوار...

فسأله أوبارتينو بقلق «وما العمل؟».

فأجاب غوليالمو «العمل هو أن تذهب الى رئيس الدير وأن تتحدث اليه. اسأله مطيّة وزادا ورسالة الى بعض الأديرة البعيدة، في الجهة الأخرى من جبال الألب. وانتهز الضباب والعتمة للرحيل فورا.

ـ ولكن لا يزال النبّالون يراقبون الأبواب؟

ـ للدير منافذ أخرى. ورئيس الدير يعرفها. يكفي أن ينتظرك خادم في أحد المنعطفات السفلى ومعه مطيّة، وأنت، عندما تخرج من حزام الأسوار، يكفيك أن تجتاز جزءا من الغابة. يجب أن تفعل ذلك في الحال قبل أن يستفيق برناردو من نشوة انتصاره. أمّا أنا فيجب أن أهتمّ بشيء آخر. لقد كنت مكلفاً بمهمتين، وها أن واحدة منهما فشلت، فعسى على الأقل أن لا تفشل الأخرى. أريد الإمساك بكتاب، وبرجل. ولو تمّ كلّ شيء على أحسن ما يرام، فستكون أنت خارج هذا المكان قبل أن أعود لأسأل عنك. واذن، الوداع» ـ وفتح ذراعيه. واحتضنه أوبارتينو بقوة وهو متأثر «الوداع يا غوليالمو، إنك إنجليزي مجنون ومتكبّر، ولكن قلبك كبير. ترى سوف نتلاقى؟»

فطمأنه غوليالمو «سوف نتلاقى، ان شاء الله».

ولكن الرّب لم يشأ ذلك، وكما كنت قد ذكرت، مات أوبارتينو مقتولا بصفة غامضة بعد ذلك بسنتين. لقد كانت حياة ذلك الشيخ المناضل والمتوقد حماسا،

صعبة ومغامرة. ربما لم يكن قديسا، ولكني أرجو أن يكون الرّب قد كافأه على اعتقاده الراسخ بأنه كذلك. وكلما تقدمت بي السنون وسلّمت نفسي لمشيئة الله، كلّما قل اعتباري لذكاء من يريد أن يعرف ولارادة من يريد أن يفعل: وأرى أن النجاة الوحيدة في الايمان، الذي يعرف كيف ينتظر بصبر دون أن يتساءل كثيرا. ومن الأكيد أنه كان لأوبارتينو ايمان قوي بدم المصلوب سيدنا وبعذابه.

ربما كنت أفكر في تلك الأشياء آنذاك أيضا، وتفطن الشيخ المتصوف لذلك، أو أنه تنبأ بأنني سأفكر فيها يوما، فابتسم الي بلطف وضمني اليه، بغير الحماس الذي أمسكني به في الأيام الفارطة. وقبّلني كما يقبل الجد حفيده، وبنفس تلك الروح بادلته ذلك. ثم ابتعد مع ميكيلي للبحث عن رئيس الدير.

فسألت غوليالمو «والان»؟

ـ الآن، لنعد الى جرائمنا.

فقلت «سيدي، لقد حدثت اليوم عدة أشياء خطيرة بالنسبة الى المسيحية وفشلت مهمتك، ومع ذلك تبدو أكثر اهتماما بحلّ هذا الغموض منك بخصومة البابا مع الامبراطور».

ـ المجانين والأطفال يقولون دائما الحقيقة، يا أدسو. ربّما مارسيليو بصفته مستشار الامبراطور هو أفضل مني، ولكن كمحقق فأنا أفضل منه. وأفضل حتى من برناردو غي، ليسامحني الله. لأن برناردو لا يهمه اكتشاف المذنبين، بل حرق المتهمين. وأما أنا، فأجد متعة كبيرة ولذّة قصوى في حلّ معضلة شديدة التعقيد. قد يكون ذلك لأنني، في الوقت الذي أشك فيه كفيلسوف، أن للعالم نظاما، أتعزّى، حتى إن لم أكتشف نظاما، فعلى الأقل، باستنباط سلسلة من العلاقات بمقادير صغيرة بين قضايا العالم. وأخيرا، ربما يكون هناك سبب آخر: وهو أنه في هذه القصة ربما دخلت أشياء أكبر وأهم من الصراع بين جيوفاني ولودفيكو....

فهتفت بتشكك: «ولكنها ليست إلاّ قصّة سرقات وأخذ بالثأر بين رهبان لا عفّة لهم!».

فأجاب غوليالمو «حول كتاب ممنوع، يا أدسو، حول كتاب ممنوع».

كان الرهبان قد أخذوا في الذهاب لتناول طعام العشاء. وكنّا قد وصلنا الى منتصف الوجبة عندما جلس ميكيلي بجانبنا وأخبرنا أن أوبارتينو قد رحل. فتنفّس

غوليالمو الصعداء.

بعد العشاء تحاشينا رئيس الدير الذي كان يتحادث مع برناردو وانتبهنا الى بانشيو الذي حيّانا بنصف ابتسامة، محاولا الوصول الى الباب. فألتحق به غوليالمو وأجبره على أن يتبعنا الى ركن من أركان المطبخ. وسأله غوليالمو «بانشيو، أين الكتاب؟»

- أي كتاب؟

- بانشيو، لا أحد منّا الأثنين غبيّ. أتكلم عن الكتاب الذي كنّا نبحث عنه اليوم لدى سفيرينو والذي لم أتعرّف عليه أنا بينما تعرّفت عليه إنت جيّدا وذهبت لاستعادته...

- ما الذي يجعلك تظنّ أنني أخذته؟

- أظن ذلك، وأنت أيضا تظن ذلك. أين هو!

- لا أستطيع أن أقول.

- بانشيو، ان لم تقل لي فسأخبر رئيس الدير.

فأجاب بانشيو بسمت الفاضل «لا يمكنني الكلام وذلك بأمر رئيس الدير. اليوم، بعد أن تقابلنا، حدث شيء يجب أن تعرفاه. بعد موت برينغاريو بقيت خطّة مساعد حافظ المكتبة شاغرة، فعرضها عليّ هذه العشية ملاخي. ومنذ نصف ساعة بالضبط أبدى رئيس الدير موافقته، ومن صباح الغد، كما أرجو ذلك، سيطلعني ملاخي على أسرار المكتبة. صحيح، لقد أخذت الكتاب هذا الصباح، وأخفيته تحت حصيري في حجرتي دون أن أنظر اليه، لأنني كنت أعرف أن ملاخي كان يراقبني. واذا به يعرض عليّ الأمر الذي حدّثتكما فيه. ففعلت اذن ما يجب أن يفعل مساعد حافظ المكتبة: أعدت إليه الكتاب.

فلم أتمالك من التدخل بشدة «ولكنك يا بانشيو، أمس، وأول أمس أنت... أنت كنت تقول أنك كنت تتقد رغبة في المعرفة، وانك لا تريد أن تخفي المكتبة أسرارا، وان التلميذ ينبغي أن يعرف...»

كان بانشيو صامتا وقد أحمرّ وجهه، فقاطعني غوليالمو «أدسو، لقد مرّ بانشيو منذ بضع ساعات الى الجهة المقابلة. الآن أصبح هو حارس تلك الأسرار التي كان يرغب في معرفتها، وأثناء حراستها سيكون لديه كلّ الوقت الذي يريده لمعرفتها».

فسألته «ولكن الآخرين. كان بانشيو يتكلّم باسم كلّ العلماء!»

فقال غوليالمو «كان كذلك قبل الآن». ثم جذبني بعيدا تاركا بانشيو فريسة لارتباكه.

بعد ذلك قال لي غوليالمو «بانشيو ضحية شهوة كبيرة، تختلف عن شهوة برينغاريو أو شهوة القيّم. كالعديد من الدارسين، لديه شهوة المعرفة. المعرفة لنفسه. عندما كان مقصى عن ذلك العلم، كان يريد الاستحواذ عليه. الآن أصبح ملكه. كان ملاخي يعرف صاحبه واستعمل أحسن طريقة لاسترجاع الكتاب ولختم شفتي بانشيو. ستسألني لماذا يحفظ كلّ ذلك الرصيد من العلم ان لم يكن يراد وضعه تحت تصرف كل الآخرين ومن أجل هذا بالذات تحدّثت عن الشهوة. لم يكن تعطش روجي باكون الى العلم شهوة، لأنه كان يريد استعمال العلم ليجعل شعب الرب أكثر سعادة، لم يكن اذن يبحث عن العلم من أجل العلم. أما فضول بانشيو فهو تعطّش لا يُروى، هو صلف الفكر، ووسيلة كغيرها يتخذها الراهب لتحويل رغباته الجنسية، أو هو الحماس الذي يجعل من شخص آخر مقاتلا من أجل العقيدة، أو من أجل الهرطقة. ليست هناك فقط شهوة الجنس. وما صدر عن برناردو هو أيضا شهوة، شهوة منحرفة للعدالة تتطابق مع شهوة السلطة. وما يصدر عن حبرنا المقدس وغير الروماني هو شهوة المال. انها شهوة الشهادة والتغيير والتوبة والموت تلك التي كانت تتملك القيم عنما كان شابّا. وهي شهوة الكتب، تلك التي تتملّك بانشيو. وككلّ شهوة، وكشهوة أونان الذي كان يسكب منيه على الأرض، هي شهوة عقيم، ولا علاقة لها بالحبّ، حتى بالحبّ الجنسي...»

فتمتمت رغما عني «أعرف ذلك». فتظاهر غوليالمو بانه لم يسمع، ولكنه قال، وكأنه يواصل حديثه «الحبّ الحقيقي يريد الخير للمحبوب».

فسألته «ألا يكون بانشيو يريد الخير لكتبه (اذ أصبحت الآن كتبه) ويرى أن الخير بالنسبة إليها هو أن تبقى بعيدة عن الأيدي الجشعة؟».

ـ الخير بالنسبة الى كتاب هو أن يقرأ. الكتاب مصنوع من دلالات تتكلم عن دلالات أخرى تتكلّم بدورها عن الأشياء. وبدون العين التي تقرأه يبقى الكتاب حاملا لدلالات لا تنتج مفاهيم فيظل اذن أخرس. ربما أُسست هذه المكتبة لانقاذ الكتب التي تحويها، ولكنها أصبحت تعيش لكي ندفنها. ولذا صارت مصدرا

للزندقة. لقد قال القيم أنه خان. وهكذا فعل بانشيو. لقد خان. آه، يا له من يوم تعس، يا عزيزي أدسو! مليء بالدم والدمار. لقد رأيت اليوم ما فيه الكفاية. هيّا بنا نحن أيضا لنؤدي صلاة النوم، ونذهب بعد ذلك الى مضاجعنا.

عند خروجنا من المطبخ التقينا بأيمارو. فسألنا ان كان صحيحا ما يتهامس به من ان ملاخي عرض على بانشيو أن يصبح مساعده. فلم يكن في امكاننا إلاّ أن نؤكد له ذلك.

فقال ايمارو بضحكته المعتادة المستهزئة وكلّها احتقار وتسامح «ان ملاخي هذا قام اليوم بعدّة أشياء جميلة. ان كان هناك عدل في هذه الدنيا فسيأتي الشيطان لاختطافه هذه الليلة».

صلاة النّوم

وفيه يُستمع إلى خطبة حول قدوم المسيح الدّجال ويكتشف أدسو تاثير أسماء الأعلام

كانت صلاة الستّار قد أقيمت بصفة فوضوية، أثناء استنطاق القيم، وقد أفلت المبتدؤون من رقابة معلّمهم ليتتبعوا من النوافذ والشقوق ما كان يجري في قاعة المجلس. وكان ينبغي الآن أن تصلّي كل المجموعة على روح سفيرينو الطيبة. كنا نظن أن رئيس الدير سيتوجه بالخطاب الى الجميع، متسائلين عما سيقوله. ولكن، بعد موعظة القديس غريغوريو الطقسية، وترنيمة الاستجابة والمزامير الثلاثة المرسومة، اعتلى رئيس الدير المنبر وقال انه، هذه الليلة، سيلازم الصمت، مضيفا أن البلايا العظيمة التي فجعت الدير تجعل أب المجموعة نفسه غير قادر على الكلام بنبرة من يؤنب أو من يحذر. يجب أن يقوم الجميع، دون استثناء، بفحص صارم لضمائرهم. ولكن بما أنه يجب أن يتكلم أحد، عرض رئيس الدير أن يأتي التحذير ممّن هو أكبر سنّا وأقرب إلى الموت من الجميع، وأبعد ما يكون عن الاغراءات الدنيوية التي كانت سبب كلّ تلك الآثام. كان يجب أن تعود الكلمة بحق السّن إلى أليناردو دا غروتّافيرّاتا، ولكن الجميع كانوا يعلمون أن صحّة الزميل الوقور كانت ضعيفة. ويأتي فورا بعد أليناردو، حسب الترتيب الذي وضعه المرور الحتمي للزمن، يورج. واليه أعطى رئيس الدير الكلمة.

وسمعنا همسات متأتية من ناحية المقاعد التي يجلس فيها عادة ايمارو والأيطاليون الآخرون. وتصوّرت أن رئيس الدير عهد بالخطبة الى يورج دون استشارة اليناردو. ولفت استاذي انتباهي، بصوت خافت، إلى أن قرار رئيس الدير بالتزام الصمت كان حكيماً: لأنه مهما كانت الأشياء التي سيقولها فسيقيّمها

برناردو والافينيون الآخرون الحاضرون. أمّا يورج الشيخ فسيقتصر على احدى تنبؤاته التصوفية، ولن يقيم لها الأفينيون وزنا كبيرا. ثم أضاف غوليالمو «أمّا أنا فلا. لأنني لا أعتقد أن يورج قبل، أو طلب الكلام دون غرض محدّد».

وبمساعدة أحد الرهبان صعد يورج المنبر. كان يضيئ وجهه النصب الذي كان ينير وحده جناح الكنيسة. وكان نور الشعلة يزيد من الظلمة التي كانت تغشي عينيه، اللّتين أصبحتا شبيهتين بثقبين أسودين.

واستهلّ قائلا: «اخواني الأعزاء وأنتم يا ضيوفنا المكرّمين، ان أردتم الاستماع الى هذا الشيخ المسكين... ان الميتات الأربع التي فجعت ديرنا ـ دون الحديث عن الآثام البعيدة في الزمن والقريبة، التي أرتكبها أشقى الأحياء ـ لا تنسب، وانتم تعلمون ذلك، الى قساوة الطبيعة التي، في انتظامها الذي لا يرحم، تنظم يومنا الدنيوي من المهد الى اللحد. ربما ظننتم كلّكم، ان هذا الحدث المفجع، مهما يكن قد أحدث في نفوسكم من اضطراب، لا يمسّ من أرواحكم لإنكم كلّكم، ما عدا واحداً، أبرياء، وعندما سينال ذلك الواحد جزاءه، سيبقى لكم دون شك أن تبكوا المفتقدين، ولكن لن يكون عليكم أن تبرؤوا أنفسكم من أية تهمة إمام محكمة الرّب. هذا ما تظنون. مجانين!» صاحها بصوت رهيب «يا لكم من مجانين طائشين! ان من قتل سيحمل أمام الرّب عبء خطاياه، ولكن فقط لأنه كان الواسطة التي تمّت بها ارادة الرّب. وكما كان ينبغي أن يخون أحد يسوع حتى يكتمل سرّ الخلاص، ومع ذلك أهلك الرّب وشنّع من خانه، كذلك أرتكب أحدهم هذه الأيام اثما، حاملا موتا وخرابا، ولكني أقول لكم ان هذا الخراب، ان لم يكن اراده الرب، فهو سمح به كي يُذلّ غرورنا!

ثم صمت وأدار عينيه الفارغتين على المجلس المتهم، كما لو كان قادرا أن يلتقط الاحاسيس بعينيه، بينما كا يتذوق فعلا بأذنيه الصّمت الواجم.

وتابع «منذ زمن، وحيّة الغرور تنساب وسط هذه المجموعة، ولكن أي غرور؟ غرور السلطة في دير منعزل عن الدنيا؟ دون شكّ، لا. غرور المال؟ يا اخواني، قبل أن يمتلئ العالم المعروف بمجادلات طويلة حول الفقر والملكية، ومنذ عهود مؤسسنا، نحن حتى عندما كنّا نملك كلّ شيء، كنّا لا نملك شيئا، لأن ثروتنا الوحيدة والحقيقية تكمن في اتباع القاعدة، في الصلاة وفي العمل. ولكن من عملنا، ومن عمل نظامنا، وبالخصوص من عمل ديرنا تمثّل الدراسة

وحفظ المعرفة جزءا ـ بل الجوهر. الحفظ، أقول، لا البحث، لأنه من خاصّيات المعرفة، كشيء إلـٰهي، انها كانت كاملة ومعرّفة منذ البداية، في كمال الكلمة التي تعبّر عن نفسها. الحفظ، أقول لا البحث، لأنه من خاصيّات المعرفة، كشيء انساني، إنها كانت قد عرّفت وأكملت في تلك الحقبة من القرون التي تمتد من وحي الأنبياء الى تأويل آباء الكنيسة. ليس للعهود تطور، ولا ثورة، في أمر المعرفة، على أقصى تقدير نجد اعادة متواصلة وسامية. ان تاريخ الانسانية يمشي بحركة لا تتوقف من خلق الكون، وعبر الفداء، نحو عودة المسيح الظافر، الذي سيظهر تحيط به هالة ليحاكم الأحياء والأموات، ولكن المعرفة الالهية والانسانية لا تتّبع هذا المسار: هي ثابتة كأنها قلعة لا تنهار فهي تتيح لنا، عندما نستمع الى صوتها بانتباه وتواضع، ان نتّبع ذلك المسار ونتكهن به، ولكن لا يمسّها شيء منه. لقد قال رب اليهود أنا ذلك الذي هو. وقال سيّدنا، أنا الطريق، والحقيقة والحياة. هي ذي، المعرفة ليست إلاّ التأويل المنذهل لهاتين الحقيقتين. وكلّ ما اضيف الى ذلك، فقد نطق به الانبياء، والانجيليون، والآباء والعلماء كي يجعلوا هاتين الحكمتين أكثر جلاء. وجاءت أحيانا بعض الشروح الفطنة من الوثنيين الذين كانوا يجهلنوهما، وقبلت التقاليد المسيحية أقوالهم. ولكن ما عدا ذلك لم يبق شيء يمكن أن نقوله. علينا أن نتأمل، أن نشرح وأن نحفظ. كانت هذه وكان ينبغي أن تبقى هذه مهمّة ديرنا بمكتبته الرائعة ـ لا غير. يُحكى عن خليفة من الشرق أنه أحرق يوما مكتبة مدينة مشهورة مجيدة وفخورة، وبينما كانت آلاف الكتب تحترق قال أنه بإمكانها بل ومن واجبها أن تندثر: لأنها، امّا تعيد ما قاله القرآن، واذن فهي عديمة النفع، أو أنها تعارض ذلك الكتاب الذي يقدّسه الكافرون، واذن فهي مضلّة. لم ير علماء الكنيسة، ونحن معهم، الأشياء، من نفس الوجهة. كلّ ما هو تعليق وشرح للكتابات يجب الحفاظ عليه، لأنه يزيد من عظمة الكتابات المقدّسة. وكلّ ما عارضها لا يجب أن يتلف، اذ بالحفاظ عليه يمكن دحضه بدوره، ممّن له القدرة والوظيفة لذلك، وبالطرق وفي المواعيد التي يريدها الاله. ومن هنا تأتي مسؤولية نظامنا عبر القرون، والعبء الذي يتحمله ديرنا اليوم فنكون معتزين بالحقيقة التي نصرّح بها، متواضعين وحذرين في حفظ الكلمات المعادية للحقيقة، دون أن نتلوّث بها. الآن، يا اخواني ما هي خطيئة الغرور التي يمكن أن تغري راهبا دارسا؟ هي أن يفهم عمله، لا على أنه حفظ

ولكن على أنه بحث عن بعض الأنباء التي لم تكشف بعد للبشرية، كما لو لم يدوّ النبأ الأخير في كلمات الملاك الأخير الذي يتكلم في آخر سفر من الكتابات المقدّسة «لأنّي أشهد لكل من يسمع أقوال نبوّة هذا الكتاب إن كان أحدٌ يزيد على هذا يزيد الله عليه الضربات المكتوبة في هذا الكتاب. وإن كان أحد يحذف من أقوال كتاب هذه النبوّة حذف الله نصيبه من سفر الحياة ومن المدينة المقدسة ومن المكتوب في هذا الكتاب» هو ذا. . . ألا يبدو يا اخواني بعد هذه المحنة أن هذه الكلمات تعكس بالذات ما وقع بين هذه الأسوار من أحداث، وان ما وقع بين هذه الأسوار يعكس بالذات وقائع القرن الذي نعيشه، الذي يسعى بكل جهده بالكلمة وبالفعل، في مدنه وفي قصوره، في جامعاته الفخورة وفي كنائسه العظيمة، الى اكتشاف تذييلات جديدة للحقيقة، محرّفا معنى تلك الكلمة الثريّة بكل التعليقات، وهي التي تحتاج فقط الى دفاع جريء لا الى اضافات غبية؟ هذا هو الغرور الذي انساب ولا يزال ينساب داخل هذه الأسوار: وأقول لمن سعى ويسعى الى فك أختام الكتب التي لا تعنيه، ان الاله اراد معاقبة ذلك الغرور وسيواصل عقابه ان هو لم يتراجع ولم يتواضع اذ لا يصعب على الاله أن يجد دائما، وفي كلّ مرّة، بسبب ضعفنا، الوسائل ليثأر لنفسه».

فهمس اليّ غوليالمو «أسمعت يا أدسو! الشيخ يعرف أشياء أكثر ممّا يريد أن يقول. انه يعرف، سواء كانت له يد في الحكاية أم لا، وينذر أنه ان لم يكف الرهبان الفضوليون عن انتهاك حرمة المكتبة فلن يستعيد الدير أمنه».

وعاد يورج، بعد مهلة طويلة، الى الكلام «ولكن من هو أخيرا رمز ذلك الغرور، الذي يكون المغرورون صورة منه ورسلا ومشاركين وحاملي لواء؟ من سعى في الحقيقة وربما لا يزال يسعى بين هذه الأسوار، ليعلمنا أن الساعة قريبة ويعزّينا، لأن الساعة اذا كانت قريبة فستكون آلامنا دون شك لا تطاق ولكنها لن تكون لا نهائية، بما أن الدورة الكبرى لهذا الكون أوشكت أن تكتمل؟ أوه، لقد فهمتم ذلك جيدا، ويخيفكم النطق باسمه، لأنه أسمكم انتم أيضا وأنتم تخافون ذلك، ولكن ان كنتم أنتم تخافون ذلك، فأنا لا أخافه وسأقول ذلك الاسم بصوت عال جدّا حتى تتلوّى أمعاؤكم من الرعب، وتصطكّ أسنانكم حتى تقطع ألسنتكم، وحتى يسقط التجمد الذي سينتاب دمكم غشاء مظلما على عيونكم. . . انه الوحش الرجس، انه المسيح الدجال!».

وتوّقف مرّة أخرى طويلا، بينما كان الحاضرون يبدون وكأنهم موتى، والشيء الوحيد الذي كان يتحرّك هو شعلة المنصب، ولكن حتى الظلال التي كانت تلقيها كانت تبدو متجمّدة. وكان الصوت الوحيد والخافت صوت يورج وهو يلهث وينشف العرق من جبينه. ثم واصل :

«ربما كنتم تريدون أن تقولوا لي: كلاّ، ان من تتحدّث عنه ليس آتيا عن قريب، أين هي علامات مجيئه؟ أبله من يقول ذلك! ألسنا نرى أمامنا، يوما بعد يوم، في مسرح الدنيا الكبير، وفي صورة الدير المصغرّة، نكباته النذيرة.. ويقال أنه عندما يقترب الموعد سيقوم في الغرب ملك أجنبي، رب أملاك ضخمة تحصّل عليها بالخدعة، ملحد، سفّاح، خدّاع، متعطش للذهب، ماهر في الاحتيال، شرّير، عدوّ للمؤمنين ومضطهد لهم. وفي عهده لن يحسب للفضّة حساب بل ستعطى قيمة للذهب فقط! انني أعرف جيدا: أنتم الذين تستمعون اليّ ستسارعون بضرب أخماسكم في أسداسكم لمعرفة ان كان من أتحدّث عنه يشابه البابا أم الامبراطور أو ملك فرنسا أو من أردتم، كي يمكّنكم أن تقولوا: انه عدوّي وأنا من بين الصالحين! ولكني لست ساذجا الى حدّ أنني أدلّكم على رجل، عندما يأتي المسيح الدجال فهو يأتي من الجميع للجميع، وكلّ واحد هو جزء منه. سيكون في جماعات اللصوص التي ستنهب مدنا وجهات، سيكون في دلالات غير منتظرة من السماء حيث ستظهر فجأة أقواس قزح وقرون ونيران، بينما سيسمع خوار أصوات وسيفور البحر. يقال أن الحيوانات والعباد ستلد تنانين، ولكن كان يراد بذلك أن القلوب ستحمل حقدا وشقاقا، لا تنظروا حولكم لتروا وحوش المنمنمات التي تسليكم على الرقوق! يقال أن النساء المتزوجات منذ وقت قليل سيلدن أطفالاً قادرين على التكلم جيدا، سينبئون بمجيء الساعة وسيطلبون ان يُقتلوا. ولكن لا تبحثوا عنهم بين القرى في الوادي، فالأطفال ذوو المعرفة الواسعة قد قتلوا بين هذه الأسوار! وكأطفال النبوة كان لهم شكل الرجال المتقدمين في السن، وكانوا هم ابناء النبوة ذوي الأربع، وأشباحها وأجنتها التي ينبغي أن تتنبأ وهي في بطون أمهاتها ناطقة بشعوذات سحرية. وكلّ هذا كان مكتوبا، أتعرفون ذلك؟ يقال أن الاضطرابات ستتعدد في الفئات، وفي الشعوب وفي الكنائس، وانه سيقوم رعاة آثمون، منحرفون، مزدرون، طمّاعون، يرغبون في الملذّات ويحبون المال ويميلون الى الأحاديث التافهة، مدّعون، متكبرون،

جشعون، منغمسون في الفسق، يبحثون عن المجد الباطل، أعداء للإنجيل، مستعدون لنبذ الباب الضيق، ولازدراء كلمة الحق، سيبغضون كل مسالك الشفقة، ولن يتوبوا عن ارتكاب الاثم، ولذا ستتفشى الشكوك بين الشعوب، وبغض الأخ لأخيه، والشر والقسوة والحسد واللامبالاة والسرقة والسكر والنهم والدعارة واللذة الجنسية والزنى وكل الرذائل الأخرى. وسيندثر الشجى، والتواضع، وحب السلام، والفقر، والرحمة، والرثاء للغير.... هيّا اذن، ألا تتعرفون على أنفسكم، أنتم الحاضرين هنا، رهبان هذا الدير وذوي النفوذ الآتين من الخارج؟».

وفي الاستراحة التي عقبت ذلك سمع حفيف. كان الكاردينال برتراندو يتململ فوق مقعده. فكرت أن يورج، في نهاية الأمر، كان يتصرف تصرف الخطيب الكبير، فبينما كان يوبّخ رفاقه كان لا يترفّق مع ذلك بالزائرين. وكنت مستعدا للتضحية بكل شيء لو أتاح لي ذلك أن أعرف ما كان يجول في تلك اللحظة في خاطر برناردو، أو في خواطر الافينيونيين البدينين.

ودمدم صوت يورج «وفي تلك الساعة، التي هي فعلا ساعتنا هذه، سيظهر الدّجال المجدّف، الذي لن يكون إلاّ قردا يحاول تقليد سيدنا. وفي تلك الساعة(التي هي هذه) ستنقلب جميع الممالك، ستعمّ المجاعة والفقر، وقلة الحصاد، وتأتي الشتاءات القاسية. ولن يجد أبناء تلك الساعة (التي هي هذه) من يدير أملاكهم ويحفظ في مستودعاتهم الأغذية وسيذلّون في أسواق البيع والشراء. هنيئا عندئذ لأولائك الذين يتركون الحياة، أو أولائك الأحياء الذين سيمكنهم البقاء على قيد الحياة! سيصل إذاك ابن التهلكة، العدوّ المنتفخ غرورا، سيُظهر خصالا عدة لخداع الأرض جمعاء وليسيطر على العادلين. ستنهار سوريا وتبكي أبناءها. وسترفع كيليكيا رأسها الى أن يظهر من هو مدعوّ لمحاكمتها. وستنهض ابنة بابل من كرسي روعتها لتشرب من كأس المرارة. وستحني كبادوكيا وليشيا ولياكونيا الظهر لأن جموعا بأكملها ستهلك من جرّاء فسادهم وآثامهم. ستظهر مضارب الهمجيين وعربات القتال في كلّ مكان لتحتل الأرض. وفي أرمينيا، وفي بونتو وبيثونيا سيموت الفتيان بحدّ السيف، وستسقط الصبايا في الأسر، وسيرتكب الأبناء والبنات المحارم، وبيسيديا التي تتباهى بمجدها، ستركع، وسيمرّ السيف عبر فينيقيا، وستلبس اليهودية ثوب الحداد وتستعدّ ليوم الهلاك

لعدم طهارتها. عندئذ تظهر الكراهية والدمار في كلّ البقاع، ويستولي الدجال على الغرب وسيدمر الطرقات والمسالك وسيحمل في يديه السيف والنار المحرقة وسيضطرم نارا وعنفا: سيكون التجديف قوته، ويده خداعا، ستكون يمينه خرابا ويساره ظلمات. وهذه هي الملامح التي ستميزه: ستكون رأسه من نار حاميّة، وعينه اليمنى محتقنة بالدم، وعينه اليسرى خضراء سنّورية، وستكون له حدقتان، وسيكون جفنيه أبيضين، وشفته السفلى كبيرة، سيكون فخذه نحيفا ورجلاه كبيرتين وإبهامه ممعوسا وطويلا»!.

همس إليّ غوليالمو بسخرية «كأني بها صورته»، كانت جملة خالية من التقوى، ولكنني في دخيلتي شكرته عليها، لأن شعري وقف من الرعب فوق رأسي. وتمالكت نفسي بصعوبة عن الضحك، نافخا خدّي وتاركا الهواء يخرج في صفير من بين شفتي المغلقتين. وسمع ذلك الصوت بوضوح، في الصمت الذي تبع كلمات الشيخ الأخيرة، ولكن لحسن الحظ ظن الجميع أن أحدا كان يسعل أو يبكي أو يرتعد، وكان هناك ما يكفي لاثارة كل ذلك لدى الجميع.

وكان يورج يقول الآن «حان الوقت، الذي سيسقط فيه كل شيء في الاعتباطية،حيث سيرفع الولد يده على والده، تكيد الزوجة لزوجها، ويرفع الزوج قضية على زوجته، وسيكون الأسياد بلا انسانية مع خدمهم ويتمرّد الخدم على أسيادهم، سينعدم إحترام المسنّين، وسيطالب الصبيان بالقيادة، وسيبدو العمل للجميع تعبا عديم الجدوى، وسترتفع من كل صوب الأناشيد لتعظيم الاباحة، والرذيلة، وحرية الأخلاق الماجنة. وبعد ذلك ترتكب جرائم اغتصاب، وزنى، وحنث بالايمان، وآثام ضد الطبيعة تتبعها موجة كبيرة من الشرور، والتنجيم، والشعوذة، وستظهر في السماء أجرام طائرة. وسيظهر من بين المسيحيين الصالحين أنبياء كذّابون، ورسل مزيّفون، ومفسدون، ودجّالون، سحرة ومغتصبون، بخلاء، حانثون وغشّاشون، وسيتحوّل الرعاة الى ذئاب، سيكذب الكهنة وسيرغب الكهنة في أشياء الدنيا، ولن يهرع الفقراء لاغاثة زعمائهم، وسيكون ذوو النفوذ دون رحمة وسيشهد العادلون على الجور. وستهز الزلازل كل المدن، وتعم الأوبئة كل المناطق، وستقتلع الأرض عواصف من الرياح وستصاب الحقول بالتلوث ويفرز البحر سوائل قاتمة، وستقع معجزات جديدة وغريبة على القمر، وتترك النجوم مدارها المعتاد، وستخترق السماء نجوم أخرى

مجهولة، سيسقط الثلج في الصيف ويشتدّ الحرّ في الشتاء. تكون اذاك قد وصلت أزمنة النهاية ونهاية الأزمنة. . . في اليوم الأول وفي ثالث ساعة سيرتفع في صفحة السماء صوت عظيم ومدوّ، وتتقدّم سحابة ارجوانية من ناحية الشمال، ثم رعود وبروق، يسقط على أثرها مطر من الدم على الأرض. وفي اليوم الثاني تقتلع الأرض من موضعها ويمرّ دخان نار كبيرة عبر أبواب السماء. وفي اليوم الثالث تُدوّى كلّ هاوية في الأرض من أركان الكون الأربعة. وستنفتح أبراج السماء، ويمتلئ الهواء بأعمدة من الدخان وتكون هناك رائحة كبريت كريهة الى حدود عاشر ساعة. في اليوم الرابع وفي أول الصباح سيصبح جوف الأرض سائلا ويبعث بانفجارات عظيمة وتسقط البناءات. في اليوم الخامس وفي سادس ساعة ستنعدم قوى النور وعجلة الشمس، ويشمل الظلام العالم الى المساء، ويكف القمر والنجوم عن أداء وظيفتهما. في اليوم السادس وفي رابع ساعة ستنشق قبة السماء من شرقيها الى غربيها وسيمكن للملائكة ان ترى الأرض من خلال الشق ويستطيع من على الأرض أن يرى الملائكة وهي تنظر من السماء. سيختفي اذاك كل العباد في الجبال للهروب من أنظار الملائكة العادلين. وفي اليوم السابع يصل المسيح يحفّ به نور أبيه وتقع عندئذ محاكمة الصالحين وصعودهم الى السماء، في طوبى الأجساد والأرواح الأزلية. ولكنكم يا إخواني المغرورين لن تتأملوا في ذلك هذا المساء! لن يحق للمذنبين أن يروا فجر اليوم الثامن، عندما يرتفع صوت عذب ورقيق من الشرق، وسط السماء، ويظهر ذلك الملاك الذي له السلطة على كل الملائكة الآخرين المقدسين، وسيتقدم معه كل الملائكة، جالسين فوق عربة من السحاب، يسيرون بسرعة عبر الفضاء يملؤهم الحبور، لتحرير المختارين الذين آمنوا، وكلّهم راضون لأن دمار هذه الدنيا سيكون قد تمّ! ولكن ليس لنا نحن، هذه الليلة، ان نبتهج لذلك! بل لنتأمل في الكلمات التي قالها الرب ليبعد عن نفسه من لا يستحق النجاة: ابعدوا عني، أيها الملاعين، إلى النار التي أعدّها لكم الشيطان وأتباعه! لقد أستحققتم ذلك لتنعموا به الآن! إبتعدوا عني، وانزلوا الى الظلمات الخارجية، في النار التي لا تخمد أبدا! أنا الذي أعطيتكم صورتكم، فأصبحتم أتباعا لغيري! أصبحتم خدم سيّد آخر، اذهبوا واسكنوا معه في الظلمات، معه هو، الثعبان الذي لا يهدأ ولا يستريح، وسط الأنياب المكشّرة! أعطيتكم آذانا لتصغوا بها الى الكتابات فأصغيتم الى كلمات الوثنيين! وأعطيتكم

لسانا لتعظموا به الرب، فاستعملتموه لأكاذيب الشعراء ولأحاجي المهرجين! أعطيتكم عيونا لتروا بها نور تعاليمي، فاستعملتموها للتحديق في الظلمات! انني ديّان انساني، ولكنني منصف. سينال كل منكم ما يستحق. كم أود أن أشفق عليكم، ولكنني لا أجد زيتا في أوعيتكم. أميل الى الرحمة بكم ولكن قناديلكم مدخّنة. ابتعدوا عني... هكذا سيتكلّم الرب. وهؤلاء... وربما نحن أيضا، سننزل الى العذاب الأزلي. باسم الرب، والابن والروح القدس».

فرد الجميع بصوت واحد «آمين»!

وفي صمت، خرج الجميع في صف واحد وذهب الرهبان الى النوم. واختفى الفرنشسكانيون ورجال البابا دون رغبة في الكلام، ينشدون العزلة والراحة. أما أنا فكان قلبي مغموما.

وقال لي غوليالمو بينما كنّا نصعد سلّم دار الضيافة: «الى الفراش يا أدسو. الليلة ليست صالحة للطواف. قد يمرّ بخاطر برناردو غي أن يسبق قيام الساعة مبتدئا بجسمينا المسكينين. لنحاول أن نكون حاضرين غدا عند صلاة الصبح، لأن ميكيلي والفرنشسكانيين الآخرين سيرحلون فورا بعدها».

فسألته بصوت خافت «سيرحل برناردو أيضا، وأسراه؟».

ـ دون شكّ، لم يبق شيء آخر يفعله هنا. سيحاول أن يسبق ميكيلي الى أفينيون، ولكن بحيث يصادف وصوله محاكمة القيّم، الذي هو فرنشسكاني، هرطيق ومجرم، ستضيئ محرقة القيم كالمشعل القرباني اللقاء الأول بين ميكيلي والبابا.

ـ وماذا سيكون من أمر سلفاتوري... والفتاة؟

ـ سيصاحب سلفاتوري القيم، اذ ينبغي أن يقدّم شهادته أثناء المحاكمة، ربما يتركه برناردو، مقابل تلك الخدمة، على قيد الحياة. أو ربما يتركه يفلت ثم يكلّف من يقتله. أو ربما يتركه حقيقة يذهب لحاله، لأن شخصا مثل سلفاتوري لا يهمّ رجلا مثل برناردو. من يدري، قد ينتهي به الأمر ان يصبح لصّا في بعض أدغال لونغدوق...

ـ والفتاة!

ـ لقد قلت لك، انها لحم محروق. ولكنها ستحرق قبل الآخرين، أثناء الطريق، لتعطي العبرة لبعض القرى المانويّة الموجودة طول الساحل. لقد سمعت

أن برناردو سيتلاقى مع زميله جاك فورنيي (تذكر هذا الاسم، في الوقت الراهن يحرق أَلبيجيين، ولكنه يطمح الى أعلى) وساحرة جميلة فوق كومة من الحطب ستزيد من هيبة هذا وذاك. . .».

فصحت به «ولكن ألا يمكن السعي لإنقاذهم. ألا يمكن لرئيس الدير أن يتدخّل؟».

ـ من أجل من؟ القيّم، المعترف بذنوبه؟ أو من أجل بائس مثل سلفاتوري؟ أم أنت تفكر في الفتاة؟

ـ فتجرأت وأجبت «حتى وان كان الأمر كذلك. في نهاية الأمر، هي الوحيدة بين الثلاثة، البريئة حقيقة، أنت تعرف أنها ليست ساحرة. . .».

ـ وتظن أن رئيس الدير، بعد كلّ ما حدث سيريد المجازفة بما تبقّى له من هيبة من أجل ساحرة؟

ـ ولكنه أخذ على عاتقه مسؤولية أوبارتينو!

ـ كان أوبارتينو راهبا من رهبانه وليس متهماً بشيء. ثم ما هذه الحماقات التي تقولها، كان أوبارتينو شخصية هامّة، كان يمكن لبرناردو أن يقتله غدرا.

ـ اذن كان القيم على حق، البسطاء يدفعون الثمن عوضا عن الآخرين، حتى عن أولائك الذين يتكلمون في صالحهم، حتى عن أمثال أوبارتينو وميكيلي، الذين يدفعونهم إلى الثورة بأفكارهم حول التوبة!» كنت يائسا، ولم أعتبر حتى أن الفتاة لم تكن راهبا فرنشسكانيا فتنه تصوّف أوبارتينو. ولكنّها كانت فلاحة، وكانت تدفع الثمن من أجل قصّة لا دخل لها فيها. فأجاب غوليالمو بحزن «هو كذلك. وان كنت تريد حقيقة بصيصا من العدل، سأقول لك أنه سيأتي يوم تمرّ فيه الكلاب الكبيرة، والبابا والامبراطور، ليتصالحوا، فوق أجساد الكلاب الصغيرة التي تناهشت لصالحهم. وسيعَامل ميكيلي وأوبارتينو كما تعامل اليوم فتاتك».

الآن عرفت أن غوليالمو كان يتنبأ بالغيب، أو بالأحرى كان يقيس قياسا منطقيا على أساس مبادئ الفلسفة الطبيعية. ولكن في تلك الآونة لم تعزني البتة لا تنبؤاته ولا قياساته المنطقية. الشيء الوحيد الذي كان مؤكدا هو أن الفتاة ستحرق. وكنت أحسّ بنفسي مسؤولا بقدر ما كان الآخرون مسؤولون، كما لو كانت تكفّر فوق المحرقة عن الذنب الذي ارتكبته أنا أيضا معها.

وانفجرت بالبكاء دون حياء وجريت الى حجرتي، حيث عضضت طول الليل فراشي وأنا أئن من إحساسي بالعجز، لأنه لم يكن مسموحا لي - كما كنت قد قرأت في ملاحم الفروسية مع رفاقي في دير «مالك» - حتى أن أشكو حالي مناديا باسم المحبوبة.

وما كنت أعرف اسم من أحببتها حبّي الدنيوي الوحيد ولا عرفته قطّ بعد ذلك.

اليوم السّادس

صَلاة أوّل الصّبح

وفيه «يجلس» الأمراء، ويسقط ملاخي صريعا على الأرض

نزلنا لصلاة أوّل الصبح. كان ذلك القسم الأخير من الليل، والذي يكاد يكون القسم الأول من النهار الوشيك، لا يزال يكسوه الضباب، وكانت الرطوبة عند اجتيازي الرواق، تنفذ إلى عظامي التي هرسها النوم المضطرب. ورغم أن الكنيسة كانت باردة فقد ركعت تحت تلك القباب بزفرة ارتياح، بملجأ من العناصر، يطمئنني دفء الأجساد الأخرى، والصلاة.

كان انشاد المزامير قد بدأ منذ قليل عندما أومأ اليّ غوليالمو مشيرا الى مقعد فارغ من بين المقاعد الموجودة قبالتنا، بين يورج وباتشيفكو دا تيفولي. كان مكان ملاخي، الذي يجلس، فعلا، دائما بجانب الأعمى. ولم نكن الوحيدين اللذين انتبها إلى ذلك الغياب. فقد لاحظت من ناحية نظرات رئيس الدير القلقة، اذ أصبح يعرف جيّدا ان تلك الغيابات تنبئ بأخبار مفجعة. ومن ناحية أخرى لاحظت اضطرابا غير معهود يهزّ يورج الشيخ. كان وجهه الذي لا يمكن في العادة تمييز ملامحه لعينيه البيضاوين الخاليتين من النور، غارقا لارباعه الثلاثة في العتمة، ولكن يديه كانتا مضطربتين وقلقتين. وفعلا، جسّ مرّات عديدة المقعد المحاذي له، كما لو كان يتفقد ان كان يشغله أحد. كان يقوم بتلك الحركة ويعيدها بانتظام، كما لو كان يأمل أن يظهر الغائب من حين لآخر. ولكنه يخشى أن لا يظهر.

فهمست الى غوليالمو «أين يكون حافظ المكتبة؟»

فأجاب «لقد أصبح ملاخي الشخص الوحيد الذي يملك الكتاب. ان لم يكن هو المجرم، فمن المحتمل أن لا يعرف الأخطار التي يحويها ذلك الكتاب. . .»

لم يكن هناك شيء آخر يمكن قوله. كان ينبغي أن ننتظر فقط. وانتظرنا،

نحن، ورئيس الدير الذي كان واصل التحديق في المقعد الخاوي، ويورج الذي كان لا يكفّ عن مساءلة العتمة بيديه.

عند انتهاء الفرض، ذكّر رئيس الدير الرهبان والمبتدئين انه يجب الاستعداد للقدّاس المولدي الكبير ولذا، وكما جرت العادة، سيستعمل الوقت الذي يسبق صلاة الحمد لتدرب المجموعة كلّها قصد تحقيق انسجام الأصوات لأداء الأناشيد المعدّة لتلك المناسبة. كانت تلك المجموعة من الرجال الورعين منسجمة فعلا، كجسم واحد وصوت واحد، وبمرور سنوات طويلة كانت تجد نفسها موحّدة في الانشاد، كأنها روح واحدة.

ثم دعا رئيس الدير لانشاد ترنيمة: «sederunt»

sedernut principes
et adversus me
loquebntur, iniqui.
Persecuti sunt me.
Adjuva me, Domine
Deus meus salvum me,
fac propter magnam misericordiam tuam. (*)

وتساءلت ان لم يكن رئيس الدير قد طلب انشاد تلك الترنيمة، وفي تلك الليلة بالذات بينما لا يزال رسل الأمراء حاضرين في الفرض، ليذكّر كيف أن رهبانيته طيلة قرون طويلة، كانت دائما مستعدّة لتحمّل اضطهادات ذوي السلطان، بفضل علاقتها المتميزة مع المولى، ربّ كل الجيوش. وفعلا أحدثت بداية الانشاد شعورا عظيما بالقوة.

عند المقطع الأول «se» بدأ لحن جماعي بطئ ومهيب يتألف من العشرات والعشرات من الأصوات التي ملأ صوتها الخافت الأروقة ورفرف فوق رؤوسنا،

---

* جلس الأمراء (*)
وخاطبوني متهجّمين،
حاقدين.
واضطهدوني.
كن في عوني يا رب،
اللّهم انقذني
واشملني برحمتك العظيمة.

ومع ذلك كان يبدو خارجا من أعماق الأرض. ولم ينقطع، لأنه بينما كانت أصوات أخرى تنسج، على ذلك المنوال العميق المتواصل، مجموعة من التنغيمات والألحان العذبة، كان هو يواصل - أرضيا - الهيمنة ولم ينقطع طيلة ما يكفي لمنشد ذي صوت منغّم وبطيء ليعيد اثنتي عشرة مرّة «Ave Maria». وتعالت فوق تلك القاعدة الحجرية والصلبة أصوات أخرى (وخاصّة أصوات المبتدئين) وكان ذلك الاطمئنان الذي كان يوحي به ذلك المقطع بالحاحه - كأنه صورة للديمومة السرمدية - قد حرّرها من كل خوف واذا بها ترفع سهاما، وأعمدة وأبراجا من أنغام منسابة ومرهفة الحسّ. وبينما كان قلبي يسكر من العذوبة في تموّج ألحان مختلفة تتدرّج وتمتد فتحتد وتتعالى، كانت تلك الأصوات تبدو وكأنها تقول لي إن الروح (روح المنشدين وروحي أنا الذي كنت أستمع اليهم) في عجزها عن تحمّل غزارة مشاعرها، تتمزّق لتعبّر من خلالها عن الفرح، والألم، والحمد، والحب، باندفاع صوتي عذب.

وفي الأثناء كانت الأصوات العميقة القرار في احتداد عنيد لايني، كما لو أن الحضور المنذر بالخطر من الأعداء وذوي السلطان مضطهدي شعب الرّب قد ظلّ معلقا فوقها، حتى بدا ذلك الصخب النبتوني الوحيد النبرة مغلوبا على أمره، أو على الأقل ممتثلا وأسيرا لنشوة الخصوم التسبيحية، ثم غاب في انسجام كلّي مهيب وفي نغمة آفلة.

وبعد أن تمّ بصعوبة تكاد تكون عنيدة نطق كلمة **sederunt** تعالت في الفضاء principes في هدوء ملائكي كبير. ولم أعد أتساءل من يكون أولئك المتجبرون الذين يتكلمون ضدّي (ضدّنا)، لقد اختفى وتلاشى ظل ذلك الشبح الجالس والدّاهم.

وظننت عند ذلك الحدّ أنّ أشباحا أخرى قد تبددت لأنني عندما نظرت من جديد إلى مقعد ملاخي، بعد أن استغرق النشيد انتباهي، رأيت وجه حافظ المكتبة بين وجوه المنشدين الأخرى، كأنه لم يغب أبدا. فنظرت الى غوليالمو ولمحت في عينيه ايماءة ارتياح، ونفس ذلك الارتياح قرأته في عيني رئيس الدير. أمّا يورج، فقد مدّ من جديد يده ولما اصطدمت بجسم جاره سحبها بسرعة. ولكنني لا أدري أية مشاعر تختلج في نفسه.

كانت المجموعة تنشد الآن بابتهاج «adjuva me» وكانت «a» شفافة تنبسط

بحبور عبر الكنيسة، وحتى «u» نفسها لم تكن تبدو عبوسة كتلك التي في sederunt، ولكنها كانت مليئة بحيوية مقدّسة. وكان الرهبان والمبتدؤون ينشدون مستقيمي الأجساد، كما تقتضي العادة في الانشاد، بحناجر طليقة، وكانت رؤوسهم موجهة إلى أعلى وكتبهم في مستوى أكتافهم تقريبا بحيث تمكن قراءتها دون أن تؤدي طأطأة رؤوسهم الى خروج الهواء بأقل اندفاعا من صدورهم. ولكن الساعة كانت لا تزال ليلية ورغم أن أبواق الحبور كانت ترنّ فقد كان ضباب النوم يغشى العديد من المنشدين، الذين ربما كانوا يتيهون في اصدار نبرة طويلة أو يطمئنون الى موجة النشيد نفسها، فكانوا يحنون أحيانا رؤوسهم وقد أغراهم النعاس. وعندئذ، وحتى في ذلك الظرف كان الموقظون ينيرون وجوه النيام، الواحد تلو الآخر، لاعادة اليقظة، فعلا، الى الجسم والروح.

وفعلا كان أحد أولائك الموقظين أول من رأى ملاخي يترنح بصفة غريبة، ويتمايل كأنه سقط فجأة في ضبابات النوم المعتمة، ضبابات نوم ربما لم يكن قد نعم به تلك الليلة. فاقترب منه مضيئا وجهه بالسراج وملفتا بتلك الطريقة انتباهي. ولكن حافظ المكتبة لم يتحرّك، ولما لمسه الراهب الموقظ سقط بكلّ ثقله الى الأمام. فسارع الموقظ لمساندته قبل أن يسقط على الأرض.

وتباطأ الانشاد، ثم انطفأت الأصوات وحدثت جلبة قصيرة. فاندفع غوليالمو على الفور من مكانه وهرع الى حيث كان باتشيفكو دا تيفولي والموقظ يمدّدان ملاخي على الأرض وهو فاقد الوعي.

ووصلنا اليهما تقريبا في نفس الوقت الذي وصل فيه رئيس الدير، وعلى نور السراج رأينا وجه البائس. لقد سبق وأن وصفت هيئة ملاخي ولكنه كان تلك الليلة وتحت ذلك النور صورة للموت نفسه. كان أنفه مهزولا، وعيناه غارقتين، وصدغاه محفورين، وأذناه بيضاوين ومنقبضتين وشحماتهما منقلبتين نحو الخارج، وأصبحت جلدة وجهه يابسة، مشدودة وصلبة وأصبح لون خدّيه مصفرّا يصبغه ظل داكن. وكانت عيناه لا تزالان مفتوحتين ونفس مرهق كان يخرج من تينك الشفتين الملتهبتين. فتح فمه، وعندما أنحنيت من وراء غوليالمو الذي كان هو الآخر منحنيا فوقه، رأيت لسانا أصبح أسوداً يتحرّك بين صفّي الأسنان. فأسنده غوليالمو وقد احتضنه من كتفيه، ونشف بيده رداءً من العرق كان يزيد جبهته امتقاعا. وأحسّ ملاخي بلمسة، أو بحضور، فحدّق أمامه، بالتأكيد دون أن

يرى، وبلا شك دون أن يعرف من كان يوجد أمامه. ورفع يدا مرتعشة فأمسك بغوليالمو من صدره، وجذبه اليه الى أن كاد الوجهان يلتصقان ثم نطق بضعف وبتهدّج بضع كلمات: «لقد قال لي ذلك... صحيح... له قوّة ألف عقرب...».

فسأله غوليالمو: «من قال لك ذلك؟ من؟».

وحاول ملاخي أن يتكلم من جديد ولكن رعدة قويّة انتابته وسقط رأسه الى الوراء. وفقد وجهه كلّ لون وكلّ علامة للحياة. كان قد مات. نهض غوليالمو، ورأى إلى جانبه رئيس الدير، ولم يقل له كلمة. ثمّ رأى برناردو غي وراء رئيس الدير فقال له: «من قتل هذا الرجل، يا سيّد برناردو، بما أنك عثرت على المجرمين وكللتهم بالأغلال؟»

فأجاب برناردو: «لا تسألني أنا. انني لم أقل أبدا انني سلّمت الى العدالة كلّ الأشرار الذين يجولون عبر هذا الدير. لو بامكاني، لفعلت ذلك عن طيب خاطر». ثم نظر الى غوليالمو «ولكني أترك الآخرين لصرامة... أو لتسامح السيد رئيس الدير المفرط»، قال ذلك بينما صمت رئيس الدير وقد امتقع وجهه. ثم ابتعد.

وفي تلك الأثناء سمعنا سقسقة، ونحيشا غليظا، كان يورج، الذي انحنى على مركعه، بينما كان يشدّه راهب بعد أن وصف له ما حدث. وقال بصوت متقطّع «آه يا الهي، لن يكف ذلك أبدا... اللهم اغفر لنا جميعا!».

وانحنى غوليالمو لحظة أخرى على الجثة. وأمسك الميت من معصميه قالبا نحو النور راحة يديه. كانت أطراف أصابع اليد اليمنى الثلاث الأولى داكنة.

صلاة الحـمد

وفيه يعيّن قيّم جديد ولكن لا يعيّن حافظ مكتبة جديد

أكانت قد حانت صلاة الحمد؟ أم كان ذلك قبلها أو بعدها؟ منذ ذلك الحين فقدت الاحساس بالوقت. ربما تكون قد مرّت ساعات، ربما أقلّ، وجثة ملاخي ممدّدة فوق منصة يحيط بها رفاقه في شكل مروحة. وكان رئيس الدير يعطي تعليماته للجنازة الوشيكة. وسمعته ينادي اليه بانشيو ونيكولا دا موريموندو. وقال أنه في ظرف لا يتجاوز اليوم فقد الدير حافظ المكتبة، والقيّم. وقال لنيكولا «ستقوم أنت بالمهام التي كان يقوم بها ريميجيو. أنت تعرف عمل الكثيرين هنا في الدير. ضع أحدا مكانك لمراقبة المصاهر، وتعهّد بالضروريات الأكيدة لهذا اليوم، في المطبخ وفي قاعة الأكل. ستكون معفى من أداء الفروض. اذهب». ثم توجه الى بانشيو « لقد عينتك مساء أمس بالذات مساعدا لملاخي. افتح قاعة المكتبة وتأكد من أن لا يصعد أحد وحده الى المكتبة». ولمّا نبهه بانشيو بتخوّف أنه لم يعلمه أحد بعد أسرار المكان، حدّق فيه رئيس الدير بصرامة مجيبا «لم يقل أحد إنك ستتعلمها اسهر على أن لا يتوقف العمل وأن يحياه الجميع على أنه صلاة على أرواح الرفاق الذين ماتوا. . . وعلى أولائك الذين سيموتون. ليشتغل كلٌ على الكتب التي تسلّمها، ومن أراد فبامكانه أن يراجع الفهرس. لا غير. أنت معفى من فروض صلاة الستّار، لأنك في تلك الساعة يجب أن تغلق كلّ شيء».

فسأله بانشيو «وكيف سأخرج؟»

ـ هذا صحيح، سأغلق أنا الأبواب السفلى أثر العشاء. اذهب.

وخرج معهما، متحاشيا غوليالمو الذي كان يحاول التحدث اليه. وبقي فريق صغير في الرواق، أليناردو، باتشيفكو دا تيفولي، ايمارو داليسّاندريا وبترو دا سانتالبانو. وكان ايمارو يبتسم بسخرية ثم قال: «لنشكر الاله، كنا نخاف بعد

موت الألماني أن يأتينا حافظ مكتبة آخر أكثر همجيّة».

فسأل غوليالمو: «من تظنّون سيسمّى في مكانه؟»

فابتسم بيترو داسانتالبانو بغموض «بعد كلّ ما حدث هذه الأيام، لم يعد حافظ المكتبة هو المشكلة بل رئيس الدير...».

فردّ عليه باتشيفكو «اسكت». وقال أليناردو، بنظرة الغارق دائما في تأملاته «سيرتكبون مظلمة أخرى... كما حدث في زمني أنا. يجب التصدّي لهم».

فسأله غوليالمو «لمن»؟. ولكن باتشيفكو أخذه من ذراعه ليساره واصطحبه بعيدا عن الشيخ، نحو الباب ثم قال له:

ـ «أنت تعرف... اننا نحب أليناردو كثيرا. انه يمثل بالنسبة الينا التقاليد القديمة وأفضل أيام الدير... ولكنه يتكلم أحيانا دون أن يعرف ما يقول. كلنا منشغلون بخصوص حافظ المكتبة الجديد. يجب أن يكون أهلا لذلك، ناضج الفكر وحكيما. هذا كل ما في الأمر».

فسأله غوليالمو «أينبغي أن يكون يعرف اليونانية؟»

ـ والعربية، هكذا يقتضي العرف، وذلك ما تتطلبه وظيفته. ولكن الكثيرين منّا لهم هذه الخصال. بكلّ تواضع أنا منهم. وبيترو، وايمارو...

ـ بانشيو يعرف اليونانية.

ـ بانشيو لا يزال حديث السن. لا أدري لماذا اختاره ملاخي أمس كمساعد له، ولكن...

ـ أكان أدالمو يعرف اليونانية؟

ـ لا، حسب ظنّي، بل أكيد لا.

ـ ولكن فينانسيو كان يعرفها. وبرينغاريو أيضا. حسن، اني أشكرك.

ثم خرجنا إلى المطبخ لتناول بعض الأكل. فسألته:

ـ لماذا تستخبر عن كل من يعرف اليونانية؟

ـ لأن كلّ أولائك الذين يموتون وأصابعهم مسودّة يعرفون اليونانية. اذن لن نخطئ لو انتظرنا أن تكون الجثة المقبلة من بين من يعرف اليونانية. وأنا ضمنهم. أما أنت فقد نجوت».

ـ وما رأيك في كلمات ملاخي الأخيرة؟

ـ انك سمعتها. العقارب. البوق الخامس ينبئ من بين الأشياء الأخرى بخروج

جراد يعذّب البشر بشوكة شبيهة بشوكة العقرب. أنت تعرف ذلك. وأخبرنا ملاخي أن أحدهم تنبأ له بذلك. قلت «ينبئ البوق السادس بخيول لها رؤوس أسود يخرج من أفواهها نار ودخان وكبريت، ويركبها فرسان تغطيهم دروع نارية وأسمانجونية وكبريتية».

ـ أشياء كثيرة. ولكن يمكن أن تقع الجريمة المقبلة قرب اصطبلات الخيول. يجب مراقبتها. ولنتهيأ للبوق السابع. شخصان آخران اذن، من سيكون المعنيّان الأكثر احتمالا؟ ان كان الهدف هو سرّ قاعة «أقصى افريقيا» فسيكون من يعرفه معنيًا. وحسب علمي لا يوجد إلاّ رئيس الدير. إلاّ إذا كانت المؤامرة لشيء آخر. لقد سمعت منذ حين أن أحدا يتآمر لاسقاط رئيس الدير، ولكن أليناردو استعمل في كلامه صيغة الجمع...

فقلت «ينبغي اعلام رئيس الدير».

ـ بماذا؟ بانهم سيقتلونه؟ لا أملك أدلة مقنعة. انني بصدد التحري كما لو كان القاتل يفكّر مثلي. ولكن، لو كان يتبع رسما آخر؟ أو أنه، في نهاية الأمر لا يوجد هناك قاتل؟

ـ ماذا تعني؟

ـ لا أدري بالضبط. ولكن كما قلت لك ينبغي تصوّر كل الأنساق المحتملة، وفي آن واحد اختلالها جميعاً.

اليوم السادس

أولى

وفيه يقص نيكولا أشياء عديدة أثناء زيارة قبو الكنز

كان نيكولا دا موريموندو، بصفته القيم الجديد، يعطي التعليمات للطباخين، الذين كانوا بدورهم يمدّونه بمعلومات حول أعمال المطبخ. وكان غوليالمو يريد التحدّث اليه، فاستمهلنا بضع دقائق، ثم قال أنه ينبغي أن ينزل الى قبو الكنز لمراقبة أعمال تنظيف المذاخر التي لا تزال بعهدته، وانه سيكون لديه هناك وقت أكثر للتحادث.

وفعلا دعانا بعد قليل الى أن نتبعه، ودخل الى الكنيسة ثم مرّ وراء المذبح الكبير (بينما كان الرهبان يهيؤن منصة في جناح الكنيسة للسّهر بجانب جثمان ملاخي)، وأنزلنا سلّما صغيرا وجدنا أنفسنا عند أسفله في قاعة قبابها منخفضة جدا تحملها أعمدة ضخمة من الحجارة المقصّبة. كنّا في قبو الكنز حيث تحفظ ثروات الدير، وهو مكان يغار عليه رئيس الدير غيرة شديدة ولا يفتح إلاّ في مناسبة خاصة ولضيوف ذوي اعتبار كبير.

كانت هناك، منتثرة في كل أرجاء القاعة، صناديق ذات أحجام متفاوتة، وكان نور المشعلين (الذي أشعلهما مساعدين أمينان يعملان مع نيكولا) يجعل ما كان بداخله، من أشياء رائعة الجمال، لامعا. أنسجة مذهبة لتزيين المذابح، تيجان من الذهب مرصّعة بالاحجار الكريمة، علب من معادن مختلفة نقشت عليها صور قصصية، رسوم على الفضة، وأشياء من العاج. وأرانا نيكولا بافتنان انجيل قدّاس يُبرز تجليده صفحات رائعة من الميناء تكوّن مجموعة من الأقسام المنتظمة والمختلفة تفصلها خيوط من الذهب وتشدّها، عوضا عن المسامير، أحجار كريمة. وأرانا محرابا رقيقا له عمودان من اللازورد ومن الذهب يؤطران مشهدا يمثل «النزول الى الضريح» صوَر بنقش دقيق على الفضة يعلوه صليب من الذهب

مرصّع بثلاثة عشرحجرا من الماس فوق خلفية من الجزع المختلف الألوان، بينما كان المقدّم الصغير محزّما بالعقيق والياقوت. ورأيت حامل صور مزدوجا من العاج والذهب مقسما الى خمسة أجزاء، تحمل خمسة مشاهد من حياة المسيح، وفي الوسط حمل رمزي مصنوع من حجيرات من الفضة المذهّبة ومن عجين الزجاج، وهي الصورة الوحيدة المتعددة الألوان فوق خلفية في بياض الشمع.

وكان الاعتزاز ينير وجه نيكولا وحركاته، عندما كان يرينا تلك التحف. وأثنى غوليالمو على جمال ما رأى منها، ثم سأل نيكولا أيّ نوع من الرجال كان ملاخي.

فأجاب نيكولا «انه لسؤال غريب. أنت أيضا كنت تعرفه».

ـ نعم، ولكن ليس بما فيه الكفاية. لم أعرف أبدا الأفكار التي كان يكتمها. . . و. . . . ـ ثم تردد في إصدار أحكام على شخص مات منذ قريب ـ . . . ان كانت لديه أفكار».

بلّل نيكولا اصبعه بريقه ومرّره على صفحة بلّور لم تنظّف جيدا، وأجاب بنصف ابتسامة، دون أن ينظر في وجه غوليالمو «أنت لست في حاجة لالقاء الأسئلة. . . صحيح، يبدو ملاخي، حسب قول الكثيرين، غارقا في الأفكار، ولكنه كان على العكس رجلا بسيطا جدا. حسب أليناردو كان رجلا أحمق».

ـ أليناردو يحقد على شخص لحادثة وقعت منذ زمن، عندما رفضوا تكليفه بمهمة حافظ المكتبة.

ـ لقد سمعت أنا أيضا بذلك، ولكنها قصّة قديمة، تعود الى ما يزيد عن الخمسين عاما. عندما وصلت أنا كان حافظ المكتبة هنا روبارتو دا بوبيّو، وكان المسنّون يتهامسون بمظلمة ضدّ أليناردو، ولكني لم أرد آنذاك أن أتحرّى الأمر، لأن ذلك كان يبدو لي قلة احترام للشيوخ ولم أكن أسمح لنفسي بالاغتياب. كان لربارتو مساعد، مات، وعوضه سمّي ملاخي، الذي كان آنذاك حديث السّن جدا. وكان الكثيرون يقولون انه غير كفء، وان كان يؤكد أنه يعرف اليونانية والعربية ولم يكن ذلك صحيحا، لقد كان فقط قردا ماهرا ينسخ بأحرف جميلة المخطوطات في تينك اللغتين، ولكن دون معرفة ما كان ينقل. كان يقال أن حافظ المكتبة يجب أن يكون له علم أكثر من ذلك. وأليناردو، الذي كان اذّاك رجلا في عنفوانه، قال أشياء مريرة عن تلك التسمية. وكان يلمّح الى أن ملاخي

عيّن في تلك الوظيفة ليخدم مصالح خصمه، ولكنني لم أفهم من كان يعني. هذا كلّ ما في الأمر. لقد قيل دائما أن ملاخي كان يدافع عن المكتبة كأنه كلب حراسة، ولكن دون معرفة ما كانت تحتوي. ومن جهة أخرى تهامسوا أيضا بشأن برينغاريو عندما اختاره ملاخي مساعدا له. كانوا يقولون انه هو أيضا لم يكن أكثر مهارة من سيّده، وانه كان فقط دسّاسا. وقيل أيضا... ولكنك قد تكون سمعت أنت أيضا ذلك اللغط... ان هناك علاقة مريبة بين ملاخي وبينه... أشياء قد طواها الزمن، ثم تعرف أنهم تهامسوا حول برينغاريو وأدالمو، وكان النّاسخون الشّبان يقولون أن ملاخي كان، في صمت، فريسة لغيرة شديدة... ثم كانت هنالك تهامسات حول علاقات ملاخي ويورج أيضا! ولكن ملاخي، كحافظ المكتبة كان ينبغي أن يختار، حسب العرف، رئيس الدير وان يتخذه له كاهن اعتراف، بينما يعترف كل الآخرين لدى يورج (أو لدى أليناردو، ولكن الشيخ يكاد يكون مجنونا)... حسن، كان يقال أنه بالرغم من كلّ ذلك كان ملاخي يتحادث كثيرا مع يورج، كما لو كان رئيس الدير يتحكّم في روحه، ولكن يورج كان ينظّم جسده، وحركاته وعمله. ومن ناحية أخرى أنت تعرف ذلك، وربما رأيت ذلك: عندما يريد أحدهم معلومة عن كتاب قديم منسي، لا يسأل ملاخي، بل يورج. كان ملاخي يراقب الفهرس ويصعد إلى المكتبة، ولكن يورج... كان يعرف ماذا يعني كلّ عنوان...

ـ لماذا يعرف يورج كل هذه الأشياء عن المكتبة؟

ـ انه أقدمنا، بعد أليناردو، انه هنا منذ صغره. ربما ناهزت سنه الثمانين، ويقال انه فقد نظره منذ أربعين سنة على الأقل، أو ربما أكثر...

ـ كيف فعل ليصبح بتلك الدرجة من العلم قبل العمى؟

ـ آه، هناك أساطير تدور حوله. يبدو أن العناية الالهية قد تولّته منذ كان طفلا، وهنالك في كاستيليا كان يقرأ كتب العرب وكتب العلماء اليونانيين وهو لا يزال أمرد. وحتى بعد العمى، والى الآن، يجلس ساعات طوالا في المكتبة، ويطلب أن يقرأ له أحد الفهرس، وان تحمل اليه الكتب ويقرأ عليه أحد المبتدئين بصوت عال ساعات وساعات. انه يتذكّر كل شيء، ليس فاقد الذاكرة مثل أليناردو. ولكن لماذا تلقي عليّ كلّ هذه الأسئلة؟

ـ الآن وقد مات ملاخي وبرينغاريو، من تبقّى ممّن يعرفون أسرار المكتبة؟

ـ رئيس الدير، ويجب عليه أن يلقنها إلى بانشيو. . . ان أراد. . .

ـ لماذا ان أراد؟

ـ لان بانشيو حديث السّن، لقد سمّي مساعدا عندما كان ملاخي لا يزال حيّا، والمساعد ليس كحافظ المكتبة. تشاء التقاليد أن يصبح حافظ المكتبة رئيس الدير من بعد. . .

ـ آه، هو ذا اذن. . . لذا فوظيفة حافظ المكتبة هي المبتغاة الى هذه الدرجة. ولكن هل كان أبّوني اذن حافظ المكتبة؟

ـ كلاّ، أبوني لا. لقد سمّي قبل وصولي الى هنا، منذ حوالي ثلاثين سنة. قبله كان رئيس الدير رجلا يدعى بالولو دا ريمني، كان رجلا غريبا تحكى عنه قصص غريبة: يبدو أنه كان يقرأ الكتب بنهم، كان يحفظ عن ظهر قلب كل كتب المكتبة، ولكنه كان يشكو من نقص غريب، لم يكن يستطيع الكتابة وكانوا يسمونه «أبّاس أغرافيكوس». . . وأصبح رئيس الدير في سن مبكرة جدا، ويقّال أنه كان يحظى بمساندة ألجيرداس دا كلوني، المسمّى «دكتور كوادراتوس». . . ولكن كلّ هذا كان لغطا قديما يتلفظ به الرهبان. باختصار، أصبح باولو رئيس الدير، وأخذ روبارتو دا بوبيو مكانه من المكتبة، ولكنه كان مصابا بداء مكين قضى عليه شيئا فشيئا، وكان الجميع يعلمون أنه لن يمكنه ادارة أمور الدير، وعندما اختفى باولو دا ريمني. . .

ـ مات؟

ـ كلاّ، اختفى، لا أدري كيف، ذهب يوما في سفر ولم يعد، ربما قتله بعض اللصوص أثناء السفر. . . بايجاز عندما اختفى باولو لم يكن باستطاعة روبارتو أن يأخذ مكانه ووقعت دسائس غامضة. يقال إنّ أبّوني كان ابن سفاح لسيّد هذه البقاع، وترعرع في دير فوسّانوفا وكان يقال انه عندما كان شابّا حديث السن حضر وفاة القديس توما عندما مات هنالك وتكلّف هو بحمل تلك الجثة الضخمة نازلا بها سلّم برج ضيق جدّاً حتى انه كان يبدو مستحيلا أن تمرّ الجثة منه. . . تلك هي مفخرته، كما يتهامس بها الخبثاء هنا. . . المهم أنّه عيّن رئيسا للدير حتى وان لم يكن قبل ذلك حافظاً للمكتبة، وأطلعه أحدهم، أظنه روبارتو، على أسرار المكتبة.

ـ ولماذا وقع الاختيار على روبارتو؟

ـ لا أدري. لقد حاولت دائما أن لا أبحث كثيرا في هذه الأشياء: أديرتنا أمكنة مقدّسة، ولكن تحاك حول رئاسة الدير أحيانا مكائد شنيعة. كنت أهتمّ بزجاجي وبمذاخري وما كنت أحبّ أن أحشر نفسي في هذه الحكايات. ولكنك تفهم الآن لماذا ان كان رئيس الدير يريد تلقين بانشيو أسرار المكتبة، سيكون كما لو عيّنه خليفته، ذاك صبي قليل التبصّر، وهو نحوي شبه همجي، من أقصى الشمال، ماذا يعرف عن هذا البلد، عن الدير وعن علاقاته بأسياد هذه المنطقة...

ـ ولكن ملاخي هو الآخر لم يكن ايطاليا، ولا برينغاريو، ومع ذلك عيّنا للاهتمام بالمكتبة.

ـ هذا أيضا أمر غامض. يتهامس الرهبان بأن الدير تخلّى منذ نصف قرن عن تقاليده... ولذا، قبل ما يزيد عن الخمسين عاما، كان أليناردو يطمح الى منصب حافظ المكتبة. لقد كان حافظ المكتبة دائما ايطاليا، فهذه الأرض لا تنقصها العقول العظيمة. ثم أنظر....» وهنا تردّد نيكولا كما لو كان لا يريد قول ما كان على وشك أن يقوله «انظر، ملاخي وبرينغاريو قد ماتا، ربما حتى لا يتوليا رئاسة الدير».

ثم انتفض، وحرّك يده أمام وجهه كأنه يطرد أفكارا غير طاهرة، ثم رسم علامة الصليب «ماذا أقول؟ انظر، في هذا البلد تقع منذ سنوات طويلة أشياء مخزية، حتى في الأديرة وفي البلاط البابوي وفي الكنائس... صراعات للإستحواذ على السلطة، اتهامات بالهرطقة لانتزاع المال من بعض الأشخاص... يا للفظاعة، انني أفقد الثقة بالجنس البشري، أرى مؤامرات ودسائس بلاطية في كل مكان. وهكذا أصبح هذا الدير وكرا للأفاعي، ظهر عن طريق سحر خفيّ في تلك التي كان ينبغي أن تكون خزانة أعضاء مقدّسة. انظر، انظر ألى ماضي هذا الدير!».

وكان يشير الى الكنوز المتناثرة حولنا، مخلّفا وراءه الصلبان وأشياء أخرى مقدسة، وحملنا لنرى المذاخر التي كانت تمثل مصدر اعتزاز ذلك المكان.

ـ انظر، هذه شوكة الرمح التي طعنت ضلوع المخلّص! وأشار الى علبة من الذهب، غطاؤها من البلّور، توجد بداخلها، فوق وسادة صغيرة من الارجوان، قطعة حديد مثلثة الشكل، قد نخرها الصدأ، ولكن عملا طويلا بالزيوت وبالشمع أعادها إلى لمعان ساطع. إلاّ أن ذلك كان شيئا قليلا. لأنني رأيت في علبة أخرى

من الفضّة المرصّعة بأحجار الجمشت، وكان جانبها الأمامي شفافا، قطعة من الخشب المكرم متأتية من الصليب المقدس، جلبته الى ذلك الدير الملكة إيلينا نفسها، والدة الامبراطور قسطنطينو، عندما ذهبت للحج في الأماكن المقدّسة وحفرت هضبة الجلجلة والضريح المقدّس وبنت فوقهما كنيسة كاتدرائية.

ثم أرانا نيكولا أشياء أخرى ولا يمكنني ذكرها كلّها لوفرة عددها ولندرتها. كان هناك، في قنينة على فراش من الورود الصغيرة الجافة، جزء من اكليل الشوك، وفي صندوق آخر، دائما فوق غطاء من الأزهار المجففة، خرقة مصفرّة من سماط «العشاء السرّي». وكان هناك أيضا كيس القدّيس متّى، بحلقاته الفضية، وفي اسطوانة، مشدودة بشريط بنفسجي قد نخره الزمن ومختوما بالذهب، عظم من ذراع القدّيسة آنّا. ورأيت، روعة الروائع، يعلوها ناقوس من الزجاج فوق وسادة حمراء مطرّزة بالدّرر، قطعة من معلف بيت لحم، وشبرا من الرداء الأرجواني الذي كان للقديس يوحنّا الانجيلي، وسلسلتين من تلك التي كبلت الحواري بطرس في رومة، وجمجمة القديس أدالبارتو، وسيف القديس ستيفانو، وظنبوب القديسة مارغريتا، واصبع القديس فيتالي، وضلع القديسة صوفيا، وذقن القديس أيوبانو، والجزء الأعلى من لوح كتف القديس كريزوستومو، وخاتم خطوبة القديس يوسف، وسنّ المعمدان، وعصا موسى، وتطريز صغير، متآكل ونحيف جدا من ثوب زفاف مريم العذراء. وأشياء أخرى لم تكن بقايا قديسين ولكنها كانت تمثل مع ذلك شواهد لمعجزات ولمخلوقات غريبة متأتية من بقاع نائية، جلبها الى الدير رهبان سافروا الى أقصى حدود الدنيا: حرذون وأفعى محشوّان بالتبن، وقرن وحيد القرن، وبيضة وجدها ناسك داخل بيضة أخرى، وقطعة من المنّ التي غذّت اليهود في الصحراء، وسن حوت، وجوزة هند، وعضد دابّة عاشت قبل الطوفان، وناب فيل من العاج، وضلع دلفين، ورفات أخرى لم أتعرّف عليها، وربما كان صندوقها أثمن منها، وبعضها (اذا ما اعتبرنا كيفية صنع صناديقها، من فضة قد اسوّد لونها) كان قديما جدا، ومجموعة لا تنتهي من شظايا عظام، وقطع من القماش واللوح والمعدن والزجاج، وقنانيّ مليئة بمساحيق داكنة، علمت أن واحدة منها كانت تحوي بقايا محترقة من سدوم، وأخرى تحوي جيرا من أسوار أريحا. كلها أشياء، حتى أحقرها، يهب من أجلها أيّ امبراطور أكثر من اقطاع، وتمثل رصيدا عظيم المهابة

ولكن أيضا ثروة مادية حقيقية بالنسبة إلى الدير الذي كان يستضيفنا.

وكنت أتابع طوافي مندهشا، بينما كان نيكولا قد كفّ الآن عن وصف الأشياء، التي كانت على كلّ حال موصوفة كلّ واحدة بورقة، وأصبحت حرّا في التجول دون هدف غير ذلك الذخر من الروائع التي لا يمكن تقدير ثمنها، وأنا أنظر باعجاب الى تلك الأشياء التي كانت أحيانا تظهر في وضح النور وأحيانا تتراءى لي في العتمة حين يتحوّل مساعدا نيكولا بمشعليهما إلى نقطة أخرى من القبو. كنت مفتونا بتلك الغضاريف المصفرّة، الروحانية والمنفرة في آن واحد، الشفّافة والغامضة، وبتلك الخرق من أثواب عهود غابرة، قد فقدت لونها وانسلّت خيوطها، ملفوفة أحيانا في قنينة كأنها مخطوط شاحب اللون، وبذلك الفتات من المواد الممتزجة بالقماش الذي يصلح فراشا لها، فتات مقدس لحياة كانت في ما مضى حيوانية (وعقلانية) والآن وهي سجينة في أوعية من بلّور أو من معدن تحاكي في حجمها الضئيل جرأة الكنائس الكاتدرائية المشيّدة بالحجارة بأبراجها وبسهامها، وكأنها تحولت هي أيضا الى مادّة معدنية. فهل تنتظر أجساد القديسين، وهي مدفونة هكذا، البعث؟ من هذه الشظايا ستتكوّن من جديد تلك الأجساد التي ستستعيد في اشعاع الرؤية الالهية، كل حاسياتها الطبيعية وستحس، كما كان يكتب بيبارنو حتى بـ «أدنى الفوارق بين العطور». ونبهتني من تأملاتي لمسة على كتفي. كان غوليالمو، الذي قال لي: «انني ذاهب. سأصعد الى قاعة الكتابة. هناك شيء أريد الاطلاع عليه...»

فقلت «ولكن لن يمكنك أن تحصل على أي كتاب. لقد تلقى بانشيو أوامر...».

ـ يجب أن أفحص الكتب التي كنت بصدد قراءتها في يوم فارط، ولا تزال كلها في قاعة الكتابة فوق طاولة فينانسيو. ابق أنت هنا ان أردت وهذا القبو هو خلاصة رائعة للمجادلات التي استمعت اليها هذه الأيام. والآن عرفت من أجل ماذا يتناحر زملاؤك هؤلاء، عندما يطمحون لمنصب رئيس الدير.

ـ ولكن، أتصدّق ما لمح به اليك نيكولا؟ كانت الجرائم اذن من أجل الحصول على المنصب؟

ـ لقد قلت لك انني لا أريد حاليّا أن أجازف بإعلان أي افتراض بصوت جهير لقد قال نيكولا أشياء كثيرة. وجلب بعضها اهتمامي ولكنني اذهب الآن لتتبّع أثر

آخر. أو ربما هو نفس الأثر، ولكن من وجهة أخرى. ولا تفتتن كثيرا بهذه المذاخر. لقد رأيت الكثير من قطع الصليب في كنائس أخرى. لو كانت كلها أصلية، لكان سيّدنا قد صلب، لا على لوحتين متقاطعتين، بل على غابة كاملة».

فأجبت مستنكرا منه ذلك «سيدي!».

ـ هو كذلك يا أدسو. وهناك كنوز أكثر ثراء. رأيت منذ مدّة في كاتدرائية كولونيا جمجمة يوحنّا المعمدان وهو في سن الثانية عشرة.

فهتفت باعجاب «حقا؟» ثم ساورني الشك «ولكن المعمدان قتل في سنّ أكبر!».

فأجاب غوليالمو بجدية «تكون الجمجمة الأخرى في كنز اخر».

لم أكن أفهم أبدا متى كان يمزح. في بلادي عندما يمزح أحد، يقول شيئا ثم يضحك محدثا ضجة كبيرة، بحيث يشارك الجميع في المزاح. ولكن غوليالمو كان يضحك فقط عندما يقول أشياء جادّة، بينما يحافظ على وقاره عندما ينطق بأشياء من الواضح انه قالها على سبيل المزاح.

ثــالثــة

وفيه يجد أدسو نفسه، وهو يستمع لنشيد «يوم الغضب»، داخل حلم أو رؤيا كما شئنا أن نقول.

حيّا غوليالمو نيكولا ثم صعد الى قاعة الكتابة. وكنت أنا قد شاهدت الكنز بما فيه الكفاية، وقررت أن أذهب الى الكنيسة للصلاة ترحما على روح ملاخي. لم أحبّ قط ذلك الرجل الذي كان يخيفني، ولا أخفي أنني ظننته لمدة طويلة مرتكب كلّ الجرائم. الآن عرفت أنه ربما كان انسانا مسكينا، تضنيه شهوات لم يقدر على ارضائها، وعاء من طين وسط أوعية من حديد، قد أصبح حزينا لأنه كان حائرا وأصبح صامتا ومراوغا لأنه كان يعلم أنه ليس لديه شيء يقوله. كنت أحسّ نحوه بشيء من الندم وظننت أن الصلاة على مصيره الغيبي يمكن أن تهدئ من إحساسي بالذنب.

كان ينير الكنيسة ضياء شاحب وضعيف ويسيطر عليها جثمان الهالك وتسكنها همسات الرهبان المنتظمة بينما كانوا يتلون فرض الأموات.

كنت قد حضرت عدة مرات في دير «مالك» وفاة زميل من الزملاء. لا يمكنني أن أقول أنه ظرف مبهج، ولكنه كان مع ذلك هادئا، تسوده الطمأنينة ويغمره شعور بالعدالة. كانت تتعاقب زياراتنا إلى حجرة المحتضر لمواساته بكلمات جميلة، وكل منا يقول في دخيلته كم المحتضر محظوظ، لأنه بصدد تتويج حياة فاضلة وأنه بعد قليل سيلتقي الملائكة في الحبور الذي لا نهاية له. وجزء من تلك الطمأنينة، وعبير تلك الأمنية المقدسة يصل الى المحتضر، الذي يموت في النهاية مطمئنا. كم كانت ميتات تلك الأيام الأخيرة مختلفة. لقد رأيت أخيرا من قريب كيف تموت ضحية عقارب «أقصى إفريقيا» الشيطانية. وأكيد ان فينانسيو وبرينغاريو قد ماتا بنفس الطريقة، باحثين عن تسكين لألميهما في الماء، وقد

أصبح وجهاهما في نفس حالة وجه ملاخي. . .

جلست في آخر الكنيسة وانكمشت على نفسي لمقاومة البرد. أحسست بقليل من الدفء، وحركت شفتي لمصاحبة أصوات الزملاء المصلين. وكنت أتبعهم دون أن أتفطن أو لا أكاد الى ما كانت تقوله شفتاي، ورأسي يتمايل وعيناي تنغلقان. ومرّ وقت طويل، أظن أنني نمت خلاله واستيقظت على الأقل ثلاث مرّات أو أربعاً. ثم أخذت المجموعة تنشد «يوم الغضب» وأخذني انشاد المزامير كالمخدّر. ونمت تماما. أو ربما يكون من الأفضل أن أقول انني سقطت منهكا، في همود مضطرب، منطويا على نفسي كمخلوق لا يزال سجين بطن أمه. وفي ضباب الروح ذلك وجدت نفسي في مكان ليس في هذه الدنيا، وعشت رؤيا، أو حلما لا أدري.

كنت أدخل عبر سلم ضيق في دهليز سفلي، كما لو كنت أدخل الى قبو الكنز، ولكنني أصل، وأنا أنزل دائما، الى قبو أوسع، كانت مطابخ الصّرح. كانت دون شك المطابخ، ولكنها لم تكن تعج فقط بالأفران وبالقصاع، ولكن أيضا بمنافخ الحدادة وبالمطارق كما لو تجمّع فيها حدّادو نيكولا. كانت كلّها وميضا أحمر بالقلاّيات والقدور والطناجر التي كانت تغلي وتبعث الدخان بينما كانت تصعد من سطح السوائل التي تملؤها فقاعات كبيرة تطقطق وتتفرقع بعد ذلك محدثة صوتا أصمّ ومتواصلا. وكان الطبّاخون يحرّكون سفافيد في الهواء بينما كان الرهبان المبتدؤون، الذين تجمّعوا كلهم هناك، يقفزون للظفر بالفراخ وبالدواجن الأخرى المشبّكة في ذلك الحديد الحامي. ولكن حذوهم، كان الحدادون يضربون المطارق بشدّة حتى أن الفضاء كله كان يصمّ، وسحابات من الشرارات كانت تصعد من السنادين مختلطة بتلك التي كان يبعثها الفرنان.

لم أكن أفهم ان كنت في الجحيم أو في فردوس، كما يمكن أن يتخيّله سلفاتوري، يسيل بالمرق ويختلج بالنقانق. ولكن لم يكن لي الوقت لأتساءل أين أجد نفسي، لأن طغمة من الرجال القصار، من الأقزام القباح، وبرؤوس كبيرة كأنها قدور، دخلت تعدو وفي اندفاعها حملتني معها الى عتبة قاعة الأكل وأجبرتني على الدخول.

كانت القاعة معدّة لحفل. سجوف كبيرة ورايات كانت تتدلّى على الجدران، ولكن الصور التي كانت تزخرفها لم تكن تلك التي تستدعي خشوع المؤمنين أو

التي تعظّم أمجاد الملوك. بل كانت تبدو مستوحاة من حواشي أدالمو، ومن بين رسومه كانت تنقل الأقل هولا والأكثر مجونا: أرانب ترقص حول شجرة النعيم، أنهار تسبح فيها أسماك ترمي بنفسها تلقائيا في مقلاة تمسك بها قردة لا بسة زي أساقفة طهاة، وحوش ذوات بطن سمين ترقص حول قدور يتصاعد بخارها.

كان يجلس الى وسط المائدة رئيس الدير، بلباس الحفل في ثوب أرجواني كبير ومطرّز، ممسكا بفرشاته وكأنها صولجان. بجانبه، كان يورج يشرب من ابريق كبير من الخمر، والقيّم، بلباس مثل لباس برناردو غي، كان يقرأ بخشوع، من كتاب في شكل عقرب، حياة القديسين وفقرات من الأنجيل، ولكنها كانت حكايات تقول أن المسيح كان يمازح الحواري* قائلا له إنه حجارة وإنه على تلك الحجارة العديمة الحياء التي تتدحرج عبر السهل سيؤسس كنيسته، أو حكاية القديس جيرولامو الذي كان يشرح الكتاب المقدّس قائلا ان الرّب كان يريد أن يكشف عن عجز القدس. وعند كل جملة يقولها القيّم كان يورج يضحك ويضرب بجمع يديه على المائدة، ويصيح «ستكون أنت رئيس الدير المقبل، يا بطن الرّب!» كان يقول فعلا ذلك، ليغفر لي الاله.

وعند اشارة لعوبة من رئيس الدير دخل موكب العذارى. كان صفّا مشعّا من الاناث بأثواب فاخرة، وفي وسطهن تهيأ لي من أول وهلة اني أرى أمّي، ثم تفطنت الى الانخداع، لأنها كانت دون شك تلك الفتاة المرهوبة كجيش بألوية. إلا أنها كانت تحمل تاجا من الدرر البيضاء على صفين، وشلالان من الدرر كانا ينحدران على جانبي وجهها مختلطين بصفين آخرين من الدرر يتدليان على صدرها وماس كبير كأنه برقوق كان يتدلّى من كلّ درّة. وزيادة على ذلك كان يتدلّى من كلّ اذن صفّ من اللآلئ الزرقاء يلتقيان في شكل درع عند أسفل عنقها، الذي كان أبيض ومستقيما كأنه برج لبناني. وكان معطفها في لون الارجوان وتمسك كأسا من الذهب مرّصعة بالماس علمت، ولا أدري كيف، أنه يحتوي على الدهان القاتل الذي سرق يوما من سفيرينو. وكانت تتبع تلك المرأة، الجميلة كالفجر، اناث أخريات، تلبس احداهن معطفا أبيض مطرّزا فوق ثوب داكن يزينه بطرشيلان من الذهب مزركشان بزهور الحقول. وكانت الثانية ترتدي

---

* يعني بطرس [Petrus أو Pierre] (المترجم)

معطفا دمشقيا أصفر، فوق ثوب وردي شاحب مزركش بأوراق خضراء وبمربعين كبيرين مطرزين في شكل متاهة داكنة. وكانت الثالثة ترتدي معطفا أحمر وثوبا زمرديا نسجت عليه حيوانات صغيرة حمراء، وكانت تحمل بين يديها بطرشيلا مطرزا وأبيض اللون. ولم أنتبه للباس الأخريات لأنني كنت أحاول أن أفهم من هنّ اللاتي يرافقن الفتاة، التي أصبحت الآن تشبه مريم العذراء. وكأنما كانت كل واحدة منهن تحمل في يدها، أو تخرج من فمها كتابة، عرفت انهن راعوث، سارّة، وسوزانّا ونساء أخريات من الكتابات المقدسة.

عند ذلك الحدّ صاح رئيس الدير «ادخلوا، يا أولاد العاهرة!» ودخلت الى القاعة مجموعة من الشخصيات المقدسة، تعرفت عليها جيّدا، مصطفة بنظام في لباس بسيط ورائع، وفي وسط المجموعة كان يجلس سيدنا على عرش، ولكنّه كان في نفس الوقت آدم، يلبس معطفا أرجوانيا يشدّه على الكتفين اكليل كبير أحمر وأبيض من ياقوت ودرّ، وعلى رأسه تاج يشبه تاج الفتاة، وفي يده كأس أكبر مليئة بدم الخنازير. وشخصيات قديسة أخرى كنت أعرفها جيدا، وسأتحدث عنها فيما بعد، كانت تحيط به في شكل تاج، مع مجموعة من نبّالي ملك فرنسا، بلباس تارة أخضر وتارة أحمر يحملون دروعا زمردية رسمت فوقها طغراء المسيح وتقدّم قائد تلك المجموعة لتحية رئيس الدير، مادّا اليه الكأس، وقال :
Sao ko kelle terre per kelle fini ke ki kontene, trenta anni le possette parte sancti Benedicti

فأجاب رئيس الدير : «Age primum et septimum de quatuor» وأنشد الجميع «In finibus Africae, amen» ثم جلسوا.

وعندما تفرّق الجمعان، وبأمر من رئيس الدير أخذ سليمان يعدّ المائدة فجلب يعقوب واندراوس حزمة من التبن وتنصب آدم في الوسط واضطجعت حواء على ورقة ودخل قابيل يجرّ محراثا وجاء هابيل بسطل ليحلب برونيلو ودخل نوح دخول الظافر وهو يجدف فوق المركب وجلس ابراهيم تحت شجرة وتمدّد اسحاق فوق مذبح الكنيسة الذهبي، وجثا موسى على حجرة، وظهر دانيال على منصّة جنائزية وذراعه في ذراع ملاخي واستلقى طوبيا على فراش وارتمى يوسف فوق مدّ وتمدد بنيمين على كيس، ثم، ولكن هنا أصبحت الرؤيا مشوشة، كان داوود على جبل صغير ويوحنّا على الأرض وفرعون على الرمل (بطبيعة الحال، قلت لنفسي، ولكن لماذا؟) ولعازر على الطاولة، وعيسى على حافة بئر وزكّا

على أغصان شجرة ومتّى على مقعد دون ظهر، وراحاب على مشاقة وراعوث على التبن وتيكلا على رف شباك (ومن الخارج ظهر وجه أدالمو الشاحب ينبّهنا الى أنها قد تسقط، الى أسفل في قاع المنحدر) وسوزانا في المبقلة ويهوذا بين القبور وبطرس على المنبر ويعقوب على شبكة وايليّا على سرج وراحيل على حزمة من الحطب، وبولس الحواري، بعد أن وضع سيفه، كان ينصت الى عيسُو الذي كان يغمغم، بينما أيّوب كان يتأوّه فوق الزبل وجرت لإغاثته رِفقة حاملة ثوبا، وجيوديتا غطاء، وهاجر كفنا، وبعض الرهبان المبتدئين كانوا يملؤون قدرا كبيرة يتصاعد منها البخار وقفز من داخلها فينانسيو دا سالفيماك، محمّر اللون، وأخذ يفرّق نقانق خنزير.

وكانت قاعة الأكل تكتظ أكثر فأكثر والجميع يأكلون بنهم، وحمل يونان الى المائدة قرعا وأشعيا خضرا، وحزقيال توتا، وزكّا أزهار جميزة، وآدم ليمونا، ودانيال ترمسا، وفرعون فلفلا، وقابيل خرشفا، وحواء تينا، وراحيل تفاحا، وأنَنَايا برقوقا كبيرا كأنه أحجار ماس، وليئة بصلا، وهارون زيتونا، ويوسف بيضة، ونوح عنبا، وشمعون نوى خوخ، بينما كان عيسى ينشد «يوم الغضب» ويصبّ بجذل على كل الأطعمة خلاً يعصره من اسفنجة صغيرة أخذها من رمح أحد نبّالي ملك فرنسا.

وعند ذلك الحد قال رئيس الدير وقد ثمل «يا أبنائي، يا نعاجي أنتم كلكم، لا يمكن أن تتعشوا بلباس مثل هذا كأنكم شحّاذون، اقتربوا، اقتربوا»، وضرب الأول والسابع من بين الأربعة فخرجا ممسوخين كأنهما شبحان من قاع مرآة، وانفجرت المرآة الى شظايا، وسقطت منها على الأرض، في كل قاعات المتاهة، أثواب مختلفة الألوان مرصّعة بالأحجار، كلها بالية وممزّقة. وأخذ زكّا ثوبا أبيض وابراهيم أرقشاً، ولوط كبريتيا، ويونس اسمنجونيا وتيكلا قرمزيا، ودانيال أنمراً، ويوحنا متقزّحاً، وآدم مفرّى، ويهوذا نقود فضية، وراحاب ارجوانيا، وحواء في لون شجرة الخير والشر، ومنهم من أخذه مبرقشا، أو رصاصيا، أو برفيريا أو أردوازيا، أو أسمر ذهبيا، أو مريّقا، أو نحاسيا مسحّما وصفيرا وفي لون النار والكبريت، وكان عيسى يتبختر في ثوب متموّج اللون، ويتهم يهوذا ضاحكا بأنه لا يعرف أبدا المزاح في حبور خلّي البال.

وعند ذلك الحد، وبعد أن خلع عنه العدستين الصالحتين للقراءة ألهب يورج

عوسجا مشتعلا، وجلبت لذلك سارة الحطب، جمعه يافث، وأفرغه اسحاق وقطعه يوسف وبينما كان يعقوب يفتح البئر ودانيال يجلس قرب البحيرة، كان الخدم يحملون ماء ونوح خمرا، وهاجر قربة وابراهيم عجلا ربطته راحاب الى عمود وكان عيسى يمدّ الحبل وايليا يوثق ساقيه: ثمّ علّقه ابشالوم من شعره، ومدّ بطرس السيف وقابيل قتله، وهيرودس صبّ دمه، وسام رمى بالمصارين والروث، ويعقوب وضع الزيت، ومولِيسّادون الملح، وانطيوكو وضعه على النار، ورفقة طهته، وحواء أول من تذوقه وأصابها منه وجع، ولكن آدم قال لها لا تغتمي وهو يضرب على كتفي سفيرينو الذي كان ينصح باضافة بعض الأعشاب الفوّاحة. وعندئذ قطع عيسى الخبز، وفرّق السمك، وكان يعقوب يصيح لأن عيسُو أكل كل عدسه، واسحاق يلتهم وحده جديا طبخ في الفرن ويونان حوتا كبيرا مسلوقا، وعيسى بقي صائما أربعين يوما وليلة.

في الأثناء كان الجميع يدخلون ويخرجون وأيديهم محمّلة بكل أنواع الطرائد. وكان بنيامين يأخذ أوفر قسط منها ومريم أفضل جزء، بينما كانت مرْتا تتشكّى أنه عليها هي دائما أن تغسل كلّ الصحون. ثم تقاسموا العجل الذي أصبح في الأثناء ضخما، فأخذ يوحنّا الدماغ وأبشالوم الرقبة وهارون اللسان وشمشون الفكّ وبطرس الأذن وأولوفارني الرأس (مع يوحنا) وليئة العجز وشاول العنق ويونان الكرش وطوبيا المرّراة وحواء الضلع ومريم الثدي واليزابيتا البطن وموسى الذنب ولوط الساقين وحزقيال العظام وفي الأثناء كان يلتهم حمارا والقديس فرنشسكو ذئبا وهابيل نعجة وحواء شيقا والمعمدان جرادة وفرْعون أخطبوطا (بطبيعة الحال، قلت لنفسي، ولكن لماذا؟) وكان داود يأكل ذراحا، مرتميا على صبيّة سوداء ومليحة بينما كان شمشون يعضّ مؤخرة أسد وتيكلا تهرب وهي تصيح لأن عنكبوتا أسود وكثيف الشعر كان يلاحقها.

من الواضح أنهم أصبحوا الآن كلهم سكارى، وبعضهم كانت تزلّ قدماه على الخمر، وبعضهم يسقط في القدور فلا تبرز منه إلاّ ساقاه المتقاطعتان كأنهما عمودان، وكانت أصابع عيسى كلّها سوداء وهو يمدّ أوراق كتاب ويقول خذوا وكلوا، هذه ألغاز سينفوزيوس ومن بينها لغز السمك الذي هو ابن الرّب ومخلّصكم. وكانوا كلّهم يشربون، عيسى نقيع زبيب ويونس خمرا مارسيكية، وفرعون خمراً سورانتينية (لماذا؟) وموسى خمر قصب واسحاق خمر جزيرة

كريت وهارون خمرا ادريانية وزكّا خمرا محروقة وتيكلا نبيذا مساورا ويوحنا خمرا البانيّة وهابيل خمرا كمبانيّة ومريم خمرا سنينية وراحيل خمرا فلورنسية.

وكان آدم يقرقر مبطوحا والخمر يخرج من ضلعه ونوح يلعن في النوم حام وأولوفارنو يغطّ دون أن يتفطّن لشيء ويونان كان غارقا في النوم وبطرس ساهرا الى صياح الديك واستيقظ عيسى فجأة على صوتي برناردو غي وبرتراندو دل بودجيتو الذين كانا يقترحان حرق الفتاة، وصاح «يا أبت، ان أمكن مدّ لي تلك الكأس أتجرعها!» ومنهم من كان يسيئ خلط الشراب، ومن كان يحسن الشرب، ومن كان يموت وهو يضحك ومن كان يضحك وهو يموت، ومن كان يحمل قنانيّ ومن كان يشرب في كؤوس الآخرين. وكانت سوزّانا تصيح انها لن تبيح أبدا جسدها الجميل الأبيض الى القيم والى سلفاتوري مقابل قلب ثور حقير، وكان بيلاطُس يطوف في قاعة الأكل كنفس حائرة طالبا ماء ليديه، والاخ دولتشينو، بريشة فوق قبّعته يحمل الماء اليه، ثم يفتح ثوبه ضاحكا بسخرية ويظهر أسفل بطنه محمرّا بالدم، بينما كان قابيل يسخر منه محتضنا مارغريتا دا ترانتو الجميلة: فيأخذ دولتشينو في البكاء ويذهب ليضع رأسه فوق كتف برناردو غي مسميّا اياه البابا الملائكي، وأوبارتينو يواسيه بشجرة الحياة، وميكيلي دا تشيزينا بكيس من الذهب، والعذارى يرششنه بأدهان وآدم يقنعه بعضّ تفاحة قطفت لحينها.

وعندئذ انفتحت قباب الصرح ونزل من السماء روجي باكون فوق آلة طائرة، «يقودها رجل واحد». ثم عزف داود على القيثارة ورقصت سالومي ببراقعها السبعة وعند سقوط كل برقع كانت تنفخ في أحد الأبواق السبعة وتكشف أحد الأختام السبعة الى أن بقيت فقط المرأة المتسربلة بالشمس. وكانوا كلهم يقولون انهم لم يروا قطّ ديرا بهيجا كهذا، وكان برينغاريو يرفع ثوب كل واحد، رجالا ونساء، ويقبّلهم على أدبارهم. ثمّ بدأ الرقص، كلّ بزي مختلف: فهذا عيسى معلّم ويوحنا حارس وبطرس مصارع ونمرود صياد ويهوذا واش وآدم جنان وحواء حائكة وقابيل سارق وهابيل راع ويعقوب حاجب وزكريا كاهن وداود ملك، وجوبال شاعر، وجياكومو صياد سمك، وانطيوكو طاه، ورفقة ساقية ومولیسّادون أبله ومارثا خادمة وهيرودس مجنون أعمى وطوبيا طبيب ويوسف نجار ونوح سكران واسحاق فلاح وأيوب حزين ودانيال قاض وتامار بغيّ ومريم سيّدة وكانت

تأمر الخدم بان يأتوا بخمر أخرى بما أن ابنها كان لا يريد أن يحول الماء إلى خمر.

ودخل عند ذلك رئيس الدير غاضبا غضبا شديدا قائلا انه نظّم حفلة بتلك الروعة ولم يهده أحد شيئا: وعندئذ تنافس الجميع لتقديم الهدايا والكنوز اليه، ثور ونعجة وأسد وجمل ووعل وعجل وفرس، وعربة شمسية، وذغن القديس أيوبانو، وذنب القديسة موريموندا، ورحم القديسة أروندلينا، ورقبة القديسة بورغوزينا منحوتة كأنها كأس، في سن الثانية عشرة، ونسخة من «مخمّس سليمان». ولكن رئيس الدير أخذ يصيح أنهم بفعلهم ذلك كانوا يحاولون أن يلهوه، وانهم كانوا في الحقيقة ينهبون قبو الكنز، حيث كنّا نوجد كلنا الآن، وان كتابا نفيسا جدا، يتحدث عن العقارب وعن الأبواق السبعة، قد سرق ونادى نبالي ملك فرنسا كي يفتشوا كل المشتبه فيهم. فوجدوا، أمام خجل الجميع، نسيجا مختلف الألوان فوق هاجر وختما ذهبيا فوق راحيل ومرآة من الفضة في حضن تيكلا ومحقنا للشراب تحت ذراع بنيامين وغطاء من الحرير بين أثواب جيوديتا ورمحا في يد لونجينو وزوجة رجل آخر بين ذراعي ابيمالك. ولكن حدث أسوأ من ذلك عندما وجدوا ديكا أسود عند الفتاة، التي كانت سوداء ورائعة الجمال مثل قط من نفس اللون، ووسموها بأنها ساحرة ورسولة زائفة، وما كان إلاّ أن ارتمى الجميع عليها لمعاقبتها. المعمدان قطع رأسها وهابيل ذبحها وآدم طردها ونَبُوخَذْ نصر رسم بيد ملتهبة علامات بروجيّة فوق ثدييها، وإيليا خطفها فوق عربة من نار ونوح غطسها في الماء ولوط حوّلها إلى تمثال من الملح وسوزانا اتهمتها بالفجور ويوسف خانها مع امرأة أخرى واناانيا اقحمتها في أتون وشمشون قيّدها وبولس جلدها وبطرس صلبها ورأسها الى أسفل وستيفانو رجمها ولورانسو أحرقها فوق المشواة وبارتولون نزع جلدها ويهوذا وشى بها والقيم حرقها وبطرس كان ينكر كل شيء. ثم أرتمى الجميع على ذلك الجسد يلقون فوقه الغائط ويضرطون فوق وجهها ويبولون فوق رأسها ويتقيؤون فوق ثديها وينتفون شعرها ويضربون عجيزتها بمشاعل ملتهبة. وأخذ الآن جسد الفتاة، الذي كان رائعا وعذبا، يتجرّد من لحمه وينقسم الى شظايا كانت تتفرق بين مذاخر القبو وصناديقه البلورية والذهبية. أو بالأحرى لم يكن جسد الطفلة هو الذي يملأ القبو، بل شظايا مذاخر القبو، التي في دورانها، كانت تلتئم لتكون جسد الفتاة، الذي

أصبح الآن شيئا معدنيا، ثم تفكك من جديد وتلاشى، ذرّات غبار مقدسة من قطع جمعها الكفر المجنون. فكأن جسما ضخما تفتتت خلال آلاف السنين أجزاؤه، وان هذه الأجزاء أخذت مكانها لتحتل كلّ القبو، بإشعاع أكثر ولكن دون أن تكون مختلفة عن معظمة الرهبان الموتى، وكما لو كانت الهيئة الجوهرية لجسد الانسان نفسه، الذي هو روعة الخلق، تفتتت إلى أشكال عرضية متعددة ومتفرقة، لتصبح هكذا صورة لنفس نقيضه، شكلا لم يعد مثاليا بل أرضيا، لغبار وشظايا نتنة، لا تستطيع أن تعني أكثر من موت ودمار.

لم أعد أرى الآن أشخاص الوليمة، والهبات التي قدموها، كما لو ان كل ضيوف الوليمة قد أصبحوا الآن في القبو محنطين كل بقاياه، وقد أصبح كل واحد صورة مجازية شفّافة من نفسه، راحيل عظم، ودانيال سن، وشمشون فك، وعيسى خرقة ثوب ارجواني. كما لو أنه، في ختام المأدبة، عندما تحوّل الحفل الى مجزرة الفتاة، تحولت تلك المجزرة الى مجزرة كونية وشاهدت أنا نتيجتها النهائية، تلك الأجساد (ماذا أقول! الجسم الأرضي والدنيوي بأكمله لأولئك المشاركين في الأكل النهمين والمتعطشين) التي استحالت جسدا واحداً ميتا، مقطعا ومعذبا كجسد دولتشينو اثر التعذيب، وقد أصبح كنزاً متعفناً ومتألقاً، ممدّدا على طوله كجلد حيوان معلّق، ولكنه كان لا يزال يحمل الأحشاء وكل الأعضاء متحجرة، مع الجلد، وحتى تقاسيم الوجه نفسها. الجلد بكل ثناياه وتجعيداته وآثار جروحه، بسهوله المخملية، وبغابات الشعر، شعر الجلد، والصدر والعورة، التي أصبحت حريرا دمشقيا فاخرا، والثديين، والأظافر، والمواد القرنية تحت القدم، وخيوط الجفون، ومادة العيون المائية، وهبرة الشفتين، وفقرة الظهر النحيفة، وهندسة العظام، وقد تحول الكل الى طحين رملي، ومع ذلك دون أن يفقد أي منها صورته وموضعه المناسب، والساقان مفرغتان ورخوتان كأنهما جوربان، ولحمهما موضوع بجانبهما كأنه حلّة قداس بكلّ زخرفة العروق القرمزية، وكومة الأحشاء المنقوشة، وياقوت القلب الكثيف والمخاطي والصف اللؤلؤي من الأسنان المتساوية والمتناسقة في شكل قلادة، مع اللسان كأنه قرط وردي وأزرق، والأصابع مصفقة كالشموع، وختم السرة الذي يعيد ربط خيوط زربية البطن المبسوطة... ومن كل جهة، من جهات القبو، كان ذلك الجسد الضخم المقسّم الى صناديق مخلفات والى مذاخر، ومع ذلك كان

من جديد مركّبا في كليّته الضخمة واللاعقلانية، يضحك الآن لي ويسخر مني، ويهمس إليّ ويدعوني الى الموت، وكان ذلك الجسد نفسه الذي كان يأكل أثناء العشاء وينط بفجور، والذي يبدو لي الآن على العكس، قد تجمّد في لامساسية هلاكه الأصمّ والأعمى. وكان أوبارتينو يهمس اليّ وهو ماسك بذراعي ويكاد يغرس أظافره في لحمي «انظر، انه نفس الشيء، ذلك الذي كان يتباهى بجنونه ويلتذ بلهوه، هو ذا الآن معاقب ومجازى، ومحرّر من اغراءات الشهوات، جمّده الأزل، وقد سلّم الى الجليد السرمدي كي يحفظه ويطهره، وخُلص من الفساد عبر انتصار الفساد، لأنه لا شيء يقدر أن يحول الى غبار ما هو غبار ومادّة معدنية، «والموت هو راحة المسافر ونهاية كلّ تعب».

ولكن دخل فجأة سلفاتوري الى القبو، ملتهبا كأنه شيطان شقي، وصاح «أيها المغفل! ألا ترى أنه الوحش الكبير، بهيموث الذي يتحدث عنه سفر أيوب! ممّ تخاف يا سيدي الصغير؟ هي ذي فطيرة الجبن المرفوس!» وفجأة اضيء القبو بوميض سحمر واذا به المطبخ من جديد ولكنه كان يشبه أكثر قاع بطن كبيرة، مخاطيا ولزجا، وفي وسطه وحش أسود كالغراب له ألف يد، مشدود بسلاسل الى مشواة كبيرة، وكان يمدّ أعضاءه تلك ويمسك بأولائك الموجودين حوله، وكالجلف الذي يعصر عنقود العنب عندما يحس بالعطش، كان ذلك الوحش الكبير يضغط بقوة على الذين أمسك بهم فيهشمهم جميعا بيديه، يكسر ساق هذا ويدق رأس ذاك، ثم يلتهمهم وبعد ذلك يتجشأ نارا أنتن من الكبريت. ولكن، يا للسر الرائع، لم يكن ذلك المشهد يروّعني وفاجأت نفسي وأنا أنظر بألفة إلى ذلك الوحش «الوحش الطيب» (هكذا فكّرت) الذي، في نهاية الأمر، لم يكن الا سلفاتوري، لأنني عن جسده البشري الفاني وعن معاناته وفساده، كنت أعرف كل شيء ولا أخاف من شيء، وفعل في ضياء ذلك اللهيب الذي أصبح يبدو لي ودّيا وأليفا، رأيت من جديد كلّ ضيوف المأدبة، وقد أعيدوا الى صورتهم، وهم ينشدون مؤكدين أن كل شيء سيبدأ من جديد، وبينهم الصبيّة، كاملة ورائعة، تقول لي «لا بأس، لا بأس، سترى أنني سأعود بعد ذلك أجمل من قبل، اتركني فقط اذهب لاحترق قليلا فوق المحرقة، ثم سنتلاقى هنا في الداخل!» وتريني، ليسامحني الرب، فرجها حيث دخلت ووجدت نفسي في مغارة جميلة جدا، كانت تبدو لي وادي عين الذهب الهادئ، تترقرق فيه المياه وتنبت فيه غلال

وأشجار محمّلة بفطائر الجبن المرفوس. وكان الجميع يشكرون رئيس الدير على تلك المأدبة الرائعة، ويعبّرون له عن ودّهم وحبورهم بالركل والرفس، ثم خلعوا عنه ثوبه، وألقوه على الأرض وأخذوا يضربون قضيبه بالقضبان، بينما كان هو يضحك ويترجّاهم أن يكفوا عن دغدغته. وعلى صهوات خيول كانت تنفث من خياشيمها سحبا كبريتية دخل رهبان العيش الفقير يحملون في أحزمتهم أكياسا مليئة بالذهب، وبواسطتها يحوّلون الذئاب الى حملان والحملان الى ذئاب ويتوجونهم أباطرة بمصادقة مجلس الشعب الذي كان يسبّح بعظمة الرب. وكان عيسى يصيح وهو يحرّك اكليل الشوك. «فلتمحقهم التكشيرات البشعة ولتعذبهم الأشداق الأكّالة». ثم دخل البابا جيوفاني ساخطا على الفوضى وهو يقول «على هذا النسق لا أدري ماذا سيكون مآلنا!». إلاّ أن الجميع كانوا يسخرون منه، ثم خرجوا يتقدمهم رئيس الدير مع الخنازير للبحث عن الكمأ في الغابة. وكنت على وشك أن أتبعهم عندما رأيت غوليالمو في ركن وهو خارج من المتاهة، وكان يمسك بيده المغناطيس الذي كان يجذبه بسرعة نحو الشمال. فصحت به «لا تتركني يا سيدي! أريد أن أرى أنا أيضا ماذا يوجد في «أقصى إفريقيا»!»

فأجابني غوليالمو وقد صار بعيدا «لقد رأيته!».

وأفقت بينما كان الرهبان ينشدون في الكنيسة كلمات النشيد الجنائزي الأخيرة:

«يوم بكاء سيكون
يوم يبعث الانسان الآثم
من النار
في يوم الحساب.
ارحمه يا رب!
عيسى، يا سيدنا الرحيم
امنحنا السلام».

وهو دليل على أن رؤيتي، ان لم تدم، في سرعتها الخاطفة، ككل الرؤى ما يكفي كي يقول المرء «آمين»، فقد دامت أقل بقليل من انشاد «يوم الغضب».

بَعد ثالثة

وفيه يفسّر غوليالمو لادسو حلمه

خرجت من بوّابة الكنيسة وأنا ذاهل ووجدت نفسي أمام جمع صغير: كان الفرنشسكانيون يتأهبون للرحيل، وقد نزل غوليالمو لتوديعهم.

فانضمت الى التوديعات والى المعانقات الأخوية. ثم سألت غوليالمو متى سيرحل الآخرون، مع الأسرى. فقال انهم ذهبوا منذ نصف ساعة، بينما كنا في قبو الكنز، أو ربما، هكذا فكّرت، بينما كنت أحلم.

فأحزنني ذلك لحظة ثم تمالكت نفسي. من الأفضل أن يكون الأمر كذلك. ما كان باستطاعتي أن أتحملّ رؤية المحكوم عليهم (أعني القيّم البائس المسكين وسلفاتوري... ودون شكّ الفتاة أيضا) وهم يجرّون بعيدا الى الأبد. ثم كنت مضطربا جدا من جرّاء حلمي حتى ان شعوري نفسه كان وكأنما تجمّد.

وبينما كانت قافلة الفرنشسكانيين تتجه نحو باب الخروج، بقيت أنا وغوليالمو أمام الكنيسة، كلانا كئيب، وان كان لاسباب مختلفة. ثم قرّرت ان أقص الحلم على استاذي. وبالرغم من ان الرؤيا كانت مختلفة الأشكال ولا منطقية، فقد كنت أتذكرها بوضوح عجيب، صورة صورة، وحركة حركة وكلمة كلمة. وهكذا رويتها اه دون أن أهمل شيئا، لأني كنت أعرف أنه غالبا ما تكون الأحلام رسائل غامضة يمكن لذوي العلم أن يقرأوا فيها تنبؤات جلية.

وانصت اليّ غوليالمو في صمت ثم سألني «أتعرف بماذا حلمت؟» فأجبته بحيرة «بما قلت لك...».

ـ أكيد، لقد فهمت. ولكن أتعرف أن أغلب ما قصصت عليّ قد كتب من قبل. لقد أدخلت أشخاص وأحداث هذه الأيام في إطار تعرفه من قبل، لان حبكة الحلم كنت قد قرأتها في مكان ما، أو أن احدهم قصّها عليك وانت طفل،

في المدرسة، أو في الدير. انه «العشاء السري» للقديس شبريانو.

بقيت لحظة متحيّرا. ثم تذكرت. صحيح! ربما كنت قد نسيت العنوان، ولكن مَنْ مِن بين الرهبان الراشدين أو الصبيان المشاغبين مَنْ لم يبتسم أو لم يضحك من الرؤى المختلفة، نثرا كانت أم شعرا، لهذه القصّة التي تنتمي إلى أحد تقاليد طقوس عيد الفصح، والى «ألعاب الرهبان» التقليدية؟ يحجّرها أو يستنكرها أشدّ معلّمي الرهبان المبتدئين صرامة، ولكن لا يوجد مع ذلك دير لم يتناقلها فيه الرهبان همسا، يتنوعون في تلخيصها وفي اعادة صيغتها، بينما كان البعض ينسخها بورع، مؤكدا انها تخفي تحت حجاب المجون تعليما اخلاقيا خفيا، ويشجّع آخرون على نشرها قائلين انه يمكن للشبّان من خلال اللهو أن يحفظوا بسهولة أكثر عن ظهر قلب أحداث التاريخ المقدس. وقد كتبت منها صيغة شعرا للبابا يوحنّا الثامن، تحمل الاهداء التالي: «أحبّ أن أمزح، وافهمني بابا جيوفاني، عندما أمزح. وإن أردت، بوسعك أن تضحك أنت أيضا». ويقال أن شارل الأصلع نفسه اقتبس منها للمسرح، في شكل سر مقدس فكاهي جدا، صيغة بالقافية لتسلية وجهاء بلاطه عند العشاء:

«من الضحك سقط غوديريكو

واندهل زكريا

وألقى أنستازيو درسا

وهو مستلق على فراش».

وكم من توبيخ نالني من المعلمين، عندما كنت، أنا ورفاقي نذكر منها بعض الفقرات. وكنت أذكر شيخا راهبا من دير «مالك» كان يقول إن رجلا ورعا مثل شيبريانو لا يمكن أن يكون كتب شيئا بتلك البذاءة، محاكاة كهذه مدنسة للكتابات المقدسة، أحق بكافر أو بمهرج منها بشهيد قدّيس... لقد نسيت منذ سنين تلك الألعاب الصبيانية. ما الذي جعل ذلك «العشاء السري» يظهر من جديد، وبذلك الوضوح، في حلمي؟ لقد ظننت دائما أن الأحلام رسائل الهية، أو على الأكثر تمتمات سخيفة للذاكرة النائمة حول الأشياء التي حدثت خلال النهار. والآن أتفطّن أنه يمكن للمرء أن يحلم أيضا بالكتب، واذن يمكنه أن يحلم بأحلام.

وقال غوليالمو «بودّي لو كنت أرتميدور لأفسّر حلمك تفسيرا صحيحا، ولكن يبدو لي أنه حتى بدون علم ارتميدور من السهل فهم ما حصل لك. لقد عشت

هذه الأيام، أيها الصبيّ المسكين، سلسلة من الأحداث يبدو فيها أن كلّ القواعد المستقيمة قد انحلت. وهذا الصباح طفت على سطح ذهنك النائم ذكرى نوع من الكوميديا وضع فيها العالم، ولو لأغراض مختلفة، رأسه الى أسفل. لقد أدخلت فيها ذكرياتك الأخيرة، وقلقك، وتخوفاتك. لقد أنطلقت من حواشي أدالمو لتعيش كرنفالا كبيرا أتّخذ فيه كلّ شيء مجرى خاطئا، ومع ذلك، كما في «العشاء السرّي» يفعل كل واحد ما فعله حقيقة في الحياة. وفي النهاية تساءلت، في الحلم، ما هو العالم المقلوب، وما معنى أن يمشي ورأسه إلى أسفل. لم يعد حلمك يعرف أين يوجد الفوق وأين التحت، اين الموت واين الحياة. لقد شكّ حلمك في الدروس التي تعلّمتها.».

فقلت بورع «لست أنا، بل حلمي. ولكن ليست الأحلام اذن وحيا إلـٰهياً، بل هذيانات شيطانية، ولا تحتوي على أية حقيقة!».

فقال غوليالمو «لا أدري يا أدسو. اننا نملك بين ايدينا الكثير والكثير من الحقائق فلو جاء أحد يوما يريد استخراج حقيقة من أحلامنا فستكون عندئذ أزمنة المسيح الدجال بحق قريبة. ومع ذلك، كلما زدت تفكيرا في حلمك، كلّما وجدته ملهما. ربّما ليس بالنسبة اليك، بل بالنسبة الي. اعذرني إن أنا تملّكت أحلامك لانمّي فرضياتي، أعرف ذلك، انه شيء خسيس، لا ينبغي فعله... ولكن أظن أن روحك النائمة فهمت أشياء أكثر مما فهمته أنا في ستة أيام، وفي حالة يقظة...»

ـ حقّاً؟

ـ حقّاً. أو ربما لا. اني أجد حلمك ملهما لأنه يتطابق مع احدى افتراضاتي. ولكنك قدمت اليّ مساعدة كبيرة. شكرا.

ـ ولكن ماذا كان مهمّا إلى هذا الحد في حلمي بالنسبة اليك، لقد كان دون معنى، ككل الأحلام!

ـ كان له معنى آخر، ككلّ الأحلام، والرؤى. يجب قراءته مجازيا أو تأويليا...

ـ كالكتابات؟

ـ الحلم كتابة، والكثير من الكتابات ما هي إلاّ أحلام.

سـادسـة

وفيه يحذّد تعاقب أمناء المكتبة ويتم الحصول على بعض الأنباء الاضافية حول الكتاب الغامض

أراد غوليالمو أن يصعد من جديد الى قاعة الكتابة، التي نزل منها منذ حين. وطلب من بانشيو ان يسمح له بفحص الفهرس، وأخذ يتصفّحه بسرعة وهو يقول «لا بدّ أن يكون في هذه النّاحية، لقد رأيته فعلا منذ ساعة. . » ثم توقف عند صفحة ،قال «هوذا، اقرأ هذا العنوان».

تحت إحالة واحدة (أقصى إفريقيا!) كانت مجموعة من أربعة عناوين، ممّا يدلّ على أنها تكوّن مجلدا واحدا يحتوي على عدة نصوص. قرأت :

I-ar, de dictis cujusdam stulti.
II- syr. libellus alchemicus aegypt.
III- Expositio magistri Alcofribae de cena beati Cypriani Cartaginensis Episcopi.
IV- Liber acephalus de stupris virginum et meretricum amoribus

وسألته «ما شأنه؟».

فهمس إليّ غوليالمو «انه كتابنا. لذا أوحى الي حلمك بشيء. اني متأكد الآن من ذلك. فعلا. . . » كان يتصفح بسرعة الورقات الموجودة قبل تلك الورقة وبعدها «فعلا هي ذي الكتب التي أفكّر فيها، كلها معا. ولكن ليس هذا ما كنت أريد التّحقق منه. اسمع، هل لوحتك معك؟ حسن، يجب أن نقوم بحساب، وحاول أن تتذكر جيدا ما قاله لنا أليناردو ذلك اليوم، وما سمَعنا أيضا هذا الصباح من نيكولا: اذن، لقد قال لنا نيكولا إنه وصل الى هنا منذ ما يقارب الثلاثين سنة وكان أبّوني قد سميّ رئيس دير. قبله كان باولو دا ريميني هو رئيس الدير. صحيح؟ لنقل ان هذا التناوب وقع حوالي سنة 1290، سنة قبل أو سنة بعد، لا يهم. ثم قال لنا نيكولا انه عندما وصل كان روبارتو دا بوبيو حافظ المكتبة.

صحيح؟ ثم يموت ويتسلّم ملاخي المنصب، لنقل في بداية هذا القرن تقريبا. اكتب. ولكن هناك فترة سابقة لوصول نيكولا كان فيها باولو دا ريميني حافظا للمكتبة. منذ متى؟ ذلك ما لم يقولاه لنا، بامكاننا أن نطلع على دفاتر الدير، ولكنّي أتصور أنها لدى رئيس الدير، وفي الوقت الراهن لا أريد أن أسأله اياها. لنفترض أن باولو سمّي أمينا على المكتبة منذ ستين سنة، اكتب. لماذا يتحسّر أليناردو على أن منصب حافظ المكتبة، لخمسين سنة مضت حسب التقريب، كان ينبغي أن يكون من نصيبه، بينما سُلِّم المنصب الى شخص آخر؟ أكان يلمّح الى باولو دا ريميني؟

ـ أو الى روبارتو دا بوبيو!

ـ على ما يبدو. ولكن انظر الآن الى هذا الفهرس. أنت تعرف أن العناوين مسجّلة، كما قال لنا ملاخي في اليوم الأول، حسب ترتيب الاقتناءات. ومن يسجلها على هذا الدفتر؟ حافظ المكتبة. اذن، يمكننا حسب تغير الخط على هذه الصفحات، أن نحدّد تعاقب أمناء المكتبة. لننظر الآن الفهرس انطلاقا من آخره، الخط الأخير هو خط ملاخي، قوطيّ جدا كما ترى. ويملأ بضع صفحات. لم يقتن كتبا كثيرة في الثلاثين سنة الأخيرة. ثم تبدأ مجموعة من الصفحات المكتوبة بخط مرتعش، وأقرأ فيه بوضوح امضاء روبارتو دا بوبيو، المريض. وهنا أيضا لدينا صفحات قليلة، من المحتمل أن روبارتو بقي في المنصب وقتا قليلا. وهذا ما نجد الآن: صفحات وصفحات من خط آخر، مستقيم وثابت، ومجموعة من الاقتناءات (مِن بينها مجموعة الكتب التي كنّا نفحصها منذ حين) حقيقة مذهلة. كم كان على باولو دا ريميني أن يعمل! كثيرا، خاصّة عندما نعتبر أن نيكولا قال لنا إنه أصبح رئيسا على الدير في سن حديثة جدا. ولكن لنفترض أن ذلك القارىء النهم أثرى الدير في سنوات قلائل بكل تلك الكتب... ألم يقولوا لنا إنهم كانوا يدعونه «أبّا أغرافيكوس» لعاهته الغريبة أو لمرضه، الذي كان يمنعه من الكتابة؟ اذن من كان يكتب هنا؟ أنا أقول أنه مساعده. ولكن لو عيّن ذلك المساعد أمينا للمكتبة من بعده لواصل الكتابة، ولفهمنا لماذا لدينا كل هذه الصفحات بنفس الخط. وسيكون لدينا اذاك، بين باولو وروبارتو أمين مكتبة آخر، يكون قد عيّن منذ حوالي خمسين سنة، ويكون هو المنافس الغامض لأليناردو الذي كان يأمل أن يخلف هو باولو، لأنه أكبر سنا، ولكن هذا الأخير

يختفي وبطريقة من الطرق، وعكس توقعات أليناردو ورهبان آخرين، يعيّن ملاخي عوضه. ـ ولكن ما الذي يجعلك واثقا بهذه الصفة ان ذاك هو التسلسل الصحيح؟ ولو قبلنا افتراض أن هذا الخط هو خط أمين المكتبة المجهول الاسم، لماذا لا تكون، على العكس، لباولو عناوين الصفحات السابقة؟

ـ لأنه بين هذه الاقتناءات سجلت كل البراءات والفتاوي البابوية، التي لها تواريخ مضبوطة. أريد أن أقول، انك لو وجدت هنا، كم ترى براءة «Firma Cautela» لبونيفاسيوس السابع، بتاريخ 1296، تعرف أن النص لم يدخل قبل تلك السنة، ويمكنك أن تتصوّر أنه لم يدخل بعد ذلك الوقت بكثير. وبهذا، لدي ما يشبه أنصاب الأميال موضوعة على مدى السنين، بحيث لو سلمت بأن باولو دا ريميني أصبح حافظا للمكتبة سنة 1265، ورئيسا على الدير سنة 1275، وأرى بعد ذلك أن خطّه، أو خط شخص آخر ليس روبارتو دا روبوبيو قد تواصل من 1265 الى 1285، فاني أكتشف فارقا بعشرة أعوام.

لقد كان أستاذي حقيقة ثاقب الفكر. فسألته عندئذ «ولكن ما هي الاستنتاجات التي تستمدها من هذا الاكتشاف؟».

فأجاب «لا شيء، انها مقدمات منطقية فقط».

ثم نهض وذهب للتحادث مع بانشيو. وكان هذا الأخير ملازماً مكانه، ولكنه لم يكن مطمئنا كثيرا. كان لا يزال جالسا على طاولته دون أن يجرؤ على الجلوس الى طاولة ملاخي قرب الفهرس. فخاطبه غوليالمو بشيء من البرود لأنه لم ينسَ المشاحنة التي وقعت بينهما في الليلة الفارطة.

ـ هل لك يا سيدي حافظ المكتبة، مهما أصبح لديك من نفوذ، هل لك أن تخبرني بشيء، أرجوك. ذلك الصباح الذي تناقش فيه أدالمو والآخرون حول الاحاجي الفطنة، ولمّح برينغاريو لأول مرّة إلى قاعة «أقصى إفريقيا»، هل ذكر أحدهم كتاب «العشاء السري» لشبريانو؟

فأجاب بانشيو «نعم، ألم أقل لك ذلك؟ قبل الحديث عن أحاجي سينفوزيوس كان فعلا فينانسيو هو الذي ذكر «كتاب العشاء» وغضب ملاخي، قائلا انه كتاب دنيء، مذكرا أن رئيس الدير حجّر على الجميع قراءته...

فقال غوليالمو «رئيس الدير، تقول؟ مهمّ جدا. شكرا يا بانشيو».

فقال بانشيو «انتظرا، اني أريد التحادث اليكما»، وأشار إلينا بأن نتبعه خارج

قاعة الكتابة، على السلّم المؤدي الى المطابخ، بحيث لا يتمكن الآخرون من سماعه. كانت شفاه ترتعشان. قال «اني خائف يا غوليالمو. لقد قتلوا ملاخي. والآن أعرف أشياء كثيرة. ثم اني ممقوت من قبل جماعة الايطاليين. . . أظنّ أنّ الآخرين قتلوا لذلك السبب بالذات. . . انني لم أحدثكم أبدا عن بغض اليناردو لملاخي، وعن أحقاده. . . ».

ـ من اختلس منه المنصب، منذ سنوات؟

ـ هذا ما لا أعرفه، انه يتحدّث دائما عن ذلك بصفة مبهمة. ثم انها قصة قديمة. وماتوا تقريبا جميعهم. ولكن الايطاليين حول اليناردو كثيرا ما يقولون. . . غالبا ما كانوا يقولون عن ملاخي انه مسخّر، نصبه شخص آخر، بتواطؤ مع رئيس الدير. . . وأنا دون أن أتفطن لذلك. . . دخلت في لعبة تنافس بين مجموعتين. . . لقد فهمت ذلك هذا الصباح فقط. . . ايطاليا ارض دسائس، يسمّم فيه البابوات، فما بالك بشاب مسكين مثلي. . . لم أفهم ذلك بالأمس، كنت أظن أن كلّ شيء كان يخص ذلك الكتاب، ولكني الآن لم أعد واثقا من ذلك، كان ذلك تعلّة :

لقد رأيتما انه عُثر على الكتاب ومع ذلك مات ملاخي. . . ينبغي عليّ. . . اني أريد. . . بودّي لو أهرب. بماذا تنصحني؟

ـ ان تبقى هادئا. الآن تريد من ينصحك، أليس كذلك؟ وأمس كنت تبدو وكأنك سيد الدنيا. لو ساعدتني أمس، أيها الغبي، لحُلنا دون وقوع الجريمة الأخيرة. لقد سلّمت أنت إلى ملاخي الكتاب الذي أدى به الى الموت. ولكن قل لي على الأقل هذا. لقد وقع الكتاب بين يديك، ولمسته. هل قرأته؟ ولماذا اذن لم تمت؟

ـ لا أدري. أقسم لك ذلك، لم ألمسه، أو بالأحرى لمسته عندما أخذته من المخبر، دون فتحه، أخفيته تحت ثوبي وحملته الى حجرتي ثم اخفيته تحت فراشي. كنت أعرف أن ملاخي كان يراقبني وعدت فورا الى قاعة الكتابة. وبعد ذلك، عندما عرض عليّ ملاخي أن أصبح مساعده، حملته الى حجرتي وسلّمته الكتاب. هذا كلّ ما حدث.

ـ لا تقل لي أنك لم تفتحه.

ـ نعم، لقد فتحته، قبل اخفائه، لأتأكد من أنه هو الكتاب الذي كنتما تبحثان

عنه. كان يبدأ بمخطوط عربي، ثم بمخطوط أظنه سريانيًا، ثم نص لاتيني وأخيرا نصّ باليونانية...».

كنت أذكر الحروف الأولى التي رأيناها في الفهرس. كان العنوانان الأولان يحملان علامتي ar و syr. كان ذلك هو «الكتاب». ولكن غوليالمو لاحقه بالأسئلة دون هوادة «اذن قد لمسته، ولم تمت. اذن لا يموت من يلمسه. وعن النص اليوناني ماذا يمكنك أن تقول لي؟ أنظرت اليه؟

ـ قليلا جدا، ما يكفي لفهم أنه دون عنوان، كان يبدو وكأن جزءا ينقصه...

فهمس غوليالمو «Liber acephalus».

ـ لقد حاولت أن أقرأ الصفحة الأولى، ولكني في الحقيقة لا أحسن اليونانية، كان عليّ أن أمضي في ذلك وقتا طويلا. وأخيرا لفت انتباهي أمر آخر كان يخصّ الصفحات اليونانية بالذات. لم أتصفحها بتاتا لأني لم أقدر على ذلك. كانت الأوراق، كيف يمكنني أن أقول، كانت وكأنها مبللة بالرطوبة، لم تكن تنفصل بسهولة الواحدة عن الأخرى. وذلك لأن الرق كان غريبا... أكثر ليونة من الرقوق الأخرى، وكانت الصفحة الأولى متآكلة جدا، تكاد تتفتت، بايجاز، كان... كان غريبا.

فأعاد غوليالمو «غريبا، انها العبارة نفسها التي استعملها سفيرينو».

وواصل بانشيو قائلا «كان الرّق يبدو وكأنه ليس رقّا... كان يبدو كتّانا، ولكن رقيقا جدا...».

فقال غوليالمو charta lintea أو pergamino de pano. ألم ترها قط؟

ـ لقد سمعت عنها، ولكن أظن اني لم أرها قط. يقال أنها باهظة، وهشّة. لذا تستعمل بقلّة. يصنعها العرب، أليس كذلك؟

ـ كانوا أول من صنعها. ولكنها تصنع أيضا في ايطاليا، في فابريانو، وأيضا في... ولكن دون شكّ، أكيد، نعم!» وسطعت عيناه ببريق «يا له من اكتشاف رائع وهامّ. أحسنت يا بانشيو، أشكرك! نعم، أتصوّر أن «ورق الكتّان» نادر هنا في المكتبة، لأنه لم تصل اليها مخطوطات حديثة. ثم يخاف الكثيرون ان لا يصمد أمام القرون كالرق، وقد يكون ذلك صحيحا. ويمكن أن نتصوّر أنهم ما كانوا يريدون هنا إلاّ ما يبقى على أبد الدهر مثل البرونز... «ورق من كتّان»، هو ذا اذن. حسن، الى اللقاء. وكن مطمئنا. لا خطر عليك».

ـ حقا، غوليالمو، أتؤكد لي ذلك؟

أؤكد لك ذلك. بشرط أن تبقى في مكانك. لقد صنعت من البلايا بما فيه الكفاية.

وابتعدنا عن قاعة الكتابة تاركين بانشيو، ولئن لم يكن مطمئنا تماما فعلى الأقل أكثر هدوءا.

وقال غوليالمو بين أسنانه بينما كنا نخرج «يا للغبي. كان بامكاننا أن نحلّ كل المسألة لو لم يتدخل هو...».

وجدنا رئيس الدير في قاعة الأكل. وواجهه غوليالمو طالبا أن يتحادث اليه. فلم يقدر أبّوني ان يزوغ وضرب لنا موعدا بعد حين في اقامته.

تاسعة

وفيه يرفض رئيس الدير الاستماع الى غوليالمو، ويتحدّث عن لغة الأحجار الكريمة، ثم يبدي رغبته أن لا يتمادى التحقيق حول تلك الأحداث المؤلمة

كانت اقامة رئيس الدير تقع فوق قاعة المجلس. ومن نافذة قاعة الاستقبال، التي كانت فسيحة وفخمة، حيث استقبلنا، يمكن رؤية أشكال الصرح من وراء سطح الكنيسة الديرية، عندما يكون اليوم جميلاً.

كان رئيس الدير واقفا أمام نافذة، ينظر فعلا باعجاب الى ذلك المنظر. وبحركة ارتسامية أرانا أياه قائلا «انها قلعة رائعة، تلخّص في تناسب أبعادها القاعدة الثلاثية التي نظمت صنع سفينة نوح. وأسست على ثلاثة طوابق لأن ثلاثة هو عدد الثالوث المقدس، ثلاثة كانت الملائكة التي زارت ابراهيم، وعدد الأيام التي قضاها يونس في بطن الحوت الكبير، وتلك التي قضاها عيسى ولعازر في القبر، وعدد المرات التي طلب فيها عيسى من الأب أن يبعد عنه الكأس المرّة، وتلك التي اختلى فيها مع الحواريين للصلاة. ثلاث مرّات تبرأ منه بطرس، وظهر لأصحابه ثلاث مرّات بعد البعث. وثلاث هي الفضائل الالهية، وثلاث اللغات المقدسة، وثلاثة هي أنواع الصوت: صوت وصفير ونقر. وثلاثة هي عهود التاريخ النساني: قبل الشريعة وأثناء الشريعة وبعد الشريعة.

فأيده غوليالمو قائلا «انه لانسجام رائع لتطابقات رمزية».

وتابع رئيس الدير مضيفا «ولكن حتى الشكل المربّع ثري بالتعاليم الرّمزية. أربعة هي الجهات الأصلية، والفصول، والعناصر، الحرّ والبرد والرطوبة والجفاف، الولادة والترعرع والنضوج والشيخوخة، وأجناس الحيوانات: السماوية والأرضية والهوائية والمائية، والألوان التي يتكون منها قوس قزح،

وعدد السنوات التي تلزم لتكوين عام كبيس».

فقال غوليالمو: «آه أكيد»، ثم تابع: «وثلاثة وأربعة تعطي سبعة، عدد رمزي آخر، بينما عندما نضرب ثلاثة بأربعة نحصل على اثني عشر، كعدد الحواريين، واثني عشر باثني عشر تعطي مائة وأربعة وأربعين، وهو عدد المصطفين». وأمام هذا الاستعراض الأخير للمعرفة الرمزية بعالم الأعداد الاسمي، لم يبق لرئيس الدير أن يضيف شيئا آخر مما أتاح لغوليالمو أن يدخل في صميم الموضوع، فقال «يجب أن نتكلم بخصوص الأحداث الأخيرة، والتي فكّرت بشأنها طويلا».

فأدار رئيس الدير ظهره الى النافذة وواجه غوليالمو بوجه صارم: «ربما طويلا جدّا. أعترف يا أخ غوليالمو انني كنت أنتظر منك أكثر من ذلك. لقد وصلت منذ ما يقارب الستة أيام، ومنذ ذلك الحين مات أربعة رهبان بخلاف أدالمو، ووقع ايقاف اثنين من طرف محكمة التفتيش - لقد كان عدلا، ذلك أكيد، ولكن كان بامكاننا تجنّب ذلك الخزي لو لم يضطّر المحقق للاهتمام بالجرائم السابقة - وأخيرا بسبب كل تلك الآثام أعطى اللقاء، الذي كنت أنا فيه واسطة، نتائج مؤسفة... توافقني عندما أقول انني كنت انتظر منك حلاً مختلفا حينما سألتك أن تحقّق حول موت أدالمو...

فصمت غوليالمو، مرتبكا. لقد كان رئيس الدير دون شك على حق. لقد سبق أن ذكرت في بداية هذه القصة أن غوليالمو كان يعجبه ادهاش الآخرين بسرعة استنتاجاته، ومن الطبيعي اذن أن يجرح كبرياؤه عندما يتهم، ولو ظلما، بالتباطؤ.

وأيّده غوليالمو قائلا «صحيح، لم أوفق الى ما كنت تنتظره مني، ولكني سأقول لسيادتك، لماذا. هذه الجرائم ليس مصدرها خصومة أو أخذ بالثأر بين الرهبان، ولكنها متصلة بأحداث، هي بدورها تستمد مصدرها من تاريخ الدير البعيد...».

فنظر اليه رئيس الدير بقلق «ماذا تعني؟ أفهم أنا أيضا أن المفتاح لا يوجد في قصة القيم التعسة، والتي تقاطعت مع أخرى. ولكن الأخرى، تلك الأخرى التي كنت ربما أعرفها ولكني لا أقدر على الكلام عنها... وكنت آمل أن تكون اتضحت لك، وانك ستحدّثني عنها...».

- تفكّر سيادتك في بعض الأحداث التي وصلت اليك تحت سرّ الاعتراف..

فأدار رئيس الدير أنظاره إلى جهة أخرى بينما واصل غوليالمو «ان كنت

سيادتك تريد أن تعرف ان كنت أعرف، دون أن أكون عرفت ذلك من سيادتك، ان علاقات مشبوهة كانت قائمة بين برينغاريو وأدالمو وبين برينغاريو وملاخي، فكلّ من في الدير يعرف ذلك. . .».

فاحمرّ وجه أبّوني بشدّة « لا أظن أنه من المجدي أن نتحدّث في أشياء من هذا القبيل بحضور هذا الراهب المبتدىء. ولا أظن، بعد أن تمّ اللقاء، انك بحاجة الى كاتب». ثم قال لي بلهجة الآمر «أخرج يا ولدي»، فخرجت متذللاً، ولكن فضولي جعلني ألبد وراء باب القاعة، الذي تركته منفرجا حتى أتمكن من متابعة الحوار.

واستأنف غوليالمو كلامه قائلا: «اذن، هذه العلاقات غير الطاهرة، وان فرضنا أنها وقعت، كان لها دور ضئيل في هذه الأحداث المؤلمة. المفتاح غير ذلك، وكنت أظن أنك ستتصور ما يكون. كل شيء يحوم حول سرقة وامتلاك كتاب، كان مخفيا في قاعة «أقصى إفريقيا»، والذي عاد الآن الى مكانه بفضل ملاخي، دون أن تكف، كما رأيت، سلسلة الجرائم».

أعقب ذلك صمت طويل، ثم أخذ رئيس الدير يتحدث بصوت متقطّع ومتردد، كمن فوجئ بمكاشفات غير منتظرة «مستحيل. . . أنت. . . أنت كيف أمكنك أن تعرف شيئا عن قاعة «أقصى إفريقيا»؟ لقد خالفت تحجيري ودخلت الى المكتبة؟

كان من الأفضل أن يقول غوليالمو الحقيقة، ولكن رئيس الدير كان سيغضب غضبا لا حدّ له. ومن الواضح أنه لم يكن يريد أن يكذب. فاختار أن يجيب عن سؤاله بسؤال آخر: «ألم تقل لي حضرتك في لقائنا الأول، إن رجلا مثلي، وصف بونيلو بتلك الدقة دون أن يكون رآه أبدا، لن يصعب عليه أن يتحدث عن أماكن لا يمكنه الدخول اليها؟

فقال أبّوني «هكذا اذن، ولكن لماذا تظن ما تظن؟»

ـ كيف وصلت الى ذلك شيء يطول شرحه. ولكن ارتكبت سلسلة من الجرائم لمنع الكثيرين من اكتشاف شيء كان لا يراد له أن يكتشف. الآن كل الذين علموا شيئا عن أسرار المكتبة، إمّا بممارسة حق أو بالاحتيال، قد ماتوا. بقي شخص واحد، أنت.

ـ تريد إن تلمح. . . تريد أن تلمّح»، ـ كان يتكلم كمن أنتفخت أوداجه.

فقال غوليالمو، الذي ربما حاول فعلا أن يلمّح «لا تفهم غلطا ما أريد أن أقول. أقول إن هناك شخصا على علم بكل شيء ولا يريد أن يعلم أحد آخر وأنت هو الأخير الذي يعلم، يمكن أن تكون أنت الضحية المقبلة إلا اذا قلت لي ماذا تعرف عن ذلك الكتاب الممنوع وخاصة، من في الدير بامكانه أن يكون عارف ما تعرف أنت، وربما أكثر منك، عن المكتبة».

فقال رئيس الدير «هنا برد، لنخرج».

فابتعدت بسرعة عن الباب وانتظرتهما عند أعلى السلم الصاعد من أسفل. ورآني رئيس الدير فابتسم اليّ قائلا «كم يكون قد سمع هذا الراهب الصغير من أشياء مزعجة هذه الأيام! هلّم ايها الصبي، لا تدخل على نفسك الاضطراب. يبدو لي أننا تصوّرنا دسائس أكثر ممّا هو موجود حقيقة...».

ورفع يده تاركا نور النهار يضيئ خاتما رائعا، شعار سلطته، كان يحمله في البنصر. وسطع الخاتم بكل اشعاعات أحجاره. وقال لي «إنك تعرفه، أليس كذلك. هو رمز سلطتي ولكنه أيضا رمز العبء الذي يثقل كاهلي. ليس زخرفا، انه يلخّص تلخيصا رائعا الكلمة الالهية التي عليّ أن أحرسها». ولمس بأصابعه الحجارة، أو بالأحرى ذلك الحفل الرائع من الأحجار المختلفة الألوان التي تكوّن تلك التحفة البديعة من فن الانسان والطبيعة. وقال «هذا الشمجت، الذي يعكس التواضع ويذكّرنا ببساطة ورقّة القديس متى؛ وهذه الخلقيدونية، تعلّمنا المحبة، رمزا لورع يوسف والقديس يعقوب الأكبر؛ وهذا اليشب، الذي يدعونا الى الايمان وهو يقترن بالقديس بطرس؛ واليشب الأسمر، رمز الشهادة ويذكّرنا بالقديس بَرْثُولماوس؛ وهذا اللازورد، أمل وتأمل، حجارة القديسين أندراوس وبولس؛ والزمرّد المصري، عقيدة صحيحة علم وحلم، وهي الفضائل التي امتاز بها القديس توما...». وتابع وهو غارق في رؤياه الصوفية «كم هي رائعة لغة الأحجار الكريمة التي ترجمها جواهريّو التقاليد من عقلنة هارون ومن وصف القدس السماوية في كتاب الحواري. ومن ناحية أخرى كانت أسوار صهيون مرّصعة بنفس الجواهر التي كانت تزيّن درع أخ موسى، ما عدا الياقوت الجمري، والعقيق والجزع المذكورة في سفر الخروج والتي عوضت في سفر الرؤيا بالخلقيدونية واليشب الأسمر والكريزوبراس والصّفير».

وحاول غوليالمو أن يفتح فمه بكلمة ولكن رئيس الدير ألزمه الصمت، رافعا

يده، وتابع حديثه «أذكُر كتاب صلوات كانت كل حجارته موصوفة ومنظومة اكراما للعذراء، يحكي فيه عن خاتم خطوبتها كقصيد رمزي يشع بحقائق سامية تجلّت من خلال لغة الحجارة الجوهرية التي كانت تزيّنه. اليشب للايمان، والخلقيدونية للمحبة، والزمرّد للطهارة، واليشب الأسمر لدعة الحياة العذرية، واللعلّ للقلب الدامي فوق الصليب، والزبرجد الذي يذكّر اشعاعه المتنوّع بالتنوع الرائع لمعجزات مريم، والصّفير للرحمة، والجمشت بازدواج الوردي والأزرق فيه، لحبّ الرب. . . ولكن في قفص الفصّ كانت هناك مواد أخرى ليست أقل فصاحة، كالبلّور الذي يذكّر بعفة الروح والجسد، والصّفير الذي يشبه العنبر، رمزا للاعتدال، وحجر المغناطيس الذي يجذب الحديد، كما تجذب العذراء أوتار القلوب بقوس طيبتها. وكلّها مواد كما ترى، تزين ولو بمقدار ضعيف ومتواضع حليتي هذه».

وكان يحرّك الخاتم، مبهرا أنظاري باشعاعه، كما لو كان يريد تدويخي: «لغة رائعة، أليس كذلك؟ وبالنسبة لآباء آخرين تعني الأحجار أشياء أخرى أيضا. بالنسبة الى البابا اينوتشانسو الثالث ينبئ اللّعل بالهدوء وبالصبر والبنفش بالمحبّة. وبالنسبة إلى القديس برونوني يجمّع الزمرّد الريحاني العلم اللاهوتي في مزايا اشعاعاته الصافية. الفيروز يعني الحبور، واليشب الأسمر يذكّر بالساروفيميين والزبرجد الأصفر بالكروبيين، واليشب بالعروش، والزبرجد بالسيادات، واللازورد بالفضائل، والجزع بالقوى، والزمرّد المصري بالامارات، والياقوت الأحمر برؤساء الملائكة والزمرّد بالملائكة. ان لغة الأحجار الكريمة لها أشكال متعدّدة، كلّ واحدة تعبّر عن أكثر من حقيقة، حسب الظرف الذي تظهر فيه. ومن يحدّد مستوى التأويل وصلاحية الظرف؟ أنت تعرف ذلك، يا ولدي، لقد علّموك اياه: انها السلطة، المؤول الأكثر وثوقا من غيره والأكثر هيبة، واذن الأكثر قداسة. والاّ فكيف يمكن تأويل الدلالات المتنوعة التي يضعها العالم أمام أعيننا المذنبة، وكيف نتجنّب الوقوع في التباسات الشيطان؟ انتبه، انه لمن العجب أن يمقت الشيطان لغة الأحجار الكريمة ولنا شهادة في ذلك من القديسة الديغاردا. فالوحش النجس يرى فيها مغزى تضيئه معان ومستويات معرفة مختلفة، وهو يريد تشويهه لأنه هو، العدوّ، يحسّ في سطوع الأحجار صدى الروائع التي كانت ملكه قبل السقوط، ويفهم أن تلك الاشعاعات تحدثها النار التي هي عذابه». ـ ثم

مدّ اليّ الخاتم لأقبله، فجثوت ومسح على رأسي مضيفا «وأنت اذن، يا ولدي، انس الأشياء، التي هي دون شك آثيمة، والتي سمعتها في هذه الأيام. انك انضممت الى أكبر نظام وأشرفه من بين كل الآخرين، وأنا رئيس دير من ذلك النظام، وأنت الآن تحت سلطتي. اذن إسمَع وأطِعْ أمري: انس، ولتُختم شفتاك الى الأبد. أقسم».

كنت دون شك سأقسم، لفرط التأثر والافتتان. وأنت أيها القارئ الطيب ما كان بامكانك أن تقرأ في هذه الوقائع التي أقصّها عليك بوفاء. ولكن عند ذلك الحدّ تدخّل غوليالمو، لا ليمنعني ربما من أن أقسم، ولكن لرد فعل غريزي. عن ضيق بالأمر، ولمقاطعة رئيس الدير وإزالة ذلك السحر الذي من المؤكد أنه اختلقه اختلاقا.

ـ ما دخل الولد؟ اني طرحت عليك سؤالا، وأعلمتك بخطر محدق وسألتك أن تقول لي اسما. . . أتريدني الآن أن أقبل أنا أيضا الخاتم وان أقسم بان أنسى كلّ ما علمته أو ارتبت به؟

فقال رئيس الدير بحزن «آه، أنت. . . لا يمكن أن أنتظر من راهب متسول أن يفهم جمال تقاليدنا، أو أن يحترم الكتمان، والأسرار، وأسرار المحبة. . . نعم، المحبّة، ومعنى الشرف، ونذر الصمت الذي تقوم عليه عظمتنا. . لقد حدّثتني عن قصة عجيبة، قصة لا تصدق. كتاب ممنوع ترتكب من أجله الجريمة تلوَ الأخرى، وشخص يعرف ما أعرفه أنا فقط. . . خرافات، استنتاجات دون معنى قلها ان شئت، لن يصدقك أحد. وحتى لو فرضنا أن بعض عناصر تركيبتك الخيالية صحيحة. . . ليكن، الآن يعود كل شيء تحت رقابتي وتحت مسؤوليتي. سأتحقق من ذلك، لديّ الوسائل، لديّ السلطة. لقد أخطأت منذ البداية عندما عهدت الى غريب، مهما كانت درايته ومهما كان جديرا بالثقة، بان يحقق في أشياء من مشمولاتي أنا وحدي. ولكنك فهمت ذلك، وقلت لي ذلك، كنت أظن في بداية الأمر أن المسألة تتعلق فقط بانتهاك نذر العفة وكنت أريد (ويا لي من متغافل) أن يقول لي شخص آخر ما كنت سمعته في كنف سرّية الاعتراف. حسن، الآن أعلمتني، وإني مدين لك بالكثير لما فعلت ولما حاولت أن تفعل. الآن تم اللقاء بين القصادتين وأنتهت مهمتك هنا. أتصوّر أنهم ينتظرونك بفارغ صبر في البلاط الامبراطوري، لا يمكن الاستغناء طويلا عن رجل مثلك. اني

أرخص لك في الرحيل. ربّما يكون اليوم متأخرا، لا أريد أن تسافر بعد الغروب، فالطرق ليست آمنة. ارحلا غدا في الصباح الباكر. آه، لا تشكرني، لقد سعدنا أن تكون بيننا، شقيقا بين الأشقاء، وان نكرمك بضيافتنا. يمكنك أن تختلي مع راهبك المبتدئ لاعداد متاعكما. سأودعكما من جديد غدا عند الفجر. شكرا، من كل قلبي. بطبيعة الحال، لا داعي أن تواصل أبحاثك. لا فائدة من ادخال ارتباك أكثر على الرهبان. بامكانك أن تذهب.».

لم يكن اذنا، بل طردا، وحيّاه غوليالمو ثم نزلنا السلّم.

فسألته «ماذا يعني؟. لم أعد أفهم شيئا.

ـ حاول أن تبدي افتراضا. من المفروض أنك تعلّمت الآن كيف ينبغي أن تفعل.

ـ ان كان الأمر كذلك فقد تعلمت أنه ينبغي أن أتقدم على الأقل بافتراضين، أحدهما معاكس للآخر، والاثنان لا يصدّقان. حسن، اذن... ـ ثم بلعت ريقي إذْ كان القيام بافتراضات أمراً يحرجني ـ الافتراض الأول هو أن رئيس الدير كان يعرف كل شيء، وكان يتصوّر أنك لن تكشف شيئا. عهد اليك بالتحقيق، في بداية الأمر، حول موت أدالمو، ولكنه فهم شيئا فشيئا ان القصّة كانت أكثر تعقيدا بكثير، وانها بشكل من الأشكال تشمله هو أيضا، ولا يريدك أن تزيح الستار عنها. والافتراض الثاني أن رئيس الدير لم يساوره الشك بالمرّة (في أي شيء، لا أدري. لأني لا أعرف فيما تفكر أنت الآن). ولكنه يواصل الظن رغم كل شيء ان كلّ شيء متأتٍ من خصومة... بين رهبان لوطيين... ولكنك فتحت عينيه الآن، وفجأة فهم أمرا مهولا، فكّر في اسم، واتضح له المسؤول عن الجرائم. ولكن عند هذا الحد يريد أن يحل المسألة وحده وأن يبعدك، حفاظا على سمعة الدير».

ـ أحسنت. لقد بدأت تحسن التفكير. ولكنك ترى مع ذلك أن ما يشغل رئيس ديرنا في الحالتين هو سمعة الدير. سواء كان ضحية أو مجرما فهو لا يريد أن تشيع، وراء هذه الجبال أخبار تشنيعية حول هذه المجموعة المقدسة. اقتل رهبانه ان شئت، ولكن لا تمس من سمعة هذا الدير. آه، بـ...» ـ كان الحنق يشتد بغوليالمو ـ «ذلك الاقطاعي، ابن الزنى، ذلك الطاووس الذي اشتهر لأنه اشتغل حفّار قبور لدى أكويناتي، إنه لقربةٌ منتفخة، ولا وجود له إلاّ لأنه يلبس خاتما

كبيرا كقعر كأس! يا للتكبّر، يا لكم من متكبرين انتم كلكم الكلونيين، أنتم أسوأ من الأمراء وأكثر بارونية من البارونات!».

فتجرأت وقلت بنبرة عتاب، وقد جرحني قوله «أستاذي..»

ـ اسكت انت، انك من نفس الطينة. انتم لستم بسطاء، ولا أبناء بسطاء. لو صادفكم فلاح، لربّما آويتموه، ولكني رأيت بالأمس أنكم لا تترددون في تسليمه الى السلطة المدنية. أمّا إذا كان أحدا منكم فأنتم لا تسلمونه بل ينبغي اخفاؤه. بإمكان أبّوني أن يكتشف اليائس وان يطعنه بخنجر في قبو الكنز، وان يفرق كليتيه في المذاخر حتى تبقى سمعة الدير محفوظة... أمّا أن يكتشف راهب فرنشسكاني وكر هوّام في هذه الدار المقدسة؟ آه، كلا... هذا ما لا يمكن أن يسمح به أبّوني مهما كان الثمن. شكرا يا أخ غوليالمو، الالمبراطور ينتظرك، أرأيتما الخاتم الجميل الذي أحمله، الى اللقاء. ولكن التحدّي لم يعد بيني وبين أبّوني فحسب، ولكن بيني وبين القضية بأكملها، انني لن أخرج من هذا المكان قبل أن أعرف. يريد أن أرحل غدا صباحا؟ حسن، هو سيّد البيت، ولكنني من الآن إلى صباح الغد ينبغي أن أعرف. ينبغي.

ـ ينبغي؟ من يلزمك، الآن؟

ـ لا أحد يلزمنا بالمعرفة يا أدسو. يجب ذلك، فقط، حتى ولو فهمنا غلطا.

كنت لا أزال مرتبكا وشاعرا بالمهانة للكلمات التي قالها غوليالمو ضدّ نظامي الرهباني وضدّ رؤساء أديرته. وحاولت أن أجد أعذارا لأبّوني بتقديم افتراض ثالث، وكان يبدو أنني أصبحت ماهرا جدا في هذا الفن، فقلت «انك لم تأخذ في عين الاعتبار افتراضا ثالثا، يا أستاذي. لقد لاحظنا خلال هذه الأيام، وبدا لي بوضوح أكثر هذا الصباح، بعد اعترافات نيكولا والتهامسات التي تلقيناها في الكنيسة، ان هناك مجموعة من الرهبان الايطاليين لا تتحمّل عن طيب خاطر تناوب الأجانب على منصب حافظ المكتبة، وتتهم رئيس الدير بعدم احترام العرف. إنهم، كما فهمت، يحتجبون وراء اليناردو الشيخ، دافعين به أمامهم كالراية، لطلب ادارة مختلفة للدير. لقد فهمت هذه الأشياء جيدا، لأنه حتى راهب مبتدئ يكون قد سمع في ديره الكثير من المناقشات والتلميحات والمؤامرات المماثلة. واذن ربما خاف ئيس الدير أن تعطي مكاشفاتك سلاحا لاعدائه، وأراد أن يفض كلّ القضية بحذر كبير...».

ـ ربما، ولكن لا يمنع ذلك من أنه جلف، ومن انهم سيقتلونه.
ـ ولكن ما رأيك في افتراضاتي؟
ـ سأقول لك ذلك فيما بعد.

كنا في الرواق وقد أصبحت الريح أكثر عتوّا، والنور أقلّ ضياء، وان كانت صلاة «تاسعة» قد مرّت منذ قليل. وكان النهار يقترب من الغروب وبقي لدينا وقت قليل جدا. عند صلاة الستار سيعلم رئيس الدير دون شك الرهبان ان غوليالمو لم يعد مؤهلا لاستنطاق أي كان أو للدخول الى حيث يريد.

قال غوليالمو «الوقت متأخر، وعندما يكون لدينا قليل من الوقت حذار من فقدان الهدوء. يجب أن نعمل كما لو كان أمامنا وقت لا نهاية له. هناك مشكل يجب أن أحله، كيف الدخول الى قاعة «أقصى إفريقيا»، لأن الجواب الأخير هو هناك. ثم يجب انقاذ شخص، لا أعرف بعد من سيكون. وأخيرا أظن أن شيئا سيحدث من ناحية الاصطبلات، التي ستراقبها انت.. انظر، هناك تحرّكات أخيرة...».

فعلا. كان الفضاء بين الصرح والرواق نشيطا بالحركة بصفة غريبة. قبل ذلك بقليل، خرج راهب مبتدئ من اقامة رئيس الدير وجرى نحو الصرح. والآن يخرج منه نيكولا متجها نحو قاعات النوم. وفي زاوية من الزوايا كان فريق الصباح، باتشيفكو وايمارو وبيترو يتحادثون بصفة مكثفة مع أليناردو، كأنهم يحاولون اقناعه بشيء.

ثم بدا انهم اتخذوا قرارا. فساند ايمارو أليناردو، الذي كان لا يزال متردّداً، واتجه معه نحو اقامة رئيس الدير. كان بصدد الدخول عندما خرج نيكولا من قاعة النوم يقود يورج الى نفس الوجهة، ورآهما داخلين فهمس شيئا في اذن يورج، الذي هزّ رأسه، وتابعا السير مع ذلك نحو قاعة المجلس.

فهمس غوليالمو بارتياب «رئيس الدير يمسك بزمام الأمور...» ومن الصرح يخرج رهبان آخرون كان ينبغي أن يكونوا في قاعة الكتابة، وتبعهم بعد وهلة بانشيو، الذي تقدم ناحيتنا وقد زاد انشغاله. وقال لنا «هناك غليان في قاعة الكتابة، لا أحد يعمل، كلهم يتحادثون بحدّة فيما بينهم... ماذا يحدث؟».

ـ يحدث أن الأشخاص المرتاب فيهم الى هذا الصباح قد ماتوا كلّهم. وحتى الأمس كان الجميع يأخذون حذرهم من برينغاريو، غبي خائن وداعر، ثم من

القيّم، مشبوه فيه بالهرطقة، وأخيرا من ملاخي، يُبْغضه الجميع.. الآن لا يعرفون ممّن ينبغي أن يحذروا، وهم محتاجون في أقرب وقت لايجاد خصم، أو كبش فداء... وكلّ منهم يشكّ في الآخر، وبعضهم خائف مثلك، وبعضهم قرّر أن يبعث الخوف لدى أحد ما. كلّهم مضطربون غاية الاضطراب. أدسو، راقب من حين لآخر الاصطبلات. أنا ذاهب لاستريح».

كان عليّ أن أندهش لذلك: يستريح بينما تبقّت لنا سويعات قليلة، كان ذلك يبدو قرارا خاليا من الصواب. ولكني أصبحت أعرف زستاذي معرفة جيدة. كلّما كان جسده مرتاحا، كلّما عمل فكره بنشاط متزايد.

بين صَلاة السّتّار وصَلاة النوم

وفيه رواية موجزة لساعات طويلة من البلبلة

أجد من الصعب أن أقصّ ما حدث خلال الساعات التي فصلت، بين صلاة الستار وصلاة النوم.

كان غوليالمو غائبا. وكنت أنا أطوف حول الاصطبلات ولكن دون أن ألاحظ شيئا غير عادي. كان سوّاسو الخيل يُدخلون الدواب التي كانت مضطربة من جرّاء الريح، أما ما عدا ذلك فقد كان كلّ شيء هادئا.

دخلت الكنيسة وقد أخذ الجميع أماكنهم فوق المقاعد، ولكن رئيس الدير لاحظ غياب يورج، وباشارة أخّر بداية الفرض. ونادى بانشيو كي يذهب للبحث عنه ولكن بانشيو لم يكن هناك، وقال أحدهم إنه ربما كان بصدد تهيئة قاعة الكتابة لغلقها. فأجاب رئيس الدير بسخط انه وقع الاتفاق أن لا يغلق بانشيو أي شيء لأنه لا يعرف القواعد. فنهض ايمارو دا اليساندريا من مكانه وقال «ان أرادت أبوّتكم فسأذهب أنا لمناداته...».

فأجاب رئيس الدير بحدّة «لم يطلب منك أحد شيئا»، وعاد ايمارو الى مكانه بعد أن ألقى بنظرة يصعب فهمها الى باتشيفكو دا تيفولي. ونادى رئيس الدير نيكولا، الذي كان هو أيضا غائبا. وذكّره أحدهم أنه بصدد اعداد العشاء، فبدرت منه إشارة تنمّ عن خيبة ظنّه، كما لو كان يؤسفه أن يُظهر للجميع أنه في حالة اضطراب. وصاح «أريد يورج هنا، ابحثوا عنه!» وتوّجه بالأمر إلى معلّم الرهبان المبتدئين «اذهب أنت».

ولفت بعض الحاضرين انتباهه الى غياب أليناردو أيضا. فأجاب رئيس الدير «أعرف ذلك، انه مريض». وكنت بجانب بيترو دا سانتالبانو وسمعته يقول لجاره، غونتسو دا نولا، بلهجة وسط ايطاليا التي كنت أفهم شيئا منها «لا أستغرب ذلك.

اليوم عندما خرج الشيخ المسكين اثر المحادثة كان مضطربا. ان أبّوني يتصرف مثل عاهرة أفينيون!».

كان المبتدؤون حائرين وكانوا يحسّون، بأحاسيس طفولتهم البريئة، بالتوتر الذي كان يسود الخورس، كما كنت أشعر به أنا نفسي. ومرّت لحظات طويلة من الصّمت ومن القلق، فأمر رئيس الدير بانشاد بعض المزامير، وحدّد ثلاثة منها كيفما اتفق، ولم تكن ضمن المزامير التي أدرجتها القاعدة لصلاة الستار. فنظر الجميع واحدهم الى الآخر، ثم أخذوا في الصلاة بصوت خافت. وعاد معلّم المبتدئين يتبعه بانشيو الذي التحق بمكانه مطرقا برأسه. لم يكن يورج في قاعة الكتابة ولا في حجرته. عند ذلك أمر رئيس الدير أن يبدأ الفرض.

عند نهاية الفرض وقبل أن ينزل الجميع لتناول العشاء، ذهبت لمناداة غوليالمو. كان مستلقيا على فراشه دون حراك، وبثيابه. قال أنه لم يكن يظن ان الساعة كانت متأخرة بتلك الدرجة. وقصصت عليه باختصار ما حدث. فهزّ رأسه.

على باب قاعة الأكل رأينا نيكولا، الذي كان قد اصطحب منذ بضع ساعات يورج. وسأله غوليالمو ان كان الشيخ قد دخل فورا الى رئيس الدير. فأجاب نيكولا أنه أنتظر طويلا أمام الباب لأن أليناردو وأيمارو دا اليساندريا كانا داخل القاعة. بعد ذلك دخل يورج وبقي بعض الوقت بينما انتظره هو خارج القاعة وعندما خرج رافقه الى الكنيسة، قبل صلاة الستار بساعة وكانت لا تزال خالية.

ولمحنا رئيس الدير بينما كنا نتحادث مع القيّم فحذّرنا قائلا «ألا تزال تفتّش، يا أخ غوليالمو؟» وأشار اليه أن يتفضل فيجلس الى سائدته، كما جرت العادة. فالضيافة البندكتية مقدّسة.

ومرّ العشاء صامتا أكثر من المعتاد، وكئيبا. كان رئيس الدير يأكل دون رغبة، تستحوذ عليه خواطر قاتمة. وأخيرا قال للرهبان ان عجلوا للقيام بفرض صلاة النوم.

كان أليناردو ويورج لا يزالان غائبين، بينما الرهبان يشيرون الى مكان الضرير الفارغ، متبادلين الهمسات. وعند نهاية الفرض دعا رئيس الدير الجميع لتلاوة صلاة خصوصيّة لنجاة يورج بورغوس. ولم يكن واضحا ان كان يقصد النجاة الجسدية أو النجاة الأبدية. وفهم الجميع أن مصيبة جديدة على وشك أن تدخل

البلبلة على تلك المجموعة. ثم أمر رئيس الدير كل فرد بالاسراع، مستعجلا أكثر من العادة، إلى مثواه. وأمر أن لايبقى أي شخص، وركّز على «أي شخص»، يطوف خارج قاعة النوم. وخرج المبتدؤون في الأول وهم خائفون، وأساكيمهم مسدلة على وجوههم، ورؤوسهم مطرقة، دون تبادل كلمات المزاح، أو ضربات المرفق أو الابتسامات الخفيفة، أو المشاغبات الخبيثة والخفية التي كان يثير بها بعضهم البعض (لأن المبتدئ، بالرغم من أنه راهب صغير، فهو مع ذلك طفل، ولا ينفع تأنيب معلّمهم، الذي لا يقدر أن يمنعهم من التصرّف غالبا كالصبيان، لحداثة سنهم).

وعندما خرج الكبار لا صقت، دون أن أتظاهر بشيء، صف المجموعة التي بدت لي متميّزة وهي مجموعة الايطاليين. كان باتشيفكو دا تيفولي يهمس الى ايمارو «اتظن حقيقة أن أبّوني لا يعرف أين يوجد يورج؟». وأجاب ايمارو «ربما كان يعرف ذلك، ويعرف أنه لن يخرج أبدا من المكان الذي يوجد فيه الآن. ربّما أكثر الشيخ من الطلب، وأبّوني لم يعد يريده...».

بينما كنت أنا وغوليالمو نتظاهر بالدخول الى دار الضيافة اذ لمحنا رئيس الدير وهو يدخل الى الصرح من باب قاعة الأكل الذي بقى مفتوحا. فنصحني غوليالمو أن ننتظر قليلا، ثم عندما خلا السهل من كل حضور دعاني لكي أتبعه. واجتزنا بسرعة الفضاءات الخالية ودخلنا ألى الكنيسة.

بعْد صَلاة النّوم

وفيه يكتشف غوليالمو، على وجه الصدفة تقريبا، السر للدخول الى قاعة «أقصى إفريقيا»

لبدنا كمقاتلين مستأجرين حذو المدخل، وراء عمود يمكن من خلفه مراقبة مصلّى الجماجم. وقال غوليالمو:

ـ لقد ذهب أبوني لغلق أبواب الصرح. وعندما سينتهي من توصيد الأبواب لن يمكنه الخروج إلاّ من المعظمة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك سنرى ماذا سيفعل.

لم نستطع أن نعرف ماذا يفعل، لأنه بعد مضي ساعة لم يخرج. فقلت، يكون قد ذهب إلى قاعة «أقصى إفريقيا». فأجاب غوليالمو، ربما. وبما أنني زصبحت ماهرا في التقدم بافتراضات متعدّدة أضفت: ربما يكون خرج من جديد من قاعة الأكل وذهب للبحث عن يورج. فأجاب غوليالمو: يمكن ذلك أيضا. فواصلت متصورا افتراضات أخرى: ربما يكون يورج قد لقي حتفه، أو ربما هو في الصرح بصدد قتل رئيس الدير. أو ربما يوجد كلاهما في ناحية أخرى وهناك من أعدّ لهما شركا. ماذا كان الإيطاليون يريدون؟ ولماذا كان بانشيو مروّعا بتلك الحالة؟ ألم يكن قناعا وضعه على وجهه لخداعنا؟ لماذا بقي في قاعة الكتابة أثناء صلاة الستار، ان كان يجهل كيف يخرج وكيف يغلق الأبواب؟ أكان يريد أن يجرّب طريق المتاهة؟

فقال غوليالمو «كل هذا ممكن. ولكن شيئاً واحداً يقع، أو أنه وقع، أو أنه بصدد الوقوع. وأخيرا تنيرنا العناية الالهية بيقين ساطع».

فسألته وكلّي رجاء «وما هو؟»

ـ ان الراهب غوليالمو دا باسكارفيل، الذي كان يظنّ أنه فهم كلّ شيء، لايعرف كيف يدخل الى قاعة «أقصى إفريقيا». الى الاصطبلات، يا أدسو، الى الاصطبلات.

ـ واذا ما وجدنا رئيس الدير؟

ـ نتظاهر بأننا شبحان.

لم يبد لي حلا ميسورا ولكنني لازمت الصمت. كانت أعصاب غوليالمو قد بدأت تتشنّج. خرجنا من الباب الشمالي واجتزنا المقبرة، بينما كانت الرّيح تهب بقوة وسألت الإلـه أن لا يرسل الينا نحن شبحين آخرين، اذ لا تنقص الدير في تلك الليلة أرواح معذّبة. وصلنا الى الاصطبلات وسمعنا الخيول وقد زاد اضطرابها لهيجان العناصر. كان باب البناية الرئيسي، على ارتفاع صدر رجل، مشبّكا بشبّاكٍ معدني عريض يمكن من خلاله رؤية الداخل. وتراءت لنا في العتمة أشباح الخيول. وتعرّفت من بينها على برونيلّو لأنه كان الأول على اليسار. على يمينه رفع الجواد الثالث في الصف رأسه وقد أحس بوجودنا وصهل فابتسمت وقلت «Trtius equi».

فقال غوليالمو «ماذا؟»

ـ لا شيء، تذكرت سلفاتوري المسكين. كان يريد أن يعمل لا أدري أي سحر بذلك الجواد، وبلاتينيته كان يشير اليه بقوله «trtius equi» الذي هو حرف «u»

فسأل غوليالمو، الذي تابع هذري دون أن يعيره اهتماما كبيرا.

ـ نعم، لأن trtius equi لا تعني الجواد الثالث ولكن ما هو ثالث في لفظ جواد والحرف الثالث في لفظ جواد هو «u» ولكنها حماقة....

فنظر اليّ غوليالمو، في الظلمة بدا لي وجهه متغيرا وقال «بورك فيك يا أدسو!» أكيد ينبغي «استبدال الموضوع» وفهم الكلام «كما هو» لا «في علاقته بالأشياء» يا لي من غبي! وضرب جبهته ضربة كبيرة بكفه حتى انها أحدثت فرقعة، وأظن أنها آلمته قليلا. «هذه هي المرة الثانية، يا ولدي، التي تتكلم فيها الحكمة بفمك، أولا في الحلم والآن في اليقظة! أسرع، أسرع الى حجرتك لأخذ السراج، بل السراجين الذين أخفيناهما. لا تدع أحداً يراك والتحق بي فورا في الكنيسة! لا تلق أسئلة، اذهب!».

وذهبت دون أن ألقي أسئلة. كان السراجان تحت فراشي مليئين بالزيت، لأنني

كنت قد ملأتهما. وكانت القداحة في جيبي. وهرعت الى الكنيسة وأنا أحمل الأداتين الثمينتين على صدري.

وجدت غوليالمو تحت المنصب وكان يعيد قراءة الرّق الذي يحتوي على مذكرات فينانسيو، ثم قال لي:

ـ أدسو، primum et septimum de quatuor لا تعني الأول والسابع من بين الأربعة، ولكن del quattro من كلمة quattro!». ولم أفهم في بداية الأمر ثم أنار فكري شيء «super thronos viginti quatuor!» الكتابة! البيت! الكلمات المنقوشة فوق المرآة!»

قال غوليالمو «هيّا بنا! ربما تمكنّا من انقاذ حياة انسان!

فسألته بينما كان يعمل بين الجماجم ويفتح الممر المؤدي الى المعظمة «حياة من؟»

فأجاب وكنا قد وصلنا إلى الممر السفلي المؤدي إلى باب المطبخ، والسراجان مشتعلان «حياة شخص لا يستحق ذلك».

لقد سبق أن ذكرت أنه في تلك النقطة يدفع باب من الخشب فيجد المرء نفسه في المطبخ وراء المدفأة، عند أسفل السلّم الحلزوني الذي يؤدي الى قاعة الكتابة. وفي الآونة نفسها بينما كنا ندفع الباب سمعنا على شمالنا ضجّة مخنوقة في الحائط. كانت تأتي من الجدار الذي يحاذي الباب، الذي تنتهي اليه سلسلة المشاكي المليئة بالجماجم والعظام. في تلك النقطة، عوضا عن المشكاة الأخيرة، كان ذلك الجزء من الجدار مليئا، بقوالب كبيرة ومربّعة من الحجارة، تحمل منقوشة قديمة وسطها منحوتة عليها طغراءات تكاد تنمحي. كانت الضربات تأتي، على ما يبدو، من وراء المنحوتة أو من فوق المنحوتة، شيء منها من وراء الجدار وشيء يكاد يكون من فوق رأسينا.

لو حدث مثل ذلك الليلة الأولى لظننت على الفور أنهم الرهبان الموتى. ولكنني صرت الآن أنتظر أسوأ الأشياء من الرهبان الأحياء وسألت غوليالمو «من يكون؟».

ففتح غوليالمو الباب وخرج وراء المدفأة. كانت الضربات تسمع أيضا على طول الجدار الذي يحاذي السلم الحلزوني، كما لو كان هناك أحد سجينا في الحائط، أو بالأحرى في ذلك الفراغ الحائطي (وهو في الحقيقة فسيح) المحصور

حسب كل احتمال، بين الحائط الداخلي للمطبخ والحائط الخارجي للبرج الجنوبي. فقال غوليالمو:

- «هناك أحد محبوس في الداخل. لقد تساءلت دائما ان لم يكن هناك ممرّ آخر للوصول الى قاعة «أقصى إفريقيا» في هذا الصرح المليء بالممرات. من الواضح أن هناك ممرّا. من المعظمة، قبل الصعود الى المطبخ، هناك جزء من الجدار يفتح ويصعد عبر سلّم موازٍ لهذا، مَخفيّ داخل الحائط ويصل مباشرة الى القاعة المغلق عليها.

- ولكن من يوجد الآن بداخله؟

- الشخص الثاني. هناك شخص في قاعة «أقصى إفريقيا» وشخص آخر يحاول اللحاق به، ولكن الشخص الموجود من فوق يمكن أن يكون عطّل الآلية التي تتحكّم في المدخلين. وهكذا بقي الزائر سجينا في الفخّ. وأتصوّر أنه يضطرب بشدة لأنه لا يمكن أن يمرّ الكثير من الهواء في ذلك المصران.

- ومن هو؟ لننقذه!

- سنرى بعد قليل من هو. أما عن انقاذه فلا يمكن ذلك إلاّ باعادة تشغيل الالية من فوق، لأننا من هنا لا نعرف سرّ استعمالها. لنصعد اذن بسرعة.

وذلك ما فعلنا. صعدنا الى قاعة الكتابة ومن هناك مررنا الى المتاهة ووصلنا بعد قليل الى البرج الجنوبي. وكان عليّ أن أكبح اندفاعي، وذلك لمرتين، لأن الريح التي كانت تنفذ تلك الليلة من الكوى محدثة تيارات تنساب من تلك الفتحات وتعبر القاعات وهي تئن، كانت تنفخ على الأوراق المبعثرة على الطاولات فكان عليّ أن أحمي شعلة النار بيدي.

ووصلنا بعد وقت وجيز الى قاعة المرآة، وقد صرنا متهيئين للعبة المسخ التي تنتظرنا. ورفعنا السراجين لانارة الأبيات التي كانت تعلو الاطار «Super thronos viginti quatuor» الآن أصبح السر واضحا: تتكون كلمة quatuor من سبعة أحرف، وكان علينا أن نحرّك حرفي q و r. وفكّرت، وقد تهيّجت أعصابي، ان أفعل أنا ذلك. فوضعت بسرعة السراج على الطاولة وسط القاعة، وكانت حركتي عصبية، فلمست الشعلة تجليد كتاب كان موضوعا فوقها. فصاح غوليالمو «حاذر أيها الغبيّ!» وبنفخة أطفأ الشعلة «تريد أن تضرم النار في المكتبة؟»

فاعتذرت وتهيأت لاشعال السراج من جديد فقال غوليالمو «لا يهمّ، يكفي

سراجي. خذه وأنِره لي، لأن الكتابة عالية جدا وأنت لن تصل اليها. لنفعل بسرعة».

فسألته، بينما كان يبحث تلمسا، على أطراف قدميه مع طول قامته، عن الحرفين المحتومين كي يلمس البيت الرؤيوي «وان كان هناك أحد مسلح بالداخل؟»،

فأجاب غوليالمو بصوت متقطّع «أَنِرْ لي، اللعنة على الشيطان، ولا تخف، ان الرّب معنا!» ـ كانت أصابعه تلمس حرف q من كلمة quatuor وكنت أنا وراءه على بضع خطوات فكنت أرى أحسن منه ما كان يفعل. لقد سبق ان ذكرت أن أحرف الآيات كانت تبدو منحوتة أو منقوشة في الحائط: من الواضح أن أحرف كلمة quatuor كانت مصنوعة من أشكال معدنية، وركبت وراءها آلية عجيبة خفية لأنه عندما دفع غوليالمو بحرف q أحدث صوتاً حادّاً، ووقع نفس الشيء عندما حرك غوليالمو حرف r فاهتز اطار المرآة بأكمله وتحرّك السطح الزجاجي الى الخلف. كانت المرآة بابا، محوره على الجانب الأيسر. وأدخل غوليالمو يده عبر الفتحة بين الجانب الأيمن والحائط وجذبه اليه. فانفتح الباب الى ناحيتنا محدثا صريراً. فانساب غوليالمو من الفتحة وانسللت أنا خلفه، ممسكا بالنور عاليا فوق رأسي.

وهكذا، بعد ساعتين من صلاة النوم، في آخر اليوم السادس، وفي وسط الليلة التي كانت تؤذن ببداية اليوم السابع، دخلنا إلى «أقصى إفريقيا».

اليوم السابع

ليلاً

وفيه، لو أردنا أن نلخّص المكاشفات المذهلة التي نذكرها هنا لكان العنوان في طول هذا الباب، وهو مخالف لما جرت عليه العادة.

وجدنا نفسينا على عتبة قاعة شبيهة من ناحية الشكل بالقاعات الثلاث الأخرى المسبّعة الزوايا والخالية من النوافذ، تسودها رائحة انغلاق قوية ورائحة كتب نقعتها الرطوبة. وأضاء النور الذي كنت أرفعه الى اعلى، في الأول القبّة، ثم حرّكت ذراعي نحو الأسفل، على اليمين وعلى الشمال، وألقت الشعلة بأضواء شاحبة على الرفوف البعيدة، على طول الجدران. وأخيرا رأينا في الوسط طاولة محمّلة بالاوراق، ووراء الطاولة شبحا جالسا دون حراك في الظلمة كان يبدو أنه ينتظرنا، لو فرضنا أنه مازال حيا. وقبل أن يضيء النور وجهه، باشره غوليالمو قائلا :

ـ ليلة سعيدة، يا يورج الجليل. أكنت تنتظرنا؟

وبعد ان تقدمنا بضع خطوات أنار السراج وجه الشيخ، الذي كان ينظر الينا وكأنه يبصر. وسأل :

ـ أهو أنت، يا غوليالمو دا باسكارفيل؟ انني انتظرك منذ عشية اليوم، قبل صلاة الستار، عندما جئت لأحبس نفسي هنا. كنت أعرف أنك ستأتي.

فسأله غوليالمو: «ورئيس الدير؟ هل هو الذي يضطرب داخل السلّم السرّي؟» فتردد الشيخ برهة ثم قال «الا يزال حيّا؟ كنت أظن ان الهواء قد أعوزه.»

قال غوليالمو «قبل أن نتبادل الحديث، اريد ان أنقذه. بامكانك ان تفتح من هذه الناحية».

فقال يورج بتعب «كلاّ، لم يعد ذلك بامكاني. تحرك الآلية من الاسفل بالضغط على المنحوتة، ومن فوق تتحرك رافعة وتفتح بابا هناك وراء تلك الخزانة

ـ وأشارإلى كتفيه ـ يمكنك ان ترى حذو الخزانة دولابا بثقالات تتحكم في الآلية من فوق. ولكن عندما سمعت الدولاب يدور فهمت أن أبّوني قد دخل من تحت، وضربت الحبل الذي يحمل الثقالات فتقطّع. الآن أنغلق الممرّ من الجانبين، ولن يمكنك اعادة ربط حبال تلك الآلية. ان رئيس الدير رجل ميت.»

ـ لماذا قتلته؟

ـ اليوم عندما أرسل يناديني قال لي إنه بفضلك قد اكتشف كلّ شيء. لم يكن يعرف الى اليوم ماذا حاولت أن أحمي، لم يكن يفهم بالضبط ما هي الكنوز، وما هي أهداف المكتبة. وطلب مني ان أفسّر له ما كان يجهل. كان يريد فتح قاعة «أقصى افريقيا». لقد طلب منه جماعة الايطاليين ان يضع حدا لما كانوا يسمونه السر الذي كنت أسعى للحفاظ عليه أنا ومن سبقني. تقضّ مضاجعهم الرغبة في معرفة أشياء جديدة...

ـ ووعدته أنت بأنك ستأتي الى هنا وتضع حدا لحياتك كما وضعت حدا لحياة الآخرين، حتى تبقى سمعة الدير سليمة ولا يعرف أحد شيئا. ثمّ بينت له الطريق كي يأتي من بعد، لمعاينة ذلك. ولكنك كنت تنتظره لقتله. ألم يخطر ببالك أنه كان يمكنه الدخول من المرآة؟

ـ كلا، أبّوني قصير القامة، وما كان باستطاعته ان يصل وحده الى حروف الآية. فبيّنت له هذا الممر الذي كنت الوحيد الذي يعرفه، إنه الممر الذي استعملته سنوات طويلة لأنه أيسر لي في الظلمة. يكفيني ان أصل إلى المصلّى وأتّبع عظام الموتى الى نهاية الممر.

ـ وهكذا جعلته يأتي الى هنا وانت تعرف انك ستقتله...

ـ لم يعد بامكاني ان أثق به هو الآخر. كان مروّعا. لقد ذاع صيته سابقا في فوسّانوفا لأنه استطاع ان ينزل بجثة في سلم حلزوني. انه لمجد باطل. الآن مات لأنه لم يستطع ان يصعد بجسمه هو.

ـ لقد استعملته لمدة اربعين سنة. عندما تفطنت الى انك ستصبح أعمى ولن يمكنك ان تواصل مراقبة المكتبة، تصرفت بكل دهاء وبراعة ثم عملت ما في وسعك كي يصبح حافظ مكتبة في الأول روبارتو دا بوبيو، الذي كنت تلقنه ما تريده أنت، ثم ملاخي، الذي كان يحتاج الى مساعدتك ولا يخطو خطوة إلاّ بمشورتك. لقد كنت سيّد هذا الدير مدّة أربعين سنة. وهذا ما فهمته جماعة

الايطاليين، وهذا ما كان أليناردو يعيد قوله، ولكن لا أحد كان يصغي اليه لأنهم يعتبرونه مجنونا، أليس كذلك؟ ولكنك كنت تنتظرني، ولم يكن بامكانك تعطيل آلية مدخل المرآة، لأن الآلية مغلق عليها بالحائط. كنت تنتظرني، ما الذي جعلك متأكدا من أنني سأجيء؟» - كان غوليالمو يسأل، ومن نبرة صوته كان واضحا أنه يتكهن بالجواب، وينتظره كمكافأة على مهارته.

- منذ اليوم الأول فهمت أنك ستفهم. من صوتك، من الطريقة التي جعلتني أناقش بها مسألة لم أكن أريد ان يقع النقاش بخصوصها. كنت أفضل من الآخرين، ومهما كان الأمر ستصل الى الحل. أنت تعرف ذلك، يكفي أن نفكر وأن نعيد تركيب أفكار الاخرين في أذهاننا. ثم سمعت أنك تلقي أسئلة على الرهبان الآخرين، وكانت كلّها صائبة. ولكنك لم تكن تلقي أسئلة حول المكتبة، كما لو كنت تعرف عنها كل سر. وذهبت ليلة لأدق على باب حجرتك فلم أجدك. أكيد أنك كنت هنا. ثم اختفى سراجان من المطبخ، لقد سمعت ذلك من خادم. وأخيرا، عندما أتى سفيرينو يخبرك بالكتاب، ذلك اليوم في البهو تأكد لي انك تقتفي أثري.

- ولكنك استطعت أن تسرق مني ذلك الكتاب. ذهبت الى ملاخي الذي لم يكن قد فهم الى تلك الآونة شيئا. كانت تنهشه الغيرة، كانت لا تزال تستحوذ على ذلك الغبي فكرة أن أدالمو خطف منه معشوقه برينغاريو الذي أصبح يفضل جسدا أطرى من جسده. لم يفهم ما دخل فينانسيو في هذه القصّة، وشوّشت أنت أفكاره أكثر. قلت له أن برينغاريو كانت له علاقة مع سفيرينو، ولمجازاته أعطاه كتابا من كتب «أقصى افريقيا». لا أعرف بالضبط ماذا قلت له. ذهب ملاخي الى سفيرينو، وقد جنّ من الغيرة، وقتله. ثم لم يبق له متسع من الوقت للبحث عن الكتاب الذي وصفته له، لأن القيم وصل اذاك. أهذا ما وقع؟

- تقريبا.

- ولكنك لم تكن تريد موت ملاخي. ربما لم ينظر أبدا في كتب «أقصى إفريقيا»، كان يثق بك ويطيع نواهيك. كانت مهمته تتوقف على اعداد الاعشاب لادخال الرعب على الفضوليين المحتملين. وكان سفيرينو هو الذي يوفرها له.

لذلك تركه يدخل ذلك اليوم الى المستشفى، كانت تلك زيارته اليومية لتسلّم الأعشاب الطازجة، التي كان يعدها كل يوم بأمر من رئيس الدير. هل أصبت؟

ـ أصبت. لم أكن أريد أن يموت ملاخي. أمرته بالبحث عن الكتاب، بكل الطرق، وباعادته الى هنا، دون فتحه. قلت له ان للكتاب قوة ألف عقرب. ولكن، لأول مرة حاول ذلك المجنون ان يعمل بمبادرة شخصية منه. لم أكن أريد موته كان منفذا وفيا. ولكن لا تعد عليّ ما تعرف، أعرف أنك تعرف. لا أريد تقوية كبريائك فأنت تتعهد بذلك وحدك. لقد سمعتك هذا الصباح تسأل بانشيو عن «العشاء السري» لسبريانو. لقد كنت قريبا جدا من الحقيقة. لا أدري كيف اكتشفت سرّ المرآة ولكن عندما سمعت من رئيس الدير أنك لمّحت الى «أقصى إفريقيا»، تأكد لي أنك ستصل اليه في وقت قصير. لذا كنت انتظرك. والآن، ماذا تريد؟

فأجاب غوليالمو «أريد أن أرى المخطوط الاخير من المجلّد الذي يحتوي على نص عربي وآخر سرياني وعلى تفسير أو على نسخة من «العشاء السري» لشبريانو. اريد أن أرى تلك النسخة باليونانية، التي من المحتمل ان تكون عملا عربيا أو إسبانيا، والتي عثرت عليها عندما كنت مساعد باولودا ريميني، وتحصلت على اذن بالذهاب الى مسقط رأسك لجمع أجمل المخطوطات لسفر الرؤيا من ليون وكاستيليا. وكانت غنيمة جعلتك ذائع الصيت مبجلا هنا في الدير وجعلتك تحصل على منصب حافظ المكتبة بدلا من أليناردو الذي كان أكبر منك سنًا بعشرة أعوام. اريد أن أرى تلك النسخة اليونانية المكتوبة على ورق من كتان وكان آنذاك نادرا، وكان يصنع في سيلوت بالذات، قرب بورقس، وطنك. اريد أن أرى ذلك الكتاب الذي أخذته من هناك، بعد أن قرأته لأنك لا تريد ان يقرأه أحد، وأخفيته هنا محافظا عليه بطريقة ذكية، ولم تتلفه لان رجلا مثلك لا يتلف كتابا، ولكن يحفظه فقط ويحتاط كي لا يلمسه أحد، أريد أن أرى الكتاب الثاني من «صناعة الشعر» لأرسطو، ذلك الكتاب الذي كان يظنّه الجميع مفقودا، والذي تحتفظ أنت منه ربما بالنسخة الوحيدة.»

فقال يورج بنبرة اعجاب وتحسّر في الآن نفسه «كان بامكانك ان تكون حافظ مكتبة رائعا، يا غوليالمو. اذن أنت تعرف كل شيء. اقترب، أظن ان هناك مقعدا في ناحيتك من الطاولة. اجلس، ها هي مكافأتك.»

فجلس غوليالمو ووضع السراج الذي كنت قد مددته اليه، مضيئا من الأسفل وجه يورج. وأخذ الشيخ كتابا كان على الطاولة ومدهه اليه. وتعرفت على

التجليد فقد كان الكتاب الذي فتحته أنا في المستشفى والذي ظننته مخطوطا عربيا.

وقال يورج «اقرأ اذن، تصفّح يا غوليالمو. لقد انتصرت.» فنظر غوليالمو الى الكتاب ولكنه لم يلمسه. أخرج من ثوبه قفازين، ليسا قفازيه بأطراف الاصابع المكشوفة بل القفازين الذين كان يلبسهما سفيرينو عندما وجدناه ميتا. وفتح بتأن التجليد المتآكل والرقيق. فاقتربت أنا وانحنيت من فوق كتفيه فتفطن يورج بسمعه المرهف الى الصوت الذي أحدثته وقال «أنت هنا أيضا، أيها الصبيّ، سأريه لك أيضا. . . من بعد،» ألقى غوليالمو نظرة سريعة على الصفحات الاولى وقال «انه مخطوط عربي حول أقوال أبله، حسب الفهرس. عمّ يتكلم؟»

ـ أوه، أساطير سخيفة يأتي بها الكافرون، يزعم فيها أن الحمقى يأتون بنكت فطنة تبهر كهنتهم وخلفاءهم. . .»

ـ والثاني مخطوط سرياني، ولكن حسب الفهرس يترجم نصّا في الكيمياء. لماذا وضع هنا؟

ـ انه كتاب مصري من القرن الثالث من عهدنا، يتماشى مع العمل الذي يتبع ولكنه أقل خطرا. لا أحد يعير أذنا صاغية الى هذيان كيميائي إفريقي، يسند فيه خلق الكون إلى الضحك. . .» ورفع وجهه ثم تلا بذاكرته العجيبة، ذاكرة القارىء الذي يعيد على نفسه منذ أربعين سنة أشياء قرأها عندما ينعم بالبصر «ما ان ضحك الرب حتى نشأت سبع آلهات حكمت العالم، ما ان انطلقت الضحكة حتى ظهر النور وعند الضحكة الثانية ظهر الماء، وفي اليوم السابع من الضحك ظهرت الروح. . .» حماقات. وحتى النص الذي يأتي بعده كتبه واحد من أولئك الحمقى الذين لا يحصى عددهم، الذين أخذوا يفسرون «العشاء السري. . .» ولكن ليست هذه هي النصوص التي تهمّك. . .

وفعلا ورّق غوليالمو الصفحات بسرعة ووصل الى النص اليوناني. ورأيت في الحال ان الاوراق كانت من مادة مختلفة وأكثر ليونة، وكانت الاولى تكاد تكون منفصلة، مع جزء متآكل من الحاشية وقد انتشرت فيها بقع شاحبة كالتي تحدث عادة بمفعول الرطوبة والزمن على كتب أخرى. قرأ غوليالمو السطور الاولى باليونانية، ثم مترجما الى اللاتينية وواصل بعد ذلك بهذه اللغة بحيث عرفت أنا أيضا كيف يبدأ الكتاب المشؤوم :

«لقد بحثنا في الكتاب الأول في المأساة وكيف انها بإثارة الشفقة والخوف تطهّر تلك المشاعر. وكما وعدنا سنبحث الآن في الملهاة (وفي الأهجوة أيضا وفي المحاكاة) وكيف انها بإثارة المتعة عن طريق السخافة تصل الى التطهر من تلك الاهواء. وقد ذكرنا في الكتاب عن الروح الى أي حدّ تكون تلك الأهواء جديرة بالاعتبار بما ان الانسان ينفرد من دون جميع الحيوانات بقدرته على الضحك. سنعرف اذن اي نوع من الأفعال تكون الملهاة محاكاة لها، ثم سنفحص الكيفيتين اللتين تحدث بهما الملهاة الضحك، وهاتان الكيفيتان هما الإحداث والبيان. سنبين كيف ان السخرية في الإحداث تنشأ من تمثيل أفضل بالأسوأ، والعكس ومن المفاجأة بالخدعة ومن المستحيل ومن خرق نواميس الطبيعة، ومن استعمال المحاكاة المضحكة والمبتذلة، ومن النشاز، ومن اختيار الأشياء الأقل وقارا. وسنبيّن بعد ذلك كيف ان المضحك في التعبير ينشأ من اللبس بين كلمات متشابهة تدل على أشياء مختلفة أو مختلفة تدل على أشياء متشابهة ومن الهذيان والتكرار ومن التلاعب بالألفاظ ومن أسماء التصغير، ومن أخطاء النطق ومن العيّ. . .»

كان غوليالمو يترجم بصعوبة، باحثا عن العبارات الملائمة متوقفا من حين لآخر. وبينما كان يترجم كان يبتسم، كما لو كان يتعرّف على اشياء كان ينتظر ان يجدها هناك. قرأ بصوت مرتفع الصفحة الأولى، ثم توقف، كأنما لا يهمه معرفة شيء آخر، وتصفّح بعجلة الصفحات الموالية: ولكن بعد بضع أوراق اعترضته مقاومة، لأنه قرب الحاشية الجانبية العليا، على طول الحافّة، كانت الأوراق ملتصقة الواحدة بالاخرى، كما يحدث عندما تتبلل الاوراق بالرطوبة وتتلف فتكون المادة الورقية نوعا من الدابوق اللزج. وتفطن يورج الى ان حفيف الاوراق قد توقف فأخذ يحرّض غوليالمو.

ـ هيا، اقرأ. تصفّح. انه لك، لقد نلته عن جدارة.

فضحك غوليالمو وكأنه يهزأ «اذن ليس صحيحا انك تعتبرني فطنا كما كنت تقول، يا يورج! أنت لا ترى ذلك، ولكني أحمل قفازين وبأصابعي المعرقلة لا أقدر على فصل الاوراق إحدهما عن الاخرى. كان ينبغي ان أفعل ذلك بيدين عاريتين، وان أبلل أصابعي بلساني، (كما حدث أن فعلت هذا الصباح وأنا أطالع في قاعة الكتابة، وهكذا توضح لي فجأة هذا السرّ أيضا)، وان أواصل التصفح

بهذه الطريقة الى ان يمر السم الى فمي بمقدار كاف. أعني السم الذي سرقته أنت ذات يوم، منذ زمن بعيد، من مخبر سفيرينو، ربما لأنك انشغلت يوم سمعت أحدا في قاعة الكتابة يبدي رغبته في الاطلاع، إمّا على قاعة «أقصى إفريقيا» أو على كتاب أرسطو المفقود، أو على كليهما معا. أظن انك احتفظت بالقارورة طويلا، تاركا لنفسك اختيار الظرف الملائم لاستعمالها، عندما تحس بخطرما. وأحسست بذلك الخطر منذ بضعة أيام، عندما وصل فينانسيو، من جهة، قريبا من موضوع الكتاب، وبرينغاريو من جهة أخرى، لعدم اتزانه، أو لخيلائه، أو للتأثير على أدالمو أظهر كتمانا للسر أقل مما كنت تأمل. عندئذ جئت الى هنا وهيأت فخك، في الوقت المناسب، لأنه بعد بضع ليال، دخل فينانسيو الى هنا وسرق الكتاب، ثم تصفحه بقلق، وبنهم يكاد يكون جسديا. فأحس بعد وقت قليل بالألم وهرع لطلب المساعدة في المطبخ، حيث لفظ انفاسه. هل أخطأت؟

ـ كلاّ، واصل.

ـ الباقي سهل. يجد برينغاريو جثة فينانسيو في المطبخ، ويخشى أن ينشأ تحقيق، لانه في نهاية الأمر كان فينانسيو في الصرح أثناء الليل، نتيجة لما باح به هو في الأول إلى أدالمو. لا يدري ماذا يفعل، فيحمل الجثة على كتفه ويلقي بها في جرّة الدم، ظانّا أن الجميع سيقتنع بأنه غرق.

ـ وما عرّفك بأن الأمر كان كذلك؟

ـ أنت أيضا تعرف ذلك، رأيتك كيف انفعلت عندما عثروا على خرقة ملطخة بالدم لدى برينغاريو. بتلك الخرقة نظّف ذلك الوحش يديه بعد ان ألقى بفينانسيو في الدم. ولكن بما أنه أختفى، فلا يمكن أن يكون برينغاريو اختفى إلاّ ومعه الكتاب الذي أصبح يثير فضوله هو أيضا. وكنت أنت تنتظر ان يعثروا عليه في مكان ما، غير ملطّخ بالدم، بل مسمّما. والباقي واضح. يجد سفيرينو الكتاب، لأن برينغاريو ذهب في بداية الامر الى المستشفى لقراءته بمعزل عن الأنظار المتطفلة. ويقتل ملاخي سفيرينو بتحريض منك، ويموت عندما يعود الى هنا لمعرفة ما يستحق كلّ ذلك الخطر في الكتاب الذي صيّره مجرما. ها أنا وجدنا تفسيرا لكلّ هذه الجثث. يا للغبيّ!

ـ من؟

ـ أنا. لجملة قالها أليناردو، كنت متأكدا ان سلسلة الجرائم تتبع نسق أبواق

سفر الرؤيا السبعة. البرد لأدالمو، وكان انتحارا. والدّم لفينانسيو، وكانت فكرة غريبة من برينغاريو، والماء لبرينغاريو نفسه، وكانت صدفة، والجزء الثالث من السماء لسفيرينو، وقد ضرب ملاخي بالمحلقة لانها كانت الشيء الوحيد في متناول يده. وأخيرا العقارب لملاخي. . . لماذا قلت له ان للكتاب قوّة ألف عقرب؟»

ـ بسببك أنت. لقد أمدّني أليناردو بفكرته، ثم سمعت من بعضهم انك أنت ايضا وجدتها مقنعة. . . عندئذ اقتنعت ان نظما الٰهيا كان ينظم هذه الميتات التي لم أكن مسؤولا عنها. وتنبأت لملاخي انه لو استسلم للفضول لمات حسب نفس الرسم الالهي، كما وقع بالفعل.

ـ وهكذا اذن. . . صنعت أنا رسما خياليا لشرح تحركات القاتل، والقاتل امتثل له. وهذا الرسم الخيالي بالذات هو الذي دلّني على أثرك. في وقتنا هذا يستحوذ على كل واحد منّا كتاب يوحنا، ولكنك كنت تبدو لي أكثر الناس تأملا فيه، لا للأفكار التي يأتي بها حول المسيح الدجال، بل لانك تأتي من البلاد التي خلقت أروع نسخ لسفر الرؤيا. وقال لي أحدهم يوما ان أجمل مخطوطات ذلك الكتاب، الموجودة في المكتبة، قد جلبتها أنت. وهذى أليناردو يوما حول غامض ذهب الى سيلوس للبحث عن كتب (وأثار فضولي قوله انه عاد قبل الاوان الى عالم الظلمات: كان يمكن ان يظن المرء آنذاك انه كان يلمّح الى موت الخصم في سنّ مبكرة، ولكنه كان يلمح الى عماك). وسيلوس قريبة من بورغوس، وهذا الصباح وجدت في الفهرس مجموعة من الاقتناءات التي تخص أسفار الرؤيا الاسبانية، في الفترة التي خلفت فيها أو كنت على وشك ان تخلف باولو دا ريميني. ومن جملة تلك الاقتناءات كان هناك ايضا هذا الكتاب. ولكن لم أقدر على التأكد من صحة اعادة تركيب الاحداث، الا عندما عرفت ان الكتاب الذي سرق كان من ورق الكتان. عندئذٍ تذكرت سيلوس، وتأكد لي كلّ شيء. بطبيعة الحال كلما تركّزت فكرة هذا الكتاب وقدرته السّامة، كلما تلاشت فكرة التصوّر الرؤيوي، ومع ذلك لم أكن أفهم كيف أن الكتاب وسلسلة الأبواق تؤدي كلها اليك، وفهمت أكثر قصّة الكتاب فعلا لانني، باتباعي السلسلة الرؤيوية، كنت مضطرا الى التفكير فيك وفي مناقشاتك حول الضحك. ممّا جعلني هذا المساء ألحّ، رغم انني لم أعد مقتنعا بالرسم الرؤيوي، على مراقبة الاصطبلات

حيث كنت أنتظر صوت البوق السادس. وفي الاصطبلات بالذات، وبمحض الصدفة، يمدني ادسو بمفتاح الدخول الى «أقصى إفريقيا»

فقال يورج: لا أفهم ما تقصد. أنت فخور لأنك تريد ان تطلعني كيف تمكنت، باستنتاجاتك المنطقية من الوصول اليّ أنا، لكنك تبيّن لي أنك تمكنت من ذلك باتباع منطق مغلوط. ماذا تريد ان تقول لي؟

- لك أنت، لا شيء. انني حائر، هذا كل ما في الأمر. ولكن لا يهم، ها أنا الآن هنا.

- ينفخ الاله في سبعة أبواق. وأنت، حتى في خطئك، سمعت صدى غامضا لذلك الصوت.

- لقد قلت ذلك في موعظتك ليلة أمس. تحاول ان تقنع نفسك بأن كل هذه القصة هي رسم الهي، لتخفي عن نفسك انك مجرم.

- أنا لم أقتل أحدا. لقد سقط كل واحد منهم متّبعا مصيره بسبب ذنوبه. كنت أنا أداة فقط.

- قلت بالأمس أن يهوذا كان أداة. وهذا لا ينفي انه نال عقابه.

- أقبل المجازفة بالعقاب. سيسامحني الرب لانه يعرف انني عملت من أجل عظمته. كان واجبي حماية المكتبة.

- قبل لحظات قليلة كنت مستعدا لقتلي، ولقتل هذا الصبي أيضا..

- انك أكثر فطنة من الآخرين ولكنك لست خيرا منهم.

- والآن ماذا سيحدث، الآن وقد كشفت المكيدة؟

فأجاب يورج «سنرى، لا أريد بالضرورة موتك. ربّما أنجح في اقناعك. ولكن قل لي قبل كل شيء، كيف تكهنت بانه الكتاب الثاني لأرسطو؟».

- لم تكن لتكفيني لعناتك للضحك، ولا ذلك القليل الذي عرفته عن المناقشة التي دارت بينك وبين الآخرين. لقد أعانتني بعض المذكرات التي تركها فينانسيو. لم أفهم في البداية ماذا كانت تعني. ولكن هناك بعض الاشارات الى حجر وقع يتدحرج عبر السهل، الى الزيزان التي ستغني من تحت الأرض، والى التينات الجليلة. وكنت قد قرأت شيئا مماثلا، فتحققت هذه الأيام من ذلك. انها أمثلة كان قد ذكرها ارسطو في الكتاب الأول من «صناعة الشعر» وفي كتاب «الخطابة». ثم تذكرت. ازيدورو دا سفيليا الذي كان يعرف الكوميديا كشيء يتحدث عن

«اغتصاب العذارى وعشق البغايا. . .» شيئا فشيئا توضّح في ذهني الكتاب الثاني كما ينبغي ان يكون. يمكنني ان أقصّه عليك بأكمله دون ان أقرأ الصفحات التي كان يجب ان تسمّمني. تنشأ الملهاة في «كومي» أي في قرى الفلاحين، في شكل حفل لعوب بعد الأكل أو بعد حفلة. لا تتحدّث عن أشخاص ذوي صيت ونفوذ، ولكن عن أناس بسطاء وسخفاء، غير أشرار، ولا تنتهي بموت الابطال. وتثير الضحك باظهار عيوب ونقائص اناس العامة. هنا يرى أرسطو ان الاستعداد للضحك قوة ايجابية، يمكن أن تكون لها أيضا قيمة معرفية، من أحاج فطنة واستعارات غير منتظرة، ومع انها تبرز لنا الاشياء مختلفة عمّا هي في الواقع، كما لو كانت تكذب، فهي تجبرنا فعلا على النظر اليها أحسن، وتجعلنا نقول لأنفسنا: هو ذا، ان الاشياء هي فعلا هكذا، وأنا لم أكن أعرف ذلك. ونصل الى الحقيقة من خلال تصوير للبشر، وللعالم يظهرهما أسوء ممّا هما عليه أو ممّا كنّا نظن، على كل حال أسوء من الكيفية التي اظهرتهما بها الملاحم البطولية، والمآسي وحياة القديسين. أليس هكذا؟

ـ تقريبا. أأعدت تركيبه بقراءة كتب أخرى؟

ـ كثير منها كان يعمل عليها فينانسيو. أظن أن فينانسيو كان منذ مدّة يبحث عن هذا الكتاب. ربما قرأ على الفهرس العلامات ولكنه لم يكن يعرف كيف يدخل الى قاعة «أقصى إفريقيا». وعندما سمع برينغاريو يتحدّث عن ذلك مع أدالمو، انطلق كالكلب الذي يطارد قواعا برّيا.

ـ كان الأمر كذلك، وتفطنت الى ذلك في الحال. فهمت أن الاوان قد حان كي أدافع عن المكتبة بكل ما في وسعي من جهد. .

ـ ووضعت الدهان. لم يكن شيئا سهلا. . . في الظلمة.

ـ لقد أصبحت يداي تبصران احسن من عينيك. سرقت من سفيرينو مرقاشا أيضا، واستعملت انا أيضا قفازين. كانت فكرة طيبة أليس كذلك؟ لقد قضيت وقتا طويلا قبل ان تصل اليها. . .

ـ نعم، لقد كنت أفكر في حيلة أكثر تعقيدا، في سنّ مسمومة أو ما يشابه ذلك. اعترف بان حيلتك كانت مثالية، فالضحيّة تتسمم من تلقاء نفسها، وبقدر رغبتها في القراءة. . .

وتفطنت مرتعداً، الى أن الرجلين المتجابهين في صراع الى آخر رمق، كانا في

تلك اللحظة معجبين أحدهما بالآخر كما لو أنّهما لم يفعلا ما فعلاه الاّ ليثير كلاهما اعجاب الآخر. ومرّ بذهني خاطر وهو أن الحيل التي ابتدعها برينغاريو لاغواء أدالمو، والحركات البسيطة والطبيعية التي حركت بها الفتاة شوقي ورغبتي، كانت لا شيء من حيث التحيّل والمهارة الضارية لامتلاك الآخر، أمام مشهد الاغواء الذي كان يدور تحت أنظاري في تلك الآونة، والذي امتدّ طيلة سبعة أيام، كان كلّ من المتخاطبين يعطي فيها، ان صحّ التعبير، مواعيد سرّية للآخر، كل منهما يأمل ان يستثير موافقة الآخر، الذي كان يرهبه ويمقته.

وكان غوليالمو يقول «ولكن قل لي الآن، لماذا؟ لماذا أردت ان تحمي هذا الكتاب أكثر من كتب أخرى كثيرة؟ لقد كنت تخفي، ولكن لا الى حد الاجرام، مؤلفات في العرافة، وصفحات يجدّف فيها، ربّما، اسم الرّب، ولكن لماذا من أجل هذه الصفحات ألقيت بزملائك وبنفسك الى التهلكة؟ هناك كتب أخرى كثيرة تتحدّث عن الملهاة، واخرى كثيرة تمدح الضحك. لماذا كان هذا الكتاب يخيفك الى هذه الدرجة؟

ـ لانه للفيلسوف. كل كتاب لذلك الرجل حطّم جزءا من المعرفة التي جمعتها المسيحية طيلة قرون. لقد قال الآباء كل ما يجب معرفته عن قوة الكلمة الإلٰهية، وما ان شرح بويتسيو مؤلفات الفيلسوف حتي تحوّل سرّ الكلمة الإلٰهي الى محاكاة بشرية للمقولات وللقياسات. ان سفر التكوين أورد ما يجب معرفته عن تركيب الكون وما ان اكتشفت كتب الفيلسوف الفيزيائية حتى أعيد التفكير في الكون بمعنى المادة الصماء واللزجة، وحتى كاد العربي ابن رشد ان يقنع الجميع بسرمدية العالم. كنا نعرف كل شيء عن الاسماء الإلٰهية، الى أن فتن الفيلسوف ذلك الدومينيكي الذي دفنه أبّوني، فأعاد تسميتها متّبعا مسالك الفكر الطبيعي الصلفة. وكذلك الكون الذي كان حسب ديونيجي يتجلّى لمن يعرف كيف ينظر أعلى إلى شلاّل العلة الأولى المثالية الساطع، أصبح ذخيرة من العلامات الأرضية التي ينطلق منها للوصول الي تسمية فعّالية مجرّدة. كنّا ننظر سابقا الى السماء، ولا ننظر الا باحتقار الى وحل المادة والآن ننظر الى الأرض، ونعتقد في السماء بشهادة الأرض. قلبت كل كلمة من كلمات الفيلسوف، التي أصبح يقسم بها حتى القديسون والأحبار، صورة للعالم. ولكنه لم يصل الى قلب صورة الرّب. لو أصبح هذا الكتاب.. لو أصبح مادّة للتأويل الحرّ لتجاوزنا هذا الحدّ الاخير.»

ـ ولكن ما الذي روّعك في هذا الخطاب عن الضحك؟ لن تلغي الضحك بالغائك للكتاب.

ـ كلاّ، بالتأكيد. الضحك هو الضعف، هو الانحلال ومسخ طبيعتنا الانسانية. هو الألوهيّة بالنسبة الى الفلاح، هو الاباحة بالنسبة الى المخمور، حتى الكنيسة في حكمتها سمحت بفترة الاحتفال بالكرنفال، بالاعياد الشعبية، هذا التلوّث النهاري الذي يفرغ المزاجات ويبعد عن رغبات وأطماع أخرى... ولكن الضحك يبقى بهذه الصفة شيئا حقيرا، دفاعا بالنسبة الى السّذج، سرا خفيا غير مقدّس بالنسبة الى العامّة. كما كان يقول الحواري، تزوجوا، سيكون ذلك أفضل لكم من ان تحرقوا! بدلا من ان تثوروا على النظام الذي اراده الرّب، اضحكوا وتسلوا بمحاكاتكم النجسة للنظام، عند اتمام الأكل، بعد أن تكونوا أفرغتم الأباريق والقناني. انتخبوا ملك الأغبياء وتيهوا في طقس الحمار والخنزير، تلهّوا بتمثيل فجوركم ورؤوسكم الى أسفل... ولكن هنا، هنا...» ـ الآن أخذ يورج يضرب باصبعه على الطاولة قرب الكتاب الذي كان أمام غوليالمو ـ «هنا ينقلب دور الضحك، ويُرفع الى مستوى الفنّ، وتُفتح له أبواب دنيا العلماء، يصبح موضوعا فلسفيا ولاهوتية خادعة... لقد رأيت بالأمس كيف يفكر البسطاء، وينفّذون فعلا البدع الأكثر ضلالا، متنكرين لتعاليم الرب ولنواميس الطبيعة ولكن الكنيسة يمكنها احتمال بدع السذّج، الذين يهلكون انفسهم بأنفسهم، ويؤديهم جهلهم الى التهلكة. ان جنون دولتشينو الجاهل وأمثاله لن يضع أبدا النظام الالهي في أزمة. سينادي بالعنف ويموت بالعنف، لن يترك أثرا، سيزول كما يزول الكرنفال، ولا يهم ان يحدث خلال الحفلة عيد غطاس العالم المقلوب على الأرض. يكفي أنْ لا تتحول الحركة الى رسم، وان لا تجد هذه اللغة العاميّة، لاتينية لترجمتها. الضّحك يحرر العامي من الخوف من الشيطان، لأنه في حفل الأغبياء حتى الشيطان يبدو فقيرا وغبيّا، ويمكن اذن مراقبته ولكن هذا الكتاب يمكنه ان يعلم ان التحرّر من الخوف من الشيطان هو علم... عندما يضحك السوقي، والخمر يقرقر في حلقه، يحسّ بنفسه سيّدا، لانه قلب علاقات السيادة، ولكن يمكن لهذا الكتاب ان يلقّن العلماء الوسائل الفطنة التي تغدو مشهورة منذ ذلك الحين لاقرار انقلاب. عندئذ تتحوّل الى عملية فكر تلك التي كانت لا تزال، ولحسن الحظ، في حركة السّوقي الطائشة، عمليّة بطن. ان يكون الضحك

من خاصيات الانسان فذلك دليل على محدوديتنا كمذنبين. ولكن من هذا الكتاب، كم من فكر منحرف كفكرك سيستخرج منه القياس الاخير، بأن الضحك هو غاية الانسان! الضحك يبعد لبضع لحظات، السوقي عن الخوف. ولكن القانون يُفرض من خلال الخوف، واسمه الحقيقي هو الخوف من اللّه. ولكن من هذا الكتاب يمكن ان تندلع الشرارة الشيطانية التي يمكنها ان تضرم في العالم أجمع حريقا جديدا: وسيُتّخذ الضحك فنّا جديدا، مجهولا حتى عند بروميثيوس، لازالة الخوف. والسوقي الذي يضحك، لا يهمه في تلك الآونة ان يموت. ولكن من بعد، بعد ان تنتهي اباحته، تفرض عليه الطقوس الدينية من جديد، حسب الرسم الالهي، الخوف من الموت. ومن هذا الكتاب يمكن أن يتوّلد التوق الجديد والهدّام لتحطيم الموت عن طريق التّحرر من الخوف. وماذا سيكون مصيرنا، نحن الكائنات المذنبة، من غير الخوف. الذي هو ربّما أحكم وألطف الهبات الالهية؟ لقد جاد فكر الآباء والعلماء، طيلة قرون بخلاصات عطرة من العلم المقدّس قصد التكفير، من خلال التأمل فيما هو سام، عن حقارة واغراء ما هو دنيء. وهذا الكتاب بتبريره للملهاة وكذلك الاهجوة والمحاكاة، على أنها دواء معجز، يطهر من الاهواء من خلال تصوير العيب والنقص، والضعف، سيحمل العلماء الزائفين (بانعكاس شيطاني) على محاولة التكفير عمّا هو سام من خلال قبول الدنيء. من هذا الكتاب يمكن أن تنشأ فكرة أنه بامكان الانسان ان يسعى على الأرض (كما يوحي صاحبك باكون بخصوص السحر الطبيعي) لنفس الرخاء المزعوم في ارض النعيم. ولكن هذا ما لا يجب ولا نقدر ان نمتلكه. انظر الرهبان الصغار الذين يتركون الحشمة في محاكاة «العشاء السري...» الساخرة والمضحكة. يا له من تحريف شيطاني للكتابات المقدّسة! ومع ذلك عندما يفعلون ذلك يعرفون انهم يرتكبون اثما. ولكن في اليوم الذي تبرّر فيه كلمة الفيلسوف الالعاب الهامشية للمخيّلة المشوّشة، آه، عندئذ ما كان على الحاشية يقفز حقيقة الى المتن ويفتقد من المتن كل أثر. ويتحوّل شعب الرّب إلى مجمع من المسوخ تلفظها أعماق الأرض المجهولة، وعندئذ تصبح حاشية الأرض المعروفة قلب الامبراطورية المسيحية: المتوحشون الاريماسبون فوق كرسي بطرس، والهمجيّون البليميّون في الأديرة، والأقزام ذوو البطون الكبيرة والرؤوس الضخمة يحرسون المكتبة! ويفرض الأغبياء القانون، ونحن

(وأنت أيضا، عندئذ) نصبح خاضعين لغياب أي قانون. يقول فيلسوف يوناني (يذكره هنا صاحبك ارسطو، يا له من متواطئ ويا لها من سلطة علمية ضالّة) انه يجب دك رصانة الخصم بالضحك، وجعل الضحك منافسا للجدّ. ان حصافة آبائنا قد اختارت: ان كان الضحك متعة العامّة لتكبح الصرامة فسق العامّة وتذله وتخفه. وليس للعامّة السلاح لتهذيب الضحك ولجعله أداة ضدّ جديّة الكهنة الذين يقودونهم الى الحياة السرمدية ويبعدونهم عن اغراء البطن، والعورة، والطعام وعن رغباتهم الجنونية. لو حرّك أحدهم يوما كلمات الفيلسوف وتكلّم اذن كفيلسوف، ورفع فن الضحك الى مكانة سلاح ذكي، لو عوضت خطابة الاقناع بخطابة السخرية، لو عُوّضت الحجّة المتأنية والمنجيّة التي تعتمد على صور الخلاص البشري، بالحجة المتلهفة التي تقلب كل الصوّر المقدسة والجليلة - آه، في ذلك اليوم أنت أيضا وكل معرفتك يا غوليالمو، ستكونان من المهزومين.

- لماذا؟ ساكافح، ستكون دقّة نظري ضدّ دقة نظر الآخرين. سيكون عالما أحسن من العالم الذي تذلّ فيه نار برناردو غي وحديده نار دولتشينو وحديده.

- ستكون أنت أيضا سجين مكائد الشيطان. ستقاتل في الجهة الأخرى من ساحة الارماجدّون، حيث ستكون المواجهة النهائية. ولكن في ذلك اليوم ينبغي ان تعرف الكنيسة كيف تفرض مرّة أخرى قاعدة المعركة. لا يخيفنا التجديف، لأنه حتى في لعنة الرّب نتعرف على صورة الاله التي غيّرها الغضب وهو يلعن الملائكة المتمردين. لا يخيفنا العنف الذي يقتل الكهنة باسم بعض البدع التجديدية، لأنه نفس عنف الملوك الذين حاولوا ابادة شعب اسرائيل. لا تخيفنا صرامة الدوناتّي، وجنون المتعصبين الانتحاري، ودعارة البغوميليين، وعفّة الالبيجيين الصلفة، وحاجة المتسوّط الى الدم، ونشوة الاثم لدى راهب الفكر الحرّ: اننا نعرفها كلها ونعرف مصدر اثمها الذي هو نفسه مصدر قداستنا. لا تخيفنا، ونعرف بالخصوص كيف نحطمها، أو بالأحرى كيف نتركها تتحطّم من تلقاء نفسها رافعة الى السّمت بتكبّر ارادة الموت التي تنشأ من أعماق نظيرها السحيقة. بل، أريد أن أقول ان وجودهم ثمين بالنسبة الينا، ومرج في رسم الرّب، لان اثمهم يحرّضنا على العفة، ولان تجديفهم يقوي من انشادنا بالحمد، ولان تكفيرهم المشوّش ينظم استعدادنا للتضحية، ولان زندقتهم تزيد تقوانا

اشعاعا، كما أن أمير الظلمات كان ضروريا، بتمرده وبيأسه لتسطع أكثر هالة الرب، التي هي بداية وغاية كل رجاء. ولكن لو أقبل يوم لا تصبح فيه السخرية شذوذا يأتي به العامّة، بل نسكا يلتزمه العالم، ويعهد بها الى شهادة الكتابة الابدية، فتغدو مقبولة وتبدو نبيلة، وحرّة، لاميكانيكية، ولو أمكن أن يقول أحدهم يوما (ويصغى اليه) «أنا أضحك من تجسّد المسيح. . .» عندئذ لن يكون لدينا سلاح لوضع حد لذلك التجديف، لانه ينادي قوى المادة الجسدية الغامضة الى التّكتل، تلك التي تفرض وجودها في الضراط وفي الجشأ، وسيستأثر الضراط والجشأ بالحق، الذي هو الآن للفكر وحده، في ان ينفثا رائحتيهما حيث يريدان!

- لقد أقام ليغور كو صنما للضحك.

- انك قرأت ذلك في أهجوة كلوريسيوس، الذي حاول أن يبرأ المحاكاة من تهمة الالحاد، والذي يقول أن طبيبا شفى مريضا بمساعدته اياه على الضحك. لماذا شفاه، ان أراد الرّب ان يكون يومه الارضي قد وصل الى نهايته؟

- لا أظن أنه شفاه من الداء. لقد علّمه كيف يضحك من الداء.

- الداء لا يطرد بالتعزيم. بل يُحطّم.

- مع جسد المصاب.

- ان كان ذلك ضروريا.

عندئذ قال غوليالمو «انك انت الشيطان».

بدا ان يورج لم يفهم، ولو كان يبصر لحدّق في وجه مخاطبه بنظرة مستغربة.

- أنا؟

- نعم، لقد كذبوا عليك. الشيطان ليس أمير المادة، الشيطان هو صلف الفكر، هو الايمان دون ابتسام، الحقيقة التي لا يعتريها الشك. الشيطان قاتم لأنه يعرف اين يذهب، ويذهب دائما الى المكان الذي ذهب منه. انت الشيطان، وكالشيطان تعيش في الظلمات. إن كنت تريد أن تقنعني فإنك لم تنجح في ذلك. اني أمقتك يا يورج، ولو استطعت لجررتك الى أسفل، عبر السهل، عاريا وريش طير مغروس في دبرك ووجهك مطلي بالالوان كالمشعوذ أو كالمهرّج، حتى يضحك منك الدير بأكمله، ولن يخاف منك بعد ذلك احد. بودّي لو دهنتك بالعسل ومرّغتك في الريش، وقدتك بحبل عبر الأسواق كي أقول للجميع هذا الشخص كان يبلّغ اليكم الحقيقة ويقول لكم ان الحقيقة لها مذاق الموت، وانتم

لم تكونوا تؤمنون بأقواله، بل بصورته الكئيبة. والآن أقول لكم أنا ان الرّب في دوار الممكن اللامتناهي، يسمح لكم ان تتصوّروا عالما، لا يكون فيه مترجم الحقيقة المزعوم الا شحرورا أبله يعيد كلمات حفظها منذ زمن طويل.

فقال يورج عندئذ «أنت أسوأ من الشيطان، أيها الفرنشسكاني. انت مهرّج، كالقديس الذي ولدكم. أنت كصاحبك فرانشسكو الذي «جعل كامل جسمه لغة تتكلم»، والذي كان يعظ وسط حفل كالبهلوانيين، والذي كان يخزي البخيل واضعا في يده نقودا ذهبية، وكان يذل ورع الراهبات منشدا «الشكوى» عوضا عن الوعظ، والذي كان يطلب الصدقة بالفرنسية، ويحاكي بقطعة من الخشب حركات من يعزف على الكمان، والذي كان يتنكّر في زي متسكّع كي يخزي الرهبان الشرهين، والذي كان يرمي نفسه عاريا على الثلج ويتحدّث الى الحيوانات والى الأعشاب ويحوّل سر الولادة نفسه الى حفل قروي، وينادي حمل بيت لحم محاكيا ثغاء النعجة. . . لقد كانت حقا مدرسة صالحة. . . أليس فرانشسكانيا ذلك الراهب ديوتيسالفي دا فيرانسي؟».

فابتسم غوليالمو قائلا «نعم. ذلك الذي ذهب الى دير مبشرين وقال انه لن يقبل طعام ما لم يعطوه خرقة من جبّة الراهب يوحنّا ليحتفظ بها كذخيرة وعندما حصل عليها نظف بها دبره ثم رمى بها الزبل وبعصا طويلة أخذ يمرغها في الروث صائحا «واحسرتاه، ساعدوني يا اخواني لان رفات القديس سقطت في المرحاض!»

ـ يبدو ان هذه القصة تسليك. ربما كنت تريد ان تقص عليّ أيضا قصّة ذلك الفرنشسكاني الآخر، الراهب باولو ميلّيموسكي، الذي سقط يوما بكل طوله على الثلج فكان مواطنوه يسخرون منه وسأله أحدهم ان كان يريد شيئا أفضل من الثلج تحته فأجابه «نعم، زوجتك». هكذا تبحثون عن الحقيقة انتم؟

ـ هكذا كان فرانشسكو يعلم الناس ان ينظروا الى الحقيقة من وجه آخر.

ـ ولكنّنا أدّبناكم. انك رأيت بالأمس اخوانك. لقد انضموا الى صفوفنا، لم يعودوا يتكلمون كالبسطاء. البسطاء لا يجب ان يتكلموا وهذا الكتاب كان سيبرّر فكرة ان لغة البسطاء تحمل بعض الحكمة. هذا ما كان ينبغي منعه، وهذا ما فعلته. أنت تقول انني الشيطان. ليس صحيحا. لقد كنت يد الرب.

ـ ان يد الرب تخلق، لا تُخفي.

ـ هناك حدود لا يجب تجاوزها. لقد اراد الرّب ان تكتب على بعض الاوراق «هنا توجد الأسود».

ـ لقد خلق اللّه المسوخ، وخلقك انت أيضا. ويريدنا أن نتكلم عن كلّ ذلك.

فمدّ يورج يديه المرتعشتين وجذب اليه الكتاب. كان يمسكه مفتوحا، ولكن مقلوبا بحيث مكّن غوليالمو من مواصلة رؤيته بالوجه الصحيح. وقال: «لماذا سمح اللّه اذن بأن يفتقد هذا النص مدّة هذه القرون الطويلة، وان ينقذ منه نسخة واحدة، وان تبقى تلك النسخة، التي لا يدري أحد ماذا كان مصيرها، بين يدي مدفونة سنين بينيدي كافر لا يعرف اليونانية، وان تترك داخل مكتبة قديمة حيث أنا، لا أنت، اختارتني القدرة لكي اعثر عليها واحملها معي لاخفيها سنين طويلة أخرى؟ انا أعرف، أعرف كما لو كنت أرى ذلك مكتوبا بزخرف من ألماس، بعيني اللتين تبصران ما لا تبصره انت، أنا أعرف ان تلك كانت مشيئة اللّه، التي ترجمتها أنا بالفعل. باسم الاب، والابن والروح القدس.

اليوم السابع

ليْــلاً

وفيه يحدث الاحتراق الكامل وبسبب الافراط في الفضيلة
تتغلب قوى الجحيم

صمت الشيخ، وكانت يداه مفتوحتين فوق الكتاب، كما لو كان يمسح على صفحاته أو كمن يبسط الاوراق لقراءتها أحسن، أو كمن يريد حمايته من قبضة جشعة.

وقال له غوليالمو «على كل حال كل هذا لم يجد نفعا. الآن انتهى كل شيء. وجدتك ووجدت الكتاب ومات الآخرون عبثا.»

فأجاب يورج «كلاّ، لم يموتوا عبثا. ربما كان عددهم أكثر مما ينبغي وان كانت تلزمك حجة تبرهن على ان هذا الكتاب ملعون فقد وجدتها. ولكن لا ينبغي ان يموتوا سدى. وحتى لا يموتوا سدى فيا حبذا موتة أخرى.»

قال ذلك وأخذ يمزق بيديه النحيلتين الشاحبتين صفحات المخطوط الهشّة قطعا وأشرطة، ووضعها خرقا خرقا في فمه ثم مضغها بتأن كأنه يتناول القربان ويريد ان يجعله لحما من لحمه.

وكان غوليالمو ينظر اليه مندهشا وكأنه لم يدرك بعد ماذا كان يفعل. ثم انتبه وارتمى الى الأمام صائحا «ماذا تفعل؟» فابتسم يورج كاشفا عن لثّاته النازفة، بينما كان لعاب مصفر يسيل من شفتيه الشاحبتين على شعر ذقنه الابيض والنادر.

ـ انت الذي ينتظر صوت البوق السابع، أليس كذلك؟ اسمع الآن ما يقول ذلك الصوت: «اختم على ما تكلّمت به الرعود السبعة ولا تكتبه، خذه وكله، فسيجعل جوفك مرّاً ولكنه في فمك يكون حلوا كالعسل». انظر الآن سأكتم ما لا ينبغي ان يقال في القبر الذي سأكونه.

وضحك يورج، يا الله، نعم ضحك. للمرة الاولى اسمعه يضحك. . . ضحك

بحنجرته، دون أن تتخذ شفتاه هيئة الحبور. كان يبدو وكأنه يبكي: «لم تكن تنتظر هذه الخاتمة، يا غوليالمو أليس كذلك؟ انتصر هذا الشيخ، بمعونة الرب، مرة أخرى، اليس كذلك؟» وبما ان غوليالمو كان يحاول افتكاك الكتاب، ادرك يورج ذلك من ذبذبات الهواء التي أحس بها وتراجع الى الوراء ضاغطا بالكتاب على صدره بيده اليسرى مواصلا باليمنى تمزيق الصفحات ووضعها في فمه.

كان من الناحية الأخرى من الطاولة فلم يكن غوليالمو يقدر على الوصول اليه وعندما حاول ان يطوف بالحاجز اسقط مقعده وانحشر فيه ثوبه مما جعل يورج يحس بالجلبة. وضحك ثانية، بصوت أعلى هذه المرة، وبسرعة غريبة مدّ يده اليسرى متحسسا السراج، تقوده اليه الحرارة، ولما وصل الى الشعلة ضغط عليها بيده دون ان يخشى الالم فانطفأت. وغرقت القاعة في الظلام بينما سمعنا لآخر مرة ضحكة يورج، الذي كان يصيح: «اعثروا عليّ ان استطعتما لأنني أرى الآن احسن منكما!». ثم صمت ولم يسمع له حس بعد ذلك، متحرّكا بتلك الخطوات الصامتة التي كانت تجعله يظهر فجأة، وكنا نسمع فقط، من حين لآخر، في نقاط مختلفة من القاعة، صوت الورق وهو يمزّق. وصاح غوليالمو «أدسو، قف على الباب ولا تدعه يخرج!»

ولكنه قال ذلك بعد فوات الآوان لأنني، وقد كنت منذ بضع لحظات تهزّني الرغبة في الارتماء على الشيخ، عندما بقينا في الظلام ارتميت الى الأمام محاولا أن أطوف بالطاولة من الناحية المعاكسة لاستاذي. وفهمت بعد فوات الآوان أنني تركت ليورج وقتا طويلا ليصل الى الباب لأن الشيخ كان يجد وجهته في الظلام بثقة عجيبة. وفعلا سمعنا صوت ورق يمزّق خلفنا، وكان ضعيفا، لانه كان يأتي من القاعة المجاورة. وفي نفس الوقت سمعنا صوتا آخر، صريرا كاذّا ومتدرّجا، أنين محاور. فصاح غوليالمو «المرآة، انها ستنغلق علينا!» وانطلقنا نحو المدخل، متبعين مصدر الصوت، وتعثرت أنا في مقعد فُرِضّت ساقي، ولكني لم أحفل بها لأنني فهمت في ومضة برق انه لو حبسنا يورج هناك لاستحال علينا الخروج: لن نستطيع إيجاد الوسيلة لفتح الباب في الظلمة، دون ان نعرف من تلك الناحية ماذا يجب ان نحرّك وكيف.

اظن ان نفس اليأس كان يدفع غوليالمو لأنني أحسست به الى جانبي بينما كنّا بعد بلوغنا العتبة ندفع معا بقفا المرآة التي كانت تنغلق من ناحيتنا. ووصلنا في

الوقت المناسب لأن الباب توقف وبعد قليل انفتح من جديد تحت الضغط. بطبيعة الحال أحسّ يورج ان اللعبة لم تكن متوازية فابتعد، وخرجنا من القاعة الملعونة. ولكن في الظلمة التي كانت لا تزال تامّة لم نعد نعرف الى اين اتجه الشيخ. وفجأت تذكرت: «أستاذي، لديّ القدّاحة!»

فصاح غوليالمو «ماذا تنتظر؟ ابحث عن السراج واشعله!» فانطلقت في الظلمة عائدا على أعقابي الى قاعة «أقصى افريقيا»، وأخذت أتلمّس، بحثا عن السراج. ووجدته فورا، بمعجزة من الرب، وفتشت كتفيتي حتى وجدت القداحة. كانت يداي ترتعشان وأخفقت مرتين أو ثلاثا قبل أن أشعله بينما كان غوليالمو يلهث على الباب «اسرع، اسرع» وأخيرا أضأت النور بينما كان غوليالمو لا يزال يحثني «اسرع، والا سيأكل ذلك اللعين ارسطو بأكمله!»

وصحت مكروبا، وأنا ألتحق به لمواصلة البحث معه: «وسيموت»

ـ لا يهمّني ان يموت، ذلك اللعين! ـ كان يفحص بعينيه حواليه متحركا بدون نظام: بأكله للكتاب يصبح مصيره محتوما. ولكنني اريد الكتاب.

ثم توقف وأضاف بهدوء «قف، بهذه الطريقة لن نجده أبدا. لنصمت برهة ولا نتحرك.» وتجمّدنا في صمت. وفي السكون سمعنا غير بعيد صوت جسم يصطدم بخزانة، ودويّ بعض الكتب التي سقطت. فصحنا معا «من هناك».

جرينا ناحية الصوت، ولكننا ادركنا في الحال انه ينبغي علينا ان نتمهل في خطانا. خارج قاعة «أقصى إفريقيا»، كانت تخترق المكتبة تلك الليلة هبّات من الهواء، تصفّر وتئن بمقدار عنف الريح في الخارج. وباندفاعنا الذي كان يضاعف منها، كانت تهدد بانطفاء النور، الذي تحصّلنا عليه بمشقة كبيرة. وبما انه لم يكن بامكاننا ان نعجّل، كان من الطبيعي ان نبطّىء يورج. ولكن جاءت لغوليالمو فكرة معاكسة وصاح «لقد قبضنا عليك ايها العجوز لدينا النور الآن» وكانت فكرة صائبة لان المكاشفة ادخلت ربما الارتباك على يورج، فعجّل خطاه مفسدا بذلك التوازن الذي كانت تملكه حساسيته العجيبة كبصير في الظلام. فعلا بعد ذلك بقليل سمعنا صوتا آخر وعندما دخلنا متبعين الصوت الى قاعة «Y» من مجموعة YSPANIA رأيناه ملقى على الأرض والكتاب لا يزال بين يديه، بينما كان يحاول النهوض، ولكن مواصلا دائما تمزيق الصفحات كما لو كان يريد التهام فريسته بأسرع ما يمكن.

ولحقناه عندما كان قد نهض، ولما أحس بوجودنا وقف قبالتنا وهو يتقهقر. وبدا لنا وجهه، تحت ضياء النور الاحمر، وقد أصبح الآن فظيعا: قسماته مشوّهة، وعرق خبيث يخدّد جبينه ووجنتيه، وعيناه اللتان كانتا في العادة بيضاوين بياض الموت أصبحتا محتقنتين بالدم، وكانت تخرج من فمه قطع من الرّق كوحش يتضوّر جوعا أخذ لقمة كبيرة ولم يقدر على بتلاعها. وتحوّلت تلك الصورة، وقد شوهتها اللهفة وفعل السّم الذي أصبح يسري الآن بوفرة في عروقه، واصراره اليائس والشيطاني، من صورة شيخ وقور الى صورة تظهر الآن شنيعة وبشعة: كان يمكن ان تبعث في حالات أخرى على الضحك ولكننا نحن أيضا أصبحنا نشبه حيوانين، كلبين يلاحقان طريدة.

كان بامكاننا ان نمسك به بهدوء، ولكننا ارتمينا عليه بعنف فتملّص شاداً بيديه علي صدره يدافع عن الكتاب وكنت أنا أمسكه باليسرى بينما كنت أحاول باليمنى ان أبقي على السراج عاليا، ولكنني كدت ألمس وجهه بالشعلة، وأحسّ هو بالحرارة فأطلق صوتا مخنوقا يكاد يكون زئيرا، بينما قطع الورق تتساقط من فمه، ترك الكتاب وحرك يمناه نحو السراج فانتزعه مني بضربة ورمى به الى الامام.

وسقط السراج فوق كومة الكتب التي سقطت من على الطاولة والتي تراكمت الواحد فوق الآخر بصفحاتها المفتوحة. وسال الزيت، واضطرمت النار حالاً في ذلك الرّق الهشّ الذي اشتعل كأنه حزمة من الزغف الجاف. حدث كل ذلك في لحظات قليلة، وانطلقت من المكتبة شعلة عظيمة، كما لو كانت تلك الصفحات الالفية تتوق منذ قرون الى الاحتراق وتنعم بارضاء تعطشها للحرق مرة واحدة. وتفطن غوليالمو الى خطورة ما كان يقع فترك الشيخ ـ الذي تقهقر بضع خطوات عندما أحس بنفسه متحرّرا من القبضة ـ وتردّد بعض الشيء، بل كثيرا بلا ريب، دون ان يعرف ان كان ينبغي ان يمسك من جديد بالشيخ او ان يلقي بنفسه لاطفاء تلك المحرقة الصغيرة. ولمست النار كتابا أقدم من الكتب الأخرى فاشتعل اشتعالا سريعا قاذفا الى اعلى بلسان من اللهب. وشفرات الريح الرهيفة التي يمكنها ان تطفئ شعيلة ضعيفة كانت على العكس تقوّي الشعلة الكبيرة الحيّة، بل وتخرج منها شرارات تنطلق في كلّ اتجاه.

فصاح غوليالمو «اسرع، اطفأ تلك النار، وإلاّ سيحترق كل شيء هنا!» واندفعت نحو المحرقة، ثم توقفت لأنني لم أكن أعرف ماذا ينبغي ان أفعل.

وتحرك غوليالمو نحوي، لمساعدتي. ومددنا ايدينا نحو الحريق، باحثين بعيوننا عن شيء نطفئه به، ثم خطرت لي فكرة فخلعت ثوبي ممررا اياه من رأسي وحاولت ان أرميه على النار. ولكن اللّهب اصبح عاليا جدا، وأخذ من ثوبي وزاد اتقاداً منه. فسحبت يدي وقد أصابهما الحرق والتفتّ نحو غوليالمو فرأيت، وراءه بالضبط يورج يقترب من جديد. كانت الحرارة قد اصبحت شديدة جدا بحيث احس بها جيّدا وعرف بيقين تام اين كانت النار وألقى فيها بأرسطو.

فتملّك غوليالمو الغضب ودفع الشيخ بضربة عنيفة فاصطدم بخزانة ضاربا رأسه على حافتها ثم سقط على الأرض ولكن غوليالمو، الذي يبدو لي انه تلفّظ بلعنة فظيعة، لم يحفل به وعاد الى الكتب. ولكن فات الاوان. كان أرسطو، أو ما تبقى منه بعد فطور الشيخ، يحترق.

في الأثناء طارت بعض الشرارات نحو جوانب القاعة وكانت بعض الكتب في خزانة أخرى تلتوي على نفسها تحت قوة النار. الآن يوجد حريقان في القاعة لا حريق واحد.

فهم غوليالمو انه لن يمكننا ان نطفئ الحريق بيدينا وقرر ان ينقذ الكتب بالكتب فأمسك بكتاب بدا له مجلدا أحسن من غيره واكثر تماسكا وحاول ان يستعمله كسلاح لاخماد العنصر المعادي.

ولكن بضربة الكومة من الكتب المشتعلة بالتجليد المزخرف بالمعدن لم يزد الا ان خلق شرارات اخرى. حاول ان يخمدها بقدميه ولكنه حصل على المفعول المعاكس، اذ تصاعدت قصاصات من الرق محترقة وطارت كالوطاويط بينما الهواء الذي تحالف مع رفيقه الهوائي، كان يبعثها لتحرق مادة الاوراق الاخرى الارضية.

وشاء سوء الحظ ان تكون تلك احدى القاعات في المتاهة الاكثر فوضى. كانت تتدلى من رفوف الخزانات مخطوطات مطوية، وكتب أخرى قد رثت وكانت تظهر من بين اغلفتها، ألسنة من جلد جففته السنين، كأنها تتدلّى من شفاه مفتوحة، ويبدو لي ان الطاولة كانت محمّلة جدا بكتب أهمل ملاخي (الذي بقى وحيدا منذ أيام) ان يعيدها الى مكانها. بحيث ان القاعة مع الكتب التي اسقطها يورج كانت تكتسحها الرقوق التي لم تكن تنتظر الا ان تتحول الى عنصر آخر.

في وقت وجيز أصبح ذلك المكان مرجلا ضخما، عوسجا مشتعلا. وحتى

الخزانات أخذت نصيبها من تلك التضحية وبدأت تفرقع. وادركت ان المتاهة بأكملها ليست الا محرقة قربانية عظيمة، أعدّت في انتظار ان تندلع الشرارة الاولى..

وكان غوليالمو يصيح «الماء، نحتاج الي الماء» ثم يضيف: «اين يوجد الماء في هذا الجحيم؟»

فصحت «في المطبخ، في الاسفل، في المطبخ!» نظر اليّ غوليالمو حائرا ووجهه محمرّ من ذلك الضياء المتوهج: «صحيح ولكن قبل ان ننزل ونصعد من جديد ـ ثم صاح: الى الشيطان. على كل حال هذه القاعة هلكت وربما المجاورة ايضا لننزل في الحال، سأبحث عن الماء واذهب انت لانذار الآخرين نحتاج الى اناس كثيرين!»

وجدنا الطريق نحو السلم لأن الحريق كان يضيء القاعة الموالية ايضا وان كان بضعف حتى اننا كدنا نجتاز القاعتين الاخرتين تلمّسا. كان ضياء الليل ينير في الأسفل قاعة الكتابة بنور شاحب ومن هناك نزلنا الى قاعة الاكل. وهرع غوليالمو الى المطبخ، وانا الى قاعة الاكل التي فتحتها من الداخل بعد عناء طويل لأن الاضطراب كان يجعلني أخرق وعديم المهارة. ثم خرجت الى الباحة وعدوت خارج قاعات النوم، ولكنني ادركت انه لن يمكنني ان أوقظ الرهبان واحدا واحدا، ولمعت في ذهني فكرة فذهبت الى الكنيسة باحثا عن الطريق نحو برج الجرس وما ان وصلت حتى تعلّقت بكل الحبال وأخذت أدق جرس الخطر. كنت أجذب بقوة، بينما كان حبل الجرس الأكبر، عند ارتفاعه يجذبني معه. وكانت يداي قد احترق قفاهما، بينما كانت راحتي سليمتين فأكملت وأحرقتهما بسحبهما على الحبال الى ان دميتا واجبرت على فك قبضتي.

ولكني كنت قد أحدثت صخبا كافيا، واسرعت الى الخارج، عندما كان أول الرهبان قد خرجوا من قاعات النوم، وكانت تسمع من بعيد اصوات الخدم الذين أطلوا من عتبات بيوتهم. ولم أقدر على شرح ما حدث، لأنني لم أكن قادرا على الكلام، والكلمات الاولى التي نطقت بها شفتاي كانت في لغتي الأم. وكنت أشير بيدي الدامية الى نوافذ الجناح الجنوبي من الصرح التي كان يتراءى من خلالها وميض غير عادي. وتفطنت من قوة الضياء، انه أثناء نزولي ولقرع الجرس، كانت النار قد امتدت الى قاعات اخرى. كانت كل نوافذ قسم «افريقيا»

والواجهة كلها بين تلك القاعة والبرج الشرقي تضيء ببروق متفاوتة القوة. وكنت أصيح «الماء هاتوا الماء!».

في بداية الامر لم يفهم احد. لفرط تعودهم على اعتبار المكتبة مكانا مقدسا منيعا كان الرهبان لا يقدرون على تصوّر انه يمكن ان يهددها حادث مألوف، وكأنما كانت كوخ فلاحين. والاولون الذين رفعوا انظارهم الى النوافذ رسموا علامة الصليب متهامسين بكلمات فزع، وفهمت انهم كانوا يظنون انها رؤى جديدة. فأمسكت بثيابهم وتوسلت اليهم ان يفهموا، الى ان ترجم احدهم شهقاتي الى كلمات آدمية. كان نيكولا دا موريموندو الذي قال «المكتبة تحترق!» فهمست: «هو ذا»، وسقطت منهكا على الأرض.

وأظهر نيكولا نشاطا كبيرا، ملقيا الاوامر الى الخدم، والنصائح الى الرهبان المحيطين به، وأرسل واحداً كي يفتح ابواب الصرح الاخرى وحثّ آخرين كي يبحثوا عن سطول وأوعية من كل شكل، ووجّه الحاضرين نحو العيون وخزّانات الماء الموجودة داخل أسوار الدير. وأمر البقّارين باستعمال البغال والحمير لحمل الجرار.. لو اعطيت تلك الاوامر من قبل رجل له بعض السلطات لنفّذت في الحال. ولكن الخدم اعتادوا على تلقي الاوامر من ريميجيو، والناسخين من ملاخي والجميع من رئيس الدير. ولا أحد منهم كان لسوء الحظ حاضرا. وكان الرهبان يفتشون بأنظارهم عن رئيس الدير، بحثا عن اشارة منه أو عن تشجيع فلا يجدونه. وكنت الوحيد الذي يعرف انه مات أو أنه يحتضر في تلك الآونة، سجينا في ذلك الممر الخانق والذي كان يتحوّل الى أتون، الى ثور فلاريس.

كان نيكولا يدفع بالبقارين الى جهة، ولكن احد الرهبان عن حسن نية كان يبعثهم الى جهة اخرى. وفقد بعض الاخوان بطبيعة الحال هدوؤهم وبعضهم لا يزال مسترخيا من النوم. وكنت احاول ان أشرح لهم، وقد عادت اليّ القدرة على الكلام، ولكن من الضروري ان أذكّر القارىء اني كنت تقريبا عاريا، اذ القيت بردائي في النار، ورؤية ذلك الصبي والدامي والمسود الوجه من السناخ، عاريا بدون احتشام وقد اصبح بليد الذهن من البرد لم تكن بكل تأكيد توحي بالثقة.

أخيرا استطاع نيكولا ان يجرّ البعض من اخوانه واناساً آخرين الى المطبخ، بعد ان جعل احدهم الدخول اليه ممكنا وفكّر آخر في جلب بعض المشاعل. ووجدنا المكان في فوضى كبيرة، وفهمت ان غوليالمو قد وضع كلّ شيء رأسا

على عقب بحثا عن الماء وعن أوعية ملائمة لجلبه.

ورأيت في ذلك الحين غوليالمو يخرج من باب قاعة الأكل، وقد احترق وجهه بعض الشيء وثيابه تدخن، وكان يحمل في يده قدرا كبيرة وأشفقت على تلك الصورة اليائسة للعجز. وأدركت أنه حتى ولو نجح في حمل قدر من الماء الى الطابق الثاني دون قلبها وحتى ولو فعل ذلك أكثر من مرّة فلن يكون قد وصل الى أية نتيجة. وتذكّرت قصة القديس أغوسطينو الذي رأى صبيا كان يحاول نقل ماء البحر بملعقة: كان ذلك الصبي ملاكا وكان يفعل ذلك سخرية من القديس الذي كان يريد النفاذ الى اسرار الطبيعة الالهية. وكما كان شأن الملاك، قال لي غوليالمو وهو متكىء الى كفاف الباب من التعب «مستحيل. لن نقدر ابدا على اطفائه حتى مع كل رهبان الدير. لقد هلكت المكتبة». خلافا للملاك كان غوليالمو يبكي. فالتصقت به، ونزع هو غطاء طاولة محاولا ان يغطيني به، ثم بقينا ننظر مهزومين الى ما كان يجري من حولنا.

كان الجميع يتراكضون دون نظام، منهم من كان يصعد فارغ اليدين ليعترض على السلم من صعد مثله فارغ اليدين بدافع فضول ابله، والآن ينزل للبحث عن اوعية وآخرون أفطن كانوا يبحثون في الحال عن قدور وطسوت، ولكنهم تفطنوا من بعد انه لم يعد هناك ماء كاف في المطبخ، وفجأت أجتاحت القاعة الكبيرة بعض البغال محمّلة بالجرار كان البقارون يدفعونها، ثم ينزلون عنها حمولتها ويتأهبون لحمل الماء الى فوق. لكنهم كانوا لا يعرفون الطريق للصعود الى قاعة الكتابة. ويمضي بعض الوقت قبل أن يريهم بعض الناسخين الطريق فيصعدون ولكن يعترضهم اولائك الذين كانوا ينزلون من فوق مرتاعين. وانكسرت بعض الجرار وانسكب ماؤها على الارض ومرّرت ايد مساعفة جرارا أخرى عبر السلم الحلزوني. وتبعت المجموعة فوجدت نفسي في قاعة الكتابة: كان يأتي من مدخل المكتبة دخان كثيف، وآخر من حاول الوصول الى البرج الشرقي كان خارجا وهو يسعل وقد احمرّت عيناه، معلنا انه لا يمكن الدخول الى ذلك الجحيم.

عند ذلك رأيت بانشيو. كان صاعدا من الطابق السفلي، متغيّر الوجه، وهو يحمل وعاء كبير. وسمع ما قاله اولائك الذين خرجوا سالمين من المكتية فقال لهم «سيبتلعكم الجحيم كلكم، ايها الجبناء - والتفت كمن يبحث عن معونة ولمّا

رآني صاح «ادسو، المكتبة.. المكتبة...» - ولم ينتظر جوابي جرى الى أسفل السلم ودخل بجسارة وسط الدخان. وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

ثم سمعت قرقعة متأتية من فوق. كانت تسقط من قباب قاعة الكتابة قطع من الحجارة المختلطة بالجير. وانفصل سند قبّة منحوت في شكل زهرة وكاد يسقط فوق رأسي. كانت أرضية المتاهة بصدد الانهيار.

فنزلت بسرعة الى الطابق الارضي ومضيت الى الخارج. وكان بعض الخدم الحازمين قد أتوا بسلالم محاولين الوصول الى نوافذ الطوابق العليا ليمرّروا من خلالها الماء الى الداخل. ولكن السلالم الاكثر طولا كانت تصل فقط الى نوافذ قاعة الكتابة ومن صعد اليها لم يمكنه فتحها من الخارج. وبعثوا احدا يطلب ان تفتح من الداخل ولكن لم يجرؤ اي انسان على الصعود.

في الأثناء كنت أنظر الى نوافذ الطابق الثالث. لقد اصبحت المكتبة الآن أتونا مدخنا، وكانت النار تمرّ سريعة من قاعة الى أخرى فاتحة طريقها عبر الآلاف والآلاف من الصفحات الجافة. وأصبحت كل النوافذ مضاءة بينما كان الدخان ينفذ من السقف: لقد وصلت النار الى تخشيبة السقف. والصرح الذي كان يبدو قويا ومتينا في كل اجزائه أظهر في ذلك الظرف ضعفه، وشقوقه، وجدرانه المتآكلة حتى من الداخل، وحجارته المكشوفة التي كانت تسمح لالسنة اللهب بأن تصل الى الهيكل الخشبي اينما كان.

وفجأة انكسر زجاج بعض النوافذ، كأن قوة داخلية ضغطت عليه، واندفعت الى الخارج شرارات نقطت ظلام الليل بأنوار تائهة. والريح التي كانت عنيفة أصبحت أقل حدّة، وكان ذلك من سوء الحظ، لأنها لو كانت عنيفة لأطفأت ربما الشرارات، بينما الآن صارت تحملها وتزيد في هيجانها، مطيّرة معها قصاصات من الرق اصبحت من شدة ارتجافها المتوهج رقيقة جدا. وعند ذلك سمعت فرقعة: لقد خرّت أرضية المتاهة في عدّة نقاط وانهارت روافدها الملتهبة على الطابق السفلي، لانني رأيت آنذاك ألسنة اللهب ترتفع من قاعة الكتابة، المليئة هي أيضا بالكتب وبالخزانات وبأوراق غير متماسكة موضوعة على الطاولات، تنتظر لمسة الشرارات. وتعالت صيحات يأس من مجموعة من الناسخين نتفوا شعرهم، وهم لا يزالون يفكرون في الصعود ببطولة لانقاذ رقوقهم الغالية. لم يجد ذلك نفعا اذ اصبح المطبخ وقاعة الاكل ملتقى لأرواح تائهة تتحرك في كل الاتجاهات،

وتعرقل احداها الاخرى. كانوا يصطدمون احدهم بالآخر ويسقطون، ومن كان يحمل وعاء انسكب محتواه المنقذ كما ان البغال التي دخلت الى المطبخ احسّت بوجود النار وسارعت الى الخارج وهي تركل، مصطدمة بالبشر وحتى بسوّاسها المذعورين. كان من الواضح على كل حال ان تلك المجموعة من الخدم والرجال الاتقياء والحكماء، كانت عديمة المهارة ودون قيادة، وتعرقل حتى تلك الاغاثات التي كان ربما بامكانها ان تصل.

واجتاح الاضطراب كامل السهل. ولكن لم نكن الا عند بداية المأساة لأن سحابة الشرارات الظافرة التي خرجت من النوافذ ومن السقف، بتشجيع من الريح، كانت تسقط في كل مكان، لامسة سطح الكنيسة. ومن لا يعرف كم من كاتدرائية جميلة استسلمت للمسة النار: لأن دار الرب تبدو جميلة ومنيعة كالقدس السماوية، بسبب الحجارة التي تزينها وتفخمها، ولكن الحيطان والقباب تنتصب فوق هندسة من الخشب رائعة لكنها ضعيفة، وان كانت الكنيسة تذكّر من حيث الحجارة بالغابات الأكثر جلالة بسبب اعمدتها التي تتفرّع عالية نحو القباب، جسورة كالسنديان، فغالبا ما يكون جسمها من السنديان، كما ان أثاثها كله من الخشب، من مذابح ومحاريب ولوحات مرسومة ومصطبات ومقاعد وشمعدانات. هذا ما حدث للكنيسة الديرية ذات البوابة الرائعة التي بهرتني في اليوم الأول. فقد اشتعلت في وقت وجيز جدا. وفهم آنذاك الرهبان وكل أهل السهل ان حياة الدير كلها في خطر، وتسارعوا بشجاعة أكثر، وبفوضى أكبر، لمواجهة ذلك الخطر. كان الدخول الى الكنيسة دون شك أيسر، ولذا كان الدفاع عنها أسهل من الدفاع عن المكتبة. لقد هلكت المكتبة لصعوبة منالها، وللأسرار التي كانت تحفظها، ولقلة مداخلها. أما الكنيسة، المفتوحة دائما برحابة صدر للجميع في وقت الصلاة فقد كانت مفتوحة ايضا في ساعة الغوث ولكن لم يعد هناك ماء أو لم يبق منه الا قليل جدا وبكمية بالكاد تكفي فقط لحاجة الدير في ظروف عادية، اذ كانت العيون تجود بتقتير وبطء لا يتماشيان واستعجالية الظرف. كان بامكان الجميع ان يطفئوا حريق الكنيسة ولكن لا أحد يعرف الآن كيف. ومن ناحية أخرى وصلتها النار من فوق حيث كان من الصعب الوصول اليها ومكافحتها أو إخمادها بالتراب والخرق. وعندما وصلت النيران الى أسفل اصبح من العبث القاء التراب عليها أو الرمل اذ كان السقف بصدد الانهيار على المغيثين الذين

هلك العديد منهم تحت الانقاض.

وهكذا، اضافة الى صيحات الحسرة على ثروات الدير التي التهمتها النيران، تعالت صيحات الالم للوجوه المحترقة والاعضاء المهشمة والاجساد التي اختفت تحت انهيار القباب الفجائي.

وأصبحت الريح من جديد عنيفة وأخذت تنشر العدوى بعنف أكبر. فاشتعلت النيران حالا بعد الكنيسة في الزريبة والاصطبلات وقطعت الحيوانات أوثقتها وخلعت الأبواب، ثم انتشرت عبر الرحبة وهي تصهل، وتخور، وتثغو، وتنخر بفظاعة. ولمست بعض الشرارات أعرف خيول عديدة فكنت ترى مخلوقات جهنمية تجتاز الرحبة، أفراسا ملتهبة تقلب كل شيء في عدوها، دون توقف ودون هدف ورأيت أليناردو الشيخ يتجوّل تائها لا يعرف ماذا كان يحدث ورفسه برونيلّو الجميل المتوج بالنار ومرّغه في التراب ثم تركه شيئا مسكينا عديم الشكل. ولكنني لم أجد لا الطريقة ولا الوقت لإغاثته، ولا حتى للبكاء على مصيره، لأن مشاهد من ذلك القبيل كانت تقع في كل مكان من السّهل.

وحملت الخيول المشتعلة النار الى حيث لم تحملها الريح: الآن أصبحت المعامل ودار الرهبان المبتدئين تشتعل. بينما جماعات من الأشخاص كانت تجري من طرف السهل الى طرفه الآخر، دون هدف أو بأهداف وهمية. رأيت نيكولا مجروح الرأس ممزّق الثياب، جاثيا على ركبتيه مهزوما في شارع المدخل، يلعن اللعنة الالهية. ورأيت باتشيفكو دا تيفولي، الذي عدل عن كل فكرة اغاثة وهو يحاول ان يمسك ببغل جموح أثناء مروره بالقرب منه ولمّا نجح في ذلك صاح بي ان أفعل نفس الشيء وان أهرب، لأنجو من تلك الصورة المشوّهة للارماجدّون.

تساءلت عندئذ اين يمكن ان يكون غوليالمو، وخفت ان يكون بقي تحت الانقاض. بعد بحث طويل وجدته قرب الرواق. كان يحمل جرابه في يده: عندما وصلت النار الى دار الضيافة صعد الى حجرته لانقاذ حوائجه النفيسة على الاقل وأخذ معه أيضا جرابي الذي وجدت فيه شيئا ألبسه ثم توقفنا ونحن نلهث لنشاهد ما كان يحدث من حولنا.

لم يعد هناك أي أمل في انقاذ الدير. فقد وصلت النيران الى كل بناءاته وما بقى سالما منها لن ينجو طويلا. لان كل شيء الآن، من العناصر الطبيعية الى

عمل المغيثين الفوضوي، كان يعين على انتشار الحريق. ولم تسلم الا الفضاءات الخالية من البناءات: المبقلة والحديقة أمام الرواق. . . لم يعد هناك ما يمكن القيام به لانقاذ البناءات ولكن يكفي العدول عن فكرة انقاذها والبقاء في فضاء مكشوف لمشاهدة كل شيء دون التعرض للخطر.

وبقينا ننظر الي الكنيسة وهي تحترق ببطء، لانه من خاصيّات تلك البناءات العظيمة ان تشتعل بسرعة في اجزائها الخشبية ثم تحتضر ساعات وساعات واحيانا أيّاما، أمّا الصرح فقد كان يشتعل بطريقة مختلفة. هناك توجد مواد أكثر قابلية للاحتراق، والنار التي كانت قد اجتاحت قاعة الكتابة اخذت تلتهم الآن طابق المطبخ. أمّا الطابق الثالث حيث كانت توجد فيما مضى، ولقرون طويلة، المتاهة فقد تحطّم بأكمله.

قال غوليالمو «كانت أعظم مكتبات العالم المسيحي - ثم اضاف - الآن اصبح المسيح الدجال حقيقة تقريبا. لانه لن يكون هناك اي علم يقف ضدّه. ومن جهة اخرى، قد رأينا وجهه هذه الليلة.

فسألته مندهشا «وجه من؟»

- أتكلم عن يورج. في ذلك الوجه الحاقد على الفلسفة رأيت لأول مرة صورة الدجال، الذي لا يأتي من قبيلة يهوذا كما كان يقول من أنبأوا به، ولا من بلاد بعيدة. يمكن أن يولد الدجال حتى من التقوى، من فرط محبة الله أو الحقيقة، كما يتولّد الهرطيق من القدّيس والممسوس من العرّاف. احترس، يا أدسو من الانبياء، ومن أولائك المستعدين للموت من أجل الحقيقة لأنهم يجرون معهم عادة الى الموت كثيرين آخرين، يموتون غالباً قبلهم وأحياناً عوضاً عنهم. لقد قام يورج بعمل شيطاني لأنه كان يحب الحقيقة التي كان يؤمن بها حبّا شبقيا حتى انه كان مستعدا لكلّ شيء قصد تحطيم ما كان يعتبره بهتانا. كان يورج يخشى الكتاب الثاني لأرسطو، ربما لأنه كان يعلمنا كيف نمسخ وجه كل حقيقة، حتى لا نصبح عبيد أوهامنا. ربما كان واجب من يريد الخير للبشرية هو ان يجعلها تضحك من الحقيقة «أن تُضحِك الحقيقة» لان الحقيقة الوحيدة هي ان نتعلم كيف نتحرر من شغفنا المنحرف بالحقيقة.

فحاولت معارضته مكروبا «ولكن، يا أستاذي، انت تتكلّم هكذا لانك مجروح في اعماق دخيلتك. ولكن هناك حقيقة. . . تلك التي اكتشفتها هذا المساء، تلك

التي وصلت اليها مفسّرا الاثار التي قرأتها في الايام الفارطة. لقد انتصر يورج، ولكنك غلبت يورج لانك كشفت مكيدته..»

فقال غوليالمو «لم تكن هناك مكيدة، وانا اكتشفتها بمحض الصدفة.»

كان التأكيد يناقض نفسه، ولم افهم ان كان غوليالمو يريده حقيقة كذلك فقلت: ولكن كان صحيحا ان أدالمو انتحر، كان صحيحا ان فينانسيو لم يغرق في الجرّة، كان صحيحا ان المتاهة كانت منظمة حسب ما كنت تتصوّرها انت، كان صحيحا ان الدخول الى «اقصى افريقيا» يكون بلمس «Quatuor» كان صحيحا الكتاب الغامض هو لأرسطو... ويمكنني ان أواصل تعداد الاشياء الحقيقية التي اكتشفتها مستعينا بعلمك...

- لم أشك ابدا في حقيقة الدلالات، يا أدسو انها الشيء الوحيد الذي يملكه الانسان كي يجد وجهته في العالم. ما لم أفهمه هو العلاقة بين الدلالات. لقد وصلت الى يورج من خلال رسم رؤيوي كان يبدو انه يتحكم في كل الجرائم، واكتشفنا ان كل جريمة كانت في نهاية الامر تملك فاعلا مختلفا أو لا تملك فاعلا بالمرّة. ووصلت الى يورج متّبعا رسم فكر منحرف وبرهاني، ولم يكن هناك اي رسم أو بالأحرى سقط يورج نفسه ضحية رسمه الأوّلي، وبعد ذلك بدأت سلسلة من الاسباب، والاسباب المتلازمة، والاسباب المتناقضة، وواصلت وحدها محدثة علاقات لا تستجيب لأي رسم. اين هي كل حكمتي؟ لقد تصرّفت كما يتصرّف رجل عنيد متّبعا شبح نظام بينما كان ينبغي ان أعرف انه لا يوجد نظام في الكون.

- ولكن بتصوّرك انظمة خاطئة وصلت مع ذلك الى نتيجة..

- لقد قلت شيئا جميلا يا أدسو، أشكرك. ان النظام الذي يتصوّره ذهننا هو كالشبكة أو كالسلم، الذي يُصنع للوصول الى غاية. ولكن ينبغي بعد ذلك الالقاء بالسلّم، لاننا نكتشف انه حتى وان كان ذا نفع، فهو خال من كلّ معنى.
Er muoz gelîchesame die Leiter abewerfen, sô Er an ir ufgestigen ist...

أهكذا يقال؟»

- هكذا يعبّر عنه في لغتي. من قال ذلك؟

- متصوّف من بلادك، لقد كتب ذلك، لا أذكر أين. وليس حتى ضروريا ان

يجد أحداً يوما ما ذلك المخطوط. الحقائق الوحيدة الصالحة ادوات ينبغي الالقاء بها بعد استعمالها. - ليس عليك ان تلوم نفسك، لقد فعلت ما في وسعك.

- ما في وسع البشر، وهو شيء قليل. من الصعب ان يقبل الانسان فكرة انعدام وجود نظام في الكون، لانها تخطئ في حق حرية ارادة الرّب اللا متناهية. وهكذا حرية الرب هي عقابنا، أو على الأقل عقاب غرورنا.

وجازفت للمرة الاولى والاخيرة في حياتي باستنتاج خلاصة لاهوتية: ولكن كيف يمكن ان يوجد كائن واجب الوجود مكوّن كليًا من الممكن ؟ ما الفارق اذن بين الربّ والفوضى البدئية ؟ الا يعني اثبات قدرة الربّ المطلقة وحريته المطلقة ازاء اختياراته نفسها، اثبات ان الربّ غير موجود ؟

فنظر اليّ غوليالمو بوجه لا ينمّ عن ادنى تعبير وقال «كيف يمكن لعالم ان يواصل تبليغ معرفته ان اجاب بالايجاب على سؤالك؟»

ولم أفهم معنى كلماته فسألته: «تريد ان تقول انه لن تكون هناك معرفة ممكنة وممكن تبليغها ان أعوزنا معيار الحقيقة نفسه، أو انه لا يمكنك ان تبلّغ ما تعرف لان الآخرين لن يسمحوا لك بذلك؟»

في تلك اللحظة انهار جزء من سقف قاعات النوم محدثا فرقعة عظيمة ونافخا نحو السماء بسحابة من الشرارات. ومرّت بجانبنا مجموعة من النعاج والماعز، التي كانت تائهة في الساحة وهي تطلق ثغاء فظيعا. ومرّ بجانبنا جمع من الخدم وهم يصيحون وكادوا يدوسوننا. فقال غوليالمو «توجد فوضى كبيرة هنا، الرّب لا يوجد في اضطراب الروح».

ورقـة أخيرة

بقي الدير يحترق لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال ولم تجد نفعا المجهودات الاخيرة لانقاذه. منذ صبيحة اليوم السابع من إقامتنا في ذلك المكان، عندما فهم كل الذين بقوا على قيد الحياة انه لم يعد بالامكان انقاذ أي مبنى، عندما انهارت الأسوار الخارجية للبناءات الأكثر روعة، وابتلعت الكنيسة برجها في انطوائها على نفسها، عندئذ أعوزت الجميع القوة لمكافحة العقاب الالهي. وضعف حماس البحث عن السطول القليلة من الماء، بينما كانت قاعة المجلس تحترق ببطء مع اقامة رئيس الدير الرائعة. وعندما وصلت النار الى أقصى حدود المعامل كان الخدم قد انقذوا منذ وقت طويل ما أمكنهم من الامتعة وفضلوا ان يجوبوا الربوة على الأقل لاسترجاع البعض من الحيوانات التي هربت خارج الاسوار أثناء فوضى تلك الليلة.

ورأيت بعض الخدم يتوغلون داخل ما تبقى من الكنيسة. وخمنت انهم كانوا ربّما يحاولون الدخول الى قبو الكنز لنهب بعض النفائس قبل الهرب من ذلك المكان. ولا أدري ان نجحوا في مرادهم ام ان قبو الكنز انهار وجرف معه الى اعماق الارض اولئك اللئام الذين كانوا يحاولون الوصول اليه.

وفي الأثناء كان يصعد اناس من القرى لمدّ يد المعونة او لمحاولة الحصول هم ايضا على شيء من الغنيمة. وأكثر الموتى بقوا بين الانقاض التي كانت لا تزال ملتهبة. وفي اليوم الثالث بعد ان اسعف الجرحى ودفنت الجثث التي لم تكن تحت الانقاض جمع الرهبان وكل الآخرين امتعتهم وتركوا السّهل الذي كان لا يزال يتصاعد منه الدخان، كأنه مكان ملعون. ولا أدري الى اين ذهبوا.

وغادرت انا وغوليالمو ذلك المكان فوق مطيّتين وجدناهما تائهتين في الغابة،

واعتبرناهما «دون مالك». واتجهنا نحو الشرق، وعندما وصلنا من جديد الى بوبيو سمعنا اخبارا أخرى عن الامبراطور. عند وصوله الى رومة توّجه الشعب امبراطورا. وهكذا اصبحت كل مصالحة مع جيوفاني مستحيلة، فعيّن نيكولا الخامس بابا مضادا. وعيّن مارسيليو نائبا روحانيا لرومة، ولكن كانت تقع في تلك المدينة ولا أدري ان كان بسبب خطئه أو بسبب ضعفه، أشياء يؤسفني كثيرا روايتها. فقد عُذّب الكهنة المخلصون للبابا الذين كانوا يرفضون اقامة القداس، ورُميّ برئيس دير أوغوستينياني في حُفرة الأسُود بكامبيدوليو. وأدان مارسيليو وجيوفاني دا جياندونو البابا جيوفاني على انه هرطيق وحكم عليه لودفيك بالموت. ولكن الامبراطور كان يسيء الحكم، ويجلب لنفسه عداوة أسياد تلك الجهات، ويسلب الأموال من خزينة الدولة. وبينما كانت تصلنا تلك الأخبار كنا نحن نؤخر نزولنا نحو رومة، وفهمت ان غوليالمو كان لا يريد ان يكون شاهدا على احداث تخيّب آماله.

وعندما وصلنا الى بومبوزا سمعنا ان رومة ثارت على لودفيك، الذي صعد نحو بيزا. بينما كان نواب جيوفاني الرسوليون يدخلون ظافرين الى المدينة البابوية. في الأثناء تفطّن ميكيلي دا تشيزينا الى أن وجوده في افينيون كان لا يؤدي الى اية نتيجة بل بالعكس اصبح يخشى على حياته، وفرّ ملتحقا بلودفيك في بيزا. وكان الامبراطور قد فقد أثناء ذلك موالاة كاستروتشيو سيّد لوكّا، الذي مات.

وباختصار، تكهنّا بما ستكون عليه الاحداث وعرفنا ان البافاري سيذهب الى موناكو فعكسنا الاتجاه وقررنا ان نسبقه الى هناك لان غوليالمو كان يحس من جهة اخرى ان ايطاليا اصبحت غير آمنة بالنسبة اليه. في الاشهر وفي السنوات الموالية راى لودفيك تحالف الاسياد الجيبيليين يتفكك، وفي العام اللاحق أُجبر البابا المضادّ على الاستسلام، ومثل امام جيوفاني وفي رقبته حبل.

عندما وصلنا الى موناكو دي بافييرا كان عليّ ان افارق استاذي الطيّب وسالت دموعي تلك غزيرة. كان مصيره غير مأمون وفضّل أهلي ان أعود الى «مالك». منذ تلك الليلة المفجعة التي صرّح لي فيها غوليالمو امام انقاض الدير بخيبة أمله، لم نتطرق بالحديث الى تلك الأحداث، كما لو كان بيننا اتفاق ضمني، ولا حتى لمّحنا إليها أثناء وداعنا المؤلم.

وأسدى لي أستاذي نصائح كثيرة صالحة لدراستي المقبلة وأهداني العدستين اللتين صنعهما نيكولا بما انه استرجع عدستيه. وقال انني لا أزال شابا ولكنهما ستنفعاني يوما (وفعلا أنا أحملهما فوق أنفي وأنا أكتب هذه السطور) ثم ضمّني إليه بقوة، وبحنان الأب العطوف، واذن لي بالذهاب.

ولم أره بعد ذلك. علمت بعد زمن طويل انه مات أثناء الوباء الكبير الذي اجتاح أوروبا في أواسط هذا القرن. وأسأل الله دائما ان يتقبل روحه وأن يغفر له أفعال الغرور المثيرة التي ارتكبها نظرا لكبرياء فكره.

بعد سنوات، وقد اصبحت رجلا ناضجا، اتيح لي ان أقوم برحلة الى ايطاليا بتكليف من رئيس ديري. وعلى طريق العودة كانت الرغبة أقوى مني فعرجت تعريجة طويلة لزيارة ما تبقى من الدير.

وجدت القريتين في اسفل الجبل مهجورتين والاراضي من حولهما بورا. صعدت الى المرتفع فتجلّى لعينيّ اللتين بللهما الدمع مشهد خراب وموت.

لم يتبق من تلك البناءات العظيمة والرائعة التي كانت تزين ذلك المكان الا بقايا متناثرة، كمعالم الوثنيين القدامى في مدينة رومة. كانت الكفنة قد غطّت اجزاء من جدران واعمدة أو بعض سنادات قليلة بقيت سالمة. واجتاحت الحشائش الطفيلية كل أرجاء السهل، حتى أنه أصبح غير ممكن التعرّف على ما كان سابقا مكان المبقلة والحديقة. كان يمكن التعرف فقط على مكان المقبرة، لان بعض القبور لا تزال بارزة فوق الارض. وكانت علامة الحياة الوحيدة طيورا جوارح تطير عالية في السماء تصيد عظايا وثعابين كانت تختفي بين الاحجار أو تسري على الجدران. ولم يتبقّ من بوابة الكنيسة الا آثار قليلة نخرتها العفونة. وبقي النصف من لوحة الجبهة ورأيت فيه العين اليسرى للمسيح الجالس على العرش وقد وسّعتها تقلّبات الجو وأوهنها الحزاز، كما رأيت قليلا من وجه الاسد.

وما عدا السور الجنوبي الذي انهار، كان الصّرح لا يزال منتصبا يتحدّى الزمن. كان البرجان الخارجيان اللذان يشرفان على الهاوية يظهران سليمين، أو يكادان. ولكن النوافذ في كلّ مكان من الصرح كانت كالمحاجر الخاوية تسكب دموعا لزجة من نباتات معرهشة ومتعفنة، وفي الداخل اختلط العمل الفني المدمّر بعمل الطبيعة، ومن المطبخ على امتداد واسع كانت العين ترى السماء من خلال

تمزيقة الطوابق العليا والسقف التي هوت كما تهوي الملائكة. وما لم يكن اخضر من الطحلب كان أسود من دخان مضت عليه عشرات السنين.

ووجدت وأنا أفتش بين الخرائب قصاصات من الرق، سقطت من قاعة الكتابة ومن المكتبة، وبقيت كالكنز المدفون في الأرض. وأخذت في جمعها كما لو كنت اريد اعادة تركيب كتاب. وتفطنت الى انه من أحد الأبراج كان لا يزال يصعد سلّم حلزوني، كامل وان كان غير ثابت، الى قاعة الكتابة، ومن هناك يمكن الوصول الى مستوى المكتبة بتسلّق جانب من الأنقاض: ولم تكن الا رواقا يلامس الأسوار الخارجية ويشرف من كل جوانبه على الفراغ.

ووجدت على طول جانب من السور خزانة كانت لا تزال واقفة بمعجزة حذو الحائط، ولا أدري كيف نجت من النار، وقد عفّنتها الماء والحشرات. كانت لا تزال توجد بداخلها بعض الأوراق. وبعض المزق الأخرى وجدتها وأنا أبحث بين الأنقاض. كان حصادي ضئيلا، ولكني قضيت يوما كاملا وأنا أجمعه، كما لو كنت انتظر ان تصلني رسالة من تلك الاعضاء الممزقة التي بقيت من المكتبة. وكانت بعض قطع الرق قد فقدت لونها، وأخرى كانت لا تزال تظهر ظلّ صورة. وأحيانا شبح كلمة أو كلمات عديدة. ووجدت احيانا أوراقا كانت لا تزال تقرأ عليها جمل كاملة، وكنت أعثر بسهولة أكثر على تجليدات لا تزال سالمة، قد حفظتها زخرفتها المعدنية... كانت أشباح كتب، تبدو كاملة من الخارج ولكنها من الداخل اندثرت، أو نجا منها في بعض الاحيان نصف ورقة، أو كان يظهر منها مستهلها، أو عنوانها...

وجمعت كل البقايا التي امكنني ان أعثر عليها، وملأت منها جرابين ملقيا بأشياء ربّما كانت أكثر نفعا، لانقاذ ذلك الكنز الحقير.

وقضيت ساعات طويلة أثناء سفر العودة ثم في «مالك» وانا أحاول قراءة تلك الآثار. وغالبا ما تعرّفت من خلال كلمة أو صورة بقيت واضحة، على الكتاب. وعندما تسنى لي من بعد ان أعثر على نسخ اخرى لتلك الكتب قرأتها بشغف، كما لو ان القدر ترك لي تلك الوصية، او ان العثور على النسخة التالفة كان علامة واضحة من السماء تقول لي «خذ واقرأ».

وبعد ان اعدت تركيب تلك القطع بصبر بدت لي في الآخر مكتبة مصغرة،

أثرا من تلك الكبيرة المندثرة، مكتبة متكونة من فقرات واستشهادات وجمل غير كاملة وجدعات من كتب.

وكلما اعدت قراءة تلك القائمة كلما اقتنعت بانها نتيجة الصدفة ولا تحمل اية رسالة. ولكن تلك الصفحات المنقوصة صاحبتني في الحياة التي بقي لي ان أعيشها منذ ذلك الحين، وغالبا ما استشرتها كأنها وسيط وحي، ويكاد يتهيأ لي ان ما كتبته على هذه الاوراق التي ستقرأها، يا قارئي المجهول، لم يكن الا تضمينا، أو قصيدة مجازية أو تطريزا ضخما لا يقول أو لا يعيد الا ما كانت توحي به تلك القصاصات، ولم اعد ادري ان كنت تحدثت انا عنها الى حد الآن او انها تحدثت على لساني. ولكن في كلتا الحالتين، كلما قرأت على نفسي القصة التي تولّدت منها، كلما قلّ اقتناعي بان فيها حبكة تتعدى التسلسل الطبيعي للاحداث وللازمنة التي كانت تصل بينها. وانه لمن الصعب، على هذا الراهب المسن الذي يقف على عتبة الموت، ان لا يعرف ان كانت الرسالة التي كتبها تحمل معنى خفيا أو أكثر من معنى أو معاني متعدّدة، أو أنها عديمة المعنى.

ولعلّ عجزي عن الرؤية متأت من الظل الذي ترميه العتمة الكبرى الوشيكة على هذا العالم الهرم. اين أنت من مجدك يا بابل؟ أين ثلج أزمنة مضت؟ الارض ترقص رقصة «ماكبري» ويبدو لي ان الدانوب تعبره زوارق محمّلة بمجانين يذهبون نحو اماكن غامضة.

لم يبق لي الا ان أصمت «ما أجمل العزلة والصمت ومناجاة الرّب ما أحلاها واعذبها!» بعد قليل سألتحق ببدئي، وما عدت أؤمن انه رب العزّة الذي كان رؤساء اديرة نظامي يتحدثون عنه، أو انه ربّ البهجة كما كان يظنه الفرنشسكانيون في ذلك الوقت، أو حتى ربّ الرّحمة. Gott ist ein lautes Nichts, ihnr rhrt kein Nun noch Hier...(*) سأتوغل عمّا قريب في هذه الصحراء الشاسعة المنبسطة تماما واللامتناهية، حيث يستسلم القلب التقي حقيقة للطوبى. سأهوي في الظلمة الالهية، في صمت عميق وفي وصال لا يوصف، وفي ذلك السقوط سينمحي كل تساو وكل تباين، وفي تلك الهوة ستفقد روحي ذاتها، ولن تعرف

(*) الرب ليس إلا عدما لا تشوّشه ظروف الزمان ولا ظروف المكان.

التساوي ولا التباين ولا أي شيء آخر: وستنسى كل الفوارق، سأكون في الاسّ المجرد وفي الصحراء الصامتة التي لم ير فيها أبدا اختلاف وفي الجوهر الذي لا يجد فيه احد نفسه في مكانه. سأسقط في الالوهية الصامتة واللامسكونة حيث لا عمل ولا صورة.

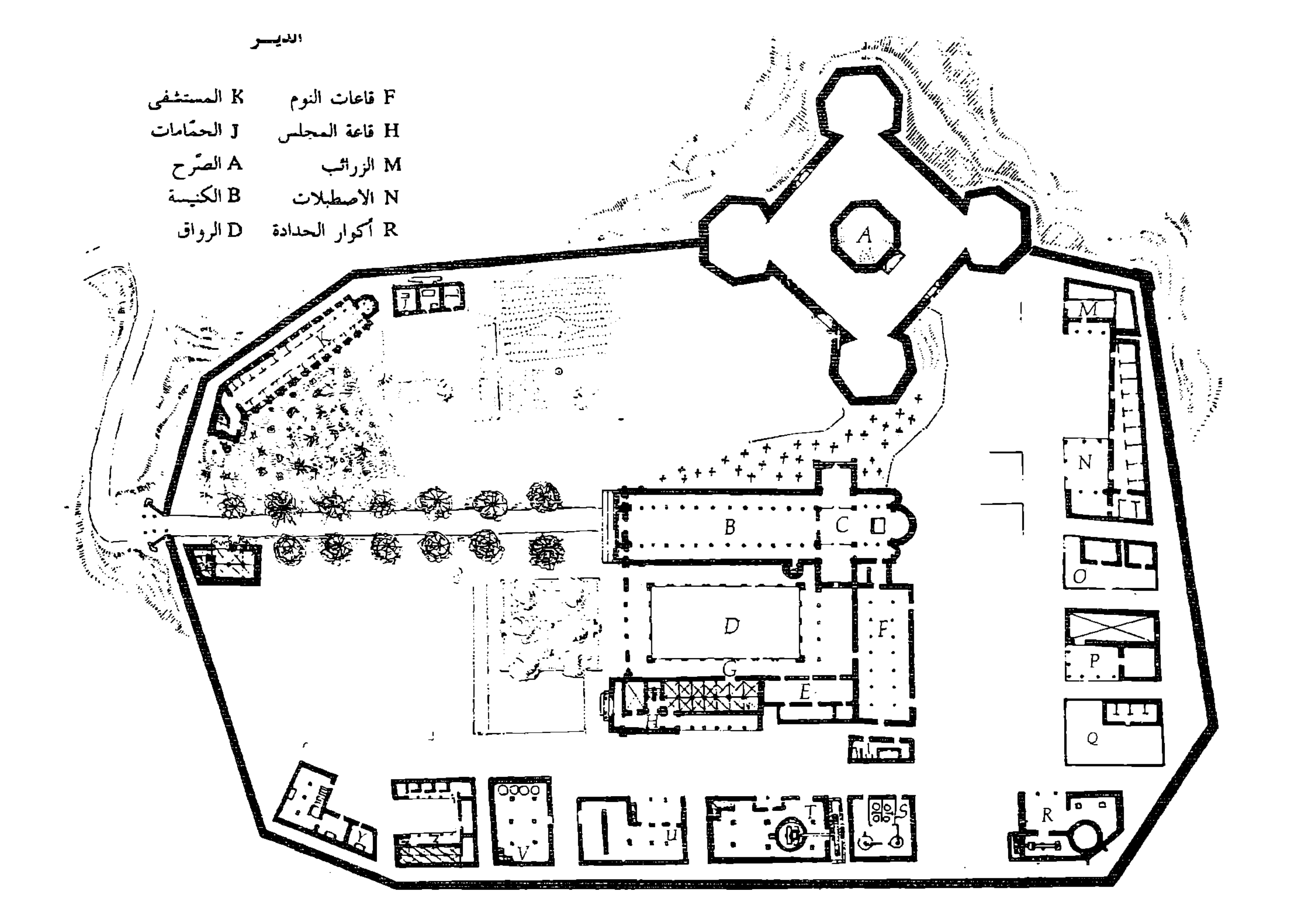
قاعة الكتابة باردة وابهامي يؤلمني. أترك هذه الكتابة، لا أدري لمن، ولم أعد ادري حول ماذا: «كانت الوردة اسما، ونحن لا نمسك إلاّ الأسماء».

فهـرس الكتاب

اليوم الثالث :

اليوم الرابع :

اليوم الخامس :


الديــر
F قاعات النوم
H قاعة المجلس
M الزرائب
N الأصطبلات
R أكوار الحدادة
K المستشفى
J الحمّامات
A الصّرح
B الكنيسة
D الرواق
A
B
C
D
E
F
G
J
K
M
N
O
P
Q
R
S
T
U
V
Y